برتولد بريخت

ترجمة : شفيق مقار

رواية

البنات الثلاثة



روايات الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٦٧ – مارس ١٩٧١ – محرم ١٣٩١

No. 267 — March 1971

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

رئيس التحرير : رجاء النقاش

بيانات ادارية

ثمن العدد : في الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم – عن الكميات المرسلة بالطائرة – في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » في الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربي والافريقي ١٠٠ قرش صاغ – في سائر انحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية · في الخارج بتحويل أو بشيك مصرفي قابل الصرف في « ج·ع·م » – والأسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب – القاهرة

تليفون : ٢٠٦١٠ عشرة « خطوط »

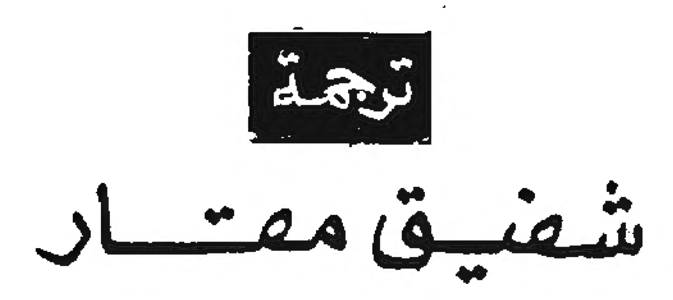
رواية

البنات الثلاثة

الجزء الأول



برتولد بريخت



دار الهلال

مقدمة

العالم فقير

وابن آدم خبيث وشرير

فى عام ١٧٢٨ ، وانجلترا تتمطى باسترخاء تحت حكم الملكة آن ، طلع على المجتمع الانجليزى المترف شاعر فقير سليط اللسان اسمه جون جاى (John Gay) ، بمسرحية غنائية أطلق عليها اسم « أوبرا الشحاذ » (The Beggar's Opera) فتن بها جمهور المسارح فى لندن لما وجده فيها من غمزات سياسية ، فأقبل عليها ، وصفق لها طويلا •

وتدور أوبرا جاى فى العالم السفلى ، عالم الجريمة ، حول وغدين وفتاة ، أو بالأحرى ، عدد من الفتيات • فقاطع الطريق المزواج « ماكهيث » يوقع البنت « بولى » فى غرامه ، ويتزوجها سرا ، بغير علم أبيها الافاق « بيتشام » • ولما كان الرجلان من « الشخصيات المرموقة » فى العالم السفلى ، ويعرف كل منهما عن الآخر ما يكفى لشنقه عدة مرات ، فان « بيتشام » يشى بزوج ابنته الى الشرطة لينتقم منه ، لكن هذا الاخير يهرب ، ثم يقع فى أيدى مطارديه نتيجة لغدر صاحبته البغى « جينى » وزميلاتها فى البيت السيىء السمعة الذى يتردد عليه • وفى السجن يجد زوجة وفية من حريمه تساعده على الهرب ، ليقبض عليه من جديد على يد امرأة أخرى من ذلك الحريم، فيحاكم ، ويؤخذ ليعدم ، لولا أن المسرحية تنتهى نهاية سعيدة ، بالعفو عنه •

وقد كتب جاى مسرحيته المرحة هذه كاسمه (فلو ترجمنا ذلك الاسم لأصبح « حنا المرح ») ، ليفثأ فيها غيظ الطبقة المطحونة التى كان ينتمى اليها من أرستقراطية كانت تدير المجتمع كما تفعل العصابات فى العالم السفلى • وكتبها أيضا ليغنى ويضحك ، ويجعل أهل لندن يضحكون ويغنون معه ، فجاءت مسرحيته خفيفة الدم حقا،

ولاذعة ، وأرست قواعد تقليد مسرحى مازال الى يومنا هـــذا يفتن الجماهير : تقليد المحاكاة التهكمية ، أو « النـأورة » على المجتمع ومن يديرونه ، بالنكتة ، والاغنية ، والتلميح ، والموقف الهزلى ، والتعرية .

ويبدو أن الغيظ الذى كان يعتمل فى نفس جون جاى لم يجـــد متنفسا كافيا فى أوبرا الشحاذين هذه ، لانه مالبث أن أتبعها بملحق لها أطلق عليه اسم «بولى» منعت الرقابة اللندنية عرضه بغير امهال .

***

وكما فتن جمهور لندن ، انسحر برتولت برخت بمسرحية جون جاى وتسلطت عليه شخوصها الظريفة الافاقة التى تفتق عنها خيال الشاعر الانجليزى ، قبل قرنين ، على ســـبيل الزراية والتهكم على الارستقراطية الانجليزية الفاسدة فى العصر المتخم الذى عاش فيه . فأخذ برخت فكرة المسرحية (تشبيه المجتمع بغابة العالم السفلى) ، واستعار شخوصها ، ليستخدمها فى تعرية المجتمع البرجــوازى الحديث الذى لم يدع — فى ظل مبدأ « البقاء للاقوى » — لغابة العالم السفلى [illegible]

وليست هذه المرة الاولى او الاخيرة التى يقرأ فيها برخت عمـــلا لغيره ، فيعجبه ، ويراه مكتوبا برؤيا جديدة تمليها اهتماماته ومواقفه فيستعيره من صاحبه ، ويعيد كتابته . فقد استعار « ادوارد الثانى » من مارلو ، وأخذ « الام » من جوركى فأعاد كتابتها كمسرحية ، كما أخذ عن سينج فى « بنادق السنيورا كارارا » . لكن تلك حكاية أخرى . المهم أن برخت — وهو صانع ماهر بحق — أحسن دائما استخدام تلك المادة المستعارة فى التعبير عن رؤيا جديدة .

وفى أوبرا الشـحاذين يبدو أن تلك الرؤيا أرقتـــه كثيرا ، لانه كتبها فى مسرحية أطلق عليها اسم « أوبرا البنسات الثلاثة » ، ثم عاد فكتبها فى رواية ، كما كتبها فى سيناريو فيلم سينمائى .

***

والفكرة الاساسية التى يعالجها برخت فى تنويعاته الثلاثة على لحن جون جاى يمكن أن نجملها فى فكرة نجدها مترددة فى كثرة من أعماله : فقر العالم ، وشر البشر ، فى مجتمع يقتات فيه القوى على فقر الضعيف . وبقدر ما يستسلم الفقراء يستأسد الاقوياء ويفترسون ، ويتناحرون فيما بينهم كالغربان على الاسلاب والغنـــائم ، لكن — بينما يشتت الفقراء فقرهم — يجمع الاغنياء الاقوياء غناهم وتلم شـملهم قوتهم ، فيجتمعون فى مأدبة واحدة ، يشربون ، ويمرحون ، ويمتلئون ، من

فقر الفقراء ، بالمال أكثر . وتهكم برخت هنا ، بكل مافيه من مرارة ونقمة ، ليس موجها الى هذه الفئة دون الاخـــرى ، لانه مغتاظ من الضحية أيضا ، بقدر ما هو مغتاظ من جلادها ، على النحـــو الذي يفصح لنا عنه مشهد المحاكمة الذي يحلم به العســـكرى فيوكومبى الاعرج ، فى خاتمة الرواية ، قبيل بيعه وتسليمه .

عندما كتب برخت « أوبرا البنسات الثلاثة » أزعجه نجاحها.. على مسارح لندن ، ونيويورك ، وباريس . مثلما أزعجه نجـــاح « الام شجاعة » ، فيما بعد ، على مسارح سويسرا . وكما أعاد كتـــابة مشاهد بأكملها من « الام شجاعة » كتب « أوبرا البنسات الثلاثة » من جديد ، ولكن على شكل رواية ، لا مسرحية .

وربما قارب الناقد « ارنست شوماخر » الحقيقة كثيرا عندما كتب يقول عن « أوبرا البنسات الثلاثة » آنها عمل « فيه مجال كبير لسوء الفهم » ، لايستطيع المرء أن يتبين فى أبطاله مايجعله متيقنا من أن برخت وضعهم على المسرح كأنماط بوزجوازية تعرى وتدين أصولها الحية ، وان برخت فى هذه الاوبرا« يلقننا بضـــع حقائق مجردة : بلسان تجريدى فصيح » ، أى ، باختصار ، أنه ليس واقعيا ، وليس واضحا لايحتمل التأويل .

وتلك من المشكلات التى عـانى منها برخت طويلا : اتهامه حينـا بالتجريدية ، وأحيانا بالشكلية ، وفى معظم الاحيـان « بالاسلبة » Stylization والغنائية .

كتب برخت الرواية (١٩٣٤) اذن ليصحح أخطاءه فى الاوبرا . لذلك نجده فى الرواية محددا وملموسا أكثر ، بعيدا عن التجريد ، وواقعيا ، بعيدا عن الغنائية ، وأشد حرصا على البعد الايديولوجى لعمله .

فالعسكرى الاعرج ، الذى يلعب فى الرواية دورا بالغ الاهمية ـ اذ يجسد الضحايا الفقراء الذين ظلوا فى الاوبرا مختفين فى الكواليس ـ يسرق الاضواء من بيتشام وماكهيث ، ويجعل صراعهمـا خلفيـــة لمأساته ، بينما كان ذلك الصراع بين الوحوش الكبيرة هو الذى ملأ المشهد المسرحى كله فى « أوبرا البنسات الثلاثة » .

وفى الوقت ذاته عدل برخت عن موقفه المثير لشبهة الترفيه فى الاوبرا ، وعوضه بدور تعليمى فى الرواية . فهو ـ بلمسة فنية رائعة بحق ـ يفصح عن عقدة الذنب لدى المثقفين فى العصر عامـة بحكاية مجلد دائرة المعارف البريطانية الممزق الذى وجده العسكرى الاعرج فيوكومبى ملقى فى مرحاض ببيت بيتشام فأخذه وأصبح أثمن شىء

في حياته • وكأنما على سبيل التكفير عن ذلك الذنب ، يضع برخت معارفه ـ التى حرم منها فيوكومبى والملايين من أمثـال فيوكومبى ـ في خدمة من حرموا منها ، فيكتب رواية ممتعة بحق عن دنيـا المال والاعمال ، يكشف فيها بالحدث والحوار ، والمونولوج الداخلى أحيانا ، عن ميكانزمات تلك الدنيا الخفية التى يحس من لا يعرفونها ، وطأتها دون أن يخطر وجودها لهم ببال • فيكشف عن كهنوت الآلهة الكبار الذين يتصرفون فى أقدار « العبيد الصغار » ، ويبيعون ويشترون لحم البشر ، وأحيانا يأكلونه ، دون أن يخلعوا قفازاتهم ؟

***

لرواية البنسات الثلاثة قيمة أخرى ، فهى ـ فوق كونها رواية برخت اليتيمة ـ نموذج حى ونادر للرواية الملحمية ، بما فيها من أساليب الابعاد التى يلجأ اليها الكاتب ، بالتدخل ، والتعليق ، والتهـكم ، والتفلسف أحيانا ، لقطع السياق ، حتى يذكر القارىء باستمرار أنه يقرأ رواية من محض الخيال ، فلا تستوعبه تلك الرواية ، وتوقعه فى اسار الوهم الروائى الذى يجعله يتوحـد بشـخوصها ويسبغ هويته على تلك الشخوص •

والواضح أن الرواية تختلف عن كل ما ألفنا قراءته من روايات • حقيقة أن فيها معمارا روائيا رائعا ، وصنعة بارعة لا تجحد واهتماما يقرب من الدقة الحسابية بالاحداث التى ينسج منها الكاتب نسـيجا محكما شديد التماسـك ، الا أن برخت ـ عملا على تبـديد الوهم الروائى ـ لا يكف عن اعلامنا سلفا بما سوف يحدث بعد ، متخليـا بذلك عن أهم سلاح فى جعبة الروائى : مفاجأة القارىء بانكشافاته •

لكن برخت لم يكتب رواية البنسات الثلاثة ليقـدم لنا رواية تقليدية متقنة الصنع ، بل كتبها ـ أساسا ـ ليصحح خطأ بدا له أنه تورط فيه عندما وقف على مشارف الترفيه والامتاع فحسب فى أوبرا البنسات الثلاثة ، وعندما غمض فى تلك الاوبرا موقفه الفكرى والاخلاقى من المشكلة الاجتماعية ـ التى أخذ العمل من جون جاى ليعـالجها فى كتابة جديدة له ـ ، الى الحد الذى جعل جماهير العواصم البورجوازية الكبرى تهلل للعمل بدلا من أن تكتشف حقيقتها فيه فتصـدم به • وكتب الرواية أيضا ، فيما يبدو لنا ، ليجرب كيف يمكن أن تكتب الرواية الملحمية • واعتقادنا أنه ـ على كلا المستويين ـ حقق ما أراد فأعطانا عملا روائيا فريدا •

شفيق مقار

حكاية العسكرى الذى لم يمت

فى حرب البوير

« واخذ عطاياهم ، لانه كان محتاجا
ثم تكلم (لانه لم يكن مجردا من روح الدعابة) :
فقال لهم : فيم تتفضلون على بمأوى ؟
ولم تعطوننى خبزا ؟
وكيف بالله سأدفع ثمن كل هذا ؟ »

(من « سقوط اللورد ايجن »
أغنية شعبية ايرلندية قديمة .)

أصيب عسكرى من المشتركين فى حرب البوير ، اسمه جورج فيوكومبى ، برصاصة فى ساقه ، مما أدى الى بتر النصف الاسفل من تلك الساق فى مستشفى بمدينة كيبتاون . وعندما عاد الى لندن ، تسلم مبلغ خمسة وسبعين جنيها استرلينيا ، وقع مقابلها على ورقة تعهد فيها بعدم مطالبة الدولة بأى شىء بعد ذلك ، ثم وظف النقود فى مشرب جعة صغير فى نيوجيت بعد ان أطلعه المالك السابق على الدفاتر (وهى كراسات صغيرة ، مبقعة بالجعة ، مكتوبة بالقلم الرصاص) فأثبتت له أن المشرب يدر ربحا لا يستهان به ، لا يقل عن جنيهين فى الاسبوع .

غير أنه سرعان ما تبين — بعد أن انتقل للاقامة فى الغرفة الخلفية الصغيرة ، وانخرط فى بيع الجعة ، أسبوعا وراء أسبوع ، بمساعدة امرأة عجوز — أن الامر لم يكن يساوى فقد ساقه ، لان الايراد — لا الربح — ظل دون الجنيهين بكثير ، رغم ما التزمه من أدب ولطف معشر ، ذلك العسكرى ، تجاه زبائنه . ثم اكتشف حقيقة الامر ، فتبين ان الايراد السابق كان مرجعه تكاثر عمال البناء فى ذلك الحى ردحا من الزمن ، وترددهم على المشرب ، فلما انتهت أعمال البناء ، تناقص الزبائن ، وحل الكساد . وقد اخذ عليه الناس ما اظهره من غفلة ، لانه لو كان قد استخدم عقله ، فيما قالوه له ، لفطن الى ان حركة البيع — فيما تبينه الدفاتر — كانت تنشط فى أيام الأسبوع ، وتكسد فى أيام العطلات ، على العكس من مألوف الحال فى مثل تلك الحانات — وهو ما يعرفه تمام المعرفة كل صاحب حان خبير بعمله . لكن العسكرى

كان له عندم فقد طيل ـ حتى شراء ذلك المشرب ـ زبونا فى تلك الاماكن ، لاصاحب عمل • ولقد استطاع رغم كل شىء أن يبقى على مشربه أمدا لم يتجاوز أربعة أشهر ولعله كان مستطيعا أن يطيل فى أجله أكثر مما فعل لو لم يضيع معظم وقته فى البحث عن المالك السابق ليسوى حسابه معه • وهكذا فانه ـ فى نهاية تلك الاشهر الاربعة ـ وجد نفسه مفلسا ، شريدا ، بغير مأوى •

وقد وجد المأوى فى كنف امرأة كانت زوجا لعسكرى آخر ما زال يحارب ، فبات يتقرب الى أولادها بما يرويه لهم من قصص الحرب ، بينما تنصرف هى الى العمل فى دكانها الصغير • لكن المرأة مالبثت أن تلقت خطابا من زوجها يخبرها فيه بقرب عودته الى الوطن فى أجازة ، فطلبت من صاحبها العسكرى ـ الذى كانت قد دأبت على النوم معه ، كما يحدث عادة فى مثل هذه البيوت الصغيرة ـ أن يسرع بمبارحة المنزل قبل أن يعود زوجها ، فظل فى ضيافتها بضعة أيام ، ثم ذهب الى حال سبيله • وبعد عودة الزوج زارها خلسة ، مرة أو مرتين ، فأعطته شيئا يأكله ، لكنه لم يفز منها بغير ذلك ، بطبيعة الحال • وقد ساءت بعد ذلك أحواله ، فتدهور من سيىء الى أسوأ ، حتى انضم فى آخر امره الى طابور المعوزين الذين يسوقهم الجوع ليل نهار فى شوارع أعظم مدينة فى العالم اجمع .

ساقته قدماه ذات صباح الى حيث توقف فوق أحد الكبارى التى تعبر نهر التيمز . لم يكن قد ذاق طعاما منذ يومين ، وكل رواد الحانات ممن استدر عطفهم ببزته الرسمية احسنوا اليه ـ لسبب أو لآخر ـ بشراب ، فلم يعطوه طعاما . ولولا تلك البزة لما اعطوه شيئا ، شرابا كان أم طعاما • وهو ماجعله يرتديها •

لكنه الآن فى ثيابه العادية الاخرى التى كان يرتديها وهو صاحب حانة . وقد لبسها الآن لانه كان ينوى أن يتسول . أن يصبح شحاذا . وقد اخجله ذلك من نفسه كثيرا . لم يخجل لكونه قد اصيب برصاصة فى ساقه . ولم يخجل عندما نصب عليه الرجل صاحب الحانة فباعه دكانة لانفع فيها وسرق نقوده ، لكنه خجل لان الحاجة ارغمته على الوقوف فى الشوارع ليشحذ ، ليطلب نقودا من اناس غرباء عنه تماما لايعرفهم . فلم يكن هناك ، فى تصوره ، من هو مدين له بشىء •

لهذا كانت الشحاذة صعبة بالنسبة اليه ، ولم يتعلمها بسهولة . فهى حرفة من لم يتعلموا شيئا ، والمصيبة أنه اكتشف أن حرفة

من لا حرفة لهم هذه تتطلب تعليما . اقترب من شخص وراء آخر فتحدث اليه ، طالبا نقودا ، ولكن بغير مسكنة ، بتعبير لا ذلة فيه على وجهه ، مراعيا ألا يقطع على الناس طريقهم ، حتى لايحس أحد أنه يضايقه . فوق أنه اختار لشحاذته جملا طويلة لم يكن يتمها الا بعد أن يكون المخاطب قد مضى وخلفه وراءه يخاطب الهواء . كما انه لم يمد يده بحركة السؤال المعهودة . وهكذا فانه بعد أن أذل نفسه للمرة الخامسة وجد نفسه ولا أحد يعيره التفاتا أو يدرك انه يشحذ .

لكن أحدا فطن اليه ، رغم فشله . فقد بوغت بصوت مبحوح يقول له من خلاف :

— غور من هنا يابنى آدم !

ولفرط احساسه بالذنب لم يلتفت وراءه لينظر الى صاحب الصوت ، فانصاع وغار ، وقد طأطأ راسه ، ولم ينظر وراءه الا بعد أن سار قرابة المائة ياردة ، فاذا باثنين من سفلة الشحاذين فى ثياب مهلهلة واقفين جنبا الى جنب ينظران فى أعقابه ، ثم لم يكد يستأنف سيره الاعرج حتى سارا وراءه ، فلم يفقدهما الا بعد أن عبر عدة شوارع . نظر فلم يجدهما فى أعقابه .

وفى اليوم التالى ، بينما هو يتسكع على مقربة من الميناء ، يباغت أناسا متفرقين من الطبقات الدنيا ، ويثير دهشتهم بمحاولته التحدث اليهم ، فاجأته ضربة فى ظهره . وفى اللحظة عينها دفع الشخص الذى هاجمه شيئا فى جيبه . وعندما استدارلم يرأحدا، لكنه اخرج من جيبه قطعة من بطاقة زيارة مثنية ، مكرمشة ، شديدة القذارة ، وقد طبع عليها اسم احدى الشركات وعنوانها : « ج.ج. بيتشام . ٧ شارع أولد أوك » . وقد كتب تحت ذلك ، بقلم كوبيا ، وحروف سائحة : « ان كنت تريد عضمك لايتكسر تعالى عند هذا العنوان » وتحت هذا الكلام وضع الكاتب سطرين على سبيل التأكيد .

أشرق ذهن فيوكومبى ببطء ، فأدرك أن الهجمات التى تعرض لها مؤخرا مرتبطة بمحاولته الشحاذة . لكنه لم يحس رغبة ملحة فى زيارة شارع « أولد أوك » .

غير أن شحاذا تقدم منه، فوجه اليه الكلام ،فى أصيل ذلك اليوم، بينما هو يتسكع خارج احدى الحانات . نظر الى محدثه فعرف فيه أحد الاثنين اللذين طارداه بالامس . كان شابا فى مقتبل العمر ، ولم يبد لصاحبنا فيوكومبى أنه شخص يخشى شره ، حتى عندما امسك بكم سترته وجذبه جانبا فقال له :

ــ يا ابن الحرام ! أرنى نمرتك !
فقد كان صوته ودودا لا عداء فيه .
ــ أى نمرة ؟
لم يتوقف الشحاذ الفتى عن مشـيته الزرية ، ويـده مستميتة على كم الآخر ، لكن بغير ضغينة . أوضح للعسكرى ، بالرطانة التى تتحدث بها طائفة الشحاذين ، ان هذه الحرفة الجديدة التى يريد ان يقتحمها ليست سائبة كما يتصـور ، فهى منظمـة كغيرها من الحرف ، بل وربما أكثر من غيرها ، وانه (اى العسكرى) لايجب أن يتصور نفسه فى ركن همجى غير متحضر من العالم ، بل يجب أن يذكر أنه فى مدينة عظيمة ، هى محور العالم كله . ولذلك فانه ؛ لكى يزاول حرفته الجديدة ، يجب أن يحمل رقما ، تصريحا من نوع ما ، يستطيع الحصول عليه ــ مقابل ثمن معلوم ــ من نقابة لها مقرها الرسمى فى شارع أولد أوك ، وهى نقابة يجب أن ينضم اليها .
انصت فيوكومبى لكل هذا دون أن يقاطع محدثه بسؤال . فلما قال الشحاذ الشاب ماعنده ، إجابه بنفس اللهجة المهذبة التى لا عداء فيها ــ وكانا اذ ذاك يقطمان شارعا مزدحما بالسابلة ــ قائلا انه يسعده كثيرا أن يعلم أن لهم نقابة تضمهم ، كما هى الحال بالنسبة للبنائين والحلاقين ، لكنه ، فيما يخصه ، يفضل ان يظل حرا ، وأن يتصرف على هواه بغير وصاية من احد . فقـد شبع من الاوامر فى حياته ، تشهد بذلك ساقه الخشبية .
فلما قال ذلك مد يده الى محدثه الذى أصغى اليه ، وعلى وجهه تعبير من يستمع الى حديث مثير للاهتمام بدرجة غير عادية من فم متحدث شديد البراعة لايستطيع السامع ، للاسف ، أن يوافقه الرأى تماما ، وفى نهاية الامر ضحك ، وضربه على ظهره كما لو كان صديقا قديما ، ثم تركه وعبر الشارع وحده ، فوقف فيوكومبى مكانه ، وقد أثارت تلك الضحكة قلقه .
وفى خلال الايام القليلة التالية ، ازداد فشلا على فشله .
بدا أنه كيما يحصل المرء على سيل لاينقطع من الحسنات ، يجب أن يظل جالسا فى مكان بعينه (وقد اكتشف أن هناك أمكنة جيدة وأمكنة رديئة) ،ولم يستطع أن يكتشف كيف يدبر الاخرون أمورهم. طرد منه لفوره . لم يستطع ان يكتشف كيف يدبر الاخرون أمورهم . كانوا يبدون جميعا ، بطريقة ما ، أتعس منه حالا ، ثيابهم مثلا ، كانت خرقا حقيقية يستطيع المرء أن يرى من خلالها عظامهم . (وقد

تعلم فيما بعد ان بذلة غير ممزقة لاثقوب فيها تعتبر فى بعض النواتق أشبه بواجهة دكان مغطاة بالورق ، لاتبدى من المعروضات شيئا . فوق أن مرآهم عموما كان أشد مدعاة للنفور والتقزز ، فعاهاتهم على الاقل ، كانت أفظع من عاهته وأقذر . والبعض منهم كان يفترش الطوار البارد بلا أى شيء تحت عجزه حتى يتأكد المارة تماما من أنه سيمرض وربما سيموت . ولم يكن لدى فيوكومبى أى اعتراض على ذلك ، بل كان يسعده كثيرا أن يفترش الطوار بتلك الطريقة ، فقط لو سمح له أحد بذلك . لكنه بدا واضحا للاسف أن ذلك الوضع المزرى المثير للشفقة ليس نهبا متاحا لاى كان . فرجال الشرطة والشحاذون تكاتفوا ، كل بطريقته ، على حرمانه منه .

وهكذا فان كل ماعادت عليه به محاولته الفاشلة كان بردا فظيعا أصابه فى صدره ، بحيث أصبح مضطرا الى التسكع فى الشوارع وجسده ملتهب بالحمى وآلام حادة تمزق صدره .

ثم التقى ذات مساء بالشحاذ الشاب ، فبدأ هذا الاخير يتعقبه لفوره . وبعد شارعين لا أكثر انضم اليه شحاذ آخر ، فانطلق صاحبنا يجرى ، والاثنان يجريان فى أعقابه .

انفلت فدخل حارة جانبية ضيقة ليروغ فيها ، ولم يعد يسمع وقع أقدامهما وراءه ، فداخلته طمأنينة ، وتصور أنه قد أفلت . لكنه بوغت بهما أمامه على ناصية أحد الشوارع ، وقبل أن يتمكن من الافلات ثانية ، أخذ كل منهما يضربه بعصاه ، بل ودفعه أحدهما ليوقعه على الرصيف ، وأخذ يجذبه من ساقه الخشبية ، حتى أوقعه على رأسه . لكنهما تركاه فى تلك اللحظة فجأة ، وانطلقا هاربين . فقد ظهر شرطى من ركن الشارع .

راود فيوكومبى أمل فى أن يخف الشرطى الى نجدته . لكن شحاذا ثالثا خرج من زقاق ضيق بين البيوت ، على طاولة صغيرة ذات عجلات ، فأحدث هياجا فى الشارع وهو يشير للشرطى على الرجلين الهاربين ويحاول أن يقول له شيئا غير مفهوم . وهكذا فان فيوكومبى عندما شده الشرطى ، الذى أثار ذلك الصخب ضيقه ، وشيعه بركلة فى مؤخرته ، وجد نفسه مطاردا من جديد ، تحت أنظار ذلك الشرطى ، والشحاذ الثالث وراءه ، دافعا طاولته ذات العجلات بكلتا يديه .

وعندما نظر الى مطارده الجديد وجده بغير ساقين ، فيما بدا له .

عند منحنى الشارع الاخر تعلق الشحاذ مقطوع الساقين بسروال فيوكومبى . كانا قد دخلا أقذر منطقة فى الاحياء الفقيرة ، والازقة

قد ضاقت حتى أوشكت حيطان البيوت ان تتلامس .
من أحد تلك الازقة كان ممر ضيق يفضى الى فناء ضخم معتم .
قال له مطارده المقعد ، آمرا ، بصوت مبحوح :
ــ هنا !
وعزز قوله بهجمة من طاولته على كاحل فيوكومبى الذى كان الجوع قد جرده من كل قواه ، فدخل الفناء الضيق ــ الذى لم يكن يزيد على ثلاث ياردات مربعة ــ راغما . وقبل أن يفيق من دهشته أو ينظر حوله ، كان الشحاذ المقعد ــ وهو رجل متقدم فى السن يميزه فك بالغ الضخامة ــ قد قفز من طاولته المتحركة كالقرد ، فاذا به ، فجأة ، صاحب ساقين سليمتين ، وانقض عليه .
كان أطول من العسكرى بكثير ، وله ذراعان كذراعى الاورانج أوتانج .
زمجر آمرا :
ــ هيا اخلع سترتك وارنا فى عراك شريف لا غش فيه ان كنت أجدر منى بالشحاذة فى منطقة طيبة مربحة كالتى كنت تتسكع فيها . والله ان غلبتنى يكون الحق معك . فشعارى هو « وسع الطريق للاصلح ، والى الجحيم بالمغلوب ! » وبهذه الطريقة يستفيد الجنس البشرى كله ، لان الاصلح يصعد الى القمة وينال كل ما فى الارض من خيرات . لكن اياك والخداع ، أو الضرب تحت الحزام ، ولا تستخدم ركبتيك . فهذا العراك ، ان كان سيحسم الامر بيننا ، يجب أن يتم طبقا لقواعد كوينسبرى !
كان العراك قصيرا . اخضع فيوكومبى جسديا وروحيا ، فسار ذليلا فى أعقاب العجوز .
ولم يرد ذكر لشارع أولد أوك .
ظل العسكرى أسبوعا تحت سطوة سيده الجديد . وضعه هذا الاخير على ناصية معينة ، بعد أن جعله يعود الى ارتداء بزته العسكرية ، وفى المساء ، عندما يسلم ايراد اليوم ، كان العجوز يطعمه .
لكن ايراده ظل شحيحا للغاية . وقد كان يدفعه بأكمله لمخدومه على أية حال ، فلم تتح له الفرصة ليعرف ان كانت البنسات القليلة التى يشحذها تفى بثمن الرنجة والجبن الرخيص اللذين كانت تتألف منهما وجبته الرئيسية كل يوم . أما العجوز ، الذى بدت عاهاته أسوأ من عاهة العسكرى بكثير ــ رغم أنها لم يكن لها وجود ــ فكانت تجارته رائجة بحق .

وبمضي الوقت ، ايقن العسكري ان سيده لم يضعه في ذلك المكان الا تحقيقا لمصلحته الخاصة ، فالمورد الرئيسي للربح كان متركزا عند موقع العجوز ، حيث يتكاثر المارة صباحا ومساء . وقد تبين أن المحسنين منهم لايحسنون الا مرة واحدة ، وانهم غالبا مايلزمون جانبا من الطريق بعينه لايغيرونه ، لكنهم يشذون أحيانا ، فيغيرون مسارهم . فهم لا يمكن الاطمئنان اليهم كلية . ولهذا وضعه العجوز في ذلك المكان حتى لايفلت منهما احد ، فمن لم يعط العجوز ، مر بالعسكري . ورغم ادراكه انه بهذه الطريقة ، يقوم بدور ثانوي للغاية ، فانه أيقن أن وضعه هذا كان خطوة الى الامام ، حتى وان لم يكن الخطوة الصحيحة .

غير أن الامور لم تستمر على هذا الحال . لانه لم يكد ينقضي أسبوع حتى بدأ العجوز يعاني من اهتمام خاص بأمره وأمر مساعده ، من جانب الجمعية السرية في شارع أولد أوك . ففي بكور احد الايام ، بينما يغادران مكان بياتهما في عوامة قديمة ، هاجمهما أربعة أو خمسة من الشحاذين فحملوهما حملا عبر عدة شوارع ، حتى بلغوا دكانا صغيرا قذرا عليه لافتة مكتوب عليها « آلات » .

وراء حاجز خشبي متآكل داخل الدكان كان رجلان ، أحدهما ضئيل ، مجفف ، له وجه كريه منفر ، واقف في صداره وقميصه ، بغير سترة ، وقبعة عتيقة مزيتة قد انزلقت على مؤخرة رأسه ، واضعا يديه في جيبي سرواله ، متشاغلا بالنظر من واجهة الدكان ، يتأمل الصباح الكئيب خارجا ، دون أن يستدير أو يظهر أدنى اهتمام بالوافدين الجدد . أما الاخر ، فكان سمينا ، ذا وجه أحمر شديد الحمرة ، كريها هو الاخر ، وأشد اثارة للنفور – ان كان ذلك ممكنا – من صاحبه القميء .

قال البدين أحمر الوجه للعجوز ، بنبرة بدا أن المقصود منها الزراية لا الترحاب :

– أهلا أهلا مستر سميثي . أسعدت صباحا .

ثم دلف من باب مغطى بألواح حديدية الى الغرفة الداخلية .

نظر العجوز حوله ، بارتباك واضح ، قبل أن يسير في أعقاب الرجال الذين أحضروهما ، وقد أصبح لون وجهه رماديا .

أما فيوكومبي ، الذي بدا أن الكل نسوه ، فقد ظل واقفا في الدكان . على الحيطان كانت بضع آلات موسيقية معلقة ، عتيقة ومحطمة . بدا أن أعمال الدكان لم تكن رائجة ، فتلك البضائع القليلة

على حيطانه كانت مكسوة بطبقة سميكة من التراب .
وقد تبين فيوكومبى ، عندما تفتحت عيناه فيما بعد ، أن تلك الانتيكات القليلة المتربة لم يكن لها دور - الا التمويه - فى نشاط الشركة التى كان قد التحق لتوه ، دون علم منه ، بخدمتها . والواقع ان المكان كله كان يتصف بقدر يحسد عليه أصحابه من التمويه ، فحتى واجهة البيت الضيقة ذات النافذتين كانت تعطى فكرة منقوصة للغاية عما وراءها من أعماق داخلية شاسعة ، وحتى الحاجز الخشبى المتآكل ، بآلة عد النقود العتيقة المخلخلة الموضوعة عليه ، لم يكن يكشف شيئا .
ففي البيت ، الذى كان فى حقيقة أمره ثلاثة بيوت مفتوحة على بعضها البعض ، تضم فيما بينها فناءين ، كانت ورشة تعمل فيها زهاء نصف دستة من الفتيات يشتغلن بالحياكة ، ومنشأة لصناعة الأحذية تضم عددا مماثلا من الصناع المتخصصين فى حرفتهم . لكن الاهم من ذلك كله أن المبنى كان يضم فى أحشائه الداخلية قسما كاملا للسجلات يحتوى على مالايقل عن ستة آلاف اسم من أسماء من اسعدهم الحظ بشرف العمل فى خدمة الشركة .
لم تكن لدى العسكرى ، وهو واقف فى ذلك الدكان ، ادنى فكرة عن الطريقة التى تعمل بها هذه المنشأة المشبوهة الفريدة فى نوعها . وقد استغرقه الوقوف على ذلك أسبوعا بأكمله . لكنه - قبل أن يأتى اليهم - كان قد بلغ مرحلة من الياس والعوز جعلته يدرك أن من حسن الطالع حقا أن تتاح له فرصة المجىء الى ذلك المكان والانضمام الى مثل تلك المنظمة السرية بالغة القوة .
لم يظهر مستر سميثى ، مخدوم فيوكومبى الاول ، ثانية ذلك الصباح ، ولم يره فيوكومبى بعد ذلك الا مرتين أو ثلاثا على أكثر تقدير ، من مبعدة .
بعد فترة ليست قصيرة وارب الرجل السمين الباب الحديدى واطل براسه قائلا :
- ساقه الخشبية حقيقية .
وهنا استدار الرجل القمىء الذى بدا واضحا انه - رغم ضآلته - رئيس كل أولئك الناس ، فذهب الى فيوكومبى ، وبحركة سريعة شمر ساق سرواله ليتيقن من عاهته وساقه الخشبية ، فلما تم له ذلك ، وضع يديه فى جيبى سرواله من جديد ، وعاد الى النافذة فوقف اليها ينظر خارجا ، وقال بصوت خافت :

ـ ماذا تستطيع أن تفعل ؟
فأجابه العسكرى بصوت يماثل صوته خفوتا :
ـ لاشيء . أشحذ فقط .
قال الرجل القميء بازدراء ، دون أن يعنى بالالتفات الى محدثه :
ـ ومنذا الذى لايريد ان يشحذ ؟ رجلك مقطـــوعة ، هه ؟ لك ساق خشبية . ولمجرد أن لك ساقا صناعية تريد أن تشحذ ؟ لكنك فقدت تلك الساق فى خدمة وطنك ، هذا أسوأ . هذا يمكن أن يحدث لاى امرىء كان (الا اذا كان يعمل فى وزارة الحرب) . وعندما يفقد شخص ما ساقه يصبح كل اعتماده على رحمة الاخرين ؟ طبعا يصبح كل أعتماده على رحمتهم ، أولاد الحرام ! ولـــكن من منهم يحب أن يبعثر نقوده على الغير ؟ الحروب ـ انها حالات استثنائية ياصاح . الزلازل مثلا ، لا يكون لأحد حيلة فيها . أما فى الحرب ، فالكل يعرف مقدار الربح الذى يعود على البعض من وطنية البعض الاخر . فى بداية الامر يتسلقون فوق بعضهم بعضا ليتطوعوا فى سبيل التاج. لكنهم عندما يطيح أحد بأرجلهم لايروق لهم ذلك . وهناك شيء آخر ، الشيء الاساسى : لماذا تكون حكاية الذهاب الى الحرب فى سبيل التاج والوطن مربحة ، ولم تنهال آيات التكريم والمجد والخلود على أولئك الرجال الشجعان ؟ ـ لمجرد أنهم يتعرضون لخطر فقـــدان ذراع أو ساق ؟ وفى الحقيقة ، لو لم يكن ذلك الخطر الصغير ـ أو الكبير حتى نجاريك ـ لما بات هناك مبرر لكل ذلك العرفان بالجميل من جانب الامة . اسمع ، انت فى حقيقة الامر متظاهر ضد الحرب . كلا . لا جدوى من انكار ذلك . فأنت عندما تقف فى الطرقات ، دون أن تبذل أدنى جهد لاخفاء عاهتك ، فانك فى واقع الامر تقول لكل من يراك ، بغير كلام ، انظر فظاعة الحرب ! انها تطيح بأرجل الناس ! يجب أن تخجل من نفسك . ان الحروب ضرورية بقدر ماهى مخيفة . أتريدنا أن نفقد كل شيء ؟ أتريد أن ترى بريطانيا العظمى يملؤها الاجانب ؟ أتحب أن تعيش وسط أعداء يحتلون بلادك . يارجل ، لاينبغى لك أبدا أن تتربح من وراء بلواك بهذه الطريقة أبدا. ليست لديك الموهبة اللازمة لذلك ..

عندما أتم كلامه ، ذهب دون أن ينظر الى العسكرى ، فدلف من الباب الحديدى الى الغرفة الداخلية التى بها مكتبه . لكن الرجل السمين جاء فأخذ فيوكومبى ، بسبب ساقه ، فيما قال له ، فعبر به فناء خلفيا الى فناء آخر ، حيث عينه مشرفا على مجموعة من الكلاب.

ونتيجة لهذا الاجراء ، أخذ العسكرى يدور فى ذلك الفناء كل صباح ومساء ، ليتريض ، ولكى يشرف ، فى الوقت ذاته ، على كلاب العميان ، التى كانت الشركة تقتنى عددا لايستهان به منها . ولم تكن تلك الكلاب قد أختيرت على أساس براعتها فى قيادة العميان (الذين كان يوجد عدد منهم فى خدمة الشركة فعلا ، لم يتجاوز خمسة) بل لاسباب أخرى تماما ، منها القدرة على اثارة الشفقة فى نفوس المارة ، بأن يبدو الكلب منها زريا للغاية . وقد كانت كلها زرية بالفعل .

ولو سئل فيوكومبى عن حقيقة حرفته ، لوجد صعوبة فى الرد ، بصرف النظر عن خوفه من التورط فى متاعب مع الشرطة . فلم يكن مستطيعا أن يدعو نفسه شحاذا . كان فى حقيقة أمره مستخدما ، فى منشأة تبيع اللوازم التى يحتاجها من يحترفون الشحاذة فى الطرقات

لم يبذل أحد أدنى جهد لتثقيفه وتحسين مستواه بما يجعل منه شحاذا على مستوى مقبول من الكفاءة . فخبراء الشركة ألقوا عليه نظرة واحدة وقرروا أنه لن ينجح فى تلك الحرفة أبدا . لكنه ، مع ذلك ، كان مجدود الطالع . لم تكن لديه حقا المواهب اللازمة للنجاح فى الشحاذة ، لكنه كان حائزا لشىء لايستطيع الكل ان يباهوا به : رجل خشبية حقيقية . ولقد كان ذلك المؤهل كافيا للحصول على عمل .

كان يستدعى بين الحين والحين الى الدكان ليرى شرطيا من نقطة البوليس القريبة ساقه الخشبية . ولو ان الامر ، فى الحقيقة ، لم يكن يستدعى أن تكون تلك الساق خشبية بحق . فلم يكن الشرطى يلقى عليها الا نظرة عابرة لاتكشف شيئا . فوق أن بولى بيتشام ، ابنة صاحب الشركة ، كانت تتواجد فى الدكان ، بطريقة ما ، فى معظم تلك الزيارات التفتيشية . وقد كانت الفتاة بارعة بحق فى تدبير الامور مع الشرطى .

غير ان تلك الزيارات كانت نادرة . ولذا فان العسكرى قضى معظم الاشهر الستة الاخيرة التى كانت قد تبقت له من حياته ، بين الكلاب . وقد انتهت حياته الهزيلة ، بعد تلك الشهور ، نهاية غير عادية ، بحبل التف حول عنقه ، بين تهليل وتكبير حشد عظيم من الناس .

أما السيد القمىء الذى رآه فيوكومبى واقفا يتأمل العالم من واجهة الدكان يوم أن دخل ذلك البيت المثير للاهتمام لاول مرة ، فكان مستر جوناثان ارميا بيتشام .

قصة غرام بولى بيتشام وزواجها

عندما كنت مجرد فتاة بسيطة صغيرة ـ
لانى كنت ذات يوم بسيطة مثلكم ـ
قلت لنفسى : لعلنى فى يوم من الايام سوف يأتينى احد
واذ ذاك سيتعين على أن أعرف مايجب أن أفعله .
فان كان رجلا لديه مال
وكان شخصا لطيفا مهذبا
وكانت الياقة التى يرتديها فى عمله ياقة بيضاء ناصعة كالثلج
وكان يعرف كيف يجب ان تعامل السيدات
اذذاك سأقول له « لا »
لان المرء مع رجل كهذا يجب أن يتحدث عن الجو
ويخفى مشاعره فلا يظهر مايعتمل فى نفسه .
سيضىء القمر طول الليل ، كعهده سابقا ،
وبغير شك سيكون القارب مربوطا الى الشاطىء .
لكن الامر لن يذهب الى أبعد من ذلك .
والله البنت لاتستطيع أن تجعل نفسها رخيصة !
والله البنت يجب أن تحكم وثاق رجلها ، وتسحبه جيدا وراءها .
والا حدثت أشياء لاتخطر لاحد على بال !
آه ، والله الجواب الوحيد : « لا ! »

أول واحد جاء ، كان رجلا من « كنت »
وفيه كل صفات الرجل الذى تتمناه الفتاة
والثانى كان يملك ثلاث بواخر فى الميناء
والثالث كان مجنونا بى .
ولما كانوا ثلاثتهم مثقلين بالنقود
وكانوا ثلاثتهم أولادا مهذبين
والياقات التى يرتدونها فى عملهم بيضاء ناصعة كالثلج ،
وفوق ذلك يعرفون كيف يجب أن تعامل السيدات ،
فقد كان ردى على ثلاثتهم بلا .

وهكذا تحدثت عن الجو ،
ولم أدع شيئا من مشاعرى يبين .
وقد ظل القمر مضيئا طول الليل ، كسابق عهده ،
وبلا أدنى شك كان القارب مربوطا الى الشاطىء ،
لكن الامر لم يذهب الى أبعد من ذلك خطوة .
فوالله البنت لاتستطيع أن تجعل نفسها رخيصة .
ووالله البنت يجب ان تحكم وثاق رجالها ، فتسحبهم وراءها جيدا ،
والا حدثت لها أشياء لا تخطر لأحد على بال .
آه ، كان الجواب الوحيد : « لا ! »

لكن رجلا جاء ذات صباح ، وكانت يومها السماء زرقاء ،
فلم يتنهد أو يطلق الزفرات ،
بل علق قبعته ببساطة على المشجب فى مخدعى
فتركته يفعل ، دون أن أدرى لم .
ولما كان رجلا بغير مال
ولم يكن لطيفا أو رقيق الحاشية
وحتى ياقته التى يتأنق بها فى يوم الاحد لم تكن فى بياض الثلج
ولم تكن لديه ادنى فكرة عن كيفية معاملة السيدات
فانى لم أستطع أن أقول له لا .
اذذاك لم أتحدث عن الجو ،
وتركت العنان لمشاعرى ، تبين وتفصح على هواها ،
ووالله اضاء القمر طوال الليل ، كسابق عهده ،
لكن القارب انفك رباطه ، وابحر من الشاطىء ،
وكان من المتعين أن يكون الامر هكذا !
فوالله البنت أحيانا يجب أن تجعل نفسها رخيصة !
وأحيانا لا تستطيع أن تحكم وثاق رجلها أو تسحبه وراءها !
لكن أى شىء يمكن أن يحدث آنذاك ،
ولا يعود هناك وجود لكلمة اسمها « لا » .
(اغنية بولى بيتشام)

(١)

صديق الشحاذ

عملا على مقاومة البخل المتزايد من جانب الجنس البشرى ، افتتح مستر بيتشام دكانا يستطيع أحقر الشحاذين شأنا أن يستأجر منه أدوات ومعدات مضمونة ، يلين بفعلها أشد القلوب قسوة .

بدأ مستر بيتشام حياته العملية بائعا للآلات الموسيقية المستعملة ، ومؤجرا لها . كان زبائنه من الشحاذين والمغنين الجوالين . لكن تلك التجارة لم تكن مربحة ، فاشتغل مستر بيتشام بعمل اضافى عملا على زيادة دخله . ولما كان ذلك العمل بالابراشية (١) ، فقد أتيحت له الفرصة لدراسة أحوال الفقراء عن كثب . وكانت حكاية استخدام الآلاته الموسيقية كمعاونات فى عملية الشحاذة ، أول ما شحذ فكره وحفز خياله .

فالكل يعرف أن أولئك الشحاذين يستخدمون الآلات الموسيقية ليستدروا شفقة الناس ، وهى عملية ليست سهلة بالمرة ، لانه كلما ازداد ثراء المرء ، كلما قل استعداده للتعاطف مع من هم أفقر منه . دع عنك من لا يملكون شروى نقير ، رغم أن ذلك الشخص عينه يكون على استعداد دائما لأن يدفع ثمنا باهظا فى مقعد باحدى الحفلات الموسيقية ، باعتبار أن ذلك سيتيح له الحصول على قدر لا يستهان به من الغذاء الروحى . لكن من هم أقل من ذلك المستوى ثراء وسعة عيش ، ممن لا يكون البون قد صار شاسعا بينهم وبين الفقر ، يكونون عادة على استعداد لبذل بضعة دريهمات من مالهم بغير كبير صعوبة ، فيدعون قلوبهم — التى تغلظ وتتحجر بسبب ذلك الصراع المشهور من أجل البقاء — تلين ، أحيانا ، بفعل هذه النغمة أو تلك التى يعزفها لهم شحاذ مسكين .

ومع ذلك فان السيد جوناثان ارميا بيتشام تبين — مرة تلو مرة — ان زبائنه من الشحاذين ممن يستأجرون الآلات الموسيقية ليزاولوا

---

(١) (Parish) تقسيم ادارى داخلى فى كنيسة انجلترا ، لكنه من الناحية المدنية اشبه بالجهات الحكومية المختصة عندنا بتنظيم الصدقات ، وتقديم المعونات للاسر المحتاجة ، ورعاية الفقراء

عملية تليين القلوب بها ، يتأخرون دائما فيسداد اقساط الايجار • نعم هناك بضعة أشياء يمكن ، كما قلنا ، أن تستدر شفقة الناس في هذه الأيام ، لكن المشكلة أن تلك الاشياء لا تكاد تستخدم بضع مرات حتى تفقد فعاليتها ، لان الانسان لديه تلك المقدرة المخيفة على أن يجعل نفسه بليد الحس جامد القلب متى أراد ، خاصة متى اكتشف الكوارث التي يمكن أن تحيق به كلما استسلم لعواطفه الخيرة • وهكذا فانه يحدث أن المرء عندما يرى رجلا بلا ذراع لأول مرة ، تجعله الصدمة يمنح ذلك الرجل بنسين، لكنه في المرة الثانية لايعطيه الا نصف بنس ، فاذا رآه للمرة الثالثة ، فانه في أغلب الظن ، يسلمه الى البوليس بغير تردد •

بدأ بيتشام بداية متواضعة محدودة للغاية •

ظل ، لبعض الوقت . مكتفيا بتقديم الاستشارات لعدد محدود من الشحاذين ذوى الأذرع الواحدة ، أو العميان ، أو الطاعنين في السن . ثم تكفل بايجاد أماكن لهم ، في مناطق يتصدق فيها الناس • فالناس لا يحسنون في كل وقت وأى مكان • وهكذا فان الشحاذ البارع يستطيع بدلا من أن يضيع وقته في التسول بالموسيقى في شهر يونيو •• أن يزيد دخله زيادة محسوسة بالمرور في الحدائق العامة ليلا لازعاج العشاق ، لان الناس يكونون أكثر استعدادا للبذل في تلك الظروف •

ورويدا رويدا تحسنت أحوال بيتشام . اكتشف الشحاذون الذين تعاملوا معه أن ايراداتهم قد ارتفعت . وهكذا فانهم وافقوا على أن يعطوه ، مقابل جهوده ، جزءا من النقود التي يكسبونها •

اذ ذاك تيقن بيتشام من أنه اكتشف العمل الذى يصلح له في الحياة ، فبدأ يعمق بحوثه ويوسع مداها . وسرعان ما اكتشف ان الهيئة الزرية التي تنم عن فاقة حقيقية وعوز لا زيف فيه تكون أقل فعالية بكثير من البؤس المصطنع . ففى أحيان كثيرة كان أناس من المقطوعة أذرعهم بحق يفشلون في العمل ، لانهم ليست لديهم ملكة التأثير في نفوس الآخرين بما يعطونه من انطباع بالبؤس . لكن الموهوبين حقا ، قد يفتقرون الى تلك العاهات الثمينة . وفى ذلك كان مجال عظيم للمبادأة اكتشفه بيتشام .

بدا الرجل يعد بضع أطراف صناعية مزيفة : أذرع وسيقان تصدم الناظر بما فيها من قبح وما تنطق به من تشويه وحشى • فلاقت تلك العاهات المصنوعة نجاحا منقطع النظير .

ولم ينقض وقت طويل الا وقد بات فى مكنة الرجل أن يقيم ورشة لصناعة العاهات . ولم يقتصر الامر على ذلك ، بل تعداه الى سيكولوجية الاستخدام الأمثل لتلك العاهات . فقد اكتشف بيتشام مثلا أن بعض أصحاب الحوانيت ، خاصة أصحاب المطاعم ومحلات التجميل ، بل والجزارين أيضا ، يكونون على استعداد دائما للتصدق بسرعة على أى شحاذ يلصق أمام محالهم مستعرضا عاهاته المقززة ، على سبيل الرشوة ، حتى ينتقل الى مكان آخر . ولم يكن ذلك الاكتشاف الا بداية متواضعة . فقد اكتشف بيتشام فى أعقابه أن أصحاب تلك المحلات على استعداد لأن يدفعوا مبالغ أكبر لشحاذيه حينما يذهبون فيلصقون امام المحلات المنافسة . وهكذا وجد نشاط الشحاذة موضعه فى هيكل المنافسة الذى يدور بداخله صراع طاحن من أجل البقاء .

وعندما بدأت غرفة السجلات تكبر ، بدأ بيتشام « صديق الشحاذ » كما كان يدعو نفسه ، فى ادخال نظام الاحتكار ، بتخصيص مناطق معينة لشحاذين بعينهم ، مع تهيئة الحماية الكاملة لهم ، لطرد الدخلاء ، ولو بالقوة ، كما كان يحدث أحيانا . وقد كان لهذه التجربة الاخيرة فضل عظيم على منشأة بيتشام ، اذ أنه ابتداء من تطبيقها ، بدأت المنشأة ترسخ وتسير قدما على طريق النجاح .

لكن صاحبنا لم يكن ممن يرضون بقليلهم ، فلم يكتف بما حققه من انتصارات ، بل أخذ يعمل بلا هوادة ليزود رجاله بما يمكنهم من مزاولة خدمتهم بأعلى درجة من الكفاية . وهكذا افتتحت فصول – تزايد عددها باستمرار – فى مقر الشركة ، الذى اتسع كثيرا ، لتعليم الشحاذين ، الذين تحولوا ، بصورة متزايدة ، الى مستخدمين فنون التظاهر بالاصابة بالشلل الرعاش ، والسير كما يسير العميان ، الى آخر تلك الأشياء . فلم يكن مستر بيتشام من المؤمنين بالجمود فى دنيا الاعمال .

وهكذا فانه تم التوصل فى معامله وفصوله الى تحقيق الكمال لانماط اساسية بعينها من الشقاء الانسانى ، كضحايا التقدم ، وضحايا الحرب ، وضحايا الرخاء الصناعى . علمهم جميعا كيف يذيبون القلوب الجامدة، كيف يلفتون الانظار، وكيف يلصقون كالعلقة حتى تزهق أرواح الناس فيحسنون اليهم .

وقد كان من الطبيعى ، بعد خمسة وعشرين عاما من النشاط الذى لايهدأ ، أن يصبح بيتشام مالكا لثلاثة بيوت ، ومنشأة مزدهرة .

نوار الخوخ

كانت البيوت التي يدير فيها مستر جوناثان أرميا بيتشام ورشته العجيبة تضم غرفا عديدة . بين تلك الغرف ، كانت غرفة مطلية باللون الوردى ، تخص الآنسة بولى بيتشام . كانت حجرتان من الحجرات الاربع الصغيرة التي يتألف منها مسكن السيد بيتشام الخاص تطلان على الشارع ، بينما تطل الغرفتان الاخريان على الفناء. لكن هاتين الحجرتين الاخيرتين كانتا تفضيان الى شرفة خشبية ، وهكذا فان نوافذهما كان من الضرورى أن تغطى بستائر من التيل لتقطع الطريق على نظرات الفضوليين ، فوق أن تلك النوافذ لم تكن تفتح الا فى الليالى التي يشتد فيها الحر حتى يخفف الهواء من جو الغرفة الخانق . كانت غرفة بولى فى الطابق الثانى ، وفوقها السطح مباشرة .

وقد اشتهرت الآنسة بيتشام فى الجيرة بأكملها باسم « الخوخة » ، نظرا لجمال بشرتها الذى لا يوصف .

عندما أتمت عامها الرابع عشر ، أعطيت غرفة خاصة بها ، فى الطابق الثانى . وقد قال بعض ذوى الألسنة الطويلة أنها حصلت على تلك الغرفة لكيلا تظل فى صحبة أمها طيلة الوقت ، بالنظر الى أن السيدة بيتشام لم تكن تستطيع التحكم فى ضعفها ازاء المشروبات الكحولية ، وقد بدأ الجميع ، ابتداء من تلك السن ايضا ، ينادونها بلقب آنسة ، كما سمح لها بالتردد على الدكان أحيانا ، خاصة عند مجىء الشرطى ميتشجين فى احدى زياراته التفتيشية . ولعلها كانت — فى مبدأ الامر — أصغر من ذلك كله ، لكنها ، كما قلنا ، كانت فتاة باهرة الجمال .

أما الحجرات الاخرى ، حيث ورشة الحياكة ، وورشة المصنوعات الجلدية ، فنادرا ما كانت تتردد عليها ، لان السيد بيتشام لم يكن يحبذ تواجدها فى ورشه هذه . ومع ذلك كانت بولى تعلم بكل مايجرى فى تلك الحجرات . لكن شيئا من ذلك كله لم يثر اهتماما فى نفسها .

ازدهر محل الآلات ازدهارا عظيما ، حتى قال الجميع أنه لولا بولى الحسناء لكان الشرطى ميتشجين قد اهتم اهتماما أكبر بالوقوف على حقيقة ما يجرى فى ذلك الدكان ووراء جدرانه من انشـــــطة مستر بيتشام . فالعـدد الهـائل من الناس المترددين على ذلك الدكان ، داخلين خارجين ، صباح مساء ، لم يكن يتناسب البتة وتلك الآلات القليلة المحطمة على حيطان دكان بيتشام .

ولم يقتصر نجاح بيتشام على رواج أحوال دكانه ، بل امتد ، بنفس القدر ، الى نشـاطه فى الابراشية . والواقع أنهـا لم تظل ابراشية واحدة ، بل أصبحت ثلاث ابراشيات أشرف الرجـل على الصدقات ومعونات الفقراء فيها . رغم أن الفقراء لم يظهروا ميلا خاصة للجوء اليه . فقد اكتشفوا فيما يبدو ، أنهم أفقر من أن يتمكنوا من الحصول على خدمات مستر بيتشام. فوق أن طبيعة هذا الاخير ، كرجل أعمال. أثرت على نظـرته الى الامور . فهؤلاء الفقـراء ، لماذا يجيئـون الى ابراشياته ؟ ليشحذوا منها . لكن الشحاذة ليست نهبا مباحا لاى كان ، فهى نشاط اقتصادى يندرج تحت اهتمامات مستر بيتشام المتعلقة بأعمال منشأته الخـاصة . ولذلك فانه أظهر دائمـا منتهى النفور من أى تعاون مع الفقراء فى عمليات شحاذة عامة كهذه لا تجرى تحت اشرافه كصاحب منشأة متخصصة تتعامل فى ذلك النشاط عينه ، طبقا للقواعد التى يدير بها أعماله .

لم يكن من الغريب اذن أن تكلف الخوخة نفسها مشقة التلطف مع ذلك الشرطى السمين ميتشجين . فتلك الالاعيب الأبوية جميعهـا كانت ، فى نهاية الامر ، من أجلها وحدها . وما أكثر المرات التى سمعت أباها يقول فيها :

ـ والله لولا البنت لما احتملت عيشة الكلاب هذه يوما آخر . يعلم الله انى لم أكن أطيق ذلك من أجل سواد عينيك يا ايما . على الاقل لكيلا تدفعين نفسك الى غياهب القبر بهذه الخمر التى تشربينها ليل نهار .

ايما هذه كانت زوج مستر بيتشام . وكان من دأبهـا أن تقـول لزوجها كلما عبر عن استهجانه لرذائلها الصغيرة :

ـ وهل الذنب فى هذا السكر ذنبى ؟ لو كنت وجـدت راحـة فى حياتى الزوجية كنت سأسكر ؟ ثم انى أستطيع الامتناع عن الشرب وقتما شئت . منذ الآن . فأنا لا أدع شيئا يتسلط على !

الاولاد يسمعون أحاديث عديدة من هذا النوع، فتحدث فى نفوسهم

تأثيرا عميقا .

ولقد يظن المرء ، بسبب التساهلات (الصغيرة كما قلنا) التى كانت الآنسة بولى بيتشام تبديها تجاه ميتشجين وآخرين ، انهـا ربيت لتكون من ذلك النوع من الفتيـات . لـكن الأمر على العكس تماما . فهى لا تكاد تذكر مرة واحدة استحمت فيها ، داخل البرميل الخشبى الموضوع فى الحمام (حيث الستائر مسدلة أبدا) دون أن يسترها قميص خفيف يخفى جسـدها حتى عن عينيها . فلم يكن مستر بيتشام ميالا لان يدعها ترى جمال بشرتها .

وبنفس القدر من الحرص ، لم يخطر لمستر بيتشام ببال أن يدعها تخرج من البيت وحدها ، ولو لخمس دقائق لا أكثر . كانت تذهب الى المدرسة طبعا ككل أولاد الناس الآخرين ، لكن سام كان يذهب دائما فيحضرها .

ولقد بلغ من حرص الرجل على طهارة ابنته أن غضب غضبة مضرية عندما ضبطها ذات يوم وقد ألصقت على حائط غرفتها صورة ممثل مشهور أخذتها من احدى الصحف ، فذهب الى مسز بيتشام محنقا وقال لها ، وكأنه يحملها وزر ذلك كله :

ــ ابنتك هذه ! انها شعلة من الشهوات الدنيئة . ستفسد اذا لم نحكمها جيدا .

لكن فكرة مسز بيتشام عن الشهوات الدنيئة كانت مختلفة عن تصورات زوجها تمام الاختلاف ، فوق أن ذكرياتها بذلك الشـأن كانت مريرة للغاية . ولذا فانها لم تلق الى برطمة زوجها بالا ، وعندما تخطت ابنتها عامها الثـامن عشر ، بدأت تصحبها معها فى نزهتهـا الأسبوعية ، بعد ظهر أيام الآحاد ، الى حانة « الاخطبوط » ، وهى حانة من « النوع المحترم » ، تباهى غيرها من الحانات بحديقة خلفية صغيرة فيها ثلاث شجرات كستناء عجفاء ، يستأجر صاحبها جوقة نحاسية تعزف فيها ، فى امسيات أيام الآحاد ، فيكون هناك رقص ، من النوع المتحفظ ، بطبيعة الحال ، بينما تجلس الامهات بجوار سياج الحديقة يشتغلن التريكو .

لم يكن من المعقول أن تتردد فتاة فى جمال بولى على مكان كهذا طويلا دون أن يلحظها أحد . فسرعان ما كثر خطابها . من الخطاب اثنان بدا أنهما جديران بالنظر ، أولهما يدعى مستر بيكيت . والآخر ــ وهو الطف معشرا ــ اسمه مستر سمايلز . غير أن مستر بيكيت الذى ظهر أولا فلم يثر كبير اهتمام ، ازدادت فرص نجاحه بمجرد

ظهور مستر سمايلز ، وربما بسببه .

ولذلك قصة . فمستر بيكيت رجل قصير ، ربعة ، غليظ المراوح، له رأس يشبه راس فجلة ، يتحفلط في لباسه ، ويحمل عصا مهولة يلفت حجمها النظر ، لا يكاد يتركها من يده ، ولون بشرته لا ينم عن صحة . الحقيقة انه لم يكن هناك اى وجه للمقارنة بين مستر بيكيت ومستر سمايلز الذى كان يصغره سـنا بكثير ، ويتفجر صحة ، ووسامة ، وشبابا ، حتى يخيل لمن يراه انه من اولئك الشبان المنعمين الذين يتسابقون بالقوارب على مياه نهر التيمز . لكن السيد بيكيت رجل أعمال ، بينما الولد سمايلز مجرد كاتب عند أحد المحامين . ولذلك اطمأنت مسز بيتشام الى بيكيت أكثر مما اطمأنت الى منافسه قليل الوزن . فالشبان من أمثال سمايلز تعرفهم هى . لا احساس لديهم بالمسئولية ، يعيشون ، فى معظم الامر ، ليومهم بلا أدنى تفكير فى الغد ، وهمهم الاول والاخير الجرى وراء ملذاتهم العابرة . لذلك لم يخطر للسيدة بيتشام ببال أن تتحدث الى سمايلز، فتلمح له بأنه ان كان يريد بولى يجب أن يجتهد وينشط ، ليحسن مركزه ، ويرسخ فى مهنته ويكبر ، لانه ما الذى يعنيه ذلك كله بالنسبة لشاب طائش مثله ؟

فى الربيع انتظمت خوخة فى دروس مسائية للتدبير المنزلى . وبينما هى فى طريقها الى البيت ذات ليلة ، ظهر السيد سمايلز بجوارها فجأة ، فدفعها دفعا الى مدخل أحد البيوت ، والصقها بالحائط ، واخذ يحدثها ، وهى حبيسة بين ذراعيه ، فقد وضع ذراعا الى يمينها واخرى الى يسارها ، وبسط راحتيه على الحائط وراء راسها . لكن الفتى لم يذهب الى ابعد من ذلك ، ولم يحاول ما هو اخطر . بدا أن كل همه أن يشمها ، فيملأ خياشيمه برائحتها الحلوة .

ولقد حدست مسز بيتشام الخبيرة ، لفورها ، بعض ذلك كله ، فعنيت من تلك اللحظة بفحص ملابس ابنتها الداخلية قبل غسلها ، فى موعد معين من كل شهر . ثم مالت بثقلها كله فى جانب المستر بيكيت ، مظهرة بجلاء تفضيلها له . فالسيد بيكيت تاجر أخشاب مليء ، ورجل ذو مبادىء لا ماخذ عليها . وهكذا فان جاذبية الشباب، والوسامة ، ولطف المعشر ، رجحت عليها كفة سحر لا يقاوم ، سحر الرجل الثرى التاجر الكبير .

فوق أن الطريقة التى يضع بها يديه حول الردفين ، اثناء الرقص ، تدعو فى الحقيقة الى الدهشة ، من تاجر اخشاب مثله . ولقد ادرك

مستر بيكيت الذى لا يفوته شيء أن مسكاته ولمساته الحميمة لم تغب عن فطنة الام ، لكنها تعامت عنها ، فبدا له ذلك التعامى بشير خير يعد بأشياء أحسن وأجل شأنا تأتى مستقبلا ، وأطمـأن الى أن الطريق امامه بات مفتوحا بغير عوائق أو صعاب . لكن الرجل الحصيف لم يذهب الى ما هو أبعد من هذه المداعبات السطحية البريئة .

غير أن الفتى سمايلز ، رغم مزايا السيد بيكيت هذه جميعها ، كان يحوز عليه سبقا واحدا : توفر الوقت لديه . فالمستر بيكيت ، كما هو متوقع ، كان رجلا مشغولا للغاية ، ولذا فإنه لم يكن يحتكم فيما يحتكم فيه منافسه من وقت يكرسه للخوخة . لم يكن قادرا على التخفف من أعباء العمل دائما ليجرى وراءها .

ومع ذلك فانه سرعان ما لاحظ أن الخوخة بدات تميل الى أخذه مأخذ الجد . ولحسن الحظ لم يكن الرجل عزوفا عن فكـرة الزواج كمعظم الناس . فدعا السيدة بيتشام وابنتها الى رحلة على شاطىء نهر التيمز ، فى صباح يوم أحد . وقد أوشكت ترتيبات الرحلة أن تفشل لان السيد بيتشام عاد الى بيته فى الساعة الخامسة من مساء السبت ، فى حال يرثى لها من النـكد ، وبصوت يثير الشفقة طلب فنجلنا من الشاى بالبابونج يشربه قبل النوم ، ثم جعل زوجته تضع قالبا من الطوب ، ملفوفا فى قطعة قماش دافئة منداة ، على معدته .

كان مستر بيتشام قد تورط ، فى الآونة الاخيـرة ، فى عمليـات خارجة عن نطاق نشاطاته المالوفة ، تتعلق بمسالة فيها بواخر شحن . ولم تكن تلك العمليات الجديدة عليه ، سائرة على ما يرام فيما يبدو ، ولذلك أوجعته معدته . لأن أضعف ما فى مستر بيتشام معدته . اقل قلق يسبب له اضطرابات فيها . لكنه تحامل على نفسه فى صباح الاحد ، وذهب الى الكنيسة فى صحبة زوجته وابنته ، رغم ضعفه الشديد ، ثم تركهما وذهب رأسا الى اجتماع ما . وقد حالف المراتين التوفيق ، فقد بدآ واضحا أن الرجل كان يعانى متاعب خطـيرة .

كان مستر بيكيت ، الذى جاء لاصطحاب المراتين مرتديا بذلة بيضاء ، قد استأجر عربة حنطور يقومون فيها برحلتهم . وقد لاقى صعوبة حقيقية فى العثور على عربة من هذا النوع ، ضيقة المقعد (١) .

---

(١) العربة التى استاجرها مسـتر بيكيت ، ليتيح له مقعدها الضـيق أن يلتصق ببولى أثناء الرحلة ، اسـمها بالانجليزية هانسوم « (Hansom) » وقد ترجمناها بعربة حنطور لانها اقرب ماتعيه الذاكرة لدينا – وهى عربة مغلقة بهـا مكان لشخصين فقط ، يقف سائقها على منصة صغيرة وراء صندوقها ليقـود جياده .

لكن مسز بيتشام حشرت نفسها بين مستر بيكيت وبولى . وهو ما يبدو أن الرجل كان قد توقعه ، واخذ له أهبته ، لان السلة التى انحشرت فى العربة معهم ، بين ثلاثة أزواج من الاقدام ، عندما كشف غطاءها على المشب الاخضر ، طالعتهم ، بجانب البيض المسلوق ، وسندوتشات الجامبون ، والفرخة المحمرة ، بثلاث زجاجات من الجن . وهكذا نال مستر بيكيت الحصيف بغيته ، فسعد بالجلوس على المقعد الضيق ، لصق بولى الحسناء ، فى رحلة العودة .

بدأت السماء تمطر مطرا خفيفا ، وسرت فى الجو برودة ، لم يجد معها الحرام (١) الذي لفوا به أرجلهم لانه جعل أصلا لراكبين فقط ، فأخذت مسز بيتشام تستحث السائق على الاسراع بصوت فقد كثيرا من نعومته ، قائلة أنهم تأخروا فى العودة كثيرا . فقد قاربت الساعة الثانية .

توقفت العربة أمام حانة « الاخطبوط » لينزل منها مستر بيكيت . ولم يستغرق الوداع أكثر من لحظة ، كما لم يذكر أحد منهم شيئا عن أى لقاء آخر . نزل تاجر الاخشاب من العربة فوقف فى نفس المكان الذي التقى فيه بالمراتين عند بداية الرحلة ، وكأنه لم يتحرك من مكانه ، أو يتغير فيه شيء ، اللهم الا ما اضيف الى رأسه المربع من قطرات المطر . لكنه ، فى حقيقة أمره ، كان قد مر بتحول كامل ، فلم يعد ذلك الرجل . يشهد بذلك أنه ، وهو التاجر الذى يحسب كل دقيقة بما يربحه أو يخسره فيها من نقود ، ظل طيلة الاسبوع التالى يقضى كل امسياته ، عدا مساء الخميس ، فى حانة « الاخطبوط » . . على أمل . بل وتردد على الحانة مرتين فى احدى الامسيات . كما رآته مسز بيتشام ، أثناء النهار ، يتسكع فى شارع أولد اوك ، أو يقف مستندا الى عصاه الغليظة التى كان يضعها وراء عجزه ممسكا بها بكلتا يديه . وقد راقبته مسز بيتشام من وراء الستائر جيداً . فلاحظت أنه يقضى معظم وقتـه محملقا فى اللافتـة المكتوب عليهـا « آلات » .

كان يدرس المنزل بامعان .

لم يكن السيد بيكيت عبيطا . لاحظ أشياء كثيرة وهو واقف يرقب المنزل فيشهد عن كثب النشاط الذى لايهدأ لتلك الورشة العجيبة . رأى رجالا أسوياء أصحاء يدخلون من الباب ، ليخرج بعد دخولهم رجال مقعدون مشوهون يتحركون على طاولات العجزة ذات العجلات

---

(١) الحرام ، بكسر الحاء .

وسرعان ما تبين أن الخارجين لم يكونوا أناسا غير الداخلين . وفجأة تجلت لذهنه الحصيف طبيعه الصناعة التى تشتغل بها ورشه مستر بيتشام . ولتوه أدرك الرجل أن هذه الورشة منجم ذهب لا ينضب .

وفى نفس الوقت الذى تكونت فيه هذه الافكار وتشكلت فى ذهن مستر بيكيت اللماح ، كانت أفكار أخرى محددة تتكون وتتشكل فى ذهن مسز بيتشام عن هذا الخاطب اللحوح وهى واقفة ترقبه من نافذة فى الطابق الاول .

بدا أنه كان يتوقع حركة ما من جانب الخوخة ، لن تقدم الفتاة عليها • والظاهر أن ما استقر عليه رأيه من أن شيئا معينا حدث أثناء تلك الرحلة يجب أن تترتب عليه نتائج بعينها ، لم يستقر عليه رأى الطرف الآخر . فالآنسة بيتشام باتت تستخدم مدخلا جانبيا يقع فى شارع آخر ، تدلف منه الى بيت أهلها ، عند عودتها من دروس التدبير المنزلى المسائية .

وفى معظم الاحيان كانت تسارع بالانصراف من تلك الدروس لتقابل الولد سمايلز • لسبب ما وجدت متعة فى السير معه عبر الحديقة العامة ، فى عتمة المساء ، وقد اكتظت الدكك جميعا بالمحبين . وهما يسيران معا كان الفتى يقول لها أشياء لطيفة ، ويظهر اهتماما عظيما بمظهرها • وقد شغف بموضع معين من عنقها كان يحب أن يراه دائما ، فاذا ما ارتدت ثوبا يخفى ذلك الموضع قال لها أن الثوب لا يلائمها • وقال أيضا أنها ستدفعه الى الجنون •

كان يحافظ على مواعيده معها بكل دقة ، ويأتى دائما بعجلة ظاهرة . وقد توصل ، بهذه الطريقة ، الى الايحاء بأن لديه مشاغل عديدة وملحة ، لكنه يهملها فى سبيل لقاء بولى .

فى تلك الايام تفتحت الخوخة حقا للمرة الاولى . كان الوقت ربيعا. الفت بولى أن تدخل عنابر الورشة مرتدية ثوبا أزرق فاتح اللون فيه دوائر بيضاء وترقب عملية كى الثياب بالشحم لتبدو قذرة ، فاذا ما اغتاظت العاملات السقيمات فى تلك العنابر الخربة الرطبة المعتمة من منظرها المترف ، وأخذن فى « التنبيط » عليها بألسنة يعوزها الاحترام ، رفعت لهن طرف ثوبها ، واستدارت ، فأرتهن عجيزة بيضاء صغيرة •

ثم تخرج بعد ذلك لتلعب مع الكلاب فى الفناء ضاحكة وتطلق عليها أسماء مضحكة • أطلقت على كلب منها اسم سمايلز • حتى شجرة البرقوق الزرية فى الفناء اكتشفت فجأة أنها جميلة • وفى الصباح

وهي تغتسل كانت تغني . باختصار كانت الفتاة عاشقة ، لكن ليس لأحد بعينه .

وكل مساء تستلقي على بطنها أمام نافذتها ، واضعة وجهها المستدير كالبدر بين كفيها وتقرأ الروايات . فتتنهد ، وتقول لنفسها :

ـ يالله ! ياله من منظر فظيع هذا الذي يدور حول الفيرا ، النقية ، الجميلة ، الطاهرة ، وهي تناضل ضد أفكارها الشريرة التي تدفعها الى ارتكاب المعاصي ! انها تحب حبيبها ، الرياضي ، الشجاع ، تحبه من كل قلبها الذي يحمل له أقوى المشاعر وانبلها ، ومع ذلك فهناك شهوات تتلصص في أعماقها . شهوات حسية غارقة في الظلام ، لا تختلف في شيء عن المعاصي المغرقة في الخطيئة ! وكثيرا ما تتنهد بولي الجميلة متسائلة : « ترى ما الذي سيحدث لي مع هذا الرجل الوسيم ؟ وأين سيحدث لي ؟ » ان حالي كحال الفيرا ، بل أسوأ . لأني لست عاشقة ومع ذلك تتملكني هذه الشهوات . هل أستطيع أن أدعي أن حبيبي هو الذي أثارها بين جوانحي ؟ لا أستطيع أن أدعي ذلك . لا أستطيع أن أقول أني ضحية وسامته التي افقدتني الصواب ـ لانه منذا الذي يستطيع أن ينسب الوسامة الى مستر بيكيت ؟ أو الشجاعة الى مستر سمايلز ؟ لكنني أقوم من فراشي المنجد بالريش صباح كل يوم ، وبينما انا أغتسل تجتاحني شهواتي ـ وهي شهوات شريرة ـ فتجعل حتى مستر بيكيت ، ومستر سمايلز ، وسيمين في نظري ! وكم أخشى ان طال الامر أكثر من ذلك ، أن تجرفني شهواتي الجسدية الى الحضيض ، وهو المكان الذي قيل لي دائما أنه مآل كثير من منكودات الحظ ممن تتسلط عليهن مثل هذه الرؤى والأحلام التي تتكاثر على كلما انفردت بنفسي في غرفتي الوردية هذه ، مهد الطهر والبراءة ، وآويت الى فراشي ، وجذبت أغطيته حتى أسفل وجهي ، واخذت احلم . ويالها من أحلام ، لا اجرؤ حتى على ذكرها ! بضع ليال اخرى محمومة كهذه واجدني مضطرة الى الارتماء في احضان أول رجل أقابله ، حتى ولو كان جورج الأعرج العجوز الذي يحرس الكلاب في الفناء . لكن مستر بيكيت ، بعد كل شيء ، لا يمكن أن يكون عريسا سيئا الى الحد الذي يوقعني في كل هذه الحيرة . ومع ذلك هل أجد القوة على الانتظار ؟ ما الذي استطيع ان أفعله لكي أحافظ على مظهر الود والطهارة الذي لا شك انه يتوقعه في زوجته المقبلة ؟ وكيف أستطيع أن أقابل نظراته بنظرة صافية بريئة تكبح جماح أية شهوات دنيئة قد أثيرها في صدره ، وهي

شهوات ما من سبيل الى اشباعها ابدا ، أبدا ، قبل الزواج ؟
كان قرار خوخة بالزواج من تاجر الأخشاب قرارا لم يتم التوصل اليه بعد اى قدر يعتد به من التدبر وأعمال الفكر . كل ما فى الامر أن رجاحة العقل العملية للغاية التى تتمتع بها ابنة مستر بيتشام انتقت من بين خاطبيها العريس الارسخ قدما ، والاطول باعا ، الذى يمكن الاعتماد عليه .
ومع ذلك ، فان المستر سمايلز تمكن ، بجاذبيته التى لا تقاوم ، من مقابلة الآنسة بيتشام المرة تلو المرة . بل وحاول الوغد أن يقنعها بالعيش معه فى غرفة مفروشة . لكن ذلك الاقتراح ترك فى نفس الفتاة انطباعا بأنه كان عاجزا ، على المستوى الاقتصادى ، عن اعالة زوجة. وفى زيارتها الثانية لمستر سمايلز فى غرفته المفروشة ، رآها مستر بيكيت وهى تغادر المنزل معه .
وفى اليوم التالى فتحت مسز بيتشام خطابا مثيرا للاهتمام من هذا الاخير يتوسل فيه الى بولى أن ترتب له لقاء معها ، ويذكرها صراحة بواقعة معينة حدثت يوم الرحلة . كانت لهجة الخطاب كلها كريهة للغاية .
دبرت مسز بيتشام أمورها بحيث يقابل مستر بيكيت ابنتها مرة ثانية ، فى حانة « الاخطبوط » ، يوم الاحد التالى . لم تكن تعرف الشىء الكثير عن حكاية ابنتها مع الولد سمايلز ، ولم تكن على استعداد لأن تصدق شيئا حتى لو أخبرها أحد . كان شغلها الشاغل التفكير فى طريقة تحذر بها ابنتها بلباقة ، ودون أن تؤذى احساسها ، من الاستسلام السريع ، لتاجر الأخشاب الذى كانت قد اختارته لابنتها وانتهى الأمر . كانت ترقد فى الفراش ليلا ، بجوار زوجها ضئيل الحجم ، وتنغمس باستمتاع شديد فى تصورات لا تستحى عن أوضاع من العناق الزوجى الحميم بين ابنتها وبين بيكيت ــ أو بالأخرى جيمى ، كما كانت قد الفت أن تدعو تاجر الاخشاب مؤخرا. لكنها عندما ذهبت الى « الأخطبوط » ، فى مساء الاحد ، فارقها قلقها .
تكدس رواد الحانة حول المنضدة الحديدية المستديرة تحت شجرة الكستناء ، حتى أوشكوا أن يجلسوا بعضهم فوق بعض ، الا عندما يكون رقص ، فتقل كثافتهم قليلا، وتذهب بولى ومستر بيكيت للرقص هما أيضا . لكنهما عندما يعودان يصبح الحديث أمرا صعبا ، بالنظر الى تكدس الآخرين . ومع ذلك لم يعدم مستر بيكيت وسيلة يبتعد

بها مع المرأتين عن ذلك الزحام .

طلب تاجر الاخشاب لنفسه طبقا من الكبد الضانى بالزيت والخل. وبينما هو يعد طبقه ببراعة يحسد عليها ، أدار دفـة الحديث الى ستانفورد سيلز ، السفاح ، الذى نسبت اليه الصحف مؤخرا عدة جرائم قتل فى حى الميناء . ولما كانت السيدتان تعرفان اسم ذلك السفاح وحكايته ، فقد أخذتا تتبادلان التكهنات معه عما يحتمل أن يكون عليه شكل الرجل .

وهنا أخذ مستر بيكيت يتحدث حديث عليم ببواطن الامـور عن ذلك السيد الذى دوخت جرائمه البوليس ، لان البوليس لم يستطع أن يكتشف دافعا مقبولا يدفعه الى ارتكابها . وقد بدا من حديث مستر بيكيت أن عالم الجريمة نفسه كان يجل مستر ستانفورد سيلز هذا اجلالا يقرب من الرهبة التى يحسها الناس فى مواجهة قوى ماوراء الطبيعة . بل وقد حدث فعلا أن عددا من المجرمين الذين ظل البوليس يطاردهم زمنا طويلا دون جدوى ، تقدموا ، من تلقاء أنفسهم ، فجأة ، فسلموا أنفسهم ، باختيارهم ، لسكوتلاند يارد ، لمجرد أنهم أحسوا أن « السكين » فى أعقابهم . و « السكين » ، كما هو معلوم ، كنية مستر ستانفورد سيلز ، بين حثالة الميناء .

كانت بولى ، فيما تبين ، ملمة بأوصاف ذلك السيد سيلز الماما كاملا ، وقد وصفته لتاجر الأخشاب وصفا دقيقا .

قالت أنه أشقر ، ممشوق القوام ، أنيق بفطرته ، حتى ليبدو ، فى ثياب عمال الشحن ، كما لو كان سيدا من علية القوم يرتدى تلك الثياب على سبيل التفكهة والتنكر . وقالت أيضـا أنه عطوف مع النساء .

الواقع أن بولى تحدثت فى ذلك اليوم كما لم تتحدث من قبل ، حديثا طليا ، يبعث البهجة فى النفوس . فقد أثر مستر بيكيت فيها تأثيرا عميقا ، وحرك مشاعرها ، فتألقت .

ظل الاثنان يرقصان ، معظم الوقت ، بنشاط فائق ، فلم يتسن لمسز بيتشام ـ لفرط ضيقها ـ أن تتابع حديثهما كامـلا . لـكنها استطاعت مع ذلك أن تكون معهما بأذنها . وكم كانت دهشتها عظيمة عندما وجدت حديث ابنتها منصبا ـ بعد سيلز ، السفاح ـ على الولد سمايلز ، وكم هو ساحر ، ولطيف ، وجذاب . ولم يفتها أن تلحظ كيف أن المستر بيكيت أصغى لذلك كله وهو يتصبب عرقا ، حتى ابتلت ياقته وارتخت .

لكن بولى بدت ممسكة بزمام امره فى يدها ، وقد بدا واضحا أن الرجل كان قد وقع فى شباكها تماما .

فى صباح اليوم التالى كان واقفا من جديد ، فى شارع أولد أوك ، امام الدكان . وفى المساء تجرأ ، فسمح لنفسه بزيارة مسز بيتشام فى عقر دارها ، مما سبب لها حرجا عظيما ، لانها خافت من مستر بيتشام الذى لم تكن لديه أدنى فكرة عن حكاية ابنته وخطابها ، وهى حكاية كانت زوجته تنوىأن توقفه عليها تدريجيا ،وبمنتهى الحرص.

جلس مستر بيكيت على حافة الكنبة القطيفة الحمراء فى غرفة انجلوس ، وأخذ يحذر مسز بيتشام من ذلك الولد سمايلز ، لانه ليس شابا ابن ناس ، بل هو منحرف ، والحقيقة أنه فاجر ، وابن حرام ، ويجرى دائما وراء النساء . ثم سأل المرأة عما اذا كان سمايلز هذا قد ضايق بولى بالخطابات أو بأى شىء من هذا القبيل ، فلما أجابته مسز بيتشام نفيا ، بدا واضحا انه لم يصدقها ، وهم بأن يقوم الى المدفأة فيقلب رمادها بحثا عن رسائل غرامية تكون قد أحرقت فيها .

وتصادف أثناء خروجه أن قابل بولى على الدرج ، فصحبها الى مدرستها المسائية . أخذت الفتاة تثرثر طيلة الطريق عن بيتها ، وعن الاعداد الكبيرة من الناس الذين يترددون على منشأة أبيها ، داخلين خارجين طوال النهار ، وعن الشبان الذين يعملون بقسم الثياب ، وكيف أنهم يحبونها جميعا ، لانها لا تتعالى عليهم أو تسىء معاملتهم .

لكن تاجر الاخشاب، وهو يمعن النظر فى وجهها، بدا له أن هناك هالات زرقاء حول عينيها ، فسبب له ذلك كمدا شديدا .

وبعد ذلك أطلق العنان لخياله ، فأخذ يراها بعين الخيال ، فتاة حسناء شهية ، فى بيت كبير كالمتاهة ، فيه أبواب عديدة يلجها دائما بغير انقطاع ، شبان يدخلون ويخرجون ــ بيت ، فى الواقع ، لايصلح البتة لفتاة فى مقتبل العمر . وفى مؤخرة وعيه كانت ذكرى تقض مضجعه ، وتهول له الامور : ذكرى واقعة معينة حدثت يوم الرحلة ، أو ، على وجه الدقة ، أثناء العودة من تلك الرحلة . كانت تلك واقعة لم يجد فى نفسه الجراة على ذكرها أو التحدث بشأنها ، لا الان ، ولا فيما بعد عندما منعته سلسلة متلاحقة ثقيلة الوطء من نوائب الدهر من اطالة الحديث مع زوجته . لكن عدم ذكره لتلك الواقعة ، وعدم تمكنه من مناقشتها لايعنى أنه نسيها أو استخف بشأنها . على العكس . ظلت ثقيلة رازحة على صدره . فقد نفثت تلك الواقعة

المشئومة فى نفسه شكا قويا فى طهارة بولى وبراءتها ، وسلطت عليه فى الوقت ذاته وسواسا مقيما جعل من تلك البراءة وشكوكه حولها شغله الشاغل .

والحقيقة انه لم يصب فى حياته بمثل ما أصيب به من عشق لبولى وأنشغال بها · ولقد كانت هناك ظروف عديدة اسهمت فى خلق ذلك الانشغال المجدود · قال السيد بيكيت لنفسه وهو يتفحص مشاعره تجاهها :

ـ من الخطأ الفاحش أن يسأل المرء نفسه ان كان يتزوج الفتاة التى يتزوجها من أجل مالها أم من أجل شخصها ، لانه غالبا مايكون دافعه الى الزواج قائما على الاثنين معا . والحقيقة ، أى شىء يمكن أن يفوق بائنة الفتاة سحرا ، نعم نعم ، بغير مالها كنت سأرغب فيها بغير شك ، ولكن ربما ليس بهذا الوله !

حقيقة الامر ان تاجر الاخشاب لم يكن غشيما فيما يتعلق بمسائل الحب والهوى . فقد سبق له الاقتران بأكثر من زوجة ــ وغالبا فى وقت واحد معا ــ لكنه لم يكن لديه وقت للمغامرات ، لانه كان متورطا فى أعماله مع أناس خطرين للغاية ، وكان لديه من الهموم التى تقصم الظهر مايكفيه وأكثر . كل مافى الامر أنه كان ، فى تلك الآونة ، فى مسيس الحاجة الى زيجة جديدة · بل ان تلك الزيجة كانت أمرا حيويا بالنسبة له . فلم تكن أحواله التجارية رائجة فى تلك الايام ، وكانت محلاته تخسر .

وكان فى تلك الايام أيضا يحمل فى جيب سترته الداخلى عددا كبيرا من قصاصات الصحف تتضمن تفاصيل حديث صحفى كان أحد المخبرين قد أجراه مع مدير البوليس عن القاتل المدعو ستانفورد سيلز ، المعروف باسم « السكين » . كانت تلك القصاصات قد ارسلت الى السيد بيكيت من مجهول ، وقد سببت له ازعاجا شديدا . وبسببها أيضا أطبق شفتيه ، فلم يلفظ حرفا من كلام كثير كان على طرف لسانه .

بعد قرابة أسبوع حدثت لمستر جوناثان ارميا بيتشام ارتباكات مالية خطيرة ، نتيجة لالاعيب معينة قام بها شخص اسمه مستر كوكس ، فلم تكد تلك الارتباكات تحدث ، حتى اتجهت افكار مستر بيتشام ، بطريقة أوتوماتيكية ، الى ابنته الفاتنة .

(٢)

والان كلهمو ذهبوا الى الحرب معا ،
وكل واحد منهم يصرخ فى طلب طلقات البنادق .
هناك بطبيعة الحال اناس كثار طيبون
سوف يوفرون لهم كل مايحتاجونه من رصاص عن طيب خاطر .
« لن نحارب بغير ذخيرة ! » سوف يهتفون ،
وسوف يقال لهم « اتركوا ذلك الامر لنا يا أبناءنا ،
« هيا اذهبوا انتم الى الميدان وقاتلوا ،
« وسوف نصنع نحن لكم كل المدافع والذخيرة . »

ثم وقد صنعوا تلالا من ذخيرة ،
لم يجدوا حربا جيدة لها ،
هناك بطبيعة الحال اناس كثار طيبون
سوف يخلقون لهم حربا من الهواء كالحواة ،
وسوف يهتفون :
« هيا هيا انطلق الى الجبهة ياولدى العزيز ،
« هؤلاء الاوغاد يتهددون ارض اجدادك ،
« سر هيا يابنى سر ، من أجل أمك ومن أجل أخواتك ،
« سر فى سبيل الله والوطن والملك »

(أغنية حرب)

حاجة حكومة صاحبة الجلالة

ويليم كوكس كان سمسارا . والمفروض ، طبقا لما هو مكتوب فى بطاقة زيارته أن لديه مكتبا فى مكان ما من حى المال والاعمال بمدينة لندن ، لكن من النادر جدا أن يتردد عليه أحد فى ذلك العنوان ، وهو شخصيا لا يستعمله الا فيما ندر . والحقيقة أنه لم يكن لديه سببه

معقول واحد يجعله يذهب الى ذلك المكان ، لان المكتب لم يكن يحتوى الا على فتاة شاحبة لانفع فيها ، جالسة مع آلة كاتبة قديمة مهشمة الحروف ، لاتفعل شيئا ، لانه لم يكن هناك أى شيء تكتبه . كل مافى الامر أن الفتاة كانت تجلس فى انتظار البريد ، الذى كان يسلم فى ذلك العنوان حتى لايضطر مستر كوكس الى الافصاح لاحد عن عنوان بيته . فلم يكن يستقبل أى مخلوق فى بيته ، وكل صفقاته كان يعقدها فى احد المطاعم .

كان من دأبه أن يقول :

ــ لست فى حاجة الى منظمة أعمل من خلالها . فأنا لا أتعامل الا فى الصفقات الكبيرة !

لم يكن يلمس أي شيء قذر . كان يرتدى قفازه أبدا . وكان يرتدي أيضا بذلة رمادية فاتحة اللون ، جاهزة ، وجوارب بنفسجية ، وربطة عنق قرمزية . ولسبب ما رسخ فى ذهنه أن الناس يعتقدون أنه ضابط فى ثياب مدنية . لذلك كان يمشى دائما مشدود القامة ، بخطوة عسكرية .

ولا يعنى عدم وجود مستخدمين لديه يكبدونه مرتبات باهظة انه كان بغير معاونين . ففى مكاتب حكومية معينة كان يجلس أناس مختلفون يعاونونه ويحققون له من الفائدة مالم يكن ليحصل عليه من حشد كامل من الكتبة الكسالى سليطى اللسان .

كان له معاون من هذا النوع ، مثلا ، فى الاميرالية .

من ذلك المعاون استقى ذات يوم معلومة مؤداها أن حكومة صاحبة الجلالة كانت فى مسيس الحاجة . هذه الحاجة كانت الى سفن نقل الجنود ، بالنظر الى ضرورات الحرب التى دعت الى نقل حشود كبيرة من هؤلاء الجنود الى كيبتاون . وبلا أدنى تردد قرر كوكس لفوره أن يبذل كل مافى وسعه لاشباع تلك الحاجة لدى حكومة صاحبة الجلالة .

ولما كانت الصفقة بحرية ، فانه ذهب الى حانة يؤمها صنف وطيء من البحارة المحترفين ، وبدأ يستعلم بحذر عن امكانية الحصول على عدد من أقدم السفن . وسرعان ماسمع عن سفن ذلك شأنها ، تملكها شركة بروكلى وبروكلى الملاحية ، وهى مؤسسة كانت تتعامل ــ بين نشاطات أخرى ــ فى تجارة السفن جاهزة الصنع .

كان فى لندن ، فى تلك الاونة ، عدد كبير من الناس الذين لم يلتزموا تمام الالتزام بما يمليه الضمير من الاستجابة لرجاء الحكومة بأن تقدم دنيا الاعمال مؤازرتها الكاملة للدولة فى صراعها مع البوير . فبات

الموقف هكذا ، طبقا للمثل الانجليزى المشهور : كان هؤلاء السادة على استعداد لان يبيعوا المربى للحكومة ، لكنهم لم يكونوا على استعداد لمشاركة الحكومة فى أكلها . غير أن مستر كوكس لم يكن من تلك الفئة الضالة . فلم تكن لديه أدنى رغبة فى الاثراء على حساب الكوارث التى تحيق بوطنه . ولذا فانه انخرط فى استقصاءات متعبة ، وان كانت لاضرر فيها، حول امكانية استئجار مكاتب وآلات كاتبة . وهو مالم يكن مستر كوكس فى حاجة اليه ، لان اى انسان له صديق صاحب نفوذ فى الاميرالية ، مثله ، كان حريا بأن يعرض على الحكومة تلك السفن الناقلة للجنود التى سمع بها فى الحانة ، بغير حاجة الى أدنى تعقيدات . فقد كانت تلك السفن تتسع لاعداد هائلة من الجنود ، فوق أن الاستفسارات اللبقة التى تمت بشأنها من شركة بروكلى وبروكلى أثبتت أنها رخيصة فعلا .

والحقيقة انه لم يرد ذكر لاى شىء ، خلال المقابلة السريعة التى تمت بين السمسار كوكس والسادة بروكلى وبروكلى بشأن السفن المعروضة للبيع ، خلا حمولة تلك السفن وثمنها . فلم يسأل السيد كوكس أى سؤال يخرج عن ذلك الموضوع المحدد ، كما لم يفه أصحاب الشركة بحرف عن حالة السفن . وبناء عليه فان أولئك السادة كانوا على أستعداد لان يقسموا على ذلك ، بضمير مستريح ، فى أى وقت ، أمام أية محكمة .

لم يشر أحد ، أثناء المقابلة ، الى أية رغبة من جانب مستر كوكس فى شراء سفن من بروكلى وبروكلى ، رغم ان السفن التى جاء ذكرها كانت رخيصة فعلا وواسعة . كل ماهنالك أن مستر كوكس يعرف اناسا كثيرين على استعداد لدفع مبالغ لايستهان بها مقابل الحصول على سفن شحن . فأسعار الشحن ارتفعت كثيرا بسبب الحرب ، والسفن المعروضة للبيع قليلة وباهظة الثمن . (لكن الحقيقة ، رغم ذلك كله ، أنه مامن أحد فى كامل وعيه يبحث عن سفن لاتغرق بمجرد أن تبحر يمكن أن يذهب الى السادة بروكلى وبروكلى بحثا عن تلك السفن) .

ولقد كان مستر كوكس مهتما — وبصورة عاجلة — بالبحث عن سفن جيدة ، لا للحكومة ، بل لبعض الشركات الخاصة . فحاجة الحكومة الى سفن نقل الجنود كانت مسألة ثانوية للغاية بالنسبة اليه وهو لم يهتم بها أصلا الا فى نطاق بعض نشاطاته الجانبية . ولذلك مضى اسبوعا اخر فى البحث عن مزيد من السفن .

ولم يضع جهده هباء ، فقد اكتشف ثلاث سفن أخرى تصلح ناقلات للجنود ، جديدة عن سابقاتها ، وأكثر صلاحية من كل الوجوه . ولقد اضطر الى القيام بعدة رحلات ، واحدة منها الى ساوثمبتون ، فى معرض بحثه عن تلك السفن ، فلما كلل سعيه بالنجاح ، وجد أنه قد وفق الى ثلاث سفن مملوكة لاشخاص مختلفين ، لايمكن اعتبارها رخيصة بحال ، لكنها تبدو جيدة متينة فعلا .

أخذ مستر كوكس علما بتلك السفن ، ثم عاد الى لندن .

وهناك عاد الى البحث فى كيفية اشباع حاجة الحكومة . لكنه — كما سنرى — لم يهمل مصالحه الخاصة وهو يفعل ذلك . ولقد انصبت مصالحه هذه على شراء عدد من سفن الشحن الجيدة ، كتلك التى شاهدها فى ساوثمبتون ، بأرخص سعر ممكن .

فيما يخص عملية الحكومة ، تحدث مستر كوكس ، فى لندن ، أمام عدد من رجال الاعمال جمعهم معا ليتحدث اليهم فى ذلك الخصوص . ولم يكن من الصعب العثور على مثل أولئك الناس . فقد كانت مدينة لندن تغلى غليانا وتجيش بالمبادرات الفردية . فحى المال والاعمال كان قد اشتعل حماسا للوقوف بجانب الوطن فى الحرب مع البوير . الحقيقة أن الحكومة كانت زبونا مثاليا لامثيل له .

ولقد علم صاحبنا مستر بيتشام بحاجة حكومة صاحبة الجلالة وهو فى صحبة أربعة أوخمسة من السادة الذين كانوا لايقلون عنه حماسا لان يهرعوا الى اجابة اى أمر يقرأونه مجرد قراءة فى عينى الحكومة .

وقد اجتمعوا فى مطعم محترم من مطاعم الطبقة المتوسطة بحى كينسينجتون . اكتشفوا بعد أن تم التعــــارف بينهم أن جمعهم يضم أحد البارونات ، وســـمسار مراهنـــات غير مشروعة على سباق الخيل ، ومدير مصنع قطن فى لانكشاير ، وصاحب مطعم ، ومالك عقارات سكنية ، ومربى أغنام ، وصاحب احـدى الشركات الكبيرة التى تتعامل فى الالات الموسيقية المستعملة .

اعطوا النادل طلباتهم ، ثم استرخوا فى مقاعدهم يستمعون الى كلمة السيد ويليم كوكس التى ألقاها بمناسبة اجتماعهم .

بدأ مستر كوكس كلمته قائلا :

— ان موقف بلادنا خطير بحق . بدات الحرب كما تعرفون حضراتكم لان المواطنين البريطانيين المسالمين تعرضوا لهجوم مفاجىء وغير مبرر ، بلا أدنى استفزاز من جانبهم ، والاسوأ من ذلك أن قوات صـــاحبة الجلالة التى هبت لنجدتهم على الفور هوجمت فى كل مكان هجمات

غادرة والحقت بها اهانات دامية فى معرض قيامها بواجبها لحماية الممتلكات البريطانية . ولقد قرأتم جميعا بغير شك عن الهجمات المضادة التى ظلت حكومتنا تؤجلها حتى الان بسبب سعة صدرها الزائدة عن الحد وحبها للسلام ، وهو موقف لم يعد الان مفهوما . فانجلترا الان ، بعد أن نشبت هذه الحرب ، تقاتل حشدا غوغائيا مسعورا من الفلاحين المجانين دفاعا عن ممتلكاتها وراء البحار . ففى بلدة ميفكينج حوصرت القوات البريطانية . وهى تقاتل الآن دفاعا عن بقائها ضد جيش من البوير يفوقها عددا وعدة . وكل من كان من حضراتكم متعاملا فى بورصة الاوراق المالية يدرك جيدا ماالذى يعنيه هذا . أيها السادة ! ان الغرض من هذا الاجتماع هو تقديم العون السريع الى بلدة ميفكينج وتحريرها ! (تصفيق) أيها السادة ! لقد دقت الساعة التى يجب أن يتحلى فيها رجل الاعمال البريطانى برباطة الجأش ، والشجاعة ، والمبادرة ! هل يجب أن تضيع بطولة مقاتلينا الشبان هباء لأنكم تكشفون عن افتقاركم الى هذه الخصال من الذى يشمن الحرب ياسادة ؟ العسكرى ورجل الاعمال ! كل يشنها من موقعه . الحكومة لاتفقه فى الاعمال شيئا . الحكومة تقول : اننا فى حاجة الى ناقلات جنود . فنقول نحن على العين والراس ، هاهى الناقلات . فتقول الحكومة : أنتم تعرفون اكثر مما نعرف عن هذه الاشياء . كم ثمن هذه الناقلات ؟ ذلك شىء بوسعنا أن نعرفه بغير ابطاء ، فنقول للحكومة ثمنها كذا وكذا . والحكومة لاتساوم .. فهى تعرف ان النقود ستظل فى البلاد . ثم انه لا يجب أن تكون هناك مساومة بين الاصدقاء . فسيان أن تكون النقود فى جيب هذا الصديق أو ذاك الصديق . والحكومة وممثلوها فى دنيا الاعمال أصدقاء . هناك رابطة حميمة تربطها بهم وثقة متبادلة بينها وبينهم . يقول الواحد منهما للاخر : « اسمع ، هذا شىء لاتعرف انت أن تفعله ، دعنى أفعله نيابة عنك . فاذا صادفنى شىء لا استطيع ان افعله ، سوف تفعله أنت نيابة عنى . » هكذا تولد الثقة . هكذا تنشأ المصالح المتكافئة . يقول لى وزير هذه الوزارة أو تلك ونحن ندخن سيجارة معا : « اسمع يابيلى يابنى . ان زوجتى لم تعد تستطيع تدبير أمورها فى بيتها الكبير ذى الاثنتى عشرة غرفة . ماذا أفعل ؟ » فأقول له : « لا تشغل نفسك بصغائر كهذه ياسيدى الوزير . يجب أن تتفرغ تماما لعملك . » وأدبر الامر له ! ثم تقرأون حضراتكم فى الصحف أن سيادته قد ألقى هذه الخطبة او تلك فى مسألة تمس مصالح البلاد ،

وأن تلك الخطبة قد عززت موقفنا فى العالم ، وفى أفريقيا أو الهند او اى مكان آخر تحدث أشياء عظيمة تزيد من قدر بلادنا ومكانتها زيادة ضخمة . لهذا أقول له : « تشارلس ! يجب أن تتحرر من كل الهموم والمشكلات ، من أجل صالح بلادك . لايجب أن تشغلك متاعب صغيرة أو مشكلات مالية . وانا مجرد رجل اعمال بسيط فى حالى ، لا أبحث عن مجد او شهرة . لا اريد أن أرى اسمى فى الصحف ، ولا أريد تقديرا من احد . كل ما أبتغيه هو أن أساعدك ، بهدوء ، وبغير علم من أحد ، فى الجهد الخارق الذى تبذله للقيام بعملك العظيم فى سبيل رفعة الوطن . أريد ان أقوم بواجبى المقدس تجاه وطنى ! »

ومثلى أيها السادة آلاف من رجال الاعمال الذين يعملون فى صمت، بغير ضجيج ، كجنود مجهولين لايدرى بهم أحد ، لكنهم يعملون ، أن سمحتم لى بالقول ، باستماتة ، وبراعة منقطعة النظير ، وسعة حيلة لا تنضب . وهكذا فان رجل الاعمال يورد السفينة ، والعسكرى يبحر عليها . رجل الاعمال ماهر واسع الحيلة ، والعسكرى شجاع . أيها السادة . لاتدعونا نضيع الوقت فى كثرة الكلام. دعونا نؤسس شركة للنقل البحرى .

لقيت كلمة مستر كوكس نجاحا فوريا . شكره صاحب المطعم باسم الاخرين وباسم الوطن لانه أوقفهم على مافيه اداء واجبهم . وبعد أن نوقشت بعض التفاصيل العملية ، تم تحرير عقد ابتدائى بتأسيس الشركة . أحضر النادل حبرا وورقا ، وأخذ سمسار المراهنات يكتب . ثم تقرر أن تشترى بأسرع مايمكن سفن شركة بروكلى وبروكلى الثلاث التى ذكرها مستر كوكس حتى يجرى اعدادها اعدادا كاملا ، على أن يقسم ثمن الشراء ثمانية (٨) أقسام متساوية ويدفع نقدا فور اتمام الصفقة .

عندما بلغوا ذلك الحد ، خيم على المائدة صمت عميق . فقد جاء وقت تحديد الانصبة فى أرباح الشركة ، خاصة أرباح كوكس الذى أتاهم بالعملية كلها . طلبوا من الندل احضار مزيد من السيجار والجعة .

ثم اخذ مدير مصنع النسيج يتحدث بغير اكتراث ، كما لو كان يدردش ، وهو يتابع دخان الكورونا الازرق بعينيه :

ـ يبدو لى أن الارباح الصافية يجب أن تقسم على ثمانية لاننا ثمانية ، أليس كذلك ؟ أما صديقنا مستر كوكس فانه يجب أن يحصل ـ فوق نصيبه فى الارباح ـ على عمولة اضافية ولنقل أنها عشرة فى

المائة من الثمن الذى تدفعه الحكومة .

نظر الجميع الى كوكس ، باستثناء واحد أو اثنين ، فمال كوكس بمقعده الى الوراء وقال باسما :

ــ هذه نكتة ظريفة !

كانت مطالبه أضخم من ذلك بكثير ، وقد أوضحها لهم بين علامات الدهشة من جانبهم . ثم بدأت مناقشات استمرت ساعتين ، لم تنخفض بعدها مطالب كوكس انخفاضا يذكر . وقد أحس الجميع أن استمرار النقاش يومين آخرين لن يجديهم شيئا ازاء صلابته . وهكذا اتفق على أن تكون العمولة خمسة وعشرين فى المائة .

عندما انتهى السادة جميعا من التوقيع على الوثيقة بزفرات حرى وحزن على الوجوه ينبىء عن أنهم كانوا يوقعون أحكاما بالموت على أعز احبائهم ، انفض سامرهم بسرعة ، فذهب كل الى بيته .

وقد خرج مستر بيتشام من ذلك الاجتماع بانطباع مطمئن للغاية بالنسبة للعملية كلها ، وبالنسبة لمهارة مستر كوكس وسعة باعه فى مسألة تقسيم الارباح . فمثل هذه المساومات لم تكن لتدور بمثل هذه الجدية لو لم تكن العملية سليمة مائة فى المائة .

متاعب لاتخطر لرجل الشارع ببال

ذات صباح غائم مغلف بضباب لندن عقد اجتماع ضم خمسة من السادة فى أحد المكاتب العديدة الصغيرة العارية ذات الاثاث الاصفر التى يزخر بها حى المال والاعمال فى تلك العاصمة العظيمة . على الباب الزجاجى المصنفر المفضى الى ذلك المكتب ، كانت هذه الكلمات بأحرف مذهبة : « بروكلى وبروكلى ــ شركة ملاحة » .

بين الخمسة المجتمعين فى تلك الغرفة كان السيدان بروكلى وبروكلى ، وهما مخلوقان باهتان لا لون لهما ، مترددان لا يستقران على رأى ، ينافس كل منهما الاخر فى خوفه المبالغ فيه من اتخاذ اى قرار يمس مصالحهما المشتركة . لان كلا منهما كان حريصا على مصالح الاخر حرصه على الحياة ذاتها ، وقد بدا كل منهما مهموما بغير حد لاقتناعه الكامل بأنه اضعف من أن يتحمل مسئوليتهما المشتركة .

لهذا كان كل من يعرف مجريات الامور فى حى المال والاعمال يعامل

هذين الاخوين كما لو كانا بيضتين نيئتين • وقد كان مستر كوكس من خيرة العارفين بمجريات الامور فى حى المال والاعمال ،فعاملهما تلك المعاملة بينما المجتمعون ينشئون عقدا يتم بمقتضاه نقل ملكية سفن الشحن الثلاث « آنا الجميلة » ، و « الولد البحار » ، و « المتفائل » ، الى الشركة الجديدة مقابل مبلغ اجمالى قدره ثمانية آلاف ومائتان من الجنيهات الاسترلينية (٨٢٠٠) ، على أن تتم معاينة السفن يوم الخميس التالى لتحرير العقد ، وأن يتم التوقيع على العقد فور اجراء المعاينة ، بعد دفع الثمن المتفق عليه نقدا وعدا•

قال أحد السيدين بروكلى :

ـ يسعدنى طبعا أن أراكم كلكم هناك وقت اجراء المعاينة ، لكنى لا اعتقد أن هناك ضرورة لذلك فى حالة هذه السفن بالذات .

وهكذا تم ترتيب كل شىء على أكمل وجه .

ولهذافان دهشة الاخوين بروكلى وبروكلى كانت عظيمة عندما فوجئا بمستر كوكس يزورهما فى مكتبهما فى صباح اليوم التالى ، فيستحلفهما بكل عزيز أن يقسما على السرية المطلقة ، فيقسمان ، واذا به يباغتهما بعرض آخر ، من جانبه ، لشراء السفن ، فى حالة عدم اتمام الصفقة التى تم الاتفاق عليها بالامس . وللاخوين عذرهما طبعا اذا زلزلتهما هذه التطورات غير المتوقعة وأصابتهما باصطخاب داخلى عظيم .

نتيجة لذلك كله اتصل أحد الاخوين بروكلى بعد ظهر الاربعاء بصاحب عقارات الاسكان ، لا لشىء الا لانه الوحيد الذى كان يعرف متوانه من بين الشركاء ، فاستفسر منه بنبرة أمل حقيقى عما اذا كان هناك احتمال لالغاء العقد ، وصارحه القول بأن الشركة (بروكلى وبروكلى) قد تلقت عرضا جديدا أفضل وأنه لا يستطيع أن يأخذ على عاتقه توريط أخيه فى صفقة خاسرة بالتمسك بالثمن القديم الذى سبق الاتفاق عليه •

فعبر ايستمان ، صاحب العقارات ، عن شديد أسفه ، نيابة عن الشركة لعدم امكان التحلل من العقد ، وهنا غمغم بروكلى شيئا بصوت مقهور عن يوم الخميس الساعة السادسة مساء قائلا أنه سيكون اذ ذاك فى حل من استئناف المفاوضة اذا لم تجر الامور على وجه مرضى . وقد سارع ايستمان ، فى أعقاب تلك المحادثة ، باخطار بقية الشركاء ، طالبا منهم أن يراعوا موعد يوم الخميس بكل دقة • لكن كوكس اتصل بايستمان فى صباح يوم الخميس ودعاه الى تناول

فنجان من القهوة معه فى أحد المطاعم . وهنـــاك اعتذر له عن تأخير اضطرارى طفيف ، قائلا أنه لن يستطيع أن يدفع نصيبه من النقود الا صباح يوم السبت .

ونتيجة لذلك ، عقد اجتماع اتسم بالاضطراب والاثارة ، فى مطعم آخر ، فى تمام الساعة الثانية ، قبيل الموعد المحدد للمعاينة . وفى ذلك الاجتماع طالب مدير مصنع النسيج ، بانفعال ، بأمر من اثنين : اما ان يتقدم كوكس بالمبلغ المطلوب منه فورا ، واما أن يتم التوصل الى ترتيبـــات اخرى . وفى الوقت ذاته عرض أن يقوم هو بالوفاء بالتزامات كوكس ، وأن يحصل على نصيبه فى الارباح .

لكن ايستمان انتقد هذه الاقتراحات ، فبنى نقده على اعتبارين : أولا ، الانذار الموجه الى كوكس ، وقد وافق عليه تماما ، وثانيا ، العرض الذى تقدم به مدير مصنع النسيج ، وقد رفضه تماما . وفى الوقت ذاته أعلن انه مستعد لان يأخذ على عاتقه الوفاء بنصيب كوكس .

وفى أعقابه سارع شركاء عديدون من بين السبعة باعلان استعدادهم الكامل للحلول محل كوكس . وهكذا بدا واضحا للجميع ــ فيما عدا كوكس ــ أن هذا الاخير يجب أن يفقد نصيبه فى الشركة اذا لم يتقدم من فوره ويسدد نصيبه من ثمن شراء السفن . وقد أبدى كوكس شكوكه فى سلامة مثل هذا الاجراء قبله ، لكنها كانت شكوكا ضعيفة . وفى نهاية الاجتماع كانوا قد اتفقوا جميعهم على تقسيم العملية الى سبعة أنصبة بدلا من ثمانية ، على أن يحصـــل كوكس على عمولته فحسب .

وقد بدا أن ذلك القرار الصارم وقع على كوكس وقع الصاعقة لانه أصيب بوعكة مفاجئة ، فاستـــأذن وذهب الى بيته ليأوى الى الفراش ، معلنا انه لن يستطيع أن يصحبهم أثناء قيامهم بالمعاينة .

اتفق ايستمان مع مهندس بحرى سابق على ان يقوم بمعـــاينة السفن فنيا لحسابهم بوصفه خبيرا فى هذه الامور . كان ذلك المهندس رجلا طويلا ، نحيلا ، غائر العينين والوجنتين ، اسمه بايل ، طرد من كل وظيفة التحق بها فى حياته بسبب ادمانه الخمر . وقد قابله الشركاء قرب الميناء ، فدعوه ، بناء على نصيحة ايستمان ، الى بضع كئوس من الخمر حتى ينعـــدل مزاجه ، ويعلن أن الســـفن الثلاث لا تصلح لركوب البحر لانها قد باتت هياكل نخرة ، فيزود الشركة بميزة سبق على الاخوين بروكلى فى مساوماتها معهما .

وقد تم اللقاء بهذين الاخوين فى مكتبهما المخصص لاستقبال سفن

الشركة بالميناء ، ولم يكن بعيدا عن موقع السفن .
كانت السفن ثلاثة هياكل ضخمة نخرة - بالفعل - كئيبة ، يعود تاريخها الطويل الى أيام الاميرال نلسون رحمه الله . فالعالم لن يخلو أبدا من هواة تخزين الاشياء العتيقة كالقبعات ، وصناديق السيجار، وأسرة الاطفال وما الى ذلك ، اما عن هوس عاطفي بحت وأما عن مجرد غباء . وليس من شك في أن أحداً من هذا الصنف من الناس كان قد شغف بهذه السفن الثلاث فاحتفظ بها بدلا من أن يغرقها . ولا عجب في ذلك . لكن وجه العجب الحقيقي كان في بقاء تلك التوابيت الثلاثة النخرة طافية على الماء الآسن بالرغم من الحكمة القائلة أن كل الاشياء الى زوال .

ولقد بدا واضحا منذ النظرة الاولى أن السفن الثلاث كانت قد تركت في حالها طيلة سنين عديدة ، بل طيلة أحقاب بأكملها . لكن ما العمل وعدة آلاف من جنود الامبراطورية الابطال ينتظرون من يحل محلهم في بلاد الترانسفال ، ويسعدهم كثيراً أن ترسل حكومتهم أى شيء يعبرون البحر فيه عائدين الى الوطن . ولسوف يسعدهم كثيرا بغير شك أن تسارع الشركة بارسال هذه السفن لاحضارهم .

كانت « الولد البحار » أقرب السفن الثلاث الى الشاطىء ، فصعدت اللجنة اليها . وقد بدت السفينة فعلا أشبه بسفينة حقيقية . ولم يكن أى من زائريها بحارا حتى يتفاهم معها ، لكن أى بحار ذلك الذي كان يجازف بالوقوع في مصيدة كهذه ليدق عنقه؟

لم تكن السفينة مهجورة . فقد استعمرتها جرذان هائلة الحجم بدت أشبه بالحملان التي تمرح على سفوح الجبال في ويلز ، ولقد بدا واضحا أن تلك الحيوانات السمينة الضخمة رغم اعمارها الطويلة، لم تكن قد رأت الانسان من قبل ، ولذلك فانها لم تحس بأدنى خوف من اقتحام اللجنة لسفينتها .

كان المهندس بايل قد أعد نفسه للقيام بعدد من الحركات الاستعراضية يكشف فيها بصراحة كلبية لا تقيم وزنا لشيء الالاعيب المختلفة التي يتوصل اصحاب السفن عديمي الضمير من خلالها الى اخفاء حقيقة توابيتهم العائمة لتبدو للبسطاء في صورة يخوت فاخرة. كان قد بيت النية على أن يفاجيء الاخوين بروكلي بعبارة لاذعة كهذه : « وما هذا أيضا يا سادة » ثم ينتزع هذا الجزء التالف أو ذاك من جسد السفينة المتآكل . لكنه الان وقف ذاهلا ، مخذولا ، وقد اسقط في يده ، يفتح فمه ليتكلم فلا يخرج منه صوت . لكن احدا لم يكن بحاجة الى من يقول له شيئا ، فأى طفل كان بوسعه أن

يدرك حقيقة ذلك القبر العائم من أول نظرة .

فالداء الذى كانت « الولد البحار » تعانى منه لم يكن من الممكن القول عنه ، حتى بأكبر قدر من سـلامة النية وحسن الظن ، أنه مرض مؤقت .

لهذا لم يتحرك واحد من الرجال العشرة قيد أنملة من السلم الحديدى الذى وقفوا عليه ، لان أحدا منهم لم يكن ليجرؤ على أن يستند بيده الى اى جزء من أجزاء السفينة اذا حدث وتعثر فى بعض الركام المتعفن المتناثر فى كل مكان ، خشية أن تنفذ يده من خشب السفينة .

قال ايستمان فجأة بصوت مرتفع مرح :

ـ أيوه ، أيوه !

فتردد صدى صوته أجوف كئيبا .

وهنا قال أحد السيدين بروكلى فجأة ، بمنتهى الهدوء :

ـ الواقع أن المرء لا يجب أن ينقاد وراء المظاهر الخارجية . أهم ما فى الامر هل تصلح السفينة لركوب البحر وتصمد له اذا هاج ؟

هناك أناس لديهم القدرة على أن يظلوا بمنجـاة من التأثر بآراء الاخرين ، مكتسبين مناعة كاملة تقيهم من الانخداع بالوقائع الثابتة ، مما يتيح لهم أن يعبروا عن آرائهم الخاصة بحرية وصراحة كاملة بلا أدنى اعتبار للزمان أو المكان . أمثال هؤلاء ولدوا ليكونوا قادة . وقد كان مستر بروكلى أحد أولئك .

عادت الشركة البحرية للنقل الى الارض الصلبة وكأنها فى كابوس . ولم تعن الشركة بالقـاء نظرة ، ولو عابرة على « أنا الجميلة » و « المتفائل » ، التى كانت ، فيما بدا ، أسوأ السفن الثلاث حالا .

وعنـدما احتل الجميع أماكنهم مرة أخـرى فى مكتب بروكلى وبروكلى ، ألقى أحد الاخوين بروكلى كلمة قصيرة :

ـ أيها السادة ! (قال مستر بروكلى وهـو ينظر من النـافذة) يبدو لى أنكم توقعتم شيئا أفضل مما شـاهدتموه ، رغم أنـكم على علم بالسعر ، كما يبدو لى أنكم تحسون بشىء من خيبة الامل وعدم الرضاء عن العملية كلها .

ألقى نظره سريعة حوله ، ولما لم يعارضه أحد استطرد قائلا :

ـ فان كان الامر كذلك ، أود أن أنصحكم ألا تخالفوا بأى حال من الاحوال ذلك الهاتف الداخلى الذى يهيب بكم أن تعدلوا عن هـذه الصفقة . ان كنتم فى عجلة من امركم ، فستجدون انه من الصعوبة بمكان الحصول على سفن فى هذه الآونة ، خاصة بهذا السعر .

الكنكم ، اذا كانت لديكم فسحة من الوقت للبحث والتمهل بضعة أشهر ، ستجدون بكل تأكيد شيئا أكثر ملاءمة لطالبكم . ولحسن الحظ تستطيع شركة بروكلى وبروكلى ، بمصادفة مجدودة ، أن تبيع هذه السفن على الفور لمشترين آخرين . فكما قلت لمستر ايستمان بالامس ، تلقت شركتنا عرضا آخر أفضل من عرضكم ، ولن يؤسفنا ألبته أن نراكم تنسحبون من الصفقة . بل وقد نستطيع النظر فى امر تعويض صغير ندفعه لكم . الساعة الان الخامسة والنصف ، وفى السادسة والربع لدينا .. أنا وأخى اجتماع آخر . لهذا يحسن ،بل يجب ، أن نتوصل الى قرار سريع ، وحاسم .

وهنا قال مستر بايل بهدوء :

ـ السفن لا تساوى أكثر من مائتى جنيه على أقصى تقدير ، وهى بكل تأكيد ، ليست صالحة لركوب البحر .

نظر مستر بروكلى فى ساعته وقال :

ـ هأنتم تسمعون رأى مستشاركم . ولا سبب لدينا يدعونا الى مناقضته .ولن يخطر لنا ببال أن نرغمكم على شراء سفن لاتريدونها. فلسنا فى وضع يسمح لنا بتحمل أية مسئولية بشأنها . وقد يكون من الافضل، من وجهة نظر خبيرة بمثل هذه الامور، أن تباع كخشب كسر وحديد خردة . وفى تلك الحالة يكون مبلغ المـائتى جنيه الذى ذكره مستشاركم معقولا . وهكذا فانى لو كنت مكانكم ، أيها السادة، لمـا ضيعت وقتا فى أية مناقشات أخرى .

ثم غادر الغرفة مع أخيه .

فلم يكد الاثنان يخرجان حتى غمغم ايستمان قائلا :

ـ هذه هى السفن الوحيدة المتوفرة حاليا . لا يجب أن ننسى ذلك . ومع ذلك فانى كنت أحبذ الانسحاب من الصفقة عن طيب خاطر لو لم أكن واثقا من أن ذلك العرض الاخر لم يتقدم به أحـد غير صديقنا كوكس . فقد بالغنا فى الصـــلابة معه . وها هو الان يحاول أن يتم الصفقة بشركاء آخرين . شركاء أكثر غباء .

وهكذا انفتحت أعين كثيرين فى تلك الغرفة فجأة على أشياء كانت خافية . وبعد خمس دقائق لا أكثر كانوا واقفين كلهم ، وأقلامهم فى أيديهم ، حول العقد .

فى طريق العودة قال ايستمان للمهندس :

ـ أنت مدرك طبعا أنى لا أفقه من هذه الامور كلها شيئا . ومن الصعب أن أتصور كيف يمكن أن يبحر احد فى برميل عتيق كهذه

السفينة التى رأيتاها . هذه الاخشاب النخرة ستتحلل بمجرد أن يمسها الماء . لكن هذا تفكير رجل الشارع غير المتخصص مثلى . فهناك طبعا تلك الاساليب الحديثة الرائعة . انهم يتوصلون الان باستمرار الى خلق شيء من لا شيء . أراهن أن هذه السفن ستمخر عباب الماء كأى سفينة جديدة بمجرد أن نجرى بعض اصلاحات طفيفة بها ونكسوها جيداً بطبقة من الطلاء . أى نعم . رجل الشارع غير المتخصص مثلى ليست لديه أدنى فكرة عن العجائب التى يمكن تحقيقها هذه الايام .

ولما لم يجب المهندس بشيء ، استطرد ايستمان قائلا بعد صمت قصير ، محدثا فى الواقع نفسه :

ـ أقطع شيء فى هذه الحياة المنافسة التى تتربص بالمرء فى كل لحظة . لا يكاد يتباطأ أو يتمنع عن صفقة ، مهما بلغت قذارتها ، حتى تمتد الف يد لتخطفها منه . تخطف اللقمة من فمه . فيضطر المرء أن يرضى بأى شيء حتى لا يموت جوعا . فذلك الذى ينتابه الضعف أو التخاذل لحظة يقضى عليه قضاء مبرما . وذلك الذى ينشد ما تعارف الناس على تسميته بالاحترام يجب عليه أن يوطن النفس على الخوض فى الوحل الى عنقه . حقيقة ، لا يكاد المرء يفلت من الحضيض حتى تواجهه هموم لا تخطر لرجل الشارع الفقير الذى يظل فى الحضيض ببال .

كله من أجل البنت

أثار تخلف مستر كوكس عن المعاينة مخاوف مستر بيتشام . لم يجد الى النوم سبيلا ، وقضى ليلة ليلاء .

كان متورطا فى شراء ثلاث سفن عتيقة نخرة يعادل نصيبه فيها حوالى نصف سفينة ، وقد بات مصير النقود التى غامر بها متوقفا على مستر كوكس ، فهو وحده الذى يقرر ما اذا كانت تلك النقود ستضيع على صاحبها أم ستعود اليه مضاعفة . وهكذا فان مستر بيتشام أصبح فى قبضة مستر كوكس ، وهو موقف يعنى بالنسبة لبيتشام ما يعنيه الوقوع بين فكى افعى ضخمة بالنسبة للأرنب . فالسؤال الحيوى هو : هل سيتمكن مستر كوكس من تصريف هذه السفن ؟ لماذا لم يحضر المعاينة ، أو ، على الاقل ، توقيع العقد ؟

لقد أخرجوه من الصفقة عنوة ، فلم يعد شريكا بل مجرد سمسار .

ضاق صدر مستر بيتشام فجافاه فراشه ، وهم واقفا وذهب يتجول فى أرجاء بيته ليتأكد من أن كل الانوار كانت مطفأة . لكن قلقه الداخلى العنيف هو الذى دفعه الى ذلك التجوال الليلى لا الحرص على اطفاء الانوار . لم يكن، في تلك الآونة ،في وضع يمكنه من احتمال أدنى خسارة . والاسوأ من ذلك أنه كان يعانى من خوف مرضى فى ذلك الخصوص . فخسارة أقل مبلغ من النقود كانت تفقده كل ثقة بالنفس . فهو رجل لم يكن يثق فى أحد ، ولذا لم يكن هناك مايجعله يثق بنفسه .

كانت كل الانوار مطفأة ، لكن نافذة بولى المفضية الى الشرفة كانت مفتوحة . استطاع أن يراها فى الظلمة ، راقدة على فراشها ، جذب النافذة من الخارج فأغلقها مغضبا .

قال لنفسه وهو يعود الى فراشه :

ــ لم أفعل كل هذا ؟ أفعل كل هذا من اجل هذه البنت . سأضطر الى طرد امرأتين أخريين من الورشة . سيتحلل هؤلاء الملاعين من فرط الكسل . ليس فى طاقتى أن أبقى على كل هؤلاء الناس وأدفع لهم أجورا . لا احد يكف عن العمل ، أو عن التظاهر به ، سواء توافد الشحاذون أم انقطعت أرجلهم من الدكان . ماالذى يهمهم ؟ انهم لا يخاطرون بشىء . وبولى هى الاخرى ، تستطيع أن تقوم ببعض العمل . ماذا تظن نفسها ؟ كوكس هذا لا يمكن الوثوق به . لم يكن ينبغى لنا أن نستمع اليه ، على الاطلاق . انها حيلة قذرة أن يقترح على المرء صفقة كهذه ثم يتركه غارقا فيها حتى اذنيه ويهرب . بودى لو قطعت رقبته . لكن ما الفائدة ؟

ثم جلس فى فراشه فجأة وهو يتصبب عرقا :

ــ يالى من أحمق مأفون ! سينتهى أمرى بأن أصبح متسولا ! أى شىء جعلنى أتعامل مع رجل لا أستطيع أن ألوى عنقه ؟

فى صباح اليوم التالى ذهب بيتشام الى ايستمان ثم ذهب الاثنان معا الى مكتب كوكس فى حى المال والاعمال . راوغتهما التايبست شاحبة الوجه قليلا ، ثم قالت لهما بصفاقة أن كوكس قد غادر المدينة . فوق أن المكتب ، الذى لم يكن بيتشام قد رآه من قبل ، أحدث فى نفس الاخير تأثيرا سيئا للغاية . انقبض قلبه وهو يجيل عينيه فيما حوله ، وقد أدرك أن هذا مكتب نصاب !

قضى بيتشام بقية ذلك الصباح فى عذاب مقيم .

كان قد تورط فى هذه الصفقة أصلا لانه فهم أنهم سينصبون على الحكومة ، فجعله ذلك يثق فى الصفقة وفى القائمين بها ثقة عمياء . فالعمليات التى من هذا النوع تكون ـ عادة ـ مأمونة . فالنصب على الاخرين هو ـ بعد كل شىء ـ الهدف المشروع لكل رجل أعمال يدرك ما هو بسبيله . اولا ان الدنيا لا أمان لها ، فهى تباغت المرء دائما بما ليس فى الحسبان ؛ فيجد نفسه متصوبا عليه بدلا من أن ينصب هو على الاخرين . والحقيقة أن المرء يكاد ، فى ساعات اليأس، يؤمن بأنه لاحد لشرور الدنيا وأهلها . لكن بيتشام لم يكن فى حاجة الى اليأس ليؤمن بذلك. فتلك كانت عقيدته الراسخة ، بل الوحيدة.

لكن ايستمان جاء بعد الظهر فأعلن أن كل شىء على ما يرام . قال ان كوكس قد عاد شريكا من جديد ، أو بالاحرى ، أكد للجميع أنه لم يكن قد انسحب من الشركة فى أى وقت ، وأنه ذاهب ، فى أصيل ذلك اليوم ، لمعاينة السفن مع صديقه المسئول فى الامبرالية ، وعلى بقية الشركاء أن ينتظروا عودته فى مطعم معين .

معاينة السفن ! مصيبة اخرى ! بدا الرجال السبعة الذين جلسوا ينتظرون فى ذلك المطعم كما لو كانوا قد حكم عليهم بالابحار على ظهر « المتفائل » !

فى الخامسة والنصف دلف كوكس الى قاعة المطعم ، مرتديا ربطة عنق حمراء جديدة متوهجة الحمرة مجتهدا فى أن يبدو نصابا بكل معنى الكلمة ، فلما وقف امام مائدة الشركاء ، أخرج من جيبه ـ بحركة مسرحية للغاية ـ عقدا موقعا مختوما بخاتم الامبرالية ،ومعه شيك بمبلغ ٥٠٠٠ جك (خمسة آلاف جنيه استرلينى) قابل الدفع فورا لامر شركة النقل البحرى ، دفعة تحت الحساب .

قال ان سعادة الوزير لم يكن لديه وقت لمعاينة السفن . ثم اضاف بنبرة الواثق من نفسه غاية الثقة ، المستخف بكل تلك الشكليات :

ـ مثل هذه الاجراءات الشكلية ليس هناك مايدعو اليها بين الرجال الشرفاء . أوه ! كدت أنسى ! لقد أنفقت ألفى جنيه من اموالكم ، أعطيتها لمستر هيل . مساهمة منا فى صندوق اغاثة الأسر المنكوبة بالمصالح الحكومية . قال أن الفا واحدة تكفى ، لكنى وجدت أن الآلة التى يحسن تزييتها تعمل بطريقة أفضل .

كان مزاجه معتدلا للغاية . فقد ذهب الى ساوثمبتون ، ثانية ، فى ذلك اليوم، وحصل على حق أسبقية شراء السفن الراسية هناك. كان كل شىء يجرى على مايرام ، فى دقة الساعة . وقد عقد العزم

على تلقين السادة هؤلاء الشركاء فى شركة النقل البحرى درسا لاينسى. أسعده كثيرا أن يرى بعين الخيال تلك السفن الجيدة الراسية فى ساوثمبتون فاردة شراعها مبحرة الى عرض البحر ، تاركة الشركاء فى ورطة موحلة ، ومستر كوكس سابحا فى بحر من النقود .

لكنه لم يذكر شيئا من ذلك كله ، بطبيعة الحال ، للشركاء . ولم يذكر لهم شيئا ، على وجه الخصوص ، عن السفن الراسية فى ساوثمبتون . ظلت السفن الثلاث المحطمة المملوكة للشركة مدار حديثهم . قال أن الاجراءات التى اتفق عليها هى التالية : سيتم تسليم السفن رسميا الى الحكومة بأسرع ما يمكن ، أما أعمال الترميم وما اليها فيمكن البدء فيها بعد التسليم ، وعند اتمامها سيتم سداد باقى الثمن المتفق عليه مع الامبراطورية .

فوافقوا كلهم عن طيب خاطر . لكن الرأى استقر طبعا على البدء فورا باجراء تجديدات أولية للسفن الثلاث قبل التسليم الابتدائى . فلم يكن هناك مهرب من اجراء بعض الترميمات وأعمال الطلاء وما الى ذلك حتى تبدو تلك التوابيت العائمة شبيهة بالسفن على الاقل . وقد قال مستر كوكس ، جادا ، فى معرض الحديث عن ذلك :

ــ ولا يجب أن ننسى أن هذه السفن يجب أن تظل متماسكة طوال رحلة بحرية تبلغ عدة آلاف من الاميال .

وقد وكل الاشراف على ذلك الجانب من العملية الى ايستمان . سوف يكلفهم الامر بضع مئات من الجنيهات ، وربما بضعة آلاف ، لكن ذلك شر لا مهرب منه . والحقيقة أنهم جميعا ، بعد ما عانوه من قلق واضطراب وتوجس فى الآونة الاخيرة، كانوا قد قروا عينا واطمأنوا على أموالهم الى الحد الذى جعلهم على استعداد لغض النظر عن شىء من الاسراف . حتى مستر بيتشام وافق على ذلك .

الى هنا كان كل شىء يسير على مايرام ، الى الحد الذى جعل بيتشام يدهش بحق عندما جاءه الشريك مربى الاغنام ، بعد بضعة أيام ، قائلا أنه لا يستطيع الاستمرار فى الصفقة ، لانه فى حاجة الى كل أمواله الحاضرة للوفاء بالتزاماته فى توريدات الجيش . وبعد مناقشات طويلة ، وافق بيتشام على شراء نصيبه فى الشركة ، بحيث أصبح الان يملك السبعين (٢/٧) . وقد اعتبر ذلك توفيقا مجدودا يحسد عليه .

لكن الانباء المزعجة ما لبثت أن جاءت من الامبراطورية .

وقد جاء بتلك الانباء ايستمان الذى قابل كوكس صدفة فى أحد

المطاعم وتحدث معه • فالظاهر ان صعوبات معينة نشأت فجأة فيما يتعلق بالعقد المبرم مع الحكومة ، اذ أوعز بعضهم الى الوزير بأنه يحسن تشكيل لجنة فنية من المهندسين لمعاينة السفن • ورغم أن « الرجل » قاوم ذلك الاقتراح حتى الان ، الا أنه قرر أخيرا أنه يكون من الأسلم أن يتفقد السفن بنفسه ليطمئن قلبه على الاقل وبذلك بات الامر كله متوقفا الان على التوصل الى تأجيل تلك الزيارة حتى تكون الترميمات الاولية قد قطعت شوطا لا بأس به .

هذه الانباء المزعجة كانت السبب فى عودة بيتشام الى بيته فى الليلة السابقة لرحلة زوجته وابنته ـ التى لم يكن يعلم عنها شيئا ـ مع تاجر الاخشاب ، وقد بدت عليه علامات الانهيار ، وذهابه الى الفراش فورا حيث أحاط نفسه بزجاجات الماء الساخن وشرب الشاى بالبابونج ثم قضى ليلة ليلاء .

وقد أعقب ذلك أسبوع محموم من المفاوضات تقطعت فيه أنفاس الشركاء • ومما زاد الامر صعوبة وتعقيدا أن مستر كوكس رفض أن يعطيهم عنوانا يجدونه فيه ، وكلما سألوه قال انه بسبيل الانتقال الى مسكن جديد .

وهكذا فان الشركاء جميعا قضوا تلك الايام السوداء رائحين غادين بين بيوتهم وأرصفة الميناء . لكن الترميمات الاولية كانت تجرى ببطء شديد . وقد اكتشفت أشياء داخل السفينة المدعوة « بأنا الجميلة » جعلت شعر النجارين المشتغلين بترميمها يقف هولا • وكذلك « الولد البحار » ، كانوا كلما نزلوا بداخلهما ، ارتعدت فرائصهم . أما « المتفائل » فلم تكن الاصلاحات قد بدات فيها بعد، لان المقاولين لم يصلوا الى قرار بشأن امكانية وضع السلالم على جوانبها دون أن يعرضوا حياة عمالهم للخطر •

وبالاضافة الى كل هذا كانت هناك شائعات وأقاويل كثيرة تتداولها الالسن فى منطقة الميناء . فالنجارون كانوا يثرثرون باكتشافاتهم كلما جلسوا لتناول وجباتهم فى حانات الميناء . وعندما حاول ايستمان تكتم الامر بالتلويح امامهم بأن التحدث فى هذه المسائل يعتبر خيانة وطنية ضحكوا فى وجهه • فأولئك الرجال جميعهم كانوا ممن نورتهم الاشتراكية ، فلم يعد من السهل الضحك على عقولهم .

غير هذه البلايا جميعها ، بات واضحا للشركاء أن تكاليف الترميمات الأولية لن تقل بحال عن خمسة أو ستة آلاف جنيه .

خلال ذلك الاسبوع الذى لاينسى ، قابل بيتشام مستر كوكس

عند ايستمان ، فدعاه بيتشام الى تناول العشاء فى بيته . فالامر كله بات متوقفا على كوكس ، اكثر من أى وقت مضى . وقد جاء كوكس بوجه ينطق بالثقة والطمأنينة . وأثناء ذلك العشاء الذى حضره ايستمان ، التقى السمسار النصاب بالانسة بولى بيتشام لاول مرة . وقد كان الرجل زئر نساء من أسوأ الانواع طرا . ومما يفصح عن حقيقة خلقه أنه كان ـ فى الوقت ذاته ـ من أشد الناس استهجانا لمثل ذلك الضعف تجاه النساء عند الاخرين .

كان بيتشام قد اهتم بأمر السيد كوكس فى الآونة الاخيرة اهتماما خاصا ، وكرس له جزءا لا يستهان به من جهوده ووقته . وقد سمع ، نتيجة لذلك ، أقاويل عديدة ومتباينة عن فضائح نسائية مخجلة يتورط فيها مستر كوكس بصورة تكاد تكون مستمرة ، وتكاد تكون منحصرة فى صنف واحد بعينه من أحط اصناف النسوة ، وهى فضائح بلغ من فظاعتها أنه كان يفلت فيها من لفت أنظار البوليس ، فى كل مرة ، بصعوبة ، وفى اللحظة الاخيرة لسوء الحظ وقف مستر بيتشام على ذلك كله بعد فوات الاوان ، لانه لو كان قد عرف تلك الاشياء عن مستر كوكس ، لبات ذلك سببا آخر للاحجام عن أى تعامل معه . لا لان أخلاقيات مستر بيتشام كانت عالية . بل لان رجل الاعمال الذى لاينقطع لاعماله ، ويضع كل قلبه فيها ، يعرض نفسه دائما ، ويعرض من يتعاملون معه ، لمخاطر مالية جسيمة . لكن اجترار ذلك كله بعد أن وقعت الواقعة لم يكن يجدى أحدا شيئا . وبذا لم يعد أمام مستر بيتشام الا أن يجارى ذلك الفاجر كوكس ويتملقه .

تألقت بولى فى ذلك العشاء ، واستعرضت مفاتنها . تحدثت مع كوكس كسيدة صالونات خبيرة . بل وذهبت الى حد الجلوس الى البيانو ، بعد أن تناول السادة قهوتهم ، فغنت أغنية وطنية بصوتها الحلو المسرسع قليلا . وعندما انقضى العشاء لم يبد كوكس ميلا للعودة لبيته ، فاقتنع ايستمان ، بل وبيتشام أيضا ، بمصاحبته فى جولة عربدة ليلية بين الكباريهات ومواخير العاصمة . أمال قبعته القطنية الرمادية على عينه بزاوية حادة تنبىء عن « شقاوة » شديدة . لكن خديه الرماديين كانتا ترصعهما بقعتان متقدتان تنمان عن داء دفين ينهش صدره . وقد انقاد مستر بيتشام راغما ، فى سبيل نقوده ، فسار بجانب الرجل كما لو كان ذاهبا الى جنازة . كان يفضل لو ذهبوا ثلاثتهم الى رصيف

الميناء حيث كانت وردية ليلية من العمـــال تشتغل بترميم سفن الشركة ، بأجور مضاعفة .

تصرف كوكس فى النوادى الليلية التى دخلوها ــ كما توقـع بيتشام تماما ــ تصرف فاجر عربيد، لا تصرف رجل أعمـــال عاقل بل ودفع الحساب فى كل مرة .

وفى اليوم التالى فاجأ الشركاء بنبأ استلام مستر هيل ، المسئول الكبير بالاميرالية ، للسفن الثلاث ، رسميا ، بغير معاينة . ولكن برشوة اضافية ، من شركة النقل البحرى الى شخصه ، قدرها ثلاثة آلاف جنيه استرلينى (٣٠٠٠ جك)بالتمام والكمال .

(٣)

كيف يحيا الانسان بأزهاق أرواح اخوته البشر ·
بسحقهم ، واستعبادهم ، بالتهام كل من استطاع الى اكله سبيلا!
فرصته الوحيدة للبقاء هى أن ينسى ،
نسيانا تاما وكاملا ، انه هو أيضا بشر ،
كلا يا سادة ! هذه الحقيقة لا نستطيع التعامى عنها :
الانسان يحيا بشىء واحد ولا شىء سواه : الاعيبه القذرة !

(نشيد من « أوبرا البنسات الثلاثة »)

دكاكين حرف « ب »

فى تلك الايام كان فى لندن عدد كبير من دكاكين متشابهة تباع البضائع فيها بسعر أقل من سعرها فى اى مكان آخـــر . وقد عرفت تلك السلسلة من المحلات بدكاكين حرف « ب » ، والمفروض ان ذلك الحرف الاخير يرمز الى عبارة « برخص التراب » ، ولو أن بعض الناس ، اكثرهم من أصحاب المحلات ، قالوا ان حرف « ب » اختصار لكلمة «بالوعة» ، كناية عن القاذورات التى تكتنف الامر كله . لكن سواء كان الامر كذلك أو لم يكن ، فان المرء كان يجد فى تلك الدكاكين كل شىء ، من شفرة الحلاقة الى الاثاث ، وفى معظم الامر كانت معاملات الدكاكين لا تشوبها شائبة · وقد أقبـل الفقراء على تلك المحلات اقبالا متزايدا ، لرخص أســعارها ، لكن صغار الصناع وأصحاب الدكاكين الاخرى كانوا يتميزون غضـبا بسببها ··

كانت تلك الدكاكين مملوكة لمستر ماكهيث · وقد كانت للرجل، فى الحقيقة ، عدة اسماء · لكنه عرف ، بوصفه مالكا لدكاكين حرف « ب » ، باسم **ماكهيث** .

فى مبدأ الامر كانت هناك فروع قليلة ، فرعان أو ثلاثة فى الاحياء

المحيطة بجسر ووترلو ، ونصف دستة فى احيـــاء آخرى شرقى المدينة . وقد راجت أحوال تلك الفروع جميعا لانها كانت بالفعل رخيصة للغاية ، بحيث لاينافسها أى دكان آخر . لكن الحصول على سلع رخيصة الى ذلك الحد لم يكن أمرا سهلا فى كل الاحوال ، ولذلك فان المستر ماكهيث وجد لزاما عليه أن يؤسس منظمـــة شديدة التعقيد ، تعمل فى ظل ظروف خطرة وبالغة الصعوبة ، قبل أن يستطيع التفكير جديا فى التوسع .

والاهم من ذلك كله أن هذا النشاط المعقد برمته كان يجب أن يتم سرا ، فى خفية شديدة . فلم يكن أحد يعلم من أين يحصـــل ماكهيث على بضائعه ،ولا كيف يحصل عليها بتلك الاثمان البخسة.

لكنه لم يهتم لذلك التساؤل المحتمل . فلقد كان بوسعه دائما أن يشبع فضول من يمعن فى اللجاجة بشأن المصادر التى يحصـــل منها على بضائعه بالاشارة الى أن لندن وغيرها من الاماكن تحفل دائما بدكاكين صغيرة تفلس باســتمرار ، وأن تلك الدكاكين التى تفلس تكون قد اشترت بضائع جيدة بالاسعار العادية ، لـــكن أصحابها يرحبون ــ بعد الافلاس ــ بتصفية تلك البضـــائع بأى ثمن . ثم يضيف مستر ماكهيث بعد ذلك ، هذه الحكمة التى لا يمارى فيها أحد :

ــ الحياة صعبة كما تعلم ، ولا يجب ان نضعف أو نتخاذل .

فقد كان الرجل من هواة الاقوال الضخمة الرنانة . غـــير أن المتعمق اللحوح كان حريا أن يكتشف أن مستر ماكهيث سيعجز ، فى معظم الاحيان ، عند تقديم اية ايصالات او مســـتندات تثبت ملكيته المشروعة لتلك البضائع كلها التى يبيعها فى محلاته . فوق أن تلك المصادر العشــــوائية (كالدكاكين التى تفلس فيشترى بضائعها بأبخس الاثمان) لم تكن كافية بحال لتزويد محلاته بذلك السيل من البضائع المكدسة فيها باثمان لاتعقل ، وهى ــ على اية حال ــ مصادر غير منتظمة ولا يمكن الارتكان اليها .

على غرار دكاكين حرف « ب » هذه ... كانت هناك عدة دكاكين اخرى متناثرة فى أحيــــاء لندن تبيع « الانتيكات » ، والتحف ، والمجوهرات ، والكتب النادرة ، باثمان اكثر ارتفاعا من المألوف فى محلات مستر ماكهيث ، لكن تلك البضائع كانت جيدة ومنتقـــاة بالفعل ، وتستحق مايدفعه المشترون فيها . ولقد قيل ان تلك الدكاكين هى الاخرى كانت مملوكة للسيد ماكهيث ، وانه يحقق

من ورائها أرباحا كبيرة يستخدمها فى تمويل دكاكين حرف « ب » .
لكن ذلك أيضا كان أمرا بعيد الاحتمال ، فوق أنه ظل هناك تساؤل بغير جواب : كيف ومن أين يحصل ماكهيث على السلع التى يبيعها فى دكاكينه هذه ؟

وفى صيف عام ـ ١٩ وجد مستر ماكهيث نفسه متورطا فى مصاعب خطيرة ، مما اضطره الى التقدم لاحد البنوك ، وهو « بنك الائتمان الاهلى » ، طالبا مساعدته . وقد سر أصحاب الدكاكين الاخرى كثيرا لذلك ، وامتلأوا شماتة .

غير أن استعلامات البنك مالبثت أن أكدت سلامة المركز المالى لشركة ماكهيث . ولقد حبذ البنك كثيرا نظام العمل اللامركزى فى الشركة ، والذى يكاد كل دكان من دكاكين الشركة أن يكون مستقلا فى ظله استقلالا كاملا عن المنشأة الام ، الى الحد الذى يصعب معه اعتبار تلك الدكاكين مملوكة لماكهيث . ولقد أدرك هذا الاخير ، عندما بدأ مشروعه ، أن الاستقلال اعتبار غاية فى الاهمية بالنسبة للسواد الاعظم من صغار التجار ، وأن هؤلاء الناس ينفرون نفورا شديدا من الخضوع خضوعا كاملا لمشروع اكبر كما لو كانوا مستخدمين فيه ويصرون على أن يظل جل اعتمادهم على قدراتهم الخاصة ، رافضين بحزم شديد كل مساواة فارغة بينهم وبين الاخرين . فهم على أتم استعداد لان يعملوا أكثر مما يعمل الاخرون ، لكنهم يريدون أيضا أن يكسبوا أكثر . فوق أنهم لا يريدون أن يكون لاحد الحق فى اصدار الاوامر اليهم أو ازعاجهم بأى كلام فارغ لا وقت عندهم للانصات اليه .

والحقيقة أن مستر ماكهيث تحدث عن ذلك الاكتشاف الهام من جانبه لذلك النزوع نحو الاستقلال الفردى فى أكثر من حديث صحفى .

ولقد اسمى ذلك النزوع بالنزوع الموروث فى الطبيعة الانسانية ، لكنه عبر عن اعتقاده ـ فى الوقت ذاته ـ بأن الانسان الحديث بوجه خاص ، انسان العصر التكنولوجى ، الذى الهب حماسه انتصار البشرية الشامل ، الذى لم يسبق له مثيل ، على الطبيعة ، هو الانسان الذى يتضح لديه ، بأقوى صورة ، ذلك النزوع الى اثبات تفوقه الذى لايبارى ، أمام نفسه ، وأمام الاخرين . وقد اعتبر مستر ماكهيث ذلك الطموح مبررا بشكل مطلق ، على المستوى الاخلاقى ، لانه نافع لكل الناس بما يترتب عليه من منافسة قاطعة

للاسعار (١) . هـذه المعركة الكبرى المستمرة أبداً التى لم يكن يخوضها الا الكبار ، أصبح الرجل الصغير راغبا فى خوض غمارها. ولقد رأى مستر ماكهيث فى ذلك الميل من جانب « رجل الاعمال الصغير » علامة صحة ، واعتبر أن واجب دنيا الاعمال يقضى بتشجيع ذلك الميل ، مجاراة لظروف العصر ،وعملا على الافادةمنها. ولقد أعلن مستر ماكهيث فى أكثر من حديث صحفى له اننا لايجب ان نقف فى وجه الطبيعة الانسانية أو نعمل ضدها ، بل نجاريها ونعمل معها ! ولقد كانت محلات حرف « ب » ــ فيما يتعلق بتنظيمها ــ تطبيقا عمليا لذلك الاكتشاف ،فبدلا من المستخدمين والبائعين بالاجر كانت شركة ماكهيث تعتمد فى تصريف بضائعها على مجموعة كبيرة من التجار الفرديين الذين يتمتعون بالاستقلال الذاتى ، ولا يتقاضون اجورا ، بل يحققون أرباحا . هؤلاء التجار انتقتهم الشركة بعناية فائقة ، ثم هيأت لهم السبل لفتح دكاكينهم ، ثم زودتهم « باستوكات » من البضائع المختلفة ، ومنحتهم الائتمان الكافى . وانتظمت الامور بينهم وبين الشركة بعد ذلك ، فاستقرت على استلام رسالة اسبوعية من البضائع المنوعة يتعين عليهم تصريفها مع مراعاة ان لهم مطلق الحرية فى التصرف فى تلك البضائع كيف شاءوا . فكل ما تطلبه الشركة منهم أن يسددوا ايجار الدكاكين بانتظام ، وأن يسددوا أثمان ما يحصلون عليه من بضائع ، وهم بعد ذلك أحرار فى دفاترهم . بشرط واحد فقط : أن تظل أسعار البضائع رخيصة ، فى مستوى أقل من السوق كثيرا . فالعمليةكلها قامت على خدمة « الرجل الصغير » ، تاجرا ومستهلكا على السواء .

وقد دبر أولئك التجار أمورهم بحيث استغنوا ــ فى معظم الحالات عن استخدام عمال أو موظفين يكلفونهم نفقات اضافية ، فاستعانوا بعائلاتهم . كنت ترى عائلة بأكملها تعمل فى الدكان من تلك الدكاكين، صغارا وكبارا ، وكان ذلك فى الواقع نظاما عمليا للغاية ، اذ اختفت بذلك المشاحنات المألوفة حول ساعات العمل والاجور وما الى ذلك، كما لم يعد هناك مجال أيضا لما يبديه المستخدمون عادة من عدم

---

(١) من الواضح أن برخت يسخر هنا من المذهب « النفعى » فى الاخلاق وهو الذى انبنى عليه فكر الاقتصاد الحر « Laissez-faire » القائم على المنافسة ، والذى يعتبر التطاحن الحر المطلق من القيود خير للجميع . من حيث انه تجسيد ــ على المستوى الاجتماعى الاقتصادى ــ لمقولةالبقاء للاصلح . وبرخت عندما يشير هنا ساخرا الى المنافسة القاطعة للاسعار انما يوحى « بالمنافسة القاطعة للرقاب » «Cut-Throat Competition» !

اكتراث تجاه ايرادات مخدوميهم : فقد كان كل من يعمل فى الدكان من أفراد الاسرة صاحب عمل .
ولقد كتب مستر ماكهيث فى مقال صحفى له معلقا على ذلك :
« وبهذه الطريقة توقف تماما نمو ذلك التحلل الوبيل للحياةالعائلية الذى يأسى له كل من يهتم بخير الجنس البشرى . فالعائلة بأكملها تشترك فى العمل . وبالنظر الى أن تلك الاسرة يصبح لها فى ذلكالعمل هدف مشترك ومصلحة واحدة فانها تصبح — من جديد — يداواحدة وقلبا واحدا . فالفصل بين العمل والحياة الخاصة يمكن أن تكون له عواقب وخيمة للغاية ، من وجوه عديدة ، تجعل الافراد ينسون الاسرة فى غمرة انشغالهم بعملهم ، وينسون العمل فىغمرةانشغالهم بأسرهم . والواقع أن دكاكين حرف « ب » قدوة طيبة فى ذلك المجال أيضا ، قدوة تبين مايمكن للمرء تحقيقه متى صدقت نيته فى خدمة المجتمع . »
كان من السهل على مستر ماكهيث أن يقنع البنك بأن مصاعبه لم تكن مصاعب على الاطلاق ، وأن النقود التى يحتاجها سوف توجه الى التوسع . ومع ذلك تردد البنك فى عقد القرض ، لان البنك لم يكن مطمئنا الى مستر ماكهيث ذاته .
والحقيقة أن عددا من الشائعات غير السائغة كان ذائعا حول الرجل فى حى المال والاعمال .وبالرغم من أن تلك الشائعاتلم ترق أبدا الى مستوى الاتهام الصريح المباشر ، الا أنه كان من المتعين أخذها فى الحسبان . ولم تكن الاقاويل والتخرصات منصبة بوجه خاص على وسائله فى الشراء والمصادر التى يحصل منها علىبضائعه ، لكن تلك المسائل لم تكن — فى الوقت ذاته — مغفلة تماما .
قيل أنه تورط مرة أو مرتين فى فضائح معينة . لكن قيل أيضا أنه تمكن — فى كل مرة — من اثبات براءته على الفور . ولم يصل الامر فى أى مرة الى مرحلة الاجراءات القضائية . ومع ذلك فقد وجد دائما أناس عديدون ، لا هم من أصحاب الدكاكين ولا صلة لهم بأصحاب الدكاكين ، عبروا عن ايمانهم القاطع — وان لم يفعلوا ذلك علنا — بأن ماكهيث هذا لم يكن من أفاضل الناس.وقد وجد أيضامن تمنى لو استطاع أن يجر ماكهيث الى ساحات المحاكم ، مفضلا ذلك على التصالح معه ، ولكن وجد ايضا من آثر السلامة وقال : لا قبل لاحد بالمحامين الذين يستخدمهم ماكهيث .
تلكأت المفاوضات مع « بنك الائتمان الاهلى » بشكل لم يتوقعه

ماكهيث إصلا . وقد بدأ – نتيجة لذلك – يحس بالندم لاتصاله بالبنك ، لان هذا التسويف فى منحه القرض المطلوب حرى بأن يثير الاقاويل القديمة ضده ، ويشعل جذوتها من جديد . ولو أتيحت له اقل بادرة لانتهزها وانسحب لفوره ، صارفا النظر عن مسـألة القرض من أساسها .

كان – لاكثر من سبب – يستخدم أكثر من محام . وقد علم من أحد أولئك المحامين أن شخصا يدعى جوناتان أرميا بيتشام (وهو من أشد عملاء « بنك الائتمان الاهلى » نفوذا) لديه ابنة غير متزوجة. وسرعان ما توصل ماكهيث الى التعرف بتلك الابنة . ولم يكد يجد ترحيبا من الام حتى كرس نفسه تماما للفوز بالفتاة ، بصرف النظر عما قد يكلفه ذلك من وقت وجهد . والسبب الوحيد فى أنه قدم نفسه الى بولى وأمها باسم جيمى بيكيت ، كان حذره الطبيعى لاأكثر.

وبعدها جعل أعمال مستر بيتشام شغله الشاغل. وسرعان ماتبين له أن الرجل يدير منظمة ضخمة من الشـحاذين . وقد بدت له الوسائل المتبعة بارعة بحق ، سواء فى ابتكارها أو فى وضعها موضع التنفيذ . كحكاية الشحاذين الذين يمثلون دور « المصـور الفقير » مثلا . وقد أوضح له أحد أصدقائه ممن يعرفون بيتشام الفكرة التى قامت عليها، فقال ان الشحاذين لايحملون لوحاتهم معهم مرسومة جاهزة ويعرضونها فى الطرقات ليشحذوا عليها ، بل يرسمون مناظر طبيعية وصورا للمشاهدين على أرصفة الشوارع بالطباشير الملـون لاسباب سيكولوجية . فهم اذا أقاموا معارضهم المتنقلة على الارصفة بلوحات مرسومة جاهزة سيوقعون الجمهور فى لبس وحيرة ،لان الجمهور لن يكون لديه اذ ذاك سبيل للتيقن من ان ذلك الشـحاذ الذى يتسـول هو الفنان الذى رسم اللوحات ، أما فى حالة الرسـم على الرصيف بالطباشير فالامر يختلف . فوق ان تلك اللوحات الاخيرة موقوتة ، من حيث أن اقدام السابلة تمحوها ، والمطر يزيل كل اثر لها ، وهى تكاد تمطر فى لندن كل يوم ! وهكذا فان الصور يجب أن ترسم من جديد كل يوم ، وبذلك فان المحسن يجب أن يحسن الى راسمها فى اليوم ذاته . وكلها ألاعيب ، على أية حـال ، تنبىء عن معرفة عميقة بالطبيعة الانسانية .

فى منتصف يونيو قرر ماكهيث أن يتغاضى عن عدة شكوك جانبية متباينة ظلت تراوده ، ويسير فى الخطبة قدما ، مدركا أنه يجب أن يعالج أمر هذه الزيجة بطريقة تحوطها هالة من الاحترام الكامل ،

مما يطمئن الاسرة الى أن ابنتهم فى طريقها الى حياة عائلية راسخة لا تشوبها شائبة .
فأرسل خطابا الى مسز بيتشام يستفسر منها عن الموعد الذى يمكن أن يزورها فيه ، فقد فسر اضطرابها يوم زيارته الاولى على وجهه الصحيح ، وأدرك انها لم تكن قد ذكرت لزوجها أى شىء عنه .
جاءه الرد بموعد ضربته له فى حانة « الاخطبوط » ، حتى يمكنهما التحدث على راحتهما ، فيتمكنان من مناقشة الامر على مختلف وجوهه ، والوصول الى رأى حاسم فيه . وعندما قابلته أثارت أعصابه بحديثها عن فساد الشباب هذه الايام . ثم قالت وهى تمسح زبد البيرة الابيض من شفتيها :
ـ لكن بعض شباب هذه الايام لايعرفون ماذا يريدون . انهم كالاطفال . خذ ابنتى بولى مثلا . انا أعرفها كما أعرف راحة يدى. لكننى ، مع ذلك ، لا أستطيع أن أجزم الى أى جانب يميل قلبها .ولعل كل مافى الامر أنها مازالت صغيرة . لا خبرة لها بالرجال بعد . نعم قد تعرف الفرق بين كلب ذكر وكلبة أنثى . لكننى لاأظن أنها تعرف حتى ذلك معرفة دقيقة . فهى لاتعرف هذه الاشياء . ولا تفكر فيها . انت تعرف ما أعنى . ولعلك لاتعرف أنها لم تأخذ فى حياتها حماما واحدا وهى عارية . فنحن نجعلها ترتدى قميصا كلما استحمت ، حتى لا ترى جسدها . وفتاة بريئة هذا شأنها عندما ترى رجلا أمامها لايخطر لها ببال فيم يمكن أن يستخدم ذلك الرجل. فوق أن البنات فى مثل سنها يكن رومانتيكيات للغاية ! أنت لاتتصور كيف تلتهم هذه البنت الروايات التهاما . لن تصدق اذا قلت لك . وهى لاتكف طيلة الوقت عن الحديث عن ذلك الولد . مستر سمايلز فعل هذا ، مستر سمايلز قال ذلك . وهو ما يجعلنى موقنة من أنها لا تريد أحدا سواك . قلب الام يامستر بيكيت . قلب الام !
قالت ذلك وهى تحملق فى عينيه بعد أن تأكدت من انها قدشربت كل مافى كأسها ، ومن أن أحدا سواهما لم يكن فى الحديقة .
وعندما صارحها مستر بيكيت ، فى اللحظة الدرامية الملائمة ، انه ليس بيكيت ، بل ماكهيث ، صاحب دكاكين حرف « ب » المشهور ، وأن نواياه تجاه ابنتها شريفة تماما ، لم يبد عليها أدنى تأثر ، أو دهشة ، كما لو كانت قررت فيما بينها وبين نفسها أنه رجل يتوقع منه المرء أى شىء ، فأجابته على مصارحته بنظرة خاوية أوشكت أن تكون مراوغة ، ثم تنهدت قائلة :

ـ كذا ؟ طيب . لكن زوجي لايجب أن يعرف شيئا عن كل هذا . فلديه مشروعات اخرى بالنسبة لمستقبل الفتاة . أنت تقدر ذلك طبعا . انه أب متفان . دائما يقول كله من أجل البنت ، كله من أجل البنت ، وهو يعني مايقول حقا . وقد صحب معه الى البيت ، يوم أول أمس ، دون سابق انذار ، سيدا يدعى مستر كوكس . يقال انه ثرى للغاية . أنت تعرف مستر كوكس ؟

طبعا يعرف مستر كوكس . ومنذا الذى لا يعرفه ؟ أسمه كالطبل فى حى المال والاعمال .

وهو ، شخصيا ، لم يسمع شيئا يسر عن مستر كوكس هذا . فوق أن الرجل زئر نساء لاخلاق له . كذا ؟ نعم كذا .

(فبصرف النظر عن أية اعتبارات مادية لدى ماكهيث الذى كان رأسه محشوا فى تلك الآونة بمشكلات ومتاعب متعلقة بأعماله ،كان مجرد سماعه لاسم كوكس فى أمر يتعلق ببولى أشبه بطعنة نفذت الى قلبه . اكتشف أنه متيم بالفتاة بدرجة تفوق كل ما صارح به نفسه .)

سأل الام بصوت مبحوح من فرط انفعال :

ـ وما الذى يمكن عمله بذلك الشأن ؟

قالت مسز بيتشام وهى تنظر اليه ساهمة :

ـ هذا هو ما أود أن أعرفه .

ثم انقلبت نظرتها المهمومة إلى نظرة مثلوجة وهى تحدجه طولا وعرضا كأنما تزنه حتى سرت قشعريرة فى جسده . قالت له :

ـ بنات هذه الايام لا يمكن التكهن بما قد يفعلنه . فرءوسهن محشوة بالافكار الرومانتيكية .

لكنها ما لبثت أن وضعت يدها الصغيرة البضة على يده ونادت على النادل ليأخذ الحساب .

وبينما هو يصحبها خارجا عبر الممر القصير بين الموائد الحديدية كررت قولها الاول من أن كل شيء يجب أن يتم بمنتهى الحذر ، وبغير علم بيتشام . وفى نفس الامسية قابل الخوخة ذاتها ، فتعطفت وسمحت له أن يوصلها .

والغريب أنها سارت من شارع أولد أوك فى أتجاه الحديقة العامة بالرغم من أن تلك كانت من أمسيات دروس التدبير المنزلى . وأخذت تنظر وراءها وحولها عدة مرات أثناء الطريق ، كأنها تبحث عن أحد، لكنها لم تحاول أن تتخلص منه ، وأخيرا جلست على دكة بين الاشجار .

بدت له رائعة الحسن فى ثوبها الهفهاف ، ولم يلحظ عليها أدنى اضطراب أو توتر . أخذ يملأ عينيه من جمالها . لم تكن من ذلك الصنف من الفتيات الذى يبدو كالدمى الخشبية . كانت فتاة ناضجة، مكتملة الانوثة ، وجبة دسمة كاملة لا مجرد « تصبيرة » عابرة .

لم تبد أي استعداد للخوض في حديث عن كوكس وسمايلز . قالت له :

- الامسية أجمل من أن نضيعها فى مثل هذا الحديث .

وقد أضحكها كثيرا أنه على علم بأمـــر كوكس وأن علمه بالامر أزعجه .

عندما عـــادا أدراجهما لم يكن قد وقف على أى شيء منها ، لكن أشياء عديدة كانت قد حدثت . لم تصده تماما . لكنه لم يكن سعيدا لانها - عندما قارب الوصول الى لب الموضوع - صمدت له بعنـاد لا يحيد فلم تدع يده تصل الى غايتها . وقد أثار حنقه أيضا أنه وجدها لاترتدى شيئا على الاطلاق تحت فستانها . وقد بدا ذلك أمراً مؤسفا للغاية فى عينى مستر ماكهيث ، تماما كما أحزنه أنها هربت بذلك الاستخفاف من درس التدبير المنزلى الذى خرجت من بيت أهلها بحجة حضوره . فقد تبين من ذلك أن تلك المدرسة الليلية لم تكن تراقب حضور طالباتها بدقة ، وأن بولى تستطيع أن تهرب وقتما شاءت !

والحقيقة انه عاد من ذلك اللقاء الذى لم يكن فى الحسبان بذات الشعور المغيظ المحبط الذى عاد به من رحلته الاولى مع خوخة وأمها، وهو لا يدرى ان كان - بما حدث بينه وبينها فى الحديقة - قد حقق تقدما أم أصيب بنكسة . وقد أمضه ذلك الشعور المزعزع . لكن هذا الذى حدث بينهما ، لابد أنه يعنى شيئا بالنسبة اليها . فوق أنه كسب - بالحقيقة - شيئا له أهميته : لم يعد بوسعه أن يتشكك فى طهارتها . فقد دافعت - رغم كل شيء - عن حصنها .

لم يكن مستر ماكهيث هو الوحيد الذى أخذ يرمق بولى بنظرات فاحصة متفكرة فى تلك الليلة . فمستر بيتشام هو الاخر ، عنـدما رآها تدخل عائدة من درس التدبير المنزلى ، نظرها بامعان ، متفكرا.

لكنه لم يكن فى حال تسمح له بالدخول فى مناقشات عائلية . فأحوال شركة النقل البحرى كانت قد تدهورت من سيىء الى أسوأ حتى صارت كالقطران . فى اليوم السابق فقط انفجرت قنبلة فوق رءوسهم .

كان بيتشام قد عاد لتوه من الفناء بعد أن عنف فيوكومبى واعطاه على رأسه . فذلك العسكرى مقطوع الساق ـ وقد أسعده أن يكون له بيت يلمه ، ويكفيه مئونة التسول ـ كان قد أكب على عمله فى بداية الامر باخلاص ، متبعا التعليمات التى أعطيت له ، فيما يخص تجويع الكلاب ، بكل دقة .

واطعام تلك الكلاب لم يكن أمرا هينا على الاطلاق ، فهى يجب ان تبدو لناظرها جرباء جائعه ، ولذلك فانها ، وان كانت تأكل ـ لئلا تموت ـ يجب أن تظل على حافة المجاعة بصورة مستمرة . فأى ضرير ذلك الذي يستطيع أن يشحذ شحاذة مجزية ومعه كلب مكتنز منتفخ الاوداج من كثرة مايأكل ؟ لن يعطى ذلك الكلب للضرير فرصة لاستدرار الشفقة كما يجب . فالجمهور ، بطبيعة الحال ، يفكر فى الامر بالغريزة . فالكلب الاعجف لايكاد يسترعى انتباه أحد ، لكن اذا حدث وكان الكلب سمينا بعض الشيء فان صوتا داخليا قد يوسوس فى أذن المحسن بأن ذلك الشحاذ ينصب عليه وانه اذا أحسن اليه فكأنه يلقى نقوده فى بالوعة . فمن الثابت فعلا أن أولئك الناس جميعا يبحثون بطريقة غير واعية عن سبب يبرر لهم الضن بنقودهم . وهكذا فان كلب الشحاذة الجيد يجب ان يكون كلبا جائعا نحيلا لايكاد يقوى على الوقوف من فرط الهزال .

وبالنظر الى ذلك كله ، كانت الكلاب توزن باستمرار ، فاذا زاد وزنها ، بات فيوكومبى محل مؤاخذة شديدة .

وقد ثارت شكوك بيتشام هذه المرة ، فبدأ تحقيقا غايته الوقوف على صحة القيود الخاصة بأوزان الكلاب التى كان فيوكومبى ملزما بكتابتها فى دفتر صغير اعطى له . ولقد راود بيتشام شك فى أن الرجل الاعرج بدأ يتعاطف مع الكلاب ، وذهب فى ذلك الى حد تزوير القيود فى دفتره لكيلا يطرد من عمله . وعندما هم بأن يضيق عليه الخناق دلف الشريك صاحب المطعم الى الدكان فسارع بيتشام الى لقائه . فاجأه الرجل بأن كوكس ظهر على سطح « أنا الجميلة » بغتة وأنه أقام الدنيا وأقعدها ، وأنه مازال هناك ، فى حالة عارمة من الغضب والهياج .

سارع الرجلان بالذهاب الى الميناء فورا . وهناك وجدا كوكس بالفعل ، بين السلالم وعمال الطلاء وبجانبه ايستمان ، مهيض الجناح

ممتقع الوجه ، محدقا فى جوانب السفينة الضخمة الداكنة بنظرة مخمورة لا تحيد ، وقد بدا واضحا أنه لم يستطع ان ينظر فى وجهى القادمين الجديدين .

أحس بيتشام بالصقيع يسرى فى أوصاله للنظرة المثلوجة التى حياه بها كوكس . قال السمسار بلهجة لاتقل برودا عن نظرته .

ــ هل أحلم ، أم ان هذه السفينة هى احدى السفن الثلاث التى باعتها شركتكم الى الحكومة البريطانية ؟

بدا على بيتشام أنه قد شاخ فجأة فنيف على التسعين .

رغم أن الصدمة لم تكن غير متوقعة تماما . فلقد أحس من بداية الامر ، بطريقة ما ، ان هذه العملية كلها فيها شىء ليس على مايرام . فوق أنه ، فيما يخص كوكس ، كان يتوقع الاسوأ باستمرار . لكنه لم يكن يتوقع شيئا مباغتا وغادرا بهذا الشكل .

دمغ كوكس السفينة بأنها غير صالحة للاستعمال . فاحس بيتشام بأنه لا جدوى من الدخول فى نقاش على ذلك الرصيف بمسمع من العمال ، أو القول بأن مستر كوكس لاينبغى أن يتظاهر بهذا الغضب الوطنى كله لانه هو الذى استدرج الشركة الى شراء هذه السفن . فلم يكن بيتشام فى حاجة الى الدخول فى أية مناقشات ليدرك أن كوكس سيعلن بمنتهى البســـاطة انه لم يكن قد رأى السفن ــ حتى تلك اللحظة ــ بنفسه، بينما كافة الشركاء قد عاينوها بأنفسهم، وبمحضر من شهود ايضا !

فى صدر بيتشام الذى ضاق بالحياة فجأة تململت شبهة سوداء قوية حول الاتجاه الذى يسير فيه نشاط كوكس (وكان قد خمن، من مبدأ الامر ، أن كوكس يعمل مستقلا ، لحسابه الشخصى) . ولقد أيقن الان أن كوكس لم يوجه نشاطه ضد الحكومة البريطانية ، بل وجه ذلك النشاط كله ، « كوابور زلط » ضخم ، مخيف ،لايقف فى طريقه شىء ، ضد شركة النقل البحرى ولا شىء سواها !

تلك كانت الصورة العامة التى اتضح هيكلها الخارجى لبيتشام ، وان لم تتضح بطبيعة الحال ، تفاصيلها الدقيقة بعد . فلم يكن مستر كوكس قد قرر أن الوقت حان ليضع أوراقه على المنضدة . وقفوا وقد خرسوا كلهم ، فلم ينطق أحد .

وفجأة دار مستر كوكس على عقبيه ، وبنظرة ازدراء لا توصـــف بصقها على الشركاء بصقا، أولاهم ظهره ومضى، دون أن ينبس ببنت شفة . وقفوا يحملقون فى ظهره المتخشب ازدراء لهم ، وقد بدت بذلته من

الوراء جاهزة ورخيصة اكثر من أى وقت مضى . ولم تكن لدى بيتشام هو الاخر ، كلمات تقال . لم تكن لديه أدنى رغبه فى الدخول فى نقاش مع زملائه من الضحايا عما يحتمل أن يحدث لهم بعد ذلك . سمع ايستمان يقول ، وكأن صوته يأتى من بعيد ، انهم يجب أن يكتبوا الى مدير المصنع فورا ليحضر من لانكشاير ، والى مربى الاغنام ايضا . ها !مربى الاغنام ! مربى الاغنام نجا بجلده . بيتشام الحمار اشترى نصيبه ! أستدار بيتشام فذهب دون أن ينبس ببنت شفة .

أصيب فى تلك الليلة بحمى مرتفعة وآوى الى الفراش وفوق رأسه طاقية ثلج. لكنه لم يبرح فراشه اثناء الليل .فلتظل الانوارمضاءة! منذا الذى سيدفع فاتورة الغاز بعد اليوم !

فى صباح اليوم التالى ذهب مترنحا الى رصيف الميناء . لم يجد عمالا هناك . كانت اعمال الترميم والطلاء قد أوقفت على « أنا الجميلة » بناء على تعليمات ايستمان . وقد اوضحت تلك التعليمات حقيقة تقديره للموقف .

وعندما عاد الى البيت ظهرا ، فقيل له أن سيدين كانا يسألان عنه ، تصور أن البوليس قد جد فى أعقابه . فالشركة قد قبلت الدفعة الاولى من الحكومة ، وبذلك أصبحت جريمة النصب ، وربما الخيانة ، كاملة الاركان .

لكن الاستجواب الدقيق لاهل بيته كشف عن أن زائريه كانا ايستمان ومدير المصنع الذى جاء الى لندن على عجل . وقد شعر بيتشام بالارتياح لانهما لم يعثرا عليه .

لم تكن هناك جدوى من الذهاب الى مكتب كوكس ، فالفتاة الرخوة الشاحبة الجالسة فيه كانت تصاب ببكم الاسماك كلما سئلت عن عنوان مخدومها .

لكنه عندما عاد الى بيته بعد محاولة فاشلة للعثور على ايستمان ، وجد كوكس بالبيت ، فى صحبة ابنته .

قيل له أن مستر كوكس قابل بولى صدفة فى طريق عودتها الى البيت ، فصحبها ، رغم أنه لم يلق منها تشجيعا خاصا . وعندما دخل بيتشام كان كوكس يحدث الفتاة بحماس عن صور مثيرة للاهتمام يريد أن يفرجها عليها . لكن خوخة لم تفهم قصده . لم تكن الفتاة تميل اليه .

عندما دخل بيتشام تصرف كوكس كأنما لم يقع بينهما أدنى خلاف . مد يده ، دون أن يخلع قفازه ، فشد على يد ضحيته

بحرارة ، وضربه على كتفه مظهرا عظيم وده ، ثم انصرف مسرعا .
طوال وجبة العشاء كان منشار دائرى يئز داخل جمجمة بيتشام . فلما انتهى الطعام صرف زوجته ، وأخذ يستجوب الخوخة .
لم يستخدم الارغام ، ولم يكن بحاجة الى ذلك . فقد أفضت اليه الفتاة بكل ماتعرف . وسرعان ماتبين بيتشام أن كوكس قد أفضى الى بولى بما أخفاه عن شركائه ، فأوقفها على عنوانه . وقد عنى الرجل بألا يسأل البنت عن السبب فى ذلك . ثم تركها فذهب الى غرفة مكتبه الصغيرة الضيقة ، وأخذ يحدق بشرود ذهن من النافذة . وبعد ذلك جلس الى مكتبه ، فكتب خطابا بسرعة فائقة ، وعاد به ، مغلقا ، الى غرفة الجلوس حيث ترك ابنته . وكم كانت دهشة الفتاة عظيمة عندما طلب اليها أن تأخذ الخطاب ، بنفسها ، فورا ، الى منزل المستر كوكس . كانت الساعة قد تخطت التاسعة والنصف . لكن خوخة ارتدت قبعتها فى صمت ، وذهبت الى بيت مستر كوكس .
وجدته بالبيت . وعندما أعلنت الخادم أن فتاة فى مقتبل العمر تقف بالباب ومعها خطاب من أبيها يتطلب ردا ، وضع كوكس فوطة الطعام من يده محرجا ، وخرج من الغرفة بسرعة .
كان يعيش مع أخته ، وهى سيدة ضئيلة الحجم دكتاتورية الطبع لم يكن رأيها فى أخيها طيبا بالدرجة التى كان يتمناها ذلك الاخ ، بل ولم تكن تخفى شكوكها القوية فى انحطاط خلقه .
والاخت معذورة . فقد اضطرت باستمرار الى تحمل الكثير من تحت رأس ذلك الاخ العربيد .
كان كوكس يتمتع بقدرات تجارية عظيمة ، فوق ان مبادئه ، فيما يخص نظافة حياته الخاصة ، كانت المبادىء السائدة فى بيئته الاجتماعية . فقد كان من رأيه (الذى يشاركه فيه كثيرون) أن هناك فرقا شاسعا بين حياة الاعمال ، والحياة الخاصة . ففى دنيا الاعمال يتعين على المرء أن يسخر كل فرصة من فرص الربح تسنح له فى خدمة مصالحه ، بصرف النظر تماما عن الاخرين وعما قد يلحق بهم من جراء ذلك . تماما كما يجب على المرء الا يلقى بلقمة من العيش أرضا لانها من نعم الله وحرام أن تلقى هكذا . أما فى الحياة الخاصة ، فليس للمرء أدنى حق فى استغلال الاخرين . الى هذا الحد وكانت آراؤه سليمة تماما .
لكن المصيبة انه لم يكن يتمتع بالقوة التى تمكنه من العيش تبعا

لمبادئه . لم يكن هناك أدنى فرق مثلا بين تصوره لما يجب أن يلتزمه السيد المهذب تجاه الجنس اللطيف وبين تصورات أخته فى ذلك المجال . لكن ذلك كان على المستوى النظرى فقط . فما أكثر زلاته . ومع ذلك فانه كان أول من يدين تلك الزلات المؤسفة العديدة بنفس القدر الذى تدينها به أخته ، وبنفس الالفاظ تقريبا . وكم من مرة قال آسفا « أنا لست قادرا على التحكم فى نفسى » .

والمصيبة أن ميوله ، على المستوى الاجتماعى ، كانت واطئة للغاية . فأشد النسوة انحطاطا وابتذالا كن يجتذبنه كما لا تجتذبه المرأة المحصنة المهذبة . كما أنه لم يكن مستطيعا أن يقاوم سحر الخادمات ومن على شاكلتهن .

نفس السوأة كانت ملحوظة فى ثيابه أيضا . فذوقه فى انتقاء الثياب كان فظيعا . كانت بذلاته الجاهزة بالوانها الغامقة تصيب أخته بغثيان حقيقى . لكنه لم يكن قادرا على التحكم فى نفسه فى ذلك المجال أيضا .

لم تكن أخته تدع فرصة تمر دون أن تهديه عددا من ربطات العنق ذات الذوق السليم . فكان يرتديها ، تلك الكرافتات ذات الالوان الهادئة ، ارضاء لاخته ، لكنه قبل أن يخرج لا يستطيع أن يكف نفسه ، وكأن شيطانا يتقمصه ، على أن يدس فى جيبه خلسة ربطة عنق من الصنف الذى يروق له ، فلا يكاد يخرج من الباب ويغلقه وراءه ، حتى يقف على الدرج فيخلع ربطة العنق المهذبة كما لو كانت حبل مشنقة قد التف حول عنقه ، ويتنهد بارتياح وتلك الربطة الاخرى تتدلى على صدره حمراء ، زرية ، فاقعة .

كل هذه أعراض مرضية مافى ذلك شك . وقد ارجعها هو الى الاضطرابات المعوية وشخصها بأنها نوبات من الشهوانية التى لا ضابط لها تنجم عن الامساك المزمن .

ساعدته أخته بكل قواها فى نضاله المأساوى ضد شهواته . لكنه كثيرا ماكان ينسى نفسه . فيندمج فى نوبة من نوبات الانحطاط العديدة التى ينغمس فيها ، ويضيق بمساعدتها التى يعتبرها تدخلا ثقيلا فى أخص شئونه ، ويرفضها بمنتهى الفظاظة .

ولذلك لم تستطع مس كوكس ــ عندما أعلنت الخادم مجىء مس بيتشام ــ أن تفعل شيئا أكثر من أن ترابط خارج الغرفة التى استقبل فيها أخوها زائرته . فتأخذ فى الغدو والرواح ، والحمحمة والسعال بأعلى صوت مستطاع .

ولسوء الحظ كان كوكس ، فى تلك الليلة ، فى قبضة أزمة من اسوأ أزماته المعنة فى الانحطاط • كان قد قاسى آلامرين طوال النهار من محاولة كبح جماح نفسه • وهكذا فانه ، عندما جاءته الفتاة كأنما بعث بها الشيطان اليه عمدا ، لم يجد مهربا من الاستسلام لما ظل يلح عليه من سفالة طبع ، فقرر ان يفـــرج الخوخة ــ وأمره الى الله ــ على مجموعة صوره • وكلها صور فاحشة فيها أناس عرايا ، فى مختلف أوضاع العرى . وقد فعل ذلك بحجة أن تلك الصور كانت قد وصلته لتوها وأنه يريد أن يشاهدها معها .

لم تكد الخوخة تنظر الى تلك الصور حتى اتقدت وجنتاها خجلا.

كانت مجموعة مستر كوكس ، بالحقيقة ، قذرة للغاية •

وفى أثناء ذلك أخذ كوكس يقرأ خطاب بيتشام الذى يرجو فيه الحصول على موعد قريب للقاء خاص مع السيد المبجل .

على منضدة الكتابة، ذات السطح الزجاجى، كان بروش ذهبى كبير الحجم ورثه كوكس عن المرحومة أمه ، فيه كثير من الذهب ، لـكن أهميته ، بالنسبة لمن اشتراه ، كانت كامنة ، فيما يبدو ، فى ثلاثة فصوص زرقاء كبيرة تكاد تكون عديمة القيمة . والظاهر ، بوجه عام ، ان كوكس ورث ذوقه عن المرحومة والدته .

عندما انتهى من قراءة الخطاب ، لاحظ أن بولى كانت قد ضاقت بصوره العارية ذرعا ، فتناول البروش ، وأراه لها ، ملوحا به أمام عينيها ، سائلا اياها ان كان يعجبها .

قالت الفتاة بصوت مختنق بعض الشىء :

ــ لطيف للغاية .

فقال كوكس :

ــ يمكنك أن تأتى يوما فتأخذيه لنفسك .

ثم نظر ، بعيدا عن عينيها ، الى ركن الغرفة .

لم تجب الفتاة بطبيعة الحال . جلست فى مكانها وقد استعادت هدوءها الاول ، فابتسمت له ابتسامة مؤدبة وكأنه قال ما قاله على سبيل المزاح . ولقد اضطر الرجل وهو يلتهمها بعينيه ان يسخر كل ارادته وكل خوفه من اخته ــ التى كان يعرف أنهـا مرابطة أمام الباب ــ للتحكم فى نفسه • ثم بدأ يأمل فى أن يتمكن من اصطحاب زائرته فى عودتها الى بيت أهلها ، لكن أخته وقد أثار مخاوفهــا الهدوء الذى ساد الغرفة فجأة ، دخلت ، وأخذت تتحدث الى بولى •

ارتبك كوكس بسبب صوره العارية التى كانت ملقاة على المكتب،

لكن الخوخة قلبتها فأخفت ما بها ، بحركة طبيعية غير ملحوظة ، وهي مستمرة فى حديثها مع اختها .

بدا واضحا أن الفتاة لم تكن غشيمة فى التعامل مع الرجال ، وقد أحدث اكتشاف ذلك تأثيرا بالغ العمق فى نفس مستر كوكس .

انصرفت الفتاة بعد ذلك مباشرة ، وعندما عادت الى البيت ، قالت لابيها أن مستر كوكس سيقابله فى اليوم التالى .

لم تحس بكبير ميـــل الى السمسار . لكنها لم تنس الحليـــة الذهبية التى راقت فى عينها كثيرا . وفى الصباح أخبرت جورج ، العسكرى الاعرج ، وهى تحمل اليه كوب اللبن أنها تلقت بروشـــا كبيرا كهدية من سيد متقدم فى السن وانها سوف تريه له قريبا . ولم تكف عن التفكير فى ذلك البروش ، خاصة فى المساء ، عندما أوت الى فراشها لتنام .

جاء كوكس فعلا فى صـباح اليوم التالى . لكنه رفض أن يمر من الورش ليذهب الى المكتب . كان مرتديا معطفا أصــفر زاهى اللون . وقد انخرط ، فور وصوله ، فى حديث جاد للغاية ، مع مستر بيتشام ، بصوت خافت كان فى حد ذاته منبئا بخطورة الامر .

اعترف بأن الذعر انتابه عندما رأى حالة « أنا الجميلة » . فهذه السفن الكهنة التى اشتروها كانت تستعصى على التصديق . حقيقة أنه ذكر لهم شركة بروكلى وبروكلى ، لكنه لم يكن يعرف شيئا عن سفن تلك الشركة . وهو لايستطيع الان بحال أن يعرض هــذه التوابيت العائمة على صديقه الوزير . وأسوأ ما فى الامــر كله ــ فيما بدا له ــ أن الدفعة الاولى كانت قد ســددت الى الشركة فعلا ، وان الاميرالية تتوقع أن يتم تسلم تلك السفن فى القريب . وهكذا فان الشركة ، التى لم تعد له أدنى صلة بها ، حمدا لله ، عرضت نفسها ، بصورة شبه مؤكدة ، لتهمة الخيـــانة ، لانه من المعروف للجميع أن الشركاء كلهم عاينوا السفن بأنفسهم ورفضـوا الاخذ بنصيحة الخبير البحرى المدعو بايل .

بعد ذلك قال كوكس أن المخرج الوحيد من تلك الورطة القبيحة فى رأيه هو أن تقوم الشركة فورا بشراء سفن أخرى جديدة يمــكن الاعتماد عليها ، ومن السهل تغيير أسماء تلك السفن بعد شرائها ، لتحل محل السفن الثلاث الخردة . بل ويعد هو بالتكفل بذلك . اما فيما خلا ذلك ، فان صديقه المسئول لايستطيع ، مهما حدث ، أن يشترى سفنهم الحالية .

وبدا بيتشام أقل انزعاجا من يوم أمس · كان يدرك ، بطبيعة الحال أنه لا يمكن ان يكون ندا لهذا الرجل · فدائرة النشاط التى كان يعتبر فيها من العظماء ، بل وممن يثيرون الرهبة فى النفوس ، كانت دائرة أخرى مختلفة تمام الاختلاف . وقد خرج الى ماوراء حدودها بيلاهة . جرفته موجة الحماس الوطنى التى كانت تتدفق فى طول البلاد وعرضها ، فجعلته يقدم على أشياء جديدة لا قبل له بها . وهاهو الان قد بات أعزل لايخشى منه ، تماما كتمساح يجد نفسه فى ميدان الطرف الأغر · لكن ، بالرغم من ذلك كله ، مازال هناك أمل · فمن الغريب أنه لم يكن يدرك ــ فى لقائه الاخير مع كوكس ــ أن الامر كله منحصر فى تعامل مألوف مع السفالة الانسانية . وعندما اكتشف تلك الحقيقة استعاد قدرا من ثقته بنفسه ، وعاوده الامل. فهو ، على أية حال ، قد وجد نفسه بين رجال مثله من جديد · مجرد رجال ، يمكن التفاهم معهم .

ولذلك اخذ يرقب كوكس الثرثار بهدوء ، بل ببرود . ثم قال انه ، على حد علمه ، لاتوجد أى سفن أخرى . لكن كوكس قال ببطء : أبدا . من قال ذلك ؟ هناك سفن أخرى . هناك واحدة ، على سبيل المثال ، فى ساوثمبتون فأومأ بيتشام برأسه ، ثم قال بجفاء :

ــ كم تريد لتدعنى أخرج من هذه المعمعة ؟

تظاهر كوكس بأنه لم يفهم ، لكن بيتشام لم يكرر سؤاله . فقد أدرك الان أن كوكس كان قد وقع على صفقة مربحة للغاية ·

بعد فترة قصيرة من الصمت ، قضاها كوكس متجولا فى الدكان يتأمل الآلات الموسيقية المتربة ، قال لبيتشام الذى وقف يتابعه ببصره فى برود ، انه من الاهمية بمكان أن تستأنف الترميمات فى السفن الثلاث بنشاط مضاعف ، وأن المعاينة عند التسليم الرسمى ستكون سطحية للغاية ، لكن المظاهر يجب أن تراعى على الاقل ، فتبدو السفن ، من خارجها ، فى حالة جيدة .

وبينما هو يغلق الباب وراءه التفت الى بيتشام فقال له أن لديه موعدا فى ساوثمبتون ، فى يوم الاربعاء القادم .

(٤)

« منذا الذى لايفضل أن يكون مهذبا
بدلا من أن يكون فظا وصعبا مع الآخرين ،
فقط لو كانت الاشياء عموما
أقل فظاظة وصعوبة مع الجميع ! »
(من النشيد الختامى لاوبرا البنسات الثلاثة)
عن : « الزمان الذى لا أمان له ! »

مناقشات خطيرة

كثيرون لايعرفون أن الحروب مثلما تسمو بأرواح الامم ، تستتبع نشاطا لايستهان به فى دنيا التجارة . حقيقة أنها تجلب على الناس شرورا عديدة ، لكن رجال الاعمال عادة لايكون لديهم أى مبرر للشكوى أو التذمر .

كان مستر بيتشام يتوقع الحصول على قدر مجز من الارباح عندما انضم الى شركة النقل البحرى . وقد كان من بين دوافعه الى ذلك أن ابنته بلغت سن الزواج وأن أى زيادة فى الدخل ، فى تلك الظروف ، تعتبر مرغوبا فيها .

لكن التطورات غير المرضية فى ذلك المجال الجديد الذى طرقه مستر بيتشام بلا سابق خبرة ، جعلته يستغرق فى عدد من المناقشات بالغة الخطورة مع مديره ، مستر بيرى .

تتابعت اجتماعاتهما فى المكتب الذى يفضى اليه الباب الحديدى فى مؤخرة الدكان ، فيجلس بيتشام ، وقبعته ، التى لا محيص عنها ، على راسه ، الى مكتب قديم بحصيرة موضوع لصق الحائط تحت النافذة الوحيدة الصغيرة التى تضىء الغرفة ، بينما يدع بيرى الشحيم جسده يتهدل ، ثقيلا ، جسيما ، فى مقعد حديدى مخلخل .

يجلس بيتشام ، بغير سترته ، مشمرا كمى قميص متسخين ، مسندا ذراعيه الى مكتبه ، متجنبا النظر الى بيرى مواجهة ، بينما

هذا الاخير يلوك بغير انقطاع عقب سيجار لعله ، فى أغلب الظن ، استخرجه من كوم قمامة فى الشارع منذ عدة سنوات .

اذذاك يقول بيتشام :

ـ بيرى . انا غير راض عنك . انك تتطرف فى الشدة ومع ذلك لا تزيد ايرادنا من هؤلاء الشحاذين بنسا واحدا . فأنا ، من جانب ، أتلقى شكاوى عديدة من قلة أدبك مع المستخدمين ، ومن جانب آخر لا أجدهم يكسبون ما فيه الكفاية . البنات فى مشغل الخياطة مثلا يقلن أنهن يظطرون الى العمل ساعات اضافية حتى يتمكن من مجابهة الطلب على بزات الجنود العسكرية ، وهناك أربع عشرة بنتا بدلا من تسع فقط ، وهو العدد الذى يحتاجه حجم العمل على أكثر تقدير . وأنت تعرف جيدا أنى لا أسمح بحكاية الساعات الاضافية هذه هنا ، وانى لن اقبل أيضا الاستمرار ببلاهة فى دفع أجور للعمالة الزائدة . هذه أوقات عصيبة . عصيبة للغاية ياسيد بيرى . ان انجلترا تقاتل فى سبيل البقاء ، ونحن أيضا . حالة الشركة لم تعد تسمح بأى عبث ، وأنت تدير العمل بخيبة تحسد عليها . لكنى أحب أن أجعلك تفيق . عندما تقع الكارثة ـ وهى يمكن أن تقع فى أى يوم ـ فان كل من يأكل عيشا من هذه الشركة وبفضلها سيجد نفسه مشردا فى الطرقات ليشحذ من جديد . نعم . هل عند سيادتك اية اقتراحات ؟

فيقول بيرى بحرونة :

ـ آه ! واذا بدأت فى الوفر ستقول انى أسيء معاملة المستخدمين .

ـ تماما . هذا ماتفعله . ذلك الرجل الجديد مثلا ، يسمع صراخه على بعد ثلاثة بيوت . هذه أشياء لن أسمح بها .

ـ طبعا . واذا كتمنا أنفاسه بوسادة يختنق ويموت ، واذذاك تقيم الدنيا وتقعدها ! انت تعلم جيدا اننا لن نكسب من ورائه مليما اذا ماعاملناه كما لو كان قطعة من الزبد . ونحن لانضربه الا ليكون عبرة للاخرين . الملعون لايدفع بانتظام . وقد أفهمناه ذلك . قلنا له أننا نفعل ذلك حتى لايفسد الاخرين . وبعد أن ذهبت أنت عاملناه برفق .

ـ اسمع . أنا لن أحذرك كثيرا بعد هذه المرة . لن أسمح بهذه الاشياء . والاتاوة التى يدفعها « العساكر » تتناقص أيضا من يوم الى يوم . اننا على وشك الافلاس يابيرى . وسوف أضطر أن أقفل الدكان ، اذا استمرت الامور على هذه الوتيرة .

ـ نعم . ايرادات العساكر قليلة ، يامستر بيتشام ، هذا

صحيح . لقد استقصيت الامر بنفسي ، بمنتهى الدقة . الجمهور هو السبب . عواطفه بردت من هذه الناحية فيما يبدو . ولا حيلة لاحد في ذلك . قلت لك من مبدأ الامر أننا يجب أن نبتعد عن كل ماله علاقة بالسياسة .

استغرق بيتشام فى التفكير . جلس محدقا بنظرة ثاقبة فى ركن مكتبه المترب وقد أمحى من وجهه كل تعبير . ثم قال :

ـ أس البلاء أنكم أناس لا أفكار لديكم . لا تستعملون عقولكم . ضع سلسلة من المقالات المكتوبة جيدا عن الحياة العسكرية وجنوب افريقيا فى « غصن الزيتون » وآذ ذاك سترى آن كان العدد الذى عندك من العساكر سيكفى لجمع صدقات الجمهور !

فى أحد اقبية المنزل كانت صحيفة اسمها « غصن الزيتون » تطبع على مطابع مستر بيتشام الخاصة ، وتظهر أسبوعيا حافلة بأخبار الاجتماعيات ، والوفاة ، والزواج ، وحفلات العماد . فمثل تلك المعلومات ذات قيمة لاتقدر بالنسبة للشحاذ النشيط الذى يمتهن الشحاذة من البيوت ، فوق أن تلك الصحيفة المهنية كانت تزود قراءها ، وكلهم من « أبناء الكار » ، فى كل عدد من اعدادها ، بذخيرة من الحكايات المبكية التى تستخدم فى تليين القلوب ، وبعض الفقرات المختارة من الكتاب المقدس ، للضرب على وتر العاطفة الدينية ، غير باب اسمه « فكرة الاسبوع » .

استطرد بيتشام قائلا :

ـ فوق هذا وذاك كله فاننا نرتكب أخطاء غاية فى الغباء . يجب أن نكف عن ارسال الرجال للشحاذة فى أزياء عسكرية فى الايام التى تنقطع فيها حملات الاثارة الصحفية وأنباء الجبهة . هذه كلها أخطاء محزنة لا يقع فيها انسان ملم بأصول المهنة . فتلك البلدة التى اسمها ميفكينج محاصرة الان ، والحرب كلها فى حالة ركود . فاذا حاصرنا الجمهور بشحاذين يقومون بدور الجنـــود الذين فقدوا اذرعهـم أو سيقانهم قال الجمهور ، وله الحق فى ذلك : « وماجدوى أن يفقدوا أذرعهم وسيقانهم مادام ذلك لن يوصلهم الى شيء ؟ » انت تعرف الجمهور ، أو يجب أن تعرفه . لن ينفق نقوده أبدا على اعالة حفنة من الفاشلين عديمى الكفاءة . والاهم من ذلك أن أحدا لايحب أن يذكره أحد بالحرب عندما لا تكون تلك الحرب سائرة على ما يرام . وبالاضافة الى هذا فان الجمهور سيقول لنفسه : «هؤلاء الشحاذون اللاعين يجب أن يحمدوا الله على أنهم بمأمن هنا ، فأولئك الذين ظلوا هناك

فى ميدان القتال أسوأ منهم حالا بكثير . » نعم كانت فكرة طيبة أن نلبس بعض صغار السن من رجالنا ثيابا عسكرية ، لكنه ليس من الفطنة فى شىء أن نطلقهم على الجمهور بفشم ، كيفما اتفق ، وفى اى وقت ، خاصة عندما لاتكون هناك أنباء عن انتصارات حققتها جيوشنا . هيا . استدع الرجال !

خرج بيرى فأحضرهم ، أو ، بالاقل ، من كانوا موجودين منهم . توافدوا على الغرفة فى ثياب عسكرية قديمة ، ممزقة ، زرية ، وقد انقلبت سحنتهم ، فلم يكونوا يكسبون فى تلك الايام شيئا .

أخذ بيتشام ينظر اليهم صامتا . لكن نظرته كانت مبهمة ، لاتفصح عن شىء ، ولا تتوقف عند التفاصيل . سنوات طويلة من المران علمته تلك النظرة . ثم قال بغلظة مفاجئة وبيرى يصغى لكل كلمة من كلماته ، شبه كلب أمين يدرك أن سيده لايخطىء أبدا :

ـ طبعا ، لابد أن يحيق بنا الخراب . هذا كلام لا ينفع . ماهذا الذى أراه أمامى ؟ هؤلاء الرجال ليسوا جنودا انجليزا . انهم حفنة من المتشردين . أنت ! (مشيرا على رجل طويل نحيل شكس الوجه) انظر الى نفسك . هذا منظر جندى انجليزى ؟ هـذا منظر رجل متذمر . منظر رجل شيوعى ! مخلوق كهـذا لن يموت من أجل انجلترا أبدا ! وحتى اذا مات ، رغم انفه ، فانه سيموت بعد أن يكون قد ملأ الدنيا نواحا وأنينا وصدع رءوس الجميع بالمساومة فى ثمن موته ! الجنود فتيان فى مقتبل العمر ، يفيضون جـاذبية ، ورشاقة ، وبشرا حتى فى أحلك الاوقات . وهذه التشوهات المقززة! هل تحب أنت أن يطالعك أحد بأشياء تثير الغثيان كهذه فى الطريق ؟ ذراع مكسورة مغلولة الى العنق تكفى . والبذلة العسكرية يجب أن تكون نظيفة ، حتى يقول من يراها لنفسه : « هذا الولد الشجاع . لم يعد لديه شىء الا بذلته العسكرية ، وهو مازال يحترمها ! » ذلك احساس يجتذب الناس ، يلين قلوبهم ! أنا فى حاجة الى سـادة مهذبين ! بضع كلمات مهذبة ، فى صوت خفيض ، ولكن بغير تذلل أو مسكنة . فوق أن العسكرى الذى يجرح فى الحرب يكون فخورا بما أصابه ، فلا يتمسكن به . هذا الرجل فقط يمكنه أن يستمر فى هذا العمل ، وعلى الباقين أن يسلموا ثيابهم .

خرج «العساكر» دون أن يطرف لاى منهم جفن ، لا الرجل الطويل المعروق ولا غيره ، فالامر كله متعلق بحسن سير العمل ، ولا مجال للعواطف فيه .

قال بيتشام بعد انصرافهم :
ـ أولا يابيرى ، يجب أن يكونوا كلهم شبانا فى أتم صحة ، ذوى جاذبية ، يحس من يراهم بالشفقة عليهم لما اصابتهم الحرب به . ثانيا ، التشوهات المقززة ممنوعة . ثالثا ، الثياب نظيفة ومحترمة . ورابعا ، هؤلاء الابطال لايخرجون للشحاذة الا عندما تكون الصحف قد نشرت انباء عن تقدم ما فى الحرب ، سواء كان نصرا أو هزيمة ، لايهم أيهما ، المهم أن يكون هناك تقدم ما ! وذلك يعنى طبعا أنك يجب أن تقرأ الصحف وتتابع الاخبار . هذا اقل مايجب أن تفعله . فأنا أتوقع ممن يعملون فى خدمتى أن يكونوا متيقظين لما يجرى فى العالم من حولهم ، وملمين به . وحتى بعد ساعات العمل الرسمية ، يجب أن يستمر العمل بغير انقطاع . لقد أصبحت كسولا يابيرى ، كثير التراخى فى عملك . وهأنا أحذرك المرة تلو المرة .

خرج بيرى وقد احتقن وجهه ، فأظهر نشاطا غير عادى طيلة الايام القليلة التالية . وقعت أحداث كثيرة : فصل البعض من المشغل وضرب كثيرون فى المكتب . لكن مستر بيتشام كان على يقين من أن التحسينات التى يمكن ادخالها على أعماله فى تلك الناحية كانت محدودة للغاية . فوق أن الخسائر الفظيعة التى كانت تتهدد شركة النقل البحرى لم يكن من المستطاع ، مهما ضوعفت الجهود ، تعويضها من عملية الشحاذة .

وهكذا فان بيتشام انصرف الى محاولة تذكر النظرة التى رأى كوكس يحدج بها ابنته .

١٥ جك

لم تكن احوال مس بولى بيتشام على مايرام . وجدت نفسها مضطرة ، خشية انكشاف أمرها ، أن تحمل ثيابها الداخلية بنفسها الى حيث تغسل ، وقد حمدت ربها على انشغال أمها عن مراقبة تلك الثياب كسابق عهدها ، بسبب الجو المتوتر الذى اشاعه فى البيت مزاج مستر بيتشام المنحرف الذى كان يزداد سوءا من يوم الى يوم ..

ولقد ذهبت الى مستر سمايلز مرة اثر مرة فى طلب النصح ، لكنها لم تكن تجده دائما . وعندما تمكنت من مقابلته قال لها :
ـ سنجد حلا . لكننا يجب أن نكون أكثر حرصا فى المستقبل . مافائدة موانع الحمل اذا كان المرء لايستخدمها ؟

ثم أخذ يتحدث عن مستر بيكيت بتلميحات بذيئة للغايه ، بينما هذه المشكلة لم يكن لمستر بيكيت أي يد فيها على الاطلاق .
لم تجد بولى بدا ، بعد ان خذلها مستر سمايلز بهده الطريقة ، من اللجوء الى خادم عجوز كانت لديهم ، فصارحتها بسرها ، وطلبت مساعدتها .
وقد تمخضت جهود العجوز عن وعاءين كبيرين من نحاس حملتهما، سرا ، بمساعدة بولى ، الى الغرفة الصغيرة ، وملأتهما بالماء المغلى ، فأخذت بولى تسلق بالحياه فى أحدهما ، وهى تئن وتتوجع ، وتأخذ من الوعاء الاخر مزيدا من الماء تسكبه على جسدها المسكين .
ولم تكتف العجوز بذلك الحمام النارى خارجا ، فأجبرتها على شرب أقداح عديدة من الشاى الساخن ، ثم وقفت على باب الغرفة ، لتطل داخلا كل بضع دقائق براسها الذى يشبه رأس دجاجة وهى تنق سائلة بولى عما اذا كانت الوصفة قد نجحت . لكن وصفتها لم تأت بأية نتيجة . وظلت بولى كما هى ، وجنين مستر سمايلز فى أحشائها .

***

كان جورج الاعرج قد اطمأن الى حياته الجديدة بين الكلاب . وفى أوقات فراغه كان يلوذ بعشة صغيرة من الصاج فى آخر الفناء اتخذها بيتا له ، ووضع فيها سريرا سفريا صغيرا وجد له مكانا بصعوبة بين عدد النجارة وركام المخلفات . وفى تلك العشة كانت ملهاته الوحيدة الرقاد على ذلك الفراش ، وقراءة دائرة المعارف البريطانية . كان قد وجد مجلدا من مجلدات الدائرة الشهيرة ملقى فى دورة المياه . ولم يكن المجلد كاملا ، فقد انتزع نصف مابه من أوراق تقريبا ، كما أنه لم يكن المجلد الاول فى المجموعة . لكن المرء كان مستطيعا أن يتعلم الكثير منه رغم ذلك ، حتى وأن لم يخرج من قراءته بتعليم كامل . ولكن منذا الذى كان يتاح له ذلك فى تلك الايام ؟
وقد ضبطته الخوخة ذات يوم متلبسا بالقراءة ووعدت بألا تشى به الى مستر بيتشام . فقد أحس جورج من تعامله مع مستر بيتشام أن ذلك السيد لم يكن يطعم رجاله ليضيعوا وقتهم فى التعليم . لكن الفتاة ، وان حافظت على وعدها فلم تش به ، تسللت الى العشة فأخذت كتابه الى غرفتها علها تجد فيه شيئا يرشدها الى مخرج من ورطتها . لكنها لم تكن ملمة بالكلمات التى ينبغى أن تبحث تحتها عما كانت تريد الوقوف عليه . ومن المحتمل ، فوق ذلك ، أن هذا

الفرع الذى كان يعنيها من بين فروع المعرفة الانسانية ، لم يكن من بين موضوعات ذلك المجلد . المهم انها لم تجد شيئا .
ارتاع جورج عندما اكتشف ضياع كتابه . فقضى أياما ملقى على فراشه وقد انكسرت نفسه وركبته الكآبة ، بل وعيل صبره مع الكلاب فقسا عليها . وما من شك فى أن الخوخة كانت مخطئة خطأ كبيرا لكونها لم تقم باعادة ذلك الكتاب الى مكانه عندما انتهت من التنقيب فيه . لكن الفتاة كانت غارقة فى مشكلتها الخاصة . ومن دأب الناس، عندما يتسلط عليهم هم ، مهما صغر شأنه ، أن يمسوا أقل اهتماما بمشاعر غيرهم التى لايهتمون بها ، فى الاصل ، كثيرا .
بعد بضعة أيام أخذت تتحدث الى جورج عن الكلاب . كانت تساعده فى لف ضمادات مزيفة حول قدم كلب منها ، وفجأة سألته ، دون أن ترفع اليه عينيها ، عما تفعله الفتيات عندما يحسسن أنهن لسن على مايرام . ثم قالت أنها تسأله ذلك السؤال لان زميلة لها فى دروس التدبير المنزلى حدثتها فى ذلك الموضوع .
ظل جورج منهمكا فى تضميد قدم الكلب بصمت ثم أعطاها نصيحة طيبة وان لم تكن مجدية كثيرا فى تلك الظروف . لكنه فى المساء ارتدى ملابس الخروج وذهب فى مهمة ما ، وفى انصباح نادى على بولى فذهبت اليه بين عشش الكلاب .
قال لها أنها تستطيع أن تذهب معه بعد الظهر ، ان أحبت ، الى عيادة طبيب فى كينزينجتون تتردد عليه النساء بكثرة ويقال انه بارع فى مهنته .
والحقيقة أنه حصل على تلك البيانات من المرأة التى كان يعيش فى بيتها عندما كان زوجها فى الجبهة . فقد زارها فى أصيل اليوم السابق ، وحصل منها على العنوان . بل أنها أعطته عنوانين ، عنوان ذلك الطبيب ، وعنوان داية . هذه الاخيرة كانت للبنات الفقيرات . وقد بدا لفيوكومبى ان الطبيب أليق ببولى لانه يعمل فى ظروف اقل قذارة من الداية .
ولم تجد الخوخة فى نفسها الجرأة على الذهاب بمفردها ، فذهب العسكرى معها .
كان الطبيب يقيم فى شقة بعمارة شعبية تنز بالفقر وتفوح منها رائحته العطنة . اضطرا أن يصعدا درجا ضيقا معتما عفنا الى الطابق الثانى ، مارين فى صعودهما بجحور أبوابها مفتوحة كما لو كانت تلك الابواب قد ضاقت بما وراءها من شقاء فانفجرت خارجا .

ولهذا كانت دهشتهما عظيمة عندما وجـــدا شـــقة الطبيب نظيفة مريحة . بل أن غرفة الانتظار بدت لهما فاخرة . فى الاركان كانت أصص ضخمة فيها زهور ، وعلى الحيطان علقت ســـجاجيد بدا واضحا أنها استوردت من بلدان أجنبية . ولقد بدت معاطف المرضى ومظلاتهم على المشجب الحـــديدى زريه قميئه بالقيـــاس الى ذلك الترف .

فى غرفة الانتظار كانت سبع او ثمان نســاء ، كلهن من الطبقة المتوسطة . وعندما فتح الطبيب باب غرفة الكشف ليدخل المريضة التالية ، أومأ لبولى أن تتقدم ، فى غير دورها ، لان ثيابها كانت أفضل من ثياب الاخريات ، فتبعته فى وجل ، بينما ظل العسكرى جالسا فى غرفة الانتظار .

كان الطبيب من ذلك الصنف من الرجال الذى يروق للنساء لاول وهلة ، بلحيته الصغيرة المعتنى بها ، وجبينه المرتفع . ولقد بدا من الطريقة التى شبك بها يديه أمامه وهو يتكلم أنه كان فخورا غاية الفخر بجمالها . لكن وجهه كان ينم عن اغــــراق فى رذائل عديدة ، ونظراته لم تكن تبعث على الاطمئنان ، فوق ان صوته كان معسولا اكثر مما ينبغى .

نظرت بولى اليه بذعر حقيقى لم تجرؤ على الافصاح عنه وهو يقيد اسمها وعنوانها فى دفتر أمامه . اجالت البصر فى الغرفة ، فرأت الحيطان مغطاة بأنواع عديدة من الاسلحة كالحراب ، والاقواس ، والسهام ، والمدى ، والخناجر ، والغدارات القديمة ايضا . وفى أحد الاركان ، فى دولاب زجاجى كانت أرفف عديدة من الادوات الجراحية التى بدت أشد خطرا من كل تلك الاسلحة . وعلى المكتب الذى جلس اليه كانت طبقة سميكة من التراب .

مال الطبيب الى الوراء فى مقعده وشبك يديه البيضاوين أمامه ، وانفتح قائلا قبل أن تلفظ بولى بكلمة خلا اسمها وعنوانها :

ــ أى نعم . هذا الذى تطلبينه مستحيل تماما يا آنستى العزيزة . هل فكرت لحظة فيما يعنيه طلبك هذا ؟ ان الحياةالانسانية مقدسة، مقدسة تماما ، فوق أن ماتطلبين منى القيام به مناف للقـانون . والطبيب الذى يقدم على شىء كهذا التى تطلبينه منى يحرم من مزاولة المهنة ويذهب الى السجن أيضا . ولعلك ســتقولين لى ــ فنحن الاطباء كثيرا مانسمع هذا الرأى من المرضى ــ أن هذه القوانين متخلفة وانها من العصور الوسطى . اه ! والله يا آنستى أنا لم أضع هذه

القوانين . ولهذا فانى أنصحك أن تذهبى على الفور الى بيت أهلك فتصارحى امك بحقيقة الامر . فهى امرأة مثلك ولن تعجز عن تقدير موقفك . ولعلها ليس لديها المبلغ الكافى لاتعاب عملية كهذه . لكن لا بأس . فضميرى لن يسمح لى ، حتى لو كان ذلك المبلغ معها . بالقيام بشيء كهذا . فلا يوجد طبيب يخاطر بمستقبله واسمه فى سبيل عشرة أو عشرين جنيها . نحن الاطباء لسنا جامدى القلوب كما يتصور الناس . نحن نحس بمصائب اخواننا البشر . بل اننا كأطباء نقف على مالايقف عليه غيرنا من البلايا الاجتماعية . والحقيقة ان الامر لو كان مستطاعا من آية سبيل ، لو كان لديك اى نوع من الاعراض ، حتى أعراض السل ، لقلت لك ببساطة « من هذه العين وهذه العين . هذه مسألة سهلة للغاية . سأخلصك من هذه الورطة فى خمس دقائق لا أكثر ، ولن تكون هناك بعد ذلك آية مضاعفات» لكنك لاتبدين كما لو كنت مصابة بالسل او بأى شيء من هذا القبيل. أنت نفسك يجب أن تعترفى بذلك . والخطأ خطؤك على أية حال . فانت عندما استسلمت بطيش ونزق للذاتك كان يجب أن تفكرى فى العواقب . يجب أن يكون المرء بعيد النظر ، ولا يجب أبدا أن يستسلم لمشاعره ، مهما كانت تلك المشاعر ممتعة أو واعدة بالمتعة . فأنت تذهبين بعد ذلك الى الطبيب مهرولة وتقولين له انقذنى . تجلبين على رأسك وعلى رأسه متاعب كنتما فى غنى عنها . ارحمنى يادكتور انقذنى يادكتور لاتدع حياتى تتحطم ! لكنك لاتهتمين لما يمكن أن يتعرض له ذلك الدكتور المسكين من مخاطر فظيعة قد تؤدى الى خراب بيته اذا ما استسلم لطيبة قلبه التى لن تدعه يرفض لك طلبا . يا للانانية ! لكنها ، مهما قيل فيها ، عملية منافية للقانون ، وحتى اذا كان الطبيب لايستخدم المخدرات فيها حرصا على حياة المريضة ، فانها تتكلف ، مع ذلك ، خمسة عشر جنيها ، تدفع مقدما ، والا قلت لى فيما بعد ، بعد أن أكون قد خلصتك من ورطتك : « ماذا ! وهل أنا قلت لك أن تجرى لى عمليات يادكتور ؟ » واذذاك يخرج الدكتور المسكين ، الذى يجب عليه هو الاخر أن يكسب رزقه ، صفر اليدين من هذه المخاطرة الفظيعة بسمعته ومستقبله . وهو فى العمليات التى من هذا النوع لا يستطيع أن يمسك دفاتر أو يرسل فواتير — حرصا على سمعة المريضة بطبيعة الحال . وهو لو كان لديه عقل لنفض يديه من الامر كله . لانه يجازف بضياع مستقبله . بل هو فاعل ذلك فى نهاية الامر . حياة الجنين يا آنستى العزيزة مقدسة تماما

كأى حياة أخرى . فالكنيسة لم تعلن ذلك سدى . سيكون لدى وقت لاستقبالك مرة اخرى بعد ظهر السبت .لكن فكرى فى الامر جيدا . فكرى فيما اذا كنت على استعداد لتحمل هذه المسئولية الخطيرة وأخذها على عاتقك . فان لم تقدرى ، فمن الافضل ترك الامور على ماهى عليه . واحضرى النقود معك . والا فلا حاجة بك الى المجىء اطلاقا . تفضلى من هنا يابنيتى العزيزة .

خرجت الخوخة من عيادة ذلك الطبيب كسيرة الخاطر . كيف تحصل على خمسة عشر جنيها استرلينيا ؟

سارت بجوار العسكرى وقد خيمت عليهما الكآبة . ثم قال هذا الاخير بعد تردد :

ــ معى عنوان آخر . تحبين أن نذهب اليه ؟

فذهبا . كانت الداية العجوز امرأة شحيمة ، تتخذ من غرفة الجلوس فى بيتها غرفة استقبال وقاعة عمليات . جلست بولى متوترة على حافة كنبة من القطيفة الحمراء زاعقة اللون ، والمرأة تتفحصها بارتياب لاتحاول أن تخفيه . ثم قالت لها :

ــ ستكلفك العملية جنيها . لن أقوم بها بأقل من ذلك . ويجب أن أحذرك من الان أن تطبقى فمك أثناء العملية . اذا أخذت فى الصراخ سأتوقف على الفور واطردك . لست على استعداد لوجع القلب فى سبيل أحد . النقود معك ؟ ستستغرق العملية نصف ساعة .

همت بولى واقفة . قالت :

ــ آسفة . لم احضر النقود معى . سأعود فى الغد .

وهما ينزلان الدرج قالت لفيوكومبى :

ــ لم يعجبنى المكان . قذر للغاية .

فقال العسكرى :

ــ نعم . المفروض أن زبائن العجوز كلهن من الخادمات .

كانت بولى مشغولة بالتفكير فى درج النقود بدكان أبيها .

لم تكن بولى لصة بالسليقة . منذ طفولتها احست مقتا فطريا لحكاية السرقة هذه . وقد ازداد ذلك المقت قوة فى نفسها ، بنفس القدر الذى ازداد به اقبالها على السرقة . ولا يعنى هذا أنها كانت تسرق فتعاقب عقابا صارما فتكره السرقة وتعود لتسرق . فعقابها الوحيد كان تخفيض مصروفها ــ وبالتالى تموينها اليومى من قطع الملبن ــ وقدرا لايستهان به من الوعظ والارشاد . لكن المقت كان طبيعيا . كلما وضعت اصبعا فى وعاء المربى خلسة

أحست بالذنب ، وانبها ضميرها فى غير رحمة . حقيقـة أن طعم المربى ــ كلما اختلست لحسة ــ كان أحلى ، لكن الاحساس بالذنب كان له طعم هو الاخر ، طعم شديد المرارة . فلقد قيل لها أن الله يستطيع أن يرى كل شىء وأنه يكمن متربصـا بالخطاة ليل نهار ليضبطهم ويعاقبهم . ومن الجلى انه كان يرى كل شىء تفعله هى . ولو انه بدا لها أن هناك أشياء بعينهاليس من اللياقةالتجسس عليها. فوق انهااقتنعت فىنهاية الامرأن الله عندما يأخذ فىمراقبة أحدالناس بهذه الطريقة ، فيرى مافيه الكفاية من أفعاله الشريرة ، انما يقطع خط الرجعة على ذلك الذى يراقبه ، لانه ، جل جلاله ، سيتحير ضده ، ولن يسمح لاى قدر من السلوك الحميد يسلكه ذلك التعس بعد ذلك ويتحمل فيه مالايطيق، أن يؤثر فى حكمه عليه أويجعله يترفق به .وهكذا أحست بولى ان سجل ذنوبهاقد امتلأوفاض ولم يعد فيه مكان لذنوب جديدة ، ولذا فانها تستطيع أن ترتكب ماشاءت من ذنوب ومعاص بنفس هادئة مطمئنة . اقتنعت بولى أنها فتاة ضائعة، فسمحت لنفسها بالانغماس فى كل الرذائل ، غير دارية أنه الكسل وحده الذى يدفع الـكبار الى تفويض حراسـة برطمانات المربى وحصالات النقود الى الله كما لو كان ذلك هو عمله الوحيد .

ومع هذا كله ، فشتان ما بين سرقة دريهمات من حصالة وسرقة خمسة عشر جنيها استرلينيا من درج أبيها .

ما لبثت مصاعب السرقة أن بدت لبولى محبطة للامال ، فقد هولت الامر على نفسها ، رغم أنها ، فى حقيقة الامر ، كانت قادرة ، طيلة الوقت على سرقة المبلغ من ابيها بغير كبير مشـقة . حقيقة أن درج النقود فى الدكان كان موصدا دائما باحكام ، ومن الصعب اغتصابه . لكن مستر بيتشام كان يحمل معه دائما مبالغ كبيرة من المال ، فى جيب بنطلونه . ذلك المال كان يعتصره بغير هوادة ، بنسابنسا ، من شحاذيه ، فيحوله الى فضة ، ويحشو به جيوبه فى اهمال . ولم يكن مرجع ذلك الاهمال الى استصغار لشأن المال ، أو جهل بقيمته ، بل الى اليأس . فقد وصل مستر بيتشام فى تلك الايام الى حال بات موقنا معها أنه لا هذا المال ، ولا أى مال آخر ، مهما عظم ، يمكن أن ينقذه من براثن الخراب المتربص به ، ولولا بقية من احساس بما يمليه الضمير من وجوب الانكباب على العمل ، لألقى بذلك المال فى عرض الطريق .وهو مايبين لنا عمق الهاوية التى كان الرجل قد تردى فيها. لم يعد يجدى شىء . ولا مليون كامل من الجنيهات . فقـد وقر فى

ذهنه أنه لاماله (أوحتى كل مافى العالم من مال) ، ولا فكره الثاقب — أو كل ما فى العالم من فكر ثاقب — يمكن أن ينقذه من الخراب العاجل الشامل . ولعل ذلك هـو السبب فى أنه لم يعد يعمل بحماس كسابق عهده ، وأنه انقلب كسولا ، لا يفعل طيلة النهار شيئا الا التجول هنا وهناك فى دكانه ، وفنائه ، وورشه ، وبيته ، قبعته على رأسه ، ويداه فى جيبى سرواله ، مراقبا كل صـغيرة وكبيرة ، خشية أن يتراخى أحد عن أداء عمل يجب أداؤه .

ولقد كانت ابنته مستطيعة أن تختلس من جيبه ، على مدى اسبوع واحد ، مبلغ الخمسة عشر جنيها اسـترلينيا ، بالتسلل الى غرفة نومه ليلا ، وحتى لو ضبطها لما كان الامر قد تمخض عن خطر حقيقى بالنسبة اليها . لان مستر بيتشام لو كان قد اسـتيقظ من نومه بغتة ، فوجد ابنته منهمكة فى تنظيف جيوبه ، لما طرف له جفن ، ولكان قد استغرق فى النوم من جديد . نعم كانت ابنته ستعاقب ، عقابا هينا ، لكنها لم تكن عرضه لان تسقط فى نظره . لم يكن هناك فعل، مهما انحط، يمكن أن يجعل أحدا يسقط فى نظرمستر بيتشام.

ومما يؤسف له حقا أن الناس لا يدرون بحقيقة قدراتهم . وهكذا فان بولى تصورت أنها غير قادرة على الحصول علىجنيهاتها الاسترلينية الخمسة عشر من مال أبيها .

عندما حدثت بولى العسكرى فى شـأن ذلك المبلـغ ، أبدى استعداده لكسر رأس السيد الذى أوقعها فى تلك الورطة . لكن بولى لم تكن ترغب فى كسر رأس أحد . كان همهـا منصرفا الى صناديق النقود التى يمكن كسر أقفالها واخراج النقود منها . ولسوء الحظ لم يكن مستر سمايلز صندوق نقود . وهكذا فان أفكار بولى بدأت تتجه ، بصورة متزايدة ، نحو مستر بيكيت .

لكن العسكرى لم يكن على علم بكل ذلك ، ولذا فانه ، بعد أن اطمأن على كلابه ، عاد الى عشته ، فرقد على سريره السفرى . وفى اعتقادنا أن العسكرى لو كان ممن يفكرون ، لجالت مثل هذه الافكار برأسه :

— هناك من يحتاج الى خمسة عشر جنيها من جديد ! والله لو توفر لديهن المال لما تركن أحدا يولد بالمرة ! ومنذا الذى يلومهن ؟ أى امرأة تلك التى يطاوعها قلبها على أن تلد طفلا فى هذا العالم متى كان لديها المال لتمنع ولادته ؟ فكأن خلاص العالم فى تلك الجنيهات القليلة ! لو توفرت فى كل مرة لما ازدحم العالم بهذا العدد البشع من المخلوقات الانسانية التى تمزق بعضها البعض اربا فى سبيل

بضعة أنفاس من الهواء ، وبضع لقيمات من طعام لا طعم له ، وسقف مثقوب فوق الرءوس لا يقى من مطر او صقيع ! ولما وجد احد يقوم بالقتل فى كل هذه الحروب . لانه فى سبيل من ستنشب الحروب آنئذ؟ لن يكون هناك من يمكن استغلاله ، لان الام ذاتها ستكون قد نجت من الاستغلال ، وأنقذت جنينها منه ، بجنينها الخمسة عشر . كل الاساتذة يقولون انه ما من سبيل الى اعادة توزيع الثروة . فالملاك لايمكن التخلص منهم . ولكن هل هناك ما يمنع من انتخلص من الذين ليسوا بملاك ؟ على الاقل بمنعهم من المجىء الى الدنيا ؟ القانون يحرم الاجهاض ، بينما الفتيات المسكينات يسعدهن جدا أن يسمح لهن بذلك . ولهذا فانهن يقاومن ذلك القانون . لكن ما من سبيل الى تحقيق رغبتهن . كلا ، بطبيعة الحال ! ذلك يكون أمرا مخجلا للغاية ! ألم تعلن الكنيسة المقدسة أن الحياة مقدسة ؟ فكيف يحق لاولاء النسوة أن يرفضن انجاب الاطفال فى هذا العـــالم المكتظ . النتن . الذى تمزقه صرخات الجياع ؟ عيب طبعا ، يجب عليهن أن يتماسكن وأن يتذرعن بالشجاعة والايمان ، بدلا من الاستسلام لهذه الانهزامية المنافية للايمان يجب عليهن أن يجرعن بعض الويسكى ويطبقن أسنانهن ، ويلدن ! حتى لا يقول أحد أنهن يخالفن سنة الخالق ويرفضن انجاب مزيد من الاطفال ! لــــكن ما ذنبهن وكل واحدة منهن تتصور أن ابنها أثمن من أن يولد فى هذا العالم ، وأنه يجب أن يستثنى من هذا العذاب العام لانه خير من الآخرين ! والله أحسن أن الاجهاض يكلف نقودا ، والا لما كنا انتهينا ..

ذلك ، بشكل عام ، هو ما كان العسكرى حريا بأن يفكر فيه ، لو كان ممن يفكرون . لكنه لم يكن منهم ، لانه كان مدربا على الطاعة والنظام

سرعان ما نهض من فراشه وصعد الى الخوخة ليقول لها شيئا . سيأخذها الى صديقته ، صاحبة الدكان . لابد أن المرأة ستجد لها مخرجا .

عندما دخل الغرفة المطلية باللون الوردى ، رأى خوخة راقدة على ظهرها فى الفراش ، وقد تراخت ذراعاها الى جانبيها ، وعيناها تحدقان فى السقف .

كان فيوكومبى يهم بالكلام عندما وقع بصره على كتاب مهلهل ملقى على مقعد خيزران من مقاعد الغرفة . عرف الكتاب على الفور . فهو ذلك المجلد من دائرة المعارف البريطانية ، أو ما تبقى منه . وقد قضى ساعات بأكملها منكبا عليه ، حتى بات بوسعه أن يردد صفحات

بأكملها منه عن ظهر قلب . لكن ما أكثر الصفحات التى لم يقرأها بعد .

صدم العسكرى اذ وجد كتابه الذى افتقده كثيرا فى غـرفة بولى . ولقد بلغ من عنف الصدمة أنه لم يحس السعادة التى كان حريا أن يحس بها لعثوره على الكتاب . فضياع الكتاب كان قد أحزنه كثيرا ، لانه كان ذا قيمة كبرى فى حياته . لكن اكتشاف سارق الكتاب أحزنه أكثر . كان متعلقا بكتابه هذا. نعم كان بوسعه أن يشترى غيره من أحد محلات البضائع القديمة ، اذ وقعت عينه عليه فى نافذة ذلك المحل . لكن من يضمن له أن يعثر على ذلك المجلد عينه ؟ تلك صدفة لا تحدث الا مرة كل عشر سنين مثلا . ونحن نعلم أن ذلك المجلد الممزق لم يكن يعنى شيئا بالنسبة للخوخة . أما بالنسبة للعسكرى ، فلم يكن هناك شىء فى العالم يمكن أن يقبله عوضا عن ذلك الكتاب ، الا المجلد الكامل نفسه ، فيما يحتمل . ومع ذلك فها هو يراه أمامه ولا يستطيع أن يلتقطه فيقول ببساطة : « آه ! ها هو كتابى ! ترى كيف جاء الى هنا ؟ » فمثل ذلك السلوك كان حريا بأن ينهى الامر كله نهاية غير مستحبة . ورغم أنه سكت ، الا أن منظر ذلك المجلد فى غرفة مس بيتشام ، غير رأى العسكرى فيها تماما . وهكذا فانها عندما سألته عما جاء به لم تسمع منه غير غمغمة مبهمة ؛ لعلها كانت «جئتا طمئنعليك» ، خرج على أثرها مباشرة دون أن ينظر اليها أو الى الكتاب . وقد ضايقها كثيرا سلوكه الفريب هذا .

ولم تدر أنها فقدت بخروجه كائنا ودودا ، كائنا لا غنى عنه ولا قرين له فى هذا العالم الذى لا أصدقاء فيه ، وفقدت معينا من النصح ورجاحة العقل كان حريا بأن يغير مجرى حياتها كله .

خلال تلك الايام عادت بولى الى التردد على مستر سمايلز من جديد. وبالنظر الى أن صاحبة البيت كانت قد بدأت تشك فى أمرهما ، فانهما اضطرا الى الذهاب الى الحديقة العامة . وهناك أرادت بولى أن تجلس معه على أحد مقاعد الحديقة بمرأى من الناس ، لكنه أصر على الجلوس بين الشجيرات .

وقد اعتبرت ذلك ضربا خسيسا من الابتزاز من جانبه . لكنها انصاعت له .

طوق مستر سمايلز ردفيها ثم أخذ يقول لها انه فى الاونة الاخيرة بذل جهودا مضنية للعثور على طريقة لمساعدتها .

قال وهو يلصق خده بخدها :

– لا يجب أن تتصورى أنى لا أفكر فى الامر ليل نهار . انه مزعج

للغاية بالنسبة الى • فوق انك لم تعودى لطيفة معى منذ أن حدث ذلك • أصبحت سريعة الغضب ، ضيقة الصدر ، خذى هذه الليلة مثلا . بدلا من أن يروق لك الجلوس هنا معى . بين الشجيرات ، بعيدا عن العيون – انظرى الى القمر • انه ليس دائما بهـــذه الروعة يا حبيبتى • لكنك لا تنظرين اليه كما ينبغى ! – آه ، نعم كنت أقول أنك بدلا من أن تحاولى نسيان الموضوع ، وهو ما قد يكون مفيدا فى حالتك الراهنة ، لا تكفين عن العودة الى نفس الحكاية القديمة . ألم تعودى تحبيننى ؟ هل أصبحت لا تحبين أن أضع يدى هنـــا على صدرك ؟ أنت لا تثقين بى • ان الواجب يملى على أن أخرجك من هذه المشكلة التى أوقعتك فيها – حتى ولو كنت أنت قد أوقعت نفسك أيضا ، وهو ما يجب أن تعترفى به يا حبيبتى • لكن اسمعى• لقد اكتشفت شيئا • وصفة ليس لدى أدنى شك فى أنها ستنجح • وأهم مافى الامر أنك تستطيعين أن تقومى بالامر بمفردك ، فوق أنه لا يكلف ، فى الواقع ، شيئا • تأخذين بصلة ••

نظرت اليه دهشة ، فاستطرد بلهوجة ، وهو يرفع ذراعه من حول ردفها :

– تأخذين البصلة • بصلة عادية من ذلك النوع الذى تجدينه فى المطبخ ، و •• و •• ثم ينتهى الامر ، ببساطة • ما رأيك ؟ وصفة سهلة ، أليس كذلك ؟

همت بولى واقفة بغضب . انهمكت فى تنظيف جونلتهـــا من الحشائش ، ثم اخذت تعدل من وضع قبعتها ، دون أن تقول شيئا • وعندما لاحظت غيظه قالت باقتضاب :

– لو كان ذلك يتم ببصلة ، لما دفع أحد خمسة عشر جنيهــا للطبيب • فوق أن هذه البصلة تكون مؤلمة للغاية •

خرجا من الحديقة على عجل وكأن كلا منهما يريد أن يفترق عن صاحبه بأسرع مايمكن . وعندما افترقا اظهر مستر سمايلز بوضوح أنه يحس بأنه قد قام بكل ما يحق لها أن تتوقعه منه وأكثر •

***

كانت بولى على علم بأن الاسم الاخر لبيكيت هو مستر ماكهيث ، كما كانت على علم بسلسلة محلات حرف «ب» • فقد صارحها الرجل بكل شىء . ولم تجد فى ذلك كله غرابة . فطـالما كان يتعـامل فى الاخشـاب أيضا ، فان من حقه أن يصف نفسه بأنه تاجر أخشـاب .

قابلته بولى عدة مرات وأخبرته تلميحا بمقابلتها مع السمسار كوكس • لم تقل شيئا عن زيارتها لهذا الاخير فى بيته ، ولا عن

خطاب أبيها اليه ، لكنها ذكرت أنه حدثها عن عدد من الصور المثيرة للاهتمام قال انه يريد أن يفرجهـا عليها . وأضافت أنها ستزوره فى بيته قريبا ، خاصة بعد أن سمعت أن أخته سيدة لطيفة للغاية.

أنصت اليها مستر بيكيت باكتئاب ، ووجهه يعطى انطباعا بأنه مطالب باتخاذ قرار هام وعاجل .

قرب المساء نزلت بولى فى أعقاب أمها الى الكرار ، حيث كانوا يحتفظون بالتفاح مرصوصا على أرفف . كانت تعلم أن مسز بيتشام لا تحب أن يتبعها أحد الى ذلك المكان ، لانها تحب أن تنفرد بنفسها فيه . لـكنها كانت قد عقدت العزم على التحدث اليها فى ذلك المكان دون غيره .

عندما فتحت الباب ، رأت أمها واقفة بين أرفف التفاح ، ممسكة بكأس من الويسكى فى يدها ، وقد ارتسم تعبير مذعـور على وجهها لهذه المباغتة . كان مما يحز فى نفس مسز بيتشام أن يضطرها زوجها الى اللجوء لهذه المناورات المهينة أمام ابنتها لمجرد أن تشرب كأسا من الويسكى بين الحين والحين . لكن تزمت الرجل كان لا يطاق . ومع ذلك فهى فى السادسة والاربعين من عمرها ، ويجب أن يكون لديها قدر من الحرية الشخصية التى تمكنها من أن تفعل ما تشاء .

تحدثت اليها بولى بعذوبة ، لانها كانت مثقلة بوزر فعلتها المخجلة، ولولا ذلك لاغلظت لها القول كدابها . قالت لها انهـا تريد الزواج من بيكيت .

فقالت مسز بيتشام كأنها تفضى بسر لا تريد الكشف عنه :

ـ ليس اسمه بيكيت .

لكن بولى قالت بهدوء :

ـ نعم . اعرف . اسمه ماكهيث ـ أو هو فى الحقيقة .. ربما كان اسمه ماكهيث فعلا .

فقالت مسز بيتشام وهى تضع كأسها من يدها على أقرب رف اليها بخبطة تنبىء عن حنقها :

ـ وبيتشام ؟ ما الذى سيقوله بيتشام عن رجل قد يكون اسمه كذا وقد يكون كيت ؟ هذا رجل يتزوجه أحد ؟ لست عمياء . لدى عينان فى رأسى وأستطيع أن أرى الطريقة التى يراقصك بها . حتى هو يظن أنى لا أراه . لكنى أعرف هذه الاشياء . لا يوجد رجل أعمال محترم يمسـك فتاة فى مقتبـل العمر هذه المسـكة التى يطبق بها على خصرك . والادهى من ذلك ان ابن ال .. يظن أنى لا

أكون فى كامل وعيى بعد أربعة أو خمسة اكواب من تلك الجعة التى يقدمونها فى حانة « الاخطبوط » ! فيطلق لسفالته العنان معك . لا تحاولى أن تخدعينى يا بولى يا عزيزتى ! لا يمكن أن تكون الاسباب التى تدفعك الى الحديث عن مثل هذا الرجل محترمة ! انها دوافع من نوع آخر تماما أفضل ألا أتحدث عنها . لقد أدار رأسك بلمساته الوقحة . هذا هو ماحدث لك فى حقيقة الامر .

– نعم . الحقيقة أنى منجذبة اليه .

فصاحت مسز بيتشام بانتصار :

– طبعا . هذا هو ما قلته . لقد فقدت عقلك . أصبحت متيمة به ، حتى لم يعد بوسعك أن تعرفى لك رأسا من قدمين .

وهنا أحست بولى بالغضب ، فقالت بلهجتها المتعالية التى ألفت أن تحدث بها أمها :

– أف ! لا تصدعى رأسى بكثرة كلامك ! كل ما أريده منك هو أن تخبرى أبى . وعليه بعد ذلك أن يتحدث الى مستر بيكيت .

ثم دارت على عقبيها فعادت الى غرفتها .

أما مسز بيتشام فتنهدت وأفرغت كأسها فى جوفها ووجها مكفهر غيظا وكمدا . لكنها فى تلك الليلة عينها تحدثت الى بيتشام كما أمرتها ابنتها . فقد كانت تعرف بولى .

***

كان بيتشام قد شهد أصيلا مروعا بين أنياب كوكس . فى غرفة خلفية بمشرب نبيذ طلب السمسار صراحة أن يقوم الشركاء بشراء سفن جديدة غير السفن الخردة التى حاولوا أن ينصبوا بها على حكومة صاحبة الجلالة . وقع ذلك الطلب على شركة النقل البحرى وقع الصاعقة . انهار ايستمان فى مقعده كأنه أصيب بفالج . كان قد بدأ يتفاءل كثيرا فى الاسابيع الاخيرة ويتوقع أن تتم الصفقة على خير . أما سمسار المراهنات فقفز واقفا وأخذ يجأر بأعلى عقيرته كثور هائج ، ثم انحط جالسا ، واجهش باكيا . لم يعد هناك مخرج ، ولم يعد يجدى شىء . وطبقا لما قاله كوكس كانت الخطوات الاولى قد اتخذت بالفعل لتشكيل لجنة برلمانية تحقق فى الصفقة بأكملها . وهكذا فان الشركاء فوضوا بيتشام ، بوصفه مالكا لـ ٢/٧ من اسهم الشركة ، فى مصاحبة كوكس الى ساوثمبتون فى نهاية الاسبوع ، للتفاوض فى شراء سفن « محترمة » جديدة .

ومع ذلك ذهبوا كلهم الى رصيف الميناء ليحضروا حفل التسليم

الرسمي للسفن الثلاث الخردة الى الحكومة . فقد قال كوكس انهم يجب أن يقوموا بتسليمها فعلا حتى لا يثيروا الشبهات حولهم ، وأنهم يستطيعون بعد ذلك استبدالها بالسفن السليمة . لم تكن العمرة قد تمت بعد ومازال العمل جاريا تحت اشراف شركة النقل البحرى . وقد مثل اللجنة الحكومية القائمة بالاستلام سيدان فى ثياب لا يرتديها أحد عادة فى مثل تلك المناسبات الرسمية . وقد تمت مراسم الحفل بسرعة وعجلة ظاهرتين ، وكأن كل من اشترك فيها يود أن ينجو بجلده بأسرع ما يمكن . وهكذا وقفوا جميعهم على ذلك الرصيف الذى تلفحه الريح ربع ساعة قصيرة بدت فى طول دهر بأكمله ، تحت وابل المطر ، وقد تجمدت أطرافهم . لكنه واجب الوطن .

وهو يوشك أن يغمض عينيه لينام فيضع حدا لعذاب ذلك اليوم الرهيب فاجأته مسز بيتشام باسم الرجل ماكهيث فى أمر له صلة بابنته بولى . فجن جنونه . أصابته لوثة حقيقية .

جأر بأعلى عقيرته :

– من الذى عرفكما به ، ذلك الافاق صاحب محلات حرف «ب» ؟ ما هذا ؟ هو الذى قدم نفسه ؟ أى أماكن هذه التى تترددين عليها حيث يقدم الرجال الغرباء أنفسهم اليك والى ابنتك ؟ هذا الرجل معروف فى كل مكان بأنه محتال ونصاب ! اذن فهذه هى الطريقة التى تعنين بها بابنتك ! هأنا أستعبد نفسى اناء الليل واطراف النهار فى سبيلكما ، وأنت تقدمينها لقمة سائغة الى أفجر الفجار ، الى نصاب ذى سمعة نتنة يقضى سحابة يومه متسولا فى صالات البنوك محاولا أن يحصل على قرض يمول به دكاكينه البالوعية . ماخطبها ابنتك هذه ؟ هل جنت ؟ سأردها الى جادة الصواب لفورى مادامت قد فقدت عقلها . تتبادل النظرات مع ذلك الرجل كوكس تحت بصر أبويها الـ ... لكن خبرينى من أين جاءت بكل هذه البهيمية التى فى عروقها ؟

قالت مسز بيتشام وهى تجذب اغطية الفراش حتى عنقها :

– ليس منك بكل تأكيد !

فقال زوجها وقد ازداد هياجا فى الظلام :

– طبعا ليس منى . انا لا نفع عندى لهذه الاشياء . يجب أن احتفظ بصفاء الذهن فى كل لحظة والا مزقتنى هذه الضباع اربا .

ثم توقف بغتة ، قائلا :

– لا أريد أن اسمع كلمة أخرى . وفى المستقبل سأقرر أنا من من الناس ينبغى أن تختلط به بولى .

كان قد حزم أمره فيما يتعلق ببولى .

فى صباح اليوم التالى تحدث اليها فى المكتب . استجوبها فى غير رحمة عن زيارتها لمستر كوكس فى بيته ، بل وتوصل الى أن يستخلص منها ، بين الدموع والشهقات ، حكاية الصور البذيئة التى أراها السمسار اياها . قالت أنها رأت سيدات عاريات فى تلك الصور فى أوضاع مخجلة .

بعد أن انتهى منها ، قال لها أنه يعتبر أن نصف ما أفضت به من اعترافات لا يخرج عن كونه أكاذيب ، وأن مستر كوكس رجل أعمال محترم للغاية ، وأنها يجب أن تحمد ربها لاهتمامه بها ولكونه لم يسمع شيئا عن الاصناف الوضيعة من البشر التى تختلط بهم . ثم ترك الامر معلقا عند هذا التلميح الاخير .

وهكذا فانها عندما قابلت مستر ماكهيث فى المرة التالية ، أخبرته أن أباها لن يوافق بأى حال من الاحوال على زواجها منه ، وأن مستر كوكس قد دعاها الى الذهاب معه فى رحلة خلوية فى نهاية الاسبوع .

ولقد صدقت فى الجزء الاول مما قالته له . أما حكاية النزهة الخلوية فكانت كذبة صفيقة أرادت أن تسود بها عيشه .

***

عندما علم مستر ماكهيث من بولى أن مستر كوكس هو الخطيب المفضل عند أبويها ، بدا له واضحا أنه يجب أن يفعل شيئا بخصوص مستر كوكس .

ولم يطل به التفكير . سرعان ما قر قراره ، فركب احدى السيارات العامة التى تجرها الخيول فذهب الى مكتب من تلك المكاتب الصحفية القذرة ، المدقعة فى فقرها ، التى تتكون من حجرتين يسكنهما عادة رجال ذوو فضول ، لا يغتسلون أبدا ، ولا يحلقون ذقونهم ، لهم أصوات تفيض لؤما وتلميحا .

تبودلت بعض النقود ثم وضعت أمام مستر ماكهيث بضع مجلدات مزيتة ممزقة من الصحف القديمة ، فقضى بعض الوقت فى تصفحها ، ثم خرج من تلك الدار فركب سيارة اخرى تجرها الخيول ، حملته الى حيث دخل بيتا عتيقا آيلا للسقوط فى ميدان لووربلاكسميث ، فألقى بتعليمات سريعة الى رجل قذر الثياب تنطق هيئته بالشر .

ثم ذهب فركب سيارة عامة ثالثة ، عائدا الى بيته ، رغم أن الوقت كان مبكرا .

كان يقيم فى بيت صغير فى احدى الضواحى الجنوبية يقع وراء

حديقة متناهية فى الصغر ضمن صف مرصوص من بيوت متماثلة تماما لا يميزها عن بعضها شيء • لم يكن قد طال به مقام فى ذلك البيت ، بل أن البناء ذاته لم يكن معداً للسكنى تماما • فى احدى الغرف العارية كانت بضع قطع قليلة من أثاث ، بينها كنبة جديدة يستخدمها فراشا ، وفى المطبخ موقد يعمل بالغاز وثلاجة بدائية •
لم يكن البيت جديداً ، فقد حل فيه محل زميل من زملاء العمل كان قد أفلس •

وقف على درج البيت ، وأخرج من جيبه حلقة مفاتيح كبيرة فجرب أكثر من مفتاح قبل أن يتمكن من الدخول ، ثم أغلق الباب وراءه وسار ، وهو يصفر ، مخترقا ردهة عارية تماما لم يكن فيها حتى مشجب يعلق عليه قبعته •

وعندما بلغ غرفته فى الدور الاول ، حيث كان كل شيء مرتبا بنظام دقيق ، خلع حذاءه واستلقى على الاريكة ، فظل ممددا عليها الى أن حل الظلام •

عندما قاربت الساعة العاشرة ، سمع رنين الجرس من أسفل ، فنزل ، وفتح الباب ، فأدخل رجلا بدينا أخذ منه ما كان معه ثم دفعه خارجا من جديد ، بلا كلمة واحدة • وقد بدا واضحا أن الرجل البدين لم تعجبه هذه المعاملة ، لانه انصرف وهو يبرطم • لكنه لم يحدث أية متاعب ، فوق أن معرفته بالجيرة جعلت من الجلى أن تلك لم تكن المرة الاولى التى يتردد فيها على ذلك البيت .

فتح ماكهيث (الذى كان ، فى واقع الامر ، يقيم فى ذلك البيت تحت اسم مستعار وهو ميلبورن) الربطة التى أتى بهـا الرجل البدين ، فأخرج منها حزمة من الخطابات ، والاوراق والصور جلس يتفحصها زهاء نصف ساعة على ضوء مصباح بترول ، ثم انصرف عنها ، وأعد فراشه ببضعة بطاطين أخرجها من دولاب فى الحائط ، وسرعان ما كان يغط فى النوم •

وفى صباح اليوم التالى ذهب الى قيادة الشرطة حيث قابل نائب القائد الذى كان صديقا قديما له • وقف الرجلان معا وقد نشرا محتويات ربطة الامس على سطح المكتب العارى وأخذا يدرسانها معا ، خاصة كراسة مدرسية مسطرة ذات غلاف أحمر كان مستر كوكس يكتب فيها يومياته .

كانت تلك اليوميات تحوى معلومات شخصية للغاية عن حيـاة السمسار الخاصة . ولقد رفض نائب القائد الاطلاع على أى ورقـة

من تلك الاوراق حتى اقسم له مستر ماكهيث أنها لا تتضمن أية معلومات من أعمال صاحبها أو نشاطه فى دنيا المال • لانه لو كان الامر كذلك لما وجد مستر براون ، نائب القائد ، فى مكنته الاطلاع عليها ، بالنظر الى ما تتمتع به مثل تلك المعلومات من حصانة لاتهدر .

والحقيقة أن الجانب الاكبر من محتويات الكراسة الحمراء كان من قبيل التفلسف الاخلاقى • نعم كانت اليوميات حافلة بمعلومات أكيدة عن زيارات ووقائع معينة ، لكن الطابع الاخلاقى كان غالبا عليها ، متمثلا فى مواعظ موجهة للذات ، مختلطة بنقد ذاتى صريح وتوبيخ موجه الى الذات أيضا ، كدليل لا يدحض على المعركة التى لا تنقطع التى كان صاحب الكراسة يخوضها ضد شهوانية فائقة بدا واضحا أنها آخذة بخناقه • والواقع أن الجزء الاكبر من تلك الملاحظات كان يفوق قدرات السيدين ماكهيث وبراون العقلية ، ففاتهما مغزاها فى معظم الامر ، وهو ما لا يلام عليه كاتبها ، لانه لم يكن قد كتبها لهما على أية حال .

كانت هناك أسماء أيضا ، ولو أنها بالشفرة ، لانها وردت مرموزا اليها بحروفها الاولى فقط • كما تضمنت اليوميات احصائيات دقيقة ومنتظمة أيضا . فكل يومين او ثلاثة أيام على الاكثر (ولم يكن صاحب اليوميات يغفل عن كتابتها يوما واحدا) كانت هناك أرقام لافتة للنظر ، مكتوبة بالحبر الاحمر وتحتها ، بعناية فائقة ، خط بنفس الحبر يعززها ، على هذا الوجه : ويوم كذا : مرتان ، أو يوم كذا أربع مرات • لكن « أربع مرات » كانت ، والحق يقال ، نادرة ، بمعنى أنها لم تتردد كثيرا ، كما أن الامر لم يتجاوز فى أى يوم من الايام «خمس مرات» ، فذلك أعلى رقم تضمنته اليوميات • كما أنه كانت هناك أيام عجاف كتب فيها ، مرة واحدة ، فقط ، لكن تلك لم يكن تحتها خط ، بل كانت وسط دائرة حمراء صغيرة كالتى توضع فى شهادات التلاميذ الخائبين علامة الرسوب فى مادة من مواد دراستهم

غير هذه الاحصائية كان هناك أيضا رمزان مختلفان ، وقد وضع مفتاح لهما فى بطن الغلاف ، وبذلك تبين أن أحد الرمزين يعنى التبرز ، والاخر يعنى تعاطى المسهلات • هذه الرموز أيضا كانت مدرجة بعناية وانتظام ، بخط أنيق • فقد كان مستر كوكس صاحب خط حسن ، منمق بعض الشىء ، حروفه كبيرة •

أما بقية محتويات الربطة فمجموعة مشينة للغاية من الصور الفاضحة . والاسوا من ذلك ان كل تلك الصور كانت لفرط اتساخها

وكثرة ثنياتها ، تنبىء عن افراط حقيقى فى استخدامها !

بعد فترة من المعاينة الصامتة لتلك المستندات ، ضغط مستر براون على زر جرس ، وحرر وريقة رسمية كتب عليها بضع كلمات ثم أعطاها لليد المختصة . وعندما عاد صاحب اليد ، ألقى بأضبورة كبيرة على المنضدة ، تحتوى على عدد من الملفات والوثائق البوليسية .

أخرج براون من الاضبورة ورقة مملوءة كتابة فأخذ يقارن بعض ما فيها من بيانات ببعض البيانات الواردة بيوميات كوكس ، واضعا اصبعا غليظة على الموضع الذى كان يقارنه . غير أنه ما لبث أن قال بطريقته المتئدة التى توحى بأنه يقول أشياء عميقة وحكيمة للغاية :

ـ كلا يا عزيزى ماك ، لا يمكننا أن نوقع بصاحبك استنادا الى مثل هذه الادلة ، نحن لا نعرف شيئا عن العمل الذى يزاوله ، وأنت خير من يعرف أننا لا نزج بأنوفنا فى أنشطة الاعمال التى يزاولها السادة رجال الاعمال أمثالكم . لاننا ان فعلنا ، اى نفع سيعود علينا من ذلك ؟ ان الرجل يدفع ما عليه من ضرائب بانتظام ـ ولذا فان الامر على ما يرام فيما يخصه . ومن جانب آخر فان حياة الناس الخاصة ليست من شأننا الا اذا ارتكبوا سرقة أو أى شىء من هذا القبيل . وصاحبك هذا لم يرتكب أية سرقات . التهمة الوحيدة التى يمكن أن توجه اليه ، ان أردنا مضايقته ، هى تهمة زنا بوسعنا ان نوجهها اليه لانه ضبط ، منذ عامين تقريبا ، فى فندق مشبوه ، مع زوجة موظف كبير فى الامبرالية . لكن تهمة كهذه يحسن بك أن تضعها بين يدى الصحافة . وسأعطيك آن أحببت اسماء اشخاص يمكن الاعتماد عليهم فى ذلك الخصوص ، بوسعهم أن يستخلصوا من تلك الواقعة فضيحة لا بأس بها .

وهنا ضغط على زر الجرس ثانية ، وأحضر الرجل أضبورة أخرى مكتوب على غلافها بحروف سوداء كبيرة : الابتزاز بالتهديد .

أخذ براون يدرس محتويات أضبورته بعناية كدأبه فى كل ما يفعله ، ثم قال أخيرا :

ـ اذهب الى جاون . أنه واحد من أبرع المشتغلين بهذه المهنة .

أخذ ماكهيث العنوان ، فضمه الى مستنداته الاخرى ، ثم خبط على ظهر صديقه رجل البوليس تعبيرا عن الود وقال :

ـ عندما أتزوج فى المرة القادمة ـ زواجا شرعيا أعنى ـ سوف تأتى الى الفرح ؟ لقد بدأ القلق يساورنى بشأن هؤلاء الناس الذين أتعامل معهم فى البنك . يبدو لى أنهم ليسوا ميالين الى مساعدتى .

قال براون بغير حماس :
ـ سآتى طبعا ان تمكنت . لكنك لايجب أن تسرف فى زيجاتك المتعاقبة هذه كثيرا بعد الآن .

انصرف ماكهيث وهو غارق فى أفكاره . صاحبه براون لم يعد براون القديم العتيد فيما يتعلق بموقفه من أصدقائه . نعم مازال الرجل محل ثقة ويعتمد عليه ، لكن الظاهر أنه قد بات صاحب مسئوليات جديدة فى الآونة الاخيرة وعلا فى دنيا الشرطة قدره .

ولم يكن موقف براون وحده هو الذى يبعث على القنوط . فموقف البنك أيضا لم يكن باعثا على الابتهاج . بدا أن مديرى البنك يختلقون تحفظات جديدة فى كل مرة ، ويعقدون الامور أكثر فأكثر .

والاسوأ من هذا وذاك كله أن موظفيه هم أيضا كانوا قد بدأوا يصبحون متعبين . والحقيقة انه كان ينوء بادراكه للحمل المبهظ الملقى على عاتقه والمتمثل فى مسئوليته عن مائة وعشرين من هؤلاء الناس، معظمهم ارباب عائلات ، وهى مسئولية كان يأخذها مأخذا جديا للغاية . فما بالك والأمور تسوء ، ماليا ، من يوم الى يوم ، والبنك يقبض يده باصرار متزايد ؟

لابد أن يحدث شيء . لم يكن هناك أدنى شك فى ذلك . يجب أن يحدث شيء فتنفرج تلك الضائقة التى بدا انها لن تنفرج . عندمايتمكن من أموال بيتشام العجوز مثلا ، ويملأ يده منها ، سيستطيع أن يتنفس بارتياح من جديد .

ذهب الى احد محلاته ، على مقربة من جسر ووترلو . لم يكن دكانا من دكاكين حرف «ب» ، بل محل عاديات محترم تديره امرأة اسمها فانى كرايزلر تعرف شيئا عن الفن . كان يذهب الى ذلكالمكان دائما ، كلما كان لديه ما يشغل ذهنه ، فيجلس فى غرفة المكتب ، ويقلب صفحات كتاب ليساعده ذلك على التفكير .

لسوء الحظ لم تكن فانى بالدكان ، فقد ذهبت الى أحد المزادات . كان يصر دائما على أن تكون لبعض الاشياء التى تباع فى المحل شهادات ميلاد غير مزورة ، لهذا كانت فانى تتردد على المزادات .

وجد فى مكتبها كومة من الكتب تبين من الكلمات المكتوبة بالقلم الازرق على غطاء الصندوق انها من مكتبة اسقف كينجزهول الخاصة، وعندما بدأ فى تقليب صفحات الكتب تبين أنها تحوى لوحات غاية فى البذاءة . ولم يكن ماك ممن يطيقون هذه الاشياء . فوق انه كان ضد حكاية الفن أصلا بكل أشكاله بذيئا كان أوغير بذيء . فألقى المجلدات

الثمينة من يده متقززا ، ثم ما لبث أن تذكر بولى ، باعتبار أنالشىء بالشىء يذكر ..

كان يفكر فيهـا كثيرا فى تلك الايام ، وكلمـا فعل انتـابه قلق لا يوصف . لقد تيقن أخيرا من أنها شهوانية بشكل لايعقل .

هم واقفا فخرج من مكتب فانى ، ذاهبا الى شارع أولد أوك .

دار حول البيت مرتين ، فرأته بولى ونزلت للقائه . سارت معه فدارا عدة مرات حول المكعب السكنى الذى يقع فيه بيتها .

كانت رقيقة للغاية معه ، وقد بدا انها متورطة فى متاعب من نوع ما ، كما أن لونها كان ممتقعا أكثر من المألوف . وقد صدم ماكهيث عندما لاحظ الظلال التى تحت عينيها . وعندما افترقا لم تنظر اليه مواجهة .

قالت أثناء الحديث عرضا انها ستنقطع عن دروس التدبير المنزلي بعض الوقت وانها ، نتيجة لذلك ، لن تستطيع أن تقابله ثانية . وفى يوم الاحد ستتم الرحلة الخلوية التى أخبرته بأمرها ، مع كوكس .

ذهب ماكهيث الى تانبريدج بمزاج منحرف للغاية .. فقد تذكر فجأة ان اليوم يوم خميس .

كان من دأبه أن يقضى مساء كل خميس فى بيت معين بتانبريدج يشرب فيه فنجانا من القهوة مع الفتيات ، ويتحدث قليلا مع جينى . لكنه اليوم ، بسبب الانقباض الذى انتابه ، جعلها تقرأ طالعه ، فى أوراق اللعب . لكنها لم تقل شيئا يثير الاهتمام . والفتيـات أثرن ضجره كالعـادة . كان قد تردد على ذلك البيت طيلة خمس سنين بأكملها ، فبدا يداخله ملل .

فى اليوم التالى زار جاون . الذى أعطاه براون ، نائب القـائد ، عنوانه . جاون هذا كان صحفيا يكتب فى عدة صحف لها سمعة غير مستساغة . فأعطاه ماكهيث الادلة التى كانت معه ضد ويليم كوكس .

بعد ذلك بأيام معدودة قال مستر ميلر ، أحد مديرى بنك الائتمان الاهلى ، تلميحا ، فى حديث جرى بينه وبين ماكهيث عن مسائل تتعلق بالاعمال ، انه قد يكون من المرغوب فيه أن يضع مستر ماكهيث كافة الاعتبارات الاخرى جانبا ، وان ينصرف جادا ، وبأسرع ما يستطيع ، الى تأسيس حياة عائلية محترمة ، وهو ما اتفق اتفاقا تماما مع رغبات بولى بيتشام .

على ضوء ذلك كله لم يعد للهجوم الذى كان يجرى الاعداد له ضد مستر كوكس أية قيمة حقيقية ، ولذلك فان مستر ماكهيث لم يعد يشغل نفسه بمسألة الادلة التى تدين ذلك الرجل .

(٥)

« وهكذا وجد كل منهما الآخر ، بين السمك والخراف
وأصبح طريقهما على الارض واحدا ،
ولم يكن لديهما فراش ، أو مائدة ، أو صحاف
ولم يكن عندهما لحم خراف أو لحم سمك
ولا حتى أسماء يطلقانها على أطفالهما العجاف
ولكن برغم كل العواصف الثلجية التى تعوى ، وبرغم الامطار
التى تغرق سهول البرارى الباردة ،
بجوار زوجها الغالى ، يا ابنتى ،
ستظل حنه كاش صامدة

« رجل القانون يقول انه لص زنيم
وزوجة بائع اللبن تقول انه أعرج ووغد لئيم
لكن حنه تقول « وماذا يعنيني أنا
ان كان لصا أو لئيما . انه رجلى أنا
ومن فضلكم ، واحسانكم ، ستظل حنه معه ، رغم كل شيء
اما انه يعرج او انه مجنون
أو انه يضربها حتى يصبح لونها ازرق اسود
فذلك أمر لا يهم حنه كاش كثيرا ، يا ابنتى ،
لانها تعرف أنها تحبه حبا صادقا »

(أغنية حنه كاش)

مشروع صغير برأسمال مكين

كان بنك الائتمان الاهلى مشروعا صغيرا لكنه قائم على رأسمال مكين يتركز نشاطه أساسا فى العقارات وأراضى البناء ، شراء ، وبيعا . واستغلالا . والبنك صاحبته فتاة صغيرة فى السابعة من عمرها ، يديره نيابة عنها ، رجل متقدم فى السن يمثلها ، اسمه مستر ميلر يعمل ، بدوره ، تحت اشراف محام عجوز اسمه هوثورن . هوثورن هذا كان وصيا على الفتاة الصغيرة .

ولقد اضطر ماكهيث ، أثناء مفاوضاته التى طالت مع البنك ، أن يتعامل ، لا مع مستر ميلر فحسب ، بل ومع مستر هوثورن أيضا .ولو جمع عمر هذا على عمر ذاك لبلغ عمر السيدين العجوزين معا مائة وخمسين عاما ، مما يبين ان المرء عندما يتعامل معهما يجب عليه ان يأخذ فى حسبانه انه يتعامل مع قرن ونصف من الزمان .

ولقد كان دافع ماكهيث الاول فى اللجوء اليهما ، وتحميل نفسه نتيجة لذلك بعبء لا يطاق من محنة صبر واحتمال ، انه أراد بتعامله معهما ، ان يخرس الى الابد ألسنة السوء التى لم تكن تكف عن اطلاق الشائعات المسمومة حول دكاكينه حرف «ب» . لانه لم يكن هناك ، فى دنيا المال والاعمال بلندن ، من يستطيع أن يتصور أن مشروعا يهتم بنك الائتمان الاهلى بأمره يمكن أن يكون قد انشىء بعد عام ١٧٨٠ ، والشركات التى بهذا القدم وبهذه الاصالة لا يوجد من يشك فى أنها شركات راسخة ، ومتينة .

لكنه بسبب تلك الظروف عينها ، لم يحرز اى تقدم .

فقد أخذ البنك يراوغه . ينتهى من مراوغة ليدخل فى غيرها .

فوق ان فضول البنك كان فى الحقيقة لا يطاق . أرادوا أن يعرفوا عنه كل شيء ، من ايجار الدكاكين الى السير الشخصية الحميمة لاصحاب تلك الدكاكين . ولكن ، بالرغم من ذلك التمنع كله ، بدا البنك راغبا فى التعامل معه ، بشكل لافت للنظر . ولم يكن ماكهيث يجهل السبب فى ذلك . فالمجال القديم لنشاط البنك . العقارات وأراضى البناء ، خاصة بالمعنى الذى يفهمه مستر ميلر ، لم يكن قد عاد مربحا كسابق عهده . فقد تضاءلت فرص الاستثمارات الجديدة، والعقارات القديمة كانت قد تعرضت لهزات مخيفة نزلت بقيمتها الى الحضيض .

نتيجة لتلك الاحوال غير المستقرة كان مستر هوثورن ينظر الى المستقبل بتوجس شديد . وفوق كل شيء لم يكن راضيا عن مديره مستر ميلر . فرغم أنه أكبر سنا من ذلك الاخير ، أعتبره غير صالح لادارة بنك ، بالنظر الى تقدمه فى السن ! فهو ، رغم كونه قريبا لميلر فى جموده وتحجر عقله ، يعتبره مسئولا عن ضياع صفقات كثيرة مجزية ، من البنك ولطالما فكر فى أن يستبدل به شخصا آخر أصغر سنا وأكثر نشاطا . ولم يكن ميلر غافلا عن كل ذلك .

ولهذا فان الموقف العدائى الذى اتخذه الاثنان من العنصر الحديث كان قد بدأ يضعف منذ فترة لا يستهان بها . بدأت الشكوك

تداخلهما في سلامة نظرتهما • لعله من غير المرغوب فيه فعـــلا أن يعالج المرء كل ما يعرض عليه من أمور بكل ذلك التشدد الذى يدعى العلم بكل شيء • الشركات الاخرى ليست متشددة بهذا الشكل ، فهي تعقد الصفقة وراء الصفقة ولا يقول أحد أنها شركات موشـكة على الافلاس • فلعل اتجاهات العصر تتطلب قدرا من اتساع الافق، وشيئا من المرونة •

ولهذا فان السيدين هوثورن وميلر ، عندما عرض عليهمـــــــا موضوع دكاكين حرف « ب » لم يظهرا من النفور حياله ما كان المرء حريا بأن يتوقعه منهما • ولقد لاحظا على الفور أن كل شيء فى تلك الصفقة غريب خارج عن المألوف مناف للاصول المرعية ، ولكن أليست تلك هي الحداثة ؟ لاشك أن كل هذه السمات الغريبة علامة أكيدة على أن أعمال مستر ماكهيث عصرية للغاية . ومن الواضـــح طبعا أنهما ، من وجهة نظرهما ، لم يكن من السـهل عليهما التمييز بين مشروع جديد ومشروع جديد آخر غيره بنفس القدر من الدقة الذى يفرقان به بين مشروع جديد وآخر قديم • ولهذا فان استعلاماتهما عن ماكهيث ونشاطه كانت في الحقيقة مجرد شكليات . لانهما كانا قد عقدا العزم على قبول العملية ، خاصة مستر هوثورن الذى اعتبر ان الامر مقطوع فيه بالقبول منذ البداية .

ولقد بدرت من مستر ميلر عدة ايماءات لا تخطئها العين مفادها أنه ، فى حالة دعوة ماكهيث له ، سيكون مستعدا لقبول ضيافته ـ وهو ما يعني الكثير . غير أن ماكهيث لم تكن لديه للاسف ضيافة يقدمها الى أحد • لكنه عندما وجه الدعوة رسميا ، الى مسـتر ميلر لحضور حفل زواجه الوشيك ، قبل ذلك الاخير الدعوة بغير ابطاء ، واعتبر مستر هوثورن مدعوا هو الآخر •

ولقد حدس ماكهيث أن تلك الدعوة قد تكون سببا فى تحقيق ما كان يصبو اليه فى مجال تعامله مع البنك بأفضل مما يمكن أن تحققه كل ما فى الدنيا من مستندات . وكان مصيبا فى حدسه .

ولهذا فانه عندما غادر البنك ، اتجه ، بقلب نزق تملؤه الغبطة ، الى حى ووترلو بريدج ، فعقد اجتمـــاعا فى المكتب الخلفى بدكان العاديات مع فانى كرايزلر ، ثم خرج معها •

ذهبا معا الى كل ما فى الحى من دكاكين العاديات والتحف ،فاختارا العديد من قطع الاثاث ، بصرف النظر عن الاثمان الباهظة .

لكنهما وهما يتناولان الغـداء فى أحـــد المقاهى خيم عليهمـــا

الصمت ، لزمت فانى ذلك الصمت برهة ثم قطعته قائلة وهى تحدث ايقاعا رتيبا بملعقتها على طبق الفنجان .

ـ ولكن هذا سخف بالغ ! لاى شيء تريد هذا الاثاث ؟ هل تريده لنفسك ؟ طبعا لا ! نعم قد تستطيع أن تقسر النفس على العيش مع ذلك الاثاث اذا ما تأزمت الامور • لكنك لست بحاجة الى التظاهر أمامى أنا أيضا • أنا اعرفك جيدا وأعرف أنك تفضل ثلاث غرف خارجة لتوها من المصنع بأربعين جنيها على كل هذه الانتيكات التى انتقيتها لك . ذوقك هكذا ، ولا حيلة لك فيه . ولا داعى للخجل . لكن الاثاث الذى تريد أن تشتريه ليس لك يا ماك • أنت تشتريه لتضحك به على السيدين ميلر وهوثورن • لكن ما الانطباع الذى تظن أنك ستحدثه فى نفس هذين السيدين بأثاث عتيق كهذا ؟ أنت لاتفهم الامر على وجهه الصحيح • يجب أن يكون لك بيت عصرى ، ويجب أن يكون بيتا تفصح كل قطعة أثاث فيه عن أنه قد تكلف الكثير • يجب أن يكون بيت رجل يتحرك مع الزمن • نعم تستطيع أن تحتفظ ببضع قطع قديمة باعتبار أنك ورثتها عن المرحومة والدتك ، مقعد فوتى ، وماكينة خياطة ، وما الى ذلك • هذه أشياء سأدبرها لك • دع الامر لى • وسوف أتكفل بكل شيء ، بحيث لا يبقى فى نفس القرن ونصف قرن أدنى خوف أو قلق فيما يتعلق بالنقود التى سيعهدان بها اليك •

ضحك ماكهيث لقولها ، ثم مرا بكافة الدكاكين التى زاراها منذ قليل ، فألغى ماك كل طلبياته • وبعد ذلك ذهبت فانى بمفردها فاشترت أثاثا مختلفا تمام الاختلاف ••

كانت بولى قد كذبت عندما تحدثت عن رحلة خلوية أدعت أن مستر كوكس دعاها اليها • فلم تكن حتى قد رأت مستر كوكس ثانية . نعم خطر لها أن تزوره بخصوص البروش ، لكنها لم تفعل رغم أنها قدرت أن ذلك البروش يمكن بيعه ، أو حتى رهنه مقابل الجنيهات الخمسة عشر التى تحتاجها .

وقد ظلت ، رغم أكاذيبها ، على علاقة طيبة للغاية بماك . فالحقيقة انه بات يجتذبها أكثر من اى وقت مضى . كما أنها لاحظت أنه وضع فى أعقابها من يراقبها . كان هناك دائما بعض المتسكعين أمام دكان الالات • وقد فطنت الى أنهم يتبعونها كظلها حيثما ذهبت . ضايقها ذلك فى مبدأ الامر ، لكن مثل هذا الاهتمام بروحاتها وغدواتها ما لبث أن دغدغ كبرياءها الانثوى . كانت ،

فيما يخص ماك ، تحس أطمئنانا كاملا • فهو ليس ولدا أرعن مثل سمايلز الذى لا احساس لديه بالمسئولية • وهكذا فان ماك عندما حدثها عن الزواج سرا لم يلق كبير معارضة • أخذت تتصور بتلذذ حقيقى كيف يكون وجه أبيها عندما يكتشف أنها تزوجت سرا •

كانت موقنة من أن أكذوبة النزهة الخلوية مع كوكس التى اختلقتها عفو الخاطر هى التى عجلت باتخاذ ماك لهذا القرار • أدركت أنه تصور أن تلك النزهة ــ ما دامت خلوية ــ لابد ستحدث فيها أمور معيبة للغاية ! ضحكت بولى كثيرا وهى تفكر فى ذلك كله •

فى عصر يوم الجمعة أعدت مسز بيتشام لزوجها حقيبته • وضعت له فيها قميصا وعددا من الياقات النظيفة • وبعد قليل أخذ مستر بيتشام حقيبته وذهب الى المحطة • وفى أعقابه بنصف ساعة لا تزيد حزمت بولى حقيبتها ، وخرجت ، من البيت سرا هى الاخرى.

كانت قد اشترت سرا طقمين من الثياب الداخلية الحريرية ، وكورسيهين لونهما موف ، من أحد دكاكين حرف «ب» ، على سبيل المفاجأة لماك • وضعت تلك الاشياء فى حقيبة قديمة ، مع قميص نوم بصدر مقفل ، كان الوحيد من قمصانها الذى بغير رتق •

على ناصية الشارع كانت عربة مقفلة تنتظرها ، وبداخلها ماكهيث ولم يكن مزاج هذا الاخير معتدلا كما يجب ، لانه قضى اليوم على قدميه من طلعة النهار ، ولم يحصل على قيلولته المألوفة •

ذهبا أولا الى مركز قيادة البوليس ، حيث أوقف ماك العربة وصعد الدرج عدوا الى مكتب صديقه براون ، الذى كان قد رقى الى رتبة كبير المفتشين • غير أن هذا الاخير استقبله بأعصاب متوترة ، وبغير حماس . كان قد زاره مرتين من قبل ليذكره بمجيئهما الوشيك لدعوته الى الفرح ، عندما يتم تحديد العنوان الذى سيقام فيه الحفل•

لم يكن رجاله قد وفقوا الى العثور على بيت ملائم يقام فيه حفل الزفاف • فأعطى ماك فى الصباح عنوانا ما لبث أن عدل عنه ، بعد الظهر ، وأعطى عنوانا غيره ، مما زاد من قلق براون وتوجسه من الامر كله . والحقيقة أن كبير المفتشين أبدى فتورا لافتا للنظر ، ولم يظهر أدنى لهفة لحضور الحفل • لكنه وعد بالمجىء على أية حال • مما بعث الطمأنينة فى نفس ماك ، لان نجاح الحفل ، بل والزيجة برمتها ، كان متوقفا على ظهور كبير المفتشين فى الفرح ، لا لاحداث التأثير المطلوب فى السيدين ميلر وهوثورن فحسب ، بل كرسالة غير مكتوبة ونذير الى عدد لا يستهان به من المهنئين ممن كانوا حريين بأن يفطنوا

الى ما ينطوى عليه حضور ذلك الضابط الكبير من مغزى .

ترك ماكهيث عروسه فى مقهى بالقرب من كوفنت جاردن ، ثم ذهب بالعربة الى بيت فى كنسينجتون كان يجرى اعداده لاقامة الحفل.
فقد وقعت أحداث مؤسفة فى ذلك البيت الآخر الذى أعطى عنوانه صباحا ، ولم يتم العثور على ذلك البيت الجديد الا مؤخرا . ولم يكن من المستطاع طبعا أن يقام حفل هام كهذا فى بيت ماك فى جنوب لندن ، لانه أصغر من أن يتسع للمدعوين .

لكن ماك عندما وصل الى البيت الذى كان يعد للفرح ، وجد كل شىء فى فوضى لا توصف . فقد وصل الاثاث المعد للدور الارضى قبل ذلك الذى تقرر أن يوضع فى الدور الاول ، فسد الطريق على ذلك الاثاث الاخير عندما وصل . ولم يكن رجال ماكهيث من أهل الخبرة بشئون العزال ، فوق انهم كانوا قد قضوا الصباح والظهيرة يشربون ابتهاجا بتلك المناسبة . وقد حاول أوهارا ، الذى كلفــــه ماكهيث بالاشراف على العملية ، أن يماحك بقوله أن الرجال نشبت بينهم مشاجرات كثيرة .

كان ذلك البيت مقرا أصغر يقيم فيه دوق ديلووتر أحيانا عندما ينزل بالعاصمة . وللدوق بيت آخر أكبر كان من الممكن استخدامه فى اقامة الحفل ، لان صاحبه كان مقيما ، فى تلك الاونة بالريفييرا لكن ذلك كان حريا أن يلفت الانظار بصورة غير مطلوبة ، فوق أن البيت كان مفروشا ، بينما البيت الاصغر كان خلوا من الاثاث تماما، عدا غرفة رئيس الخدم . ورئيس الخدم نفسه كان مدينا لمستر ماكهيث بأفضال كثيرة .

أسقط فى يد ماك عندما رأى تلك الفــوضى الضــاربة اطنــابها ، وأيقن أنه غير مستطيع أن يفعل حيالها شيئا ، فما كان منه الا أن انصرف ، عائدا الى صاحبه براون ، فى ادارة البوليس . لكن هذا الاخير كان قد اختفى من سكوتلانديارد . ولذا فانه ذهب الى ووترلو بريدج ، فبعث بفانى الى بولى فى المقهى ، ثم اتجه الى بيت مستر براون ، لكنه لم يجده هناك أيضا .

تعرفت فانى لفورها على الخوخة من وصف ماكهيث لها ، فذهبت اليها بغير تردد ، وقدمت نفسها . كانت خوخة قد بدأت تحس بشىء من القلق لان ماك تأخر كثيرا . كانت ، عندما وصلت فانى ، تشرب فنجانها الثالث من الشاى ، ولم تكن معها نقود .

ولهذا فان مجىء فانى أعاد الطمأنينة الى نفسها ، فى أول الأمر .

ثم ما لبثت أن أخذت فى التساؤل ، فيما بينها وبين نفسها بطبيعة الحال ، عن نوع العـــلاقة التى تربط فانى بماك . فالمرأة لم تتعد الثلاثين بكثير ، وليست دميمة . وكأنمـــا حدست فانى الحصيفة ما كان يجول بذهن بولى . فضحكت فجأة وأخبرتها أنها تدير دكان عاديات من دكاكين ماك قرب جسر ووترلو ، وأنهـــا تعول زوجا مريضا وطفلين . وقد هدأ ذلك القول من روح بولى ، بطريقةملحوظة وان لم يدم أثره طويلا .

أسوأ ما فى الامر أن الوقت كان قد تأخر ، فلم يعد بوسعها أن تذهب فتشترى ثوب زفاف . ومن خشيتها أن تضطر الى قضـــاء الامسية كلها بثياب كل يوم بدلا من أن ترفل فى ثوب عروس ، تملك بولى احساس بأن الحفل كله سيكون ماسخا . ومحرجا أيضا . فقد أخبرها ماك أن الحفل سيضم نخبة من وجهاء الناس .

جاء ماك بعد غياب طويل ، وقد فشل فى العثور على براون ، فأخذ المرأتين فى العربة معه . ولم تسمح له بولى أن يصرف فانى كما كان يزمع . كما أن اعتذاراته المتكررة بشأن ثيابها قوبلت من جانب بولى بصمت لا يبشر بخير .

نظر ماك فى ساعته ، ثم أخذ يسب ويلعن . طبعا أغلقت المحلات كلها الآن . وهو مقدر تماما لرغبة بولى فى ألا تبدأ حياتها الجديدة بثياب كل يوم ، حتى ولو كانت تدخل تلك الحياة من بابها الخلفى . ولذلك فانه ، بغير حاجة الى أى كلمة من جانبهـــا ، جعل الحوذى يتوقف بعربته فى الحديقة العامة ، على بعد بضعة مئات من الياردات من البيت الذى سيتم فيه الزفاف ، وذهب بنفسه ليدبر أمر الحصول على ثياب ملائمة لها .

وقد عهد بتلك المهمة الحساسة الى رجل من رجاله كان خبـــيرا بالموضات ، ولديه من سلامة الذوق ما كان حريا أن يجعله منـدوب مشتريات فى أكبر المحلات ، كمحل « ورث » مثلا ، فقط لو كان على أى قدر من الامانة ومتانة الخلق . ولا أدل على ذلك من أن مديرة أحد بيوت الازياء الكبرى اكتشفت فى صباح اليوم التالى اختفـــاء خمسة أثواب زفاف قالت للبوليس أثناء التحقيق أنها أفضل ما فى المحل من أثواب ، ونتيجة لذلك تعرض « بوللى » لمضايقات عديدة طيلة الاسابيع التالية ، لانه كان من المعروف أنه لا يوجـد فى عالم الجريمة من يتمتع بمثل ذلك الذوق الرقيع فى انتقاء الثياب التى يسرقها . لكن ماك تمكن ــ بصرف النظر عن تلك الاشياء كلها ــ من

ان يعود الى العربة فيقدم الى بولى ثوب زفاف من الطراز الاول ٠ وذلك هو ما يهم ٠

ارتدت فانى هى الاخرى ثوبا من الثياب الاربعة الباقية ، وبذلك ذهبت الى الحفل هى أيضا فى ثياب عروس ٠

فى البيت قابلت بولى ما يقرب من خمسين شخصا بدا واضحا أنهم من فئات اجتماعية شديدة التباين فبخلاف لورد واحد ، يدعى بلومزيرى ، واثنين من كبار الضباط ، واثنين من اعضاء البرلمان ، ومحامين ذائعى الصيت ، وأسقف واحد ، هو أسقف كنيسة سانت مرجريت (وقد قام بمراسم عقد القران فى غرفة خلفية) تلقت تهانى الزواج من عدد كبير من أصحاب الدكاكين المكتنزين ، وأيضا من بعض أعوان ماك ومندوبى مشترياته ، وكان معظمهم قد جاءوا بزوجاتهم معهم ٠ فاختلط الحابل بالنابل حقا ٠

بل وقد دعى الى الحفل أيضا بعض اصحاب دكاكين حرب «ب» ، وهم اناس تبدو عليهم التعاسة ، يرتدون ثيابا ممعنة فى التحفظ ، وتكتسى ملامحهم وقارا شديدا ، وقفوا فى أماكن متفرقة ، متخشبين فى أماكنهم ، وكأنهم معروضات رثة فى واجهة زجاجية ٠

لم تستطع بولى ، فى زحمة الاستقبال ، أن تتفرج على سائر غرف البيت ، لكنها سمعت ماك يقول لفخامة اللورد أنه أستأجره ، خصيصا لاقامة الحفل ، من صديقه دوق ديلووتر ٠

على يسار العروس جلس هوثورن العجوز ٠ كان يعرف بولى منذ طفولتها ، لانها كثيرا ما جاءت مع أبيها الى البنك وأخذت تلعب بالشيكات ريثما ينتهى الكبار من مناقشاتهم ٠ وعندما تساءل هوثورن عن السبب فى عدم حضور أبويها الحفل ، قالت له بولى أنها تشاجرت معهما بالامس لانها وقفت فى صف ماك عندما رفض أن يدعو أحدا من العاملين فى « الورشة » الى الفرح ٠ ولقد بدت الاكذوبة مكشوفة بعض الشىء ، لكن القرن ونصف قرن ابتلعاها بسهولة ، فيما بدا ٠

فى بداية الحفل ظل المقعد المحجوز الى يمين العريس خاليا ٠ فلم يكن براون قد وصل بعد ٠ ولقد اضطر ماكهيث أن يخرج مرة بعد مرة من القاعة التى أقيمت فيها المأدبة ليبعث بمن يبحث عنه ٠ فالعرس كله ، بل والزيجة برمتها ، لم تكن تعنى شيئا بالنسبة اليه بغير براون ٠ فوق أنه كان موقنا من أن وجود ضابط بوليس عظيم كهذا فى الحفل سيكون له أثره الذى لا ينكر لدى قرن ونصف ٠

لم يصل براون الا بعد أن وصل المدعوون الى أطباق الدجاج • فوق أنه لم يحاول التظاهر بالابتهاج ، ولم يأت مرتديا بزته الرسمية، فكان لذلك الاهمال الاخير من جانبه أثر بالغ السوء فى نفس ماك ، الذى لم يغفره له أبدا •

لكن براون ، رغم جهامته ، عامل بولى بلطف زائد • فقد وقعت الفتاة من نفسه موقعا طيبا للغاية . فتن بها وقد جلست رافعة الرأس ، ووجنتاها تتوهجان ، وكأن كل من حولها أتباع ورعايا • لم تتناول من الطعام الا أقله ، كما يجب أن تفعل العرائس ، لانه مما يخلف انطباعا سيئا بحق أن يرى المرء مخلوقة رقيقة فى ثوب الزفاف تحشو فمها بالسمك والفراخ •

بدا ترتيب الجلوس الى المائدة الرئيسية غير مقبول بالنسبة لمعظم المدعوين الذين وجدوا أنفسهم فى أماكن دنيا • لكن أحدا منهم لم يحمل العروس وزر ذلك • فقد تألقت بولى حتى أبهجت كل القلوب •

ولقد جاهد ماكهيث فى اخفاء ما كان يحسه من قلق تجاه ما قد يبدر من بعض ضيوفه من تصرفات محرجة • كان أصحاب دكاكين حرف «ب» يتناولون طعامهم فى أدب وتحفظ ، ولا يخشى منهم ، لانهم احسوا احساس المتطفلين بين كل أولئك الناس من ميسورى الحال • لكن أعوان ماكهيث ومندوبى مشـــترياته كانوا ، بطبيعة الحال ، أقل حساسية من ذلك ، فلم يبد عليهم أى تحفظ أو حرج •• ولقد اضطر ماكهيث الى مجالستهم ، عنـد تنـاول الحلوى ، حتى لا يغضبهم فأرغم بذلك على الاصغاء الى تهامس زوجاتهم المشحون بالـكراهية المتبادلة ، بل ووجد لزاما عليه أن ينتهر واحدا أو اثنين منهم لما بدر منهما من بذاءات لا مواراة فيها •

لكنه ، فيما خلا ذلك ، كان قد وفق تمام التوفيق فى اختيار من دعاهم الى الحفل من رجاله • فلم يكن بينهم رجل واحد له ملف لدى البوليس ، سواء فى الداخل أو فى الخـارج ، اللهم الا جروتش • وحتى هذا الاخير لم يكن بوسع سكوتلانديارد كلها أن تتعرف عليه — بعد جراحته التجميلية الاخيرة — الا اذا أخذت بصمات أصابعه • أما السواد الاعظم من مدعويه الاخرين فكان يتألف من عدد من أصحاب الدكاكين الذين لا تشوب سيرتهم شائبة والذين أضفى عليهم غباؤهم احتراما لا نظير له • النغمة النشاز الوحيدة كانت جينى • ولقد كانت دعوة جينى — بغير علمه — قحة لا تغتفر من جانب أوهارا • لان المومسات لا موضع لهن فى مثل هذه المناسبات العائلية الفاضلة . فوق ان

وجودها كان محرجا لاحد الضابطين العظيمين . غير أنه مما خفف من اثر تلك الهفوة وجود علم مثل ريد بين المدعوين ، باعتبـاره من أشهر شخصيات العـالم السفلى ، فقد ارتفع المستوى الاجتمـاعى للحفلة بوجوده ارتفاعا لا ينكر .

بعد تناول القهوة انفرد ماكهيث بهوثورن وميلر فى غرفة مجاورة لمناقشة متطلبات قيام البنك بتمويل دكاكين حرف«ب»، وسط بقايا الحفل المتناثرة على المقاعد والمناضد .

لم يدخل السيدان العجوزان فى التفاصيل ، ولم ينبس أحدهما بحرف واحد يشير الى ما قد يشتم منه أن تخلف والدى بولى عن حضور الحفل قد أثار قلقهما . لكن ماكهيث لم يكن من السذاجة بحيث يسقط ذلك الاعتبار من حسـابه . فقد ادرك من مبدأ الامر أن عدم وجود بيتشام سيضايق الرجلين . لكنه كان موقنـــا من أن مستر بيتشام سيثوب الى رشده ان آجلا وان عاجلا . فيتصرف تصرفا واقعيا لا دخل للعواطف فيه ، وكان فى امتناع القرن ونصف قرن عن الاشارة الى غياب بيتشام بكلمة ما طمأنه الى أنهما يشاركانه ذلك الرأى عينه .

عندما عادوا ثلاثتهم الى الحفل وجدوا الجميع منهمكين فى الرقص . كانت الخوخة ترقص مع أوهارا . والغرفة كلها تضـج بجو مرح ، وقد زينت وفرشت بأثاث على أحدث طراز .

جلس ماك بضع دقائق وحده الى المائدة الخالية ، وقد غاص لغده السمين فى ياقته العالية المنشاة ، واحمرت صلعته بعض الشىء ، بسبب ما شربه من خمر . كان يحاول أن يفكر . وقد نجح فى أن يجمع بضع أشتات افكار فى وقت قصير نسبيا . قال لنفسـه :

ــ من المحزن حقا ان تكون أحلى ساعات العمر مشوبة بالمنغصات التى تفسد مذاقها كما يفسد عصب صعب المضغ قطعة شواء لذيذة . فأحلى اللحظات تعكر صـفوها الهمـوم والمتـاعب . لا يكاد المـرء يحس أنه ممتلىء نشوة فى داخله ويجيش صدره بأنقى المشاعر حتى تدهمه المصاعب المالية . هأنذا ، حتى فى هذه اللحظة التى يندر أن يجود بها الزمان ، لا استطيع أن أجلس فأهنأ بكأس نبيـذ . لانى ان فعلت سينطلق ضيوفى الاعزاء ، الخنازير ، ليلوثوا كل ما هو نظيف هنا . لهذا يجب أن أكون يقظا . كما أنى لا أستطيع أن افك حزامى الذى يخنق وسطى ، خشية أن يسقط سروالى أمامهم . يعنى لا يكفينى .. انى يجب أن أراقبهم ، بل يجب أن أراقب نفسى أيضا ، فأنا خنزير أنا الآخر . كم يصبح كل شىء رائعا لو احترم هـؤلاء

الافظاظ مشاعر المرء فى أجمل يوم من ايام حياته . أنا أشد الناس تسامحا ، وألطفهم معشرا . لكننى عندما أرى ذلك القذر كلود يتسلل الى غرفة الجلوس مع الفاجرة زوجة شارلى ، يجن جنونى . لن أسمح بهذه المساخر فى بيتى ! وهذه العاهرة جينى هى الاخرى . كان لابد أن تأتى ؟ لا مكان هنا ، وهى تعلم ذلك . لا أستطيع ان أدع زوجتى تخالط هؤلاء الناس . فهذا يكون تطرفا فى التساهل . واضح من نظرات هؤلاء الخنازير اليها أنها تروق فى عيونهم جميعا . لعلهم يريدون أن يناموا معها ! ترى كيف يكون منظرى اذا ما اضطررت الى أن أخبر واحدا منهم أن يكف يده عن زوجتى . أولاد الزنا ! لم لا يكتفون بقحابهم ؟ لا أعنى طبعا أن زوجتى قحبة . لا يجب أن أقول أشياء كهذه . لا يجب أن أذكرها وانا أتكلم عنهم . فهى تفضلهم جميعا بل وتفضلنى أنا ، لست محترما بما فيه الكفاية لاستحقها . لست، فى الحقيقة ، رجلا كريم الخلق . لكننى سأفعل كل ما بوسعى . عندما تتم هذه العملية مع البنك سأصبح محترما بحق . من اللطيف حقا أن يكون المرء محترما ، فوق أن ذلك لا يضر به ماديا . أو لعله يضر به لكن قليلا .. أو ، على العكس ، قد يكون الطريق القويم ، فى النهاية ، أفضل . والان يجب أن أقف ثانية . نعم . ان أحلى لحظات ألعمر تعكر المتاعب والمسئوليات صفوها . انه أمر محزن . محزن للغاية .

هم ماكهيث واقفا ليأمر باحضار العربات . وعندما ذهب لاحضار حقيبته ، ضبط « بوللى » ، وشهرته « يعقوب أبو صباع خطاف » مع زوجة روبرت « المنشار » ، فاضطر الى احداث ضجة قائلا انه لا يسمح بمثل هذه الامور المقززة فى بيته ، لكن ما أثار غيظه أكثر أنه رأى بولى مستمرة فى الرقص مع ذلك الثرثار أوهارا . فقاطع رقصتهما بشىء من الفظاظة . لكنه ، برغم ذلك كله ، كان لا يستطيع أن يتذمر أو يدعى أن حفله لم ينجح .

عند انصراف العروسين ، وقف المدعوون ، كما هى العادة ، على الدرج ، وأخذوا يلوحون لهما . لكن أحدا لم يلحظ أن عددا من المدعوين كانوا يعاملون فانى كعروس ثانية سوى ماكهيث الذى أخذ ينظر اليهم من النافذة الخلفية للعربة ، بوصفه من المهتمين اهتماما غير عادى بملاحظة الطبيعة البشرية .

لحقا بقطار ليفربول فى اللحظة الاخيرة .

والحقيقة أن مستر ماكهيث لم يكن ذاهبا لقضاء شهر العسل فى

أحسن ظروف ممكنة ، وباله مستريح .

فمنذ أسبوعين سطا بعضهم على دكانين من الدكاكين التى تبيع السلع الحديدية والفولاذية ، فى الضواحى . الى هنا والامر ليس فيه ما يزعج أحدا . لكن الازعاج يأتى بعد ذلك . فقد نشرت مجلة « العاكس » الاسبوعية (وقد سميت كذلك لان محرريها يشهرون فى وجوه أخوتهم من بنى البشر مرآة تعكس صورهم على صفحات أعداد المجلة ، وتظل تعكسها حتى يدفعون) مقالا يزعم كاتبه أنه اشترى من أحد دكاكين حرف «ب» عددا من شفرات الحلاقة تبين انها من متعلقات أحد الدكانين اللذين نهبا منذ أسبوعين . ونتيجة لذلك بدأ أوهارا مفاوضات فورية مع مجلة « العاكس » . لكن ماكهيث لم يكن من أولئك الذين يفقدون أعصابهم بسهولة . فكان من الصعوبة بمكان أن يبتز أحد النقود منه بالاعيب كهذه . وقد بلغ به الامر أنه ألقى فى عرض الطريق بمحرر حاول أن يشهر تلك المرآة ذائعة الصيت فى وجهه . ومنذ تلك اللحظة ومجلة « العاكس » ، تطالب ، فى مقالات من نار ، بأن تقدم دكاكين حرف «ب» الفواتير الدالة على شرائها لشفرات الحلاقة . ومن الواضح طبعا أن مسألة الفواتير هذه من السهل تدبيرها . لكن الامر ، مع ذلك ، لم يتوقف عند ذلك الحد .

ففى معرض الحصول على قضبان المائدة لحفل الزفاف وقع الرجال فى محظور صغير آخر . ولم يكن لهم ذنب فى ذلك ، لان الامر كان يجب أن يتم على عجل ، وبغير أعداد سابق . غير أن العملية . نجم عنها موت شخص ما . وقد حاولت العصابة أن تخفى أمر ذلك الحادث عن زعيمها حتى لا تعكر صفوه فى تلك الظروف الحساسة ، لكن ماكهيث ، كدأبه ، علم بالامر بطريقة ما . ولقد كان من الواضح أن قلة التمويل كانت ، هنا أيضا ، السبب فى ذلك الاداء المؤسف .

عندما علم ماك بمسالة الموت هذه ، أراد أن يؤجل شهر العسل . لكن ذلك كان مستحيلا . ولذا فانه قرر أن يتكل ويسافر ، على أن يجمع بين العمل والمتعة ، فيستغل رحلته فى قضاء بعض الاعمال . ولهذا السبب اختار ليفربول .

تألقت الخوخة وبدت فتانة فى ديوان القطار . فأوهارا راقص أكثر من ممتاز . ولقد أحست العروس الصغيرة خلال المسافة القصيرة من الدرج الذى ودعهما منه المدعوون ، وعربة القطار ، والعربة تدرج بهما فى ظل أشجار الكستناء الداكنة كثيفة الاغصان . ان ذلك اليوم، بغير منازع ، هو أجمل أيام حياتها على الاطلاق . فلم تكن قد وجدت

نفسها قبل اليوم محط مثل ذلك القدر من الاعجاب والتدليل من كل ذلك العدد من الناس . كانت سعيدة بحق . وقد توهجت سعادتها على وجنتيها ، حتى فاض قلب ماكهيث ، فمد يده محاذرا ، حتى لا يراه أحد من المسافرين الاخرين فى الديوان ، وضغط على يدها الصغيرة الدافئة .

فى ليفربول نزلا بفندق صغير كانت به غرفة محجوزة لهما . وقبل أن يذهبا الى الفراش شربا زجاجة أخيرة من نبيذ البرجندى فى قاعة الفندق . لكن تلك كانت غلطة مؤسفة . احس ماك بالتعب يخدر جسده وهو ما زال على الدرج .

لم يجد فى نفسه القوة لابداء اعجابه بثياب بولى الحريرية التى اشترتها لتلك المناسبة . أما الكورسيه الموف فلم يكن فيه جديد.

كان ماك بخير طبعا . كل ماقى الامر أنه كان متعبا بعض الشىء .

سرعان ما استغرقا فى النوم . لكن المنبه ، الذى عنى بضبطه قبل أن ينام ، أيقظهما فى منتصف الليل ، فقضيا ساعة أخرى ممتعة لكن بولى باغتته بسيل من الاسئلة ، فاعترف ، تحت الحاحها ، ببعض غزواته الغرامية السابقة (وان لم يذكر علاقته بفانى ، كما لم يشر الى علاقته بجينى الا عرضا ، وبطريقة منقوصة) . وعندما أخذ يستنطقها بدوره ، اعترفت له الخوخة ، بعد نضال طويل ، ان مستر سمايلز قبلها ذات مرة . قبلة واحدة . وهكذا تم — بهذه الاعترافات المتبادلة التى بلغ بها ذلك اليوم المشهود ذروته — ارساء اسس حب زوجى طويل ودائم .

كانت بولى سعيدة هى الاخرى ، وقد غفرت لماك ماضيه فى اللصوصية (الذى اعترف لها به وهما يشربان زجاجة البرجندى فى قاعة الفندق) ، وتركها تخرج خنجره العتيد قليلا من غمده فى العصا الغليظة التى لا تفارق يده . كما غفرت له أيضا بعض صفاته الشخصية المنفرة (كميله الى هرش صدره تحت القميص) . وعندما غفرت له كل ذلك أيقنت تماما من أنها تحب زوجها حبا جما .

***

كان مستر جوناتان ارميا بيتشام قد حصل على تفويض كامل بحرية التصرف من البارون ، وسمسار المراهنات ، وصاحب العقارات السكنية ، ومدير مصنع القطن ، وصاحب المطعم ، فأخذ الحقيبة التى أعدتها له مسز بيتشام ، وذهب الى حيث قابل مستر كوكس

على رصيف محطة ووترلو .

وقد انقضت الرحلة الى ساوثمبتون دون أن يتبادل السيدان اكثر من عشر كلمات . جلس كوكس واضعا منظاره ذا المشبك على أنفه النحيل ، مستغرقا فى قراءة التايمز ، بينما جلس بيتشام فى الركن ، بلا حراك وقد شبك يديه أمام بطنه .

رفع السمسار عينيه مرة واحدة ليقول :

ـ مازالت ميفكينج صامدة للحصار ! أولاد أشداء !

فلم يقل بيتشام شيئا . لزم الصمت فى ركنه وهذه الافكار تتوارد على ذهنه :

ـ مصيبة . انجليز يحاربون انجليزا . ليس هذا الرجل الجالس معى فى الديوان فحسب ، بل وأولئك الرجال الذين فى ميفكنج أيضا . كلهم ضدى . ينبغى لهم أن يستسلموا ! واذ ذاك لن تكون بأحد حاجة الى ارسال فرق جديدة تحل محلهم ، او الى سفن ، جديدة كانت او خردة ، وبذلك تنتهى هذه المصيبة التى يحتمل ان تكلفنى عنقى . ولكن هل ينوون أن يستسلموا أبدا هؤلاء الملاعين ؟ اطلاقا ! يلبدون فى تلك الجحور الرطبة الحارة وينتظرون ، يوما بعد يوم ، وصول السفن اللعينة التى سأشتريها أنا لهم بدريهماتى التى لم أحصل عليها الا بعد أن تخلعت اسنانى . وكأنها مؤامرة ضدى . يلبدون فى تلك الجحور ويهيبون ببعضهم بعضا : اصمدوا ! لاتتخاذلوا أو تضعفوا ! اقلوا فى طعامكم . اثبتوا تحت وابل الرصاص الى أن يشترى لنا جوناثان بيتشام المأفون العجوز بآخر درهم فى جيبه السفن التى ستحمل الينا المدد والخلاص . ولو سارت الامور على ما يحبون لتم شراء السفن اللعينة بسرعة ، حتى أخرب أنا بيتى سريعا وينجون هم بجلودهم سريعا . لكننى لست مأفونا بالقدر الذى يتصورونه ، ولذلك ستسير الامور على مهل ، ما استطعت أن أهدىء من سيرها . وهكذا تتباين مصالحنا أنا وهم ، رغم أننا لا يعرف أحدنا الآخر .

فى الفندق بساوثمبتون افترقا بسرعة ، وكل يريد أن يتخلص من صحبة الآخر لاطول وقت مستطاع ، فلم يفكرا حتى فى تناول العشاء معا . لكن ضجة كبرى قامت فى غرفة كوكس فى منتصف الليل ، ولما كانت غرفة السمسار لصق غرفة بيتشام ، فان هذا الاخير قفز من فراشه ، وارتدى سرواله ، ودلف الى الحجرة المجاورة . وجد كوكس راقدا فى الفراش وقد جذب الاغطية حتى عنقه ،

بينما وقفت فى وسط الغرفة فتاة فى مقتبل العمر ، عارية كما ولدتها أمها ، الا من زوج جوارب حول ساقيها ، وهى تسب وتلعن كنساء سوق السمك .

كان بوسع المرء أن يتبين من سيل السباب المقذع المتدفق من فمها أن العراك بينها وبين كوكس نشب لانها رفضت أن تمتثل لرغباته الشاذة ، ولانها ليست على استعداد ، مهما حدث ، للاستجابة لمطالبه • ومما قالته أيضا أنها ليست جديدة فى هذا الكار وأنها صاحبة ثروة حقيقية من الخبرات والتجارب والالاعيب ، فوق أنها متحررة تماما من العقد وضيق الافق والتزمت ، كما يشهد بذلك مئات من عمال الموانىء والبحارة ، وكلهم سادة كثيرو الاسفار ذواقون لا سبيل الى ارضائهم بسهولة ، لكن هذه الاشياء التى يطلبها هذا الرجل « كوكس » لا يجرؤ على طلبها ، مقابل عشرة شلنات لا أكثر ، حتى ذلك القاضى العجوز المعروف فى المدينة بأكملها بفسقه الشديد وقلة حيائه .

كانت الفتاة متمرسة بحق ، ومستنيرة • كانت عليمة بكل أصول الفن الحيوى الذى يجب أن تجيده كل من تمتهن مهنتها المتعبة : فن تحقير الزبائن الثقلاء الذين يسرفون فى مطالبهم • ولقد فعلت ذلك بكوكس ، باتقان تحسد عليه ، فوفقت - بغير جهد - الى مقارنات وتشبيهات استخدمتها فى تحقيره ، لو اتيح لنا أن نطبعها هنا ، لفتحت الطريق أمام هذا الكتاب - بقوتها الشاعرية وروعة تصوراتها - الى مرتبة تقرب كثيرا من الخلود •

لم يكد بيتشام يدخل الغرفة حتى توالت الطرقات على الباب ، فذهب وفتحه ، ووجد عنتا شديدا فى التخلص من عدد من الندل وخدم الفندق كانوا فى حال من الاهتياج يصعب معها التفاهم واياهم بالتى هى أحسن ، مما اضطره الى طردهم طردا • ثم التفت بعد ذلك الى السيدة وكانت قد اتشحت - بطريقة فنية للغاية - بمفرش مائدة من القطيفة ، وبدأت ترتدى حذاءها • ولم ينقض وقت طويل قبل أن يتمكن مستر بيتشام من كبح جماح غضبها بما ايقظه فيها من أحاسيس واقعية عملية ذات صلة وثيقة بالنقود .

بعد نقاش ومساومات دست المرأة عددا من أوراق النقد فى أعلى جوربها ، وانصرفت ، ولكن ليس قبل أن تقول لبيتشام :

- تريد نصيحة منى ؟ يجب أن تحضر لصاحبك سيدتين أو ثلاثا ، وبسرعة . اذا كنت تريد أن تجعله فى حالة يتمكن معها من مبارحة

الفندق دون أن يسير على اربع وهو يعوى !

فلم تكد تنصرف حتى اضطر الرجلان الى حزم امتعتهما لان ادارة الفندق اعلنتهما بأنه من غير المرغوب فيه بالمرة أن يظلا بالفندق دقيقة أخرى . وهكذا اضطرا الى الانتقال الى فندق آخر ، فى الساعة الرابعة صباحا .

وجدا من غير المجدى أن يذهبا الى الفراش . فطلبا بعضا من الشاى وجلسا يتحدثان .

أبدى كوكس رغبة حرى فى الحديث . تكلم فأفاض . لم يخف عن بيتشام أن هذا المشهد الذى جرى فى غرفته قد ملأه تقززا لا يقاوم ، من نفسه ، وأخذ ينتقد نفسه صراحة ، بلا رحمة ، لاعنا ذلك الضعف المزرى الذى يدفعه الى مخالطة هذه الاصناف من حثالة الناس

قال محزونا ، بلهجة يقين كامل :

ـ هؤلاء الناس يفقدون كل قدرة على التحكم فى أنفسهم بمجرد ان يخرجهم المرء من بيئتهم المعتادة . وهم فوق كل شيء لا يفهمون سلوك السادة المهذبين أمثالنا . لكن أحدا لا يستطيع أن يلومهم . لانهم خلقوا هكذا ولايعرفون كيف يسلكون سلوكا أفضل . فلايكفون عن استخدام أشد ألفاظ السباب بذاءة . والحقيقة ان اذلال النفس المتواصل الذى يضطرون اليه فى سبيل لقمة العيش يقضى على كل سمو فى مشاعرهم . فوق انهم يمقتون العمل . لا يريدون أن يعملوا أبدا . بل ولا يريدون حتى أن يقدموا من وقتهم ما يقابل النقود التى يكسبونها . كل ما يريدونه حياة سهلة ميسرة ولا شيء غير ذلك . وذلك هو السبب فى أنى ضد الاشتراكية . هذه المادية الفجة شيء لا يحتمل . فالسعادة الكبرى كما يتصورها هذا الصنف من الناس تتمثل فى حياة من الكسل . هؤلاء المصلحون الاجتماعيون لن يفلحوا أبدا . لانهم لا يدخلون الطبيعة الانسانية فى اعتبارهم ، وينسون انها ، بالفطرة ، طبيعة منحطة . ولو كان الناس حقا على ما يشتهى المرء من سمو وجدية اذن لاستطاع المرء أن يحقق أمورا كثيرة بهم . لكنهم ، للاسف ليسوا كذلك . وهكذا فانه لا فائدة من اى شيء . ولا يحصل المرء فى النهاية على شيء الا على صداع يشق رأسه نصفين .

عندما بدأ كوكس يتكلم ، اتخذ بيتشام وقفته المعهودة أمام النافذة ناظرا الى الميدان بأسفل ، حيث كان رجل فى عفريتة زرقاء يغسل الارض بخرطوم كبير فى ضوء الصباح الباكر ، وعربات الخضر قد

بدأت تقرقع عجلاتها آتية من الميناء • فلما قال كوكس ما عنده ، فاجأه بقوله :

ـ ينبغى لك أن تتزوج يا كوكس •

فتعلق كوكس بتلك النصيحة تعلق الغريق بقشة • قال كمن يحمل هموم الدنيا على قلبه :

ـ لعلك على حق • ولعلى يجب أن أتزوج • انى فى حاجة الى امرأة محبة تكون بجانبى • هلا اعطيتنى يد ابنتك ؟

فقال بيتشام دون أن يستدير اليه :

ـ نعم •

ـ هل تأتمنى عليها ؟ حقا ؟

ـ بطبيعة الحال •

تنفس كوكس بصوت مسموع . ولو استدار بيتشام ونظر اليه لوجد انه لم يكن على ما يرام . فقد أرهقت الفضيحة أعصابه .

قال لبيتشام بلهجة لا تنبىء عن نفس هادئة مطمئنة :

ـ لن تجدنى زوجا سيئا لابنتك • أنا أعرف عملى جيدا • فوق أنى رجل مبادىء • يجب أن نناقش هذا الموضوع جديا • لقد أدركت طبعا أن هذا العمل الذى أقوم به مجز للغاية • أنه مجز بحق • لا تستطيع أن تتصور كم هو مجز ! وأنت نفسك متورط فيه ، حتى هنا ! لا أظنك تدرك حقا يا بيتشام مقدار الربح الذى يعود على من وراء هذا العمل • لكنك قد كونت فكرة طبعا عن الطريقة التى أدير بها الامور • وأنا الآن مستطيع ـ بعد أن تم هذا التفاهم بيننا ـ أن أصارحك ببضعة أشياء ، خاصة وأن الامر قد قضى أو كاد • أنت متورط حسبما أذكر فى حدود ما لا يقل عن سبعة آلاف جنيه • ألا تصدقنى ؟ كم تظن ثمن السفن التى سوف نراها اليوم ؟ أنا ، بينى وبينك ، أعرف ثمنها الحقيقى • انها سفن من الطراز الاول • ونحن أو ، بالاحرى ، أنتم ، لن تحصلوا عليها بأقل من خمسة وثلاثين ألفا من الجنيهات • ولولا أنى كنت بعيد النظر فحصلت على حق أسبقية التعاقد لاصبح ثمنها أكثر بكثير من هذا المبلغ • وسوف يبدو لك لاول وهلة أنه بالرغم من ذلك كله ، سيظل هناك فائض لا يستهان به من التسعة والاربعين الفا التى ستدفعها الحكومة . لكن الامر يبدو كذلك فى الظاهر فقط • سوف تشترون السفن الجديدة وتبيعون القديمة نعم • لكن الثمن الذى ستحصلون عليه لن يتجاوز القيمة التى قدرها مستشاركم الهندسى • فهى لا تساوى أكثر من ذلك•

ما زلت تذكر الثمن الذى قدره لها ، وهو مائتا جنيه لا أكثر .
كان بيتشام قد استدار الى محدثه من أمد طويل ، فأصغى اليه جيدا • والان بدأ يتشبث بيدين راعشتين بستائر النافذة ، محدقا فى وجه كوكس كما تحدق الفريسة مسحورة فى وجه ثعبان ضخم موشك على أن يبتلعها بعد أن يهشم أضلعها .
ضحك كوكس واستطرد قائلا :
ـ لن تكون تكلفة الاصلاحات ، والرشاوى ، وعمولتى ، كبيرة طالما كانت السفن رخيصة فلم تكلفكم أكثر من أحد عشر الفا • لكن الامر يختلف تماما اذا كلفتكم خمسة وثلاثين ألفا ، أضف اليها الرشاوى الجديدة التى سيتعين دفعها حتى تتمكن الشركة من استبدال السفن الخردة بالسفن الجديدة لئلا تطير الرقاب ـ ولن تقل تلك الرشاوى بحال عن سبعة آلاف جنيه • ما رأيك فى كل هذا؟!
بدا رأى مستر بيتشام فى غير حاجة الى ايضاح . بدا الرجل فى ضوء الفجر الشاحب كما لو كان قد قام لتوه من مرض طويل مميت . وأسوأ ما فى الامر أنه كان قد حدس كل هذا من مبدأ الامر! لقد وقع فى يدى نصاب خطير ، ولم يقع بغير تحذير ، حدس ذلك منذ البداية ، ولو كان مستر بيتشام رجلا مثقفا لصاح قائلا :
ـ أين يكون أوديب الملك منى ؟ لقد ظل طيلة قرون بأكملها مستأثرا وحده بلقب أتعس التاعسين فى العالم ، المثل الحى على ما توقعه نقمة الالهة من مصائب بالبشر ، وأشقى من ولدته امرأة على وجه البسيطة . ها ! اذا قورن بى أوديب هذا لتبين أنه انسان مجدود الحظ حقا • فقد تورط فى مسألة شائكة بغير علم منه • بل وقد بدت له تلك المسألة ، فى مبدأ الامر ، مستحبة • نعم كانت مستحبة بالفعل • كان من الممتع حقا أن ينام مع تلك المرأة ، كما كان من المريح أن يكف عن تشرده فى طول البلاد وعرضها ويجد له مستقرا ، فى ذلك القصر الملكى ، فيؤسس أسرة سعيدة ، ويظل طيلة سنين بأكملها يقوم بواجباته كملك وزوج وأب دون أن يحمل هما ، أو ينغص صفوه منغص ، متمتعا باحترام الجميع واخلاصهم . ثم فوجىء ذات يوم بأن رابطة ذلك الزواج لم يكن من المستطاع أن تظل قائمة ، وانها يجب أن تنفصم ، فبات أعزب من جديد ، وحرم عليه فراش الزوجية من الآن فصاعدا وهنا ـ كما هى العادة ـ تكاثر عليه الحمقى والحاسدون • ولقد كان الجانب الاكبر من تلك الاحداث مزعجا ، أو لنقل أن تلك الاحداث كلها كانت مزعجة • ومع ذلك كانت هناك بلاد أخرى • كانت هناك دائما بلاد أخرى للمشردين

أمثاله فوق أنه لم يكن لديه ما يلوم عليه نفسه ، فلم يكن قد فعل أى شىء كان بوسعه أن يتجنبه . أما أنا ! أنا كنت أعرف منذ البداية، كنت أعرف ! أنا وحدى الاحمق والمأفون ، ولذلك لا استحق أن اعيش • من الواضح تماما الآن أن أى طفل يستطيع أن يضحك على ذقنى ويجردنى من نقودى ، وانى انسان أبله لا ينبغى له أن يعبر الشارع وحده خشية أن يخطىء فيعتبر مركبة الامنيبوس ورقة شجر تطيرها الريح ! وأنا من أولئك الذين يدفعون ثمنا باهظا فى الاسلحة التى يتم الاجهاز بها عليهم ، ويتبرعون أيضا بثمن قبورهم سلفا !

وفى أثناء ذلك كان منظر العجوز قد أثار ضجر مستر كوكس • فقال له بهدوء :

ـ من هذا كله ترى أنى زوج مثالى لابنتك •

تناولا الافطار معا بوصفهما أقارب • نطق بيتشام ببضع كلمات حذرة عن دكانة الآلات التى يديرها ، واستسلم السمسار الشهوانى لصورة عابرة خطرت بذهنه فتمثل فيها بشرة الخوخة الفاتنة • ثم ذهبا معا لمعاينة السفن •

وجدا سفينتين للبيع ، فى حالة جيدة جدا ، ولكن بثمن باهظ للغاية • قال كوكس أنه يعرف مكان سفينة ثالثة ، فى بلايموث ، وأن السفن الثلاث ستكلف الشركة ، على وجه التحديد ، ثمانية وثلاثين ألفا وخمسمائة جنيه ، وستبلغ عمولته من ذلك المبلغ مالايقل عن ثمانية آلاف جنيه • ولما كان بيتشام قد نجا بعنقه من قطيع الاغنام الذى يساق الى الذبح ، وانضم الى الجزار ، فانه لم يثر أية اعتراضات ، كل ما فى الامر أنه ابدى لهفة ملحوظة للعودة الى بيته • فقد اختبأ فى دورة المياه لحظة وأجرى بضع عمليات حسابية على قطعة ورق ، تبين منها مقدار الخسارة الباهظة التى كان سيتحملها بغير بولى • ثم اجرى عملية أخرى ليتبين ما كان حريا أن يتحمله من أرباح كوكس التى سينصب على الشركاء بقيمتها ، فهالته تلك الخسارة النظرية الى الحد الذى جعله يتوجع داخل دورة المياه بصوت مرتفع أجتذب انتباه أحد المارة فسأله ان كان بخير •

لكن بيتشام ، بعد تلك الزوبعة النظـــرية التى أثارها لنفسه بحساباته الافتراضية ، ثاب الى رشده ، فكف عن التفكير فى الخراب الذى كان معرضا له ، والخسائر الماحقة التى أوشكت أن تجتاحه ، الى التفكير فى الارباح الضخمة التى سيحققها من مال الشركاء باعتباره قريبا للسمسار •

أهم شيء الآن هو تهيئة الخوخة لفكرة الزواج من كوكس ولو كانت الفتاة عندها عقل لحمدت ربها على تلك الزيجة • لانه من أين لها أن تحصل على زوج كهذا • ان الرجل عبقرى ما فى ذلك شك •

***

لم يضيع ماكهيث وقتا فى القيام بالعمل الذى جاء من أجله الى ليفربول • ولاول مرة صحبته بولى الى دكان من دكاكينه الشهيرة •
طلع عليهما رجل ضخم الجثة نامى اللحية من غرفة داخلية مظلمة • كانت حوائط الدكان مطلية بالجير وقد رصت على الارفف بالاتضخمة من البضائع من كل صنف ولون : شباشب منزلية صفراء ، وكارتونات من أمشاط الثقاب ، وساعات جيب ، وفرش أسنان ، وولاعات سجائر ، وأكوام من المصابيح ، وكراريس ، وغلايين •• ترابة عشرين صنفا •
عندما وقف الرجل على هوية زائريه ، فتح بابا واطئا فى مؤخرة الدكان ، ونادى على زوجته ، فظهرت الزوجة حاملة طفلا رضيعا بين ذراعيها ، والباب الذى دخلت منه يكشف عن غرفة بدروم صغيرة ذات نافذة واحدة ، استطاعت بولى أن تلمح فيها كومة مختلطة من الاثاث والاطفال •
كان منظر الزوجين قميئا بحق ، يعطى انطباعا غير سار بالمرة •
لكنهما كانا ممتلئين أملا • فالزوج واثق من أنه سينجح فى عمله ، مسرور لهذه الفرصة التى واتته ليستقل ويقف على قدميه ، وهو من أولئك الناس الذين لا يتراجعون بسهولة عن شيء بدأوا فيه •
وقد عززت الزوجة ذلك بقولها
– ان زوجى من أولئك الناس الذين لا يستسلمون أبداً •
كان وجهها منبئا عن جوع مزمن ونقص دائم فى التغذية •
لكن أحوال الزوجين ، فيما تبينت بولى من حديثهما ، لم تكن على ما يرام ، رغم اصرارهما على التفاؤل ، وتظاهرهما بروح معنوية عالية• نعم الايجار ليس مرتفعا ، لكن محصلى الشركة لا يسمحون بأى تأخير فى السداد • وشحنات البضائع ، التى تصل من مخـــازن ماكهيث الرئيسية ، لا ترد بانتظام ، كما انها تأتى دائما بكميات متفاوتة ، وباختيار عشوائى لاصناف البضائع ، ولا تسترد الكميات غير المباعة منها فتظل متراكمة فى الدكان حتى تحوله الى دكان مخلفات قديمة • وتلك هى المشكلة الرئيسية : ورود الصنف بكمية أكبر مما يجب ، أو أقل مما يجب • فالمشترى الذى يبحث عن حذاء ضد المطر لا وقت عنده لكى يعرض عليه صاحب الدكان ساعة جيب بدلا من الحذاء الذى

يريده ، ولو انه قد يفكر فعلا فى شراء مظلة ، ان كانت لدى صاحب الدكان مظلات • ولهذه الاسباب كلها تفوقت الدكاكين الاخـــرى فى المنافسة ، رغم أسعارها المرتفعة •

قال الرجل أنه، فى الحقيقة ،يجد صعوبة فى سداد ماعليه للشركة فى نهاية الشهر •

وهنا أوضح له ماكهيث ، بجلاء وهدوء ، أن منافسة تلك الدكاكين الاخرى الاكبر حجما منافسة غير أخلاقية ألبتة • لان أصــــحابها يستخدمون اليد العاملة الاجنبية ، ويتعاملون مع أصحاب البنوك من اليهود ، فيتآمرون معهم على احداث ذبذبة فى الاسعار ، وارتباك دائم فى السوق • أما المحلات الكبرى ، فقد طمأنه ماكهيث الى أنها رغم ظاهرها الذى ينم عن ازدهار ، ينخر فيها الكساد ويتهددها الافلاس ، خاصة تلك المحلات التى يملكها شخص يدعى «أ•هارون»، فهى منهارة تماما من داخلها ، رغم بريقها الخارجى المزيف • ولذلك فان هذا هو الوقت الذى يجب أن تهب فيه دكاكين حرف «ب» بكل قواها لتخوض النزال الحاسم والاخير مع محلات هارون المتهـــاوية وسواها وتجهز عليها جميعا بغير رحمة ، وبغير هوادة • نعم ، لا يجب أن نظهر لهم أدنى رحمة •

أما فيما يتعلق بالايجار ، فقد وعده ماكهيث بتسـهيلات معينة ، كما وعد بأن تكون شحنات البضائع أصغر حجما ، وأكثر تنوعا • كما وافق أيضا على انتظام مواعيد التسليم • ولم يطلب فى مقابل ذلك كله الا مزيدا من الاعلان • فالزوجان يستطيعان أن يحـــررا الاعلانات التى توزع باليد ، والاطفال يستطيعون أن يقوموا بتوزيعها على العمال عند خروجهم من المصانع ، وسوف تزود الشركة الزوجين بالكميات اللازمة من الورق •

كان واضحا أن هذا الدكان لا تنقصه اليد العاملة من الاطفال • دخلت بولى الغرفة الخلفية لحظة ، على سبيل المجـاملة . نعم كان المكان نظيفا • لكن قطع الاثاث كانت رمزية للغاية ، ومحطمة • على كنبة مخلخلة بدت موشكة على التفكك رقدت امرأة عجوز تبين أنها أم صاحب الدكان • ظلت العجوز محملقة فى الحائط بنظرة عنيدة لا تحيد •

أحس الاثنان بالارتياح عندما خرجا الى الهواء الطلق ثانية • وقد لخص ماك رأيه فى هذه الحكمة العملية :

ـ أماأن يكون المرء صاحبا لدكان حرف «ب»،أو أبا لقطيع من الاطفال

في زيارتهما للدكان الاخر ، (فلم يكن عدد دكاكين حرف «ب» ، قد تجاوز اثنين في ليفربول بعد) ، فضلت بولى الانتظار خارجا حتى ينتهى ماك من أداء العمل الذى جاء لاجله · وقفت تنظر داخلا من واجهة الدكان الزجاجية التى علقت فيها عدة «بذلات» أنيقة زهيــدة الثمن بشكل يدعو الى الدهشة ، فرأت ماك آخذا فى الحديث مع شـــاب فى مقتبل العمر ، بدا من نحوله وامتقاع لونه أنه مريض بالسل ، كان منهمكا فى قص مزيد من الحلل فوق منضدة خشبية. لم يتوقف عن العمل عليها طيلة الحديث لحظة .

وقد علمت بولى فيما بعد أن الشركة تزود ذلك الرجل بالاقمشة : كذا ياردة مقابل كذا بذلة يجب أن يكون سعرها زهيدا بطبيعة الحال هذا الرجل مثلا كان من المحتمل أن تتحسن أحواله لو كان أبا لاسرة جسيمة العدد كأسرة ذلك الرجل الآخر ، لان كل أولئك الاطفال كان بوسعهم أن يساعدوه فى أعمال الحياكة ، والكى ، والتشطيب . لكن ذلك أمر يخصه هو · فطبقا لقواعد التعامل مع شركة حرف «ب»، لم يكن صاحب الدكان مرغما على الخضوع لاية قيــود أو لوائح ، سوى اداء مستحقات الشركة فى مواعيدها ·

وقد أخبرها ماكهيث باعجاب كيف أن الرجل ألصق على المنضدة التى يستخدمها فى العمل شعارا من احدى الصحف يقول « لا مكسب بغير شقاء » ·

ذهبا بعد ذلك الى أحد تجار الجملة ، حيث اشترى ماكهيث رسالة كبيرة من شفرات الحلاقة وحصل من التاجر على فاتورة مؤرخة بتاريخ سابق·وبذلك انتهى عملهما فيليفربولوبات بوسعهما أنيعودا الى لندن كانا قد اتفقا على ابقاء زواجهما سرا فى مبدأ الامر ، حتى لايزعجا مستر بيتشام بغير داع · ولذلك رتبت بولى أمورها بحيث تعود الى بيت أهلها بمفردها ، حيث تعمل على اسكات أمها (وكانت تحمل لها زجاجة من البراندى فى حقيبتها) ، ثم تكاشف أباها بالامر على مهل ، عند عودته من ساوثمبتون ·

لكنها لم تكد تخطو الى الدكان حتى وجدت مستر بيتشام فى انتظارها ، وقد عاد ، قبل مجيئها ، من ساوثمبتون ، فأشعل حريقا حقيقيا فى البيت بسبب غيابها طوال الليل ·

انتزعت أمها الحقيبة من يدها ، فأخرجت منها زجاجة البراندى ، وقميص نوم اشترى فى ليفربول ، وثوب زفاف ·

كان لظهور تلك الاشياء البسيطة التى لا ضر فيها وقع الصاعقة

في الدكان ، حدث زلـــزال حقيقى مدمر • قيلت أشـــياء مخيفة ، ووقعت اشياء أفظع • ولكن منذأ الذى يحب مثل تلك المشاجرات العائلية ، ومن منا لا يفضل أن يمر مر الكرام بما قاله العجوزان لابنتهما الفتية ، ثمرة أحشائهما ؟ كل ما خفى انكشف فى ذلك اليوم المشهود ، وخرج كل شيء الى ضوء النهار ، ابتداء من حانة «الاخطبوط» وانتهاء بغرفة الفندق ذات الفراش المزدوج فى ليفربول • ولقد بدا واضحا ان اقتران اســم ماكهيث باســم ابنته كان ضربة قاضــية لمستر بيتشام • فعالم الجريمة السفلى على طول الجزر البريطـــانية وعرضها ، وممتلكات ما وراء البحار ، كان كتابا مفتوحا بالنسبة اليه، وهو الذى اسماه الجميع (باحترام بالغ) فى سوهو ، ووايتشابل « بملك الشحاذين » • باختصار ، كان مستر بيتشام يعرف جيدا من هو ماكهيث •

لكن العار الذى لحق به نتيجة لتلك الزيجة التى ربطته بعــالم الجريمة لم يكن شيئا بجانب الخراب الذى بات موقنا منه على يدى مستر كوكس • فى لحظة واحدة ضاع شقاء العمر كله • لم يعد أى بيت من البيوت الثلاثة التى تلقى تحت سقفها ذلك النبأ الرهيب ، ملكا له • حتى المنضدة العتيقة النخرة التى استند اليها بعد أن تلقى تلك الطعنة الغادرة (المجردة من كل رحمة) من يد القدر ، لم تعد منضدته • لقد عاين هذا الصباح سفنا فى ساوثمبتون ، من المحتوم أن يسدد ثمن واحدة منها على الاقل من حر ماله • وابنته ، أمله الوحيد والاخير ، قد ضيعت جسدها الثمين ، متفضلة به على لص منازل حقير ، فوق فراش فندق رخيص فى ليفربول .

أخذ الرجل يجأر بأعلى عقيرته :

ــ ستكون نهايتى فى مستشفى المجاذيب • ابنتى ستودى بى الى عنبر المجانين ! أول شيء فعلته صباح اليوم عنــــدما استيقظت فى ساوثمبتون، بعد ليلة لم أذق فيها للنوم طعما ، انى ذهبت فاشتريت لها فستانا جديدا • ها هو ملقى فى مكتبى • ثمنه جنيهان ! قلت لنفسى : « سآخذ لها هدية صغيرة تفرح بهـــا ، حتى تدرك حقيقة مقدارها عندى • غيرها من الاطفال يضطرون الى اعالة أنفسهم من سن مبكرة ، وتعوج أرجلهم من قلة اللبن • وأرواحهم يصــــيبها التشويه لانهم يضطرون الى رؤية الجانب البشع من الحياة قبـــل الاوان • أما ابنتى أنا فشربت اللبن باللتر ، دون أن تنزع قشدته. ولم تعرف منذ أن وعت الحياة الا الحب والحنان والتفانى فى رعايتها

وبدلا من أن تذهب لتنحذ لقمتها كغيرها ، تعلمت العزف على البيانو ! والآن ، لاول مرة فى حياتى ، أطلب منها شيئا ، أطلب منها أن تتزوج رجل أعمال محترم ، أهديها رجلا له مبادىء ، يعنى بها ويرعاها بقية حياتها . سوف تودى بى الى مستشفى المجاذيب ، لانى من أجلها غامرت بالدخول فى صفقة لا أفهم فيها شيئا . لمجرد أن أحصل لها على بائنة محترمة ! ماذا تظن هذه المخلوقة المنحطة نفسها ؟ أنا ان ضبطت فتاة من فتيات المشغل مع المدير أطردها على الفور . الى هذا الحد أحرص على الاخلاق فى بيتى . فتذهب ابنتى وتتورط مع رجل أفاق له أكثر من زوجة ، همه الوحيد الحصول على بائنتها . والان يجب أن أفكر فى الطريقة التى ادبر بها أمر طلاقها من ذلك النصاب • ولكن ما الفائدة ؟ حتى اذا طلقتها ستكون قد ضيعت مستقبلها ، لان كوكس لن يغفر لها فعلتها أبدا . فهو رجل صاحب مبادىء ، ولديه أفكار لا يحيد عنها فيما يخص طهارة النساء ، فوق أنه ، فى الظروف الحالية ، صاحب اليد العليا ، ولديه كل الحق فى أن يتدلل ويدقق !

انكفأت خوخة على فراشها فى غرفتها الوردية منتحبة ، لا تجرؤ حتى على ارسال كلمة الى ماك ، الذى كان فى تلك اللحظة جالسا فى حانة الاخطبوط (أس المصائب كلها) فى انتظار اشارة منها ليقوم بالزيارة الحاسمة لابيها • وقد انتظر ماكهيث صابرا طوال الليل• وفى صباح اليوم التالى ذهب الى دكان الالات .

وهناك قابله رجل ضخم الجثة ، جهم الوجه ، ذو هيئة تثير الفزع حقا ، فلم يكد ماك يفصح عن اسمه حتى أمسكه الرجل من قفاه ، فألقاه خارجا ، بغير كلام •

وبعد يومين تلقى رسالة مختصرة من الخوخة تحذره فيها من المجىء الى بيت أبيها تحت أى ظرف من الظروف • لكنها فى المساء قابلته عند ناصية الشارع ، بعينين محمرتين قرحهما البكاء ، وأخبرته أن أباها يصر على بقائها فى البيت • وانه هددها ، فى حالة عصيان أوامره ، بأن يحرمها من الميراث ، وبأن يطلق الشرطة فى أعقاب ماك الذى قال لها أنه يعرف عنه ما فيه الكفاية •

أصغى ماكهيث اليها بهدوء ، ولم يقترح عليها الهرب أو أية حماقات من ذلك القبيل • فقط قال لها أنه يريدها لمدة خمس دقائق لا أكثر بين شجيرات الحديقة • لكنها لم تذهب معه •

وخلال الاسبوعين التاليين لم ير أحدهما الآخر الا مرة أو مرتين •

(٦)

« قد ذبت . لا الى الابد أحيا . كف عنى لان أيامى نفحة .
« ماهو الانسان حتى تعتبره وحتى تضع عليه قلبك ؟
« وتتعهده كل صباح ، وكل لحظة تمتحنه ؟
« حتى متى لا تلتفت عنى ولا ترخينى ريثما أبلع ريقى ؟
« أخطأت . ماذا أفعل لك يارقيب الناس ؟ لماذا جعلتنى عاثورا
« لنفسك حتى أكون على نفسى حملا ؟
« ولماذا لا تغفر ذنبى ، ولا تزيل أثمى ، لانى الان أضطجع فى
« التراب ، تطلبنى صباحا فلا أكون . »

(سفر أيوب)
(٧ : ١٦ / ٢١)

حمام تركى

فى باترسى ، على ناصية شارعى فورنى ودين كانت تقوم منشأة قديمة بها حمامات للرجال فقط ، معظم المترددين عليها من السادة كبار السن . وهى منشأة بدائية بعض الشىء . فحماماتها براميل خشبية ، معظم ألواحها نخرة يتسرب منها الماء ، ومناضدها التى يتم تدليك الزبائن عليها مخلخلة ، موشكة دائما على السقوط ، ومناشفها قديمة ، تملؤها الثقوب من كثرة الاستعمال . لكن تلك المآخذ جميعا كانت تتضاءل أمام ميزة تتفرد بها هذه الحمامات . فهى تقدم لزبائنها حمامات طبية معينة ـ بالطلب طبعا ـ تستخدم فى اعدادها أعشاب خاصة لا يمكن الحصول عليها فى أى مكان آخر . ولم تكن تلك الحمامات الطبية مما يوصى به الاطباء ، بل كان الزبائن يقولون عنها الواحد للاخر ، ويوصون بها بعضهم بعضا . كانت تلك المنشأة تدعى « حمامات أبو ريشة » . وأسعارها متهاودة للغاية . والقائمات بالعمل فيها كلهن بنات .

كان مستر كوكس من زبائن ذلك المكان ، وقد ألف أن يتردد عليه مرة كل أسبوع على الاقل . وقد اكتشف أصحاب شركةالنقل

البحرى ذلك ، فعودوا أنفسهم على الذهاب الى تلك الحمامات كلما أرادوا الاجتماع به .

كان الاستحمام يجرى فى أماكن صغيرة مسورة بالخشب يتم فى داخلها أيضا تدليك العميل بعد خروجه من الماء . لكن حمامات البخار والارائك التى يتمدد عليها المستحمون للراحة كانت كلها فى عنبر واحد كبير . فكان بالوسع أن يجتمع عدد من الناس ليناقشوا أمرا ما دون أن يزعجهم أحد ، خاصة اذا ما احتلوا كل حمامات البخار . وقد أصبح ذلك أمرا مألوفا فى المنشأة ، فأعدت لافتة مكتوب عليها « كامل العدد » لترفع أمام الخزينة فى مثل تلك المناسبات .

كان لقاء الشركاء يتم عادة فى يوم الاثنين • فالمنشأة تغلق أبوابها فى نهاية الاسبوع ، ولذلك فان العاملات يكن فى ذروة نشاطهن فى مطلع الاسبوع الجديد . والحقيقة أن كوكس بارع للغاية فى حساب هذه الاشياء ، واغتنامها .

فى بداية الامر اعترض معظم الشركاء على اختيار مكان كهذا لتعقد فيه اجتماعات الشركة . لكنهم ـ بعد أن جربوه ـ لم يكن من المستطاع منعهم من الاجتماع فيه ، ولو باستخدام القوة . فوق أن الجميع كانوا يراعون مواعيد الاجتماعات بكل دقة ، خاصة فى الاوقات العصيبة التى يبدو فيها أن أمور شركة النقل البحرى لا تبشر بخير .

حتى فينى العجوز المجفف لم يعد يتخلف عن الاجتماعات ، رغم مقته لكل أشكال الترف • قال ان حمامات الاعشاب الطبية تريح معدته أكثر من أى دواء جربه حتى ذلك الوقت . كان فينى يعتقد أنه مصاب بالسرطان ، وقد باتت لذته الوحيدة التحدث عن أعراض مرضه ، حتى أصبحت الفتاة ، عاملة الحمام رقم ٦ ، تعرفها عن ظهر قلب .

وقد انتظم بيتشام هو الآخر فى التردد على الحمامات ، مع اجراء تعديل واحد ، هو أنه احتجز لنفسه العامل الوحيد الذكر فى المنشأة ، وهو رجل بدين ضخم الجثة ، كان الزبائن كلهم يخشون بأسه ، لخشونته البالغة فى التدليك • ولم يكن بيتشام مدفوعا فى ذلك بأية خلاعة أزعجته لدى الفتيات ، لكنهن ، عندما يقمن بعملهن كن لا يرتدين ، بطبيعة الحال ، الا أقل قدر ممكن من الثياب ، وهو مالم يطمئن اليه بيتشام ، ففضل صحبة الرجال •

لم يكد بيتشام يعود من ساوثمبتون حتى اتصل بايستمان واخبره بثمن السفن الجديدة ، وافهمه فى الوقت ذاته ، أن الشراء يجب أن يتم ، وبغير ابطاء . كما قال ـ تعزيزا لهذا الرأى الاخير ـ أن كوكس ، فى رأيه ، وغد ، ونصاب ، وقاطع رقاب لايتورع عن أى شيء ، وانه - دون أدنى شك ـ سيذيع أن الشركة جاهدة فى النصب على الحكومة بغية التخلص من السفن العتيقة النخرة ، وانه ، منذ بداية الامر ، قد فعل كل مافى وسعه ، وناور ، وتآمر ، لتوريطهم جميعا فى تصرف يوقعهم تحت طائلة قانون العقوبات حتى يتمكن من ابتزاز أموالهم بالتهديد . والاسوأ من ذلك أن ربح عمليات التوريد فى الحرب لا تتجاوز ٣٠٠٪ ، لكن الشركة ، بتأثير كوكس ومناوراته ، وتحت توجيهه الذى لايستطيعون اثباته ، تعمل على تحقيق ربح لايقل عن ٤٥٠٪ ، مما سيزيد موقفهم سوءا ، ويثير ضجة كبرى . وقد وافقه ايستمان الرأى على أنهم لن يستطيعوا تسوية حساباتهم مع السمسار الا بعد ان يكونوا قد اشتروا السفن الجديدة . ثم قررا ان يتركا بقية الشركاء « على نار » ، لبضعة أيام اخرى ، والا يذكرا شيئا عن الاسعار الجديدة الباهظة الا فى يوم الاجتماع الاسبوعى بحمامات « أبو ريشة » ، الاثنين القادم . واذ ذاك يكون لوجود كوكس بينهم تأثير طيب ، لا العكس ، لانه سيعطيهم أملا فى رفع الثمن الذى ستشترى به الحكومة .

برغم تلك التوقعات ، لم تمر المناقشات التى دارت بين السادة الشركاء السبعة ، فى الحمام التركى ، صباح يوم الاثنين التالى ، بغير توتر أو شحان .

عندما بدأ ايستمان كلمته ، التى ألقاها وهو يأخذ حمام البخار . كان مون مدير مصنع النسيج ، وفينى والبارون ، قد تمددوا على ارائكهم يستريحون ، وبيتشام مازال تحت التدليك ، بينما جلس كراول صاحب المطعم على مقعد بكامل ثيابه ، رافضا الاستحمام . أما كوكس فكان يقوم بتمرينات رياضية .

بدأ ايستمان كلمته بحث الشركاء على أن يصرفوا نظرا عن أى أمل فى بيع السفن القديمة . قال نعم ، كانت خطة عظيمة ، لكن ها قد تبين انها مستحيلة ، وقال ان الشركة تستطيع ان تتوقع من صديق كوكس الذى فى الاميرالية مساندة نشطة ، ولقاء الخمسة آلاف جنيه التى تم تزبيت يده بها عن طريق كوكس ، لكنها لايمكن طبعا أن تتوقع من ذلك المسئول اى تواطؤ فى عملية

نصب واحتيال كهذه . ثم ان ذلك ليس كل ما فى الامر . فالخمسة الاف جنيه كانت عن العملية الاولى ، لكن تكتم الفضيحة التى يمكن أن تثار بسبب محاولة الشركة أن تبيع أنا الجميلة ، والولد البحار ، والمتفائل ، الى الحكومة ، والعمل على احلال سفن جديدة محلها مع نقل تلك الاسماء اليها تجنبا للمساءلة الجنائية وتهمة الخيانة ، كل ذلك سيكلف الشركة سبعة الاف وخمسمائة جنيه أخرى ، تدفع أربعة الاف منها فورا ، وثلاثة الاف وخمسمائة عند اتمام العملية ووفاء كل طرف من الاطراف بتعهداته كاملة . وما على السادة الشركاء ، لئلا يصيبهم فالج ، الا ان يعتبروا تلك المبالغ جميعها ثمنا لدرس ثمين قد تعلموه ، فلا أحد يتعلم مقابل لا شىء فى هذه الدنيا .

رقد بيتشام على وجهه طيلة تلك الخطبة ، مستسلما للتدليك العنيف ، مشاهدا باهتمام بالغ مباراة صامتة ومخيفة فى التصبب عرقا كانت ناشبة بين ايستمان البدين فى حمام بخاره ، وكراول الجالس على مقعده الخشبى بكامل ثيابه محملقا فى وجه ايستمان بنظرة هلع لا توصف . والواقع أنه بعد خروج مربى الاغنام من الشركة ، وحلول بيتشام — بنصيب ثان — محله ، بات صاحب المطعم اضعف لبنة فى بنيان شركة النقل البحرى . كان منذ البداية يشكو مر الشكوى من تدهور أعماله وسوء حالته عموما ، ولا يكف عن الاشارة الى سيف ما كان يراه دائما معلقا فوق رقبته. وكان ذلك — فى واقع الامر — هو دافعه الى الدخول ، بحماس زائد ، فى مشروع شركة النقل البحرى الذى بدا واعدا بأرباح طيبة . ولقد اقترض أول اسهام له فى رأسمال تلك الشركة من حميه . والان هاهو قد دخل فى تلك المباراة الغريبة مع صاحب العقارات. عندما بدأ ايستمان ، الذى لم يكن قد بدأ يتصبب عرقا بعد ، فى الحديث عن الصعوبات المحيطة بالعثور على سفن للنقل فى ذلك الوقت ، بدأت قطرات كبيرة من العرق تتفصد من جبين كراول وتسيل على وجهه . وعندما وصل ايستمان الى لب الموضوع كله وبدأ يتكلم عن الارقام (٣٨٫٥٠٠ جك) ، ٧٫٥٠٠ جك ، وما الى ذلك ، وتفصدت من جبينه ، بدوره ، القطرات الاولى الصغيرة من العرق ، كان صاحب المطعم قد وصل الى مرحلة بات يسبح خلالها فى عرقه .

وهو ما جعل بيتشام يقلب فى ذهنه افكارا كهذه :

ـ الى هذا الحد العظيم يفوق تأثير العوامل الروحية كل تأثير للعمليات الجسدية البحتة . حقا أن الجسد الانسانى كله فى قبضة الذهن والروح معا !

والحقيقة أن التأثير المخيف لذلك الشقاء الداخلى الطاحن لم يقتصر على هذين السيدين وحدهما بل تخطاهما الى السادة الآخرين أيضا ، فانعكس على مظهرهم وسلوكهم • فينى مثلا ، الذى كان ، فى أفضل حالاته ، جبانا رعديدا ، أخذ يلطم كالنساء ، ومون أخذ ينهنه كامرأة عجوز . لو شهدت عاملات المغطس ذلك المشهد المحزن ، لعجبن كثيرا لذلك الضعف من جانب أولئك الرجال الفحول الاقوياء • لكن المرأة مهيأة ، بطبيعة الحال (على النحو الذى ثبته البحث العلمى) لتحمل الالم أكثر من الرجل .

حتى مستر بيتشام ، رغم استمتاعه بمشاهدة وجوه شركائه فى تلك اللحظة الحاسمة ، لم يستطع أن ينسى الكارثة المخيفة التى أصابته بزواج ابنته على غير مايهوى •

عندما انتهى ايستمان من كلمته ، وخرج من حمام البخار ، كان اول المتكلمين صاحب المطعم ، فقال بصوت أجوف شبحى أنه قد أفلس اذن وحل به الخراب الكامل الشامل ، ويجد لزاما عليه ، لذلك ، أن يرجو السادة الشركاء الا يعتمدوا عليه بعد اليوم ، وأن اية أسئلة أو استفسارات قد يرغب احد فى توجيهها اليه يجب أن توجه الى محاميه .

وأضاف أن حماه رجل مسكين طاعن فى السن ، قد بلغ السابعة والثمانين ، وانه اقترض النقود التى أسهم بها فى الشركة من تأمين الشيخوخة الذى يعيش منه ذلك العجوز المسكين ، بأمل تهيئة مستقبل أفضل ، متحرر من الحاجة ، لابنته • وأن أطفاله الصغار (أطفال كراول) فى الثامنة والثانية عشرة من العمر • وهنا قال أيستمان ، وهو يجفف ساقيه السمينتين ، أن الامور لم تبلغ ذلك كله من السوء ، لكن مون عارضه محتدا ، مما ضايقه كثيرا •

اذ ذاك وجه فينى انتباههم الى مرضه الخطير (الذى يحتمل كثيرا أن يكون مميتا) ، وأعلن عن شكه فى أن يتمكن من الحصول على المبلغ المطلوب . فأجاب ايستمان غاضبا أنه هو أيضا يستطيع ان يفكر فى أوجه أخرى ، أفضل بكثير ، ينفق فيها الثلاثة آلاف جنيه المطلوبة . أما البارون فلم ينبس بكلمة . فقد أنفق أهله الكثير على تربيته •

بينما تلك المعمعة دائرة ، كان كوكس قد أنتهى من تمريناته الرياضية وبات بوسعه أن يستدير الىأغنامه فيوجه اليها طعنة الموت. كان مرتديا لباس استحمام وردى اللون ، وحذاء أسود من المطاط . قال لهم :

ـ سادتى ، نحن لم ننته بعد . لقد سمعتم الثمن الذى تستطيع شركتكم ان تحصل فى مقابله على سفن حقيقية تصلح لان تبيعها شركة محترمة الى حكومة صاحبة الجلالة . ولا أظنكم ستدهشون اذا علمتم أن النقود وحدها لاتستطيع ان تصلح مافسد وتخرجكم من هذه الورطة . فهذه السفن الجديدة ، مثلا ، لايمكن الحصول عليها مقابل النقود فحسب .

فى تلك اللحظة بدأ كراول يضحك بغير صوت . جلس فى مقعده الخشبى ، عائما فى غرقه ، وقد حل به الخراب الكامل ، فأخذ يهز رأسه الشحيم ويضحك بغير صوت .

تلك الضربة الثانية لم تصبه بشىء ، لان الضربة الاولى كانت قد أجهزت عليه . رمقه كوكس بارتياب ثم استطرد قائلا :

ـ ليس لدى شك فى أنكم ، بعد كل هذه الخيبة ، قد فقدتم كل ثقة فى أنفسكم. لكن المصيبةأن ذلك الشعور ليس مقصورا عليكم. فلستم الوحيدين الذين فقدوا كل ثقة فى شركة النقل البحرى . نحن أيضا فقدنا ثقتنا فيها . وصديقى زميل الدراسة الذى فى الاميرالية لا يقبل أن يستمر فى التعامل مع شركتكم الا اذا أدرت أنا بنفسى شخصيا كل أعمالها .

وهنا ازداد انهيار السادة الشركاء الذين كانوا جميعهم ـ باستثناء صاحب المطعم ـ عرايا ، وبالتالى فى تلك الحالة المحرجة التى يقال ـ طبقا للتعاليم الدينية ـ أنهم سيقفون بها ، فى خاتمة المطاف ، أمام عرش الله . دفع بيتشام مدلكه السمين جانبا ، وهم جالسا على منضدة التدليك المخلخلة . فذلك الذى يقوله اللعين كوكس كان جديدا عليه مثلما كان جديدا على الاخرين .

لكن كوكس لم يلتفت الى أى منهم ، فاستمر فى قوله غير عابىء ، باعتبار أن مايقوله لهم أمر مقضى به ومنته :

ـ وفى رأينا أنه قد يكون بالوسع تسوية هذه المسألة المؤسفة على الوجه التالى : فشركتكم قد دفعت حتى الان ٨٢٠٠ جك ، ثمنا لاشياء معينة ، لا علم لنا بها ، ونفضل الا نتحدث عنها .

وحسبما سمعت ، يبدو أنكم أنفقتم مبلغ ٥٠٠٠ جك على اصلاحات معينة قصد بها تحسين تلك الاشياء التى اشتريت . وفى الوقت ذاته قبضتم من الحكومة مبلغ ٥٠٠٠ جك . وطبقا للاتفاق المبرم بيننا ، تلتزمون قبلى بدفع سمسمرة قيمتها ٢٥٪ من ثمن البيع ، أى قرابة ١٢٢٥٠ جك ، ولصديقى الذى دفعتم له حتى الان ٥٠٠٠ جك ، مبلغ اضافى قدره ٧٥٠٠ جك على دفعتين ، كما أوضح لكم شريككم السيد ايستمان منذ قليل . وبالاضافة الى تلك المدفوعات سيكون هناك طبعا مبلغ ٣٨٠٠٠ جك ، لشراء السفن الجديدة . فيكون حاصل جمع ذلك كله قرابة ٧٥٠٠٠ جك ، ويصل اجمالى ماتقبضونه من الحكومة ٤٩٠٠٠ جك ، بالاضافة الى مبلغ ٢٠٠٠ جك أصرح من الان بانى على استعداد لدفعه مقابل تخليصكم من الاشياء الثلاثة التى اشترتها شركتكم ولا أود أن أحددها ، فلست محاميا . ولا تنسوا أن مستشاركم الهندسى قدر قيمتها بما لا يزيد على ٢٠٠ جك ، لكنكم أنفقتم على اصلاحها حتى الان ٥٠٠٠ جك ، وأنا أحب دائما ان اتوخى العدل فى تقديراتى . فاذا ماخصمتم هذه المقبوضات الاخيرة من اجمالى مدفوعاتكم لوجدتم أن خسارتكم فى جملتها لن تتجاوز ٢٦٠٠٠ جك . ولست بحاجة طبعا الى ان أذكركم بأن البديل الوحيد لذلك هو السجن عشرين عاما ، وهو مصير اعتقد انكم توافقوننى الرأى على أنه رحيم للغاية بعد ما حاولتم اتمامه من صفقات مريبة فى هذه الآونة الحرجة . أيها السادة . ان الطريق الوحيد والاخير للخلاص مازال مفتوحا أمامكم . وطريق الهلاك أيضا . فاذا شئتم السير فى الطريق الاخير فانى على استعداد لان أعيد اليكم الشيكات التى يبلغ مجموعها ٥٠٠٠ جك والتى اعطيتموها لى لحساب صديقى الذى فى الامبرالية فهى مازالت معى .

لم يشك من باتوا يعرفون كوكس جيدا من الشركاء فى أن تلك الشيكات كانت لا تزال معه ، كما لم يشكوا لحظة فى تصويره للموقف كله . بدا الان واضحا أن العملية كلها رتبت بدهاء شديد من جانب كوكس ، منذ أول خطوة فيها . وان كافة الاطراف متورطة فيها حتى العنق ، باستثناء كوكس وحده . فذلك المسئول الذى فى الامبرالية سيجد نفسه فى ورطة خطيرة ، حتى بعد اعادة شيكات الرشوة وبعد حلف اليمين كذبا والشهادة زورا ، لان شيئا لن يجدى فى تغيير الواقع الماثل فى أنه اشترى للحكومة سفنا لم يرها

أو يعاينها . أما الشركة فان ورطتها أفظع ، ولن يجديها فى شيء أن تطير رقبة ذلك المسئول ـ الذى فى الاميرالية ـ أو لا تطير . لان الشركة ، بعلم من أصحابها جميعا ، وبقصد مبيت ، اشترت سفنا نخرة لا تصلح لركوب البحر ، رغم تحذيرات الخبراء ، لكى تنصب بها على حكومة صاحبة الجلالة فى زمن الحرب .

تركهم كوكس ينضجون على مهل . تم طلب أن يفوضه الشركاء السلطة كاملة ، حتى يتمكن من انهاء العملية على أتم وجه ، خطوة بخطوة . ولكن بشرط : أن يقوم الشركاء بكل شيء حتى لحظـة التسـليم النهائى للسفن الجـديدة الى الحـكومة واذذاك فقط ، بعد أن تصبح العملية نظيفة وقانونية مائة فى المائة ، يدخل هو فى العقد مع الحكومة : اى فى اللحظة التى تكون السفن الجـديدة السليمة قد باتت معدة فيها للحلول محل التوابيت العائمة القديمة .

والى أن يتم ذلك يجب أن تستمر عمليات الطلاء والترميم على السفن القديمة على قدم وساق ، خشية أن يقع تفتيش مفاجيء . وهكذا فان السيف يظل معلقا فوق عنق شركة النقل البحرى حتى اللحظة الاخيرة .

ولم تكن الشركة قد عادت بها قدرة على الاحتجاج .

وهكذا فانه عندما دعاهم كوكس الى حفل غداء صغير فى مطعم مجاور ، احتفاء بتلك المناسبة ، لم يجد أحد منهم فى نفسه القدرة على الرد عليه . فقال السمسار بسرعة من لاوقت لديه أنه لايستطيع بأى حال من الاحوال أن يمهلهم أكثر من ثمانية أسابيع لتسليم السفن الجديدة ، ثم انصرف مسرعا قبل أن يخرج أحد من الاخرين .

***

قرر الشركاء أن يكلوا حساب كافة النفقـات الجديدة الى ايستمان وبيتشام ، وأن يجتمعوا ثانية ، بمجرد أن يكون هذان الاثنان قد أتما حساباتهما ، فى يوم الاثنين المقبل على اكثر تقدير . فقد بلغت أحوال الشركة مرحلة بات من المستحسن فيها تجنب أية اجتماعات رسمية ، والتظاهر بأن اللقاء صدفة فى أحد المطاعم يكفى .

أما بيتشام فكان فى حال يرثى لها من القلق .

كان يحاول الان جاهدا أن ينضم الى جانب كوكس . ولـكن كيف ، وابنته ذاتها لم تعد ملك يمينه يستخدمها كيف شاء ؟ من يدرى ما الذى سيحدث له الان .

فى صباح كل يوم كان يذهب الى رصيف الميناء حيث كانت

السفن الثلاث تموج بالحركة كخلايا نحل . فى كل مكان كان رجال يعملون المناشير والمطارق ويضعون طبقة من الطلاء ، وقد وقفوا معلقين على سقالات متأرجحة ، أو فى أقفاص هشة معلقةمن السلك. فيقف بيتشام ضائعا وسط ذلك النشاط وجسده كله ينتفض . كانت الشركة تقتصد الى أقصى حد فى المواد : الخشب ، والحديد، وحتى الطلاء ، وتشترى ماتشتريه منها من أرخص الاصناف . ومع ذلك فان هذه العملية المهولة كلها كانت خسارة كاملة ومالا يتبخر فى الهواء .

بعد ذلك كان بيتشام يسارع بالعودة الى ورشته . وهنا أيضاكان العمل على قدم وساق ، والشحاذون يتوافدون على المكتب ليدفعوا أتاواتهم الى بيرى الذى يحصل النقود منهم وهو يقارن حصيلة كل منهم بأرقام مسجلة فى قائمة بيده ، ويستمع الى ما يقدمونه من أعذار لانخفاض ايراداتهم باذن خبيرة متشككة ، ثم يفصل فى المشاجرات التى تنشب بينهم بسبب التعدى على المناطق ، ويرتب مايتخذ من اجراءات ضد الدخلاء . وفى حجرات الشغل تتراص الفتيات ، محنيات الظهور على المناضد الطويلة . فالعمل هنا لاينتهى . طلبيات ورشة الشحاذة عندما يتم تنفيذها ، تعقبها طلبيات أخرى تورد الى دكاكين الملابس القديمة وتجار الروبابيكيا. وفى غرفة أخرى يجلس صناع الالات الموسيقية مكبين على اصلاح آلات النفخ ، والقرب الاسكتلندية ، والات البيانولا ، بينما عدد من الشحاذين يستمعون الى ألحان جديدة ، ويأخذون وقتا طويلاقبل أن يقر قرارهم على لحن بعينه . أما الفصول المدرسية فالتعليم فيها لاينقطع ، فى مختلف فروع المعرفة . فى أحد الاركان وقفت عجوز مغضنة تعمل فى المساء حارسة فى أحد مراحيض السيدات تعلم فتاة فى مقتبل العمر كيف تبيع الزهور .

وقف بيتشام وسط ذلك النشاط يتنهد . ما جدوى هذا كله وسمع المرء مشدود فى كل لحظة الى وقع أقدام على الدرج تأتى حاملة النبأ المخوف بأن البوليس ينتظره بأسفل ؟

ابنته هى الملومة فى كل هذا .

فنتيجة لشهوانيتها المفرطة التى لا تعرف حدودا ، والتى ورثتها بغير شك عن أمها ، وبسبب ما سهلته لها أمها أيضا من تجارب آثمة ، ذهبت البنت فسلمت جسدها الى شخص أكثر من مشئوم . ثم انذلك الزواج الفورى يثير ريبا شديدة، ويبدومحوطا بالغموض.

لابد أن شيئا مخيفا قد وقع . لكن مبادئه فيما يخص التباعد الواجب بين ذوى القربى كانت تمنعه من أن يخوض مع ابنته فى أحاديث حميمة مخجلة حول أخص شئونها . فوق أن الحديث عن هذه الاشياء لاينجم عنه الا الضرر ، لانها أشياء لايجب أن تحدث ، والكلام عنها يجعلها فى حيز الممكن ، وبذلك يفقد المرء سلاحه الرئيسى قبلها ، وهو رفضه أن يصدق أن شيئا كهذا يمكن أن يقع .

والمهم فى ذلك كله أن بيتشام فى مسيس الحاجة الى ابنته . وان زواجها المشئوم ذاك يجب أن يلغى . فهو لا يشك لحظة فى أن كوكس لن يتردد فى قبول بولى زوجة له حتى بعد ما حدث لها . فقد لاحظ لهفة السمسار العمياء فى ساوثمبتون ، وبات موقنا من ان ذلك الفاجر عبد لشهواته الجسدية .

ومن جانب اخر فان ماكهيث يبدو متساهلا بشكل لافت للنظر فيما يخص بقاء زوجته بعيدة عنه تحت سقف أبويها ، ولا يحدث أية متاعب حقيقية ، بل ويدع نفسه يلقى خارجا فى عرض الطريق دون أن يتخذ اى اجراء مضاد ، فوق أنه ، على حد علم بيتشام ، لم يصرح باسم زوجته لاحد حتى ألان . لا شك أن تهديده بحرمان بولى من الميراث قد أحدث الاثر المطلوب . من الواضح للغاية أن الرجل متلهف الى النقود . ولعله فى حاجة ماسة اليها . والفتاة نفسها تبدو راضية ببقائها فى بيت أبويها ، ولا يبدو أنها تخرج للقاء زوجها الا فيما ندر .

ليس من شك فى أن دكاكينه حرف « ب » هذه فكرة بارعة ، وهى تستدرج الفقراء الى انفاق مدخراتهم فيها بطريقة تنم عن ذكاء . لكنها فى الوقت ذاته ، بدائية للغاية ، فهى فى حقيقة امرها لاتزيد عن كونها جحورا مظلمة ، مطلية حيطانها بالجير ، وقد كومت فيها ، كيفما اتفق ، أكوام من البضائع على أرفف خشبية عارية ، واصحابها أناس ينضحون بالفقر والقذارة ، لايفارق العبوس وجوههم . لكن من أين تأتى كل هذه البضائع الرخيصة ؟ مازال مصدرها سرا غامضا .

ولقد حاول بيتشام بالفعل – عن طريق شحاذيه – أن يتصل ببعض دكاكين حرف « ب » . لكنه لم ينجح فى ذلك ، لان أصحاب الدكاكين تشبثوا بصمت مطبق ، وأظهروا عداء شديداً تجاه الشحاذين الذين يكرههم كل التجار عادة ، فوق أن أحدا منهم لم

يكن فى حقيقة الامر ، يعرف شيئا عن مصدر تلك البضائع .

لكن بيتشام حقق نجاحا أفضل من ذلك فيما قام به من تحريات حول ماضى ماكهيث . فقد كشفت تلك التحريات عن فترة بأكملها من عمر الرجل ، طالت بضع سنين ، بدت مغلفة بذلك الغموض الذى يجعل سير الكثيرين من كبار رجال الاعمال مفتقرة عادة الى البيانات الدقيقة . « فعمالقة الصناعة والمال » يظهرون عادة ، فيما يبدو ، بطريقة مفاجئة ومباغتة للغاية ، من قلب الظلام ، بعد كذا وكذا من السنين التى يكونون قد عانوا « شظف العيش » فيها ، والتى لا تتضمن سيرهم أى بيانات عنها .

اتجه بيتشام فى تحرياته الى منافسى ماكهيث . فادعى صغار المنافسين أن الرجل فى شبابه غير البعيد أدين فى أكثر من زيجة زائفة ، وأطلقوا على الفتيات اسم « عرائس حرف ب » ، لكنهم لم يستطيعوا أن يقدموا أية بيانات أو عناوين تؤدى الى الاتصال بهن . ولم تكن فى ذلك كله جدوى . لان مثل هذه الشائعات المبهمة لايمكن أن يفعل المرء بها شيئا . لكن شيئا واحداً بدأ مؤكدا: أن حياة الرجل يمكن تعقبها ، رجوعا وهبوطا ، بشكل أو بآخر ، الى العالم السفلى : عالم الجريمة المنظمة ، وأن أساليبه كمجرم ناجح كانت ، الى عهد قريب ، أكثر جرأة ، وقسوة ، وأشد صراحة فى خروجها على القانون ، مما هى الان .

من بين المصادر التى لجأ اليها بيتشام فى تحرياته ، مجلة « العاكس » ، التى ادعت فى وقت ما أن تحت يدها أدلة تثبت اتهامات معينة فى حق صاحب محلات حرف « ب » . لكن محررى المجلة – عندما ذهب اليهم بيتشام – كانوا يعانون من فقدان ذاكرة جزئى فيما يبدو ، لانهم قالوا أنهم لا يذكرون من تلك المسألة الا أشتاتا مبهمة ، ثم غمغموا شيئا عن عدم كفاية الادلة . وهكذا فان بيتشام اضطر أن ينصرف دون أن يكتشف شيئا . لكنه أحس أن أولئك الناس يعرفون وقائع معينة ، وأن تحت أيديهم بالاضافة الى ذلك ، أدلة مادية . لكنه ليس لديه وقت . لم يبق أمامه الا ثمانية اسابيع : فاما ابنته واما الدفع .

***

لم يكذب كراول ، صاحب المطعم . فقد تبين أنه لم يكن يملك مالا يدفعه فحسب ، بل وأنه كان ينتظر أرباح شركة النقل

البحرى على أحر من الجمر • فلما ضاعت الصفقة أفلس افلاساتاما •
وبالاضافة الى ذلك ظهر البارون ـ وكان شابا فى مقتبل العمر ـ بوجه مكفهر فى احد اجتماعات الشركاء ، وأعلن أنه عاجز عن الدفع . قال انه يملك اقطاعية مرهونة فى اسكتلندا ، وانه موشك على أن يوضع تحت الوصاية . جرت تلك المقابلة فى مكتب بيتشام، وحضرها ايستمان • عامل الرجلان الفتى كما لو كان حيوانا مريضا • لكنه صارحهما بأنه مازال هناك احتمال واحد : أن يتزوج فتاة ثرية ، وأن هناك بالفعل امرأة اميركية مطلقة ، فاحشة الثراء ، على استعداد لشراء اسمه العريق ، وثقافته الاوربية ، وانها منجذبة بوجه خاص الى الاثاث العتيق الذى شاهدته فى بيته الريفى ، والى الكراسى فوق كل شىء .
لم يكد يتبين للرجلين من استجواب الفتى أن تلك المرأة الاميركية ، رغم قبحها ، ابنة أحد ملوك اللحم على الشاطىء الاخر من الاطلنطى، حتى هدداه بالفضيحة الكبرى التى ستلوث اسم عائلته اذا ما لحق بهم الخراب وافلست شركة النقل البحرى والقى بأصحابها فى السجون • فخرج الفتى مذعورا بعد أن وعدهما بأن يحسن معاملة تلك الثرية الاميركية ، بصرف النظر عن ساقيها اللتين تشبهان ساقى حصان • لكن البارون ظل ـ رغم ذلك ـ من اللبنات الضعيفة فى صرح شركة النقل البحرى الذى كان موشكا على الانهيار .
سبق اجتماع الشركاء الذى حدد لعقده يوم الاثنين ، اجتماع جانبى بين كوكس وبيتشام . استمع كوكس بهدوء بارد الى نبأ الانهيار النهائى لكراولى ، ونبأ الضائقة التى يمر بها البارون ، ولم يزد تعليقه على التبأين عن قوله أنه لايملك الا أن يتعامل مع شركة النقل البحرى ككل ، وانه ينصح بتقليم الفروع الفاسدة من جذع الشركة الام ، محذرا فى الوقت ذاته من أن الشركاء المطرودين يجب أن يكون هناك ضمان كاف لصمتهم المطبق•
ثم أخذ بعد ذلك يتحدث عن بولى • اعترف لبيتشام بأنه لا يستطيع أن يكف عن التفكير فيها • قال ان تلك التجربة المخيفة التى مر بها فى ساوثمبتون وشهدها بيتشام قد غيرته تماما من داخله . بمعنى أن خصالا حميدة كانت كامنة فيه ظهرت على السطح بغتة . وانه بات يحس فى نفسه الان ظمأ غريبا الى الطهر والنقاء . وان بولى الان أصبحت ثنه المعبود حقيقة . وانها

تتراءى لعينيه كنبع ماء سلسبيل فى صحراء قيظ محرقة . وأن بضع دقائق يقضيها فى الحديث معها تسبغ قداسة على الاسبوع كله ، بجده ولهوه . قال ذلك كله ببساطة ، وهو ينظر الى بيتشام مواجهة ، دون أن تطرف له عين . فأصغى بيتشام بانتباه شديد والطمأنينة تشيع فى نفسه مع كل كلمة . أدرك الان أن تسوية مسألة السفن بينهما لن تصطدم بأية صعوبات . وفى قرارة نفسه كان محبذا بكل قوة لتعبيرات كوكس الحذرة . أعجب بالسمسار حقيقة لبراعته فى اللف والدوران .

ذهب بيتشام الى الحمام التركى بمفرده . وجد الآخرين قد سبقوه وجلسوا فى انتظاره . كانوا كلهم جلوسا على مقاعد خشبية ، فى كامل ثيابهم ، رغم أن جو المغطس كان حارا ورطبا بدرجة لا تطاق .

اخبرهم بيتشام اولا بتوقف كراول والبارون عن الدفع .

جلس كل من هذين المحترمين فى مكانه ناظرا أمامه نظرة لاتحيد ، ولو أن ابتسامة ما أرتسمت على شفتى البارون .

استطرد بيتشام قائلا أن الخسارة الاجمالية ، كما قدرهاكوكس تماما ، ستكون قرابة ٢٦٠٠٠ جك . أى أن كل شريك سيتحمل بمبلغ ٣٨٠٠ جك يجب أن يؤديه الى الشركة . فمن مصلحة الجميع أن تجرى ألامور بيسر وهدوء ، وبغير فضائح ، ما أمكن .

ثم عرض عليهم أن يحصل لهم على معاونة البنك الذى يتعامل معه ، وهو بنك الائتمان الاهلى ، بشرط أن يفوضوا اليه سلطة ادارة الشركة والتصرف فى شئونها كاملة .

تمددوا كلهم فى مقاعدهم يتصببون عرقا ويومئون برءوسهم علامة التسليم . حتى كراول والبارون هزا رأسيهما ببلاهة .

نظر بيتشام الى هذين الاخيرين بصرامة ثم أخذ يتكلم ثانية . فطالب صراحة بأن يوقع كل من كراول والبارون على سندات اذنية بحصة كل منهما فى الخسائر وأن يوقعا فى الوقت ذاته على اعتراف تفصيلى من جانبهما بمسئوليتهما التضامنية فى كل ماحدث فيقرران أنهما باعا الى الحكومة السفن الخربة القديمة ، بعد أن عايناها ، وسمعا رأى خبير بحرى فى مدى صلاحيتها للابحار ، وتبينا أنها لا تصلح البتة ، وأنهما رغم ذلك لم يتورعا عن قبض

مقدم ثمنها من حكومة صاحبة الجلالة فى زمن حرب وبلاء ، مؤكدا أن هذا المستند الضار للغاية لن يستخدم طبعا ، وسوف يعاد الى موقعيه بعد أن يسددا حصتهما فى التزامات الشركة، لانه لايمكن ان يستخدم استخداما فعالا فى حقهما دون أن يسىء الى سائر الشركاء ايضا ، الا أنه سيضمن للشركاء أن يقفل كل من كراول والبارون فمه جيدا فلا يأخذا فى الثرثرة وافشاء اسرار الشركة .

وقع البارون الوثيقة والسندات الاذنية باستسلام واضح ، دون أن يفهم من أمره شيئا الا أنه بات مقضيا عليه الان ان يتزوج « العنزة العجوز » بلا أدنى تأخير أو مماطلة . أما صاحب المطعم فوقع نعم ، لكنه وقع توقيع انسان أصابته لوثة .

أخذ يهذى قائلا أنه لايستطيع أن يلحق مثل هذا العار بزوجته وأبيها العجوز البالغ من العمر سبعة وثمانين عاما . كيف ، كيف بالله يعترف على نفسه بأنه باع سفنا خربة نخرة غير صالحة للابحار لحكومة بلاده فى زمن حرب وبلاء ؟ لايمكن . حموه كان ضابطا فى الجيش ، كان كولونيلا . ثم انه لن يجرؤ ، بعد توقيع وثيقة كهذه ، على النظر فى عيون أطفاله الصافية البريئة ، لايجب أن يكون لهؤلاء الملائكة اب مجرم . لقد قاوم الاغراء دائما وامتنع عن الانغماس فى أى عمل غير شريف بغية الحصول على المال ، وذلك هو السبب فى أنه وصل الى تلك الحالة من الافلاس . فالشرف عنده أغلى من كل خسارة مادية . قال والدموع تسح على خديه وهو يوقع وأنفه فى الرغام :

ـ خربتم بيتى أنا الآن رجل محطم .

واجهش باكيا ، فأحدث اثرا بالغ السوء فى نفوس الآخرين ، وسبب لهم غيظا شديدا .

قال أيستمان لشريكه وهما ينصرفان :

ـ هذا الرجل كراول . انه ليس انجليزيا بالمرة . فوق انه سوقى . أنظر الى البارون مثلا . لقد وقع كما يجب ان يوقع الرجال . وسوف يتزوج مخلوقة بشعة بحق، دون أن يشكو أو يعول، كرجل .. الحقيقة أن المرء قبل أن يدخل فى شركة مع أحد يجب أن يتأكد من أصل شركائه وفصلهم .

***

أما بيتشام فركبته التعاسة بعد ذلك الاجتماع . فالعقد مع الحكومة سيسلم الى كوكس بمجرد أن تكون شركة النقل البحرى

قد أوفت بتعهداتها قبل الحكومة على أكمل وجه وباعتها سفنا تستطيع حقا أن تركب البحر ، وهو ـ حتى الآن ـ لم يتوصل الى اى اتفاق ملزم مع كوكس يضمن له نصيبا فى الارباح الهائلة التى سيحققها السمسار من هذه الصفقة اللوبية ، بل ولم يحصل منه حتى على وعد بتعويض خسائره . ولم يكن بيتشام من السذاجة بحيث يتصور أن اتفاقا كهذا يمكن أن يتم بينه وبين كوكس ، دون أن تكون بولى قد أدخلت فى الصفقة .

وقد تجنب بيتشام التفكير فيما يمكن أن يحدث اذا مافشل فى التوصل الى اتفاق مع كوكس . فالشركة الآن اصبحت قائمة على ثلاثة فقط يمكن تحميلهم بخسارتها الفادحة هم ايستمان ، وفينى ، ومون . فاذا لم يتسن احتلاب المال اللازم لشراء السفن الجديدة من هؤلاء الثلاثة وحدهم ، سينتهى الامر بكارثة فظيعة .

فهو الآن محتاج الى كوكس اكثر من أى وقت مضى .

جلس ذات مساء الى بولى فحدثها عن السمسار ، وقال لها انها يجب أن تكون لطيفة معه . ولا يجب ـ تحت أى ظرف من الظروف ـ أن تدعه يكتشف شيئا عن حكاية زواجها . ثم أوضح لها أنه متورط مع كوكس فى عملية متعلقة بتوريد عدد من السفن ، وانه متورط فى الحقيقة حتى عنقه ، بحيث « أن البيت والورشة وكل شىء نملكه يمكن أن يباع ونجد أنفسنا مشردين فى الطريق » .

فلم تكد بولى تسمع هذه الانباء المفزعة حتى نظرت حولها بذعر ، وكأنها تودع الغرفة الودود المألوفة ، بأرضها العارية النظيفة ، وموقدها ، وستائرها الموسلين ، وأثاثها الموجانو العتيق . كانت تحب البيت القديم الذى نشأت فيه حبا شديدا ، خاصة أفنيته وشرفاته الخشبية . وفى تلك الليلة ، لان حديث أبيها دار حول السفن ، حلمت أن البيت ، الذى يتألف فى الواقع من ثلاثة بيوت ، كان يغرق فى البحر ، وان الامواج أخذت تدخل من أبوابه .

فى صباح اليوم التالى كانت قد أوشكت أن تحزم أمرها على التضحية المطلوبة منها . قالت لنفسها :

ـ والله انا لا أريد ان يحملنى احد بوزر ما قد يحدث لنا ، ولا أريد أن ادع احدا يقول انى تخاذلت عن التضحية . نعم ليس من السهل على البنت منا أن تعطى نفسها لرجل لاتحبه ، خاصة متى كان شكله مثل شكل مستر كوكس . لكن الاسرة هى الاسرة ، والانانية خصلة سيئة . لايجب أن يفكر الناس فى أنفسهم فقط .

ظلت فى فراشها ، فأخذت تفكر فى البروش الذهبى الذى رأته فى بيت كوكس والذى كان قد بات لاينفصل فى ذهنها عن السمسار ثقيل الظل ، عندما أرادت الحصول على ذلك البروش أرادت ذلك لتبيعه وتحصل على الخمسة عشر جنيها استرلينيا التى كانت تحتاجها آنذاك على وجه السرعة . وهى الآن ليست بحاجة الى تلك النقود لكنها مازالت تود أن تحصل على ذلك البروش .

بعد الغداء ذهبت الى كوكس بخطاب من ابيها . تكلفت البرود والتباعد مع أبيها وهو يعطيها الخطاب . فقد انتهت الى ان أباها لم يكن معرضا للخراب كما قال ، وان كل ما فى الامر انه لا يطيق ماك ويريد أن يخلصها منه بأية طريقة . ولقد تكلفت نفس البرود مع كوكس ، ولم تكد تنظر الى البروش الذى كان لايزال ملقى على المكتب ، حتى أدركت أنها لاتزال واقعة تحت تأثيره .

أجلسها كوكس فى مقعد هزاز ، بعيدا عن المكتب ، وأعطاها عددا من الكتب مجلدة تجليدا أنيقا . لكنها لم تنظر الى تلك الكتب وهو جالس يقرأ الخطاب ، فهم واقفا ، وخرج من الغرفة . وعندما عاد كان وجهها ملتهبا .

ولم يكن التهاب وجنتيها لما رأته فى كتبه ، ولكن لانها كانت قد عقدت العزم على الحصول على ذلك البروش . قالت لنفسها :

ــ والله ان كان على استعداد لان يعطينى اياه حقا فان الامر لن يستغرق خمس دقائق . وربما اقل من ذلك . لانه لايمكن أن يعطى شيئا مقابل لاشىء ، بمثل هذه السحنة . والبروش يساوى ٢٠ جك على الاقل ، وسيكون شكله جميلا على ثوب مفتوح . طبعا لن أدعه يحصل على شىء أكثر من قبلة . أو ، على الاكثر ، يضع ذراعه حول خصرى . هذا ثمن غير باهظ فى سبيل الحصول على حلية كهذه . هناك فتيات فى مثل سنى يضطررن الى ماهو أسوأ ليحصلن على لقمة العيش أو ايجار المسكن . الحقيقة أن الرجال مجانين اذ يعطون بسخاء هكذا مقابل هذه الاشياء . لكنهم خلقوا هكذا !

وتنهدت ، وبطبيعة الحال اتقدت وجنتاها ، بحيث تصور السمسار عندما عاد الى الغرفة أنها رأت ما أرادهـا أن تراه فى تلك الكتب المؤذية ، وانها واقعة تحت تأثير مارأته . فعبر الغرفة بثبات ، وهو يلوح بالرد ، الذى كتبه على خطاب أبيها ، حتى يجف حبره ، وانحنى عليها . همت الفتاة واقفة عندما رأت وجهه .

كان قد اطمأن الى أن أخته ليست فى البيت . وضع الخطاب على

المكتب ، واستدار فجأة فعانق بولى . ولم تقاومه هـــذه الاخيرة بشدة ، وان كانت قد أحست بالاسف لكونها لم تحصل على البروش أولا وتطمئن عليه فى جيبها ، لكنها استسلمت على أى حال لان الرجل بدا كالمجنون من فرط مابه . ومع ذلك فانها لم تســـتمتع بالامر كثيرا ، لانها فى منتصف الطريق تذكرت ماك ، واحست انه حرى بألا يوافق على أى شىء من هذا كله .

وعندما انصرفت من بيت كوكس ، كان مداد رده قد جف . عادت الى البيت فوضعت الخطاب على مكتب أبيها ، ثم صعدت الى غرفتها حيث أخذت تحزم حقيبتها . وبعد نصف ساعه لا أكثر كانت قـد غادرت البيت من الباب الامامى ، فى غير خفية .

كانت قد سمعت أن ماكهيث يقضى معظم وقته مع امرأة أخرى هى تلك المرأة فانى كرايزلر التى تدير محل العاديات قرب جسر ووترلو .

سرعان ما اكتشف غياب بولى . فسهر الاب والام فى انتظارها الى مابعد منتصف الليل . وقف بيتشام الى النافذة كدأبه ، فأخذ يقول :

ـ اذن فقد جاء وأخذها رغم كل شىء . يظن أنه يستطيع أن يفعل ذلك بغير عقاب . طبعا . ان أمثاله لايعرفون معنى القانون . كلما أراد شيئا مد يده فأخذه ببساطة . ومتى أحس رغبة فى قضـــاء الليلة مع ابنتى جاء فأخذها من بيتى غير عابىء وذهب فقضى الليلة معها . بشرتها اللعينة هى السبب فى كل هذا . جعلته يجن بها . وانا الذى دفعت ثمن كل شىء . لكن ماحيلتى فى شهوانية أمها البليدة وبلاهتها هى التى عادت عليها من قراءة الروايات ؟ هذه هى النتيجة . ولكن ماهذا الذى أقوله ، كما لو كان الامر يتعلق بالحب حقا ! كما لو كان رجل مثل هذا يشتهى امرأة لشىء الا لبائنتها ! انه يريد أن يحصل على مالى ، فيأتى ويأخذه . وأنا الذى أفنيت عمـرى فى سبيلها . ما الذى يجعلنى أقضى العمر كله مع حثالة الانسانية ؟ هذا الرجل ماكهيث أشبه بحيوان القرش ! وأنا اذا تنازلت له عن ابنتى الوحيدة التى هى عضدى فى شيخوختى وسندى الوحيد ، سيسقط البيت كله على رأسى . والجوع يتهددنى . والخراب أيضا ..

لكن بولى لم تعد ، لا تلك الليلة ، ولا بعدها ، الى أن ألقى القبض على زوجها .

وفى الوقت ذاته لم يكتشف مستر بيتشام أن ابنته ، بدلا من أن

تثير شهية السمسار ، كما أرادها أن تفعل ، ذهبت فأشبعتها .
طيلة الايام القليلة التى أعقبت ذهاب بولى ، أخذت مسز بيتشام تشرب الخمر أكثر من أى وقت مضى ، ودأبت على الذهاب الى العسكرى السابق فيوكومبى ، وهى فى تلك الحالة من السكر ، لتحدثه عن متاعبها .
لم يكن العسكرى الاعرج قد غفر لبولى سرقة كتابه ، حتى بعد أن استعاد الكتاب . فى بداية الامر احجم عن استرداده ، على سبيل الكبرياء . لكنه مالبث أن خسر معركته مع نفسه ، فاستسلم لرغبته التى لاتقاوم فى استعادة كتابه ، وصعد الى غرفة بولى ذات يوم ، ساعة الفداء ، فأخذه .
لكن حبل دراساته الهادئة فى دائرة المعارف مالبث أن انقطع بسبب الاشياء التى أخذت مسز بيتشام تحدثه عنها .
عندما أخبرته الام الملتاعة بأن ابنتها التعسة بولى قد ذهبت فتزوجت ذلك الرجل ماكهيث ، تذكر تلك الفترة السوداء من حياته ، عندما فقد ساقه ، وسرح ، وسرقت منه نقود التعويض . فاوته زوجة عسكرى آخر فى بيتها . صاحبته هذه كانت تدعى مارى سوير ، وتدير دكانا من دكاكين حرف « ب » . ولسوء الحظ لم يلزم العسكرى فيوكومبى الحذر ، فأفلتت منه بمسمع من مسز بيتشام ، بضع كلمات تشير الى هذا كله . فكان أن استدعاه مستر بيتشام فى المساء الى المكتب ، وكلفه بمهمة يقوم بها .
ففى الميناء كانت ثلاث سفن نخرة ، وعدد من العمال يطببون هياكلها المتآكلة دون جدوى . تلك التوابيت الثلاثة الخربة ، قبل أن تتحلل تماما وتغوص فى قاع البحر الى الابد ، كان متعينا أن تلعب دورا أخيرا رسمه لها ذهن ملتو فى رأس رجل اسمه كوكس . ذلك الدور سيتمخض عن احتلاب مبالغ جسيمة من المال من عدد من الجيوب ونقلها الى جيب مستر كوكس البارع . بين تلك الجيوب المهددة بالخراب العاجل الناجز جيب يتمثل فى منشأة كبرى لبيع الآلات الموسيقية النصف عمر فى شارع أولد أوك . ومن المتعين انقاذ هذه المنشأة من ذلك الخراب ، بأية طريقة ، وبأى ثمن .

قصة مقتل صاحبة الدكان

مارى سوير

فالقرش له أنياب فى وجهه
تستطيع أن تراها
أما ماكهيث فلديه بدل الانياب مدية
فى مكان لاتراه .

من شاطىء التيمز الطويل يسقط
انسان تبتلعه مياهه الخضراء فجأة
لم يقتله طاعون أو يأخذه وباء ، ولكن
زاره ماكهيث فانتهت أيامه .

سام ماير مازال مفقودا
وكم من رجل ثرى قد تم ترحيله
للعالم الآخر ، والى جيب ماكهيث انتقل ماله
ولا أحد يستطيع أن يثبت شيئا .

وعندما وجدوها ، جينى تاولر ،
والمدية مغمدة فى صدرها ،
كان ماكى العظيم على الرصيف يتمشى ،
لا يعلم من أمرها شيئا .

واين هو الفونس جليت ، الرجل الحوذى ؟
وهل سيرى ضوء النهار ثانية ؟
لعل هناك قلة من الناس تعرف ...
لكن ماكى لا يعلم من أمره شيئا .

سبعة أطفال ورجل عجوز
احترقوا أحياء فى حى سوهو ...
ووسط الحشد يقف ماكى ليتفرج
لايسأله أحد ، ولا يعلم هو من الامر شيئا .

فالقرش تصطبغ زعانفه بلون قرمزى
عندما يسيل دم ضحيته ، ويحمر خطمه ،
لكن ماكى العظيم لايخلع قفازه أبدا
فلا يستطيع أحد أن يرى الدم على يديه .

(جرائم ماكى السكين)

(٧)

مستر ماكهيث

لو سألت أحد اللندنيين ـ خاصة من انطبق عليه وصف « رجل الشارع » منهم ـ رأيه فى خطورة الدور الذى يلعبه فى حياة العاصمة مشاهير الرجال من أمثال « جاك السفاح » ، أو ذلك القاتل المجهول الذى اشتهر باسم « السكين » ـ لبراعته فى استخدام المدية ـ لقال لك اللندنى أن دور هؤلاء السادة ، رغم الصيت الذائع ، ليس خطيرا ، من منهم يستطيع أن يطمع ، بمجهوداته الفردية المحدودة ، فى منافسة الجنرالات الكبار الذين يديرون دفة الحرب فى الترنسفال ؟ فوق أن هؤلاء الاواخر يمثلون تهديدا أعظم لأعداد من الناس اكبر ، بما لايمكن أن يقاس اليه جهد أشد ابطال السكاكين الفرديين نشاطا واستماتة فى أداء الواجب . ومع ذلك كله ، فان شهرة السفاح ، المعروف باسم « السكين » ، أطفأت بريق كثيرين من أولئك الجنرالات الذين يخوضون بجيوشهم حرب البوير ، لدى الاهالى ، فى أحياء شعبية كحى لايمهاوس وحى وايتشابل . ولا غرو ، فأولئك الناس المكدسون فى مساكن وايتشابل الشعبية بضخامتها الحجرية التى تعطى ايحاء بالكهوف ، خير من يدرك الفرق بين انجازات أولئك الجنرالات المرفهين وانجازات أبطالهم المحليين . بطل مثل ماكى السكين مثلا ، كانوا يدركون بجلاء أنه ينفذ جرائمه ـ التى يخططها ببراعة ـ معرضا نفسه لمخاطر شخصية أعظم من اى خطر يمكن أن يتعرض له أى جنرال من أولئك الابطال الرسميين الذين تكرسهم الكتب والصحف والمجلات .

فلايمهاوس ووايتشابل يتفردان بتاريخهما الخاص وبمنهجهما فى تلقينه . ذلك التلقين يبدأ منذ الطفولة المبكرة ويقوم به أناس فى مختلف الاعمار . لكن أفضل أولئك المعلمين جميعا الاطفال أنفسهم ، لانهم ـ بفضول الطفولة الذى لايشبع ، وقدرتها على الاستيعاب ـ يلمون بكل كبيرة وصغيرة عن الاسر المحلية الحاكمة ، فى مختلف مجالات الحياة ، فى أحيائهم .

بين الدروس الاولى ، المتعلقة بتكنيك البقاء ، التى يتعلمها اهل تلك الاحياء منذ الصغر ، أن السادة الحاكمين ـ فى أحيائهم ـ يعرفون

جيدا ، مثل قرنائهم من السادة الحاكمين الرسميين الذين تظهر صورهم في الكتب المدرسية – كيف يعاقبون رعاياهم الذين يرفضون أن يدينوا بالولاء الكافي وأن يؤدوا ما يفرض عليهم آداؤه من جزية . وهم – كغيرهم من الناس – يتبعون فى ذلك كله تقنيننا غير مكتوب يحدد ماهو صواب وماهو خطأ ، مايمكن أن يفعل ومالاسبيل الى فعله ، لكن صفوفهم – بالضرورة – تضم عددا من الضعفاء أقل ، لأن البوليس دائما فى أعقابهم ، وهو مالايحدث للاخرين . ومن الطبيعي أنهم – مثل الاخرين تماما – يحاولون أن يظهروا على غير حقيقتهم ، فيزيفون التاريخ ويصنعون الاساطير فيلقنونها لرعاياهم .

ومن المعروف طبعا أنه فى كل زمان ومكان تظهر من بين ظلمات الكتل البشرية المغمورة شخصيات متفردة مسيطرة تندفع الى أعلى وتحلق فى السماك كالشهب . وتتفاوت تلك الشخصيات . فالعوائق والصعوبات التى قد بذلها البعض – ممن لايقلون موهبة – فى حقب بأكملها ، يكتسحها أولئك اكتساحا فيزيلونها من طريقهم فى أسابيع ، ببضع جرائم جريئة يرتكبونها من مبدأ الامر بثبات ومهارة الصانع الخبير المتمكن – فاذا بهم فوق القمة . لكن الرجل الذى أطلقت عليه أحياء لندن الفقيرة اسم « السكين » لم يكن ممن يحق لهم أن يدعوا لانفسهم مثل ذلك الصعود المبهر السريع . غير أنه حاول على اى حال أن يدعى ذلك ، بصرف النظر عن مدى أحقيته . وقد عاونه فى ذلك معاونوه المقربون ، أو أفراد عصابته ، فحاولوا ، ماوسعهم ، أن يتكتموا بداياته الوضيعة ، وفترة تلمذته ، التى لاتشرف ، فى عالم الجريمة .

ورغم أنه لم يكن من المؤكد أن الرجل الذى كون العصابة كان هو « السكين » فعلا ، فانه أصر ، بالحاح شديد ، أمام أعوانه ، أنه القاتل ستانفورد سيلز بلحمه وعظمه ، وكانت تلك هى الطريقة الوحيدة التى توصل بها الى الابقاء على تماسك عصابته . رغم أن الرجل الذى أعدم فى سجن دارتمور ، عام ١٨٩٥ ، قيل عنه – على لسان البوليس لا على لسانه هو – أنه ستانفورد سيلز الحقيقى .

كانت الاعمال العظيمة التى قامت عليها شهرة « السكين » سلسلة من جرائم القتل ، تتابعت بسرعة ، واحدة وراء الاخرى ، ارتكبت كلها فى عرض الطريق . تلك الجرائم هى التى دفع الرجل الذى اعدم فى دارتمور حياته ثمنا لها .. لكنه من المعروف ان الناس يرفضون أن يصدقوا موت ابطالهم الشعبيين ، تشهد بذلك فى الازمنة

الحديثة حالات عديدة كحالة كتشنر وكروجر . وهكذا فان عددا من جرائم القتل التى ارتكبت فى شتاء عام ١٨٩٥ نسبت على الفور الى البطل الشعبى الذى اشتهر باسم « السكين » ، رغم كل استحالة عملية . فلا الرجل المشنوق الراقد فى جبانة سجن دارتمور ، ولا ذلك الآخر الذى اتخذ لنفسه اسم شهرته كانا بقادرين على ارتكاب تلك الجرائم .

لكن ذلك لاينتقص من قدر الاخير ، لان القسوة ،وانعدام الرحمة، والمكر التى استخدمها فى ارغام غيره من المجرمين على التنازل له عما يستحقونه من شهرة بسبب جرائمهم ، كانت اشد فظاعة من معاملتهم لضحاياهم ، وليس هناك مايفوقها صفاقة الا الطريقة التى يضع بها بعض أساتذة الجامعات أسماءهم على مؤلفات مساعديهم .

من المحتمل أن تكون تلك الجرائم قد ارتكبت بدافع الجوع ، لان ذلك الشتاء كان قاسيا ، والبطالة كانت عظيمة . لكن هذا الرجل الذى اتخذ لنفسه اسم « السكين » بغية تنظيم عصابته ، كان يعانى من ضعف شائع بين أولئك الذين يتحركون فى أوساط مألوفة لدينا - نحن الذين نشترى الكتب - أكثر من غيرها . فهومثل الناجحين من رجال الصناعة والمال ، والمؤلفين ، والعلماء ، والسياسيين ،ألخ ،كان مولعا بقراءة أنباء جرائمه فى الصحف ، بشرط ألا يتصور أحد أنه يرتكبها بأى دافع مادى ، أو بغية الكسب ، بل كرياضة تشبع عنده شهوة خلاقة ، أو - على الاقل - يدفعه اليها حافز شيطانى لا تفسير له .

وهكذا فان المقالات فى الصحف الصفراء كثرت واجمعت على تعزيز الطابع الرياضى كعنصر أساسى فى جرائم « السكين » .

ومن المحتمل أيضا أن هذا الشيطان ، شأنه فى ذلك شأن أصحابنا المشاهير الآخرين ، كان مولعا، فوق ولعه بمتابعة أخبارهفى الصحف ، بمتابعة أرقام حساباته فى البنوك . وأيا كانت الحال ، فانه سرعان مافطن الى أن الانسان عندما يستغل غيره يحصل على أعظم الربح وأسهله ، وهى حقيقة كافية بذاتها ، متى فطن اليها المرء ، لضمان مستقبل ناجح مزدهر .

فى مبدأ الامر كانت العصابة صغيرة ونشاطاتها محدودةومتواضعة . وفجة . فقد ظلت ترتكب جرائم السرقة بالاكراه ، وجرائم السطو المسلح المتسم بالوحشية ، وان كان ذلك النوع الاخير من الجرائم أقل حدوثا - فى سجل العصابة - من سابقه . لكن البراعة الحقة

ظهرت مبكرة فى بعض الوسائل التى اتبعت فى تصريف البضـــائع المسروقة ، أو ، بالاحرى الاسلاب والغنائم · وقد ملأت أنباء احدى تلك الوسائل صحافة العالم أجمع ·

فذات يوم دخل سيدان يتصفان ببنية قوية قاعة الطعام فى احد المطاعم الانيقة بهامبستد . وقفا لحظات يجيلان البصر فى الغرفة ثم تقدما فى حزم من سيد أنيق الملبس كان جالسا يأكل بمفرده ، فقال احدهما بصوت مرتفع سمعه كل من فى المطعم :

ـ هاهوذا ! جالس يتفق نقودى ! اسمى كوبر واسمه هوك · هاك يا سيدى المحضر · هذا أمر البيع وهذا هو الحجز · والحكم مشمول بالنفاذ المعجل · هذا الخاتم الذى فى اصبعه يساوى مائتى جنيه على الاقل ، والعربة التى تنتظره فى الخارج تساوى مبلغا لايستهان به . سترى عندما نبيعها فى المزاد !

وفى هذه المرحلة من الاجراءات اضطر الندل ـ كما هى العادة ـ الى كف السيد المدين عن مهاجمة دائنيه عديمى الكياســـة ، فما لبث المدين أن هدأ ، وأعلن أنه لاينكر دينــه ، لكنه معترض على الطريقة الفظة التى يحاول بها هذان السيدان الاستيلاء على مقتنياته · وانتهى المشهد بخروج الرجال الثلاثة مع بعض رواد المطعم ، الذين اجتذبتهم الضجة . لمعاينة العربة · تم المزاد بسرعة فى حانة مجاورة فانتقلت ملكية العربة ، والخاتم ، الى مشتر اعتبر نفسه مجدود الحظ حقا ·

وفى أعقاب المزاد اختفى المدين ، والدائن والمحضر ،معا ، حاملين الى « السكين » غنيمتهم · وبهذه الطريقة المبتكرة التى تكررت اكثر من مرة كان يحصل من بيـع العربات والمجـــوهرات المسروقة على أضعاف الثمن الذى كان حريا بأن يحصل عليه لـو قام بتصريفها بالطرق التقليدية ، عن طريق تاجر من تجار المسروقات ·

تلك كانت طريقة · لكنها ـ بطبيعتها ـ لم تكن تحتمل التكرار الى مالا نهاية · لذلك كان من المتعين ابتكار غيرها ، للتخلص من تاجر البضائع المسروقة · فذلك الصنف من التجار هو السرطان الحقيقى لمهنة السرقة · لان عملية الحصـــول على البضاعة نفســها لم تكن بالصعوبة التى تواجه تصريفها · لذلك ظلت عملية تحويل الغنيمة الى مال سائل هى أضعف حلقة فى العملية كلها · وعلى صخرة هـــذه العقبة الكئود تحطمت كل المحاولات المخلصة التى بذلت لتوسـيع نشاط العصابة ·

فى اخريات عام ٩٦ اختفى « السكين » اختفاء يكاد يكون تاما عن أنظار العالم السفلى ، وفى نفس الوقت تقريبا ظهر رجل مســـالم

يدعى جيمى بيكيت افتتح دكانا فى حى سوهو لبيع البلاط ، ثم مالبث أن الحق بدكانه شادر اخشاب صغير فى قطعه أرض فضاء مجاورة .
وقد انحصر نشاط مستر بيكيت فى مبدا الامر فى تتبع أخبار البيوت القديمة الموشكة على أن تهدم ، ليشترى من أنقاضها البلاط والاخشاب ، مع حرص بالغ وتدقيق فى الحصول على الفواتير .
ويبدو أن مستر بيكيت كان على حق فى حرصه ، لأن وباء حقيقيا مالبث أن انتشر فى وايتشابل ، انحصر فى سرقة البلاط لا من أنقاض البيوت ، بل من شوادر التجار . أسطول صغير منظم من العربات ظهر فجأة ، وأخذ ينقل كميات من ذلك البلاط الى جهة غير معلومة ، بينما عمال الشوادر فى الحانات ساعة الغداء ، فى وضح النهار .
ولم يفكر أحد بطبيعة الحال أن فى الامر سطوا ، فلم يحاول أحد ان يعترض طريق اللصوص . وعندما اكتشفت السرقات امكن تتبع البضائع الى دكانة السيد بيكيت . لكن السيد بيكيت استطاع أن يخرس البوليس بفواتير لا مطعن فيها تثبت ملكيته القانونية لكل بلاطة وجدت عنده .
لكن الامر لم يتوقف عند ذلك الحد . فقد سرق شارع بأكمله فى حى الميناء ، عيانا جهارا تحت أبصار المئات . كان ذلك الشارع مرصوفا بكتل خشبية . وقرب المساء ، بينما حركة المرور على أشدها ، ظهر عدد من عمال البلدية ومعهم عربة فأقفلوا الشارع بالحواجز فى أوله وآخره ، وبمنتهى الهدوء انتزعوا الكتل الخشبية فحملوها على عربتهم ، ورفعوا حواجزهم ، وذهبوا الى حال سبيلهم .
ولم ينشر أى شىء عن تلك الفضيحة فى الصحف لان المجلس البلدى كان غارقا حتى أذنيه فى ذلك الوقت فى تحقيق طويل عريض حول شركة من الشركات الكبيرة استطاعت ـ بطريقة قانونية للغاية ـ أن تضع يدها على عدد من الشوارع كان قد تم رصفها بمعرفة عدد من الشركات الصغيرة ، وادعت أنها هى التى رصفتها ، ثم طالبت البلدية بالسداد ، وكان للشركة ما أرادت ، رغم أنها لم تمد الى تلك الشوارع يدا . ولذلك فان السلطات تكتمت أخبار ذلك السطو الجرىء حتى لايأخذ الناس كدأبهم فى عقد المقارنات بين هذه الحكاية وتلك .
ومن محاسن الصدف ان انتشر وباء من القتل فى تلك الآونة . فنسبت تلك الجرائم جميعها الى عصابة « السكين » . مما زاد من قدر العصابة كثيرا . ولو ان تلك الجرائم لم تكد تحظى الا بأقل اهتمام

من الصحف ، لان ضحاياها كانوا جميعا من احط طبقات الانسانية . فمعظم الضحايا كانوا من المجرمين الذين قتلوا فى مشاجرات دموية منظمة ومدبرة سلفا .

الحقيقة أن شكوكا لها ما يبررها ثارت حول نسبة هذه الجرائم الى العصابة . وفى تلك الآونة ذاتها ، كفت العصابة عن سرقة البلاط والشوارع ، ووجهت نشـــــاطها الى السرقة على نطاق واسع من المحلات التجارية .

كانت العصابة قد أصبحت تضم ــ فى عام ١٨٩٧ ــ أكثر من مائة وعشرين عضوا ، وقد تم تنظيمها بحرص وعناية ، بحيث لم يكن هناك أكثر من عضوين أو ثلاثة يعرفون « الزعيم » بالنظر . وقد ضمت المنظمة بين صـفوفها تخصصات عديدة شـملت عددا من المهربين ، وتجار المسروقات ، والمحامين . والغريب أن « السكين » (أو الرجل الذى اتخذ لنفسه ذلك الاسم) كان لصا لايقام له وزن فى عالم اللصوص ، وكان هو أول من يعترف بذلك . لكنه كان منظما عظيما . والكل يعرف أن أكاليل الغار توضع كلهـــــا فوق رءوس المنظمين ، فى هذا العصر ، اذ يبدو أنهم لا غنى لاحد عنهم .

والواقع أن عصابة السكين نجحت ، فى وقت قصير لايصدق ، فى فرض سيطرتها الكاملة على كل ماله صلة بالسـطو على المحـــلات التجارية ، الى حد أن بات من الخطر المتزايد أن يقحم أى لص يعمل لحسابه الخاص نفسه على ذلك المجال من نشاطات العالم السفلى . بل ولم تجد العصابة أى مأخذ فى ادخال البوليس شريكا معها ، علنا. فالكل كان يعلم أن لمستر بيكيت أصدقاء أقوياء فى سكوتلانديارد .

ومن تلك المشاركة الخلاقة ، استنبطت العصابة وسيلة فعـالة لتقوية نظامها الداخلى والضرب على أيدى المنحرفين من افرادها . فأى عضو من اعضائها يخرج عن الحدود المرسومة له أو يفشل فى القيام بما كلف به ، سرعان مايجـد البوليس فى أعقابه ، ثم يقـدم للمحاكمة ويحكم عليه بعد أن يقدم البوليس أدلة دامغة ضده تزود العصابة بها أعوان بيكيت من رجال سكوتلانديارد . بل وذهب الامر الى أبعد من ذلك ، فلم يكد يهل عام ٩٨ حتى كان كل أعضاء العصابة من قدامى المؤسسين الذين يعرفون زعيمها معرفة وثيقة قد باتوا كلهم ــ أو كادوا ــ وراء قضبان السجون ، محكوما عليهم ، بمـدد طويلة .

وذات يوم باع مستر بيكيت أعماله لشخص يدعى مستر ماكهيث

كان قد افتتح لتوه سلسلة من الدكاكين فى حى المال والاعمال ، أطلق عليها اسم دكاكين حرف « ب » ، وأعلن عن رغبتــه فى تزويدها بكميات كبيرة من البضائع رخيصة الثمن ، خدمة للجمهور . وهكذا فان جيمى بيكيت تاجر الاخشاب اختفى من انجلترا ــ ويقال أنه ذهب الى كندا . ولم يكد مستر بيكيت يختفى حتى ظهر مكانه فى العالم السفلى شخص اسمه أوهارا ، وهو شاب ايرلندى موهوب للغاية ، أصبح الرئيس الرسمى المعترف به للمنظمة التى أنشــأها بيكيت قبل اختفائه .

ويبدو أن مستر بيكيت كان قد أوصى بمستر أوهارا لدى مستر ماكهيث ، لان هذا الاخير فتح صدره تماما لاوهارا ، وبدأ يتسلم منه شحنات ضخمة من البضائع لبيعها فى محلات حرف « ب » . خلاصة القول أن المنظمة توصلت ــ بهذه الطريقة اللولبية ــ الى القضاء على مشكلة تجار المسروقات . وفوق ذلك وجدت المنظمة عميلا مستديما ، وازدهرت أعمالها بدرجة مذهلة .

وبتلك الطريقة توصل مستر ماكهيث الى أن يجعل اسعار البضائع التى تبيعها دكاكينه حرف « ب » رخيصة بدرجة غير معقولة . لكنه عانى من مشكلة واحدة ، هى أنه لم يكن مستطيعا أن يتنبأ فى أى وقت بنوع البضائع التى ستتسلمها دكاكينه فى الشحنة المقبلة . لكن ذكاء الرجل مالبث أن هداه الى انه من الحكمة أن يتم التركيز على سلع بعينها يمكن تغيير شكلها الخارجى الى حد ما بمعرفة أصحاب دكاكين حرف « ب » قبــل عرضها للبيع ــ منعا للحرج ــ وهكذا تحولت الدكاكين من مجرد مراكز للتسويق الرخيص ، الى مراكز لاعادة التصنيع والبيع .

لكن ذلك التطور استتبع مطلبا جديدا : الحصول على رأســمال للمشروع . فالتوسعات المزمعة فى نشاطات العصابة فى السطو على المحلات والمخازن تطلبت تمويلا لم يكن فى طاقة ماكهيث القيام به . وهكذا وصل مشروعه الى المأزق الخطر الذى يخشاه كل رجل أعمال .

فالتوسع ، أن بدأ بمنظمة التوريد ، سيغرق الدكاكين بطوفان من البضائع تعجز ــ بعددها الحالى ــ عن تصريفه ، وان بدأ بالدكاكين ، فانه سيتطلب طوفانا من البضائع تعجز منظمة التوريد ــ بحجمها الحالى ــ عن تزويد الدكاكين به . وهكذا فانه من المتحتم أن يشمل التوسع كلتا المنظمتين فى وقت معا ، فى نفس اللحظة التى يتم فيها مشروع الزيادة فى العرض والطلب .

كانت فى السوق سلاسل أخرى من الدكاكين ـ وكلها مشروعات كبيرة ناجحة ذات اتصالات بنكية جيدة ، والمنافسة مستعرة فيما بينها . فما بالنا بسلسلة حرف « ب » الهزيلة نسبيا اذ تنزل الحلبة فى وجه هذه المشروعات العملاقة ؟ بدا واضحا أن مجموعة حرف « ب » فى حاجة الى تمويل أضخم من أن تهيئه أمكانيات ماكهيث ، أن كان لها أن تخوض تلك المعركة بنجاح .
كان ذلك هوالموقف عندما تزوج مسترماكهيث الفتاةبولى بيتشام.

***

فى أصيل يوم من ايام الصيف ، ذهب مستر ماكهيث فى عربة هانسوم قديمة الى احدى ضواحى لندن الغربية ، حيث يقيم مستر ميللر ، مدير بنك الائتمان الاهلى .

كان مرتديا حلة رمادية فاتحة ، والطريق الذى تقطعه العربة حافل بالمشاهد المسلية . لكنه لم يكن سعيدا . فزيجته التى بدت واعدة بالكثير فى مبدأ الامر ، تكشفت عن خيبة أمل مرة .

نعم كانت زوجة أحلى من أى زوجة أخرى ممن سبقنها . بل وكان ـ بطريقته الخاصة ـ مغرما بها . لكنه لم يكن فتى فى العشرين تملأ الاحلام رأسه ، ولم يكن فى تكوينه أدنى شعور يمكن أن يوصف بالرومانسية . ولذا فانه وجد نفسه مضطرا ـ بشكل متزايد ـ أن يكف نفسه عن الشعور بالمرارة فى شأن بولى والاحساس بأنه قد « انضحك على ذقنه » .

استقبله مستر ميللر على درج بيته الصغير ، ووقفت وراءه زوجته ، سيدة ثرثارة لطيفة المعشر ، تخطت الخمسين ، اخذت فى معاملة ماكهيث لفورها كما لو كان ابنا لها . تناولوا الشاى واخذ ميللر يتغنى بالزمن الخالى ، ويسرد بعض أحداث من تاريخ بنك الائتمان الاهلى المجيد .

أصغى ماكهيث لثرثرة مدير البنك بنصف ذهن ، وهو يرشف الشاى بصوت منفر ، وبنصف ذهنه الاخر يقلب الامور على وجوهها . أحس من حديث مضيفه أن البنك مازال قليل الثقة بأفكاره وأساليبه ، وأن حكايات ميللر كلها وذكرياته عن جهابذة أصحاب البنوك قصد منها تلقينه درسا فى كيف يكون الحذق فى دنيا المال والاعمال . وهكذا فانه اجتهد ، عندما قال ميللر كل ماعنده ، فى عرض بعض خططه ومشروعاته على وجهها الصحيح .

لكنه قبل أن يأخذ فى ذلك أخرج من جيب سترته الداخلى

قصاصتى صحف مطويتين تتضمنان مقالين كتبهما عن نظرية دكاكين حرف « ب » ، واستقلال المساهم الصغير ، وما الى ذلك من الامور ، وقد احيطت كل مقالة باطار رسمه بالقلم الاحمر، زيادة فى التأكيد. غير أنه تبين أن ميللر كان قد قراهمـــا من قبل وألم بكل ما جاء فيهما من آراء .

بعد ذلك أخرج ماكهيث من جيب سترته الداخلى سيجارا قضم طرفه بأسنانه ثم ألقى ماقضمه باصبعين سمينتين ، خارجا على أرض الممر المرصوف بالحصباء ، واشعل سيجاره بحفلطة فائقة . ثم قال ان لديه بعض أفكار أخرى لم تنشر فى الصحف بعد .

أوضح لمضيفه ان نشاطه الاساسى ينصب حاليا على دراسة الزبائن.

قال أن الزبون يبدو لصاحب الدكان دائما فى صـــورة شخص مذبذب لايستقر على رأى ، بخيل شديد التقتير ، عديم الثقـــة بالناس ، ومملوء شرا ونوايا خبيثة . أى ، باختصار ، يبدو عدائيا للغاية . فهو لايرى فى البائع صديقه وناصـــحه الذى لاهم له الا خدمته ، بل مخلوقا شريرا سيىء النوايا يستميت فى غشـــــه وخديعته وتجريده من نقوده . ونتيجة لذلك الموقف العدائى فان البائع يتردد ، بسبب تجربته المرة ، فى أن يأمل أى أمل حقيقى فى كسب المشترى الى صفه ، واقامة اتصال شخصى معه ، وتحسينه، أى باختصار تحويله الى مشتر جيد من الطـــراز الاول . ولذلك فانه يضع بضائعه باستسلام تحت انظار الزبون ، واضعا كل أمله فى الحاجة العمياء التى ترغم المشترى ، بين الحين والحين ، على أن يشترى شيئا والسلام .

لكن المشترى فى حقيقة الامر مظلوم تماما ، وضحية سوء فهم فاحش من جانب من يرى فيه هذا الرأى . فهو فى أعمـــاقه (١) الدفينة أفضل بكثير مما يبدو فى ظاهره . وكل مافى الامر أن بعض الخبرات المحزنة فى محيط العمل أو الاسرة تجعله متشككا ، سيىء الظن ، لايبوح بذات نفسه الى أحد . لكنه فى دخيلة نفسه يظل يأمل أن يتعرف عليه أحد ويكتشفه على حقيقته فيدرك أنه مشـــــترى محتمل أو طاقة شرائية كامنة تنتظر من يستثيرها . لانه يريد أن

---

(١) الواقع ان برخت ـ فى معـــرض سخريته هذه بما يعرف باسم عـــلاقات العملاء ـ يعرض «Customer Relqtions» على لسان ماكهيث منهجا كاملا من مناهج تطبيق العلوم الاجتماعية فى مجـــــال التسويق يعرف حاليا باسم اســـلوب العمق «Depth approach» ويقوم على بحوث الدوافع «Research» Jativational

يشترى . وما أكثر حاجاته . فوق أنه متى أحس أنه لم يعـد يحتاج الى شيء ركبته التعاسة . ولذلك فانه فى حاجة دائما الى من يقنعه بأنه فى حاجة الى شيء ما ، ليكون سعيدا ! وهو فوق هـذا وذاك كله لايعرف عن حاجاته وعن نفسه الا اقل القليل .

استطرد ماكهيث قائلا وهو يحدث ايقاعا رتيبا بملعقة الشاى على سطح المنضـدة :

ـ ولكى يكون المرء بائعا بحق ، يجب أن يكون معلما . فما البيع الا محاربة جهل الجمهور ، جهله الفاحش . ما أقـل من يدركون فظاعة الحياة التى يحيونها ! انهم ينامون على أسرة غير مريحة تقصم ظهورهم وتزيق الليل طوله ، ويجلسون نهارا على مقـاعد قبيحة تشوه أجسامهم ، فلا يفطنون الى ذلك الا عندما يرون سريرا أو مقعدا جديدا ، وحتى اذ ذاك يكون احساسهم مبهما . فالمرء مضطر أن يخبرهم ـ كالاطفال تماما ـ انهم بحاجة الى هـذا أو ذاك من الاشياء ، وانهم يجب أن يشتروا ماهم فى حاجة اليه ، لا مايتصورون انه يجب أن يكون فى حوزتهم والسلام . ولكى ينجح المرء فى ذلك يجب أن يكون صـديقا لهم . مهما كانت الظروف يجب ان يكون ودودا معهم ، ومجاملا ، وخدوما . نعم ان ذلك الشـخص الذى يدخل ويخرج دون أن يشترى شيئا يبدو للبائع مخلوقا بغيضـا جديرا بكل احتقار . يقول المرء فى نفسه : « البخيل ابن الـ ..! » ويمتلىء ـ بغير ارادة منه ـ احتقارا له وتقززا منـه . لكن المرء متى كان بائعا لايجب أن يحس أو يفكر هكذا أبدا . يجب أن يظـل المرء ودودا ومجاملا حتى ولو كسر الزبون قلبه .

عندما انتهى ماكهيث من خطبته القصيرة كان قد بلغ درجة من الاهتياج لم يفطن اليها . فقد كانت تلك مشكلة تحـز فى نفسـه دائما فيما يتعلق بدكاكينه . لم يكن أصـحاب الدكاكين ودودين بما فيه الكفاية . ولقد اضطر فعلا أن يفرض عليهم رقابة مستمرة من جانب « مندوبى مشـترياته » ، ووقـع جزاءات على من ثبت أنهم يسيئون معاملة الزبائن منهم . لكن ذلك كله لم يجـده كثيرا . لان الامر كانت له سيكولوجية معقدة . فحكاية الرقابة على البـائعين هذه ومعاقبتهم عندما يسيئون الى الزبائن قد تجدى فى المحـلات الكبيرة ، لان المستخدمين لكى يظلوا ـ رغم كل شيء ـ باسمى الوجوه ، يجب أن يحسوا بالسوط على ظهورهم فى كل لحظة . أما صـاحب المحل الصغير فانه يحمل همومه معه طـوال النهار ، ولا يجـد من

يسوطه طيلة الوقت ليبعده عنها • فلا يكاد المشترى يطيل فى تقليب البضائع واختيار ما يريد حتى يبدأ صاحب المحل فى تذكر الايجار الذى لم يدفعه • أما اذا خرج المشترى دون أن يشترى شيئا فتلك تكون الطامة الكبرى • تنقلب سحنة صاحب الدكان كما لو كان يوم القيامة قد أزف • ومن الطبيعى جدا أن يرى المشترى كل ذلك ويحسه • ومن الطبيعى أيضا أن يضيق بالاحساس الذى يشيعه ذلك فى نفسه بمسئوليته عن شقاء صاحب الدكان وربما عن جوع عياله • وهكذا فانه يستشيط غضبا كلما جعله صاحب الدكان ، بسحنته المقلوبة ، يحس بأنه قد طعنه طعنة الموت . فالمرء يجب أن يتعلم كيف يبتسم حتى والموت فى قلبه ! قال ماكهيث فى دخيلة نفسه سأعلمهم كيف يتظاهرون بالسعادة حتى لو اضطررت الى تأديبهم بلدغات العقارب. ثم جفف العرق الذى تفصد على جبينه بمنديل كبير الحجم •

بعد ذلك أخذ يفيض فى شرح عدد من الوسائل التى يمكن باتباعها ايقاظ شهية الجمهور الخامدة وتنميتها . فقال ان شيئا من الهرجلة « التى تبدو » غير مقصودة فى عرض البضائع بحيث يختلط حابلها بنابلها يحدث المعجزات • لان تلك الهرجلة تتيح للعميل أن يقع على اكتشافات تفجأه وتسره • يلمح فى الفوضى البارعة شيئا يبدو نافعا ، فتنقلب نظراته الخامدة يقظة ، وينشط . وبينما هو يبحث عن شىء يعثر على آخر . وهكذا تكتشف عينه التى كعين الصقر قطعة صابون تحت كومة البضائع يدرك فجأة أنه فى أشد الحاجة اليها . حقيقة أن قطعة الصابون هذه لاتكون لها أدنى صلة بقماش المآزر الذى دخل الدكان أصلا ليبحث عنه ، ولكن هل يجعلها ذلك أقل نفعا ؟ أبدا . ولذا فانه يشتريها ، قطعة الصابون هذه ، دون أن يدرى متى سيحتاجها • وقد لا يجد القماش الذى جاء من اجله . لكنه قد اشترى شيئا ، واصبح عميلا للمحل .

وما من شك فى أن الاسعار عامل حاسم • اذا تباينت كثيرا فيما بينها أزعجت العميل وضايقته لانه يضطر أن يجمع ويطرح • وهو ما يجب أن يمنع من القيام به مهما كانت الظروف • ولذلك فان ماكهيث يريد أن يبتكر نظاما جديدا للبيع توحد فيه الاسعار قدر الاستطاعة بحيث تنحصر فى عدد قليل من الفئات المحددة • فلا شىء يستثير ثقة العميل بنفسه حتى يصبح مخمورا بها أكثر من المدى الواسع لكل البضائع المنوعة التى يمكنه ان يشتريها بمبلغ معين من المال •

ماذا ؟ هذه القطعة الضخمة من اثاث الحديقة لاتكلف الا هـــذا المبلغ فقط ؟ وعدة الحلاقة المعقدة هذه لا يزيد ثمنها على هذه الدراهم القليلة؟

جلس ميللر ينصت الى كل هذا ، محدجا ماكهيث بنظرة عجب طفيف من عينيه اللتين لاتفصحان عن شيء ، وقد انطلق هذا الاخير متحمسا يشرح له فكرة دكاكينه التى تبيع « برخص التراب » : تشكيلة صغيرة من البضائع لاتتعدى فئات الاثمان التى تباع بهـــا ثلاثا أو أربع فئات • ولا يضر أبدا أن تكون بعض السلع مما يقوم المشترون بتجميعه • فبالوسع مثلا شراء مقاعـــد للحـديقة تتألف من كرسى بحر ، ومسند للقدمين ، ومظلة صـــغيرة يقوم العميل بتجميعها بعد الشراء ، وذلك حتى يكون ثمنها معا أعلى من السعر الاعلى المحدد لاية سلعة فى اى دكان حرف « ب » ، ومع ذلك فان أثمانها متفرقة تندرج فعلا تحت الفئات الموحدة المعلن عنها •

وينبغى أن تستمر الدكاكين الصغيرة الملحق بهـــا ورش وتبيع الاحذية ، أو الملابس الداخلية ، أو الطباق ، على ماهى عليه ، فلا يسمح لها الا بائتمان محدود . لكن الدكاكين الكبيرة يجب أن تمول بحيث تتمكن من تخزين كميات كبيرة من البضائع قدر الامكان .

اختتم ماكهيث شرحه الحماسى لمشروع التوسع قائلا انه متى تم الاتفاق على قرض البنك ، سيقوم بافتتاح محلاته الكبيرة بأســبوع من الاوكازيونات تسبقه ضجة اعلانية لافتة للانظار •

هنا صرف مستر ميللر زوجته من الغرفة باشارة من رأسه . قامت المرأة فغادرت الغرفة بهدوء ، بينما جلس مستر ميللر يهز رأسه الاشيب مستغرقا فى التفكير ، ثم نظر الى زائره وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة التى يقول بها مايريد قوله .

فلما تكلم اخيرا سأله :

ــ ماموقف مستر بيتشام من زواجك بابنته ، هل هو موافـــق عليه ؟

فأجاب ماكهيث :

ــ ان قلبه ليس من حجر !

وهنا قال مستر ميللر دهشا :

ــ حقـــا ؟

رشف ماكهيث رشفة من فنجانه بصوت مسموع • لزم كلاهمـا الصمت لحظة . كان بعض الاطفال يتصايحون فى الطريق ، وصياحهم يحمل الى مسامع الرجلين سبابا ينصب على شيء ما .

استطرد ميللر قائلا :

ـ عال . مادام الامر كذلك سيكون كل شيء غاية في البساطة . انت تدرك طبعا أننا نحب أن يكون حموك معنا في هذه الصفقة . لا لشيء الا لتخرس الالسنة التي سيتساءل أصحابها دون شك عن السبب في عدم اشتراك حميك في هذه العملية معك . ولا تنس أنه يجب أن يكون أكثر الناس فهما وتقديرا لفكرتك هذه ، لان صلات القربى تجمع بينكما . عندما تشرفنا بالزيارة في المرة القادمة ، دع مستر بينتشام يأت معك ، وسوف نسوى كل شيء في خمس دقائق لا أكثر يامستر ماكهيث .

وهنا سأله ماك بغلظة مفاجئة :

ـ واذا لم يكن مما يوافقني أن أطلب من الرجل أن يسدى الى معروفا ؟

ـ لاتثر ياماكهيث . ليس هناك أدنى سبب لذلك . يجب عليك ان تدرك أننا مضطرون الى أن نلزم الحذر . فالبنك ليس ملكا لنا ، بل لتلك الفتاة الصغيرة توك . وهي طفلة اخاذة حقا . حرام ان نسيء اليها . نعم انت تمتلك هذه الدكاكين . لكن فكرتك هي التي تهمنا حقا . فأهمية الدكاكين ثانوية للغاية . لانها بسيطة على ما أظن . أما النقطة الرئيسية ففكرتك الرائعة عن الاثمان الموحدة ، والاوكازيونات ، والاستغلال المربح لاستقلال المالك الصغير .

انصرف ماكهيث بعد ذلك على عجل .

***

قطع جزءا من الطريق سيرا على قدميه . كان الظلام قد حل . أخذ يطوح عصاه الغليظة وكأنه يريد أن يهشم بها رأس أحد ، غير قادر أن يكف نفسه عن طعن أسيجة الخضرة بها وهو يمر بالحدائق الامامية الصغيرة في بيوت الضاحية . كان مزاجه منحرفا للغاية ، ويود لو فثأ غيظه في أحد .

في أصيل اليوم السابق كان قد قابل بولي . لكن لقاءهما لم يزد عن نزهة بريئة في الحديقة . وبعد ساعتين من السير الذي لا طائل من ورائه عادت الى « البيت » ، دون أن يجرؤ على منعها .

أي شيء جعله يتزوج ؟

في اليوم التالي كان له لقاء آخر بميللر وهوثورن ، في البنك . لكن شيئا في الموقف لم يتغير . فلم يتفقوا ثلاثتهم على شيء اكثر من تحديد موعد للقاء قادم .

بذل ماكهيت جهدا خارقا في اقناع العجوزين بمزايا أفكاره ، وعملا على التأثير فيهما ، شرح لهما بحماس فائق الاثر المدمر الذي يمكن ان يكون لتلك الافكار - متى وضعت موضع التنفيذ بمساعدة أموال مصرفهما - على المشروعات الاخرى المنافسة .
وقد أصغى له الرجلان بانتباه تام ، وبدا واضحا أنهما يقدران افكاره حق قدرها . لكنهما في النهاية قالا له آه . هذا كله جميل . غير أنه من قبيل القصور التي تبنى في الهواء» وقالا أيضا انه يجب أن
والاسوأ من ذلك أن ماكهيث لم يستطع - طيلة هذه المفاوضات المطوطة المرهقة للاعصاب أن يتخلص من وسواس تسلط عليه بأن يستثير اهتمام حميه بالموضوع ، وانه اذا فعل ، فان كل شيء سيصبح على مايرام .
الامسية المشئومة التي قضاها في ضيافة ميللر وأطلق خلالها العنان للسانه هي التي جلبت كل ذلك البلاء على رأسه وعرقلت مشروعاته . الا تكون أفكاره أكثر تقدمية مما يستطيع هذان العجوزان المحنطان أن يسيغاه ؟ انتابه غضب عارم وهو يستعيد الترهات التي أرغمه ميللر على الاستماع اليها متصورا انه بذلك يثقفه ، ويكسبه خبرة ، ويضيء له سواء السبيل .
ولم يخطر له في غمار ذلك كله أنه ليس بمستبعد أن يكون ترددبنك الائتمان الاهلي ، وهو من البنوك العريقة المحترمة ، راجعا بالدرجة الاولى الى غموض ماضيه الذي لايعدله الا غموض مصادر بضائعه . ذلك الاحتمال وجهت نظره اليه فاني كرايزلر في مرحلة متاخـــرة من المشكلة .

وهكذا فانه لم يكن لديه - في مقابلته الثانية مع العجوزين - مايضيف جديدا الى ماسبق . وكل ماعاد به من ذلك اللقـاء انه تورط في اعتراف مؤداه أنه لم يتوصل الى « عقد صلح » من أي نوع مع مستر بيتشام . وللفور انقلبت سحنتا العجوزين وظهر عليهما الانزعاج بأجلى معانيه . نعم لم يلقيا به خارجا ، لكنهمـا سألاه ، بصفاقة ، وبلا مواربة ، عددا من الاسئلة المحرجة التي لا ذوق فيها .
والحقيقة أن عدوانية الرجلين كانت ناجمة عما أصـيبا به من خيبة أمل . فقد راقت لهما أفكار ماكهيث وتيقنا من ســـداد آرائه ، ومما يمكن أن تعود عليهما به التجـديدات التي يريد من مصرفهما تمويلها من أرباح دسمة . ولقـد كانا ، في واقع الامر ،

متلهفين على القاء شباكهما فى مياه جديدة •

ولذلك فان فشل مفاوضاتهما مع ماكهيث أعقبته مفاوضات ناجحة بينهما وبين سلسلة محلات كرستون ، سرعان ماترامت أنباؤها الى مسامع ماك •

فكانت الضربة أكثر من مؤلمة . لان تلك المحلات بالذات كانت النمط الذى دارت حوله احلامه الطموح : محلات ضخمة ، ذات مبان فخمة تفعل فعلها فى النفوس ، مواقعها ممتازة ، واقسامها المختلفة العديدة مكتظة بتشكيلات هائلة من البضائع . ولقد قام جانب من مشروعه على ارغام المنظمة التى تدير تلك المحلات على أن تجثو على ركبتيها . ولكنه بدلا من أن يحقق ذلك الحلم ، يسمع أن محلات كرستون قد شرعت ، فوق ما حصلت عليه من تمويل من بنك الائتمان الاهلى ، فى اجراء تجديدات مسروقة من افكاره بحرفيتها . وهاهى تعلن عن اسبوع من الاوكازيونات « سيجد فيه الجمهور مفاجآت سارة عديدة » • من الجلى أن هذه عملية سطو بالغة الخسة على افكاره • ومن الجلى أيضا أنه كان حمارا عندما أولى العجوزين ثقته وكشف لهما كل أوراقه . الحقيقة أنه كاد ينشق غيظا •

جلس امام فانى كرأيزلر ممتقع الوجه غيظا ، واخذ يرغى ويزبد:

ــ لماذا يحاول الجميع أن يسرقونى ؟ انا افعل كل ما استطيع لكى اصبح محترما . اكف عن العنف بكل اشكاله . اسير على الصراط المستقيم ، أو على مقربة منه • فاتنكر للماضى ، وارتدى باقة منشاة ، واستأجر بيتا من خمس حجرات ، وأتزوج زيجة كان ينبغى أن تكون مجزية . فما الذى يحدث لى فى هذا الوسط الرفيع ؟ يحدث انهم يسرقوننى ! هذا شىء لا يتصوره عقل ! الحقيقة اننا نحن المجرمين البسطاء لسنا أندادا لهؤلاء الناس يافانى • انهم يفوقوننا لصوصية• ففى خلال يومين لا أكثر يجردوننا من كل مدخراتنا التى جمعناها بعرق جبيننا وكأننا ننحتها من الصخر ، ولا يكتفون بذلك ، بل يجردوننا من المأوى والحذاء ايضا ، وكل شىء ، فنعود عراة حفاة مشردين . وكل ذلك يفعلونه بضمائر مستريحة ، دون أن يخرقوا قانونا واحدا ، بل وربما كانوا يغبطون أنفسهم الآن لكونهم قد أدوا واجبهم !

فالحقيقة أنه جرح فى الصميم لترديه فى الشراك الغادرة التى بثت فى طريقه ، وبدأ يشك فى قدراته ويفقد الثقة بنفسه •

ولذلك أخذ يهيم على وجهه فى لندن . فركب أكثر من عربة اوتوبيس تجرها الجياد ، جيئة وذهابا ، وقد غرق فى افكاره السوداء . ولقد احسن بذلك صنعا . لان ضجيج الناس وهم يصعدون وينزلون بعث شيئا من السكينة فى شعوره المضطرم ، وتتابع المشاهد من جيرة فقيرة الى جيرة غنية بعث شيئا من الطمأنينة فى نفسه . لكن ذلك كله لم يخلصه من الكآبة الشديدة التى ترسبت فى أعماقه بسبب افتقاره الى التعليم الى الحد الذى جعل فى مكنة بنك صغير كهذا وجماعة من اصحاب المحلات يضحكون عليه ويسرقونه فى وضح النهار . لو كان متعلما لما ضحكوا عليه . فلم يسترد توازنه الا بصعوبة فائقة .

والحقيقة ان ماك عاش فى تلك الآونة اياما من أسود أيام حياته.

يد صديق فى ساعة الضيق

فى تلك الايام اصبحت فانى كرايزلر سندا قويا ، وموئلا يجد فيه راحة لقلبه . كانت تقيم فى بيت صغير بلامبث ، مؤثث بأثاث قديم جميل ، وفيه غرفة اضافية .

دأب فى تلك الايام على قضاء جانب كبير من وقته فى دكان العاديات الذى تديره ، وفى المساء ، عندما لم يكن يبدى رغبة فى الذهاب الى داره ، كانت تصطحبه معها الى بيتها . كان لا يكف عن الشكوى من أنه لا يجد من يقدم اليه افطارا فى بيته .

وقد تمكنت فانى بلباقتها المعهودة من تجنب أية مصاعب مع جروتش الذى كان عشيقها الدائم . قالت له ببساطة ان عليه أن يبتعد عنها بضعة اسابيع .

لم تتحدث أبدا عن زواج ماكهيث ، لانها ادركت انه اعتبر زيجته صفقة غير موفقة ومخيبة للآمال .

فوق انه لم يعد يرى بولى الآن الافيما ندر .لذلك نشطت فانى فى مساعدته على تنظيم شئون دكاكين حرف « ب » كما لم تنشط فى اى وقت مضى . ولقد كانت الدكاكين بحاجة حقا الى مثل ذلك الجهد ، اذ ساءت أحوالها كثيرا .

فأصحاب الدكاكين باتوا لا يدفعون بانتظام ، ان دفعوا اصلا . ولم يكن كل الذنب فى ذلك ذنبهم . لانهم ظلوا ــ رغم شكاواهم التى

لم تنقطع ـ يتسلمون شحنات ضخمة من بضائع لا تنوع فيها ، تكون في مرة كميات هائلة من الساعات ، وفي أخرى من النظارات ، وفي ثالثة من الغلايين والطباق . ولم يكن بوسع أي منهم ، بطبيعة الحال ، تصريف كل تلك الكميات المكدسة بما يمكنه من الوفاء بالتزاماته قبل المنظمة .

ولقد كانت التجربة المزعجة التي مر بها مع امرأة جعلها من اصحاب الدكاكين بدافع الرحمة خير دليل على الحالة المؤسفة التي وصلت اليها تلك الدكاكين المنكودة . كانت المرأة صديقة قديمة تدعى ماري سوير .

وقد اكتشفت المرأة بطريقة أو بأخرى انه تزوج ، ولسبب مابدا انها تعتبر ذلك الزواج اساءة اليها لا تغتفر ، فأحدثت ضجة كبرى ، ووجدت عددا من المشجعين اخذوا يترددون على دكاكين حرف «ب» ويحاولون استدراج أصحابها الى الثرثرة عن شئون ماكهيث . ثم اتضح ان أولئك المشجعين كانوا يتربعون على مقاعد رئاسة التحرير في مجلة « العاكس » . والظاهر أن اولئك السادة كانوا قد أخذوا على عاتقهم الوقوف على كل مايمكنهم الوقوف عليه من معلومات عن محلات حرف «ب» منذ أن طرد واحد منهم شر طردة عندما حاول ابتزاز بعض المال من ماك . فوق أن تلك المجلة كانت تدعى انها تتبع مبادىء الاشتراكية ، لانها لا تنشر من الفضائح الا ما يمس الاغنياء وحدهم . ولو ان السبب في ذلك كان ببساطة ، لا اشتراكية ولا يحزنون ، بل املاق الفقراء الذى جعلهم غير صالحين كموضوع للابتزاز . وهكذا فان ماكهيث كان في مأزق غير مستحب ، ويجب ان يأخذ حذره . فهو ، ككل ميسور الحال ، يجب ان يكون ذا سمعة ناصعة البياض لا تشوبها شائبة حتى لا يجعل لاحد منفذا اليه . ولقد كان في مسيس الحاجة الى ذلك حتى يتفرغ للنصب على أصحاب دكاكين حرف « ب » المساكين بغير منغصات .

جرت المفاوضات بينه وبين ماري سوير في محل عاديات فاني كزايزلر ، وبمحضر منها .

اعلنت مسز سوير ، وهي شقراء عظيمة الصدر ، مشرفة على الثلاثين ، انها لم تعد تعرف أي وجهة تتجه . فقد اخذها ماك من بيئتها المألوفة وظل يسود عيشها بغيرته سنوات طويلة . ولقد اضطرت هي ، طوال تلك السنين ، ان تقوم بدور المتفرجة ، بينما هو ، على حد تعبيرها ، يتنقل من زهرة الى زهرة . وها هو الآن

يبلغ من القحة حد اخراجها واذلالها علنا بالزواج من امرأة أخرى وهى لم تتزوج من زوجها الحالى ــ الذى يحارب الان فيها وراء البحار ــ الا بناء على تحريض ماك لها والحاحة المستمر عليها . لكنها لا تكن لذلك الزوج أى ود أو محبة. هذا والدكان الذى أعطاه لها ماك ليس دكانا تقر به عين احد . وزوجها قد رزأها بطفلين . ولذلك فانها ان لم تستطع الحصول على بضعة جنيهات تستأجر بها عددا من الفتيات للخياطة فى محلها ، لن يكون امامها الا ان تلقى بنفسها فى النهر . فأعصابها قد اعلنت العصيان مؤخرا . والحقيقة ان بعض التصريحات الغاضبة التى بدرت منها لم يكن من سبيل الى تفسيرها الا بذلك العصيان الذى اعلنته اعصابها .

حاولت فانى ، قبل كل شىء ، ان تكتشف ما اذا كان اتصال ما قد تم بالفعل مع مجلة « العاكس » أم لا ، فسألت ضيفتها :

ــ الى من افضيت بهذه التصريحات ؟ ذلك أمر مهم للغاية .

لكن مسز سوير كانت ما زالت محتفظة ، فيما بدا ، بقدر من التحكم فى اعصابها مكنها من الافلات من ذلك الشرك ، فتكلفت الابهام والاستنكار . ألم تمنح ماك خير سنى حياتها ؟ عندما بدأت معه كانت فتاة متفتحة فى ربيع العمر ، ولم تكن قد عرفت رجلا قبله او خبرت اى شىء عن الرجال فيما عدا هجوم بقصد الاغتصاب تعرضت له وهى فى الثانية عشرة . والآن اذا ماتخلى عنها ماك لن تستطيع أن تجد رجلا غيره . وعملا على تأكيد ذلك اشارت لهما الى التجاعيد التى حفرها الزمن وغدر ماك فى وجهها .

عندما قالت كل ما عندها .. بدأ ماك يتكلم .

أكد لها أنه من دعاة الحرية الكاملة للنساء . فهن متى اعطين أنفسهن لرجل ، يجب أن يكون ذلك على مسئوليتهن الخاصة ، فيتحملن كل ما ينجم عنه من مخاطر . فهو ضد أية قيود او وصاية تفرض على اى امرأة . والحب ياعزيزتى ليس وثيقة تأمين ضد الشيخوخة . الحب الذى يدوم يجب ان يكون حبا يستمتع به المرء ، لا حبا يزاوله كواجب . وكل امرأة يجب أن تعتبر ملذاتها فى الحب مكافأة كافية لها .

وهنا اخذت مارى تصرخ من جديد . نعم ، نعم ، نعم ؟ ما دخل ملذاتها القديمة مع ماك فى هذا كله ؟ كان بوسعها ان تحصل على نفس تلك الملذات عينها مع أى رجل آخر ، هه ؟ على سبيل المثال مع رجل محترم لا يتخلى عن امرأة تضحى بكل شىء من أجله ، وتمنحه

زهرة عمرها وشبابها . ألم تكن بائعة في احد المحلات ، وأخذها ماك من عملها واهلها لانه نظر الى اعلى عندما كلفها مدير المحل بالصعود على سلم لتحضر صندوقا من فوق احد الارفف فراى ساقيها ؟ ولكن منذا الذى يريد ان يرى ساقيها الآن ؟ لا احد يريد ان يرى ساقيها . ذلك الشاب الوسيم الذى تحدث معها حديثا مستفيضا كله عطف ونطف وتفهم حول هذه الحكاية البشعة كلها قال لها ذلك. لم يعد بوسعها ان تعتمد على ساقيها .

أراد ماكهيث ان يرد عليها ردا عنيفا ، لكن فاني رأت أنه من الافضل أن يلزم المرء الحذر فى مثل هذه الامور . فوق انه كان من الواضح ان حالة الكساد التى انتابت الاعمال هى المسئولة وحدها عن ذلك انسلوك العدوانى من جانب هذه المرأة التى لولا ذلك الكساد لكانت قد ظلت امرأة لا ضر منها .

سألتهما مارى مغضبة :

– كيف أستطيع أن أبيع تلك القمامة ؟ ليس كل زبائنى زبائن ساعات . لقد ظللت احاول أن أدخل تجارة الملابس الداخلية فى دكانى ، دون جدوى . هل اذا جاءتنى خادم تريد شراء قميص داخلى يتعين على أن أقول لها : لاتوجد عندى قمصان داخلية الان، الا تأخذين ساعة بدلا من القميص ؟ نعم ، ربما كانت سرقةالساعات أسهل – لا تقاطعانى . أنا أستطيع أن أستخدم عقلى حتى ولو لم اكن قد ذهبت الى المدرسة كزوجة ماك الجديدة .

كانت مفاوضات طويلة مرهقة . قاتلت مارى بضراوة النمرة . وعندما اقترحت فانى فى النهاية تسوية تقوم على تعهد من جانب ماك – رغم أنه لايعترف بأى التزام عليه قبلها – بتمويل عملية توسيع نشاط دكانها ليشمل بيع الملابس الداخلية ، بشرط ان تلزم هى الصمت بشأن علاقتها به ، تلقت مارى الاقتراح بجبين مقطب ووجنتين متوهجتين غيظا وشكا .

لكنها عندما تسلمت الشيك غيبته بسرعة فى حقيبة يدها والجشع يطل من عينيها ثم أسرعت بالانصراف دون أن تعنى حتى بالنظر الى ماك .

***

أصطحبت فانى ماكهيث معها فى تلك الليلة الى بيتها بلامبث . أعدت الشاى ، وجلست أمامه مرتدية بيجامة شفافة . لاحظ ماك سمرة بشرتها ، وتذكر بشرة بولى البيضاء كالحليب . قال فى

نفسه كم هما مختلفتان .

لكن فانى كانت امرأة قوية الشكيمة ، متفردة الرأى وقد استقر رأيها على ما يجب أن يفعله ماك بدكاكينه حرف «ب»

قالت انه بعد محاولته الفاشلة للحصول على المال اللازم لتعويم تلك الدكاكين ، سواء بالزواج أو بالاقتراض من البنك ، يجب عليه ان يدرك أن الدكاكين قد باتت مشروعا خاسرا ، ومن رأيها أن يصرف ماك نظرا عنها تماما ، فيتركها تغرق بأصحابها المتعبين .

قالت له وهى تميل الى الوراء ، واضعة ساقا على ساق وفنجانها فى حجرها :

ـ لو فكرت قليلا لوجدت أن دكانى افضل الف مرة . ولو عرفت اين تكمن مصلحتك الحقيقية لركزت على ذلك . ان جروتش بارع جدا فى هذه الاشياء . قال لى مرة انه لو استطاع فقط أن يحصل على معدات حديثة لاستطاع ان يفعل بها كل مايخطر للمرء على بال . فان وجدت ان مثل هذا النوع من انشاط ابطأ من ان يحقق لك ماتريد أمكنك ان تخبط خبطة او خبطتين تجمع من ورائهما مبلغا كبيرا من المال تشغله بعد ذلك كيفما شئت . لكنه لن يفعل اى شىء الا اذا حصلنا له على معدات حديثة .

فقال ماك بلهجة من يتوقع سوء المصير :

ـ سنعود الى السطو ثانية ؟

ـ نعم . ولكن بمعدات حديثة !

فلم يتفقا الا وقد أوشك الصبح ان ينجلى .

قبل أن تذهب فانى الى محل العاديات ، رفعت اغطية الفراش من الغرفة الاضافية ، وفى المساء جلس جروتش معهما وأملى شروطه .

لم يكن ماكهيث سعيدا بهذه الحكاية الجديدة كلها . فوق أنه احس بمهانة حقيقية اذ وجد فانى تنظر اليه باعتباره رجلا فاشلا لايستطيع حتى أن يعقد صفقة هامة مع أحد البنوك . ادرك ان مكانته قد انحطت كثيرا ، وبشكل حاسم .

ذهب هو وجروتش ، بعد بضعة أيام ، الى ليفربول ، حيث اقيم معرض لاحدث وسائل الجريمة وطرق مكافحتها .

رأى الرجلان فى ذلك المعرض عجبا . معدات لفتح الخزائن من كل صنف ونوع ، حتى أحدثها وأشدها منعة . بدا أن اشد أجهزة الانذار تعقيدا وكفاءة لن تصمد أمام تلك الوسائل العلمية الحديثة وأن الاقفال مهما بلغت متانتها لن تمثل عائقا الا بالنسبة لذوى

المقاصد المشروعة ، أما بالنسبة للخبراء المتخصصين فهي عبث صغار.
بدآ يتشاجران في الفندق ذلك المساء ، لان جروتش صمم على الحصول على المعدات الفرنسية بينما تمسك ماك بالنماذج الانجليزية . قال لصاحبه :
ـ نحن في انجلترا ياجروتش ، ولسنا في فرنسا . من العار أن يسرق الانجليز بعضهم بعضا بمعدات فرنسية . كيف يكون منظرنا امام العالم متى تبين أننا نفضل منتجات الصناعة الفرنسية على منتجات بلادنا ؟ هه ؟ قل لى فقط . سيكون منظرنا ممتعا . ان مصيبتك الرئيسية أنك لا احساس لديك البتة بمعنى كلمة « الوطنية » . هذه المعدات التى لاتريدها ابتكرتها عقول مواطنيك. عقول انجليزية . وانتجتها الصناعة الانجليزية . ولذلك فانها يجب أن تكون كافية لكل انجليزى . ولن أقبل أى شىء خلاف ذلك . مفهوم ؟

انتظرا حتى الثانية صباحا ، ثم خرجا من الفندق خلسة ، وذهبا الى المبنى الذى يضم معرض الجريمة الحديثة . وسرعان ما تغلبا على مقاومة الخفير . لكن ماكهيث مالبث أن سمع وقع أقدام في الشارع ، فارتعدت فرائصه ، وخذلته شجاعته تماما . وقف مرتجفا ، وقد تفصد جبينه بالعرق ، يحملق بعينين مذعورتين غير قادر على اختيار الطفاشة المناسبة . هز جروتش رأسه اسفا لهذا الجبن ، واخذ حلقة المفاتيح من اليد المرتعشة . بدا واضحا أن التاجر العظيم لم يعد أهلا لهذا النوع من العمل الذى تتطلبه تجارته .
والحقيقة أن جروتش المسكين اضطر أن يقوم ـ تقريبا ـ بكل شىء وحده ، وكان النجاح حليفه . في صباح اليوم التالى وضعا المعدات أمام فانى .
كان جروتش ـ خلال ساعات فراغه ـ قد دبر أكثر من خطة لمشروعات جديدة . وبذلك أصبح لديه عدد من المخططات يختار منها مايشاء .
قال متفكرا :
ـ كل مشروع منها يدر نهرا من المال . أليس ذلك أفضل من الزواج ؟
لكن ماكهيث عندما ذهب الى سكوتلانديارد ليزور براون ويسأله النصيحة في أمر ما ، فوجىء مفاجاة غير مستحبة . صاح

براون فى وجهه مغضبا :

ــ اذن فهو ابن الحرام جروتش ! هذا أكثر مما يحتمل . هل قرأت جرائد الصباح ؟

كان محقا فى غضبته . فقد سلقت الصحف البوليس بألسنة حداد ، وأحدثت ضجة كبرى حول حادث السطو على معرض مكافحة الجريمة . ووجدت فى الامر كله مادة للتفكهة والتريقة : ها قد ضحك أحدهم على ذقن الشرطة وسرق معدات السرقة من تحت انفها .

لذلك كانت ثورة براون عارمة . قال لماك :

ــ أنا لم أدع أحدا يسىء اليك ابدا ، أو يسلبك شيئا ، وكنت اتوقع منك أن تظهر نفس القدر من الاهتمام بمستقبلى ، تماما كما اهتم انا بمستقبلك . نحن حتى الآن قد لعبنا لعبا نظيفا ، فلم يحاول احدنا خديعة الآخر . نعم أنا معترف عن طيب خاطر بأنى لم أكن لأصل الى منصبى الحالى بهذه السرعة لولا الخبطات الموفقة التى قمت بها بناء على ما تزودنى به من معلومات تتيح لى القبض على أولئك المجرمين . لكن علاقاتنا ، التى تعود الى أيام ان كنا، أنت وأنا، فى الهند معا ، تعنى بالنسبة الى شيئا أكثر من مجرد التعاون فى مجالات العمل . وها أنت الآن تسقط من حسابك تماما ابسط الاعتبارات التى يجب مراعاتها بين صديقين . أنت تعلم كم أحب عملى . وتعلم أنى لو لم اكن متعلقا بمهنتى لما استمررت فيها . وتعلم ايضا أنى لست أيا كان ، وأن قدراتى كفيلة برفعى الى منصب مدير البوليس . وليست الرتب هى التى تعنينى ، حتى وان ظننت انت ذلك . لكنى لا اطيق أن ارى ذلك الحمار ويليم متربعا حيث لا يجب أن يكون ، فى منصب لا يليق له البتة . سأعطيك حتى مساء اليوم . يجب أن تكون العدد المسروقة أمامى هنا قبل المساء ، والرجل الذى سرقها أيضا .

أنصت ماكهيث لكل هذا بتعاسة . أدرك أنه قد تخطى كل الحدود المسموح بها مع صديقه براون ، أو ، كما يقول الانجليز ، داس على أصابع قدميه . فلم يجد مناصا من مصارحته بحقيقة الامر كله ، وبالدوافع التى حدت به الى الموافقة على القيام بتلك السرقة المشئومة .

قال براون وقد بدأ يلين بعض الشىء .

ــ نعم ، نعم . ولكنك ، ان كنت بحاجة الى المال ، تعلم أن هناك طرقا أخرى للحصول عليه . لماذا لاتريد اللجوء الى احد البنوك ؟ هناك بنوك أخرى غير بنك الائتمان الاهلى كما تعلم .

فقال ماك أن دكاكينه ، والشركة التى تمونها بالبضائع فى حالة لا تشجع اى بنك على المخاطرة بتمويلها .

اذ ذاك أظهر براون طيب معدنه . عرض على صديقه ، من تلقاء نفسه ، أن يقرضه بعضا من ماله الخاص . ثم قال مخاطبا ضمير ماك :

ـ لماذا تضل عن الطريق القويم ؟ لماذا تمشى فى سكة الهلاك ؟ هه ؟ لا يجب أن يمشى أحد فى تلك الدرب أبدا . تاجر مثلك لا يجب ان يسرق . التاجر يشترى ويبيع . وهو ـ بهذه الطريقة التى يحبذها القانون ـ يصل الى نفس النتيجة . عندما انبطحنا على وجهينا فى حقل الارز الموحل على مشارف بشاور ، تحت وابل ممیت من الرصاص ، هل قمت واقفا فهاجمت أولئك السيخ اللاعبين بغصن شجرة أو أى شىء من هذا القبيل ؟ كلا طبعا . مثل ذلك الحمق كان يصبح شيئا لا يليق برجل عملى يزن الامور ، فوق أنه لم يكن ليجدى أحدا شيئا . أنت تقول أن اعمالك يجب أن تصبح فى حالة تغرى البنوك بتمويلها . عظيم . اجعلها فى تلك الحالة . لماذا لا تلجأ الى ؟ اذا كنت تجد غضاضة فى الحصول على ما تحتاجه من المال من صديق مثلى ، ادفع لى فائدة على ما تقترضه . ادفع لى ـ لكى تتخلص من الاحساس بالغضاضة ـ فائدة اكبر مما انت حرى بأن تدفع لاى شخص آخر ، عشرين ، أو حتى ـ ان شئت ـ خمسة وعشرين فى المائة . واذذاك تصبح أنت صاحب الفضل لا أنا . أنا اعلم جيدا انك رجل اعمال يركن اليه ولا اريدك أن تنحرف وتفسد كأى غر مفتون لا يعرف ما فيه صالحه ، ولا يفهم فى الاعمال شيئا ، فينحط ويسرق . لا يجب أن تعمل مع اناس على شاكلة جروتش هذا ثانية ، أبدا . اعمل مع البنوك ، كأى رجل أعمال محترم ! فذلك شىء يختلف الاختلاف كله !

جاشت نفس ماك جيشانا عنيفا وهو يصغى لصاحبه . ود لو عانق براون . لكنهما ككل رجلين خاضا مهالك الحياة معا ، وواجها أعاصيرها جنبا الى جنب ، لم يكن من السهل عليهما أن يبكيا كل على كتف الآخر . فنظرة حرج وتأثر فى موقف كهذا تعبر عما يجيش فى النفس بأبلغ مما يستطيعه أحر عناق .

قال ماك بصوت مختنق :

ـ يا سلام ! ليس هنالك صديق مثلك يا فردى . هناك دائما من لا يضنون على غيرهم بالنصح ولا شىء غيره . أما انت ، فتمد يد العون . فى ساعة الضيق . العون العملى . هذا هو ما جعلت الصداقة

لاجله ، وهذه هي الصداقة الحقة ، يد الصديق ..
قاطعه براون وهو يحدجه بنظرة جادة :
ـ هناك شيء واحد اطلبه منك لقاء ذلك كله . اطلب منك أن تتخلى عمن هم على شاكلة جروتش وأوهارا ، بصورة نهائية وكاملة . تقطع كل صلة لك بهم . فان لم تستطع ان تفعل ذلك على الفور ـ وانا اقدر ارتباطاتك ـ فلا اقل من أن تنهى علاقاتك بهم بعد أن تكون قد خرجت من هذه الورطة القبيحة . تلك العملية التي تفكر فيها قد تمكنك من أن تفعل ذلك . وأنا ان كنت أساعدك اليوم ، فما ذلك الا لاني اريد أن اراك في صحبة غير صحبة هؤلاء مستقبلا . لكني لا اعني بذلك الغد ، او حتى بعد غد . فأنا مدرك تماما أنك ما زلت محتاجا لهذه المخلوقات لكي تنجح . لكن سيأتي وقت بغير شك يتعين أن تضع فيه حدا نهائيا . ذلك ما أصر عليه .
أومأ ماك برأسه ، فاقدا لكل نطق ، والدموع في عينيه .
ذهب من عند صاحبه سعيدا ، ممتلئا سعادة . فقد قررا أن يدعا جروتش في حاله مؤقتا ، على أن يلقى براون القبض على رجل آخر بوصفه مرتكب السرقة . وقد قام ماك نفسه بتسليم المسروقات الى براون بعد ظهر اليوم .
وبالمثل حافظ براون على كلمته ، ولو أنه لم يكن من السهل عليه أن يدبر المبلغ الذي سيقرضه لماك . وجد لزاما عليه ان يأمر بمداهمة عدد من النوادي اولا . وقد رأى ماك نتيجة جهود صاحبه عندما زار صديقته مسز لكسر في تنبريدج يوم الخميس التالي . اشتكت له الفتيات مر الشكوى من الاستقطاعات التي خصمتها المعلمة من أجورهن بعد غارات البوليس على بعض البيوت الاخرى .
لكن تلك كلها تفاصيل صغيرة . المهم أن براون حافظ على وعده بتمويل ماك ، وان ماك وجد بين يديه ، خلال اسبوع واحد لا اكثر ما كان يحتاجه من مال ليرفع كفاءة « مندوبي مشترياته » الى أعلى ذروة لها .
اجتمع بأوهارا ، ووضعا معا خطة مفصلة بحملتهما المقبلة . واحسنا الاستعداد للايام القادمة . فبالاضافة الى ما كان لديهما من مخازن عديدة ، استأجرا عدة شوادر ومغارات ، وعززا أسطول النقل بعدد من اللوريات الثقيلة . وبالنسبة للعمليات المقبلة في بعض بلدان الاقاليم ، أودعت المبالغ اللازمة ، واستؤجرت أماكن الاقامة . باختصار ، تم ترتيب كل شيء .
والحقيقة أن الفتى أوهارا اثبت ـ رغم شبابه وميله للعبث ـ أنه

ممن يعتمد عليهم تماما عندما يجد الجد . فوق أنه كان قد اظهر دائما نفورا ملحوظا من التورط شخصيا فى أى سرقة من السرقات التى يقوم بها رجاله . وذلك ــ فى واقع الامر ــ اول اسس النجاح فى المسيرة المحفوفة بالشراك الى المستقبل العظيم الذى ينتظر الموهوبين أمثاله : أن يدع غيره يقوم بالاعمال القذرة . وقد لاحظ ماكهيث تلك السمة من فوره ، وأدرك ان ذلك الفتى يشبهه فى اشياء كثيرة . حتى فى بداياتهما . فصعود أهارا سلم النجاح والشهرة بدأ هو الآخر من الصغر . عندما بلغ السادسة عشرة وضع فحولته فى خدمة عدد من سارقات المحلات التجارية والخادمات خفيفات اليد . فلا تكاد الواحدة منهن تقضى أسابيع قليلة من مدة عقوبتها فى السجن حتى تحصل على عفو ، اذ يكتشف طبيب السجن انها حامل . وقد ذاعت لاوهارا شهرة مدوية بين ذلك الصنف من الفتيات آنئذ ، وأفدن من خدماته مقابل اتعاب مجزية . لكنه ــ بعد أن سار قدما فى طريق النجاح ــ لم يكن يحب أن يذكره أحد بتلك الايام او تلك المهنة .

ولم تكن فانى تميل اليه كثيرا . قالت عنه دائما أن النساء بعقولهن الصغيرة دللنه حتى أفسدنه . وكانت ، فوق ذلك ، لا تثق فيه . ثم انه كان منافس جروتش الاول على المركز الثانى فى العصابة . وكانت حادثة ليفربول قد أسقطت جروتش فى نظر ماكهيث كثيرا . وبدأ أوهارا يسبق منافسه .

كانوا يعقدون اجتماعاتهم فى بيت فانى لامبث ، وقد درج ماك على الانصراف ، بعد الاجتماع ، فى صحبة أوهارا . غير ان فانى لم تكن على كل ذلك القدر من السذاجة . أدركت ان انصرافه مع أوهارا يعنى انه هو ايضا لا يثق بذلك المفتون . لقد حاول أوهارا فى تلك الايام أن يصل ما كان قد انقطع بينهما ، فجاء ذات يوم حاملا عزاله ، يريد أن يقيم معها ، فاضطرت الى مصارحته برأيها فيه بكل وضوح .

لكن اكثر ما كان يثير حفيظتها على أوهارا موقفه الصفيق من مسألة تقسيم الغنائم . فهو فى ذلك مصاص دماء بحق ، لا يشبع ، ويريد كل شىء لنفسه . فوق انه ــ حتى وان كان ذلك لا يعود عليه بأى نفع ــ لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يحاول انقاص نصيبها هى بالذات .

قالت انه لا ينام فى الليل أبدا من فرط انشغاله بابتكار طرق تمكنه من اغتصاب اموال الآخرين . ولقد وبخته أكثر من مرة أمام

الجميع على تلك الخصلة التى قالت أنها ليست فى صالح العمل ، وانها ــ من اناحية المالية البحتة ــ خصلة غبية للغاية .
بعد حادثة ليفربول بوقت قصير ، قبض البوليس على « روبرت المنشار » باعتباره مرتكب السرقة . ولم يمر الامر بسلام . فقد كادت العصابة تعلن العصيان على زعيمها . اشيع أن روبرت المسكين سلم الى البوليس ككبش فداء ، وبدأ البعض يتذكرون ــ فجأة ــ حالات عديدة مماثلة وقعت على مدى السنوات الماضية .
كان أوهارا أول من حمل أنباء التمرد بين صفوف العصابة . وقد جاء بتلك الانباء المزعجة مبتسما ــ برعونته الايرلندية ــ ابتسامة عريضة شقت وجهه من الاذن الى الاذن . فأسكتته فانى غاضبة . وقالت له ، وقد بدأ اضطرابها واضحا ، أن الامر ليس فيه ما يضحك ، وأن التمرد ــ ان كان قد وقع حقا ــ أمر خطير للغاية ، ويؤسف له أسفا شديدا .
قال أوهارا ساخرا وهو يرمق ماكهيث بنظرة شيطنة :
ــ لكن الزعيم ذهب بنفسه الى روبرت المسكين فى زنزانته وصافحه بحرارة !
وكان ماك قد ذهب بالفعل لزيارة مستخدمه منكود الحظ فى سجنه ، بعد أن سلمه بيده الى براون ، وقال له أنه لن يتخلى عنه ، وانه سيقف بجانبه حتى النهاية . فهو فى مثل تلك المواقف يظهر مواهبه الحقيقية كقائد محنك .
لكن فانى اعتبرت تلك اللفتة منه مجرد لفتة كلبية لا تستحق احتراما .
احتدم نقاش طويل بعد ذلك بين فانى وأوهارا ، جلس ماك خلاله صامتا وبين أسنانه سيجار أسود رفيع . بدأ واضحا أنه استمتع كثيرا بتبادل السباب بين الاثنين . كان لا يزال يحس بالغيرة من أوهارا ، رغم أنه لم يكن يحب فانى ، لكنه سعد على أى حال لخيبة ذلك الايرلندى المفتون معها .
قالت فانى أن القبض على روبرت المنشار كان غلطة . وأن المتاعب لن تتوقف بعد ذلك فى صفوف العصابة . وأن عددا من العمليات قد فشل بالفعل نتيجة لذلك التذمر . وتوصلت الى اقناع أوهارا ، بعد نقاش طال عدة ساعات ، بالتوقف نهائيا عن تسليم افراد العصابة الى البوليس . بل ونجحت فى اقناع ماكهيث ــ الذى كان يميل دائما الى اظهار الكرم تجاه رجاله ــ بالتعاقد مع مكتب محام محترم

يتولى الدفاع عمن يقبض عليه من أفراد العصابة .
وقد ذهب ماك الى أبعد من ذلك ، وعد بدفع مرتبات شهرية ثابتة لرجاله . والحقيقة أنه وزن الامر جيدا فوجد أن تلك المرتبات الثابتة ستكلفه أقل ، خاصة وانه ــ تبعا لمشروع التوسع الجديد ــ مقدم على حركة « شراء » واسعة النطاق تمكنه من تزويد دكاكينه باستوكات من البضائع تثير اهتمام أى بنك يتفاوض معه .

لكن العصابة اعتبرت نظام المرتبات الثابتة هذا نصرا كبيرا لها ، ولم تفطن الى ما فيه من فائدة لزعيمها . وباتت فانى ــ التى عرف ، بطريقة ما ، أنها السبب فى تطبيق ذلك النظام ــ بطلة العصابة المحبوبة . قيل (وقد كان لجروتش ضلع كبير فى كل ذلك) أنها أرغمت الزعيم على تحمل كافة المخاطر بمفرده ، وأنه اضطر الى الموافقة لانه فى حاجة اليها ، ولا يملك أن يغضبها أو يعارض رأيها .

وهكذا فان لصوص اوهارا لم يعودوا ــ بعد عملية أعادة التنظيم هذه ــ لصوصا يعملون بالقطعة ، بل أصبحوا مستخدمين فى شركة كبرى ، وهو ما أتاح لهم أن يعملوا بكفاية أعظم . لان وسائل التنظيم الحديثة دخلت فى مجال عملهم ، واوجدت الطريقة المثلى للافادة من تخصصاتهم ، والتنسيق بينها ، وتوجيه جهودهم بما ينفذ سياسات العصابة ويؤدى الى تحقيق أهدافها . وقد بعثت تلك الوسائل الحديثة احساسا بالراحة فى نفوس أولئك الرجال بما أشاعته فى وجدان كل منهم من شعور بالمعاصرة ، فوق أنها حققت لهم استقرارا كانوا يحلمون به دائما ، لان اعتماد كل منهم على عمل الآخر جعل من المحتم استمرار عملهم فى خدمة العصابة ، ودفع أجورهم بانتظام .
قالت فانى لماكهيث بعد انصراف أوهارا ذات ليلة :
ــ أنت بهذه الطريقة قد تمكنت من الامساك بهم جميعا فى قبضة يدك . لم تعد بحاجة الى أن تشهر مسدسا أو سكينا فى وجوههم (وهو ما لاتستطيع أن تفعله على أية حال) . لان شيئاأهم من ذلك بات يغلهم اليك، فأنت تحتفظ لديك بأدوات عملهم. ولم تعد بحاجة ايضا الى تسليمهم للبوليس ، لان الخوف من الجوع سيجعلهم يتمسكون بالبقاء فى خدمتك . كل أصحاب الاعمال المحدثين يفعلون ذلك .

هز ماكهيث رأسه مؤمنا، وهو غارق فى أفكاره. أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، سائرا على السجادة الصينية الزرقاء ، اثمن مقتنيات

فانى على الاطلاق ، وهو يعبث ببضع قطع من النقود المعدنية فى جيب سرواله ،ويخرجها ،بين الحين والحين ،ليلقى بها الى أعلى ثم يلقفها •
كان قد أوشك على الافاقة من أثر الطعنة الغادرة التى تلقاها على أيدى القرن ونصف القرن ، وبدأ عدد من الافكار العظيمة يجول فى رأسه ، ومن الافكار تنبع خطط مهولة .

لكن تلك الخطط المهولة ـ على ضخامتها ـ لم تنبثق من أى احساس بالثقة الزائـــدة بالنفس من جانبه • كانت ضخامتها راجعـــة الى الضرورة وحدها . فهى ضرورية لانقاذه من الخراب الذى أوشك أن يحيق به • ازدهر نشـــاط « الشراء » فى منظمته كما لم يزدهـــر من قبل ، فبدأ سيل من البضائع يتدفق على الدكاكين . اكتظت الارفف الخشبية حتى ضاقت بما تكدس فوقها من سلع • وفتيات المشغل فى دكان مارى سوير بدأن يسهرن الى ساعة متأخرة من الليل لينهين ما لديهن من عمل . بالات ضخمة من الجلود المدبوغة تحولت الى احذية . وكميات هائلة من خيوط الصوف أعملت فيها ابر تحركها أياد دؤوب لعائلات بأكملها فتحولها الى ثياب صوفية عديدة الاشكال والالوان • والجحور الكئيبة المعروفة باســـم دكاكين حرف « ب » امتلأ كل ثقب فيها بالادوات الكتابية ، والمصابيح ، والآلات الموسيقية ، والسجاجيد .

لكن ماكهيث كان يدرك أن المال الذى أقرضه له براون لن يكفى لتشغيل عصابة أوهارا لاكثر من ستة اسابيع .
فى مثل تلك المواقف لا تكون نجاة الا بوضع خطط ذات أبعـــاد نابوليونية حقا •

(٨)

« يشتبك المرء أولا ، وبعد ذلك يرى »

(نابوليون)

« أوه ! انها تمطر خارجا !
« أوه ! لكن النار ممسكة بالبيت ، لا تنسوا ذلك !
« نعم ، لكنه من الافضل لنا
« بدلا من أن نحترق أحياء ،
« ان نخرج فتبتل ثيابنا ! »

(أغنية الرواد الصفار)

خطط نابولونية

في احدى العمارات الكبرى في حي المال والاعمال استأجر رجل في مقتبل العمر طابقا بأكمله . وقع الفتى المقعد باسم لورد بلومزبرى ، وأثث أربع أو خمس غرف لتكون مكاتب لشركته . حقيقة ان الاثاث كان معظمه رثا قديما ، لكنه أضفى على الحجرات تلك المسحة من الاحترام التي يوحي بها القدم . وقد ساعدت الفتى امرأة في مقتبل العمر ذات بشرة تخطف العين بسمرتها الذهبية ، فقامت بكل شيء معه ، حتى اختيار الموظفين .

قالت له عندما وصل الاثاث ورأته ينظر اليه باستهجان :

– تعرف ؟ الشركات القديمة لها جاذبية خاصة لدى الناس فقدمها يوحي بأنها شركات محترمة لم تتعرض للمتاعب أو القلاقل أبدا ، وانها ستظل كذلك ، لانها ما دامت قد عاشت كل ذلك العمر الطويل دون أن ينكشف أمرها ، لا يحتمل أن يحدث لها ذلك مستقبلا .

أعدت أكبر الحجرات لتكون قاعة اجتماعات ، وعلى الباب الزجاجي الخارجي كتب بحروف ذهبية كبيرة « م . م . م » وتحتها ، بحروف أصغر كثيرا : « المجلس المركزى للمشتريات » .

كان الاجتماع الاول لمديرى الشركة الجديدة قصيرا . أخذت الاصوات ، فصوت أعضاء المجلس وهم : محاميان ذائعا الصيت في حي المال والاعمال ، وسيد يدعى مستر أوهارا ، ولورد يدعى بلومزبرى وسيدة تدعى مسز كرايزلر ، بالاجماع ، على انتخاب سيد

اسمه مستر ماكهيث ، ومهنته تاجر ، رئيسا لمجلس ادارة الشركة. أما نائب الرئيس فكان لورد بلومزبرى . كان ماكهيث قد التقى به فى بيت من بيوت المتعة بتنبريدج حيث ألف أن يقضى مساء الخميس من كل اسبوع ... كاجراء صحى . لم يجد ماك صعوبة فى اقتناص

ذلك الغر الذى لا ضر منه ، لان الفتى كان فى حاجـــة مزمنة الى النقود ، رغم لقبه الرنان ، وكان كل اعتماده فى معاشه على الفتاة جينى مانث ، نجمة بيت مسز لكسر . والحقيقة ان ماك وجد الفتى غبيا غباء لا يطاق ، لكنه قليل الكلام بدرجة لافتة للنظـر ، يتمتع وجهه بنعمة ابتسـامة مباغتة ترتسم عليه لغير ما سبب على الاطلاق،

تعبر عن خجل واحراج لايحسهما البتة . وهكذا فانه ـ فى جملته ـ كان صيدا ثمينا ، لانه يخلف انطباعا حسنا فى نفس من يراه . وقد توصل الى أن يعيش حتى الان على ذلك الانطباع وحده ، ولا شىء سواه .

انحصر أول نشاط للشركة فى تحرير عقدين ، تعهد مستر أوهارا ، بموجب أولهما ، بتزويد شركة م . م . م . بشحنات ضـخمة من البضائع المنوعة ، واكتسب مستر ماكهيث ، بموجب ثانيهما ، الحق فى أسبقية الشراء على تلك البضائع جميعها لدكاكينه حرف «ب» . ولم تكد الشركة تنتهى من أبرام هذين الاتفاقين حتى تخلى مستر ماكهيث عن مقعد الرئاسة لصديقه اللورد بلومزبرى ، راجيا الحاضرين أن يبقوا أمر رئاسته للشركة سرا ، مؤقتا .

تفرق الجميع بعد ذلك وهم على وفاق تام ، وبدأت مكاتب الشركة تعمل بنشاط تحت ادارة السيدة كرايزلر الحازمة . وقـد تركز نشاط تلك المـكاتب فى مراسلة عدد كبير من الوكلاء فى مختلف أنحاء الجزر البريطانية والقارة الاوربية ، كانوا ينوبون عن شركة م.م.م.

فى شراء المخزون من بضائع الشركات التى تفلس ، وتسليم تلك المشتريات الى مخازن الشركة فى حى سوهو . وقـد عنيت مسز كرايزلر عناية فائقة بنظام الحفظ والارشـيف بمكاتب الشركة . فكانت فواتير شراء البضائع التى تتسلمها مخازن سوهو ، وايصالات المبالغ المدفوعة للشركات المفلسة ، ثمنا لتلك البضائع ، تحفظ بعناية فى قسمين مختلفين من أقسام الشركة . فوق ان القيود الخاصة بكافة اللوطات المسلمة للمخازن كانت تمسـك على حدة فى دفاتر مستقلة تماما عن تلك التى تدرج فيها قيود البضائع التى تتسلمها

المخازن لمحلات حرف «ب» .

ولم يمض على افتتاح مكاتب الشركة أسبوعان الا وتقدم سيدان حسنا الملبس ، هما مستر ماكهيث ، ولورد بلومزبرى الى المختصين فى « البنك التجارى » ، طالبين مقابلة السيد رئيس مجلس الادارة ٠

كان ذلك البنك من البيوتات المالية الحديثة نسبيا ، ذات المعاملات الواسعة فيما وراء البحار ، ومبناه الفخم فى شارع رصل ينبىء عن ميل غير مألوف فى البنوك الى الجدة والمبالغة فى الزركشة . وقد تخصص البنك فى تمويل المنشآت التجارية بمختلف أنواعها ، ومن بينها سلسلة محلات هارون (منافس ب ٠ كرستون الخطير) وعدد كبير من المنشآت المماثلة ، الاصغر حجما ، فى الاقاليم ٠

باختصار كان ذلك البنك من البنوك المحترمة ، شديدة الاحترام ، فوق خبرته الواسعة بكل ما يخص تجارة التجزئة٠ ولذلك استقبل ماكهيث ، عندما طرق أبوابه ، استقبالا متحفظا للغاية . وما لبث أن تبين ان البنك ملم ، الماما يثير الدهشة ، بكل ما يتعلق بمنظمته وبالمركز المالى لدكاكينه حرف «ب» .

لم يتقدم ماكهيث الى البنك كرجل أعمال متمكن متعال ، بل كانسان مسكين حل به الخراب . كان ذلك هو الخط الذى قرر أن يتبعه مع البنك الجديد . ذهب اليهم بوجه ممتقع وقطرات العرق البارد ترصع جبينه معترفا لهم بأنه انسان محطم ، لم تعد به قوة للنزال ، فقد ذهب الى بنك الائتمان الاهلى بكل براءة ، واضعا ثقته الكاملة بمديريه ، فصارحهم بخططه ومشروعاته ، فاذا بأولئك الناس يسرقون أفكاره وعصارة ذهنه ويذهبون فيعطونها الى شركة كرستون ٠ وها هو الان ملزم بالوفاء بتعهداته لشركة م٠م٠م٠ واستئجار المخازن الهائلة ، التى تسرع فتعاقد عليها ، لثقته بأن بنك الائتمان الاهلى لا يمكن أن يتخلى عن تمويل مشروع كهذا ، ودون أن يتصور طبعا امكان وقوع خديعة كتلك التى تعرض لها ، فوق اضطراره الى الوفاء بالايجار الباهظ والفائدة المرتفعة التى تطلبها شركة م٠م٠م٠ وهو مفتقر الى المال اللازم الذى يمكنه من توسيع أعمال دكاكينه والحصول على الائتمان اللازم٠ أما المخازن فمن الممكن معاينتها بالاتفاق مع شركة م٠م٠م٠

قام البنك فعلا بتلك المعاينة . فكانت لها نتائج مشجعة للغاية ، اذ اطلع مندوبو البنك على فواتير وايصالات تغطى كل المشتريات ، بعضها صادر من شركات دنمركية وفرنسية .

الحقيقة ان وجوه مديرى البنك التجارى ظهر عليها الارتياح البالغ فى أعقاب ذلك الفحص .

لكن ماكهيث وبلومزبرى عندما ذهبا الى البنك فى اليوم التالى ، فوجئا بوجود سيد بدين له سحنة يهودية للغاية ، جالسا بجوار السيدين جاك وهنرى أوبر . أخذ ماكهيث قليلا بتلك المفاجأة فالسيد البدين يهودى السحنة كان اسحق هارون ، صاحب سلسلة محلات هارون ، بلحمه وشحمه . قال أصغر الاخوين أوبر بعذوبة :

ــ هذا طبعا مستر هارون ، ولا أظنكما تجهلان اسمه . مستر هارون مهتم كثيرا بأفكاركما النيرة يا سادة !

لكن اسحق هارون لعنة الله عليه يمتلك ثمانية عشر محلا من المحلات الكبرى فى أرقى أحياء لندن تعتبر محلات حرف «ب» ، بالمقارنة اليها ، كالجراء الضالة الصغيرة بجوار كلاب نيوفاوندلاند العملاقة .

ظل ماكهيث مترددا بعد تلك المفاجأة . فكر فى الانصراف غاضبا. لكن نظرة واحدة الى الاخوين أوبر كانت كافية لاقناعه بأنهما لن يدخلا فى أية مفاوضات بدون هارون . راوده احساس مزعج .. جعلته الاحداث التى وقعت بعد ذلك يتذكره كثيرا ــ مؤداه أن هؤلاء الناس قد ضحكوا عليه مرة أخرى . لكن موقفه لم يكن يسمح بأى تراجع . كان فى حاجة الى المال .

أعاد ماكهيث رواية قصته فعلق عليها هارون بصوته المبحوح قائلا نعم هذا هو ما يتوقع من رجل مثل كرستون . وقال ان رأيه فى ذلك الغر المفتون يعرفه الجميع ، لكنه ــ على أية حال ــ أفاض فى شرح ذلك الرأى بقدر كبير من التطرف وخفة الدم ، مؤكدا لسامعيه أن كرستون هذا ، وهو شاب أرعن فى مقتبل العمر ، لا يتورع عن شىء ، وأن همه الاول والاخير فى الحياة تكديس المال ، وانه بالرغم من صغر سنه ــ وربما بسبب ذلك ــ يعتبر نموذجا حيا لذلك الصنف « الدقة القديمة » من رجال الاعمال الذين يفعلون كل ما فى طاقتهم للاحتيال على الجمهور . هو شخصيا ، اسحق هارون ، ليس من دعاة التمسك بالاخلاق أو أى شىء من هذا القبيل ، بل ان قلة الحياء تمتعه كثيرا ويجد فيها مسلاة عظيمة ، لكنه فى مجال الاعمال لا يسمح بأى شىء من ذلك على الاطلاق ، لا لشىء الا لان الامر لا يستحق المخاطرة .

ثم أضاف بعطف أبوى حنون وهو يربت على ركبة ماكهيث الذى

ود لو دق عنقه :
ـ ان فكرتك عن توحيد الاسعار لا بأس بها بالمرة · لكن مخازنك هى التى تثير اهتمامى حقا ·
وهنا استدار الى لورد بلومزبرى ـ الذى يمثل شركة م·م·م · ـ وقال له معاتبا :
ـ كيف حدث أن ذهبتم الى ماكهيث أولا ؟ كان يجب أن تأتوا الى رأسا · لكنى أدرك الان ان الطريق اليكم يجب ان يكون من خلال صاحبنا ماكهيث ها ها ها . يعنى اخوتنا الصفار دكاكين حرف «ب» يجب أن يسمح لها باقتحام الملعب ها ها ها .
أصغى ماكهيث بكآبة جنائزية غير واجد فى كل ذلك ما يدعو للقهقهة · فوق ان فكاهات ذلك اليهودى الشحيم كانت ثقيلة الظل · ثم انه لم يحس أدنى رغبة فى اقتسام مخازنه مع هارون ·والحقيقة انه لو لم يستخدم كل ما لديه من قدرة على ضبط النفس لما تمكن من الاستمرار فى أداء دور رجل الاعمال الصغير المسكين الذى لحقته اهانة بالغة على يدى ابن الحرام كرستون .
وعلى العكس منه تماما ، بدا هارون البدين مستمتعا بالامر كله غاية الإستمتاع . ولو ان ماكهيث لاحظ ان الرجل ، رغم جذله ، يحتقن وجهه كلما جاء ذكر كرستون . بدا واضحا أن هناك حسابا عسيرا بينه وبين كرستون يجب أن يسوى .
حقيقة الامر ان كرستون كان قد بدأ يصعد سلم النجاح قفزا ، وانه قفز مؤخرا أكثر مما ينبغى . ومن جانب آخر بدا أن بنك الائتمان الاهلى كان يمثل ـ بالنسبة للبنك التجارى ـ نفس الشيء البغيض الذى كان كرستون يمثله بالنسبة لهارون . فالقرن ونصف قرن مجالهما من قديم الارض والعقارات . ما الذى ادخلهما فى تجارة التجزئة أيضا ؟ وبنكهما على أية حال دكانة صغيرة خائبة تضم بضع خزائن عتيقة يكسوها العفن . البنك التجارى بطبيعة الحال اكبر من أن يحس بالغيرة من بنك قميء كهذا أو يعتبره منافسا له . لكن البنك التجارى يعتز كثيرا بما له من نفوذ فى مجال تجارة التجزئة ، ولا يروقه البتة أن يزج بنك صغير كهذا أنفه فى ذلك المجال · هذا واضح طبعا · فالبنك التجارى يعتبر نفسه الحجة الثقة فى كل ما يخص ذلك الفرع من فروع التجارة . وهو بنك لا رغبة لديه فى التورط فى أية صفقات تتسم بالعجلة أو الانحراف قيد أنملة عن قواعد الاخلاق . فرسالته الحقة فى الحياة هى رعاية الاخلاق والحفاظ عليها فى تجارة التجزئة ·

كان من الواضح للبنك طبعا أن أمثال ماكهيث لا يمكن للمرء أن يعاملهم الا وهو يمسكهم بملقاط ، ومع ذلك بدا أن الرجل - رغم أخلاقياته غير المستساغة - قد عومل معاملة غير عادلة . والحقيقة أن الرجل المسكين يبدو محطم الاعصاب . فقد أجاد ماكهيث القيام بدور الرجل الذى هدته نوائب الدهر ، وأجهز عليه غدر الناس وختلهم .

ولم يكن ماك غرا أو ساذجا . كان يعرف جيدا ما هو بسبيله . ويعرف أيضا كراهية هارون لكرستون وكراهية البنك التجارى لبنك الائتمان الاهلى . فأظهر ، بما لا يدع مجالا لشك ، أنه ممتلىء نقمة على كل من كرستون وبنك الائتمان ، وانه لن يتورع عن شىء فى سبيل الانتقام منهما ، حتى ولو ضحى فى سبيل ذلك بمصالحه الشخصية . فلما وجد استجابة لذلك الدور أمعن فيه ، متظاهرا بأنه قد أطلق العنان لعواطفه وان نقمته قد غلبت على حسن تقديره للأمور ، فعرض مخازنه على اسحق هارون بثمن بخس لا يعقل ، لكى يمكن هارون « من سحق كرستون » ، قائلا انه لا يطلب شيئا الا أن يسمح لدكاكين حرف «ب» التى يلتزم بتعهدات معينة تجاهها ، بالدخول فى الصفقة ، خاصة وان أصحابها جميعا من صغار التجار الذين أولوه ثقتهم .

نجح ماك فى مخططه نجاحا مبدئيا بذلك الدور الذى اداه باتقان. فقد قرر البنك التجارى والسيد اسحق هارون أن يدرسا المشروع دراسة جدية وقد بدا لهما من أداء ماكهيث أن هناك فرصة سانحة لاستغلال هوس الانتقام الذى تسلط عليه - رغم ان ذلك الهوس بدا للسيد أوبر وللسيد هارون أيضا ضعفا مؤسفا يعزز ما تردد دائما من شائعات عن ماضى ماكهيث العكر .

وهكذا تلقى ماك (أو نابوليون دكاكين حرف «ب» كما أسموه فيما بينهم) دعوة من مستر جاك أوبر ، رئيس مجلس ادارة البنك التجارى ، لقضاء عطلة نهاية الاسبوع فى قلعة واربورن .

ولم تكن تلك بالدعوة الهينة . فقلعة واربورن ، بالنسبة لتجارة التجزئة ، كانت تمثل ما يمثله شارع داونتج فى عالم السياسة ، وول ستريت فى عالم المال . كانت قبلة تتجمع فيها كل الخيوط ، وتحرك بعض الاصابع فيها كل تلك الخيوط ، فتتحكم فى مقدرات تلك التجارة وثروات أهلها .

لهذا عاد ماكهيث الى مكاتب شركة م . م . م . وهو من الاثارة فى حال . فلم تكد فانى تسمع بالنبأ الخطير حتى أرسلت من يستدعى

الفتى بلومزبرى على الفور ، لان ماك صـارحها فى غير مواربة أنه لا يعرف كيف ينبغى للمرء أن يأكل السمك ـ مثلا ـ فى مأدبة تقام فى مكان كقلعة واربورن ، وأنه ـ رغم حداثة عهد الاخوين أوبر بتلك القلعة ـ لا يريد أن يبدو أمامهما جلفا .

وقـد حلت فانى الاشكال على الفور ، بطريقتهـا التى لا التواء فيها ، مع جاك أوبر . ذهبت لمقابلته فى البنـك التجارى متأبطـة محفظة أوراق مكتظة بالتفاصيل والبيانات، وفى تلك المقابلة توصلت الى أن تزيل من ذهن أوبر أية أوهام تكون فى رأسه عن سـلوك رئيسها . قالت له أن الناس الذين ألفوا أن يغترفوا المال بيديهم ، يأكلون طعامهم بنفس الطريقة ، فيغمسون بأصابعهم ، وقد يلعقونها متى راق لهم ما يأكلون ، وانه اذا دعى بلومزبرى ، فقـد يستطيع ان يوازن ، الى حد ما ، مواهب ماكهيث فى ذلك المجال . وهكذا دعا جاك أوبر لورد بلومزبرى أيضا .

لكن تلك المناورة لم تكن بارعة بالقدر الذى تصورته فانى . لان ذلك الشاب النبيل لم يكن يقيم للأخوين أوبر كل ذلك الوزن الذى أقامه لهما ماك وفانى ، أولا لانه لم يكن يفهم شيئا على الاطلاق عن قيمة النقود ، خلا انها شىء يقترض ولايرد وينفق بمجرد اقتراضه ، وثانيا لان الاخوين أوبر كانا فى تقديره من محدثى النعمة . ولذلك فانه تمسك بأن يصحب معه صديقته جينى ،(نجمة ذلك البيت من بيوت المتعة الذى قابله فيه ماك) ، باعتبار أنها أخته ، لـكى تقدم فى قلعة واربورن عرضا لاحدث رقصاتها العارية ، مؤكدا ان ذلك حرى بأن يحدث نتائج مذهلة .

وقد أقنعته فانى بالعدول عن تلك الفكرة المهلـكة بعد أن كادت تزهق روحها . ثم انصرفت بعـد ذلك الى الاشراف بكل دقة على اختيار ثياب ماكهيث ، ووجدت صعوبة بالغة فى اقناعه بالتخلى عن عصاته المسلحة . قالت له وهى تأخذها منه :

ـ لم تعد فى حاجة اليها الان .

لـكنه فى اللحظة الاخيرة اشترى لنفسه قفازا صارخ اللون من وراء ظهرها ، مما سبب للورد بلومزبرى متعة لا توصف .

وفى أثناء الرحلة الى قلعة واربورن ، توصل لورد بلومزبرى الى اقناع ماك ـ بنفس الروح الشريرة التى جعلته يستمتع بمنظر ذلك القفاز الفاقع ـ أن أفضل تاكتيك يتبعه هو الا يغير من سلوكه الفج المألوف شيئا والا فان الاخوين أوبر لن يجدا متعة تشجعهما على

التعامل معه ، لان السبب الوحيد لقبولهما فكرة التعامل مع ماكهيث — فى تقدير اللورد الشاب — كان احساسهما بالتعالى عليه . والحقيقة ان تلك الموعظة الصغيرة الضارة كانت كل ما أسهم به بلومزبرى فى غزوة ماكهيث لقلعة واربورن .

غير أن الوقت الذى قضاه ماك فى ضيافة أولئك الناس كان أمتع كثيرا مما توقع . والحقيقة أنه احس ان وجود بلومزبرى معه لم يكن هناك مايدعو اليه البتة ، خاصة وان مشكلة السمك لم تعرض له اصلا.

أما ما أثار دهشة ماكهيث حقا ، الطريقة التى تعالج بها الاعمال فى تلك القلعة . فلم يكن أحد يذكر النقود بكلمة . وقد اكتشف ماك أن السبب فى عدم توجيه الدعوة الى السيد اسحق هارون أن ذلك اليهودى البدين لم يكن يكف لحظة عن ذكر النقود ، مما يثير اعصاب السيد جاك أوبر . لان جاك أوبر لم يكن يطيق أن يذكر أحد النقود أمامه . وموقفه من ذلك كله أن هذه أمور يجب أن تدبر بشكل أو بآخر ، حتى تأخذ الحياة مجراها ، لكنها يجب أن تظل فى خلفية الصورة حتى يتسنى للمرء أن يطيق حياته . ومع ذلك فقد سرق ماك .

***

فقد تم خلال الاسبوع التالى لتلك الزيارة توقيع العقود « اللازمة » بين محلات اسحق هارون ، والبنك التجارى من جانب وشركة م . م . م . من جانب آخر . وبموجب تلك العقود أصبح لمحلات هارون الحق فى شراء البضائع من شركة م. م. م. بنفس الاسعار التى تشترى بها محلات حرف «ب» .

والحقيقة ان العقود التى اضطر بلومزبرى الى توقيعها عن شركة م . م . م . كانت مخيفة ، الى الحد الذى جعل ماكهيث لا يجرؤ على النظر اليه مواجهة .

فلما خرجا الى عرض الطريق أصيب ماك بنوبة هستيرية ، مما سبب لبلومزبرى قدرا كبيرا من الدهشة وبعض الحرج ، واضطره الى أن يسحب صاحبه الى أول مشرب شاى فى طريقهما . وهناك طلبا خبزا بالزبد . لكن ماك لم يستطع أن يأكل من فوره ، لانه استغرق وقتا طويلا قبل أن يستعيد سيطرته على أعصابه. واذ ذاك لم يجد فى نفسه شهية للأكل . قال لبلومزبرى وهما يبرحان المشرب:

— هذه مصيبة . بهذه الاسعار التى اتفقنا على البيع بها لابن الحرام هارون لن يجدينا حتى أن نسرق البضائع التى نبيعها له .

سيكون من المستحيل أن نصمد طويلا . أقصى ما نستطيعه أن ننظم أسبوعا للأوكازيون كما فعل كرستون ، وهذا هو ما يريده اللعينان أوبر . يريدان ان نفلس بأسرع ما يمكن حتى تقصر مدة تعاملهما معنا الى الحد الادنى . يشعران بأننا أحقر من أن نتعامل معهما . وذلك هو الواقع فعلا . انظر الى مبنى ذلك البنك ! رخام وبرونز، يا بلومزبرى ! رخام وبرونز ! لم أستطع طيـلة حيـاتى أن أفهم السبب الذى يجعل الناس يذهبون بأموالهم الى بنوك تتخذ أبنية باذخة كهذه مقرا لها . يبدو أن الناس يتصورون أن الشركات التى تستطيع أن تتحمل تكلفة مبان من الرخام والبرونز لا تكون فى حاجة الى أموال أحد ، وأن أموالهم ، لذلك ، تكون بمأمن لديها !

والحقيقة انه لم تزايله حسرة على بنـك الائتمان الاهلى بمبناه الحقير وأثاثه القمىء. فقد بدا له ذلك المبنى بما فيه من «كراكيب» زرية بمثابة اعلان مطمئن فحواه « اننا لا نسرق الـكثير من عملائنا» لـكن بنك الائتمان اللعين لعب عليه ملعوبا قذرا . ومع ذلك فانه أحس أن مصلحته الحقيقية كانت مع ذلك البنك . أليس هو البنك الذى تضم خزائنه النخرة بائنة زوجته ؟ فاض قلبه بالمرارة عندما فكر فى ذلك . فقد أصبح واضحا أمامعينيه أنه يخوض معركة ضد تلك البائنة التى فيها خلاصه . فهـل هناك ما هو اتعس من ذلك المصير ؟ وهل من العدل أن تفرض عليه الاقدار أن يبذل كل جهـد فى طاقته للقضاء على تلك البائنة لـكى يشق طريقه الى النجاح ؟ لقد أراد معارك نابوليونية . وها هى معركة لا رحمة فيهـا تفرض عليه ، ولا يستطيع أن يكسبها الا بالقضاء قضاء مبرما على العدو . وما العدو هنا الا البنك الذى فيه بائنة بولى . رأى ماك أمامه أياما عصيبة حافلة بالمتاعب والعمل الشاق .

تكبد ماك الشىء الـكثير فى اعداد شركة م . م . م . لتكون طعما للبنك التجارى . ولقد كان بوسعه أن يحتمل ذلك الشىء الكثير لو توصل فقط الى تحسين حالة دكاكينه كما كان يشتهى . لكنه ، بدلا من ذلك ، تعرض لاسوأ نكسـة يمكن أن تحدث لاحد ، فأرغم على ادخال اليهودى هارون ، منافسه ــ منافسه الاعظم ــ فى الخبطة كلها ، لـكى يسرقها منه . فكأنه أنفق ، وأسس ، ووسع ، لـكى تسرق أفكاره ، وبضائعه ، ومخازنه ، وأمواله منه ! ها هو يجد نفسه مرة أخرى وقد ضحك هؤلاء الناس عليه ، فلم يتقدم خطوة ،

وظل حيث كان ، معرضا للخراب الشامل ان لم يخف الحظ لنجدته .
فهو ثابت فى مكانه كانسان حافى القدمين واقف فوق جمر ، كل ما يسعه من حركة أن يقفز فى الهواء ، لكن القفز لا يجديه شيئا ، لانه لا يتوصل الا الى استبدال جمرة بأخرى ، قد تكون اسوأ وأشد توهجا ولذلك فان أسعد لحظاته هى تلك اللحظات القصيرة التى يكون فيهـا معلقا فى الهواء .

***

عقـد ماك اجتماعا لاصـحاب دكاكين حرف « ب » ، ألقى فيه خطبة من نار . أعلن بادىء ذى بدء أنه قرر ، من الآن فصاعدا ، ان يولى دكاكينه كل اهتمامه ورعايته . وانه ، لـكى يتفرغ لذلك الجانب من نشاطه تفرغا كاملا ، قد تخلى ، بطريقة تكاد تكون تامة ، عن نشاط الشراء ، الذى تكلفت به شركة كبرى تعرف باسم « مجلس المشتريات المركزى » . وتلك الشركة تقدم بضائع ممتازة ، لـكنها لا تكون رخيصة الا اذا اشتريت بكميات كبيرة ، وقد بذلت جهود ــ لم تكلل بالنجاح لسوء الحظ ــ لمنع شركة م . م . م . من تقديم نفس التسهيلات الى محلات أخرى ، لـكن دكاكين حرف «ب» لن تكون قادرة فى الحقيقة على استيعاب كل ما تعرضه شركة م . م . م . من كميات . ثم استطرد قائلا :

ــ ولعلـكم قد سمعتم ان دكاكين حرف « ب » قد دخلت فى شركة تجارية ، بالامس ، مع محلات هارون . ولهذا سوف تقوم شركة م . م . م . بتزويد محلات هارون أيضا بالبضائع . فما الذى تعنيه هـذه الحركة المثيرة من جانب كومبينة هارون القوية ؟ أيها السادة ، انها تعنى انتصارا ، انتصارا ساحقا لدكاكين حرف «ب» ، والاهم من ذلك ، للمثل الاعلى الذى قامت عليه فكرة دكاكين حرف «ب» . فما هو ذلك المثل الاعلى ؟ أيها السادة ، أنه المثل الاعلى الذى يجعل ثمار التقدم الصناعى الحديث فى متناول أفقر طبقات المجتمع ، فى متناول رجل الشارع ، ذلك الفرد الذى يمثل الجماهير الكادحة . والجمـاهير الكادحة هى التى يجب أن تعنينـا أيها السادة ، لان رجل الاعمال الذى يزدرى البنس يرتكب خطـأ فاحشا . لان البنس لا يقل أهمية عن غيره . ذلك هو شعار دكاكين حرف «ب» . الا تزدرى البنس الذى يكسـبه العـامل « بطلوع الروح » . وذلك هو مثلـكم الاعلى الذى حقق نصرا حاسـما على سلسـلة محلات هارون الـكبرى بفروعها العديدة . فمنـذ الان

فصاعدا ستفتح محلات هارون هى الاخرى أبوابها لفقراء الناس ، وتدخل بذلك فى خدمة السعر الرخيص والتقدم الاجتماعى . ولست أشك لحظة فى أن البعض منكم لا يؤمن بشىء من هذا ، لانه لن يخلو مكان من الضعفاء والمتذمرين . بل وأستطيع أن أسمعهم وهم يبرطمون لانفسهم قائلين : ولاى شىء تريد كومبينة هارون الضخمة أن تعمل معنا نحن اصحاب الدكاكين الصغار ؟ وذلك سؤال ينبغى أن نعترف فى اجابتنا عنه : ليس طبعا من اجل سواد عيون دكاكين حرف«ب» فحيثما نظرنا فى الطبيعة ، لن نجد شيئا يحدث الا لمنفعة مادية . فكلما قال انسان لآخر دعنى أساعدك ، دعنا نبدأ معا ، الى آخر ذلك الكلام ، فان ذلك يعنى : افتح عينيك جيدا ، لان الناس بشر وليسوا ملائكة ، وهم يفكرون فى أنفسهم أولا ، فلا يوجد من يفعل شيئا من أجل آخر على سبيل الرحمة فقط ! القوى فى هذه الحياة يغلب الضعيف . وهكذا فاننا فى عملنا مع هارون ينبغى لنا أن نسأل أنفسنا هذا السؤال (بغير عداء طبعا) : «من الاقوى؟» هى معركة اذن ؟ نعم يا سادة ، انها معركة ! لكنها معركة سلمية ! معركة فى سبيل مثل أعلى ! ورجل الاعمال الذى يفكر تفكيرا صحيا لا يخشى خوض المعارك . الضعيف فقط هو الذى يخاف . ومثل ذلك الضعيف هو من تمر فوقه عجلة القدر لتمحقه محقا وتدمره تدميرا ! محلات هارون قد انضمت الينا اذن لا لان سواد عيوننا قد سحرها ، ولكن لانها قد أرغمت ارغاما على احترام قوة دكاكين حرف «ب» المتمثلة فى صمودها وتضحيتها بالذات فى سبيل مثل أعلى . وهذه صفات يجب أن نقويها وننميها . فقوتنا نابعة من تفانينا فى العمل ورضانا بالقليل . والكل يعرف ان كل واحد منا يقوم بما عليه أن يقوم به . ولهذا فانى ، أنا أيضا ، قررت أن اكرس كل جهدى وطاقاتى مستقبلا لدكاكين حرف «ب» . وليس دافعى الى ذلك الكسب المادى ، بل لانى أومن بالمثل الاعلى الذى تجسده دكاكين حرف «ب» ، ولانى أعلم أن تجارة التجزئة المستقلة هى عصب الحياة فى تجارة الوطن كلها ، وانها أيضا ، كنز ذهب لا ينضب !

وقد استمع لهذه الخطبة التى احدثت تأثيرا قويا ، عدد من الناس لا يقل عن خمسين رجلا وامرأة ، وبعض الصحفيين . ورغم ان ذلك الحشد الصغير لم يخل ، بطبيعة الحال ، من عدد من الضعفاء أو — على الاقل — ممن يبدو عليهم الضعف ، الا انها قوبلت بالتصفيق ، لان التغنى بعظمة المنافسة والمجهود الفردى ، يجد من

الناس دائما أذنا صاغية .

ولقد كان ماكهيث حريا بأن يهنىء نفسه على ما أحرزه من نجاح فى ذلك الاجتماع ، لولا انه انصرف فى اثره بصحبة فانى كرايزلر ، وبلغ ذلك مسامع بولى بطريقة ما .

***

فوجىء بها ذات ليلة ، وقدتأخر الوقت بعض الشيء .. فى انتظاره أمام منزله بنانهيد . كانت قد حصلت على عنوانه من أحد دكاكين حرف «ب» . وعندما وصل كانت قد قضت بضع ساعات جالسة على عتبة بابه . وجدها فى حالة نفسية سيئة . ولم تكد تراه حتى بادرته قائلة أنها لم تعد تستطيع العيش بدونه .

عندما دخلا قال لها ان موقف ابيها غير المفهوم منـــه قد عقـــد الامور كثيرا . اعترف لها صراحة بأنه كان يعتمد على بائنتها ، أو ، بالاقل ، على معاونة أبيها له فى الحصول على ائتمان كاف من البنك .

بكت بولى قليلا ثم قالت أنها لم تعد تطيق مطاردة مستر كوكس لها ليل نهار وهى عزلاء أمامه . ثم أخبرته انها حامل ، وان ماكهيث صغير ينمو الان على مهل فى داخلها . فتلقى ماك النبأ بطريقة اثلجت صدرها . تغيرت لهجته معها عن ذى قبل ، وبات يعاملها بقدر من التحرج المتسم بالخشونة سرها كثيرا .

اعترفت له والسعادة تملأ جوانحها أنها انتظرت طيلة ذلك الوقت أن يأتى لزيارتها خلسة ، خاصة وهى تعلم أنه لن يجد صعوبة فى التسلق الى شرفتها . فدهش لذلك وابدى استهجانه لمثـل ذلك الخاطر . قال كيف تتوقع منه أن يأتى اليها خلسة فى الليل لينام معها كما لو كانت عشيقته ؟ قال ان ذلك يكون أمرا لا يتصـــور . فوافقته الرأى .

رقد بجوارها مستيقظا ، مسندا رأسه الى يديه ، محـدقا فى السقف ، واخذ يحلم :

– سوف أدعوه ديك . وسأعلمه كل شيء . أخبره بكل ماأعرف.

وأنا أعرف الكثير . وســـوف أوفر عليه مشـــقة تعلم الكثير مما اضطررت الى أن أكتشفه لنفسى بنفسى ، فأعلمه حقائق الحيـــاة راسا ، سآخذ بيده الصغيرة وأعلمه كيف يدير عملا ، وكيف يستغل غيره ، فيجعلهم يعملون من أجله ، كيف يستخلص النفع من أخوته بنى الانسان رغم تقلبهم ، وعدم امكان الاعتماد عليهم ، واستحقاقهم لكل احتقار . سوف أقول له اذا حاول احد أن يسرق لقمة من طبقك

اضربه على رأسه بملعقتك ، بأى شىء فى متناول يدك ، ســوف أقول له ذلك ، وأظل أقوله له حتى يسلم به ويدخله فى رأسه ، فيبيت بمأمن من غيره من الناس . سأقول له كلمــا رأيت بابا مواربا ، أولج قدمك ، ثم ادفع بكتفك ، واقتحم البيت . افعل أى شىء الا أن تقف كالابله منتظرا ان تســقط النعم فى حجرك من السماء . سوف أعلمه بصبر وأناة . لكنى سأكون حازما للغاية معه. لن أدلله أو أفسده . سأقول له ان أباك لم يكن رجلا متعلما ، لكن أعظم أساتذة التاريخ لم يكن يقدر أن يعلمه جــديدا فى كيفية خداع الناس والضحك على ذقونهم ! نعم تستطيع أنت أن تذهب الى الجامعة وتتعلم ، لكن اياك أن تنسى من الذى جعــل ذلك فى مكنتك . ابوك اضطر ان يستخلص المال اللازم لتعليمك من بين فكى الاسد بنسا وراء بنس ، من جيوب خصوم متوحشين . خــذ رأس المال هذا وضاعفه . وسع معارفك يابنى . ولكن فى الوقت ذاته رسخ دعاماتك أكثر !

استغرق فى النوم بعبسة عميقة فى جبينه ، لكنه كان فرحا للغاية ببولى ، وبالابن الذى ستلده له .

فى صباح اليوم التالى ذهبت فأحضرت اللبن من دكان اللبان ، وتعلمت كيف تطبخ له طبقا من الكبد كما يحب أن يأكله . ولم تذكر فانى كرايزلر بكلمة . لا فى تلك الليلة ولا فى أى ليلة اخرى .

كانت علاقات ماكهيث قد اصبحت وثيقة بفانى فى الفترة الاخيرة. بالحقيقة أصبحت حميمة للغاية . وقد خشى أن تركب المرأة رأسها وتثير له المتاعب . لكنها — لعظيم ارتيــاحه — لم تبد أى تغير فى موقفها منه ، رغم أنه كف عن قضاء الليل معها ، وبات يقضيه فى بيته . والحقيقة أنه كان حريا بأن يأسف كثيرا لو وقعت جفــوة بينهما ، لانها كانت دعامة كبرى من دعامات شركة م.م.م. رغم أنه عندما أدخلها تلك الشركة فعل ذلك لانه تصور أنها متعلقة به لاسباب جسدية بحته

ولقد كانت حاجته اليها فى تلك الايام أعظم من أى وقت مضى .

فقد اعلن عن أوكازيون محلات كرستون بضجة دعائية كبرى .

وفى الاجتماع الذى عقد أثر ذلك فى قاعة فاخــرة بمبنى البنك التجارى تقرر أن الوقت قد حان لكى تشــتبك محــلات هارون ودكاكين حرف «ب» فى معركة حاسمة مع كرستون ، وأن تتخذ تلك المعركة شكل أســبوع من الاوكازيونات بتضحيات مخيفة فى الاسعار ، اتفق على أن يبدأ بعد ثلاثة اسابيع من تاريخ الاجتماع .

(٩)

« ولان الانسان يعيش برأسه ،
يحتاج الانسان لرأس أكبر ،
ومن لم يصدق فليجرب بنفسه :
وسوف يجد أن رأسه لا يكفى طعاما لقملتين .
وسيجد ايضا أنه فى هذا الوجود
لا يوجد انسان ذكى بما فيه الكفاية ،
فالحياة اقصر من ان يتعلم فيها كل ما يجب أن يتعلم
فيعرف كل الالاعيب وكل الحيل !

« ضع خطتك الصغيرة اذن
واقنع نفسك أنك شديد البراعة اذن ،
ثم ضع خطة اخرى صغيرة أذن ..
فكل خططك لن تجديك شيئا !
لان هذا الوجود يا صاح
ليس فيه انسان شرير بما فيه الكفاية
ليقدر على العيش فيه .
لكنه من الممتع حقا أن يرقب المرء كل هؤلاء الناس وهم
يتظاهرون بالصلابة !

« اجر اذن وامسك بحظكفى الحياة ،
لكن لا تسرع فى الجرى كثيرا ،
لان الكل يجرون وراء الحظ جريا
والحظ يجرى وراءهم !
وليس فى هذا الوجود يا صاح
انسان وديع وطيب بما فيه الكفاية .
وكل جهده العظيم ، سواء كان طيبا أو لم يكن
ليس الا خدعة كبيرة مضحكة ! »

(نشيد عدم جدوى الجهد الانسانى)

قتال على كل الجبهات

كان مستر بيتشام هو الاخر مشتبكا فى معركة مستيئسة ·
كان يقاتل ليل نهار ليرفع عن كاهله رزية شركة الملاحة ويحطها على كاهل احد غيره ،مناضلا بكل ما اوتى من قوة ليخرج عنقه من تلك الخية ، ويعود الى مهنته التى يجيدها ، مهنة الشحاذة بالجملة ·
ولقد أصبح حبه لتلك مضاعفا . فخوفه من أن يعود الى الحضيض ، وشعوره بأنه قد وقع ضحية لنصاب يفوقه مكرا ، وقسوة ، وبراعة ، أثارا فيه حماسا الى الشحاذة بضراوة أكثر ، الى توسيع مجال نشاطه الذى يزدهر هو الاخر على الخديعة ، والنصب ، واضطهاد الاخرين · كان من دأبه أن يقلب الخسارة الى مكسب ، والهزيمة الى نصر ، لانه يعلم جيدا أنه لا يوجد مكان للخاسرين او المنهزمين .
كان يقف أحيانا على مقربة من حظائر الكلاب فى فناء بيته ويتحدث الى العسكرى فيوكومبى كما لو كان صديقا حميما . وقد دهش العسكرى الاعرج لذلك كثيرا ، لكنه ما لبث أن أدرك ان مستر بيتشام لم يكن ينظر اليه اطلاقا ، فخطر له أن ذلك الحديث ربما كان موجها الى الكلاب .
قال مستر بيتشام فى يوم من تلك الايام :
— قرأت فى احدى الصحف مؤخرا أن الشحاذة كثرت فى هذه الايام . هراء ! لان المرء اذا اتخذ عدد الشحاذين مقياسا سيتصور انه لم يعد وجود للفقر . ولطالما سألت نفسى أين هم أولئك الفقراء ؟ والجواب : فى كل مكان . انهم يختبئون وراء كثرتهم . يلوذون ببعضهم بعضا . ويتجنبون الشوارع النظيفة والاماكن التى يكثر فيها سواهم من الناس · لكن مخبأهم الاعظم هو العمل · فهم يعملون طيلة الوقت · فان لم يجدوا من يعطيهم عملا خلقوه لانفسهم خلقا ·
لكن ذلك لا يجديهم شيئا . فوق أن أحدا لا يلاحظ انهم فقراء وانهم غير قادرين على أن يشتروا شيئا لانهم لا يدخلون دكانا ليشتروا أى شىء . ومع ذلك فأنا أعرف أين أجدهم . وأعرف أيضا كيف يمكن للمرء ان يكدس ثروة هائلة من ورائهم ، باستغلال عطف الاخرين عليهم واحساسهم بالذنب تجاههم · لكن ذلك مستحيل التنفيذ عمليا · كيف يستطيع المرء مثلا أن يستخدم منظر أم تحتضن طفلها الجائع المريض وهى تحملق فى جدران غرفتها التى تنشع بالماء ؟ ينظم جولات

سياحية لمشاهدتها هي وآلاف مثلها ؟ أو منظر الرجل الـــذى يدرك فجأة أن الحياة قد أسقطته من حسابها وأنه قد استهلك ونبذ ولم يعد يريده أحد ؟ منظر كهذا يقطع نياط القلوب ، لكنه بغير عرض تجارى سليم ودعاية منظمة لا يساوى قلامة ظفر . هذان مثالان اثنان فقط من آلاف الامثلة .

وفى مرة أخرى قال :

ــ لا تظن أنى أجيع كلابى هذه على سبيل القسوة ٠ لكن تلك ضرورة من ضرورات العمل . فدخلنا يتناقص كلما سمنت هــذه الكلاب ، لانها اذ ذاك لا تستدر عطف احد .

وفى مرة أخرى أثار ذعر فيوكومبى بقوله :

ــ انك تبدو ســعيدا أكثر مما ينبغى يا صاح . انا لا اكف عن محاولة افهامكم هذه الحقيقة : يجب أن تبدوا كلكم تعساء تثيرون نفور من يراكم ٠ فالناس يدفعون اذذاك عن طيب خاطر ليجعلوكم تفورون عن وجوههم .

والحقيقة ان مستر بيتشام كان حريا بأن يصاب بصدمة حقيقية لو ادرك أن مثل هذه المصارحات أمام مستخدميه تعتبر عرضا من أعراض اصطخاب نفسى خطير . فهو يعلم جيدا أن المرضى والضعفاء لا مكان لهم .

لكنه ــ فى واقع الامر ــ كان يمر بمرحلة نفسية عصيبة ، حتى وان لم يدرك ذلك ٠ فتدبير المال اللازم لشراء تلك السفن الجديدة من ساوثمبتون لم يكن أمرا سهلا على الاطلاق ٠

ولقد اضطر أن يلجأ الى ميللر ، فى بنك الائتمان الاهلى . لــكن ميللر اســتفظع فكرة القرض الذى ألح اليه بيتشـــام ، فى حدود ٥٠٠٠ جك . رفع ميللر يديه الى السماء علامة الرفض البـــات والاستفظاع الكامل . لكنه لم يشأ أن يغضب ذلك العميل القديم ، فأشار من فوره الى مسئوليته تجاه البنت الصغيرة المســكينة التى عمرها سبع سنوات والتى تملك البنك . ثم أضاف أنه ، فى تلك الآونة ، غارق حتى اذنيه فى عدد من الصفقات الضخمة ، ولا يجد حرجا فى مصارحة عميل موثوق به كمستر بيتشام أن تلك الصفقات تخص أساسا مؤسسة كرستون ، وقال أيضا انه قد احزنه وصدمه كثيرا أن يكتشف افتقار عميل مليء كمستر بيتشـــام الى السيولة بهذه الدرجة الخطيرة . وفى ذلك القول الاخير لم يكن ميللر منافقا كذابه ، لانه احس فعلا بالانزعاج ، بدرجة تفوق ما أظهره لبيتشام.

كانت لبيتشـــام وديعة ثابتة فى بنك الأئتمان الاهلى قيمتهـا ١٠٠٠٠ جك • لكنه لم يخطر له ببال أن يمس تلك الوديعة ، تحت أى ظرف من الظروف . فوق أنها لم تكن تكفى .

لكن الامور فى شركة النقل البحرى كانت تتدهور بصـورة تدعو الى القلق . ففيتى العجوز أعلن فى حسم أن الاوان قد آن أخيرا لاجراء عمليته ، وهدد بدخول المستشفى فى اليوم التالى . لم يظل من الشركاء واقفا على قدميه غير ايستمان الذى استمر بعناد كعناد البولدوج ، لكن جهوده لم تجده أو تجد أحدا شيئا .

ثم بلغتهم انباء مفادها أن مستر هيل ، صديق كوكس الذى فى الاميرالية مهدد بفضيحة مدوية .

جاء كوكس بنفسه الى بيتشام وانتظر فى المكتب الصـغير وراء الباب المبطن بالجديد حتى أقبل ايستمان الذى استدعى على عجل . واذ ذاك أفضى اليهما بما عنده من أنباء سيئة .

قال ان هيل تلقى منذ بضعة أيام خطاب تهديد بقصد ابتزاز بعض المـال منه جاء فيه أن زوجته كانت قد القى القبض عليها منذ عامين ، أثناء غارة قام بها البوليس ، فى فندق مشبوه ، برفقة صديق من أصدقاء زوجها . قال مرسل الخطاب فى خطابه أنه قد توصل الى الحصول على يوميات ذلك الصديق ، وأن تلك اليوميات تثبت ان هيل كان على علم بالامر كله .. وانه لم يفعل حياله شيئا ، بل والادهى من ذلك أنه متورط الان فى عمليات مريبة مع ذلك الصديق الذى ضبط مع زوجته فى وضع شائن ..

روى السمسار هذه القصة وعيناه لا تحيدان عن وجه ايستمان ، الذى كان الحديث موجها اليه أساسا . فلما قال كوكس ما عنده ، التفت ايستمان بوجه ناطق بالعذاب الى بيتشام الذى ظهرت عليه أعراض المرض من جديد .

سأل بجهد متجنبا النظر الى كوكس :

ــ كم ستتكلف تلك اليوميات ؟

قال كوكس كأن الامر لا يعنيه :

ــ الفا من الجنيهات .

فقال ايستمان :

ــ لم لا يدفعها هيل اذن ؟ لقد دفعت له شركة النقل البحرى ٩٠٠٠ جك حتى الان •

قال كوكس ، متذرعا بالصبر :

ـ أنه لا يحتكم في مليم واحد من ذلك المبلغ . فزوجته يجب أن تشترى ثيابا وما الى ذلك ، والا عجزت عن الخروج مع احد ، او حتى عن الذهاب الى فندق مع أحد . ثم ان بقية النقود التى اخذها من شركة النقل البحرى يجب ان تستخدم فى تكتم الفضيحة التى اثارتها معاملات شركتكم الملتوية مع الحكومة ، ومنع اجراء تحقيق بأى ثمن. الحقيقة أن موقف ذلك الرجل يقطع نياط القلوب .

سأل بيتشام متنطعا :

ـ وما الذى سيحدث اذا لم يدفع ؟

فقال كوكس :

ـ أبدا . سيحدث فقط انه سيضطر الى الاستقالة . من أفظع الامور أن يكون الناس الذين يتعامل معهم المرء متورطين فى أشياء كهذه . يجب أن نساعد هيل . لانه اذا غرق غرقنا معه .

تردد كوكس لحظة وهو ينصرف ثم سأل بيتشام وهو يبرم شاربه بحركة جريئة وقحة :

ـ هل عادت مس بولى من شامونيكس بعد ؟

فقال بيتشام بصوت مبحوح :

ـ كلا .

كان قد قال لكوكس أن بولى في سويسرا ، لتستكمل دراستها . وقد خطر له أن يرسل عددا من بطاقات البريد المزيفة باعتبار انها من شامونيكس ، تعزيزا لتلك الاكذوبة . لكنه عدل عن تلك الفكرة ، مدركا أن القصة المخجلة بأكملها يجب أن تروى لكوكس صراحة ، ان آجلا وان عاجلا ، ولو ان ذلك لا يجب أن يحدث الا بعد ان يكون قد تم ترتيب كل شيء بطريقة مرضية .

لم ينس كوكس مرة أن يسأل عن بولى .

تقرر أن يقابل بيتشام كلا من كوكس وهيل فى الحمامات يوم الاثنين التالى . كان كوكس يصرف كل أعمال شركة النقل البحرى الان فى حمامات « أبى ريشة » ، وفى يوم الاثنين ، بصرف النظر عن اية طوارىء تدعو الى تغيير ذلك اليوم . فى يوم الاثنين التالى لمجىء كوكس الى الدكان ، بكر ذلك الاخير فى الذهاب مع هيل الى الحمامات . خلع الاثنان ثيابهما بسرعة ، بغير مساعدة من الفتيات ، ثم أخذ هيل ، وهو رجل سمين قد تخطى الاربعين من عمره ، يتكلم قال لكوكس بنبرة عتاب :

ـ لقد كنت دائما ، منذ البداية ، ضد علاقتك بايفيلين

يا ويليم ، وأنت تعلم ذلك جيدا . فأنت لم تسبب شيئا غير المتاعب بينها وبين رانش • أستطيع أن أقص عليك حكايات لا نهاية لها عن مشاحنات وقعت بينهـا وبين رانش كلها بسـبب أنت • وهى حساسة للغاية . أدنى قلق نفسى يجعل مزاجها منحرفا لبضعة أيام. وأنا لاأحس بالسعادة أبدا عندما يكون هناك مايضايقها • فأنا مغرم بها• ثم حكاية الفندق هذه ! لابد أنك كنت غائبا عن وعيك • فلاأحد يذهب الى فندق كهذا مع سيدة كهذه الا اذا كان مجنونا •وانى لاعجب كيف لم تصبها حكة ! فى فندق كهذا يغيرون ملاءات أسرته كل ساعتين لابد أن تكون الملاءات رطبة ، وغير نظيفة ! وحتى بغير هذا . كيف سمح لك قلبك أن تحقرها بالنوم معها فى مكان موبوء كهذا ؟ أنا أعرف زوجتى جيدا ، وأعلم أنها أشد نساء العالم حساسية •لابد أن حقارة المكان سـحرتها . فهى لم تألف مثل تلك الامكنة الموبوءة . وتلك الملاءات ! لن أغفر لك ذلك أبدا . وصدقنى عندما أقول لك أنهـا ليست هى العواقب التى تزعجنى . ولو انى بسبب حماقتك مع ايفيلين أجدنى الان مضطرا الى اذلال نفسى فى سـبيل ألف جنيه أشحذها من هؤلاء السوقه . وبصرف النظر عن كونهم كذلك ، أى ذنب لهم فى مشكلاتى الخاصة التى جاءتنى من تحت رأسك ؟ سيكونون محقين اذا قالوا : نحن نتعامل معك ، لكننا لسنا ملزمين بأن ندفع من حر مالنا فى سبيل تنظيف غسيلك القذر • والحقيقة أنى أفضل أن أنصرف الان قبل أن يسوء الامر أكثر . فأنا ، بعد كل شىء ، موظف حكومى .

نظر اليه كوكس وقال :

ــ تماما . أنت ، بعد كل شىء ، موظف حكومى .

فقال هيل مزمجرا وهو يضع جوربه على ظهر مقعد :

ــ الذى أود أن أعرفه هو كيف توصـل هذا البلطجى الى سرقة يومياتك اللعينة التى كان يجب أن تكتبها بكل هذه الدقة !

غطس كل منهما بعد ذلك فى برميله الخشبى .

كان هيل قد طلب أن يأخذ حماما من الطين ، بينما اختار كوكس حماما أضيفت الى مائه بعض الاعشاب الطبية المقوية . استطرد هيل قائلا بحزن بالغ :

ــ أنت لا تتصور كم يجب علينا نحن كبار المسـئولين أن نلتزم بمقتضيات الامانة • لا يجوز لنا أن ندخل فى أية صفقات جانبية أو أشياء كهذه • لن أتحدث عن أحداث وقعت أخـيرا فى الامبرالية •

افضل أن أدع بريطانيا العظمى خارج الموضوع . أنا لا أعلم شيئا عن هذه المسائل ، وأفضل ـ كانجليزى ـ الا أعلم عنها شيئا . ولكن انظر ما فعله الهرفون بيسمارك فى المانيا ! انه رجل عظيم . لقد اقتنى حتى الان ضياعا شاسعة ، وأفادت بلاده من ذلك فائدة عظيمة . لكن الناس لا يحكمون علي رجال الدولة احكاما صائبة أو عادلة . لانهم لا يرون الصورة كاملة . يرون فقط هذا التصرف او ذاك فيطلقون السنتهم ويثرثرون وينتقدون . لكن ما الذى يفهمونههم فى هذه المسائل ؟ تسمعهم يقولون هذا التصرف الديبلوماسى او ذاك تصرف خاطىء . وما ذلك الا لانهم يأخذون بالنتائج الخارجية . وهو موقف بالغ السخف . فهل يعلم أى منهم الغرض الحقيقى من ذلك التصرف الذى ينتقده ؟ ابدا . عندما أبرق قيصر المانيا الى الرئيس كروجر ، هل تعرف اية اسهم ارتفعت وأية أسهم انخفضت؟

كلا ! الشيوعيون وحدهم هم الذين يزجون بأنوفهم فى مسائل كهذه ويسألون . ولو أننا يجب أن نعترف بيننا وبين أنفسنا أن الشيوعيين ليسوا وحدهم الذين يريدون أن يعرفوا ، فالديبلوماسيون يريدون أن يعرفوا هم ايضا . ولا يجب ان نخجل من الحقيقة . فالسياسة ليست الا نشاط أعمال هى الاخرى ، ولو أن وسائلها تختلف عن وسائل رجل الاعمال . ولهذا السبب يجب أن نحرص على شرفنا ، فلا ندعه تشوبه شائبة . هذه الحكاية عن مغامرتكما الحمقاء فى الفندق يجب ان تظل طى الكتمان بأى ثمن ، لانها ان عرفت ، سأطرد من الاميرالية شر طردة . سأخرج مجللا بالعار ، مشيعا باللعنات . لانه لا يوجد سجل خدمة ، مهما طال وعظم ، يستطيع أن يجب فضيحة كهذه . ولا تنس ان ايفيلين زوجتى ، وأن الناس يحبون أن يلفوا فى مثل هذه الامور الحميمة . لكنى ، رغم ذلك كله ، أمين فى دخيلة نفسى ، وأحس أنى لا يجب أن تكون لى أدنى علاقة بهؤلاء الناس البائعين الذين تتعامل معهم .

وهنا اضطر هيل أن يكف عن الكلام ، لان بيتشام دخل عليهما . انتقل الثلاثة بعد ذلك الى حيث اخذوا حماما تركيا معا .

فيما بعد ، وقد تمدد كل منهم على أريكة ، مسندا رأسه الى منشفته المبللة ، بدأ بيتشام يتكلم . وقد فعل ذلك بصوت خافت ، كما لو كان مريضا . وهو ما لم يجانب الحقيقة كثيرا . قال :

ـ يؤسفنى أن أقول لك يا سيد هيل أن معاملاتنا معك ، رغم ما تكبدناه من أموال جسيمة فيها ، لم تكلل بالنجاح أبدا . فعلى

العكس تماما من كل توقعاتنا ، وما قيل لنـــا اكتشفنا مؤخرا أنك لست فى مركز يسمح لك بشراء سفننا نيابة عن الحكومة بغير عقبات، وهو ما سبب لنا ، بطبيعة الحال ، خسائر فادحة .

دمدم هيل شيئا ، لم يتبينه بيتشـام ، وهو ممدد على أريكته المخلخلة يربت على صدره الاسفنجي بيدين صغيرتين شحيمتين .

استطرد بيتشام قائلا ، وما زال يتكلم بنفس الصوت الخافت المجهد :

ـ يجب أن تدرك ياسيد هيل أننا ، كلنا ، رجال أعمال صغار ، امكانياتنا محدودة ، وأموالنا كسبناها بخلع الضرس . ولذلك آمل أن تكون قد جربت كل الطرق الممكنة للخروج من ورطتك هذه دون أن تحملنا عبئها ؟

مال بيتشام برأسه ونظر الى الموظف الكبير . كان هذا الاخير قد خرس الان. ولم يعد يبدو مهيبا على الاطلاق. مجرد كتلة من اللحم على قطعة خشب . أدرك كوكس وهو ينظر اليه أنه أخطأ اذ قدمه بغير ثياب . رآه كمجرد رجل آخر سمين ، فى منتصف العمر ، لا يتميز بأى ذكاء خارق ،ولا يبدو اطلاقا كما ينبغى أن يكون موظف الحكومة الخطير: شخصا خطيرا ، ملء ثيابه . التمعت عينا كبير الشحاذين وهو يتفحصه وكأنه قد اكتشف فيه شيئا أثار اهتماما خاصا فى نفسه . وعلى الفور طرأ على صوت بيتشام تغير . حقيقة أنه كان تغيرا لا يكاد يلحظ ، لكن لهجة الرجل تغيرت عن ذى قبل . قال :

ـ سمعنا من مستر كوكس أنك تعانى من متاعب خاصة تسبب لك مضايقات فى عملك . ذلك أمر يؤسف له . فهل نسـتطيع أن نساعدك بأن نزيل من طريقك السبب فى تلك المتاعب ؟

دمدم هيل شيئا آخر غير مفهوم . ود لو استطاع أن ينظر الى كوكس . فلم يكن اللقاء سائرا فى الاتجاه الذى توقعاه .

استطرد بيتشـام قائلا :

ـ لعلك تعرف أننا لم يحالفنا الحظ فى العثور على سفن لنقـل الجنود . فالسفن التى اشتريناها تبين فيما بعد أنها ليست مرضية بالدرجة التى جعلنا البعض نتوهمها . وقد سمعنا أيضا أنك تتوقع أنت الاخر متاعب غير مستحبة بخصوص هذهالسفن .ونحن نقدر طبعا أن المتاعب الخاصة التى تعانى منها تجعل من الصعب عليك أن تتفرغ كلية لمواجهة هذه المتاعب الخاصة بالعمل . وأجدنى مضطرا فى هذه المرحلة أن افضى اليك بسر يتعلق بشئونى الخاصة وشئون أسرتى .

أنا أنظر الى مستر كوكس باعتباره زوج ابنتى المقبل .

استدار كوكس بتكاسل ، فنظر الى بيتشام بدهشة طفيفة . ثم تذكر فجأة مقابلة له مع بيتشام فى دكانه ، سأله هذا الاخير فيها عن المبلغ الذى ينوى أن يعفيه من تحمله فى مذبحة سفن النقل هذه . تذكر أن ذلك السؤال أعطاه انطباعا معينا عن بيتشام ما لبث أن نسيه .

وفى أثناء ذلك كان بيتشام مستطردا فى كلامه ، بهدوء :

ـ وأحب أن تعرفا أننا لم نتخل بعد عن فكرة استخدام السفن القديمة .

لزم السيدان الاخران الصمت . لكن بيتشام لم يتأثر لصمتهما كثيرا . فقد اكتشف شيئا لم يدركه يوم ذهب الى ساوثمبتون : أن هذين الافاقين كانا قد عقدا العزم منذ البداية على تسليم السفن القديمة الى الحكومة ، ولا شىء سواها !

ضحك كوكس ضحكة خشنة ، كمحاولة أخيرة للارهاب ، وقال :

ـ كذا ! انتم اذن ، فى سبيل بضعة آلاف قميئة من الجنيهات ، قد عقدتم العزم على غش الحكومة البريطانية وتسليمها سفنكم النخرة ؟

الان جاء دور بيتشام ليلزم الصمت .

سأل كوكس بفظاظة مفاجئة :

ـ هل هذا هو قرار شركة النقل البحرى ؟

فنظر اليه بيتشام ببطء ، وقال ، هادئا :

ـ كلا . انه قرارى انا .

بعد بضع دقائق تحولت دفة الحديث . بدأ هيل يبرطم شيئا أو آخر عن الضباب . فوافقه بيتشام الرأى فى كل ما قال . ثم خرجوا ثلاثتهم من الحمامات ، بعد أن اتفقوا على لقاء آخر . وخلال تلك الدقائق الاخيرة التى أعقبت رد بيتشام الهادىء ، لم ينطق كوكس بكلمة .

***

اخيرا ، بعد تخبط دام شهورا طويلة تعسة ، بدأ جوناثان ارميا بيتشام يرى طريقه بوضوح .

عندما بدأ حديثه مع رجل الامبراالية الخطير لم يكن يتوقع أن تنفتح أمامه بغتة ، من خلال صمت هيل البدين ، تلك الثغرة التى أطل منها على الحقيقة ، واكتشف هول الخديعة .

لكنه اطل واكتشف ورأى لا لشيء الا ليتعذب .

لم تكن سفن ساوثمبتون الجـــديدة ، تلك التى دفعته الى حافة الخراب ، هى التى ستسلم للحكومة ، بل السفن القديمة النخرة التى لا تصلح لركوب البحر كما قال عنها الجميع . ومعنى هذا ؟ هذا له معنى واحد : أن الافاق كوكس والتعس هيل سادران فى عملية نصب رهيبة يحلبان خلالها شركة النقل البحرى الهزيلة ، المريضة ، المسكينة ، فيستنزفان منها آخر بنس فى دمائها . وقد يشتريان بعد ذلك السفن الجديدة أو لا يشتريانها ، فذلك شيء لا علاقة له بالحكومة ، لكن كيفما كانت الحال فشركة النقل البحرى التى هتك عرضها هى التى ستدفع الثمن . وكل ذلك قد رسمت الخطط له وأعدت منذ البداية بهدوء أعصاب وبرود دم !

ولا يعنى ذلك أن مستر بيتشام احس غصة أخلاقية لان أحدا نصب على أحد واستنزف ماله . فذلك أمر مسلم به ، ولا عيب فيه ، وهو سنة الحياة . لكن المصيبة أن المنصوب عليه هو بيتشام ولا احد سواه ، والادهى والامر سبيلا أن كوكس لم يدخله فى اللعبة من مبدأ الامر ، وتركه فى غفلة من أمره ، رغم أن كوكس قد عامله دائما ، فيما خلا ذلك ، باعتبار أنه حموه المستقبل .

لكن بيتشام لم يعد لديه الآن ما يخشاه أكثر من أن كوكس قد يتعجل الزواج من بولى قبل أن يتمكن هـو ، بيتشـــام ، من فض مشكلتها المشينة مع ماكهيث . لكن كوكس لم يبـد أية علامة من علامات نفاد الصبر . وهكذا فانه عندما ذهب ليعطيه المبلغ المتفق عليه لحساب هيل ، أدار دفة الحديث ـ وقد بدأ الفأر يلعب فى عبه كما يقال ـ الى موضوع ابنته . فلزم كوكس الصمت فى أول الامر، ثم قال انه ليس ميـــالا الى تعجـــل بولى ، وأنه يريدها أن تحبـه لشخصه . وقال أيضا انه ليس هناك ما يدعو بيتشام الى القلق أيضا ، لانه ، بصرف النظر عما تحسه الآنسة بولى تجاهه ، فان بيتشام سيظل أباها فى عينيه ، وسيعامله على ذلك الاساس . ثم أضاف ، خافضا عينيه ، أنه يحس نشوة حقيقية ، لانه ، لاول مرة فى حياته ، وهى حيـاة كانت لها جـوانبها القبيحة التى لا تحصى ، بات بوسعه أن يقدم على تضحية حقيقية فى سبيل قضيـة أكثر عمقا ونقاء من أية قضية عرفها فى حياته .

الحقيقة أن مستر كوكس كان ـ ببساطة ـ واحدا من أفراد تلك القبيلة واسعة الانتشار التى تعرف باسم أولاد الحرام .

أنصت اليه بيتشام بوجه لا يعبر عن شيء ، وقرر فيما بينه وبين نفسه – للمرة الالف – أن يعجل بتلك الزيجة بين كوكس وابنته . بدا له حديث كوكس هلاميا أكثر مما يجب. وبدت له دوافع الرجل أجمل وأنبل من أن تكون حقيقية ، فذعر . خاصه وأن كوكس سبق أن قال ، بعبارة لا التواء فيها ، بمحضر من كافة الشركاء فى شركة النقل البحرى المنكوبة ، أنه لن يتورع عن أخذ نقود بيتشام ، ضمن نقود من سيأخذ نقودهم .

لهذا اعقبت ذلك اللقاء المزعج مناقشات ومشادات مستفيضة فى شارع أولد أوك ، تقرر على آثرها القيام بمحاولة أخرى مستيئسة لتحرير بولى . من يدرى ؟ ربما كان بالوسع ترتيب بعض المصائب المالية التى تحل بماك فتربكه .

وبالفعل ، جاء من يقول لماك ، فى عنفوان حملة البيع الكبرى ، أن حشودا عظيمة من الشحاذين قد تجمعت فجأة داخل دكاكينه وخارجها ، وأن أولئك الشحاذين يقلبون البضائع ، ولا يشترون شيئا ، لكنهم لا يكفون عن انتقاد كل سلعة وتعداد عيوبها . وأنهم يحدثون ضجيجا لا مزيد عليه ، ويقلبون كل شيء رأسا على عقب .

وقال له من جاءه بتلك الانباء السيئة أيضا أن الشحاذين يقفون أزواجا وثلاثات أمام الدكاكين يتحدثون فيما بينهم بأصوات عالية عن الخردة التى تباع بالداخل ، وعن سرقة نقود المشترين .. ولما كان المشترون يضطرون ، لكى يدخلوا الدكاكين ، الى شق طريق بين أولئك الشحاذين الذين كانوا على درجة غير مألوفة من القذارة والعدوانية ، فان أعداداً متزايدة منهم اضطرت الى العدول عن الشراء والانصراف من تلك الاماكن الموبوءة . قام ماك بجولة سريعة بين دكاكينه ، فتعرف على كثيرين من مستخدمى حميه . فكر بادىء ذى بدء فى اللجوء الى البوليس . لكنه مالبث أن وقع على طريقة أفضل . ففى يوم الجمعة التالى ، والزحام على أشده ، جعل أصحاب الدكاكين يضعون فى واجهات دكاكينهم لافتات مكتوبة بخط اليد تقول :

« حتى الشحاذين بوسعهم أن يشتروا بضائع من أجود الاصناف هنا »

ثم وصل النبأ الى الصحف ، فاكتسبت دكاكين حرف «ب» شعبية أكثر .

مرة أخرى ذاق مستر بيتشام طعم الهزيمة . .

لكن ذلك لم يقلل بحال من المصاعب التى كانت تنتظر ماكهيث . فمقابلة مستر بيتشام باهظة الثمن بأحد كبار موظفى الاميرالية فى حمامات أبى ريشة كان مقدرا لها أن تكون بعيدة الاثر فى مخططات ماكهيث ومشروعاته . فمن ذلك الحين وصاعدا ظلت هناك صورة واحدة تتراءى لعينى بيتشام . صورة ثلاث سفن نخرة متآكلة ، محملة بآلاف الجنود ، تمخر عباب البحر . حكاية فظيعة !

نفدت البضائع

قسم ماكهيث وقته بين أوهارا وفانى كرايزلر بالعدل والقسطاس. كان يلتقى بالاول عادة فى دكان حلاق مع اثنين من رجال العصابة احدهما جروتش ، والاخر يدعى « الأب » ، والاثنان من كبار اللصوص . أما سرقاتهم الكبيرة فكانت توضع خططها فى حانة قريبة . أما اجتماعاته بفانى فى مكاتب م.م.م. ، فكانت تمنحه غذاء روحيا عظيما . كان رأس ماكهيث ما زال يفرخ الافكار الجيدة ، ولم يكن هناك من يضارعه فى مجال التنظيم . ولقد راقته فكرة فانى عن شراء ستوكات البضائع من الشركات المفلسة ، وأثبتت التجربة العملية أنها أربح بكثير من عمليات السطو . ولو خير ماك بين هذه وتلك لاختار الاولى بغير تردد ، فصال وجال فيها ابداعا ، وتحسينا ، وتنظيما . لكن ذلك العقد الذى وقعه مع اليهودى هارون كان كالغل فى عنقه .

ولقد مر ماك بعدة أيام عصيبة ، واجتاحه خوف من أنه سيضطر الى الاعتراف للسادة أوبر وهارون بأن المعركة الحاسمة الوشيكة مع كرستون لا يمكن أن تتم . لكنه ، فجأة ، خطرت فى ذهنه فكرة عظيمة ، ولو أنها محفوفة بالمخاطر المهلكة .

ظل يقلب فكرته ليلة بعد ليلة يقضيها مؤرقا فى فراشه . متدبرا فى الوقت ذاته الموقف الخطير الذى بات فيه . كان ذهنه يصفو ويمسى قادرا على التفكير بجلاء وهو يسمع أنفاس بولى الهادئة التى تنم عن سبات لا يكدر صفوه شىء . فى تلك اللحظات كان يتخذ اجرا قراراته .

ثم عقد عزمه ذات صباح ، وذهب الى اليهودى هارون ، دون أن يخبر فانى بشىء ، فحدثه هكذا :

قال له اسمع . لايجب أن نضع اعتمادنا كله على أسبوع التضحيات الذى سنقيمه . يجب أن نقوم أيضا بخبطة أكثر فعالية ، فنفسد أسبوع كرستون ما استطعنا قبل أن يبدأ . وقد يجدى فى ذلك أن نبدأ من الآن بخفض أسعارنا . وشركة م.م.م. بوسعها ان تبدأ فى تسليم البضائع منذ الآن ، بينما بضائع كرستون الرخيصة ليست جاهزة بعد ..

نظر اليه اليهودى بعينين حالمتين . كان فى ماكهيث شىء لايروقه. فهو كلص : محترم أكثر مما يجب ، وكمواطن محترم ، لص أكثر مما يجب . فوق أن شعره شحيح فوق راسه الذى يشبه راس فجلة . كان هارون سريع التأثر يمثل تلك الصغائر .

لكنه ، رغم تحفظاته على ماك ، وافق على فكرته . كانت زوجته قد قامت بجولة لشراء بعض الحاجيات برفقة مسز ماكهيث ، منذ بضعة أيام ، ولم تجد منفذا الى ذكر بولى أو زوجها بسوء . واشد ما أثر فى نفس هارون ما اكتشفه - من خلال زوجته - من أن ماك لا يبذر نقوده ، وأنه يعيش حياة لا بذخ فيها ، ويمسك حسابات بيته بنفسه . قال له عقله اليهودى هذا رجل يعرف قيمة المال وهذا المال الذى يدخره قد ينفع فيما بعد .

وفوق هذا كله وجد ماك حليفا غير متوقع فى شخص أكبر الاخوين أوبر . فبفضل فكرة من أفكار ماك راقت للاخ أوبر أثناء عطلة نهاية الاسبوع المشهورة فى القلعة ، كان ذلك الاخير قد أقنع هارون بأن يعلن بين مستخدمى محلاته عن مسابقة - جائزتها المشاركة بنسبة معينة فى الارباح - « للانتصار » على أكبر عدد ممكن من العملاء الذين يدخلون تلك المحلات . أما ذلك الانتصار فيتمثل فى تغلب البائع على حرونة العميل الفطرية واحجامه عن الشراء ، بحيث يمنعه من الانصراف دون أن يشترى شيئا ، « فيجره » منتصرا الى الخزينة ، بعد أن يكون قد أقنعه بالشراء . وقد نجحت الفكرة نجاحا كبيرا ، وتبارى بائعو هارون ، وجلهم من اليهود ، فى اقتناص الزبائن ، و « الانتصار » عليهم ، بغية المشاركة فى الارباح . ولم ينس الاخ الاكبر أوبر ، عندما نجحت فكرته ، أن الفضل فى تلك الفكرة لذهن ماكهيث ، فوقف بجانبه .

أفرخت حملة اعلانية كبرى ، وتكاثرت الاعلانات كالارانب أما الدكاكين فاكتظت بالبضائع التى حصل عليها « مندوبو

المشتريات ») فتنوعت وكثر عددها ، حتى الاقبية الصغيرة الملحقة بدكاكين حرف « ب » الهزيلة تكدست فيها البضائع حتى اسقفها . وهكذا فان الجمهور عندما جاء ليشتري. . . كان يشتري سلعة فتجتذبه أخرى تبدو له ضرورية لا غنى عنها ، فيخرج الجمهور حاملا كل ما استطاع حمله وقد سحرته الاسعار المنخفضة حتى أصبح كالمنوم مغناطيسيا ، خاصة وأن لافتات كبيرة بالطباشير الملون على ورق اللف البني أعلنته أن تلك كانت فرصته الوحيدة والاخيرة التي لن تتكرر أبدا لشراء أشياء لا حاجة به اليها . ومن رخص الاسعار كان المشترون يخرجون متسللين بمشترياتهم كاللصوص وكأنهم يخشون أن يفيق البائع فجأة فيدرك أنه قد باعهم كل تلك الاشياء بثمن بخس .

كان من الطبيعي أن يجد ماك نفسه في دوامة نشاط محموم . أخذ يمر بدكاكينه ، دكانا وراء آخر ، فيساعد أصحابها باسداء النصح تارة ، وبكتابة بطاقات الاسعار تارة أخرى . لكن انشغاله الاساسي ، بطبيعة الحال ، كان تأمين تدفق سيل لا ينقطع من تلك البضائع التي لا تصدق أثمانها على دكاكينه ، من مصادر متباينة متباعدة ، كالدنمرك ، وهولندا ، وفرنسا . كان مجلس مشترياته المركزي لايكف عن العمل ليل نهار تحت اشراف أوهارا الذي لا يكل .

في ذلك الزحام كان لابد للحوادث المؤسفة أن تقع . وقد وقعت حادثة مؤسفة بالفعل عندما تعرف بعضهم على بضائع مسروقة معروضة في أحد دكاكين حرف « ب » . فقدمت شكوى ضد ذلك الدكان المملوك لامرأة تدعى ماري سوير والذي يقع في شارع ملبري . أما اكتشاف الواقعة والابلاغ عنها فيعود الفضل فيهما الى نفر من الشحاذين .

لكن ذلك لم يفت في عضد ماكهيث . فقد سحب البضائع موضوع الشكوى من الدكان ، وسلمها الى البوليس معلنا أنها وصلت الى ذلك الدكان على سبيل الخطأ من دكاكين أخرى . وأعقب ذلك القبض على نفر من صغار الشحاذين .

ولو أن ذلك لم يمنع ماك من أن يظل نهب القلق أياما بأكملها . فقد راوده شك قوي في أن بيتشام لم يقل كلمته الاخيرة بعد ، وأن الرجل لم يكف أذاه عنه حتى ذلك الوقت الا لأن الفرصة أعوزته .

قال ماك لبولي :

ـ ان كراهية أبيك لي غير طبيعية اطلاقا . يبدو أن اعتماده على ذلك الرجل كوكس قد ازداد ثانيــة . فهــو لا يكف عن مطاردتي واضطهادي . وكلما فكرت فيه تسلطت على أسود الافكار . ولقــد ظللت آمل طيلة الوقت انه لابد سيثوب الى رشده فينظر الى الامور نظرة واقعية ، طال الزمن أو قصر. ويدعنا في حالنا ، انا بعد كل شيء لا أكسب الا ما يكفي لمعاشنا ، أنت وأنا بالكاد .

لكنه ما لبث أن نسي تلك الهموم الصغيرة ، في غمرة الاحداث العاصفة التي تعرضت لها أعماله بعد ذلك .

***

أعلنت محلات هارون الكبرى ، ومحلات حرف « ب » المتحدة ، في كافة الصحف الكبرى عن تخفيضات هائلة واضافية في الاسعار لكل أقارب الجنود العاملين في خدمة القوات المسلحة . كما تضمن الاعلان أن الطلبات التي تقدم من أرامل الجنــود لافتتــاح دكاكين حرف « ب » تحظى بأسبقية خاصـــة . وقد قوبل ذلك كله أحسن استقبال من الجمهور والصحافة . والمهم في الامر كله أن الاســعار ظلت تخفض بكل وسيلة ممكنة .

سرعان ما بدأت محلات كرســتون تحس وطأة تلك المنــافسة القاطعة للرقاب ، واضطرت هي الاخرى الى تخفيض أسـعارها . وقد أحس بتلك الوطأة أيضا بنك الائتمان الاهلي الذي بذل مديروه في عنفوان الازمة جهودا تدعو الى الدهشة . ليلة بعد ليلة سهر القرن ونصف القرن مع كرستون يفحصون الدفاتر معا ، ويراجعون الحسابات . لكن المعمعة كانت تبتلع مبالغ هائلة من النقود . ساءت الامور الى حد أن القرن ونصف القرن أشاح كل منهما بوجهه ، فلم يعد قادرا على مواجهة الآخر . كان احساسهما بالمسئولية مضنيا .

وفي تلك اللحظة التاكتيكية الحاسمة ، قام ماك بخبطة أخرى . اتصل ببنك الائتمان الاهلي عن طريق وسيط بغية ايهام القرن ونصف القرن أن البنك التجاري ، ومحلات هارون ، ومحلات حرف «ب» قد باتت كلها مهــددة بالخراب العــاجل نتيجة لتلك المعــركة التي خاضتها ضد كرســتون وبنك الائتمــان الاهلي ، وأن الاخوين أوبر يحاولان خلسة النجاة من السفينة الغــارقة ، والانضمام الى ركب كرستون الظافر .

وقع بنك الائتمان في الفخ ، وترك ماك يوهمــه بما أراد ايهامه به ، فأقنع كرستون بتخفيض أسعاره أكثر ، باعتبــار أن المعــركة

وشيكة الانتهاء ، وان النصر قريب .

ونتيجة لذلك ، اضطر هارون وماكهيث أيضا الى تخفيض أسعارهما من جديد ، ولم يكن أسبوع الاوكازيون الخاص بمحلاتهما قد بدأ بعد !

كان الجمهور قد أدرك من زمن طويل أن تلك معركة حياة أو موت بين هارون وكرستون ، وأدرك أيضا أن تلك فرصته التى لا تعوض للشراء بأبخس الاثمان . بدأت أعداد صغيرة من ربات البيوت فى الشراء كما لم يشترين قبلا . لكن الغالبية العظمى فضلت التريث حتى تخفض الاسعار الى حدها الادنى . ولم يمنعهن ذلك بطبيعة الحال من قضاء سحابة كل يوم هائمات على وجوههن من محل الى آخر ، والجشع يسوطهن ، يحملقن ، يقلبن ، ويقارن الاسعار .

بدأ هارون استعداداته الاولية لتنفيذ خطة ماكهيث الخاصة بالاسعار المتدرجة ، وكلما سار فى تلك الخطة قدما أدرك قيمة شريكه الجديد . كان كلما رأى ماكهيث برأسه الذى يشبه رأس فجلة ، انتابه شك فى ان الرجل يستطيع ان يكتب خطابا من بضعة أسطر بغير أخطاء املائية ، لكنه لم يعد يراوده أدنى شك فى نبوغ الرجل فى المسائل المالية . وسرعان ما اكتشف ان قدرات ماك لم تكن محدودة بتلك الحدود .

كانت شركة م.م.م. تجرى استعداداتها لاسبوع المبيعات الكبير الذى ازمع هارون وماك أن يجعلاه أحدوثة تاريخية لم يسبق لها مثيل . ففرت محلات هارون فكيها فابتلعت شحنات هائلة من البضائع من مخازن شركة م.م.م. ، وطلبت المزيد . ولم تكن أرباح الشركة الاخيرة تستحق الذكر ، لان الاسعار كانت منخفضة عن الحد الاقتصادى بكثير . لكن العملية كلها كانت فى الواقع مناورة حربية للقضاء على المنافسة . ولم تكن لهارون مصادر أخرى فى تلك المعركة سوى شركة الـ م.م.م. فاعتمد عليها اعتمادا كليا ، وقد بدا أنها ، تلك الشركة ، قادرة على كل شىء .

لكنها ، لسوء الحظ ، لم تكن كذلك .

عندما بدأت كميات البضائع المكدسة فى المخازن تتناقص ، أصيب ماكهيث بانهيار عصبى فى دكان فانى كرايزلر . صرخ ماك ، وبكى . وأعلن انهم يلحقون به الخراب ، وانه واقع وسط عصابة من قطاع الطرق . وقال انه يفعل كل ما فى وسعه ، لكنهم يريدون

أن يسلخوه حيا ، وانه لم يعد يطيق الاستمرار فى هذه الحياة التى يعيشها على فوهة بركان ، وأنهم لا يجب أن يتوقعوا منه ما يفـــوق طاقة البشر .

أخذت فانى تطبب ماك المسكين بالكمادات الباردة وتدعك جسده بمروخ مستخلص من نبات دخان الفوج (١) ، وتذرعت بالصبر معه وهو يقضى نصف الليل فى الصراخ والسباب ، متهما اياها ، هى الاخرى ، بأنها ليست أفضل من الاخرين فى شىء ، وأنها تستغله ، وتتصور أنه فحل طلوقة وأنه ملزم بأن يضيع صحته فى سبيل أرضائها .

حقيقة الامر أن ماك ، كسائر العظمـــاء من الرجال ، كان يتخذ القرارات العظيمة الطموح ، ثم عندما يحين وقت تنفيذها ، ينكص أمام ضخامتها . حتى نابوليون سقط مغشيا عليه فى اللحظة التى أصبحت فيها امبراطوريته ، التى خطط لها طويلا ، حقيقة واقعة . لكن ماك ، كسائر العظماء أيضا ، كان سريع التقلب ، لا يثبت على مزاج بعينه . أحيانا كان يصفو مزاجه ، فيصحب فانى الى مطعم أو آخر من مطاعم سوهو ، فيقضيان أوقاتا مرحة ، ويضحكان كثيرا وهو يصور لها كيف ستصبح وجوه هارون والاخوين أوبرعندما تنجح خطته الكبرى .

ورغم أن فانى كانت تشاركه ضحكه ، الا أنها لم تكن تعرف شيئا عن تلك الخطة الكبرى . فلم يكن قد صارح أحدا بنواياه ، حتى هى .

لكن لحظات البهجة هذه كانت نادرة . وكما هى العادة عندما يكتئب الزعيم بدأ الاتباع يرفعون رءوسهم . انتهز رجال أوهارا الفرصة وبدأوا يثقلون على ماك بمطالبهم . وذات يوم من أيام سبتمبر اســتدعى ماك على عجل الى مقر العصابة . فاغتاظ لذلك لانه لم يكن يتردد على ذلك المكان الا راغما ، ولم يكن هناك من يعرفه معرفة شخصية مباشرة من أفراد العصابة ، باعتباره مستر بيكيت سابقا ، سوى أوهارا ، والأب ، وجروتش . ومع ذلك ذهب صاغرا ، موقنا من أن شيئا غير مألوف لابد قد وقع ، فقابل أوهارا فى دكان الحلاق . لكنهما لم يتحدثا هناك ، بل ذهبا الى حانة مجاورة . وهناك اعتذر أوهارا قائلا انه اضطر الى استدعائه ليتحدث اليه على انفراد حتى لاتعرف مسز كرايزلر من ذلك الحديث شيئا ، لان أشـــياء عديدة غريبة قد تتابعت مؤخرا ، فى صفوف العصـــابة ، وقد لعبت فانى دورا مريبا للغاية فى كل تلك الاحداث المزعجة .

قال أوهارا أن رجال العصابة غير راضين عن الترتيبات الجديدة ،

---

(١) «Arnica» دخان جبلى يستخدم فى استخراج مستخلص طبى

وان الاجور الثابتة التى حددت لهم منخفضة للغاية فى نظرهم ، وأنه هو شخصيا ، عندما بدأ ذلك التذمر اتخذ الاجراءات اللازمة فورا ضد المتذمرين ، لكن فانى وقفت فى وجهه قدر استطاعتها ، وأفسدت كل تدبير له . ثم قال انه من المحتمل جدا أن تكون فانى متواطئة مع جروتش الذى يساعدها ، بلا أدنى شك ، فى اثارة الخواطر ، وتحريض الرجال على التمرد . وقال أيضا أن جروتش قد عاد ليعيش معها فى بيتها بلامبث .

أزعجت تلك التطورات ماكهيث كثيرا . فقد اعتبر فانى دائما أشد أفراد العصابة ولاء له . لكن ها هى الآن ، حسبما يقوله أوهارا ، تعوض الرجال عن الاستقطاعات التى استنزلت من أجورهم منذ أن بدأت المعركة مع كرستون ، بنسب مئوية تدفعها لهم من أموال شركة م.م.م. دون أن يكفى ذلك لتهدئة ثائرتهم . فقد تباطأوا فى العمل عمدا خلال الاسبوع الماضى ، بل ووقعت بعض حوادث التخريب ، وتخلف البعض عن العمل . سأله أوهارا عما اذا كان أصحاب دكاكين حرف « ب » قد تضرروا من تناقص الكميات المسلمة لهم . لكن ماك لم يكن قد سمع اية شكوى بذلك الخصوص. بل على العكس تماما ، بدا أصحاب الدكاكين ، على غير عادة ، متفائلين.

وهنا صاح أوهارا مهتاجا :

ـ اذن فهى تشترى البضائع من مصادر اخرى . وهى تفعل ذلك من وراء ظهرك . الم تخبرك بأى شىء عما يجرى هنا ؟

أخذ ماك يعبث بأطراف اصابعه فى قطرات من الجعة على سطح المنضدة ، ورمق أوهارا بنظرة جانبية من عينيه الدامعتين . طلب من النادل علبة من السيجار ، وأرسل أوهارا الى حارة رايد حيث كانت العصابة ، حسب قوله ، مجتمعة .

لم يكن أوهارا يعلم شيئا عن مشتريات شركة م.م.م. من الشركات المفلسة ـ ذلك المصدر الاضافى الذى تفتق عنه ذهن فانى ـ ولذلك اراد أن يدس لها بتلك الفرية عند ماك غير دار أن ماك لاغنى له عن ذلك المصدر الذى لا مأخذ عليه ، والذى تحصل الشركة بفضله على بضائع غير مسروقة ، لها فواتير وايصالات ، تغطى بها مايزودها به هو من بضائع مسروقة .

عندما عاد أوهارا ، قال أن الرجال لايريدون أن يتزحزحوا عن موقفهم ، وانهم قالوا له أن مسز كرايزلر تعرف كل مطالبهم ، وقال الم أقل لك أنها ضالعة معهم . لم اشتكى للمرة المائة من أن ماكهيث

جرده من كل سلطة له يكبح بها جماح الرجال ، عندما أخذ برأى فانى فى الكف عن تسليم المشاغبين منهم الى البوليس .

اصطحب ماك الفتى الايرلندى معه الى جسر ووترلو ، لكن دكان فانى كان مغلقا ، فذهبا الى بيتها فى لامبث ، ووجدا جروتش معها . نشب شجار محتدم لزم ماكهيث خلاله الصمت . كل ما فى الامر أنه رمق جروتش ببرود ، وتوصل بنظراته الى احراج فانى بعض الشيء . لكن المناقشة ، عندما اتجهت من المسائل الشخصية الى مشكلات العمل ، بينت أن فانى فى صف الرجال فعلا ، وأنها تعتبر مطالبهم معقولة . قالت أن تخفيض أجورهم ضيع الغرض من فكرتها الاولى ، وأنهم يريدون العودة الى النظام القديم ، فيعملون بالقطعة ويقبضون ثمن كل مايوردونه ، أولا بأول . ثم هزت كتفيها وقالت ان ذلك ذنب ماك ، لانه خفض الاجور كثيرا .

فقال ماك :

ــ ولكن ذلك اجراء وقتى للغاية . فالبضائع يجب أن تباع بثمن بخس للغاية الى أن يتم القضاء على كرستون نهائيا . ومتى تم لنا ذلك ، سنرفع الاسعار والاجور ثانية .

قال أوهارا محتدا وهو يخبط المنضدة بقبضة يده :

ــ انهم ينتهزون الفرصة للضغط علينا . وهذا ما لن أقبله .

فقالت فانى ، متمسكة بموقفها :

ــ ليس بالوسع شرح الموقف بيننا وبين كرستون لهم . فوق أن ذلك لايعنيهم فى شيء ، فهم لايعرفون الغرض الذى يعملون من أجله ، ولا يعلمون متى ستنتهى هذه العملية .

قال ماك بلهجة من تستغرقه أفكاره :

ــ ذلك كله لايليق منهم . فى البداية تذمروا وقالوا انهم يريدون أجورا ثابتة كالموظفين ، فأعطيناهم أجورا ثابتة وجعلناهم موظفين . والآن يريدون أن يستقلوا ثانية ، ليصبحوا من ذوى الدخول الخاصة . هل هذه طريقة يظهرون بها عمق الرابطة المشتركة بين الزعيم وأتباعه ؟ انهم مذبذبون لايستقرون على حال . بالامس أجور ثابتة ، واليوم مشاركة فى الارباح . ماهذا ؟ هذه الفوضى لن تؤدى الى خير . ليس هذا ما يجب ان نتحلى به من تماسك فى السراء والضراء .

قالت فانى مغضبة :

ــ وفر عليك حديثك عن السراء والضراء ياماك . فأغلب الظن ان سراءك هى ضراؤهم .

فقال ماك :

ـ لكننا ، فيما يحتمل ، سنواجه أوقاتا عصيبة عما قريب ، فمن الذى سيتحمل مسئوليتها عندما تأتى ؟ !

ـ أنت تعرف جيدا انهم هم الذين يتحملون المسئولية دائما . دعك من العواطف النبيلة .

قال ماك بحسم مفاجىء :

ـ طيب . ليكن ما يريدون . سأدفع لهم بالقطعة . ويمكنك ان تقولى لهم أن الفضل فى ذلك لك يا فانى .

وهم واقفا . قال وهو يتناول قبعتى أوهارا وجروتش من فوق المشجب فيعطيهما لهما بشرود فكر :

ـ لكن الطلبيات ستصدر عنى أنا .

وقف جروتش مترددا وقد بدت على وجهه دهشة طفيفة ، فقال ماك لفانى :

ـ هناك أشياء اريد أن أناقشها معك على انفراد .

فخرج الرجلان يبرطمان . وعندما عادت فانى ، بعد أن صحبتهما الى الباب الخارجى ، وجدته واقفا الى النافذة . قال :

ـ قد يعود جروتش ليرى ان كانت الانوار مازالت مضـــاءة . يحسن أن نذهب الى غرفة النوم .

سبقها الى المخدع . كانت غرفة نومها مجاورة لغرفة الجلوس ، وتطل هى ايضا على الشارع . انتظر ماك الى أن لحقت به ثم ذهب فأطفأ ضوء غرفة الجلوس . قال لها :

ـ ضوء واحد يكفى . سيتعين عليك أن تقتصـــدى من الان فصاعدا . فالنسب المئوية التى دفعت للعصابة ، بناء على رأيك ، ستخصم من مرتبك .

جلس على الفراش وأشار لها أن تجلس . جلست فانى مظهرة الدهشة والالم لخشونته معها . سألها بغتة :

ـ هل تحسين بالغيرة ؟

نظرت اليه دهشة ثم ضحكت . قالت :

ـ كنت سأسألك نفس السؤال . ماك . أنت غريب الاطوار حقا !

دمدم مغضبا :

ـ اذن خبرينى بكل ماتعرفينه عن الخطة . كل شىء !

انتابتها دهشة ، لانها لم تكن تعرف عن خطته شيئا . كل همها انحصر فى تحقيق السلام بين صفوف العصـــابة عن طريق معاملة

الرجال معاملة عادلة . لم تكن ترمى الى احداث متاعب لاحد . فموقفها كان موقف عش ودع غيرك يعش • ولعلها اتخذت ذلك الموقف لان خليلها الحقيقى جروتش كان من رجال العصابة •

عندما بدا ماك يشرح خطته لها ظهرت دهشتها واضحة ، فتأكد من صدق قولها عندما أكدت له أنها لاتعرف عن خطته شيئا . لكنه انتابه الحماس فاندفع شارحا لها الخطة تفصيلا . فأصغت اليه بانتباه كامل . ولطالما قال عنها انها أفضل من يعرف قدرة على الاصغاء لما يقال لها •

قال أن هناك ثغرات لاتحصى فى مركز كرستون وبنك الائتمان الاهلى ، وأنه يرى فى تلك الثغرات فرصا هائلة لتحقيق مآربه . فأحد العملاء الرئيسيين لبنك الائتمان الاهلى مثلا هو مستر بيتشام ، ومستر بيتشام هذا مازال والد زوجته ، شاء أم لم يشأ . لكنه يريد اولا ، وقبل كل شيء ، « أن يخرج الى العراء » مع حليفيه : هارون اليهودى ، والبنك التجارى . قال لها :

ــ لا أستطيع أن أقاتل جنبا الى جنب معه ، بكل قلبى ، وبكل امكانياتى ، كما أود أن أفعل ، وأنا أحس انه قد غشنى ودلس على . ذلك الاحساس يقف حائلا بينى وبينه . لكنى بمجرد أن ألقنه درسا ، سيصبح من الاسهل أن أتوصل الى اتفاق سليم معه .

كان ينوى أن يوقف فى القريب العاجل سيل البضائع المتدفق ، سواء بالنسبة لمحلات هارون ، أو لمحلاته هو حرف « ب » . والاجراء الاخير ، فيما يخص دكاكينه ، وقائى ،ليتذرع بهأمام هارون والبنك ، مدللا على براءته . أما القصد من المناورة كلها فوضع هارون والبنك التجارى فى موقف يائس ، بحيث يجدان أنهما ، فى اللحظة التى أوشكا فيها أن يجهزا على خصمهما العتيد كرستون ، قد أصبحا بلا حول ، اذ توقف سيل البضائع المتدفق على هارون ، وبهذه الطريقة يدركان مدى تورطهما معه ، والى أى حد أصبحا فى قبضته . واذ ذاك تستطيع شركة م.م.م. أن توقع معهما عقودا جديدة ، وتملى شروطها التى سيقبلها هارون وأنفه الكبير فى الرغام ، لانه لايستطيع أن يظل خاوى الوفاض من البضائع وسط المعركة ، عشية أسبوع المبيعات الحاسم • فاذا وافق هارون على دفع الاسعار الجديدة المعقولة ، سيصبح فى الوسع التخلى عنالوسائل الاخرى غير المشروعة فى الحصول على البضائع . ولهذا فان ذلك الاتفاق الجديد مع رجال أوهارا جاء فى وقته ، لانه خلصه من عبء

الاجور المنتظمة ، وجعل فى مكنته أن يوقف طلبياته فى اى وقت ، ويستغنى بذلك عن خدماتهم . قال لفانى :
ـ لقد آن الاوان لتكوين اسرة . فقد بلغت من العمر حدا ينبغى للمرء فيه أن يكون صاحب حساب فى البنك .
أظهرت فانى حماسا فائقا لخطته ، حتى وجد صعوبة بالغة فى الافلات من ذراعيها فى تلك الليلة ، والعودة الى بيته . ولم يذكر جروتش الا وهو فى الطريق الى نانهيد . فقرر أنه يجب أن يعامل فانى فى المستقبل ببرود أكثر . فوق أنها قد أظهرت من استقلال الرأى مؤخرا مالم يعجبه كثيرا .

مؤتمر تاريخي

بعد بضعة أيام عقد اجتماع لشركة م.م.م. بحضور ماكهيث . بدأ ماكهيث الاجراءات بدعوة الحاضرين الى تدخين السيجار ، ثم اشار الى منضدة محملة بالويسكى والصودا والكئوس ، لان الاجتماع قد يطول ، وهو على أية حال ، اجتماع مرهق . ثم عرض عليهم الترتيبات التى وضعها بالاشتراك مع هارون لاسبوع المبيعات المقبل ، وكانت شاملة لكل مايخطر ببال أحد من تفاصيل . قال لهم وهو يلوك سيجارا جديدا بين أسنانه :
ـ لقد عملنا أنا وهارون أربعة أيام متواصلة لوضع هذه الترتيبات . ثم عرضتها يوم الاحد الماضى على الاخوين أوبر فى قلعة واربورن . وقد قال جاك أوبر أنهم سيقيمون بالمناسبة مهرجانا رياضيا تذكره لندن كلها لسنوات عديدة مقبلة .
كان ماكهيث يتكلم ببطء ووضوح ، ثم التفت الى فانى متسائلا عما اذا كانت شركة م.م.م. قادرة على تقديم كميات البضائع المطلوبة منها فى موعدها . فلما سألته عن تلك الكميات المطلوبة أذهل الحاضرين بأرقام لايصدقها عقل .
ابتسمت فانى والتفتت الى بلومزبرى الذى كان جالسا بينهم لايعرف له رأسا من قدمين، غير فاهم مما يدور حوله شيئا، مبتسما للمحاميين عضوى المجلس ابتسامة حرج بلهاء ، ثم قالت :
ـ مستحيل طبعا . فقد وصلنا الى أقصى طاقة لنا . وسنكون مجدودى الحظ ان استطعنا الوفاء بثلث هذه الكميات الخرافية التى

تطلبها . لقد تعجلتم الامور كثيرا ، وكان يجب أن تبدأوا هذه الحملة بعد أن نستعد لها جميعا الاستعداد الكافى .
فقال ماك وهو ينظر الى السقف :
ــ هذه أنباء مزعجة .
قالت فانى برباطة جأش :
ــ ما زلنا قادرين على تزويدكم بثلث الكميات المطلوبة .
ــ آسف . ليس هذا اقتراحا تسهم به شركتكم فى خطة جبارة كهذه يقول عنها جاك أوبر ذاته انه لايوجد لها مثيل منذ المباريات الاوليمبية فى عهد اليونان . ثلث الكميات حقا ! اسمعى ياسيدتى . اما أن يفى المرء بتعهداته كاملة واما لا . واعنى بذلك التعهدات بمعناها القانونى ،لامجرد الالتزام الاخلاقى القائم بين الاصدقاء وزملاء العمل.
قالت فانى باقتضاب :
ــ والله قد فعلنا كل مافى وسعنا .
ــ خسارة .
وهنا عيل صبر احد المحاميين، واسمه ريجز، فقال ضائقا بمهزلة ماكهيث المكشوفة :
ــ اسمع . لم لا تقول ماتريد قوله بغير لف ولا دوران ؟ انت تريدنا أن نترك هارون ليوحل فى منتصف الطريق ،أليس كذلك ؟قل ذلك وانته .
ــ ما الذى تعنيه بقولك انى أريد ؟ قل انى يجب أن أفعل ذلك . انى مرغم على أن أفعل ذلك . فالتوقف عن التوريد الان سيؤثر على محلاتى آناأيضا . سيصيبها بضربة قاصمة .ولا أستطيع أن استثنيها من ذلك . سيفوز كرستون بأسبوع مبيعاته ويخلفنا وراءه . تلك مصيبة ، لهارون المسكين ولنا . ولكن ما حيلتنا ؟ ليس هناك ما يمكننا عمله .
فقد وصلنا الى النقطة الحرجة ، وسنكون مجدودى الحظ حقا ان خرجت شركة م.م.م. من هذه المعمعة سالمة . فلنكن واقعيين . من الافضل لنا طبعا ألا نخبر هارون بشىء صراحة . يجب أن يتناقص التوريد تدريجيا حتى يتوقف تماما . هذا أمر يمكن تدبيره . فان لم نكن قادرين على تنظيم عمليات التوريد بكفاءة فلا أقل من أن نظهر شيئا من الكفاية فى ايقافها . وشىء آخر ايها السادة . لاتنسوا أبدا أن الرجل المريض يموت أما الرجل القوى فيقاتل . هذه هى الحياة .

فقاطعه ريجز بفلظة . لم يكن لديه مايقوله ، لكنه لم يكن مرتاحا للأمر :

ـ دعنا من الفصاحة ياماكهيث . لنتكلم فى العمل .

لكن ماك لم يكن قد انتهى بعد • استطرد قائلا ببطء، وهو يمسك سيجارة بيده اليسرى، حتى يتمكن من الامساك بقلم فى يده اليمنى•

ـ ستكون محنة قاسية بالنسبة لاصدقائنا أصحاب دكاكين حرف «ب» المساكين ، وهو مايجب أن نحزن له جميعا • كل هؤلاء الاطفال الذين يعيشون فى الحجرات الخلفية . لكننا ، للاسف الشديد ، لا نستطيع لهم شيئا . كثيرون منهم متأخرون فى سداد ايجاراتهم والمبالغ الاخرى المستحقة عليهم ، ونحن الان فى مرحلة حرجة نحتاج فيها الى كل بنس مستحق لنا . لذلك يجب عليهم أن يدفعوا . لقد ساعدناهم عندما سلمناهم البضائع بالاجل ، والان يجب عليهم أن يهبوا لمساعدتنا بأن يدفعوا لنا • هذا عدل وصواب • فنحن فى حاجة الى احتياطى يساعدنا على عبور الاوقات العصيبة المقبلة سالمين . ويجب عليكم ان تذكروا أنهم سيحل بهم الخراب جميعا اذا ما أفلسنا نحن .

خيم على القاعة صمت مطبق . حتى فانى استفظعت الموقف . لم تتصور فى وقت من الاوقات أن تصبح هذه المذبحة ضرورية . لاى شىء يريد ماك تلك الاحتياطيات التى يتحدث عنها ؟ وما الذى يمكن أن يكسبه ان أفلست الدكاكين ومات من يديرونها جوعا هم وأطفالهم؟ سيترنح هارون من اثر الضربة التى سيكيلها له ماك لكنه سيعيش ، أما كرستون ، العدو الحقيقى ، فسيحقق انتصارا باهرا ، حتى وان كان مؤقتا كمايأمل ماك • لكن الدكاكين الصغيرة ستتساقط كالذباب•

لكن ماك لم يكن لديه وقت لشىء من ذلك . كان غارقا فى العمل الى اذنيه ، آخذا فى الكتابة بسرعة على كل قصاصة ورق فى متناول يده ، وأوهارا يتألق بجانبه ، مظهرا نشاطا يحسد عليه . وضعوا خمستهم الترتيبات اللازمة لتناقص البضائع الموردة ثم انقطاعها عن محلات هارون ومحلات ماكهيث معا • فقد أصر ماك على أن يتم تجويع محلات حرف « ب » بنفس القدر الذى يتم به تجويع محلات هارون فلم يكن بوسعه أن يعطى هارون ، والبنك التجارى معه ، أدنى فرصة للشكوى •

وهكذا بدا تنفيذ الخطة الكبرى . فى منتصف حملة المبيعات ، تخاذل التوريد فجأة ، كان هارون ، وقد أذهلته قدرة شركة م•م•م• على التوريد فى مبدأ الامر ، قد أولى تلك الشركة ـ كما أراد ماك تماما ـ ثقة عمياء مطلقة ، فلم يعن بتحرير عقود مفصلة معها تنص على عقوبات

وغرامات فيحالة العجز عن الوفاء بالتعهدات· ولذلك فان هارون ، وبنكه معه ،وقعا فى حيص بيص، ولم يخطر لهما ببال أن يفعلا شيئا الاماتوقعه ماك واستعد له: انصب همهما على الوقوف - من مصادرهما الخاصة - على حالة دكاكين حرف «ب» ، وهل زاد التوريد اليها أو نقص · وسرعان ماتأكدا من أن تلك المحلات تعانى من نفس المجاعة·

والواقع أن أصحاب محلات حرف «ب» الذين أصابهم الذعر كانوا يجتاحون مكاتب شركة م·م·م . يوما بعد يوم ، صارخين محتجين ، فتقابلهم مسز كرايزلر بابتسامة عذبة ، وتطيب خاطرهم .

لكنهم يعودون الى بيوتهم فيجدون فى انتظارهم انذارات من مستر ماكهيث تطالبهم - بأدب جم - بالوفاء بالتزاماتهم المتأخرة .

وعندما استدعى ماك الى البنك التجارى، عبر لصاحبيه عن دهشته الفائقة وألمه البالغ ·وقد اتقن دوره بصفاقه نادرة ،ونجاح، وتصميم· حتى أن أصدقاءه المساكين أصحاب دكاكين حرف «ب» لم يتجنبهم· على العكس تماما · ظل يزورهم كسابق عهده ، فيشرح لهم بوجه طافح بالالم لماذا هو مضطر الى جمع نقوده ، ويجلس فى الحجرات الخلفية فيضع أطفالهم الجياع على ركبته ، ليرقصهم ، ويداعبهم بحنان ، محاولا أن يملأ الصدور التى ينهشها الخوف واليأس ببعض من تفاؤله وثقته بالمستقبل ، محدثا النساء عن متاعبهن اليومية ، قائلا ان هناك دائما طرقا جديدة لاتحصى للاقتصادفى النفقات ·أما الرجال فيتحدث معهم على انفراد . يقول للواحد منهم تريد الحقيقة ؟ هذه المصيبة أصابتنى فى الصميم · لكنى لاأظهر مما أحسه شيئا ·وانت أيضا: يجب أن تتماسك أمام أسرتك وتكون عونا لها على هذه الاوقات الاليمة·

وهكذا أثبت ماك مرة أخرى انه ولد ليكون قائدا وزعيما ، وأثبت أيضا ان المرء يستطيع أن يقول اى شيء مادام قد عقد العزم على مايريد فعله ·كان يعرف أولئك الناس جيدا· ويعرف أنهم كالخراف تستطيع أن تقودهم الى الذبح بيدك · ولذلك فان النظرات السوداء التى كانوا يقابلونه بها فى مبدأ الامر لم تكن تخيفه : ماعليه الا ان يقول لهم ان عليهم أن يصمدوا للنوائب وأن يكونوا أقوياء ، ثم يذكرهم أن البقاء للاقوى ، ويقابل نظراتهم المزعزعة المذعورة بنظرة ثابتة ثاقبة لاتحيد .

ولقد دأب ماك ، فى تلك الايام ، على ترديد نفس النغمة على مسامع بونى : يجب أن تقتصد غاية الاقتصاد فى النفقات . لانه لايليق به الا أن يجوع كما يجوع رجاله · له عين · وأخذ يشترى سيجارا من صنف ارخص ، وألغى اشتراكه فى احدى الصحف الصباحية التى

كان مشتركا فيها وكلما تذمرت قال لها :

ــ لا تفقدي ايمانك . أنا أعرف رجالي . وأتوقع منهم الكثير . أتوقع كل شيء . وكما قالت تلك الام الاسبارطية التي يذكرها التاريخ لابنها الذاهب الى الحرب : عد كاسيا درعك أو محمولا على درعك ! أقول أنا أيضا لاصدقائنا أصحاب دكاكين حرف «ب» : عودوا رافعين لافتات دكاكينكم أو محمولين عليها ! لكني أنا أيضا يجب أن اشاركهم محنتهم

ثم حاول أن يشرح موقفه لجاك أوبر . لكن جاك أوبر كان نافد الصبر معه . قال له بجفاء أنه لايفرق بين أولئك الذين يخونهم الحظ وبين من لاذكاء لهم ،وأن الشفقة على المغلوب علامة ضعف مرذولة .فضاق ماكهيث به ، وكره فلسفة اليونان هذه ، لانه وجدها لا انسانية .

من أجل راحة الجنود

كان ماكهيث لا يزال يحتفظ في مخازنه بكميات ضخمة من الاقمشة القطنية والصوفية لم يعد يعرف ما يمكنه أن يفعله بها . فقبل أن تتخذ شركة م.م.م. قرارها التاريخي بقليل ، كانت تلك المخازن قد تسلمت عدة شحنات من الاقمشة ، نتيجة للسطو على مصنع من مصانع النسيج فى لانكشير .

كانت الصحف قد عادت فى تلك الاونة الى الكتابة باسهاب عن الحرب في جنوب افريقيا . فلم تكن المعارك الضارية ناشبة في لندن وحدها ،بل فى جنوب افريقيا أيضا. ولم تكن الطبقات الفقيرة ذائقة الامرين بسبب صدام المصالح فى ساحة المال فحسب ــ ولنذكر ماري سوير وغيرها من أصحاب الدكاكين ــ بل بسبب صدام المصالح فى جنوب أفريقيا أيضا .

والحقيقة أن تلك خصلة رديئة لدى الفقراء . كلما نشب صدام ، توصلوا الى أن يكونوا بين المتصادمين. لكن تلك حال لايمكن السكوت عليها ، ويجب أن يكون هناك من يفعل لاولئك الفقراء شيئا .

لهذا تشكلت لجان للرحمة ولجان للاحسان . هبت سيدات الطبقات العليا ــ كدأبهن ــ الى نجدة المعوزين ، وغوث الملهوفين ، فتنافسن فى ذلك تنافسا شديدا ، فى كل بيت من البيوتات الكبيرة ، وكل مدرسة خاصة ، أخذت الايدى الرخصة الناعمة تمزق خرقا عديدة من قماش لتصنع منها ضمادات للجرحى . والقمصان أيضا حيكت للجنود البواسل ، والجوارب وما اليها . وهكذا اكتسبت كلمة

التضحيه معنى جديدا • فأرســـل ماكهيث زوجته بولى الى لجنة من تلك اللجان، اذا رأى سوقا طيبة لاقمشته الصوفية والقطنية. وهكذا أخذت بولى تقضى بعد ظهر كل يــوم فى عنـــابر حياكه افيمت على عجل انكبت فيها سيدات من خيرة الاسر على حياكة القمصان وهن يشربن الشاى ، وقد اكتسـت وجوههن جميعا ، بدون استثناء ، مسحه ورع وخطورة ، وباتت أحاديثهن مفعمه بموضوع التضحيه ، وبفرحة الجنود الابطال بهذه القمصان الجميلة ، وبعظمة انجلترا ، ونذالة الاعداء . فى ذلك المجال الاخير كانت الكلمة العليا للمتقدمات فى السن ، وهن أشد الجميع تعطشا للدماء . قالت عجوز أرستقراطية :

ــ تردن رأيى ؟ نحن نعامل أولئك الوحوش الذين يلبدون لجنودنا الابطال فى كمائنهم الكريهة بكثير من الرحمة وضبط النفس • يجب علينا أن نهاجمهم ونقتلهم جميعا حتى يدركوا مصير من يتشـــاجر مع انجلترا . والذى لا أفهمه ، فيم تعففنا عن القضاء عليهم وهم ليسوا بشرا ؟ انهم وحوش مفترســه • هل ســمعتن كيف يســمون الابار ؟ رجالنا هم الذين يقاتلون قتالا عادلا •

فتنهدت عجوز أخرى أشد ايغالا فى الكبر ترتدى عوينات ذهبية :

ــ سمعت أن رجالنا يتقدمون تحت النار ببسالة منقطعة النظير ؛ وأنهم يسيرون تحت وابل الرصاص كما لو كانوا يقومون باستعراض فى ميدان الطرف الاغر ، لايعنيهم فى شىء أن يقتلوا أو لايقتلوا . وقد قام أحد المراسلين الحربيين باستفتاء بينهم فى ذلك الشأن ، فأجمعوا كلهم على أنهم لايقيمون وزنا لشىء مادامت انجلترا ستزهو بهم •

قالت العجوز الاولى بصرامة :

ــ انهم لا يفعلون الا ماهو واجب عليهم . فهل نقوم نحن بواجبنا ؟

فازددن سرعة فى حياكتهن • وانبرت فتاة فى العشرين قائلة :

ــ عندما تروى الصحف أنباء تلك الاشياء التى تجرى هناك ، لاتملك الواحدة منا الا أن تفكر فى كل أولئك الشبان الاصحاء ، بوســامتهم الاخاذة ، وبزاتهم العسكرية ، وتحس بالحزن حقا •

ثم عقبت فتاة أخرى فى مقتبل العمر قائلة :

ــ أتعرفن ؟ كلما رأيت رجالنا البواسل فى ثيابهم الرثة الملطخة بالعرق ، وتذكرت المخاطر الفظيعة التى تعرضوا لها ، والمصــاعب التى مروا بها ، أحسست أنى أستطيع أن أقبل كل واحد منهم ، أن أعانقه وهو قذر هكذا ، وغارق فى عرقه ، ومغطى بالدم •

رمقتها بولى بنظرة سريعة ولم تقل شيئا • لكنها قالت لنفسها :

ــ ألم يكن أبى دائما على حق ؟ بعد أى انتصار من الانتصارات يجب أن يرسل المرء جنودا مشوهين ، تكسوهم القذارة ، وتبــدو عليهم التعاسة والبؤس ليشحذوا . أما بعد الهزائم فيجب أن يكونوا غاية فى النظافة ، والاناقة ، والحفلطة . هذا كل مافى الامر .

تحول الحديث بعد ذلك الى الترفيه عن الجنود . قالت كل واحدة من السيدات أنها ترسل لهم الشيكولاتة ، والسجائر ، والتبغ ، وخطابات الاعزاز والتشجيع فى علب ذات اربطة وردية . ثم قالت احدى الفتيات :

ــ يقولون أن التبغ يباع الان برخص التراب فى محلات هارون بشارع ميللر . قد لايكون من صنف جيد ، لكنهم ، على ما سمعت ، يفضلون الكم على الكيف .

بعد ذلك تبادلن بعض الخطابات التى أرسلها جنــود من الجبهة يشكرون فيها المحسنات اليهم . وفجأة اســتدارت العجــوز ذات العوينات الذهبية الى بولى ، قائلة بضراوة :

ــ كلما فكرت فى أن هذا القماش الانجليزى النظيف سوف يخضبه سريعا دم جندى انجليزى ، وددت لو أطبق بيدى هاتين على اعناق أولئك القتلة حتى أزهق أرواحهم .

حملقت بولى فى العجوز بفزع حقيقى ، ويدها المعروقة ، بابرتهــا المشهرة ، متقبضة فى الهواء ، وفمها عديم الاسنان فاغر كأنها تتلمظ الى دم احد . احست بولى بالغثيان فخرجت مسرعة ، وعندما عادت قالت لها امرأة لها عينان كعيون الابقار :

ــ ان شاء الله يكون المحروس ولدا . فانجلترا فى حاجة الى الرجال .

بعد ذلك اتجه الحديث وجهة أخرى . قالت امرأة سمينة فى ثوب حريرى بورود كبيرة ، وهى زوجة أميرال :

ــ الحقيقة أن سلوك الطبقات الدنيا كان رائعا منذ بداية هذه الحرب . فأنا عضو فى لجنة أخرى مختصة بالضمادات . منــذ أيام مثلت أمام اللجنة امرأة كان من الواضح أنها من الطبقات العاملة ، فقدمت الينا قميصا نظيفا فيه أكثر من رتق . وقالت ان زوجها لديه قميصان آخران غيره ، وأنها تتبرع به لنصنع منه ضمادات للجنود . هل رأى احــد مثل هذه الوطنية ابدا ؟ كم من دوقة بوسعها أن تتعلم من هذه المرأة !

فقالت العجوز الارستقراطية بحذلقة :

ــ كل فى مكانه ياعزيزتى ، وكل حسب امكانياته .

عندما عادت بولى الى البيت ، استطاعت ان تفرح قلب زوجها بعدد الدعوات التى تلقتها لزيارة بيوت الصفوة ، فسر لذلك كثيرا ، خاصة

وأنه صرف مالديه من كميات الاقمشة ، وأوصاها بأن تثابر باجتهاد عظيم فيماهي قائمة بهمن أعمال البر خدمة لجنود الامبراطورية البواسل .

مستر اكس

داب ماكهيث فى تلك الاونة ، كلما اجتمع بالسادة هارون وأوبر ، على الشكوى من غدر صديقه القديم لورد بلومزبرى . لكنه - مع ذلك - أحس فى دخيلة نفسه بأنه يحسن به أن يقنع أولئك السادة ، بما لا يدع مجالا لشك فى نفوسهم ، بأن مصدره الوحيدالذى يحصل منه على بضائعه هو شركة م.م.م. ولا مصدر سواها . لان شكوك البنك التجارى كانت قوية ، ومن الصعب التغلب عليها . فمناورة ايقاف التوريد التى قام بها ماك ، وضعت البنك تحت رحمة الشركة بصورة كاملة ، بعد أن كان ماك ، ودكاكينه ، وشركة م.م.م ، تحت رحمة البنك . ذلك انقلاب خطير فى الاوضاع . ويحسن ، بل يجب ألا يكتشف البنك ، تحت أى ظرف من الظروف ، ان تلك الرحمة التى هو واقع تحتها ، هى رحمة مستر ماكهيث . لهذا عقد ماك اجتماعا ثانيا ، وسريا للغاية ، لمجلس ادارة شركة م.م.م. ولم يشر اليه فى محضر الاجتماع الا باسم « مستر اكس » .

قام مستر اكس هذا بتحرير خطاب اختيرت كل كلمة من كلماته بعناية ، لئلا تترك فيه ثغرة قانونية واحدة ، وجهه الى مستر ماكهيث، المقيم بنانهيد ، وأخطره فيه بحزم لا يقبل التأويل ، وان اتصف بالادب الشديد ، أن العقد الابتدائى القائم بينه وبين الشركة ينص على أسعار قصد بها أن تكون مؤقتة ، ولفترة محدودة للغاية ، من حيث انها أسعار تضحية ، على سبيل الاعلان . وأخطره أيضا ان المصادر التى تحصل منها شركة م.م.م. قد أصيبت مؤخرا بشىء من الجفاف ،مما جعل التوريد يتوقف . ولو أن الشركة ستكون قريبا فى مركز يسمح باستئناف التوريد ،ولكن بأسعار جديدة طبعا .

سار كل شىء فى الاجتماع على ما يرام . وعندما أوشك على الانفضاض ، قرابة التاسعة مساء ، هم بلومزبرى واقفا ، لدهشة الحاضرين جميعا ، فأخذ يتهته متسائلا عما اذا كانت هذه الاجراءات لن تسىء الى أصحاب محلات حرف «ب» .

كان الوقت مساء ، وكلهم جلوس فى هدوء حول المنضدة الثقيلة ، والنوافذ مفتوحة لان الجو ما زال دافئا .

انتزع ماكهيث سيجاره من بين أسنانه ، وألقى على الفور خطبة قصيرة ، وجهها أساسا الى صديقه لورد بلومزبرى ، أكد فيها أن اجراءاته التى أثارت انزعاج اللورد تعنى بطبيعة الحال ان أصحاب دكاكين حرف «ب» سيمرون بفترة قصيرة من التضحية بالذات ،لكن اللورد يعلم أن نشاط الاعمال كله ، بل وكل نجاح فى هذا العالم الفانى، يعتمد أساسا على القدرة على تحمل التضحيات فى الوقت المناسب . فالرجل المريض يموت ، أما الرجل القوى فيقاتل . كان الامر كذلك دائما وسيظل كذلك أبدا . وما على أصحاب دكاكين حرف « ب » فى هذه الآونة العصيبة الا أن يظهروا طيب معدنهم .وهو لذلك يكلف السيدة فانى كرايزلر ، عضو المجلس الموقر ، بمتابعة سلوك أولئك الناس ، لترى من الذى سينهار منهم ، ومن الذى سيقاوم ويبقى . ثم أضاف أن السيد أوهارا هو الاخر سيضطر الى مواجهة هذا السؤال الحيوى . وقال ماك أنه هو شخصيا سيتحمل المسئولية كاملة . فكل صاحب دكان حرف «ب» سوف تلقى به فانى فى عرض الطريق ، سيكون قد ألقى فى عرض الطريق بيده هو . لانه لايسمح لاحد بأن يعمل معه الا اذا كان يؤمن به ايمانا كاملا ، ويسير على هديه . لكن فانى همت واقفة ، فأفاضت فى شرح بعض الوقائع المتعلقة بالحالة المؤسفة التى وصل اليها أصحاب دكاكين حرف «ب» ، متجنبة النظر الى ماك . قالت أن هذا الذى يحدث لاولئك الناس لا أسم له الا القتل العمد مع سبق الاصرار، وان السواد الاعظم منهم لن يصمد شهرا آخر ..

وانهت كلمتها قائلة :

ــ ما لم نقدر من الان مساعدة هؤلاء الناس ، سيتعرضون لكارثة محققة ، فان الكارثة لن يمكن تجنبها .

رد عليها ماك ببرود واضح ودهشة لم يحاول اخفاءها ، فقال : أولا ، فى أسوأ الاحوال لن تكون دكاكين حرف « ب » هى التى ستفلس ، بل « أصحاب » الدكاكين . وهذا يختلف عن ذاك اختلافا بينا . وثانيا، ان الشركة ليست فى مركز يسمح لها بأن تبدأ فى رعاية الارامل واليتامى . وفوق هذا وذاك فان مبدأه هو أن من يسقط يجب أن يترك ليسقط ، بل وأكثر من ذلك ، يجب أن نعجل بسقوطه بضربة فى ظهره . وانفض الاجتماع .

ترك أوهارا مقر الشركة غاضبا . لكنه ــ رغم غضبه ــ نفذ كل ماتم الاتفاق عليه فى الاجتماع ، وتصدى لرجاله ، فقال لهم أن عليهم

الآن أن يأخذوا أجازة ، قد تطول بضعة أسابيع ، وستكون على حسابهم هذه المرة . وبذلك نضب معين التوريدات تماما ، وتوقف . فوق ان خطاب شركة م.م.م. الموجه الى ماكهيث ، عندما قدمه هذا الاخير الى البنك التجارى ، أحدث تأثيرا بالغ القوة .

خلال بضعة أيام من تلك القرارات التاريخية ، بدأ أصحاب دكاكين حرف «ب» ، خاصة الفقراء فقرا مدقعا منهم ، يحسون بوطأتها . كانوا غارقين فى الدين الى قمة رءوسهم . وقد أحسوا جميعا أنهم راحوا ضحية للخيانة ، وأن ماك باعهم للمحلات الكبيرة . ساءت أحوالهم الى حد أن شحاذى مستر بيتشام بدأوا يعثرون ، بصورة متزايدة ، على كثيرين منهم ، يحاولون أن يشحذوا فى الطرقات هم وأولادهم .

الحقيقة أنهم عندما طردوا من بيوتهم ودكاكينهم بمعرفة وكلاء مستر ماكهيث ، اصبحوا أكثر استقلالا من أى وقت مضى . تضخم استقلالهم حتى اصبح عظيما لا يطاق ، لانهم لم يعد يحد حركتهم سقف فوق رءوسهم ، فوق أنهم توصلوا ، فى المتوسط ، بجهودهم الخاصة ، الى انقاص وزنهم كثيرا . لكن بيتشام لم يحاول استخدام أى منهم ليس بعد على أية حال ، لانهم فى حاجة الى شهرين آخرين على الاقل قبل أن يفقدوا كرامتهم أيضا .

واجه السادة هارون وأوبر مشكلة خطيرة بدورهم . كان موقفهم فى بداية الازمة عنيفا للغاية تجاه بلومزبرى المسكين ،لكن ذلك الموقف تغير عشية أسبوع المبيعات المرتقب ، فبات غاية فى العذوبة والرقة . فقد أدمنت محلات هارون بضائع شركة م.م.م. الرخيصة ادمان الكوكايين .

لم يكن ماكهيث موجودا بمبنى البنك التجارى عندما قام بلومزبرى بزيارة للسيدين أوبر . فقد أعلن ماك انه قطع كل مابينه وبين اللورد بعد ما ظهر من غدر شركته ، وأن قدمه لم تعد تطأ مكاتب تلك الشركة

احتفى هارون والاخوان أوبر (اللذان بدا واضحا أنهما لم يعودا يكنان نفس الود القديم لعميلهما اليهودى) احتفاء عظيما باللورد الذى جلس واضعا سيجارا ضخما بين أسنانه ، متظاهرا بالخطورة، مفكرا فى حقيقة الامر فى غانيته جينى ، متظاهرا بالانصات اليهم ، واعدا فى النهاية بأن يبذل كل مافى وسعه « لتسوية الخلافات » بينهم . فاستقر الرأى على عدم تأجيل أسبوع المبيعات العظيم ،

خاصة بعد أن لوح لهم بلومزبرى بأمل محدودفى استئناف التوريد .
وانفض الاجتماع وديا للغاية ، فصافح الجميع بعضهم بعضا بحرارة، ثم افترقوا وكل جانب يحس بأنه أسهم اسهاما ايجابيا نحو تحقيق تقارب متبادل . فوق أن الحديث تناول أيضا احتمال الاتفاق على أسعار مرتفعة . وبالاضافة الى كل ذلك وجه جاك أوبر الدعـوة الى ماكهيث لقضاء عطلة نهاية الاسبوع مرة أخرى فى قلعة واربورن .

اصطحب ماك زوجته بولى هذه المرة . وقد استخدمت فانى كل مواهبها وقدراتها على الاقناع فى سبيل الحد من ميـــل بولى الى البهرجة فيما أخذته معها من ثياب . لكن المشكلة لم تكن مشـكلة بولى. فقد تسلط على ماكهيث وسواس بأنه يجب أن يجعل زوجته تبدو كدوقة . لكن فانى توصلت فى النهاية الى اقناعه بأن ذلك يكون أسوأ بكثير ، من عزم بلومزبرى فى الزيارة السابقة ، على اصطحاب جينى معه . وهكذا ذهبت جينى بثياب معقولة ، واستقبلتها مسز أوبر استقبالا لطيفا للغاية . وتحفظت بولى فى حديثها ، فلم تقل ولم تكثر ، لـكنها دهشت كثيرا للأصوات المنفرة التى يحدثها آل أوبر على المائدة وهم يلوكون طعامهم .

عندما اصطحب جاك ضيفه ماكهيث للقيام بجولة فى حدائق القلعة، أشار رجل البنوك الى أشجار البلوط العتيقة المتباعدة عن بعضها البعض وكل شجرة منفردة بعظمتها الخاصة بها ، وقال له :

ـ أنظر الى هذه الاشجار ياعزيزى ماكهيث . انها مجدودة الحظ . تقف كل منها بمعزل عن الاخرى ، بمبعدة منها ، لا تزاحمها .

سار ماكهيث بجانبه صامتا ، وقد قرر فيما بينه وبين نفسه أن يكون مجدود الحظ هو الآخر ، لايزاحمه أحد .

لكن ذلك الصفاء المجدود لم يدم طويلا دون أن يكدره مكدر . ففى قلب تلك السكينة ارتفع صوت مزعج ، نشاز ، من العالم الخارجى. تلقى ماكهيث رسالة عاجلة من صديقه المفتش براون يقول فيها انه يأسف لانه لايستطيع أن يسوف أكثر من ذلك فى تنفيذ الامر الصادر بالقبض عليه . فلما استفهم ماك عن السبب فى ذلك ، تلقى الرد التالى : للاشتباه فى أنك قتلت المرأة مارى سوير ، احدى صاحبات دكاكين حرف « ب » ياماك .



هذه الرواية

يعرف الكثيرون في الوطن العربي بريخت الكاتب المسرحي والشاعر والسياسي والناقد، ولكن قلة قليلة من قرائنا هي التي تعرف بريخت الكاتب الروائي الكبير .

و « رواية البنسات الثلاثة » التي يسعد روايات الهلال ان تقدمها اليوم الى القارىء العربي لاول مرة هي الرواية الوحيدة التي كتبها بريخت في حياته الادبية والفنية الخصبة . [illegible]

وظلت المكتبة العربية محرومة منها حتى اليوم وهذه الرواية هي نموذج حي ونادر للرواية الملحمية ، وهي رواية تختلف اختلافا واضحا عن كل ما تعودنا قراءته من روايات . وقد كتبها بريخت بعد ان كتب « اوبرا البنسات الثلاثة » ليقدم نفس المادة - مع التوسع والتعمق - في قالب روائي، بعد ان قدمها على المسرح فلاقت نجاحا منقطع النظير في شتى العواصم العالمية .

وبريخت « ١٨٩٨ - ١٩٥٦ » كاتب الماني عظيم وهو احد ائمة المسرح المعاصر سواء بما ابدعه قلمه وخياله وفكره الانساني الخصب او بما وضعه من كتابات نظرية عن المسرح، ولقد كان في كل كتاباته عظيم الاهتمام بالانسان : لا يكف ابدا عن الدفاع عن حقوقه الاساسية ولا يكف عن الدعوة الى مجتمع انساني حر وعادل .. مجتمع جديد يخلو من الخوف والقهر والفقر .

١٢ قرشا

برتولد بريخت

ترجمة : شفيق مقار

رواية

البنات الثلاثة

الجزء الثاني

روايات الهلال

روايات الهـــلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٦٨ ـ ابريل ١٩٧١ ـ صفر ١٣٩١

No. 268 — April 1971

رئيس مجلس الإدارة : أحمد بهاء الدين

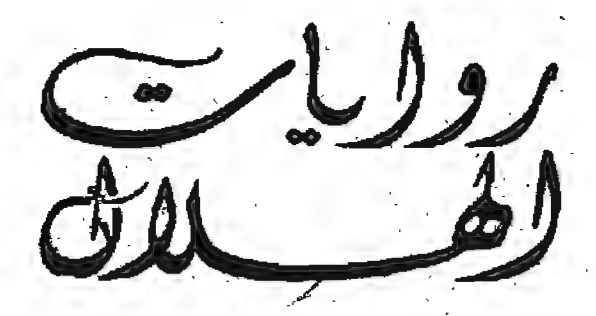
رئيس التحرير : رجاء النقاش

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى الجمهورية العربية المتحدة ١٠٠ مليم ـ عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ فى سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، فى الاردن والعراق ١٣٠ فلسا

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى الجمهورية العربية المتحدة وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٠٠ قرش صاغ ـ فى سسائر أنحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٤٠ شلنا والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : فى الجمهورية العربية المتحدة والسودان بحوالة بريدية ، فى الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف فى « ج٠ع٠م » ـ والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى ـ وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ « عشرة خطوط »



مجلة شهرية لنشر القصص العالمى

الفنان هبة عنـــايت

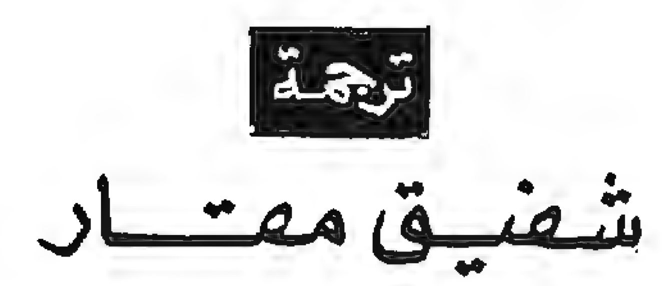
رواية

البنات الثلاث

الجزء الثانى



برتولد بريخت



دار الهلال


www.library4arab.com

ملخص مانشر

تخوض انجلترا حربا من حروبها الاستعمارية فى جنوب القارة الافريقية ، عام ١٩٠٠ ، وتشحن أبناءها بالألوف ليموتوا هناك ، دفاعا عن الامبراطورية ٠

جورج فيوكومبى أحد أولئك الابطال ٠ يذهب فيقاتل ويضحى بساقه على مذبح الامبراطورية ٠ ويعود الى لندن ، فيتصدقون عليه ببضعة جنيهات ، ثمنا لساقه ، ما يلبث أخوته فى الشقاء أن يسرقوها منه ، فنحن ندخل الغابة معه وهو يقتحمها « بصدره » ، وساقه الخشبية ، ونزامله فى تدهوره التدريجى من جندى باسل ، الى مشوه حرب [illegible] فاشل [illegible] شحاذ [illegible] البطل [illegible] فينضم الى الجحفل بيتشام ، ملك الشحاذين فى لندن ، ويصادق زوجة جندى آخر ، لم يعد زوجها من الحرب بعد ، اسمها مارى سوير ٠

عندما يأخذنا برخت داخل « جحر الارانب » الذى يتألف من ثلاثة بيوت متشابكة متداخلة كالمتاهة ، يدير منها مستر بيتشام « شركته » ، فأنه يدخلنا ، من باب المحاكاة التهكمية ، الى دنيا المال والاعمال فى لندن ، التى كانت آنئذ ، فى مطلع القرن العشرين « أعظم مدينة فى العالم » ٠

يعين فيوكومبى حارسا لكلاب الشحاذة التى يربيها بيتشام ، ويتعرف على الانسة بولى ، ابنة مخدومه ، « نوارة الخوخ » كما يدللونها لفرط حسنها ، وجمال بشرتها البيضاء كالحليب ، المشربة بحمرة لا علاقة لها بالخجل ٠ فالبنت ، كما يقول أبوها ، شعلة من الشهوانية والشيطنة ، كأمها ٠ ولو أن امها تنحصر شهواتها فى الخمر التى تغطس فى البدروم فتشربها سرا ٠

ومن خلال بولى وشهواتها ، نتعرف على مستر بيكيت تاجر الاخشاب ، الذى ما نلبث أن نعرف انه يدعى ، فى العالم السفلى « بالسكين » ، كناية عن براعته فى استخدام ذلك السلاح للاجهاز على ضحاياه ٠ تريد مسز بيتشام ان تزوج ابنتها الحلوة من مستر

بيكيت لان الرجل « راكز ، وغنى ، وملء ثيابه » • لكن البنت الطائشة تجرى وراء ولد مفلس اسمه ســمايلز ما يلبث ان يلعب بعقلها ، فتحمل منه ، وتريد أن تذهب الى طبيب او قابلة تجهضها ، فتأخذ فيوكومبى معها •

اما مستر بينشام فلا يعلم عن خطط زوجته أو مغامرات ابنتــه شيئا • وهو يريد ان يزوجها من السمسار مستر كوكس • فمستر كوكس هذا رجل ملعون ، جر مستر بينشام وآخرين معه الى صفقة مريبة ، وكون منهم شركة للنصب على الحكومة بثلاث سفن قديمة خربة تم التعاقد على توريدها للامبرالية كناقلات جنود ، واخذ بعد ذلك يلعب بالشركاء ، كما يلعب المرء بالكرة ، ويسرق أموالهم ، ويورطهم كل يوم أكثر • ويصاب مستر بينشام من جراء ذلك بهلع• فذلك شيء جديد عليه ، لانه ظل طوال حياته ينصب على الناس ويستغلهم ، ولم يألف أن ينصب عليه أو يستغله أحد • ثم يكتشف أن السمسار كوكس رجل شهوانى وأنه مفتون بابنته ، فيتعلق الاب بذلك كقشة أخيرة تنقذه من الغرق •

لكن الابنة ، وقد اكتشفت خديعة ســمايلز لها ، وتخليه عنها ، تقرر الزواج من بيكيت حتى يصبح أبا لابنها ، ولا حاجة أن يعرف من الاب الحقيقى ، فكل همها أن تنجو من مخـــالب الطبيب الذى سيجهضها .

وسوف نتبين فى النهاية كما يقرر مستر بينشام ذاته ، أن بولى عندما اختارت بيكيت زوجا لها ، لم يجانبها التوفيق • فالرجل خطير وعظيم بحق • عظيم بمعايير المجتمع الذى يسخر منه برخت ولسوف نرى ــ فى لحظة انتصاره الاخيرة ، التى تقابلها لحظـة موت فيوكومبى الخائب وشنقه ــ نابوليونا حقيقيا فى ساحة المال والاعمال •

بدأ مستر بيكيت حياته العملية كلص منازل من الدرجة الثالثة• لكن مستر بيكيت ليس من أولئك الذين ينجحون عن طريق العمل الذى يؤدونه بأنفسهم ، بل على حساب العمل الذى يقوم به غيرهم لحسابهم • مثل بينشام تماما • ومثل كثيرين غيرهما من الشخصيات « الناجحة » فى القصة • ولذلك فانه سرعان ما ينظم عصابة ينصب نفسه زعيما لها ، ومنظما ، ومديرا • ولما كانت السمعة العطرة أهم شيء فى عالم الجريمة ، فانه يلفق لنفسه سمعة من ذلك النوع ، فيدعى أنه « السكين » ، القاتل ذائع الصيت ، معتمدا فى ذلك على

عبادة هذا النوع من « البطولة » فى مجتمعه • ولو ان « السكين » هذا شخص آخر غيره تماما قبض عليه ، وشنق ، ودفن ، فى سجن دارتمور الرهيب ، فاستعار بيكيت شهرته بعد موته واغتصب اسمه وأمجاده فصار اسمه « ماك السكين » •

لكن ماك ، بعد عدد من السرقات الجريئة ، وحوادث السطو والنصب والاحتيال ، يجد أن كل تلك الاشياء أصبحت « موضة قديمة » ، وفى الحقيقة غير مجزية بما فيه الكفاية • ومما يزيده اقتناعا أن صديقه براون ، ضابط البوليس العظيم ، يوافقه الرأى فى ذلك تماما ، بل ويقرضه بعض المال الذى يبتزه من صاحبات الحانات وبيوت الدعارة ليبدأ به « حياة شريفة » •

وهكذا يتحول ماك من مجرد لص ونصاب الى تاجر ورجل أعمال ناجح لانه لص ونصاب • وتزدهر بطبيعة الحال أعماله • فيفتتح عددا من المحلات يقوم « بتمليكها » لعدد من الناس الطيبين المجدين الذين يحلمون بالنجاح « والوقوف على أقدامهم » ، ويبيع فى تلك المحلات مسروقاته • ورويدا رويدا تتسع أعماله فتتكاثر محلاته حرف «ب» التى تبيع برخص التراب ، ويكثر بالتالى رقيقه من الناس المجدين الراغبين فى النجاح الذين يعملون ليل نهار ويموتون تعبا فى تصريف « بضائعه » ودفع ايجارات محلاته •

وباطراد نجاحه تتفتح شهية ماك الى مزيد من السطوة والنجاح فيضع عينه على سلسلة « محلات هارون » وهى مجموعة من محـــــلات التجزئة ، وينشىء شركة « للتوريد » أى للسرقة وتزويد المحـــلات [illegible] زهيد [illegible]

ونتيجة لخطط ماكهيث وألاعيبه تستعر فى ميدان تجارة التجزئة فى لندن حرب صغيرة لا تقل ضراوة عن الحرب الكبيرة الدائرة رحاها فى الترانسفال • وككل حرب ، سنجد أن هذه الحرب ايضا لهـــا ضحاياها ، وأن أولئك الضحايا معظمهم من الناس الصغار ، الذين يتوهون بين أقدام العمالقة ، فتطؤهم الاقدام •

بينما مستر ماكهيث غارق الى أذنيه فى مشروعاته ، وخططه ، والاعيبه ، وعينه على بائنة زوجته التى يحتفظ بها أبوها فى بنك الائتمان الاهلى ، يزداد ذلك الاب تورطا فى ألاعيب السمسار النصاب كوكس حتى يوشك أن تصيبه لوثة وهو يرى الرجل يدفعه دفعا حثيثا نحو الخراب • وفى تلك اللحظة غير المواتية تصيب مستر بيتشام صدمة مخيفة : يكتشف زواج ابنته من ماكهيث ، وأنها حامل منه -

فيجن جنونه ، ويأمر ابنته بأن تجهض نفسها ، وأن تحصل على الطلاق من زوجها •

ولسوء حظ ماكهيث تنتحر مارى سوير ، احدى صاحبات دكاكين حرف «ب» بعد ان حلت كارثة باصحاب تلك الدكاكين كنتيجة لاحدى مناورات الحرب الصغيرة التى يديرها ماك • ويجد بيتشام فرصته سانحة للانتقام من ذلك المجرم الذى تزوج ابنته بغير علم منه ليسرق بائنتها ، والتخلص منه نهائيا كزوج لتلك الابنة ، حتى يستطيع ان يزوجها من السمسار ، فيجعله واحدا من اهل بيته ويكتفى بذلك شهره •

وينتهى الجزء الاول بالقبض على ماك بتهمة قتل صاحبة الدكان مارى سوير •

(١٠)

يا سادتي الأماثل ، اليوم قد أغسل الاكواب أمامكم
وارتب الاسرة كل صباح
وأشكركم على بنساتكم ، فتظنونني فرحة بكم ، وبملاليمكم ،
لانكم لاترون مني غير ثوبي الرث هذا ، وفندقي القذر القديم
وليس هناك من يحذركم ويفتح عيونكم
لكن ذات ليلة جميلة سيكون في الميناء صياح عظيم
وسوف يتساءل الكل قائلين : منذا الذي يحدث كل هذا الصياح ؟
•• وسوف يراني الكل ابتسم لنفسي وأنا آخذة في غسل أكوابي
فيقولون لانفسهم ، لاي شيء تبتسم لنفسها هكذا ؟
واما رصيف الميناء ستكون قد رست
سفينة ذات شراع ثمانية
وخمسين مدفعا كبيرا .

اذذاك سيقول أحدهم : هيا يا صبية ، اذهبي فجففي أكوابك .
ثم ينفحني بنسا كما ينفحني الجميع .
ولسوف يؤخذ البنس منه ،
ويرتب الفراش كصباح كل يوم ،
لكن احدا لن ينام فيه تلك الليلة
ولن يكون أحد منهم قد خمن بعد من أكون أنا حقا .
وفي تلك الامسية ستكون في الميناء ضجة كبرى ،
وسوف يتساءل الكل قائلين : منذا الذي يحدث كل هذه الضجة ؟
وسوف يراني الكل واقفة الى النافذة ، أنظر خارجا وأترقب
فيقولون لانفسهم : أي شيء يرسم هذه الابتسامة الشامتة على شفتيها ؟
واذذاك ستكون السفينة ذات الشراع الثمانية
والمدافع الخمسين الكبيرة
قد فتحت مدافعها على المدينة .

ياسادتي النجب ، سوف تمحو تلك المدافع الابتسامة من وجوهكم السمينة.
لأن الحيطان ستفتح أفواهها فاغرة حولكم
والمدينة سوف تسقط فتسوى بالارض فوق رءوسكم
لكن فندقا واحدا قذرا قديما سيظل قائما لا يطاوله ضر
ولسوف يتساءل الكل قائلين : منذا الذى يقيم بداخله ؟
وينقضى الليل وهم يحومون حول فندقى متصايحين
يسألون أنفسهم • لم لم تمسه المدافع ، هذا الفندق ، بسوء ؟
وسوف يروننى اخطو خارجة من بابه فى الصباح
فيقولون جميعا : ماذا ! هل هذه هى التى كانت تقيم هنا ؟
واذ ذاك سترفع السفينة ذات الشراع الثمانية
والمدافع الخمسين الكبيرة
أعلامها على صواريها .

وعند الظهيرة سينزل من السفينة الى البر مائة رجل
فيبدأ الطراد والصيد فى الاركان المظلمة
فيدخلون كل بيت ، ويأخذون كل من تقع عليه عيونهم
ويكبلون الجميع بالاغلال ، ويأتون بهم الى .
ويسألون : أى من هؤلاء يجب أن نجهز عليه ؟
فى تلك الظهيرة سيخمد فى الميناء كل صوت
وهم يسألوننى من الذى يجب أن يموت
واذ ذاك سيسمع الكل جوابى : كلهم يموتون !
وعندما تتساقط الرءوس سوف أرفع أثوابى وأصرخ !
وبعد قليل سوف تبحر السفينة ذات الشراع الثمانية
والمدافع الخمسين الكبيرة ،
فتختفى ، آخذة اياى معها .

(من احلام خادم)

مرة أخرى ، العشرون من سبتمبر

كان دكان مارى سوير فى شارع ملبرى ، بالقرب من جسر ووترلو.
كلما ذهب العسكرى فيوكومبى لزيارتها ، وجدها ، كمعظم اصحاب دكاكين حرف « ب » ، مع طفليها ، فى الغرفة الخلفية الصغيرة الملحقة بالدكان . أما الدكان ذاته فأكبر قليلا من معظم الدكاكين الاخرى .

وقد أقامت صاحبته فى منتصفه ستارا يقسمه قسمين ، فى القسم الامامى منهما ، المواجه للشارع يقع الدكان ذاته . أما القسم الخلفى ، ففيه المشغل حيث تقبع بنتان مهضومتان ، تشتغلان بالحياكة على ضوء الغاز . وفى غرفة المعيشة ، نافذة صغيرة تطل على الفناء الخلفى ، تزود ذلك الجحر الصغير بالضوء والهواء .

لم تكن أحوال مارى سوير على ما يرام . فزوجها الذى يقاتل دفاعا عن الامبراطورية فى ميفكينج ، لم يكن يرسل لها شيئا يذكر . كان قد تزوج مرة قبلها ، ولذلك فانها لم تكن تقبض الا نصف راتبه .

لذلك كان الدكان غارقا فى الديون . ولم يجدها المال الذى ابتزته من ماك كثيرا ، لان النقود سرعان ما تبخرت . فوق أن مارى كانت كسولا بطبعها ، ولا تعرف شيئا يذكر عن ادارة العمل . لم تكن تدفع للبنتين اللتين تشتغلان بالحياكة لديها ما يمكن أن يسمى أجرا . وحتى هذا لم تكن تدفعه الا فيما ندر . لكن أرباحها من عملهما لم تكن كبيرة هى الاخرى . ولم يكن عزوفها عن الدفع ناجما عن بخل أو تقتير . بل عن حاجة عمياء . لان مارى كانت تحب أن تسعد كل من حولها ، وأن تشتهر بينهم بالكرم . فكانت من فرط حرصها على تلك السمعة تقرض نقودا . وهاتان البنتان اللتان تعملان لديها ، لم تكن تدع فرصة تمر دون أن تعطيهما شيئا تأكلانه . كلما أخرجن شريحتى الخبز بالمرجرين (١) أعطتهما شيئا تأكلانه ، فلا تكفان عن المضغ ساعات بطولها وهما تعملان .

على زجاج الدكان كانت قطعة من الورق ملصقة وقد كتب عليها : « هذا الدكان تديره زوجة جندى » . ولم تكن مارى تدع فرصة تمر دون أن تخبر زبائنها عن زوجها الذى فى ميفكينج وهى تطلعهم على رسوم توضيحية استراتيجية مقصوصة من « التايمز » توضح موقع المدينة المحاصرة . كانت مارى جميلة بحق ، وقد كان أى رجل حريا بأن يفتن بها وهى واقفة وراء الحاجز الخشبى تبيعه شيئا . لكن المؤسف أن معظم زبائن محلها ، منذ أن افتتحت فرعا لبيع الثياب الداخلية ، أصبحن من النساء . ولو لم يكن ذلك كذلك ، لكان من المحتمل أن تحقق مارى نجاحا أكبر فى تجارتها . لكنها فى الوقت ذاته لم يكن ينبغى لها أن تعطى لهذه العميلة أو تلك زوجين من الكومبينات بدلا من زوج واحد على سبيل السهو أو عدم الاكتراث ، لان مثل

---

(١) (Margarine) : زبد نباتى رخيص

هذه الاشياء تزعزع ثقة العملاء فى المحل .

كان فيوكومبى كثير التردد على مارى فى المساء ، بعد أن تغلق دكانها . فهو يحب ان يجلس ويرقبها وهى ترتب المنزل بعد أن ينام الطفلان حتى يحس ، ولو لمدى لحظة ، كما لو كان له بيت . قالت له أن تلك اللافتة التى فى واجهة المحل ، عن زوجة الجندى ، سببت لها متاعب كثيرة ، لان اصحاب الحوانيت المجاورة اعتبروها منافسة غير مشروعة وقالوا ان كون زوجها جنديا لا دخل له فى انخفاض اسعار بضائعها بطريقة مشينة ، وان تلك اللافتة غير لائقة ايضا لاسباب وطنية بحتة ، لانه من غير المستساغ الاعتراف علنا أن زوجات جنود الامبراطورية يضطررن الى استدرار عطف الجمهور . وقد وافق فيوكومبى على تلك النقطة الاخيرة .

أما ماك فلم تكن تتحدث عنه الا فيما ندر ، وفتر اهتمامها بالبنت بولى ، فلم تعد تتسقط أخبارها من فيوكومبى . لم يكن ماكهيث فى حقيقة الامر ، يعنيها فى شىء . فقد انقضت سنوات طويلة منذ غوايته الاولى لها ، لم تكن تراه خلالها ، فوق ان أحوالها كانت قد بدأت تتحسن بعض الشىء ، خاصة بعد أن استخدمت الفتاتين القائمتين بأعمال الحياكة .

لكن البضائع ما لبثت أن توقفت . ولم يباغتها ذلك التوقف . فقد حضرت الاجتماع الذى أعلن فيه ماكهيث اتحاد محلاته مع محلات هارون ، وخرجت من ذلك الاجتماع متوقعة أن تسوء الامور أكثر ، فيما يخصها وحدها ، لانها لم تشغل بالها فى أى وقت بمشكلات زبائنها المعوزين .

بدأت كل المحلات فى تخفيض أسعارها . حتى محلات كرستون بدأت تبيع بأقل من سعر التكلفة . وفى منتصف الخريف بينما اقبال الناس كله على الخيوط الصوفية ، نفد المخزون لديها من الصوف ، ثم تلقت انذارا مطبوعا بأنها يجب أن تقتصد فيما تبيعه للجمهور لانها لن تتلقى أية شحنات أخرى فى المستقبل القريب . فطاش صوابها . منذ البداية ، فى الحقيقة ، طاش صوابها .

لم تعد قادرة على المقاومة . المتاعب المتلاحقة ، والقلق ، وظروف حياتها غير الصحية هدت حيلها جميعا ، وجردتها من عنادها القديم . فوق أنها كانت قد اضطرت الى أن تكسب لقمتها بجسدها فى سن مبكرة ، فأجهضت عدة مرات ، على أيدى قابلات لا خبرة لهن ، فألحق ذلك بجسدها أضرارا ما لبثت أن أحسنت بوطأتها . فى الظروف العادية يستطيع المرء فى الثلاثين أن يتوقع عمرا طويلا مشرقا . لكن ذلك لا

يحدث لمن كان من اصحاب دكاكين حرف «ب» ، ومن قضى كل عمره في الاحياء الفقيرة .

حاولت ماري سوير فى مبدأ الامر ان تتصل بماك . لكنها ، بطبيعة الحال ، لم تستطع أن تعثر له على أثر . قابلت فاني مرة او مرتين فطيبت هذه الاخيرة خاطرها بكلمة أو كلمتين . فاضطرت فى آخر الامر الى التهديد بحكاية « العاكس » من جديد اذا لم تستطع الاتصال بماك .

لكنه رفض أن يتحدث اليها ، فأخذت فيوكومبي معها ذات مساء وذهبت الى مكاتب تلك المجلة .

تلطفوا معها في « العاكس » كثيرا . قالوا لها أنهم سيعطونها نقودا مقابل أية معلومات جديدة عن نابوليون دكاكين حرف «ب» . سألوها ان كانت تعرف شيئا عن المصادر التى يحصل منها على بضائعه . لكنها لم تكن تعلم عن ذلك شيئا . كل ما تعرفه أن البضائع تأتيها من شركة م.م.م. ، وقبل ذلك من مخازن شركة أخرى . فلما لم تجد ما تقوله لهم قالت ان ما كهيث هو القاتل المعروف باسم « السكين ». فنظروا اليها بأفواه مفتوحة وانفجروا ضاحكين . فلما تولاها الارتباك وقالت مستيئسة أنه قتل المدعو ادى بلاك ، ضحكوا أكثر ، وربتوا على ظهرها ، ودعوها الى تناول العشاء على حسابهم . فانصرفت واليأس يطحنها . كانت تلك رميتها الاخيرة . وقد طاشت .

عندما عاد فيوكومبي الى وكر بيتشام ، اخبره بكل ما حدث . كانت تلك أول أخبار حقيقية يستطيع أن يزود مخدومه بها .

وقف بيتشام منصتا اليه ، فى مكتبه المعتم الضيق ، وقبعته على مؤخرة راسه ، محدجا اياه بنظرة متفكرة . لم يكن فيما جاءه به اي جديد . فقد قيل له قبل ذلك ان ماكهيث هو السكين . لكنه لم يكن من الغباء بحيث يذهب الى البوليس بحكاية مضحكة كهذه . كانوا سيضحكون عليه ما فى ذلك ريب . لكنه أمر فيوكومبي ، على أية حال ، بالاستمرار فى التردد على ماري سوير ، على أمل أن يتوصل الى استخلاص بعض المعلومات المفيدة منها .

فكثر تردد العسكري عليها فى تلك الايام . ولم تضقَ هي بصحبته ، فقضى أكثر من أمسية معها يتحدثان . كانت متشائمة للغاية ، فلم تكفَ عن القول بأن الخراب وشيك .

كان ماك قد أغراها باستثمار مدخراتها الهزيلة ، التى جمعتها من الاتجار بجسدها طوال سنين ، فى دكانته هذه ، وها هو الآن

يرفض أن يمد لها يد العون . لا أقل من أن يساعدها على دفع الايجار.
قالت للعسكري :
ــ هذا الرجل يجب أن يحملني كالوزر على ضميره . ليس هناك من يستطيع شيئا حيال القدر . وقدري أنا اسمه ماكهيث ، ويعيش في ثانهيد . أحيانا أود لو استطعت أن أضربه على وجهه بكلتا يدى . حتى في الحلم . كم يكون ذلك جميلا . أود لو حلمت مرة واحدة بأني أفعل ذلك . لكنني لا أحلم بالليل شيئا . عندما أنام أنام كالاموات . من فرط التعب . طول النهار « أحسبن » . أعد كل بنس وأعمل له حسابا . الناس يقولون أني أتساهل مع الزبائن وأبيع بالاجل أكثر مما ينبغي . يقولون أني طيبة القلب . لكن هذا ليس صحيحا . فأنا لا أستطيع أن أبيع أي شيء بالاجل . كل ما هنالك أن الزبائن لا يأتون ولا يشترون. يذهبون الى الدكاكين الكبيرة حيث توجد تشكيلات من البضائع أكثر . وأسوأ ما في الامر أنه قد فتح دكانا جديدا في شارع كلايد . ذلك الدكان الجديد كان الضربة الاخيرة . لم أعد أحتمل .
كلام من هذا القبيل ، تدور تدور وتعود الى ذلك الدكان الجديد . كان لا يفارق مخيلتها ، ليل نهار . أصبحت تتحدث كثيرا عن القاء نفسها في النهر . فيجلس العسكري ويصغى اليها صامتا وهي تعيد صناديق البضائع الى الارفف . كانت تضطر الى أن تشب على قدميها لتطول الرف الاعلى . وعندما تنتهي من شكاتها ، يقول لها وهو يدخن غليونه الرخيص الذي جاء به معه من المكان الذي ترك فيه ساقه :
ــ مشكلتك ياماري يابنيتي أنك عديمة الموهبة . ليست لديك موهبة ، وليس لديك ما تبيعينه . كل من في هذه الدنيا يجب أن يكون لديه شيء يبيعه ، ويعرف كيف يبيعه ، فيعيش من بيعه . أنت كان عندك شيء كهذا . ثدياك وبشرتك الناعمة . فماذا فعلت بتلك النعمة ؟ بعتها ببخس الثمن . أو لعلها لم تكن تستحق الا ذلك الثمن . فكل شيء لم يعد له ثمن في هذه الايام . أنظري الى ساقي . لكنني عديم الموهبة مثلك أنا الاخر . لكن هناك من يأتون الى الحياة مثقلين بالمواهب ، وبالاشياء الجيدة التي يستطيعون بيعها . أما أمثالنا فليس لديهم ما يبيعونه الا الماء ، في حارة السقايين . يجب أن يجعل المرء نفسه نافعا . مطلوبا . لا غنى عنه . أنا أحاول أن أفعل ذلك .
عندما وصل الى هذا الحد بدا عليه الارتباك وأخذ يسألها متلعثما عن ماكهيث . قال لها أنه يجب أن يعرف عنه شيئا يبلغه لمخدومه حتى يبقى عليه . لكنه لم يفلح الا في اثارة شكوكها ، فجعلها تلزم الصمت .

فوق أنها كانت تتحدث دائما ، حتى عندما تقول شيئا ، بطريقة مبهمة وعامة للغاية لا يقف المرء منها على شيء .

في يوم الجمعة التالي لزيارتها الفاشلة لمجلة العاكس ذهبت الى فاني ترايزلر في دكان العاديات ، تأثرت فاني كثيرا لمرآها ، وأبقتها في الدكان معها طيلة الصباح على أمل أن يأتي ماكهيث فتقابله . لكن ماك لم يأت . فذهبتا الى بيته في نانهيد رغم أن فاني كانت على يقين من أنه لن يروق له ذلك . استقبلتهما بولي بلطف ، فأدخلتهما غرفة الجلوس ، وذهبت الى المطبخ لتعد الشاي . وضعت مئزرا حول وسطها ، وأخذت تروح وتجيء كأنها تعد وليمة كاملة ، مظهرة ذلك النشاط الزائد الذي تظهره العرائس في بداية الامر ، عندما يكون حتى اعداد قدح من الشاي ذا مغزى جنسي لديهن .

كانت فاني قد حذرت ماري من أن تفتح فمها بكلمة عن العمل ، قائلة انه يكون من الافضل أن تنتظر ماك دون أن تتدخل بولي في الامر . لكن الخوخة لم تكد تدخل بمعدات الشاي ، حتى انفجرت ماري باكية ، وقد فقدت سيطرتها على نفسها . أفرغت كل ما لديها ، وقالت أشياء لا يجب أن تقال ، متصورة أن كل ذلك الكلام دليل دامغ ، لا يستطيع أن يتحلل منه أحد ، على التزامات ماك قبلها .

أصغت اليها بولي باستغراب ، وقد وقفت ممسكة بصينية الشاي . كان الموقف واضحا للغاية . فماك قد ضحك على هذه المرأة أولا ، ثم استدرجها فوضعت كل ما لديها من مال في دكانها ، والان قد تركها لمصيرها . كان من الارحم أن يجهز عليها ببلطة يجز بها عنقها . اهتزت الصينية وبولي تهم بأن تضعها على المنضدة وهي تقول ما معناه : اما عن ظروف العمل ، فهي ليست ملمة بها ولا تفهم فيها شيئا . لكنه من الواضح طبعا أن اتهام زوجها بأنه « استدرج » ماري الى افتتاح دكان حرف « ب » ، ليس مما يسهل تصديقه . الاكثر احتمالا أنه تصدق عليها بذلك الدكان . أما أنه سيتركها لمصيرها فذلك اتهام سخيف ، وهي ـ بوصفها حرم ماك ـ ترفضه رفضا باتا . فليست ماري الوحيدة التي تملك دكانا حرف « ب » ، ولا يمكن القول طبعا أن ماك « يترك كل هؤلاء الناس لمصيرهم » . ذلك بعيد جدا عن الاحتمال . وأما عن ذلك الاتهام الآخر ، البذيء ، فانها يجب أن تقول ، كامرأة الى امرأة ، أنها لا شأن لها بما فعله ماك أو لم يفعله قبل الزواج . لكنها يجب أن تضيف أيضا ، كامرأة ، أنه عندما تتورط امرأة مع رجل فانها لا تفعل ذلك بغير علم منها ، أو وهي تجهل

العواقب ، ولا تستطيع أن تتوقــع من الرجل أن يظل يعولهــا طيلة عمرها . لانه أن كان الامر كذلك فان كل رجل فى الدنيا ستكون له عشرات الاسر قبل أن يبلغ الثلاثين بالنظــر الى ما هو معــروف من تساهل النسـاء فى هذه المسائل . ولا يليق بامرأة ناضجة أن تحمل غيرها وزر تساهلها . فلما قالت كل ذلك وضعت الصينية بالفعل على المنضدة بخبطة قوية وحاسمة ، فساد صمت . كانت مارى قد توقفت عن النحيب وأخذت تحدق فى الفتاة الجالسة أمامها بنظرة جوفاء على وجهها . حتى فانى تولتها الدهشة . فلم تكد بولى تنتهى من كلامها حتى همت واقفة . وحذت مارى حذوها ، فقامت متباطئة، ومدت يدا مرتجفة تأخذ بهــا حقيبتها ، بينما بولى تصب الشاى بهدوء . وعندما خرجتا كان ابريق الشـاى ما زال فى يدها .

حاولت فانى ان تستبقى مارى معها ، لكن هذه الاخيرة هزت راسها ، وصعدت الى مركبة ترام كانت تمر أمامهما . كانت تبدو شاردة الذهن . لاحظت فانى أن الترام لم يكن ذاهبا فى اتجاه شارع ملبرى . والحقيقة أن ذهن مارى لم يكن صافيا الصفاء الواجب . ولا غرو . لم يكن قد بقى أمامها فى الحيــاة الا وقت قصير : سبع وعشرون (٢٧) ساعة فقط .

قضت فانى بقية اليوم فى البحث عن ماكهيث . لكنها لم تره قبل صباح اليوم التالى ، عندما دخل دكانها وهى يرغى ويزبد بعد ماقالته له زوجته عن زيارة اليوم السابق . طلب من فانى محتدا أن تخبره بكل ما حدث ، فأخبرته بكل ما عندها ، بوجه جامد لا تعبير فيه . ثم قالت له أن تصرف بولى أثار تقززها بدرجة لا تستطيع التعبير عنها . فقد جعلتها تحس وهى فى ضيافتها أنها مجرد مستخدمة لديهم . وها هو ماك الان يفعل نفس الشىء . فيتصرف بنفس الطريقة المقززة .

ثم تحدثت بعد ذلك عن دكان شارع كلايد ، وقالت له أن مارى سوير قد بلغت قرارة اليأس ، وأنها لا تكف عن الحديث عن عزمها على الانتحار . فلم يزد ماك عن النظر اليها وهو يغلى غضبا عندما قالت له أن مارى تنتظره فى شارع ملبرى ، ثم خرج كالاعصار . كان اليوم موعد اجتماع اللجنة الاستشارية لشركة م.م.م. ، وما زال أمامه عمل كثير .

بعد بضع ساعات بعث بمن يحمل رسالة الى مارى سوير يقول لها فيها أن تنتظره فى الساعة السابعة فى حانة بالقرب من الميناء . ولعله تبادر الى ذهنه ان المراة تعرف اكثر مما ينبغى من أسرار عمله .

عندما ذهبت فانى الى شارع ملبرى فى الساعة الخامسة ، أحست بالارتياح إذ وجدت الدكان مفتوحا . كانت مارى جالسة وراء الحاجز الخشبى ، وبالدكان رجل له ساق خشبية . أومأت مارى لفانى برأسها على سبيل الترحيب .

فى تمام السادسة أقفلت مارى دكانها ، وصرفت الفتاتين ، فخرجت تاركة طفليها فى الفراش . ثم ذهبت الى الميناء بصحبة فيوكومبى . وهكذا فانها فى ساعاتها الاخيرة لم تكن وحدها تماما .

حاول العسكرى أن يجعلها تتكلم وهما فى طريقهما الى الميناء ، لكنها لزمت صمتا لم تقطعه الا بلا ونعم . وعندما وصلا الى الحانة صرفته . فاغتاظ . لانه صحبها دون جدوى . ولانه لم يكن يكلفها شيئا ـ فيما تصور ـ أن تزوده ببعض المعلومات التى تجعل مستر بيتشام يرضى عنه ، وتدعم مركزه لديه .

كانت الحانة خالية أو تكاد فى ذلك الوقت المبكر من المساء ؛ فانتظرت مارى وحدها ساعتين ، كما تبين فى التحقيق من شهادة صاحب الحانة . لكن ماكهيث لم يأت ، فانصرفت ، ذاهبة فى اتجاه الميناء . قال صاحب الحانة فى شهادته انها قالت له قبل أن تخرج أنها ستسير فى اتجاه الميناء على أمل أن تقابل السيد الذى كانت تنتظره فى الحانة ولم يأت . لكنها لم تلق أحدا .

وبعد ساعتين أخرج أحد رجال البوليس جثتها من الماء بمساعدة اثنين من عمال الميناء .

مستر بيتشام يجد منفذا

اضطر فيوكومبى أن يقضى الليلة فى بيت مارى سوير ، فى انتظار عودتها . لانها كانت قد أعطته المفتاح عندما صرفته أمام الحانة ، وطلبت منه أن يطل على الطفلين فى طريق عودته . فلما دخل أدرك أنه يجب أن ينتظرها ليفتح الباب لها .

وفى الصباح أحضروا جثتها الى البيت . وللفور تجمع حشد غفير من الناس فى الدكان ، بحيث لم يفطن أحد الى العسكرى فى هذا الزحام ، فاستطاع أن ينسل هاربا .

وضعوا الجثة على الحاجز الخشبى ، لان الفراش كان مزدحما بعدد من علب الكرتون .

علم مستر بيتشام بموت مارى سوير ، فى وقت مبكر ، من مستخدمه ، العسكرى فيوكومبى ، فأتاح له ذلك أن يبادر بالحركة ، ويتخذ عددا من الاجراءات العاجلة . فكان أول ما فعل أن بدأ يجمع المعلومات ليتيقن مما لديه من وقائع . جرد حملة كامله من شحاذيه ، ضمت ما لا يقل عن ثلاثين منهم ، على حى الميناء ، وشارع ملبرى ، ودكان فاني كرايزلر ، ونانهيد . وقد توصل رجاله ـ باستخدام قدر من النطاعة ـ أن يحضروا التحقيق المبدئى الذى أجراه البوليس فى شارع ملبرى .

بدأت المعلومات تتجمع لدى بيتشام . علم أن بعض عمال الشحن كانوا يتلكأون على أرصفة الميناء ليلة أمس فشاهدوا امرأة وحيدة تسير مسرعة فى اتجاه الماء.ذهب فيوكومبى الى شارع ملبرى بعدالظهر ليأخذ الطفلين الى بيت فاني كرايزلر ، فأحضر معه رسالة ماك الى مارى ، وقد وجدها فى يد أحد الطفلين والولد يحاول أن يأكلها . وفى المساء كان قد بات واضحا لبيتشام ان المرأة ماتت منتحرة .

وعملا على التأكد من ذلك ، قضى اليومين التاليين فى تتبع خطوات ماكهيث فى يوم الحادث . لم يجد سبيلا الى اكتشاف الاماكن التى تردد عليها فى ذلك اليوم ، لكنه خرج من استقصائه بيقين قاطع أن ماكهيث لم ير مارى سوير فى ذلك اليوم . واذ ذاك اطمأن الى أن لديه كل ما يحتاجه من أسباب لكى يوجه اتهامه .

ولقد يبدو ذلك غريبا ، لكن التأكد بشكل قاطع من أن ماكهيث لم تكن له يد فى موت مارى كان مطلبا جوهريا ، لانه ، لو كان الامر على العكس من ذلك ، لاستعد ماك بألف دليل ودليل على براءته ، وعدم وجوده فى مكان الجريمة ، وما الى ذلك . ولقد تكون لديه مثل تلك الادلة ، لكن تلك مخاطرة يجب تقبلها ، فهو على الاقل لن يكون لديه دليل معد باحكام . ومن المعروف أن الادلة الصادقة غير المصنوعة تكون أقل قابلية للتصديق من الادلة المفبركة .

وهكذا فان بيتشام كلف محاميا مرموقا بتحريك الامر لدى السلطات ، بوصفه ممثلا للطفلين اليتيمين ، وقام بنفسه ، شخصيا ، بتسليم المدعى العام ما تحت يده من أدلة ، بوصفه من ضباط الابراشية المسئولين عن رعاية مصالح الفقراء ، فذلك واجب عام يؤديه بوازع من ضميره ، رغم أن الرجل زوج ابنته .

ولقد وافقه المحامى ، مستر والى ، الرأى تماما فيما يتعلق بما قد يكون لدى ماكهيث من أدلة تثبت براءته ، فقال :

ـ اذا ما أخذنا فى الاعتبار كل ما لدينا من معلومات ، فانى أميل الى الاعتقاد مثلك ان زوج ابنتك لا يد له فى موت هذه المرأة ، مارى سوير ، ولهذا فانه من غير المحتمل أن يكون لديه أى دليل على براءته. سيحاول طبعا أن يختلق أى شىء بسرعة ، فيدعى أنه كان فى هذا المطعم او ذاك ، أو أنه كان فى أحد المسارح ، أو حتى مع امرأة لا يستطيع أن يبوح باسمها حتى لا يسىء الى سمعتها . وليته يفعل ذلك . فهذا الدليل الاخير يلائمك كثيرا بالنظر الى سوء الموقف بينكما ، اه ؟ ها ها ها . لكن كل ذلك لن ينقذ عنقه . لان دليل البراءة لكى يكون فعالا يجب أن يكون معدا من قبل . ومثل ذلك لا يحدث الا عندما تكون هناك جريمة ، ويكون قد سبق تنفيذها تدبير واعداد . هذا جزء لا يتجزأ من عدة المحامى فى المرافعات الجنائية . وهو فى ذلك مثل السياسة تماما . عندما يثير احدهم حربا يكون هناك اكثر من دليل يبرىء ساحته . فالضحية دائما هى المذنبة . أما المعتدى فلديه دائما دليل براءته .

تألفت أدلة الادانة من الرسالة المكتوبة بخط اليد التى ارسلها ماكهيث الى المرأة الميتة ، وشهادة العسكرى البطل فيوكومبى ، وشهادة اثنين من الشحاذين كانا على استعداد لاداء اليمين والقول بأنهما شاهدا ماكهيث بصحبة مارى سوير فى الساعة التاسعة من مساء يوم السبت ، على مقربة من رصيف الميناء .

مستر ماكهيث لايرغب فى مبارحة لندن

لم يقبض على ماك الا فى يوم الخميس التالى . عندما بلغته تلك الانباء السيئة من براون وهو فى ضيافة آل أوبر ، أرسل زوجته الى فندق فى الايست اند . جاء أوهارا ليصطحبها، فتناولوا العشاء معا . قال أوهارا أنه بذل كل ما فى وسعه لتدارك الموقف . لكنه علم بالامر متأخرا . وقال أنه من العجيب أن فانى كرايزلر لم تقل شيئا رغم أنها سمعت ، بغير شك ، بموت مارى سوير . قال أوهارا انه ذهب فقابل المفتش براون ، وأن براون هو الاخر لم يدرك أن الشبهات اتجهت نحو ماك الا مؤخرا ، لان الذى قام بالتحقيق الاولى رجل من سكوتلاند يارد اسمه بيتشر ، يشبهه زملاؤه بكلاب الصيد ، لانه عندما يلتقط أنفه رائحة الطريدة لا يستطيع ان يرده على أعقابه أحد . كان

رأى بيتشر هذا فى أول الامر أن المرأة ماتت منتحرة ، خاصة وأن التحريات ، وبعض المقالات التى نشرتها مجلة « العاكس » ، أكدت سوء حالة دكاكين حرف « ب » وتدهور أعمال ماكهيث بوجه عام ، مما يجعل نظرية الانتحار مقبولة ومقنعة . لكن بيتشر عدل عن رأيه بعد اتهام بيتشام الدامغ ، خاصة وأنه عثر فى ثياب الميتة على خطاب لم تتمه ، موجه الى « عزيزها ماك » ، تعترف فيه بما ارتكبته من أخطاء فى حقه ، وتطلب مغفرته وترجوه أن يكون أكثر رفقا بها .

كان أوهارا على علم أيضا بالوقت الذى ماتت فيه مارى سوير : حوالى التاسعة مساء . رمقه ماكهيث بنظرة حادة عندما قال ذلك . فالساعة التاسعة وقت غير ملائم اطلاقا . لان ماك كان يرأس اجتماعا لشركة م٠م٠م٠ فى تلك الساعة . ولم يكن من المستحسن اطلاقا أن يعرف شىء ، لا عن الاجتماع ، ولا عما دار فيه ، ولا عن وجود ماكهيث فى شركة م٠م٠م٠ أصلا ، لان ذلك لن يؤدى الا الى تخريب كافة الخطط التى ذاق ماكهيث الامرين فى وضعها وتسييرها . فلورد بلومزبرى قد يكون غرا مأفونا ، لكنه لن يكذب اذا ما سئل فى محكمة، ولن يدعى طبعا أن السادة المجتمعين ، وماكهيث على رأسهم ، كانوا قد عقدوا اجتماعهم ليلعبوا البريدج معا .

ولهذا بات من المتعين أن يغادر ماكهيث البلاد فى صمت ، وبأى ثمن ، فيظل بالخارج الى أن يتمكن براون من ايقاف التحقيق ، أو ، على الاقل ، الى أن تكون عملية البنك التجارى قد كللت بالنجاح . وقد حبذ أوهارا بقوة سفر ماكهيث الى السويد ، بصحبة فانى وجروتش ، عملا على تنظيم أعمال الشركة هناك . ثم طالب بأن يسلمه ماك ، أثناء سفره ، السلطة كاملة ، لكن ماك قال أنه سيعطى كل سلطاته لبولى . فنشب شجار ثم انصرف أوهارا غاضبا .

استمعت بولى لكل ما دار بينهم بفتور ، دون أن تقول شيئا . أدركت أن الامر كله لا يعدو كونه مؤامرة من جانب أبيها ضد ماكهيث. كانت موقنة من أن مارى سوير ألقت بنفسها فى الماء على سبيل الانتقام منه . لكنها صممت على ألا تدع ماك يذهب الى السويد برفقة فانى كرايزلر .

بعد العشاء ذهبت الى البيت معه دون أن تفتح فمها بكلمة . لكنها، وهى تخلع ثيابها ، انفجرت فيه غاضبة بشأن رحلته التى يزمع القيام بها مع فانى . فضحك ماك ووعدها وعدا قاطعا بأن يترك فانى فى لندن معها . قال انه لا علاقة له بفانى سوى العمل ، وأنها عشيقة

جروتش • لكن بولى لم تتخل عن شكوكها • كانت تصدق كل مايقوله لها ماك ، الا فيما يخص النساء .

استيقظ فى تلك الليلة فسمعها تنشج . أخذ يهدىء من روعها ، فخف نحيبها قليلا ، ثم اعترفت له ــ بعد ان استخلفته ألا يغضب ــ بأنها حلمت حلما سخيفا فى الاسبوع الماضى . حلمت بأنها نامت مع أوهارا . انفجرت باكية من جديد وهى تسأله بين شهقاتها ان كانت قد ارتكبت ذنبا كبيرا فى حقه بذلك الحلم ، بينما رقد هو بجانبها ، وقد تخشب جسده ، ولزم الصمت •

لكنهما تصالحا فى النهاية ، وسر ماكهيث وهى تعود فتلح مغضبة على أن يعدها بألا يسافر مع فانى ، ثم اقنعها قبل أن ينام بأن من الافضل أن تذهب لتقيم فى بيت أهلها أثناء سفره ، لانهـــا بذلك ستستطيع مساعدته ، فتكتب اليه أولا بأول عن الخطط التى يدبرها أبوها ضده • وعندما ناما كانا قد عادا سمنا على عسل ، بعد تلك الزوبعة الصغيرة التى أثارتها بولى .

فى الصباح ودعها وانصرف ، آخذا عصاه الغليظة معه ، مرتديا قفازه العتيد الذى لا يخلعه أبدا . كان موعد قطاره فى السابعة مساء، لكن أمامه عملا كثيرا يؤديه قبل أن يغادر لندن • فرجال أوهارا كانوا من التذمر فى حال . وعليه أيضا ان يقوم بزيارة اليهودى هارون ، واحد الاخوين أوبر .

لكنه ذهب أولا الى جاون الذى أعطاه تلك المستندات ضد كوكس، زميل بيتشام . لم يكن جاون قد نشر شيئا عن الفضيحة بعد . لم يجده ماك فى منزله ، فلما سأل عن المكان الذى يحتمل أن يجده فيه قيل له أن يبحث عنه فى جريدة اسمها « المراسل » . وهناك وجد ماك عددا من الصحفيين قد التفوا حول جاون محاولين أن يستخلصوا منه بعض المعلومات عن الجياد الرابحة فى سباق اليوم . لم يكد ماكهيث يدخل حتى ساد صمت غريب . ثم صاح صحفى شاب :

ــ يالله ! هذا صاحبنا ماكهيث ! أظنك تريد أن تنشر احتجاجا ضد الامر الصادر بالقبض عليك ؟ هل سيقبضون عليك هنا ؟ هذا لطف منك !

أدرك جاون أن ماك لم يكن قد قرأ صحف الصباح بعد ، فأراه احداها • كان بيتشر قد أدلى بحديث صحفى تكلم فيه كثيرا عن الخطاب الناقص الذى وجد فى ثياب المرأة الغريقة . أخــذ جاون ماكهيث فانصرف معه ، وذهبا الى حانة قريبة . قال جاون أنه لم ينشر شيئا

عن موضوع كوكس حتى الان لان المستندات التي أعطاها له ماك تتعلق بموظف كبير في الاميرالية اسمه هيل . أو ، بالاحرى ، بزوجته . لكنه سينشر بعض ما لديه خلال أيام قليلة ، ثم يبدأ حملته . ولم يقل جاون لماك ، بطبيعة الحال ، انه استخدم المستندات التى عهد بها اليه فى عملية ابتزاز من هيل ، ولم يعلم ماك ، نتيجة لذلك ، أن الامر كلف بيتشام مبلغا لا يستهان به من المال ، وان بائنة بولى ، التى تهمه كثيرا ، لم تزد نتيجة لقيامه بتلك الحركة ضد كوكس .

قال ماكهيث للصحفي أنه لا يهمه احداث فضيحة لاحد بقدر مايهمه ان يلقى بعض الخوف فى قلب كوكس وشركائه . فوعده جاون بأن يفعل ما بوسعه ، ثم طلب ان يجرى حديثا صحفيا معه . جلسا فطبخا الحديث معا . وقرأه الناس فى طبعة المساء ، فعلموا أن التاجر الكبير مستر ماكهيث دهش للغاية من اتهامات البوليس له ، قال ماك فى حديثه الصحفى : « أنا رجل تاجر ، ولست مجرما ، لكنى ، ككل رجل ناجح ، لى أعداء . فنجاح محلات حرف « ب » الذى لم يسبق له مثيل دفع حسادى واعدائى الى تدبير هذه المؤامرة ضدى . لـكن الناس جميعا يعرفون أن سبلى كلها مستقيمة ، وأنى عندما أنافس أحدا ، فانى لا أحاول أن أنتصر عليه بالمكائد وتلفيق الاتهامات ، بل بالعمل الجاد المخلص الشريف فى خدمة عملائى الكرام . ويقينى الذى لا يتزعزع أن كل هذه الشبهات التى أثيرت حولى سترتد الى صدور مروجيها . وانى آمل الا يكون اى شك من ناحيتى قد تسرب الى نفس أى من السادة الزملاء المتعاملين معى فى تجارة التجزئة بسبب هذه الفرية الباطلة والمكيدة الدنيئة . مسز سوير هذه لم أكن أعرفها الا معرفة سطحية للغاية . وكل ما أذكره عنها أنها كانت تمتلك دكانا من دكاكين حرف « ب » فى شارع ملبرى على ما أظن . ولا علاقة لى البتة بتلك السيدة الا علاقة العمل التى تربطنى بعشرات غيرها من أصحاب الدكاكين . وانا كرجل أعمال ، أقدر تماما ظـروف سيدة وحيدة كهذه عندما تفجأها تقلبات السوق . انها مأساة أليمة ما فى ذلك من شك . ويبدو أن المرحومة كانت تعانى ضائقة مالية شديدة فى أخريات أيامها ، فلم تستطع أن تصمد لها ، ربما عن قلة ايمان بمتانة اقتصادنا القومى . »

بعد ذلك الحديث ، ذهب ماكهيث الى البنك التجارى ، فقابل مستر هنرى أوبر . دهش الاخ أوبر كثيرا لرؤيته طليقا . فقد نشرت صحف الصباح اسمه ونبأ القبض عليه بمانشتات بالغة الضخامة ،

وحروف حمراء . لكنه أصغى لزائره بكل انتباه ، فلما سمع ماعنده قال له :

ـ لا يجب أن تسلم نفسك . سواء كنت مذنبا أو لم تكن لا تدعهم يلقون بك فى السجن . سافر الى الخارج ! وبوسعك أن تدير أعمالك من هناك . نحن نعلم أن لديك أصدقاء فى شركة م.م.م. ، ونحن أيضا نستطيع أن نسهر على مصالحك ، اذا أردت ، كان هارون هنا منذ قليل . وهو يكاد يفقد صوابه بسبب حكايتك هذه .

عندما انصرف ماك كانت الافكار تتسابق فى رأسه . لماذا يريده اوبر أن يسافر بأى ثمن ؟

***

تأبط ماك عصاه الغليظة وسار بنشاط حتى خرج من حى المال والاعمال ، فذهب راكبا الى ميدان لوور بلاكسميث . ومن شارع الى حارة سار على قدميه حتى وصل الى بغيته . فى زقاق ضيق بين افنية واسعة تملؤه حظائر ومخازن عديدة ، دخل شادرا كبيرا ، عبر فناءه ودخل مكتبا مضاء فى الطابق الارضى . وجد جروتش والاب جالسين على منضدة من الموجانو وبجوارهما عدد من زجاجات الجعة ، وجروتش يملى خطابا على فتاة أنيقة الثياب . فى الغرفة المجاورة كان بعض العمال منهمكين فى تقفيل عدد من الصناديق الكبيرة بضوضاء لا حد لها .

عندما دخل ماك هم جروتش واقفا ، لكن الاب ظل جالسا حيث هو . قال لرئيسه بنبرة استياء :

ـ من حسن حظك أنك ما زلت تذكرنا فتأتى لترانا بين الحين والحين . لم يعد هناك عمال هنا . لا شىء الا المتاعب والتذمر من كل جانب .

لم يجانب الاب الحقيقة فيما قال . فالبطالة الاجبارية التى فرضتها ضرورات العمل أحدثت آثارا بالغة السوء . كانت المخازن ما زالت بها كميات من البضائع ، لكنها لا تقاس بما تكدس فيها قبلا . أما الرجال فقد صرح أوهارا لهم بالعمل لحسابهم الى أن تعود الامور الى ما كانت عليه . لكنه لم يعطهم معدات العمل . كانت هذه ملكا للشركة وحدها . ولهذا لم يستطع أى منهم أن يقوم بأى عمل كبير يذكر . لانهم بعد أن الفوا العمل بالمعدات الحديثة التى زودتهم بها الشركة ، لم يعد بوسعهم أن يعودوا الى العمل بعددهم البدائية الاولى . فوق أن وسائل النقل والتنظيم أعوزتهم ، فاضطروا الى قضاء معظم

وقتهم بلا عمل . وأخذوا يتشاجرون فيما بينهم .
ضحك ماكهيث قائلا :
ــ كنت أظنهم اصلب عودا من ذلك ! لقد ضاقوا بنظام الاجور المنتظمة والاستقرار الذى هيأه لهم ، فقلت عال . انهم يقدسـون استقلالهم وحريتهم الفردية . لكن اكتشفت الان أنهم يتذمرون لمجرد التذمر واحداث المتاعب . وانهم عندما يحصلون على ما أحدثوا المتاعب بسببه لا يتحملون نتيجة تصرفهم . أما أنا فأتحمل دائما نتيجة قراراتى .
قال الاب بخشونة :
ــ وهم أيضا يتحملون نتيجة قراراتك . لو لم تقرر أن تحرمهم من معدات العمل لما اصبحت هذه حالهم !
قال ماك بغير اكتراث :
ــ لو !
فعاد الاب الى الهجوم :
ــ لقد تلقينا عرضا من كوايت لشراء مثاقيبنا الجديدة . يقول أن لديه ما يكفى لشرائها،وأنه لايوجد من يعرف طريقة استعمالها غيره .
فصاح ماكهيث مغضبا :
ــ لن أبيع معداتى . هل فهمت ذلك ؟ ومناضدى هذه لم أضعها هنا لتجلس عليها .
ثم أمسك بقوائم المخزون، وصرف الفتاة من الغرفة بايماءة مقتضبة من رأسه . قال للرجلين :
ــ لماذا تركتم المخازن ممتلئة ؟ لقد أمرت بأن تسحب كل البضائع من المخازن حتى المخزن رقم ٢٣ .
فنظر جروتش الى الاب الذى نزل من فوق المنضدة ووقف يبرطم . قال ونظرته مثبتة على الاب :
ــ لم يخبرنا أوهارا بشىء عن هذه الاوامر .
أخفى ماكهيث دهشته ، وأخذ يقلب فى أحد الكتالوجات ليكسب بعض الوقت ، ثم استطرد بهدوء :
ــ والمخزن رقم ٢٩ أيضا يجب أن يتم اخلاؤه ، لان أوهارا قد يضطر فى القريب العاجل الى أن يثبت لبعضهم أن المخازن خالية تماما .
ــ ولكن أين تريدنا أن نخزن كل هذه البضائع ؟ معظمها طباق وأدوات حلاقة . هذه الاصناف لن تصرف بسرعة لانها مازالت جديدة فى أيدينا ويجب أن نخزنها بعض الوقت الى أن تهدأ الضجة الخاصة بها . وتلك

البضائع التى وصلتنا من برمنجهام هنا أيضا . مازالت الصحف تقيم الدنيا وتقعدها بسبب سرقتها . ثم هناك الجلد والصوف . دكاكين حرف «ب» يمكنها أن تستوعب ما لدينا من هذين الصنفين .

ـ لماذا لاتسمعون الكلام ؟ لن نصرف شيئا من كل هذا . يجب أن نتخلص من كل مالدينا . ولن يباع شيء . يحسن بكم أن تحرقوا كل هذه البضائع . فالمخازن مؤمن عليها .

نظر اليه جروتش باستفظاع .

ـ لم لا نعطيها للرجال اذن ؟ ستقع متاعب اذا ما اضطررناهم الى حرقها ، بعد أن حصلوا عليها .

بدا الضجر واضحا على وجه ماكهيث . قال لجروتش :

ـ اية متاعب هذه ؟ ألم يحصلوا على أجورهم ؟ وسوف أدفع لهم أجورا أخرى ، بالساعة ، للتخلص من هذه الاشياء . انا الذى أقرر ولا أريد أن يباع من هذه البضائع شيء . فاذا كان الرجال يريدون تبغا فما عليهم الا أن يشتروه ، من محلات حرف «ب» ان أرادوا . وهناك شيء آخر . من الان فصاعدا ستتلقون الاوامر من زوجتى ، لامن أوهارا وستوقع كل الاوراق الخاصة بالعمل منها . مفهوم ؟

هم واقفا وأخذ يرتدى قفازه ، لكن جروتش لم يدعه ينصرف . قال له :

ـ هانى ميكر مازال يأتى هنا . يقول انه مستعد للقيام بأى عمل نكلفه به ، فقد فشل مشروعه .

ـ لماذا ؟ الا تقولون انه أفضل خبير فى الاقفال ؟ لم يستطع أن يصمم ذلك القفل جيدا ؟

ـ بالعكس . لكن الشركة التى باعها الاختراع خدعته ، وسرقته منه . وهو الان يريد أن يعود للعمل معنا .

ضحك ماكهيث . كان هانى ميكر هذا فى زمانه احد اساطين مهنته : سرقة الخزائن ، لكنه تقدم فى السن وفقد لياقته البدنية (فلم تكن العصابات قد بدأت في تلك الايام تفرض الرياضة الاجبارية على أعضائها) فقرر أن يتفرغ للاختراع ، وأن يستقيم ، فاخترع قفلا ضد السطو ، ووضع كل خبرته وفنه فى ذلك الاختراع ، وجاء اختراعه تحفة ، حصيلة عمر بأكمله من الدراسة والخبرة والمران . لكنه عندما تقدم الى احدى الشركات الكبرى ليبيعها اختراعه ، وجد فى تلك الشركة ندا له وأكثر ، فسرق اختراعه منه .

قال ماكهيث وهو ينصرف ، على سبيل التريقة :

ـ لم لايفتح دكانا حرف «ب» ويواصل الاستقامة ؟

لكنه ، رغم ضحكاته ، كان أبعد مايكون عن السعادة . أزعجه أن أوامره لم تعد تنفذ . ماذا يحدث لو خطر لذلك اليهودي هارون الآن أن يطلب من أوهارا معاينة المخازن ليتأكد بنفسه من انه لاتوجد بضائع حقا ؟ لن تجد فاني طبعا ، وهي تجهل حقيقة الموقف في المخازن ، سببا يدعوها لرفض طلبه ، فيذهب بأنفه الكبير ليشاهد بنفسه ، ويجد مخازن الشركة مكدسة بالبضائع .

عندما خرج من متاهة الازقة والحواري المتشابكة المتداخلة ، وقف مترددا برهة بين الذهاب الى فاني في دكانها ، وبين زيارة مسز ليكسر في تانبريدج . فقد كان اليوم يوم خميس . لكنه مالبث أن تذكر أنه سيرى فاني على رصيف المحطة مساء عندما تأتي لتودعه ، وأنه قد يقابل براون في تانبريدج . فقد كان كبير المفتشين من زبائن مسز ليكسر المزمنين مثله . وكان موعده الاسبوعي كل خميس . وكثيرا ما جلس الرجلان يلعبان دورا من الضامة معا .

في قرارة نفسه كان ماكهيث يحس بشيء من الذنب لعلاقته بفتيات مسز ليكسر ، رغم أن مقتضيات العمل كانت مبررا كافيا للعلاقة كهذه . فهو في ذلك البيت يستطيع ، بأفضل مما يمكنه في أي مكان آخر ، أن يجمع كل مايحتاجه من معلومات عن الشئون الخاصة لرجال عصابته . وهكذا فان علاقات العزوبة التي كان يسمح بها لنفسه مع مراعاة الاعتدال ، استمرت بعد الزواج لاسباب عملية بحتة . فوق أنه كثيرا ماقال لنفسه أنه يعتز بهذه الزيارات المنتظمة لتانبريدج لانها باتت عادة لديه ، والعادة شيء عظيم ومقدس ، فمن المعروف أن تربية العادات وتغذيتها والانقياد لها من أهم الاسس التي تقوم عليها الحياة البورجوازية . فبعد شطحات الشباب الاولى ، درج ماك على أشباع حاجاته الجنسية بطرق تتيح له أن يجمع بين اشباعها وبين العمل أو الترف : أي مع نساء لا يفعلن ذلك لمجرد أن يجدن لقمة العيش ، أو مع نساء تربطه بهن علاقات العمل ، مثل فاني .

ولم يكن ماك سعيدا كل السعادة بزواجه . مامن شك في أن أضرار تلك الزيجة اكبر من نفعها . أقربها تهمة ماري سوير هذه التي لفقت له من تحت راس بولي . هناك كثيرون يحملون له الان ضغينة أكثر من أي وقت مضى ، لانه ، أثناء تعامله معهم ، ترك نفسه تقع له فضيحة كهذه . وهناك من رجاله من بات ينقم عليه أيضا . أنه يستطيع أن يتخيلهم جالسين يقولون لانفسهم : آه ! هاهو ماك قد أثرى وأصبح واحدا من

السادة . يظن نفسه قد وصل الى القمة ، وكبر علينا !
والمشكلة فى ذلك كله أن رجلا فى مثل مركزه لايسعه أن يدع الناس يهتمون بسيرته أكثر مما يجب . كل مايجب أن يروه منه صورته العامة التى ترسم لهم . وقد ظل كذلك حتى الان . لم يكن هناك من يستطيع أن يجزم بشىء من حياته الماضية . لكن من الذى يضمن له ألا تنطلق اليوم اشاعة تقول ان ماكهيث هذا مجرد رجل كغيره من الناس ؟ لو وقعت كارثة كهذه لتطلب الامر مذبحة تكلفة كثيرا من المال والمخاطر لكى يعيد الى صورته ذلك الجو القائم الذى لايستطيع المرء أن يسمن ويثرى الا فى تلافيفه . لهذا ذهب الى تانبريدج بحثا عن المعلومات لكى يطمئن باله ، وبحثا عن صديقه براون لكى يحدد معه موقفه ، ويجد لنفسه مخرجا من ذلك الركن الذى وضعه فيه بيتشام .
لكن براون لم يكن قد جاء بعد ، فجلس فى المطبخ ينتظره . لم يجد فى نفسه رغبة الى صحبة أى من الفتيات . كانت الافكار تتزاحم على رأسه . ولم يكن سعيدا . أحس بالارض الصلبة التى طالما وقف وقاتل عليها تميد تحت قدميه . هؤلاء الحمقى الذين « يشترون » له بضائعه لايريدون أن يذعنوا لشىء من القيادة الحكيمة . بدأ عدد من النقاط الصغيرة التى لم يلق اليها بالا فى زحمة الاسابيع الماضية يتوافد على ذهنه . هناك اوامر واضحة لاتقبل التأويل ، كلفته فكرا ووقتا ، أهملت ولم تنفذ . وليت الامر توقف عند ذلك الحد . لان الاهمال أعقبته الخديعة ، فأخفى الامر عنه بمعرفة مستخدميه من رءوس العصابة .
ومنذ أن توقف التوريد لم يكف جروتش عن ترديد نغمة واحدة متزايدة فى سمعه : الرجال متذمرون ، الرجال متذمرون . هؤلاء الحمقى ، بذكائهم المحدود ، وأفقهم الضيق ، لايرون الى أبعد من أنوفهم القبيحة ، ولا يقدرون قيمة العمليات الضخمة التى تتطلب قرارات لايفهمونها .
وهاهو يكتشف أن أوهارا قد أهمل تنفيذ أمر من أهم أوامره ! والحقيقة أن سلوك أوهارا فى الآونة الاخيرة لم يكن باعثا على الرضا بحال . وقد بلغت به الصفاقة حد المطالبة بزعامة العصابة فى غيبته . لكنه عندما قيل له أن بولى هى التى ستحل محل زوجها ، لم يتشبث بمطالبه .
لماذا ؟ هه ؟ لماذا ؟ اجتاحت ماكهيث بغتة موجة من الشك . بولى ! ماالذى بينها وبين أوهارا على وجه التحديد ؟ انها الان صاحبة الكلمة العليا فى العصابة . فما الذى ستفعله بكل هذه السلطة ؟ تذكر ماك فجأة ذلك التصرف الذى ظل يقلقه منذ أن أقدمت عليه أثناء العودة من تلك الرحلة الخلوية وهو جالس بينها وبين أمها ، وادرك لماذا ظل ذلك

التصرف يلح على خاطره وينغص عيشه . قال لنفسه :
ــ طبعا . امرأة تفعل شيئا كهذا مع رجل تخرج معه لاول مرة فى حياتها ، ولا تعرفه الا معرفة سطحية للغاية ، لا يمكن أن تكون زوجة صالحة . انها شهوانية أكثر مما ينبغى . وجريئة . والمصيبة أن الامر ليس مسألة حسية فحسب ، بل يبدو أنها تستخدمه أيضا لتحقيق مآربها الاخرى . فما الذى ستفعله بكل هذه السلطة التى أعطيتها لها ؟ فى موقف كهذا تساوى الزوجة الفاضلة وزنها ذهبا !

حز فى نفسه أن يذكر السرعة التى وافق الاثنان بها على سفره . كأنهما كانا يترقبان هذه الفرصة ! لم تقل له حتى « ستوحشنى ! » . بدت عاقلة أكثر مما يجب . ياسلام على هذا العقل كله !

هم ماكهيث واقفا من فرط مرارة . أخذ يتجول فى البيت والقلق ينهشه على غير عادة . دخل الجزء المخصص لاستخدامه مكاتب بمعرفة عملاء مسز ليكسر . عدد من الغرف الكبيرة مؤثثة بأثاث المكاتب ، فى بعضها ، بجانب ذلك الاثاث ، أرائك مريحة ، والبعض الاخر ليس فيه الا منضدة ومقاعد وآلة كاتبة . كانت مسز ليكسر تهيىء لعملائها كل سبل الراحة ، والمتعة ، والعمل أيضا . فأى عميل منهم ــ وجلهم رجال أعمال ومال وبنوك ــ يستطيع أن يقرن المتعة بالعمل ، فيملى خطاباته ، ويستريح بعد ذلك على الاريكة قليلا ، خاصة وان فتيات مسز ليكسر كلهن سكرتيرات مدربات ، ممن يجدن الاختزال والكتابة على الآلة واعمال المراسلات .

خطر لماك أنه مستطيع أن يشغل فترة انتظاره لبراون باملاء بضعة خطابات . لكن الوحيدة من بين فتيات مسز ليكسر التى يأتمنها على أسرار عمله هى جينى ، صديقة بلومزبرى . فوق أنها أصبحت ملمة بكل أساليبه ، بحيث تستطيع ، من بضع كلمات قليلة يقولها لها عن موضوع الخطاب ، أن تعد له مكاتبة تجارية من الطراز الاول وهى جالسة على ركبتيه . ولم تكن جينى موجودة بالبيت ، فقد صحبها بلومزبرى لقضاء عطلة على الساحل . ولم يبد أن هناك من الفتيات من ينقم عليها ذلك الحظ الذى واتاها فى الحياة مؤخرا بصداقة اللورد ، كما ينقم الجميع عليه زواجه الفاشل من بولى .

عاد ماكهيث الى المطبخ مكتئبا ، يرقب المومس العجوز التى كانت منهمكة فى كى ثياب الفتيات ، والفتاة صفراء الوجه التى ترفو كومة من جواربهن .

انقضى نصف ساعة آخر ولم يأت براون . لكنه لايستطيع ان يذهب

دون أن يقابله . فحديثه معه هو الذى سيقرر ان كان سيهرب من لندن أم لا . كان كل شيء معدا لهربه . ولعل جروتش ينتظره بالمحطة الان ، ربما مع فانى . لكنه لايستطيع أن يهرب قبل أن يسوى أموره . يجب أولا أن يستعيد سيطرته كامله على المنظمة ، وعلى شركة م . م . ويتم تلك العملية مع هارون والبنك التجارى ، ويسوى أموره مع البعض . أى حياة هذه ؟ رجل يطارده البوليس ولايستطيع أن يهرب بسلام ؟ لكن كيف الهرب وأعوانه الذين يحيطون به كلهم حمقى وبلهاء ؟ انه يستطيع ادارة أعماله من وراء قضبان السجن ، لكنه لن يستطيع ذلك وهو خارج البلاد . وهو يستحق كل ماحدث له . لانه لم يلتزم سواء السبيل . نعم ، سواء السبيل . اجتاحته فجأة شهوة عارمة الى حياة محترمة فاضلة . لا غنى لمن يشتغل بالاعمال عن قدر من الامانة ، ومتانة الخلق ، يجعله اهلا للثقة . لانه كيف يكون رجل أعمال ولا يكون أهلا للثقة ؟ والا ففيم هذه الضـــجة حول ضرورة الامانة والاستقامة وما الى ذلك ؟ لابد أنها ضرورية فعلا ، لانها لو كان من السهل الاستغناء عنها لما أقيمت حولها كل هذه الضجة . ولايجب أن يغيب عن الذهن ان كل البنيان الاجتماعى مؤسس عليها . وماعلى المرء ، بدلا من السرقة والاعمال المريبة ، الا أن يحسن استغلال مستخدميه ، والانصراف بعد ذلك الى المعاملات المهذبة المحترمة . ولكن ان كان المرء لايستطيع أن يأتمن من يحيطون به ، فكيف يمكن أن يتفرغ لانجاح أعماله ؟

أخيرا ، فى تمام السابعة ، جاء براون . كان بيت مسز ليكسر دائما أفضل مكان للقائهما . لان احدا لم يكن يخطر له ببال أن يتجسس على كبير المفتشين براون فى بيت كهذا . فأى رجل من رجال سكوتلانديارد ، مهما بلغ تفانيه فى العمل ، كان حريا أن يعتبر تشمم خطوات رئيسه فى وكر المتعة هذا أمرا مجردا من الذوق واللياقة . لان حياة المرء الخاصة بعد كل شيء ، تخصه وحده .

بدأ براون يقرعه من فوره . بدأ فى الحقيقة يجأر مغضبا وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا كنمر حبيس :

ـ ما الذى يبقيك هنا ؟ قلت لك أن تختفى من لندن . هذا المأفون بينشر هو الذى يباشر التحقيق ، وهو آخر من يمكن الاعتماد عليه من رجالى . لاشيء يكبح جماحه بمجرد ان يلتقط أنفه اللعين رائحة الطريدة . وليس لديه أدنى احساس بمسئوليته تجاه رؤسائه . لو فعلت أمه شيئا لقبض عليها بلا أدنى تردد . أمه ، هل سمعت ؟ بعد ذلك الحديث الصحفى الذى أدلى به ، تغير تكييف الواقعة الى القتل العمد .

والشبهات متجهة اليك . وأسوأ مافى الامر ذلك الخطاب الذى وجدوه على جسد المرأة الغريقه والذى يهددك فيه بافشـــاء أسرار تتعلق « بالسكين » . ماالذى كانت تعرفه عن هذه الحكاية أيضا ؟

قال ماكهيث وهو يجلس على الاريكة وصحف المساء على حجره :

ــ لا شيء . كانت لديها شكوك مبهمة فقط .

ــ وهذا المدعو فيوكومبى ؟

ــ أحد شحاذي حماى . عسكرى سابق . يبدو أنه كان يتقرب من مارى سوير مؤخرا .

كتب براون شيئا على كم قميصه ثم قال :

ــ يقول أوهارا أن لديك دليل براءة كامل لكنك لا تستطيع أن تستخدمه . هل هذا صحيح ؟

ــ نعم . محضر اجتماع شركة لم يكن ينبغى أن يتم ، أو أن أكون أنا فيه .

ــ النقطة الوحيدة التى فى صالحك أن عاملى الشحن اللذين شاهدا مسز سوير متجهة الى الميناء قررا أنها كانت وحدها ، ولم يكن أحد معها . لكن رسالتك اليها التى تطلب فيها أن تقابلك فى تلك الليلة دليل ادانة مخيف . وقد ضمت الى ملف القضية .

وهنا انتاب براون الهياج ثانية ، فبدأ يجأر من جديد . يجب أن يهرب ماكهيث فورا . الان . لكن ماك لم يتحرك من مكانه . جلس حيث هو ناظرا الى صديقه معاتبا . قال بنبرة عاطفية :

ــ كنت أتوقع منك معاملة غير هذه . كنت آمل اذا ماتورطت فى مسألة كهذه ابدا ، فتخلى عنى الجميع ، وغدروا بى ، وطاردونى ، أن أستطيع اللجوء اليك يافردي . كنت أظنك ستقول لى من أجل صداقتنا هاك ياصاحبى . هنا ملاذ لك . اختبىء هنا . حتى ان كنت قد فقدت سمعتك وشرفك ، سأتيح لك الفرصة لكى تنقذ نقودك على الاقل .

رمقه براون بارتياب قائلا :

ــ ماهذا الهراء ؟ ماذا تعنى ؟

ــ أعنى انى لا أستطيع أن أدير أعمالى من الخارج . كيف يمكنك أن تظن ذلك ؟ يقول أوبر انى سأفقد سمعتى اذا ماذهبت الى السجن . لكنى سمعت أنهم يعدون العدة للقضاء على ماليا اذا ماغادرت البلاد . يجب أن اظل صامدا هنا . يجب ان أذهب الى السجن وأواصل عملى من هناك . أنا كالحصان الذى يموت ولا يتخلى عن عربته يافردى !

دمدم براون قائلا : « مستحيل ! » ، لكن ماك أدرك أنه قد بدأ يلين

فذكره قائلا بصوت خافت :
ـ يجب أن تذكر أن الامر لا يخصني وحدى بافردى . هناك كثيرون قد ائتمنونى على مستقبلهم ، وانت منهم . ستضيع نقودك انت إيضا اذا تركتنى لهؤلاء الناس الذين يريدون خرابى ، اذا جعلتنى أحقق لهم رغبتهم واهرب من لندن . أنت طبعا تستطيع ان تحتمل خسارة كهذه لكن كثيرين غيرك لايستطيعون أن يتحملوها .
دمدم براون ثانية ، فاستطرد ماك قائلا :
ـ أس البلاء كله ذلك الرجل بيتشام ، أبو زوجتى ! انه لايستطيع أن يطيقنى . ولقد اخطأت أنامن مبدأ الامر ، فلم أهتم بعداوته الاهتمام الكافى . استخففت به . كانت عداوته لى ماثلة طيلة الوقت ، كوجع الاسنان الذى يحسه المرء ويتجاهله لان لديه ماهو أهم من خلع السن التى تؤلمه ، متصورا أن الالم قد يكف من تلقاء نفسه ، رافضا أن يفكر فيه أو يشغل نفسه به . لكنه يستيقظ ذات صباح فاذا وجهه كله متورم كالبالون .
جلسا بعد ذلك معا ، فروى له براون محسورا ، على مدى ساعة أو أكثر ، كل مايعرفه عن ذلك الرجل بيتشام ، أس البلاء كله . قال ان جوناثان ارميا بيتشام ليس مجهولا لدى دوائر الشرطة . وان دكان الالات الموسيقية المستعملة الذى يديره ظل ، منذ اثنى عشر عاما ، مثار أحاديث ومناقشات متكررة . وأن البوليس حاول أن يوقف نشاط الرجل لكنه لم يستطع . قال براون آسفا :
ـ أحس الرجل ، بطريقة أو بأخرى ، أننا ننوى أن نتخذ اجراء ما ضده . فجاء الى سكوتلانديارد بكل صفاقة ، والقى علينا خطبة وقحة مؤداها أن للفقراء كل الحق فى أن يزكموا برائحتهم أنوف المتسببين فى فقرهم وما الى ذلك ، فألقينا به خارجا ، واستمرت الاجراءات ضده . وسرعان مالاحظنا انه يدبر شيئا . وتصادف فى تلك الآونة أن كانت الاستعدادات تجرى لازاحة الستار عن تمثال تذكارى لاحد المحسنين أقيم فى أشد احياء وايتشابل فقرا وتخلفا . كان ذلك المحسن الكبير قد بدأ حملة بلهاء ضد شرب الخمر وانحراف الفتيات وأشياء من هـذا القبيل . واعتقد انه كان يقوم بتوزيع اكواب من الليمونادة على الفقراء بواسطة عدد من الفتيات كان قد « أنقذهن » من الانحراف . ويبدو أن أحدهم اصيب بلوثة فى عقله ، فتقرر أن تحضر الملكة حفل ازاحـــة الستار . قمنا بتنظيف الحى ، بطبيعة الحال ، قدر استطاعتنا ، لانه لم يكن يليق أن ترى الملكة حيا بتلك القذارة التى لم يجد سكانه

مهربا منهـــا الا فى ادمان الكحول . لكن بضـــعة جالونات من الجير يمكن ان تفعل الاعاجيب . وهكذا استطعنـا ، خلال بضـعة أيام ، أن نحول ذلك الحى الجهنمى الى جنـة مصـفرة . مقالب القمامة تحولت بقدرة قادر الى ملاعب للاطفـال ، فيهـا أراجيح ملونة . والبيوت الآيلة الى السـقوط التى تقيم فى كل حجرة من حجراتها المظلمة أسرة أو أسرتان ، انقلبت الى أبنيـة مبهجة للعين مزدانة كأنها استعداد لمهرجـان دائم . اما الاماكن السـيئة بحق التى لم نستطع حيالها شيئا فقد غطيناها بأكوام من باقات الزهور.

والجحور التى يعيش فى كل خن منها اثنـا عشر أو خمسة عشر شخصا غرست فيها أعمدة خشبيـة ضخمـة علقت عليهـا أعلام الامبراطورية . اذكر أن الكثيرين منهم أخذوا يسبون ويلعنـون قائلين انهم لا يحبون أن تزاحمهم تلك الاعلام اللعينة فى بيوتهم أيضا. هؤلاء الناس لا يستحون من تسمية هـذه الجحور بيوتا ! ثم طردنا الفتيات من بيت للدعارة يطل على الشـارع الذى سيمر به موكب الملـكة ، ووضعنـا عليه لافتـة مكتوب عليهـا : « ملجأ للبنـات الساقطات » ، وهو ما لم يبعـد كثيرا عن الحقيقة . باختصـار بذلنـا كل ما فى وسعنـا لتحويل مقلب الزبالة ذاك الى شىء مبهج للنفس ، مريح للعين ، حتى لا نزعج صاحبة الجلالة دون جدوى .

ولم نكن ندرى ما ينتظـرنا من متاعب . بدأت تلك المتاعب أثنـاء التفتيش المبدئى الذى قام به رئيس الوزراء تمهيدا لمجىء الملـكة . من نوافذ البيوت التى تحف بها الزهور والرايات والاعـلام أطلت وجوه بشعة . وجوه شحاذى مستر بيتشـام القـذرة التى تثير الغثيان . مئات فوق مئات من تلك الوجوه . وبينما رئيس الوزراء يمر فى الشـارع ، أخذوا يعوون فوق رأسه منشدين النشيد القومى! ولم تكن ، فى محاولات التجميل التى قمنا بها ، قد مددنا يدا الى أطفال ذلك الحى . لان أى قدر من الثياب النظيفة لا يمكن أن يخفى تلك الاطراف الـكسيحة والبطون المنتفخة . أى عمليـة تمويه فى ذلك المجال كان ميئوس منها . وقد اقتـرح البعض أن تخفى كل أولئك الاطفال فى مكان ما ، ونضع بدلا منهم أطفالا من أبناء رجال البوليس يلوحون للموكب برايات صغيرة فى أيديهم . لـكن البعض الآخر قال : آه . وما العمل اذا تسلل احد أولئك الشياطين عائدا الى الحى فاندس وسط أطفالنا ، وماذا يكون موقفنا اذا ما توقف أمامه رئيس الوزراء بوجهه المورد السمين وسـأله عن عمره ، فلم

يقل خمس سنين كما يبدو من حجمه ومظهره بل ستة عشر عاما ؟ وهكذا فان رئيس الوزراء عندما وصل الى موقع النصب التذكارى ، وجده محاطا بمئات من المخلوقات الصغيرة البشعة الشكل التى يزيد من بشاعتها تنكرها فى هيئة الاطفال . كانت تلك المخلوقات ما زالت تتوافد فى جماعات ، وبأيديها البالونات والمصاصات التى وزعت عليها ، فتنضم الى الحشد الملتف حول النصب محدقا فى وجه رئيس الوزراء الذى تولاه الذعر بنظرة تطل منها كل هموم الدنيا وشرورها . انتهت الزيارة بفوضى لا مثيل لها ، وهرول رئيس الوزراء عائدا بموكبه . وصرفنا نحن نظرا عن أية اجراءات كنا نزمع القيام بها ضد بيتشام . فقد اكتشفنا أننا لسنا ندا له . هذا هو الرجل الذى ذهبت فتزوجت ابنته رغم أنفه ! انها نكتة فظيعة والله !

كان براون – وصفته الاولى الولاء – قلقا على مصير صديقه . لكنه اقتنع فى النهاية بوجهة نظره بشأن تسليم نفسه والذهاب الى السجن بدلا من الهرب الى الخارج ، فافترقا على ذلك .

كان المفروض أن يذهب ماك فيسلم نفسه فى سكوتلانديارد . لكنه وهو يركب عربة الاوتوبيس ، غلبته مخاوفه بشأن بولى ، فذهب الى نانهيد بدلا من أن يتجه الى سكوتلانديارد .

وصل الى البيت قرب الثامنة . دهش اذ وجد النور مضاء فى غرفة بولى فى الطابق الاول . كان ينبغى أن تكون فى بيت أبيها من وقت طويل . رأى اثنين من رجال البوليس يسيران أمام حديقة البيت جيئة وذهابا فى غير خفاء . ثم رأى نافذة أخرى تضاء فى البيت . لابد أنها قررت قضاء الليلة فى البيت . لعلها الآن تعد شيئا من الطعام فى المطبخ .

سار ماك الى باب الحديقة بغير تردد . وعندما وضع أحد الرجلين يده على كتفه أومأ له برأسه علامة التسليم . وافق الرجلان على أن يدعاه يصعد الى بيته ليتحدث الى زوجته قبل الذهاب معهما .

وجد بولى واقفة بالفعل أمام الفرن . أدركت لفورها أن الرجلين اللذين مع زوجها من رجال البوليس . دهشت لانه لم يهرب من لندن كما كان ينوى .

قال لها بخشونة وهو واقف فى اطار الباب ، لا يستطيع أن يخفى ضيقه من مراوغتها :

– لماذا لم تذهبى الى بيت أهلك كما قلت لك ؟

قالت له بهدوء :

ـ لم أذهب . كنت مع فانى كرايزلر .
فسألها مغيظا :
ـ وبعد ؟
ـ قالت انها ذاهبة الى السويد .
فقال لها بلهجة لا تنبىء بخير :
ـ لكنى لست ذاهبا . أعدى لى حقيبة بها بعض الثياب .
وهكذا ذهب الى السجن والقلق ينهش قلبه. القلق بشأن بولى.
فى صباح اليوم التالى زاره ميتر والى ، المحامى ، فى سجنه ، تنفيذا لتعليمات مستر بيتشام ، فحدثه فى موضوع الطلاق ، ولمح أنه ، فى حالة موافقته على ذلك ، قد تصل الى أيدى السلطات أدلة قوية فى صالحه ، تبرىء ساحته .
قال له المحامى مستحثا :
ـ لا أظنك تريد أن تطول هذه القضية . ان أعمالك الآن فى رواج، وهى فى حاجة الى كل دقيقة من وقتك . طلق بولى وسوف يسقط الادعاء التهمة قبلك . فالادلة الحاسمة فى أيدينا . ومستر بيتشام لا خصومة بينه وبينك . كل ما يريده هو أن يستعيد ابنته . هذا كل ما فى الامر .
لكن ماكهيث رده بفظاظة ، مؤكدا له أن زواجه قائم على الحب .

(١١)

« والله هم أناس طيبون ،
اذا ما بعدت عنهم
وهم يقاتلون ليستعيدوا
ما لم يكن فى يوم ملكا لهم » .

(أغنية رئيس البوليس)

أوراق الشجر يصفر لونها

ذات صباح باكر عادت بولى بيتشام ، وقد أصبحت مسز ماكهيث ، الى بيت أبيها . كانت قد تمكنت من العثور على عربة ، رغم الساعة المبكرة . لاحظت والعربة تدرج بها ، مارة بالحديقة العامة ، أن أوراق شجر البلوط بدأت تتساقط ويصفر لونها .

دهشت عندما دخلت الدكان ففوجئت بالكل يهرول رائحا آتيا فى نشاط وعجلة ظاهرة ، وأمها واقفة وسط بنات مشغل الحياكة تتعارك مع بيرى . من فرط عجلتهم لم يكد أحد يلقى لعودة الخوخة بالا . حملت حقائبها الى أعلى ، وبعد قليل ، جيء اليها بطعام الافطار ، لكن أحدا لم يكن عنده وقت ليقول لها أين كنت ؟ أو شرفت دارك يا بنية .

كانوا ينتظرون « كبسة » يقوم بها البوليس . وقد ظلوا طيلة الساعات السبع الماضية يخلون المكان من كل ما يمكن اخلاؤه منه . من بين الاشياء التى نقلت على عجل عكازات لا يمكن أن يستخدمها انسان أعرج بحق ، وطاولات على عجلات فيها أدراج سحرية يخفى فيها مقعدو بيتشام أرجلهم ليبدوا مقعدين ، وفوق وقبل كل شيء ، كميات كبيرة من بزات الجنود العسكرية . وبطاقات الفهارس التى يمسك بيتشام بواسطتها أرشيفه الذى ينظم مملكة الشحاذة فى لندن ، وقد اخفيت بدورها فى أعمق سراديب البيت وأبعدها .

ومنذ منتصف الليل كان الرسل قد أخذوا يجوبون أنحاء لنـدن محذرين شحاذى بيتشام من الاقتراب من « مركز قيادتهم » لحين يصلهم اخطار آخر .

وهكذا فانه عندما دهم البوليس المكان عنـد الظهر كان دكان الحلاق ذاته (الذى تجرى فيه عمليات الماكياج للشحاذين) قد نقل برمته الى بيت مجاور .

كانت الغارة محاولة « بنصف قلب » من جانب البوليس للامساك بدليل ما ضد بيتشام ، لـكنها انصبت أساسـا على البحث عن العسكرى فيوكومبى الذى تخلف عن التقدم الى البوليس للادلاء بشهادته بعد أن أخطر بذلك . لـكن أحدا لم يعثر له على أثر . فقد طرد من خدمة السيد بيتشام فى الليلة البـارحة لسـوء أدبه وطول لسانه . هكذا قال مستر بيتشام .

قال المفتش بيتشر فى تقريره عن الغارة أن البيت ، أو ، بالاحرى البيوت الثلاثة ، أشبه بمتاهة من سراديب الارانب ، وانها تضم ورشة للنجارة ، ومشغلا لتفصيل وحياكة الملابس ، وأن نشاط المنشأة كله يتركز فى عملية الشحاذة ، على نطاق مذهل .

كان فيوكومبى قد انتقل فعلا ، بناء على أمر من مستر بيتشام ، الى فندق رخيص من فنادق حى الميناء ، لقضاء بضعة أيام هناك . وقد حرم عليه أن يغادر غرفته أو يظهر فى الطرقات لاى سبب . لـكنه لم يضق بذلك كثيرا لان كتابه كان معه . فظل يقرأ ويزداد علما من دائرة المعارف البريطانية .

حلت الخوخة محله فى الاشراف على كلابه ، وقد أسـعدها أن تجد شيئا تفعله . لم تر أباها الا فى صباح اليوم التالى لعودتها ، وقد تصرف كما لو كانت لم تترك البيت أبدا .

لـكن مستر كوكس جاء بعد الغداء ليتحدث الى مستر بيتشام ، وبينما هو يخطو خارجا من المـكتب فوجىء ببولى تعبر الردهة ، فأسرع اليها يحييها بانحناءة عميقة قائلا :

ــ أى نعم ! استوت الخوخة وطابت ! لابد أن ذلك من تأثير الجنوب!

قال ذلك وهو ممسك بكلتـا يديهـا ، ثم طلب منها أن تكرمه بمقطوعة تعزفها له على البيانو . كان بيتشام واقفا وراءه ، وقد رأت بولى نظرة الضراعة التى فى عينيه ، فاستدارت دون أن تفوه بكلمة ، وصعدت مع السمسار الى أعلى حيث عزفت له مقطوعة « آنى لورى » .

عندما انصرف السمسار ونزلت بولى لتخرج ، رأت أباها جالسا فى غرفة الجلوس بالدور الارضى ، يحدق فى النافذة . كان كوكس قد أنذره بأن عملية شركة النقل البحرى يجب أن تتم خلال أسبوعين لا أكثر .

وقد تنازل السمسار ، لاول مرة ، فشرح له كيف ينوى أن يتم الصفقة : يجب على بيتشام أولا أن يعد كل المال اللازم ، وبعد ذلك سيقرر عقد الزواج المزمع نوع التسوية الجانبية التى ستجرى بين بيتشام وكوكس . وبهذه الطريقة يعوض كوكس خسائره ، ويستعيض كوكس بالارباح عن البائنة التى لن يطالب بها .

ولكن ، كل المال اللازم أولا ! هذا مخيف !

عندما عادت مسز بيتشام اضطرت أن تساعد زوجها على الصعود الى فراشه . وجدته فاقد القدرة على النطق ، لا يستطيع أن يصعد الدرج بغير مساعدة . وفى الليل خيل اليها أنه يحتضر . فاضطرت أن تدلك صدره فى منطقة القلب بنصف زجاجة من زيت الفوج ، بل واقترح هو أن تستدعى له طبيبا !

لكنه استيقظ فى الصباح ولم يمت ، فأخذ يتجول فى أفنية بيوته الثلاثة بتعاسة متأملا كل حجر فيها . كل حجر من هذه الاحجار دفع ثمنه من دمه وعرقه . وها هو الآن مضطر الى أن يضحى بكل هذا فى سبيل ثلاث سفن نخرة يجرى اصلاحها فى الميناء على نفقته . لعبة رائعة ، لهؤلاء الذين دبروها !

وقف على بعد خطوات ، يداه فى جيبى سرواله ، وقبعته على مؤخرة رأسه ، يرقب بشرود ذهن ابنته وهى تعنى بكلابه وقد ركعت بين شجرتين بدأت أوراقهما تصفر وتسقط .

ألا يزال بوسعه ، عن طريقها ، أن يقلب الامر كله الى نجاح ، ويتجنب بذلك وقوع الكارثة الكبرى ؟ لو استطاع فقط أن يطلقها من ذلك اللعين ماك لتتزوج كوكس ! لا شىء أقل من أوثق صلات القربى يمكن أن يجعل ذلك السمسار المنحط ، الذى لا يتورع عن شىء ولا يشبع أبدا ، يدخله فى جنة أعماله . لا شىء الا شهوانيته البهيمية القذرة . ربما !

وهذا الماكهيث يفضل أن يذهب الى السجن ، ويواجه تهمة فظيعة كهذه ، على التخلى عن زوجته . اتعب بيتشام رأسه المتعب بما فيه الكفاية ، فى البحث عن طريقة يتوصل بها الى اقناع الرجل بقبول الطلاق . نفرض أنه ذهب اليه فى السجن فقال له يا شيخ ،

اتق الله . الا تدرك أنك أخذت اللقمة من فم انسان فقير ؟ لعلك تقول فى نفسك ، فقير ، هه ؟ أحسن ! ما دام فقيرا أستطيع أن أفعل به ما شئت . لكنك مخطىء ياصاح ! لا تستهن بقوة الفقراء ! لعلك نسيت أنهم فى بلادنا يتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها الاغنياء ؟ يجب على المجتمع أن يحمى الضعفاء والا اختل ميزان العدل !

أخذ يهذى فيما بينه وبين نفسه ، بخطب كهذه يؤلفها ويلقيها داخل رأسه ، طيلة ساعات بأكملها . لكنه لا يكاد يتمها حتى ينبذها لانه لا يجد فيها مقنعا . لانه أدرك أنه لا يوجد شىء يمكن أن يقنع أحدا فى كامل وعيه بالتخلى عما بين يديه ، اللهم الا القوة .

ظل بيتشام طيلة ذلك الصباح فى شجار مع نفسه ، لكنه رغم شجاره الداخلى ، كان مدفوعا ، بغير رحمة ، الى اتخاذ القرار الذى أراد أن يتجنبه طيلة الوقت . دفعه يأسه الى أن يقرر شراء ابنته من زوجها بالمال . أن يعطى ذلك الافاق مالا ! عرض اقتراح مستر بيتشام على مستر ماكهيث فى سجنه رجل قمىء «مزيت» من محامى الدرجة العاشرة . وقد أخطأ بيتشام باختياره لذلك الرجل على سبيل الوفر فى النفقات ، لانه لم يكد يستهل حديثه حتى قال لماكهيث بفظاظة : اسمع ، سنعطيك مالا اذا ما طلقت المرأة . فابتسم ماكهيث غير مصدق ، وقال كم ، فغمغم المحامى شيئا عن بضع مئات من الجنيهات . وقال ماكهيث طبعا وهو يحملق فى المحامى كما لو كان يشاهد صنفا نادرا من الزواحف ، اسمع : سأقول أنا شيئا . قل لبيتشام أنى أكن من الاحترام للسيد والد زوجتى ما يجعلنى أرفض تصديق مثل هذا العرض المهين أو آخذه مأخذا جديا . لا أستطيع أن أصدق أنه يصدق أن ابنته يمكن أن تعطى قلبها لرجل يرضى ان يبيعها بخمسمائة جنيه . عيب ! فانحنى المحامى بارتباك وقد محقه ماك باحتقاره وهرول ذاهبا الى من أرسله . لكن ماكهيث ندم على رعونته . فلم تكد تنقضى أيام حتى وجد نفسه فى موقف جعله على استعداد للتفكير فى العرض الذى عرضه بيتشام ـ شرط أن يضاعفه ـ تفكيرا جديا . لكن المحامى المزيت القمىء لم يعد . فمثل تلك الفرص لا تعرض ، عادة ، فى العمر مرتين .

أفكار المرء تظل حرة

كان ماكهيث يشغل زنزانة فى عنبر من عنــابر السجن ليس فيه أحد غيره. كانت تلك الزنزانة قد استخدمت فى وقت ما كمستشفى، فلم تكن ضيقة معتمة ، بل على العكس ، واسعة ، مريحة ، مرتفعة السقف ، ومضيئة ، لان بها نافــذتين عاديتين لاتقبين فى الحــائط فيهما قضبان .

كان براون قد اتفق مع مأمور السجن على أن يزود الغرفة أيضا بسجادة حمراء سميكة ، وبصورة لجلالة الملــكة فيكتوريا تعلق على الحائط . كان من المسموح أيضا للسجين ماكهيث بشراء الصحف ، لــكنه عزف عن قراءتها فى الآونة الاخيرة ، لانها كانت حافلة بأشياء تقطع نياط القلوب عن المرحومة مارى سوير التى تبين فجأة أنهــا كانت امرأة رائعة الجمال . لــكن الاســوأ من جمالها ما أخــذت الصحف تنشره عن حالة دكانتها ، وعن الفقر والشقاء اللذين قضت فيهما السنوات الست الاخيرة من حياتها ، كأنما تلك كلها أشياء جديدة على أحد .

نعم لم يرد له ذكر الا فى مقالات بعض الصحف التى تميل الى الاثارة ، وعملا من الجميع على التزام ما يقضى به القانون ، لم يوجه اليه أحد اتهاما مباشرا على صفحات الجرائد ، لكن الامر لم يخل طبعا من تلميحات مؤذية للغاية .

كان من المسموح به لماكهيث ايضا احضار ما يشاء من الكتب ، عدا الــكتب القبيحة ، التى تحكى حكايات جنسية مكشوفة . فتلك لم يكن مسموحا بها خشية أن تقع فى يد قسيس السجن الذى كان يباغت السجناء بالزيارة بين الحين والحين . لكن الكتاب المقدس كان مسموحا به بطبيعة الحال .

أما الزوار فلم يكونوا كثيرين ، لا لان لوائح السجن وقفت فى طريقهم ، بل لان معظم أصــدقاء ماك ومعارفه كانوا يعــانون من حساسية مفرطة فيما يخص ذلك المــكان . مستر أوهارا مثلا كان يعانى من كراهية مرضيــة لــكل ما له علاقة بذلك المكان ، ولا يحب أن تطأه قدماه ، أو يراه احد فيه ، خاصة أنه قد يقابل فيه أحدا من معارفه القدامى الذين أرسلهم الى هناك . لــكنه كان مكتوبا عليه أن يقضى بضع ساعات ، فيما بعد ، فى مكان كهذا . وفانى كرايزلر ، هى الاخرى ، كانت لا تأتى الا لماما .

وهكذا فان كل ما يتعلق بأنشطة العصابة ، والمسائل الخاصة بدكاكين حرف «ب» ، كان يأتيه عن طريق بولى . كانت تعمل بالتعاون مع أوهارا ، فتجتمع به في غرفة المكتب ببيت ماك بنانهيد، بعد ظهر كل يوم تقريبا . كانت الامور اذن تسير بطريقة لا بأس بها. لكن القبض على ماك كان ، مع ذلك ، ورطة سيئة . وأسوأ ما فيها أن هارون لزم الصمت ، فلم يسمع منه شيء . فالرجل بعد كل شيء شريكه . حاول ماك ، وقد جرح احساسه ، أن يفكر فيما يمكن أن يكون السبب فى غيظ هارون العظيم منه . لايمكن أن يكون السبب مجرد القبض عليه . فدنيا الاعمال تحدث فيها للناس أشياء أفظع من ذلك بكثير .

رويدا رويدا بدأ يقتنع أنه ملاق من ذلك الآن فصاعداً متاعب عظيمة فى معاملاته مع السادة أوبر وهارون . فالاتهام الذى وجهه اليه حموه اللعين قد يعنى نهاية علاقته بهم . لانه أن أرغم على تقديم دليل براءته القاطع (اجتماع مجلس ادارة شركة م.م.م.) سينكشف أمره ، ويجرد من قناعه ومن ثيابه ، فيقف عاريا أمام شركائه بوصفه المدبر لكل الاعيب شركة م.م.م. المفروض أنها محايدة !

طيلة لياليه التى يخيم عليها الصمت فى زنزانته ، يقلب فى رأسه فكرة وراء فكرة ، حتى تعب رأسه . لكن أفكاره اتجهت من تلقاء نفسها ، وبطريقة متزايدة ، ناحية كرستون . الا يستطيع أن يضع كرستون تحت رحمته ؟ أو ــ على الاقل ــ يعقد تحالفا معه ؟

جنبا الى جنب مع كرستون تراءت له بولى ، كشبح يلازم ركن زنزانته . فأخذ يتأمل . أليس بوسعه ، رغم كل شيء ، أن يتوصل، من خلالها ، لتحويل الهزيمة الى نصر ؟ لم لا ؟

رويدا ، على مهل ، بدأ ذهنه يتفتق عن فكرة جديدة .

***

كانت بولى تصحبه دائما فى رحلاته من السجن الى المحكمة . فى رحلة من تلك الرحلات والعربة المخلخلة تدرج بهما فى الشوارع التى يتكاثف فيها الضباب ، ورجلان من رجال البوليس يجلسان أمامهما ، كشف لها عما يجول فى صدره . قال بمرارة :

ــ وأسوأ ما فى الامر أن أوهارا بدأ يضرب عرض الحائط بأوامرى . رغم الحاحى المتواصل لم يقم باخلاء المخازن بعد . هل تعرفين ما الذى يجول فى ذهنه ؟

قالت ، وهى ترمقه بشيء من الخوف ، أنها لا تعرف • فقال وهو يمعن النظر فى وجهها :

ــ ألا تستطيعين أن تعرفى ؟

فجأة وهو ينظر اليهـا عاودته ذكرى يوم عاد معهـا من الرحلة الخلوية ، وما فاجأته به من جرأة وأمها جالسة لصقهما . أمضته الذكرى لانه تصورها وهى تفعل نفس الشيء مع أوهارا . وزاد من انزعاجه انها لزمت الصمت فلم تجب عن سؤاله • كانت الشكوك تتزايد فى صدره تجاهها . فى اخلاصها له . قال لنفسـه هذه المرأة عاهرة ؟ انها تعلم جيدا انى حرى بأن أقتلها . فهل يعقل أن تفعل ذلك ؟ ثم قال لنفسه أيضا : يا رجل تعقل . انها لا تستطيــع أن تخونك لاسباب بيولوجية . لا تستطيع أن تدع رجلا آخر يقربها . الاسباب البيولوجية هى أحسن الاسباب طرا . ثم انها بدات تتلطف معه كثيرا ، وتعامله برقة فائقة . كفت عن اذلاله بحكاية فانىكرايزلر وتلك الرحلة الى السويد . لـكنه كلف الاب بمراقبتها . ولو أن ذلك لم يسبب له أدنى راحة . لانه لم يكن يثق فى الاب ، ولان الاب قد يكون ضالعا مع أوهارا ، ولانهم كلهم قد يكونون متفقين عليه . لـكنه لا يستطيع أن يستغنى عن بولى وأوهارا الآن والمعركة الكبرى توشك أن تبدأ وهو مضطر ان يدير العمليـــات ويوجه ضربة معلم وراء ضربة معلم الى خصومه ، من وراء القضبان •

ما من شك فى انه فى موقف صعب . ومن الواضح أنه مضطر الى أن يزيح كافة الاعتبارات الشخصية جانبا حتى تتم أعماله على خير وجه . انه مضطر مثلا الى استخدام بولى كأداة للتفرقة بين كرستون وبنك الائتمان الاهلى . قبيــل دخوله السجن شرح لها الخطوط العريضة لما يجب عليها أن تفعله .

كان عليها أن تذهب الى ميللر فى بنك الائتمان الاهلى ، فتتقــدم اليه تحيات أبيها ، ثم تتردد بارتباك كأنها لا تستطيع أن ترغم نفسها على قول ما يجب ان تقوله ، ثم تجهش باكية ، وتسأل العجوز أن يأخذ بيدها ، فيخرجها من حيرتها ، ويخبرها بما يجب أن تفعله : ففى المستقبل القريب سيقوم زوجها بسحب وديعة أبيها (وهى ، كما يعرف مستر ميللر ، قيمة بائنتها) من بنك الائتمان الاهلى ، ويستثمر المبلغ كله فى دكاكينه حرف «ب» ، وأبوها سيزور البنك خلال يوم أو يومين ليقدم تحياته بنفسه الى مستر ميللر ، ويعزز له ذلك . وسيطلب منها ميللر اذ ذاك ، كما يغلب على الظن ، أن

تطلب من أبيها ألا يسمح لماكهيث بسحب وديعته من البنك وعليها ، اذا ما طلب العجوز اليها ذلك ، ان تقول له وهي تنتحب ان أباها المسكين واقع تحت رحمة زوجها الذي لا يرحم ، وخاضع لتأثيره ، ثم تنصرف معولة .

وقد أبدت بولى استعدادا للقيام بما طلبه منها مس شغاف قلبه فجعله يصارحها بالغرض من هذه الالاعيب . قال لها انه يتوقع أن يتصل به البنك اثر زيارتها الباكية لميللر . واذ ذاك يطلب منهم أن يقطعوا كل علاقة لهم بكرستون وبهذه الطريقة يجد كرستون نفسه فى العراء ، عشية أسبوع المبيعات العظيم ، فيأتى اليه زاحفا على بطنه ، أو سائرا على أربع. والحقيقة ان الطريقة الملهمة التى تحدث بها ماك عن أعماله أثرت فى نفس بولى تأثيرا عميقا . ادركت أنه عاقد عزمه على أن ينجح فى الحياة من أجلهما معا ، وقالت لنفسها : « أنا زوجة غير صالحة . ها هو يعمل من أجلى وأنا لا أفعل شيئا. ثم انى أنام مع كل رجل يقبل يدى ويجرنى الى الفراش . وحتى اذا كان ذلك النوم سطحيا للغاية ولا دخل له بمشاعرى العميقة ، وباخلاصي ومحبتى ، وكان بين الحين والحين وليس كل يوم ، وبغير مقابل لانى لا آخذ نقودا مقابله ، لانه يروق لى كثيرا ، خاصة مع أوهارا ، وكأنه أمر لا يخص أحدا غيرى ولا يسىء الى أحد لأن الرجال الذين أنام معهم لا ينتقصون من جسدى شيئا ، فانه أمر لا يليق أن أفعله ، ولن ينقضى وقت طويل قبل أن يدرك الناس انى امرأة من هذا النوع لان وجهى سيمتلىء خطوطا ، وتصبح عندى جيوب تحت عينى » .

قالت بولى كل ذلك لنفسها وذهبت محزونة ، وقد عقدت العزم على أن تقطع صلتها بأوهارا الذى لم تكن تحس تجاهه فى حقيقة الامر الا بانجذاب جسدى ، وهو انفصال تزايد احساسها بأنها يجب أن تقدم عليه لان أوهارا بدأ يقول أشياء سيئة عن ماك ، ويلمح بأنه يعد العدة للاستقلال عنه .

وقد أخبرته بكل ذلك فى نفس الليلة ، فى المطعم الذى كانا يلتقيان فيه عادة ، فضحك واقترح عليها أن يتمما أعمال اليوم فى البيت ، لان هناك عدة طلبات تنتظر توقيعها ، ثم قال :

ــ عال . سنكف عن ذلك . أنت حرة تماما ، تقررين ما يتراءى لك . ولا أحد يستطيع أن يرغمك على أن تفعلى شيئا لا ترغبين فى القيام به . وأنا آخر رجل فى الوجود يرغم امرأة على حبه بالقوة .

وعقيدتى أن حكاية الحب هذه يجب أن يدعها المرء تنتهى فورا عندما تشوبها أدنى شائبة تعكر صفوها . لكنك تستطيعين طبعا أن تأتى كزميلة فى العمل لتقومى بما يجب عليك القيام به . لا تخافى . هل من المعقول ألا يستطيع شخصان ناضجان مثلنا أن يختليا فى غرفة دون أن يسقط كل منهما فوق الآخر ؟ هناك عوامل نفسية وأخلاقية عديدة تجعل من الضرورى أن نكف عن الاتصال الجنسى. حسن . سنكف عن الاتصال الجنسى اذن . هذه مسألة بسيطة للغاية . وما دمنا سنفعل ذلك ، فأى شىء يجعلنا نلقى بالا الى الحمقى الذين يحيطون بنا وبشكوكهم البليدة وريبهم القذرة ؟ نحن حران تماما .

كان أوهارا بارعا فى الكلام ، فوق أنه حصل على قسط من التعليم فى المدارس الحكومية ، فذهبت معه وأتما ما كان لديهما من عمل ، ثم ناما معا ، لانه وان كانت هناك عوامل نفسية وأخلاقية ضد ذلك ، فان هناك أسبابا جنسية فى جانبه . وعلى أية حال ، فان تلك المرة كانت الاخيرة التى ذاقت فيها ملذات الحب لامد طويل .

فى صباح اليوم التالى ذهبت الخوخة لزيارة ميللر العجوز فى بنك الائتمان الاهلى . بدت كالوردة النضرة المتفتحة ، وفى أحسن حالاتها. لم تكن تعانى من تأنيب الضمير بعد السقوط أبدا ، فذلك التأنيب كان يحدث لها قبل المتعة ، لا بعدها .

استقبلها ميللر فى مكتبه الخاص ، فقدمت اليه تحيات أبيها ، وترددت بارتباك كأنها لا تستطيع أن ترغم نفسها على قول ما يجب قوله ، ثم أجهشت باكية ، وقالت كل ما طلب منها ماك أن تقوله . قالت وهى تنشج :

ـ ماك . انه طموح للغاية . يريد دائما أن يتفوق على الآخرين . ولهذا فانه يحتاج الى النقود ومزيد من النقود . فهو يمول العديد من الناس . تلك المرأة مارى سوير كان هو الذى يمولها . رأفة بها . الدناءة وحدها هى التى جعلتها تشيع عنه تلك الاقاويل التى حاولت أن تلوثه بها . وليس بوسعى أن أمنعه من الحصول على الوديعة ان كان يريد بائنتى . فهو كريم للغاية .

كانت الصدمة التى تلقاها ميللر اقوى مما توقعت بولى . أصبح وجه العجوز رماديا عندما سمع ان حساب بيتشام يوشك ان يقفل. تلعثم متمتما بشىء ما عن هوثورن ثم هرع اليه فى الغرفة المجاورة .

انتظرته بولى ربع ساعة ، فلما لم يعد انصرفت .

في عصر ذلك اليوم ذاته ، كان القرن ونصف قرن جالسين في زنزانة ماكهيث . استقبلهما في بذلة عادية ، وأمر باحضار مقاعد لهما ، كما قدم لهما السيجار . لم تكن الزنزانة مقبضة أو أى شيء . ولو أن السجادة الحمراء كانت قد رفعت منها ، لان صحفيا طويل اللسان نشر مقالا عن صنوف الترف التى ينعم بها كبار التجار عندما يذهبون الى السجن . جاء اثنان من رجال البوليس ، ولفا السجادة معتذرين ، ثم حملاها وذهبا . لكن صورة جلالة الملكة ظلت مكانها على الحائط . فقد ظل براون كريما كعهده . في حدود استطاعته . لم يتخلف ماكهيث يوما عن تسليمه حصته المئوية في أرباح المنظمة ، وكان الرجل بطبعه ممن لا يجحدون الجميل . فوق انه لم يكن سياسيا ، وكان من دأبه أن يحافظ على وعوده .

لهذا بات بوسع ماكهيث أن يقول لهوثورن العجوز وهو ينظر حوله راضيا :

ـ بوسع المرء أن يظل حرا حتى بين جدران زنزانته . الحرية شيء روحي . كل من حازه مرة لايمكن أن يفقده . هناك أناس لا يعرفون طعم الحرية أبدا حتى خارج أسوار السجن . لكن المرء قد يكبل جسده بالاغلال ولا تطاول الاغلال روحه . فأفكار المرء تظل حرة .

رغم بلاغياته ، كان ماكهيث أول من تطرق الى موضوع العمل ، فقال لزائريه وهو يذرع زنزانته بخطا واثقة :

ـ الحقيقة ياسادتي أني مندهش، ومحرج بعض الشيء لزيارتكما فتقلبات الدهر ، وأمواج الحياة ، في صعودها وهبوطها ، قد فرقت ما بيننا منذ أمد ليس ببعيد . فافتقرنا كزملاء يقولون : « لقد قطعنا كل هذا الطريق معا . لكن سبلنا تفترق هنا . فلا تحزنوا لذلك ، وليقل كل للاخر أورفوار ! » أما أنتما ، فذهبتما ، فيما سمعت ، الى كرستون . واستدرت انا الى هارون . تصرف كل منا تبعا لما تمليه مصالح العمل ، وقد وضع كل منا نصب عينيه غاية واحدة لا غاية غيرها . خدمة الجمهور بأعلى قدر من الكفاية هل أنا مصيب ؟

تنحنح ميللر ، والتقط هوثورن خيط الحديث صاغرا ، فقال بصوت خافت :

ـ مستر ماكهيث . ان المامك بحقيقة ما حدث لما يشرفك .

كان كثيرون غيرك أحرياء بأن يسيئوا فهم دوافعنا ، عندما اتخذنا قرارنا بتمويل كرستون ، بعد تفكير طويل . فبنك الائتمان الاهلى ملك لطفلة مسكينة . ونحن مجرد ممثلين لها ، ولا نملك ـ كغيرنا ممن يملكون حرية الحركة ـ أن نتبع ما تمليه علينا ميولنا الشخصية . ولقد سمعنا مؤخرا أنك ترغب فى سحب مبالغ معينة عهد بها حموك الفاضل الى منشآتنا البنكية ؟

قال ماكهيث بنشاط :

ـ تماما. فأنا فى حاجة الى ذلك المال لاقوم ببعض عمليات تجارية فرضتها المنافسة على محلاتى فرضا .

تبادل هوثورن وميللر نظرة سريعة ، ثم قال هوثورن ، بصوت يكاد يكون همسا :

ـ أهى محلات كرستون التى ترغمك على القيام بهذه العمليات ؟

ـ ربما ..

ـ أوه . نحن آسفان لذلك أشد الاسف .

أومأ ميللر برأسه تأمينا على ذلك الاسف .

فقال ماكهيث :

ـ أنا أصدقكما .

بوغت هوثورن قليلا ، ثم قال :

ـ أنت تدرك طبعا يامستر ماكهيث أنه من الطبيعى جدا فى عالم المال أن يبتلع القوى زميله الضعيف . فالامر كذلك فى عالم الطبيعة. لا حاجة بى لان أقول لك ذلك .

قال ماكهيث :

ـ كلا ، طبعا .

فاستطرد العجوز الكذوب قائلا :

ـ واحب أن أقول لك انك عندما استأنفت مفاوضاتك معنا منذ زمن قريب ، كنا على يقين من أن اللحظة التى يجب علينا فيها أن نقدم اليك مساعدتنا قد حلت أخيرا .

تهلل ماكهيث ، داخليا . قال لهما :

ـ أعرف . ومن فرط ايمانكما بذلك ضاعفتما جهودكما . وضعتما فى مشروع كرستون ، بمنتهى السرعة ، كل ما كان لديكما من مال . بل وكل ما لم يكن لديكما أيضا .

سكت ماك . كان قد قال الكلمات الاخيرة عفو الخاطر ، بغير تفكير . وقد توقع الآن أن يحتج الرجلان . لكنه تبين بغتة ، لعظيم

دهشته أنه لا احتجاج هناك . ألقى نظرة واحدة على الفرن ونصف قرن ، فعرف كل شيء . لقد أقدم الرجلان على السحب من حسابات المودعين ليمولا كرستون ! لم يتردد لحظة . استمر قائلا بمرح :

ــ فكأنكما قامرتما بقميصكما الاخير ، ان صح التعبير ، ولم تكتفيا بذلك ، لسوء الحظ ، فقامرتما بقميص الآخرين أيضا ! هل أخطأت التعبير ؟

نكس هوثورن رأسه ، بينما أخذ ميللر يحدق فى النافذة كالاعمى. قال هوثورن متلعثما ، بصوت مبحوح :

ــ ماذا تريد ؟

قال ماكهيث بسعادة غامرة :

ــ كل شيء . أو كل شيء تقريبا . وهو ــ لذلك ــ ليس بالكثير. ولـكن مهلا ! سنرى ماذا يمكن عمله .

اختار على مهل ، وبعناية فائقة ، سيجارا سمينا من الصندوق ، فقضم طرفه بأسنانه وبصقه ، ثم أخذ يلوك السيجار بين شفتيه الغليظتين ، وأشعله بعد ذلك . كانت تلك من أشد لحظات حياته نشوة . أخرج من فمه سحابة زرقاء كثيفة من الدخان ، ثم قال :

ــ عال ! لقد اختلستما أموال بيتشام المسكين اذن ! بكل سنواتكم المائة والخمسين وقعتما فى هاوية الاختلاس ! وبأموال والد زوجتى تمكن كرستون من الصمود رغم أنه يبيع بضائعه بثمن أقل بكثير من الحد الاقتصادى . وكان المفروض أن يتمخض ذلك كله عن خراب عاجل يحل بهارون وبمحلات حرف « ب » . الامر اذن لا يخرج عن كونه سرقة ثم قتلا مع سبق الاصرار والترصد ! والناس يتأففون مما يرتكب فى الشوارع من جرائم ! كل ما هنالك أن الامر فى الشوارع يتم بالعكس : القتل أولا ثم سرقة الضحية بعد ذلك ! ثم ، اذا كان الخراب قد لحق بنا فعلا ، كنتم ستبتلعوننا ! اخص ! هذا مقرف ! تريد الحقيقة يا هوثورن ؟ حتى لو كانت الطبيعة كذلك ، فان هذا مقرف !

كرر هوثورن قوله ، وهو يحدج خصمه بعينين زرقاوين استردتا ثباتهما وصفاقتهما :

ــ ماذا تريد ؟

قال ماكهيث لنفسه هذان أول من أقابلهم من الناس الأمناء . وربما كانا الوحيدين اللذين ظلا كذلك فى العالم كله ! لأنهما يقولان الحق على الاقل . قال لهما ببطء :

ــ اسمعا . كان بوسعى أن آخذ منكما الكثير ، لكنى بدلا من ذلك،

قررت أن أعطيكما كل شيء . هكذا أنا . لا أريد أن أقضي عليكما بل أن أساعدكما • وتحقيقا لهذه الغاية يحسن بكما أن تعيناني في البنك، مديرا للاستثمارات مثلا ! لكننا ، قبل أي شيء ، سنقوم بهـــذه الترتيبات : ستسحبان مساندتكما لكرستون ، لأنه الأضعف . هذا التبذير الجنوني البذيء للبضائع يجب أن يتوقف . سوف نطالبـه برد أموالنا حتى يحس بضعفه كما يجب . وقــد يدرك اذذاك مدى حاجته الى يد قوية توجهه . هل هذا اقتراح معقول ؟

كان ميللر قد هم واقفا ، بينما ظل هوثورن جالسا ينظر اليه • ألقى عليه ميللر نظرة قصيرة دهشة ، لكنه ظل جالسا . فتغـيرت نتيجة لذلك أشياء كثيرة بالنسبة الى ميللر . بدأ يشـيخ فجأة . تقوس ظهره وتساقطت أسنانه ، وابيض شعره ، وازداد حكمة . قال مغمغما :

ـ سيكون من صالح الشركة أن استقيل .

فقال ماك بسرعة :

ـ ليكن .

انصرف القرن ونصف قرن غارقين في الحزن ، بعد أن وعدا باعداد الأوراق اللازمة لادخال ماكهيث في بنك الائتمان الاهلي ، كما وعدا بايقاف التعامل مع كرستون .

توقع ماك بعد ذلك أن يأتيه كرستون زاحفا ، فانتظره يوما بعد يوم . لم يكن بوسع الرجل أن يقوم بعبء أسبوع المبيعات بغير عون من البنك ، فما من شك في أن المخزون لديه من بضائع قد نفد أو كاد بعد المنافسة العنيفة التي استعر أوارها طيلة الاسابيع الماضية .

لكن كرستون لم يأت . فوق أن شركة م.م.م جاءت منها أخبار غير مطمئنة عن أحداث غامضة لا تسر . كانت الانباء التي تصله عن أعماله وعصابته شحيحة للغاية ، وغير دقيقة في معظم الاحيان . ولم يكن أوهارا قد ظهر بعد . وقد ظل الجميع يتجاهلون أوامر ماكهيث فيما يبدو .

حتى بولي لم تستطع أن تخبره بشيء محدد . ظلت تتردد على المخازن ، لكنها ، حسبما قالته له لم تكتشف شيئا يذكر . قال لها أوهارا أنه يقوم بجرد البضائع المخزونة • وقد بدا أن ذلك الجرد لانهائي ، وأنه سيستمر الى الابد ، لأنها كلما سألته ، تعلل به .

عندما ذهبت بولي مرة أخرى ، وقد لعب الفأر في عبها ، رأت بعيني رأسها صناديق ممتلئة بمختلف أنواع البضائع تحمـل على

عربات . وقد كادت الجياد التى تجر العربات تدهمها فى الممر الضيق المظلم المفضى الى الافنية . لم يكن أوهارا موجودا ، وتلعثم جروتش عندما رآها ، وبدا عليه الحرج البالغ . لم يستطع أن يقول لها من أين أتت تلك الصناديق ، والى أين كانت ذاهبة . عادت بولى الى البيت وقد تملكها غضب عارم . كانت قد قطعت صلتها بأوهارا من زمن قريب ، لأنها لم تعد تطيق مؤامراته ضد زوجها . فى صباح اليوم التالى ذهبت الى ماك فى سجنه وأخذت تسب أوهارا وتلعنه وهى تبكى قائلة أنه خائن وغير أمين وأنه يسرق البضائع ليبيعها لحسابه سرا ، وانه حاول أن يحصل منها على مفاتيح الخزائن التى يحتفظ فيها ماك بمعدات السطو لأنه ، فيما يبدو ، يريد أن يدير العصابة لحسابه ، ويقصى ماك عن رئاستها . فهدأ ماك من روعها ، وقال لها أن تذهب الى ميللر .

احست بالفخر لأنه يأتمنها على عمله بهذه الطريقة ، ويكل اليها خطواته الهامة . ذهبت الى البنك وكأنها تمر صدفة ، وبينما ميللر يروى لها ما لديه من أخبار ، أخذت تتجول فى الغرفة ، ممسكة بحقيبة يدها وراء ظهرها ، متفرجة على الصور المعلقة على الجدران .

علمت أن كرستون أصيب بهلع عندما أخبره البنك بايقاف حسابه لديهم ، لكنه أخذ يقول الآن أنه سيواصل المعركة بمفرده ، بغير حاجة الى عون من البنك ، ويبدو أنه تسلم مؤخرا عدة شحنات من بضائع زهيدة الثمن بصورة تثير الدهشة ، وأنه يأمل أن يحقق نجاحا كبيرا بفضلها فى أسبوع المبيعات المقبل .

أزعجت تلك الأنباء ماكهيث كثيرا .

قامت بولى بزيارة ثانية للبنك ، فطلبت باسمه ، أن يقوم ميللر بمعاينة تلك البضائع الجديدة الزهيدة الثمن بنفسه فى مخازن كرستون قبل أن يقدم على أية خطوة أخرى .

صحب ميللر فى تلك المعاينة فانى كرايزلر التى قرر ماكهيث أن يفيد من خدماتها ثانية . وقد تعرفت فانى من فورها على مصدر تلك البضائع الجديدة المنخفضة الثمن التى كان كرستون يعزز بها موقفه . ادركت أن كل تلك البضائع جاءت من مخازن ماكهيث !

عندما جلست قبالة ماكهيث فى الزنزانة ، لم تجرؤ على مصارحته بالحقيقة . ظلت تتهرب من الموضوع وتتحدث فى أى شىء آخر باسهاب الى أن ضاق بها ماك فصاح فى وجهها مغضبا . وقبل أن تنتهى من جملتها الاولى ، كان قد فهم كل شىء . ادرك أن أوهارا

وقع على طريقة مجزية للتخلص من البضائع ، واخلاء المخازن منها : أخذ يزود الخصم بها .
جن جنون ماك . ولعله قطع عشرات الاميال رائحا آتيا بين جدران زنزانته كالوحش الحبيس . لكن اليوم التالى لتلك الثورة العارمة لم يشهد أى اجراء حاسم أو غير حاسم ضد أوهارا .
قالت فانى لجروتش معلقة على ذلك :
ــ لقد عاد الى تردده القديم . مما يؤسف له أنه متقلب المزاج بهذا الشكل . عندما يخيب أمله فى أحد أو فى شىء تطيش اللطمة صوابه ، فيظل اسابيع بأكملها متخبطا ، لايستطيع أن يرى بوضوح، مستسلما بكليته لاحساسه بالمرارة وخيبة الامل . لكنه بعد ذلك يثوب الى رشده تدريجيا ويعود الى رسم خطته .
فقال جروتش متشككا :
ــ تظنين حقا أن لديه خطة ؟ خطة حقيقية ، لا مجرد مشروعات هوائية ؟ أحيانا أخشى أن تخذله أفكاره فى لحظة حرجة ، فيضيع تماما ، ويضيعنا معه .
قالت فانى بهدوء :
ــ يجب أن تؤمن به .
لكن تسليم البضائع الى العدو خلسة من مخازن العصابة استمر دون أن يعترض طريق أوهارا أحد . ولم يفعل ماكهيث شيئا ليوقفه وبدلا من أن يتصدى لخيانات أوهارا ، أجتمع بالمحاميين الشريكين فى شركة م.م.م ، وفانى فأصدر اليهم أوامره بالتنفيذ العاجل للقرار الذى اتخذ يوم ٢٠ سبتمبر بتحصيل الديون المستحقة على دكاكين حرف «ب» . بدا واضحا أن الذهن اللماح قد تفتق عن فكرة جديدة فعلا .
كان يحاول أن يجمع كل ما يمكن جمعــه من مال سائل . وقد ساعدته فانى على تحقيق ذلك بالعمل المتواصــل فى مكاتب شركة م.م.م ، اذ أدركت ــ رغم ميولها الخيرية ونفورها من الحاق الخراب بأصحاب الدكاكين ــ أن المسألة باتت الآن مسألة بقاء أو فنــاء . فساعدت ماك بكل قواها (بصرف النظر عن مبادئها) على اعتصار كل درهم أمكن احتلابه من أصحاب الدكاكين . ولم تتبين ما فعله ماك بتلك النقود الا فيما بعد .
قررت ذات مساء (رغم ما كانت تحســه من تعب فى الايام الاخيرة، بسبب العمل المتواصل) أن تزور دكان العاديات فى طريق عودتها

الى البيت . وجدت الدكان مضاء ، مفتوحة أبوابه ، رغم أن موعد الاغلاق كان قد مضى منذ وقت طويل . دخلت مسرعة فوجدت فى الدكان عددا من الرجال ، بينهم ريجر ، أحد المحاميين الشريكين فى شركة م.م.م ، وكاتب الحسابات الذى يعمل فى خدمتها يطلعه على الدفاتر .

قال لها ريجر باقتضاب أن مستر ماكهيث قرر أن يبيع الدكان ، وأبدى دهشته لجهلها الأمر . فأصيبت فانى بنوبة هستيرية ، حقيقية لا افتعال فيها .

والحقيقة أن ماك نسى فعلا أن يخبرها ، فلم يخف الامر عنهـا عمدا . كانت ثقته بها مطلقة ، الى حد أنه كان حريا بأن يخبرها ــ دون تردد ــ أنه فى حاجة الى النقود المستثمرة فى دكانهـا الذى كان أثمن ما لديه من احتياطى . لكنه ــ لسوء الحظ ــ كان قد قضى كل بعد الظهر معها فى زنزانته ، ولم يقل لها كلمة واحدة عن تلك الخطوة التى أساءت اليها كثيرا .

ذهبت فانى الى البيت وهى تتميز غيظا .

وعندما مرت أيام بطولها دون أن تزوره رغم الترتيبات السابقة المتفق عليها بينهما ، كتب اليها ماكهيث خطابا جافا آمر اللهجة . وقد خمن سبب استيائها منه ، لكنه لم يفكر فى الاعتذار لها . كانت لديه هموم أخرى أكبر من مشكلة فانى ، وقد يجديها أن تذكر بعد كل شىء أنها ما زالت مستخدمة عنده .

كان ماكهيث غارقا فى تلك الايام ، حتى أذنيه ، فى نشاط محموم ، رغم أن قيودا جديدة كانت قد فرضت على حريته مؤخرا . فقـد تقاطر على السجن أناس عديدون يطلبون مقابلته ، فلما قابلهم لم يستطع أن يتبين سببا لزيارة أى منهم . لكنه أدرك السبب عندما نشرت مجلة العاكس مقالا من نار تضمن احصائية دقيقة عن عددزائريه فى السجن ، مما اضطر براون الى تحديد عدد من يسمح لهم بمقابلته . وقد أثبتت تلك الحركة الاخيرة لماكهيث أن مستر بيتشام ما زال يسعى فى أعقابه ، وأنه ما زال ، بين الحين والحين ، يلعب بذيله . لكن أعمال ماك فى تلك الآونة لم تكن تحتمل التعطيل أو الحد من حريته فى مقابلة من يشاء . ولذلك فانه أصيب بآلام الاسنان فجأة ، وسمح له براون بالتردد على طبيب أسنان . كان للعيادة بابان ، يراقب البوليس أحدهما ، كما يجلس بعض مخبريه فى غرفة الانتظار . لكن الباب الخلفى لم يكن يراقبه أحد ، وهكذا تمكن ماكهيث من

مقابلة عدد كبير من الناس كان من الحيوى بالنسبة اليه أن يقابلهم •

جلس ماك فى مقعد طبيب الاســـنان ، تحوطه معدات ومثاقيب عديدة ، واضعا المنشفة الصغيرة على صدره ، (خشية أن يطل أحد برأسه داخل الغرفة) ، وأخذ يجرى مفاوضاته مع نساء وبنـــات كثيرات كن يبتسمن ابتسامات واسعة .

حضرت بولى كل تلك المقابلات ، فجلست الى منضدة فى غرفة الكشف بينما انهمك الطبيب فى تناول افطاره ، واخذت تسجل فى دفتر صغير معها اسماء النساء والفتيات ، والمبالغ التى يحصلن عليها ، ثم تصرفها لهن من حقيبة جلدية كانت قد اتت بها معها • كانت تلك الحقيبة ممتلئة بالنقود التى جمعها جيش من المحضرين من أصحاب دكاكين حرف «ب» المعسرين •

وقعت كل امرأة وفتاة ايصالا بالمبلغ الذى حصلت عليه قبل ان تنصرف ، وقد انصرفن كلهن مغرقات فى الضحك ، تبـــدو عليهن علامات الحبور . وضحكت بولى أيضا . فقد كان الامر مضـــحكا للغاية .

ظهرت مجلة العاكس فى اليوم التالى وفى صدر صفحتها الاولى مانشيت ضخم يقول « حيوانات القرش فى حى المال والاعمال تعالج أنيابها » . لكن كل ما يجب أن يفعل كان قد تم فعله . وأحس ماك بالرضا الكامل •

بعث بعد ذلك فى طلب جروتش ، فجلسا معا يدخنان السيجار ، وسأله ــ بحضور طبيب الاسنان أيضا ــ عن عدد من بدءوا يضيقون من رجال العصابة ، فى رأيه ، بحالة العمل ، قائلا أنه يفكر فى أن يهيىء لهم تغييرا قد يروق لهم . قال انه فى حاجة الى عدد كبير من الناس ــ يحسن أن يكون بينهم عدد من النساء والفتيات ان أمكن ــ ليقوموا بالشراء لحسابه ، على نطاق واسع ، من مكان معين ، فى يوم معين ، وأن كافة التفاصيل ستوضح فيما بعد ، وأن كل من يتطوع للقيام بذلك العمل الذى لا يكلف شيئا ، يستطيع أن يعتمد على ماك فى الحصول على دكانة حرف « ب » فيما بعد ، بشروط مجزية للغاية. وقال أيضا أن شركة م.م.م ستتعامل من الان فصاعدا فى عدد محدود من الطلبيات ، ولذلك سترفض أن تدخل مخازنها اية بضائع مشكوك فى مصدرها ، وأن الدكاكين ، فى عهدها الجديد ، ينتظرها مستقبل باهر ، وتعتبر وسيلة ممتازة لبدء حياة جديدة ، محترمة ونافعة ، وأنه سيكون من دواعى سعادته أن يساعد عددا

من الناس الأكفاء (لانه لا يهمه من ليسوا كذلك) على امتهان مهنة شريفة ومفيدة للمجتمع كهذه . ثم ألقى بعـــد ذلك خطبة مطولة ادهشت جروتش كثيرا . قال :

– جروتش . أنت لص قديم . مهنتك السطو والسرقة . ولن يخطر لى ببال أن أدعى أن مهنتك هذه قد عفى عليها الزمان ، لان ذلك سيكون تطرفا ليس له ما يبرره . كل ما هنالك ياجروتش ياصاح أن هذه المهنة العريقة قد بدأت تتخلف عن العصر . فأنت صانع ، مجرد « فواعلى » ، لا أكثر . وتلك فئة من الناس تتدهور مكانتها من يوم الى يوم ، ولا يستطيع أحد أن يكابر فى ذلك . فأيهما أحســن : « طفاشة » لفتح الاقفال أم سهم فى احدى الشركات ؟ وهل يقاس السطو على بنك ما بافتتاح بنك ؟ وأى وزن لقتل انسان ما ياعزيزى جروتش اذا قيس باستخدام ذلك الانسان ؟ خذ مثلا على ذلك : منذ بضع سنين سرقنا شارعا بأكمله كان مرصـــوفا بكتل خشبية ، فاقتلعنا تلك الكتل الخشبية من الارض ، وحملناها على عربات ، ثم ذهبنا بها . وتصورنا فى ذلك الوقت أننا قمنا بعمليـة رائعة لا مثيل لها ، بينما كنا ، فى حقيقة الامر ، قد تكبدنا مشــاق لا داعى لها ، وتعرضنا لأخطار لم يكن هناك ما يبررها . فبعد تلك الخبطة بوقت قصير سمعت أنه ما على المرء الا أن يعمل فى المجلس البلدى لكى يوزع العقود بنفسه على من شاء ، وقت شاء . وبذلك يحصل المرء على العقد الخاص بهذا الشارع أو ذاك ، أو حتى بهذا الحى أو ذاك بأكمله،ويضمن بذلكأرباحا مجزية لعُدة سنواتمقبلةدون أن يتحمل أية مخاطرة . وفى مرة أخرى بعت بيتا لم أكن أملكه . وضعت على بابه لافتة مكتوب عليها للبيع ، اتصل بعنوان كذا وكذا . أعمال صبيانية ! كان ذلك عملا غير أخلاقى بالمرة ، تعرف لم ؟ لانه قام – بغير داع – على اجراءات غير قانونية ، بينما يستطيع المرء – فى ظل القانون ، وهو متمتع بكامل احترامه وراحة باله – أن يقيم عددا من البيوت الآيلة للسقوط ، بمواد مغشوشة لا تكلفه شيئا ، ويبيعها بالتقسيط ، ثم ينتظر الى أن يعجز مشتروها عن سداد بقية الاقساط ، فيستردها ، ويبيعها من جديد ، مستطيعا – متى أحسن اختيار المشترين – أن يعيد بيعها مرة بعـــد مرة ، دون أن يكون للبوليس أدنى حق فى أن يزج فى الامر بأنفه ! خذ نشاطنا الحـالى مثلا ! نحن نسطو على محلات ومخازن تجارية لنسرق ما بهــا من بضائع ونبيعها فى دكاكيننا . لماذا ؟ أى شىء يضطرنا الى ذلك ؟

ما علينا الا أن نتقدم فنشترى تلك البضائع ببخس الثمن كلما أفلس محل من تلك المحلات ، فنحصل على ما نحتاجه من بضائع بطريقة قانونية لا تشوبها شائبة ، وبتكلفة أقل كثيرا من تكاليف السطو ! فاذا كنت مصرا ـ فيما بينك وبين نفسك ، لاسباب عاطفية بحتة ـ على متعة السرقة ، يمكنك أن تقر عينا وتستمتع الاستمتاع كله ، لأنك ـ بهذه الطريقة ـ تكون كأنك سرقت تلك البضائع سرقة ! فتلك البضائع التى تحصل عليها من الدكاكين المفلسة تكون قد انتزعت من أصحابها الذين قتلوا انفسهم جدا واجتهادا فى سبيلها لانهم صدقوا ما قيل لهم : اعملوا لتعيشوا ! فى هذه الايام المجيدة يجب على المرء العاقل أن يعمل داخل حدود القانون . وذلك ـ فى اعتقادى ـ مصدر متعة أعظم . السرقة القديمة أصبحت عبث أطفال،متى قيست بالسرقة الحديثة . هل هناك مجال للمقارنة بين وسائلنا العتيقة ووسائل شركة م.م.م العصرية ؟ فى هذا العصر يستخدم المرء وسائل سليمة مهذبة . لأن القوة الفاشمة لم تعد سمة العصر . ما حاجتنا الى استخدام القتلة ما دمنا نستطيع استخدام المحضرين ؟ يجب أن نبنى ياجروتش ، لا أن نهدم ، يجب أن نبنى فى سبيل الربح والرخاء .

جلس مسبل الجفنين يرقب جروتش من تحت جفنيه . كان يأمل فى استرضاء فانى من خلال عشيقها ، بعقد صلح معه . استطرد قائلا .

ـ لهذا خطر لى أنه قد يكون من الأوفق أن أوقف نشاط المشتريات القديم فى المنظمة وأستغنى عن خدمات القائمين به ، بما فيهم أنت . لكنه قد يكون من الممكن تجنب ذلك الاجراء الاخير . كم من المستخدمين فى تقديرك يستطيعون أن يدبروا المال الكافى لشراء بعض دكاكين حرف « ب » التى ستخلو قريبا ؟ يمكنك أن تعد لى قائمة بهم . وبهذه الطريقة لا أقطع صلتى بهؤلاء الأولاد الطيبين . لا حاجة بى الى القائهم فى عرض الطريق . يمكنك أن تسأل فانى عمن يمكن الاعتماد عليه من بينهم . فهى دائمة الاهتمام بما فيه خيرهم . لكنك يجب أن تدرك ياجروتش أنى أقلب صفحة جديدة فى حياتى . ولقد وضعت عينى عليك لانك رجل كفء . لان هناك أناسا غيرك لا يريدون أن يفهموا روح العصر ، ولذلك فان عجلة التقدم سوف تسحقهم عما قريب .

أصغى جروتش لكل ذلك بصبر وأناة ، محاولا أن يفهم روح العصر لئلا تسحقه عجلة التقدم . ثم غمغم شيئا بخصوص أوهارا ، فقال ماك آسفا :

ـ اوهارا ؟ انه لا يفكر الا فى النساء . وانى على يقين من أن الفواتير الخاصة ببضائعه ليست معدة كما ينبغى . واحساسى أن البوليس سيبدأ فى الاهتمام به ، وتضييق الخناق عليه . ترى ما الذى سيستطيع أن يفعله ؟

وهكذا توصل الى تفاهم كامل مع جروتش . فتكفل جروتش خلال السنوات القليلة التالية بشراء البضائع اللازمة لمحلات جنوب لندن ، بقدر عظيم من الامانة والكفاءة .

أسبوع مبيعات كرستون

افتتح كرستون أسبوع مبيعاته العظيم ، ذات يوم مشمس من أيام الخريف ، على أساس الاسعار الموحدة .

منذ السابعة صباحا ، قبل موعد الافتتاح بساعتين ، تجمعت حشود ضخمة من الناس أمام الابواب المغلقة . ولم يكن فى ذلك ما يلفت النظر ، اللهم الا الزيادة الملحوظة فى عدد الرجال بين المتجمهرين .

كان السيدان هوثورن وميللر قد تنازلا بحضور الافتتاح الكبير ، ممثلين لبنك الائتمان الاهلى ، فوقفا وراء نوافذ المكتب الرئيسى المؤثث بأفخر الاثاث ، يرقبان الجمهور ، بصحبة مستر كرستون بقامته الطويلة ، النحيلة ، التى تنم عن صلابة غير عادية . كان العجوزان من القلق والتوجس فى حال . أما مستر كرستون فكان فى هدوء الماء البارد . كان قد أتم كل استعداداته بنجاح ، وبعناية فائقة ، فقضى مستخدموه معظم الليل يغيرون أسعار المعروضات الى الوحدات الأربع التى سيتم البيع بها . تبعا لفكرة ماكهيث التى سرقها القرن ونصف قرن منه . وفى تمام التاسعة فتحت الابواب ، وتدفق الجمهور داخلا .

منذ اللحظة الاولى وقعت فى محلات كرستون أشياء غريبة للغاية ، ومزعجة . تصرف الجمهور بطريقة لم يسبق لها مثيل . فلم تكد الجحافل المنتظرة بالخارج تفتح الابواب لها حتى انطلقت معربدة فى الشراء كأنما بها مس . لم يعن أحد بأن ينتقى ، أو يقلب ، أو يختار . بدأ الشراء طوفانا فى الاقسام المواجهة للأبواب حتى أتى على كل ما بها من سلع معروضة فانتشر فيما وراءها . كان المشترون يجرفون البضائع جرفا ، فيأخذون أكواما من سلع متماثلة ، يحشون بها

حقائب بل واجولة كانوا يحملونها ، ويدفعون ثمن ما اشتروه بنقود معدنية من فئات كبيرة نسبيا ثم ينصرفون بسرعة ، ليعودوا بعد دقائق بحقائب وأجولة فارغة ، ويبدءون فى الشراء من جديد .

وقف كرستون يشهد كل ذلك ويحاول أن يفهم ما يجرى فى منشأته . أدرك طبعا أن هؤلاء الناس ليسوا مشترين عاديين . فلم يكن أى واحد منهم يسلك سلوك المشترى المتشكك الذى يقلب ويختار ويتردد طيلة ساعات بأكملها قبل أن يقر قراره على شيء يشتريه ، اذا اشترى أصلا . هؤلاء الناس كانوا يستخدمون مرافقهم وأكتافهم ، ويتزاحمون ، ويزيحون من عداهم بوحشية بعيدا عن البضائع المعروضة ، ويخلقون عموما جوا من الارهاب .

أسقط فى يد البائعين ، الذين كانوا يشاركون لاول مرة فى الارباح ، فوقفوا يتصببون عرقا وهم يواجهون ذلك الجيش العرمرم من المشترين الذين بدوا كما لو كانوا قد أصابهم سعار . انتزعت البضائع من أيديهم عنوة فألقيت فى الحقائب والزكائب ، وانصبت اللعنات والشتائم على رءوسهم . لم يظهر المشترون أى قدر من التمهل وضبط النفس الا أمام الخزائن حيث أخذوا يسددون قيمة ما اشتروه . أصر كل واحد منهم على أن يحصل على ايصال رسمى مختوم يفيد سداد الثمن ويبين أنواع السلع وعددها .

استدعى كرستون رجال البوليس . فجاءوا ورأوا بأنفسهم مدى اقبال الجمهور على الشراء ، وتأكدوا من ازدياد الطلب . وتعرفوا أيضا بين السادة المشترين على عدد من المجرمين الخطرين والعناصر غير المرغوب فيها . لكن الموقف لم يسمح لهم بالتدخل . فأى منطق يجيز أن يستخدموا هراواتهم فى منع الجمهور المتعطش الى الشراء من مزاولة حقه فى الشراء نقدا ؟

اذذاك لم يجد كرستون ، الذى قام بجولة فى بقية محلاته وتأكد من أن الموقف فيها يزداد سوءا ، بدا من اصدار أمره باغلاق الابواب فى وجه ذلك القطيع الجشع . ظلت الابواب مغلقة بضع ساعات ، وحشود جديدة تتجمع مدمدمة . فلما بدأ بعض الصحفيين يتوافدون سائلين عن السبب فى ذلك الموقف الغريب ، اضطر كرستون أن يأمر بفتح الابواب ثانية وهو صاغر .

جلست بولى برفقة جروتش فى حانة صغيرة طوال ذلك اليوم ، من مطلع النهار حتى وقت متأخر فى المساء ، وأخذا يتسلمان الايصالات المختومة التى اشتريت البضائع بموجبها . تكدست أمامهما

كميات رهيبة منها .

ولفرط غيظه قرأ كرستون فى صحف المساء أنباء النجاح الساحق الذى حققه أسبوع مبيعاته فى يومه الاول ، وكيف أن الجمهور اشترى كل المخزون فى محلاته من بضائع فى يوم واحد لا أكثر .

بدت تلك المحلات فى نهاية ذلك اليوم كما لو كانت قد اجتاحها اعصار . سحابة هائلة من الجراد بالغ الشراهة مرت من هنا وأتت على كل شىء . لم يستطع مستر كرستون أن يفهم تلك الظاهرة .

قرب المساء ، بينما سيل لا ينقطع من عربات اليد وعربات النقل يأخذ طريقه ، محملا بتلال من البضائع ، الى مخازن معينة فى ميدان لوور بلاكسميث ، كان مستر ماكهيث يستقبل مستر أوهارا فى زنزانته ويقول له :

ــ أهلا بك . أنا مسرور منك يا أوهارا يا صاحبى ، لأنى أقدر روح التفرد والمبادأة . كانت فكرة رائعة من جانبك أن تعرض تلك البضائع التى لم تكن نجد لها مشتريا على كرستون . لم نكن لنقدر على بيعها بغير فواتير . والان حصلنا على تلك الفواتير بفضل براعتك ، لأنى كما تعلم اشتريت كل ما بعته أنت من وراء ظهرى لكرستون . أين النقود التى بعته البضائع بها ؟

الجم أوهارا وأسقط فى يده . لم يجد نفعا فى أية مراوغة . كان قد تسلم كمبيالات من كرستون بقيمة البضائع ، سلمها لماكهيث بلا ادنى تردد . ولم يكن كرستون قد طلب أية فواتير تغطى ما اشتراه .

لم يحاول أوهارا أن يقدم تفسيرات لموقفه . كل ما استطاع قوله أنه لا غنى له عن ماكهيث كما أن ماكهيث لا غنى له عنه ، وأنه من قبيل الصدفة وحدها أن سبقه ماك الى ذكر تلك البضائع التى بيعت لكرستون ، لانه كان ينوى أن يخبره من تلقاء نفسه . وليس هناك من يستطيع أن يشكك فى ولائه . لانه يكون من الفظاعة بمكان أن يشك فيه أحد ، أو يحاول التشكيك فى اخلاصه . يكون فظيعا بحق .

عندما انصرف أوهارا بعد أن تركه ماك جالسا فى صمت مطبق ، أرسل هذا الاخير فى طلب كبير المفتشين براون ، فلما جاء براون جلسا يدخنان ويشربان الخمر معا . جلس ماك على الاريكة ، يعبث بقدمه فى السجادة التى أعيدت الى غرفته ، وكأنه يجد صعوبة فى قول ما عنده ، لكنه ما لبث ان قال :

ــ براون . هل تذكر ماقلته لى فى العام الماضى عندما كنا نتحدث عن خبطة ليفربول ؟ قلت انك سترشدنى الى الطريق المستقيم .

ولقد ادركت الان ما كنت تعنيه بقولك . وأدركت أنك كنت على حق . يجب أن اقطع كل صلة لى بماضي المشين . ذلك أمر بدأ يتضح لى بصورة متزايدة . عندما ينتابنى أرق فى الليل أظل اتقلب فى فراشى وأفكر فى كلماتك ، وأقاوم ضعفى ورذائلى العديدة .

توقف عن الكلام متظاهرا بأن عواطفه قد غلبته . فنظر اليـــه براون بانزعاج ، متوقعا الأسوأ وقال له :

ـ مهلا • مهلا • لا تنس أنى ساعدتك ماليا بما فيه الكفاية • ولم ترد الى ما أقرضتك اياه بعد .

فقال ماك متألما :

ـ والله أفضل لو استبعدنا الكلام عن النقود فى لحظة كهذه . فوق أن مالك فى أمان . أقسم لك بشرفى !

قال براون مغضبا :

ـ اسمع ياماك ! يجب أن تكف عن الهذر فى مسائل كهذه .

فاستطرد ماكهيث قائلا ، دون أن تطرف له عين :

ـ ما زلت أذكر الكلمات التى استخدمتها بوضوح ، كما لو كنت قد قلتها لى بالأمس فقط . قلت لى : ياماك ياصديقى ، يجب عليك أن تتخلص من ذلك الثعبان اوهارا . يجب عليك أن تجد لنفســك بيئة جديدة نظيفة ، ورفاقا نظافا جدا • وقلت أنك ستمنحنى مهلة كافية لكى انفذ ما نصحتنى به . وقد آن اليوم الأوان لكى أفعــل ما أمرتنى به .

نظر الى براون قائلا :

ـ فى الآونة الاخيرة حدثت اشياء لا يمكن السكوت عليها فى جهاز المشتريات التابع لى ، وكل الشبهات تتجه الى رجل يعمل فى خدمتى اسمه أوهارا . هل تعرفه ؟

ـ هل غدر بك أحدهم ؟

ـ كلا ، كلا . على الأقل ، ليس بطريقة مباشرة . لكن هناك شيئا مريبا للغاية فيما يتعلق بالبضائع التى كان سيجرى تسليمها الى محلاتي ومحلات هارون . يبدو أن كل الفواتير الخاصة بها ليست متوفرة . يجب على أن أجرى تحقيقا دقيقا فى الأمر ، والا طلب هارون اجراء مثل ذلك التحقيق ، واذذاك يتناولنى التحقيق أنا . هل اتضحت لك الصورة الان ؟

ـ نعم ، تماما . ولكن أوهارا هذا ليس سهلا . أنت لا تتوقع طبعا ان يدعك فى حالك بعد القبض عليه ؟ سيفتح فمه الكبير بطبيعة

الحال ، ويثرثر .
ــ ربما . وربما تركني في حالي . كل ما في مخازني من بضائع مغطى بالفواتير تغطية كاملة .
فغمغم براون قائلا :
ــ آه ، كذا ؟
قال ماكهيث ، متنفسا الصعداء :
ــ كذا !
فسأله براون :
ــ وما الذي يجب على أن أفعله .
ــ أبدا . قد تستطيع أن تنبش في ماضي أوهارا قليلا . وقد تعثر اذذاك على شيء يهم البوليس عنه ، شيء يمكن أن يثار ، أو أن يصرف النظر عنه ، رهنا بمدى تعقله .
قال براون متفكرا :
ــ نعم . أظن ذلك ممكنا . انا ايضا لا أحب الخونة كما تعلم .
فأضاف ماك :
ــ لا ، وأخلاقه ! أخلاقه الشخصية تثير الاشمئزاز . دائما يجرى وراء النساء . لقد أبقيت عليه حتى الان لانه كان نافعا في بعض النواحي ، لكنني الان قد فرغ صبري .
جلسا بعد ذلك يدخنان معا ويفكران . ثم نهض براون فاستأذن وانصرف . أما ماك فآوى الى فراشه على مهل ، مستغرقا في التفكير . لم يكن مستريحا بعد .

(١٢)

« لا دخان بغير نار »

(حكمة قديمة)

هل يحمل مستر ماكهيث وزر المرحومة مارى سوير ؟

كل تلك الضجة حول موت مارى سوير بدأت تثير اعصاب مستر ماكهيث بطريقة متزايدة .

قام الرجل والى ، محامى بيتشام ، بدعوة كل أصحاب محلات حرف « ب » الى اجتماع عقد فى غرفة خلفية بمطعم من مطاعم الدرجة الرابعة ، فأخذ الجميع خلاله يدبرون مختلف الخطط الدنيئة معا ليلحقوا ما استطاعوا من أذى بماك المسكين .

كانت القضية قد ألقت أضواء دعائية كثيرة على حالة دكاكين حرف «ب» . وقد دعا المحامى السمين الى تكوين نقابة تضم تجار التجزئة ممن لحقتهم أضرار على أيدى الكبار . وعلى سبيل التهييج ، قال للمجتمعين ان القاتل ماكهيث الذى شردهم وجوع أطفالهم يستمتع بضيافة الحكومة فى غرفة كغرف الامراء تغطى أرضها السجاجيد العجمية .

وهنا احتد رجل نحيل صانع أحذية معروق ومسلول وقال انه مستعد للشهادة بما كان يربط القاتل من علاقة غير عادية بالمرأة القتيل ، وطالب ، بانفعال شديد أن يجرى تحقيق دقيق يكشف عن المخازى القائمة على قدم وساق بين أرباب الاعمال جميعا ومستخدماتهم الحسناوات ، مؤكدا ان مثل ذلك التحقيق حرى بأن يكشف عن اساءة فاحشة فى استخدام السلطة ! لكن بعض المستنيرين من السادة الحضور نصحوا بالاعتدال خشية ما قد يتمخض عنه التطرف من عواقب وخيمة . كما اقترحت سيدة عجوز تأجيل كافة التسويات مع ماكهيث الى أن يصدر حكم فى قضيته ـ فقد يشنق ـ وقد يجعلوه

يتحمل ايجارات شهر اكتوبر . لكن تلك السيدة لم تجد مؤيدا لاقتراحها سوى سيد عجوز آخر قال والله فكرة ، وبهذه الطريقة تجعل مستر ماكهيث يحس أننا فقدنا كل ثقتنا به !

لكن ممثلي الجانب الاكثر استنارة كسبوا ، في النهاية ، المعركة ، رغم التشتت المعهود للآراء في مثل تلك المشاورات . وبذا اتخذ قرار بتنحية الاعتبارات الاقتصادية في الموضوع جانبا ، واستبعادها من المناقشة ، لانها لا دخل لها في الامر ، ولان مناقشتها ستسيء الى المنطلق الاخلاقي البحت الذي يصدر عنه السادة الحضور . وقد اتخذ ذلك القرار باجماع الآراء ، حتى رأى تلك السيدة العجوز التي نصحت بالتريث الى أن يشنق ماك .

وهكذا فان الاعتبارات الاقتصادية لم يرد لها ذكر — كما هي العادة — لان الفقراء يحبون دائما أن ينظروا الى مسببات فنائهم نظرة بالغة السمو فلا ينزلون الى مستوى اقتصادي وطيء . وبناء عليه فانه تقرر أن يحتج المجتمعون احتجاجا شديدا على الموقف الاعزل الذي يجد فيه تاجر التجزئة الصغير نفسه وأن يطالبوا ، بالحاح ، بادانة المجرم وتوقيع أقصى العقاب عليه « بصرف النظر عن طبقته ومكانته الاجتماعية » .

ورغم كل شيء ، كانت نتائج ذلك الاجتماع الساذج سيئة بالنسبة لمستر ماكهيث ، لان شعور العداء تجاهه تزايد . فوق أن صور الاطفال الذين يعيشون على الكفاف في الحجرات الخلفية لدكاكين حرف « ب » بدأت تظهر في الصحف — بغير رتوش . كما أقدمت صحيفة على نشر صورة للافتة التي كانت ماري سوير تضعها في واجهة دكانها ، معلنة أن هذه الدكانة تديرها زوجة جندي .

ولقد تفوق بيتشام في الحقيقة على نفسه عندما أقام شحاذا تعس الشكل بشكل لا يصدق أمام كل دكان من دكاكين حرف « ب » وقد وضع على صدره لافتة تقول : « أنت اذا اشتريت هنا ، فانما تشتري من دكاني » . ولم يفعل أصحاب الدكاكين حيال تلك الالعوبة شيئا ، فوق أن الصحف التقطت صورا لها .

اهتمت الصحف — في واقع الامر — اهتماما غير مألوف بميتة امرأة كماري سوير . لم يكد يخلو مانشيت واحد من المانشيتات اليومية الضخمة من هذا السؤال ، بألف صيغة وصيغة : « هل ماكهيث مسئول عن موت ماري سوير ؟ »

وبالاضافة الى كل هذه الدعاية المعاكسة ، وروح العداء المتزايدة ،

كان ماكهيث مغلول اليدين : فعليه أن ينقذ عنقه من حبل المشنقة ، ويهزم مستر بيتشام الذى يدفعه نحو تلك المشنقة دفعا حثيثا : دون أن يكشف عن دليل براءته الحاسم والحقيقى . ولذلك فان الامر كله توقف على مدى قابلية القول بأن مارى سوير انتحرت للتصديق.

على الجبهات الاخرى حقق انتصارات مرموقة . جعل القرن ونصف قرن يركعان امامه ، وأحيانا يسيران على أربع ، ووضع يده على أدلة دامغة تلقى بمستر كرستون فى غيابات السجون ، فتريح الدنيا من شره . لكن اجراءات تعيينه مديرا فى بنك الائتمان الاهلى تعثرت بعض الشيء ، ولم يكن بوسعه أن يستخدم تلك الادلة الدامغة ضد كرستون الا بعد أن يصبح عضوا فى مجلس ادارة البنك . جبهة حرف « ب » وحدها هى التى ظلت أرضها حافلة بالالغام . فالسبيل الوحيد لاثبات براءته هو اثبات انتحار مارى سوير ، لكن انتحار مارى سوير ما معناه ؟ معناه أن حالة أصحاب دكاكين حرف « ب » لا خلاص منها الا بالانتحار .

فى الليلة السابقة لجلسة قاضى الاحالة جاءه براون محزونا فى زنزانته وأخبره أن الرجلين اللذين شاهدا مارى سوير متجهة الى حافة الماء وحدها قد اختفيا فجأة ، كأنما انشقت الارض وابتلعتهما. قال لاشك فى أن أحدا أخفاهما ، وأن ذلك المحامى البدين والى قال له مازحا لعلهما كذبا على البوليس فى أول الامر فلما جد الجد آثرا الاختفاء حتى لا يضطرا الى أداء الشهادة تحت اليمين . أضاف براون بكآبة أنه من السهل أن يتصور المرء من الذى اخفى الرجلين ، ولعلهما يقيمان الان فى نفس الفندق الذى اخفى فيه العسكرى فيوكومبى .

أصغى ماك لكل هذا بهدوء ثم قال :

ــ اسمع يا براون . من كانوا مثلنا لا حاجة بهم ــ عندما يريدون تجنب المتاعب ــ الى ثنى ذراع القانون . كل ما عليهم أن يسخروه لخدمة مصالحهم بذكاء . ومصيبتنا يا فردى ، أنت وأنا ، أنك رغم اخلاصك الذى لا أشك فيه ، لست بارعا فى تلك اللعبة كل البراعة !

تقدم بهما الليل وهما يتذاكران أحداث الماضى ، ولم يجرؤ براون ، الا قبيل انصرافه بلحظات ، أن يخبر ماك بأسوأ ما لديه . قال له ان مستخدمته فانى كرايزلر ذاتها ستؤدى الشهادة ضده . فقد اعترفت أثناء التحقيق المبدئى بالحديث الذى جرى فى دكانها بين ماك والمراة مارى سوير .

عقدت جلسة قاضي الاحالة في قاعة مبهجة للنفس تصدرها قاض صغير الحجم ، أزرق العينين انسجمت هيئته تماما مع القاعة المشمسة المضيئة ، بستائرها البيضاء وحيطانها المطلية بالجير .

لم تستغرق شهادة الطبيب الشرعي ورجال البوليس وقتا طويلا ، فقد تركز الاهتمـــــام كله حـــول ماكهيث الـذى أحاطت به شبهات قوية فيما يتعلق بمقتل صاحبة الدكان المرأة مارى سوير .

كان المحامي والى ، الذى وكله بيتشام ، يمثل المدعين بالحق المدنى ، اليتيمين اللذين تركتهما المرحومة مارى سوير . بينما تولى الدفاع عن ماكهيث المحاميان ريجر ووايد ، عضوا مجلس ادارة شركة م. م. م. وعندما سئل ماك عن مهنته قال انه « تاجر جملة » . ثم ارتكب ماك خطأ صغيرا عندما سئل عن أية أحكام سابقة تكون قد صدرت ضده ، لانه كان يحس بأنه لم يوقع عليه عقاب من قبل ، فقال « لا شيء ! » فانقض عليه والى من فوره :

ـ كيف لا شيء ؟ ألم يحكم عليك منذ ثلاث سنوات وتغرم جنيها ؟!

فقال ماك وقد بوغت مباغتة أزعجته :

ـ لا أذكر .

ـ آه ، لا تذكر ! لا تذكر أنك وقعت عليك مخالفة لخروجك على قانون الرخص ؟ لقد خالفت تلك القوانين ، لكنك لا تذكر ذلك . دعنى أذكرك اذن : على العكس مما قلته للمحكمة الان ، سبق أن صدر ضدك حكم بالادانة .

فضحك ريجر متهكما ، وقال موجها حديثه الى ماكهيث :

ـ أدنت بمخالفة قوانين الرخص ! عار عليك يا ماكهيث !

فقال والى مغيظا :

ـ ليس المهم نوع المخالفة . المهم أن المتهم حـاول أن يضلـل المحكمة ويخفى عنها سجله الاجرامى السابق وتفاهة الامر كله ، التى يود أن يبرزها الدفاع ، هى ما نود نحن ابرازه . لانها دليـل على أن اخفاء أى شيء قد يسبب له دعاية سيئة أصبح بمثابة طبيعة ثانية لدى ماكهيث . وسوف تظهر أثناء المحاكمة أشياء عديدة من هذا القبيل .

كان ريجر على وشك أن يهب محتجا على هذا الهجوم على موكله، عندما جذبه زميله وايد من ذيل سترته فأجلسه . كان وايد رجلا سمينا ، قديما فى المهنة ، لديه أفكاره الخاصة عن الطريقـة المثلى التى يجب أن يلتزمها الدفاع . لـكنه لم يتوصل الى أى اتفاق فى

وجهات النظر مع ريجر حول هذا الموضوع • كما لم يتوصلا الى أى اتفاق حول خطة الدفاع . فقد أراد أن يقيم دفاعه على مقولة الانتحار ، بينما فضل ريجر فكرة القتل على يد مجهول أو مجهولين. الشيء الوحيد الذى اتفق عليه هو اخفاء دليل البراءة الحقيقى ، لانه لا سبيل الى اظهاره .

ولسوء الحظ أن المحامى والى كان قد تلقى تعليمات من موكله ـ فيما بدا ـ بأن يعالج القضية بمنتهى العدوانية ، وهو ما اتضح من أول كلمة قالها فى الجلسة.

كان الشاهدان اللذان رأيا امرأة تتجه الى حافة الماء وحدها قرابة التاسعة مساء قد اختفيا ، بطبيعة الحال ، بينما لم يختف الشحاذان اللذان رأيا المتهم يسير بصحبة المرحومة . وقد أدلى أحدهما ، وهو عجوز يدعى ستون ، بالشهادة التالية :

ـ ما زلت أذكر بوضوح الرجل الذى كان بصحبة الفتاة . انه بعينه هذا الرجل الجالس هناك . فمن دأبنا أن نمعن النظر فى وجوه الناس ، لنعرف من منهم المحسن ومن منهم البخيل • وهذا الرجل من الصنف الذى يقلب جيوبه ثلاث مرات قبل أن يتصدق على أحد ببنس واحد . وهذا الصنف من الناس لا يفعل ذلك عادة الا عندما يكون بصحبة امرأة يريد أن يتظاهر بالكرم أمامها . وقد فعل هذا الرجل نفس الشيء ليلتها ، حتى قلت له بعد أن ضقت بتقليبه فى جيوبه بحثا عن أصغر عملة معه : « لعلك تريد أن تذهب الى البيت أولا لتبحث عن نصف بنس مزيف يكون قد سقط من جيبك وراء الكنبة فتتصدق به ! أى نعم . ما زلت أذكر ذلك كما لو كان قد حدث بالامس . أخذت أرقبه وهو يفرغ جيوبه . بدا لى أنه لايحمل الا جنيهات ذهبية . لكنه عثر على بنس أخيرا ، فأعطاه لى . أو هكذا خيل الى ، لانى عندما نظرت فى يدى وجدته قد تصدق على بزرار بنطلون !

قوبلت هذه الشهادة بعاصفة من الضحك لخفة دم الرجل. فأخرج ريجر من حقيبته صحيفة مطوية أعطاها للمحلفين وبها صورة لواجهة دكان من دكاكين حرف «ب» فيها لافتة تعلن عن تخفيضات كبيرة لعائلات الجنود . قال ريجر منفعلا :

« هذه الصورة يا حضرات المحلفين ، نشرها الخصوم ، ولم ننشرها نحن • وأنا أريد أن أسأل ضمائركم : كيف يتأتى لرجل فاقد لكل احساس بالمسئولية الاجتماعية ، كما يحاولون أن

يصوروا مستر ماكهيث لنا ، أن يشغل نفسه فى مجال العمل بتخفيضات هائلة كهذه لعائلات الجنود ؟
فلم يزد الاستاذ والى عن قوله أن أضواء كثيرة ستلقى فى حينها على ما يسميه الدفاع باحساس ماكهيث بالمسئولية الاجتماعية .
ثم قال : لنعد الآن الى موضوعنا . أثبتنا بما لايدع مجالا للشك أن مستر ستون المسكين هذا رأى المتهم بصحبة الضحية فى مكان قريب للغاية من مكان الجريمة ، قبيل الوقت الذى حدده الطبيب الشرعى للجريمة بقليل وأن المتهم تصدق عليه بزرار بنطلون . ومن حق مستر ماكهيث طبعا ، بصفته مليونيرا ، أن يتصدق على الناس بأزرار البنطلونات . لكن ذلك يجرنا الى موضوع آخر وهو من أين يحصل مستر ماكهيث على أزراره هذه .
كانت تلك هى الضربة الاولى التى وجهت فى المحاكمة الى الاساليب التى يتبعها ماكهيث فى اعماله ، فظهر أثرها على هذا الاخير فورا ، متمثلا فيما لحظه الجميع من قلق مفاجىء وتوتر . قال بحدة : طبعا . أستطيع أن أقول لك من أين أحصل عليها . أحصل عليها من المصانع حيث تصنع .
فقال والى وهو يكفه عن الاسترسال باشارة من يده ، نعرف ، نعرف ، لكن السؤال هو هل يحصل أصحاب تلك المصانع على ثمن ما تحصل عليه من مصانعهم ؟
وهنا قفز ريجر مهتاجا وقال : ما هذا ، ما هذا ، هل هذه المحكمة مستعدة للسماح بمثل هذه الدعايات الشيوعية ؟
فهدأ القاضى من ثائرة الاستاذين وقال : ان جوهر الشهادة ــ الذى يهم المحكمة ــ هو أن السيد الشاهد تعرف على المتهم بوصفه الشخص الذى كان مع المرأة الميتة فى ليلة الجريمة .

فقال ريجر بأنه سيعود الى هذا الشاهد فيما بعد ووجه عناية المحكمة الى أن شهادته تناقض شهادة عاملى الشحن اللذين شهدا بأنهما رأيا المرأة وحدها ، ثم طلب سماع شهادة رجل البوليس الذى سمع شهادة الشاهدين الغائبين ، فقد قالا ، بغير شك ، انهما رأيا امرأة وحيدة .
فسأل الاستاذ والى بزراية :
ــ نعم ، نعم ، ولكن أى امرأة ؟
ثم اعترف رجل الشرطة أن البوليس لم يعرض صورة المرأة على الرجلين عندما سمع شهادتهما .

وهنا رفع الاستاذ والى ذراعيه فوق رأسه وهتف بانتصار :
ـ يا لهما من شاهدين ! لقد رأيا امرأة أو أخرى تتسكع على أرصفة الميناء . ولكن أى امرأة ؟ كأنما امرأة واحدة هى التى كانت هناك فى تلك الساعة !

ثم أومأ برأسه فخرجت من غرفة الشهود امرأة كان من الواضح أنها من أحط الانواع . وقد قالت المرأة بالفعل ، عندما سئلت عن مهنتها ، انها بغى ، وأن منطقتها أرصفة الميناء ، وأنها فى مساء ذلك السبت ذاته كانت تسير على تلك الارصفة بحثا عن زبون . لكنها لم تجد أحدا . كل من مروا بها من الرجال كانوا بصحبة نساء . فوق أن المنطقة فقيرة للغاية ، وهى لا تعمل فيها الا لان الاضاءة بها ضعيفة لا تظهر الطفح الجلدى الذى يشوه بشرتها .

سألها ريجر : وهل منطقة شبه مهجورة كهذه تعتبر آمنة بالنسبة لامرأة تسير بمفردها ، أليس من المعروف أن تلك الاحياء تعج بالمجرمين وذوى السمعة السيئة . ألا يشكل هؤلاء الناس خطرا ؟
فقالت المرأة :
ـ على من ؟ .. علينا نحن ؟ ..
وقال الاستاذ والى :
ـ النساء هناك لا يحملن نقودا تكفى لاغراء أحد بمهاجمتهن .

فقال ريجر ، متمسكا بما يريد اثباته : نعم ، لكن هناك جرائم قتل تقع فى تلك الاماكن أيضا ، لاغراض أخرى غير السرقة . فقالت الشاهدة : آه ، لكن ذلك خطر نتعرض له فى كل مكان . سألها ريجر ، مستميتا : ما هو الموقف حاليا فيما يتعلق بالمنافسة بين المومسات ؟ ألا يوجد بينهن قدر كبير من الحسد المهنى والتنافس على العملاء ؟ وسألها أيضا : أليس صحيحا أن الفتيات فى تلك الاحياء لا يدققن كثيرا فى اختيار زبائنهن بسبب الفقر ، حتى لو كن يعرفن أنهم قتلة ؟ فقالت الشاهدة :
ـ لكل منا منطقتها .
ـ ولكل منكن ، فيما أظن ، من يهيىء لها الحماية ؟
ـ ربما الاخريات . أما أنا فليس لى أحد .
ـ ولم لا ؟
ـ لانى لا أكسب شيئا يذكر .
ـ أوه ، دعك من هذا . كلنا نعرف أنه حتى الحمارة يمكن أن تحلب . لا تحاولى أن تكذبى علينا هنا . وهؤلاء البلطجية لا يحبون

أن تعتدى واحدة منكن على منطقة الاخرى ، أليس كذلك ؟
ــ ربما ..
فقال ريجر بجعجعة :
ــ هــذه المرأة مارى سوير قتلت فى عراك حول منــاطق النفوذ اذن . كما قالت هذه الشاهدة . ضاقت بها السبل فذهبت الى حى الميناء تبيع جسدها ، لــكنها اعتدت على منطقة ليس من حقها أن تتجر بجسدها فيها . فقتلت .
لــكن وايد لــكزه فى ظهره هامسا :
ــ يا أخى أسكت . دعك من هذا الهراء . كلنا نعرف كيف قتلت المرأة .
ولم يكسب الدفاع شيئا . فقد توصل الاستاذ والى ، محامى بيتشام ، الى أن يبذر بذور الشك فى نفوس الجميع . لم لا تكون هــذه البغى ذات الطفح الجلــدى هى المرأة الوحيــدة التى رآها الشاهدان المختفيان متجهة الى حافة الماء ؟ وما دام ذلك كذلك فما الذى يمنع من أن تكون مارى سوير قد شــوهدت فى مكان آخر بصحبة ماكهيث ، كما شهد مستر ستون الشحاذ وأيده فى ذلك زميله ؟
حــدثت حركة اثارة بين صــفوف الصحافة عنــدما نودى على العسكرى الاعرج فيوكومبى ، الذى ظل مختفيا حتى ذلك الوقت . وقد بادره الاستاذ ريجر بخشونة سائلا اياه أين كان طيلة الوقت ؟ فتولى الاستاذ والى الاجابة نيابة عنه .
ــ كان موضوعا تحت حماية خاصة يا أستاذ . خشية أن يحدث له ما حدث للمرحومة مارى سوير .
روى فيوكومبى للمحكمة بصوت هادىء تجربته مع المرأة الميتة . قال : ان ماكهيث كان قد ضرب لهــا موعدا ، وأنها كانت تنتظر مجيئه عندما تركها فيوكومبى أمام الحانة التى فى حى الميناء ، ولعلها كانت تريد أن تقنعه بأن يساعدها ماليا ، وأنه لا يستبعد أنها كانت تنوى تهديده ، لانها كانت تعرف أشياء معينة عنه .
هم ريجر واقفا وبدأ يستجوب الشاهد :
ــ هل كانت مارى سوير تخاف من المتهم ؟
ــ ماذا تعنى بذلك ؟
ــ أعنى هــل كانت تخشى أن يلحق بها اذى ــ أن يلقى بها فى المــاء مثلا ؟

ـ لاأظن ذلك ، والا لما كانت قد ذهبت لمقابلته .
ـ تماما ، يامستر فيوكومبى ، تماما . والا لما قابلته . اذن فهى لم تقل شيئا يشتم منه أنها كانت خائفة .
ـ كلا .. البتة .

وهنا وقف وايلد البدين ، فسأل الشاهد بصوته « المسرسع » عما اذا كان للمحكمة أن تفهم من شهادته أن المراة مارى سوير لم يكن لديها ما تخشاه البتـة من مستر ماكهيث ؟ وعما اذا كانت المرأة لم تخش ، مثلا ، أن يتخذ اجراءات مالية قبلهـا ؟ فتردد العسكرى السابق لحظة ، ثم أجاب بهدوء :

ـ كانت تخشى ألا يبدى استعدادا لمساعدتها فى عملها . هـذا مدى خوفها فيما يخصه .

فقال مستر وايلد وهو يجلس بسرور واضح من نفسه :
ـ تماما ..

لـكن الاستاذ والى ، الذى انصت لـكل ذلك بابتسامة عريضة ، ما لبث ان قال :

ـ هناك احتمال ثالث . ألا يحتمل أن تكون رغبتها فى الحصول على عون مادى ، أو لنقل حاجتها اليائسة . قد تغلبت على خوفها ، فجعلتها تجازف بالذهاب ؟ لقد سمعنا لتونا من الشاهدة الاخيرة كيف لا تلقى مثيلاتها بالا الى ما يتهددهن من أخطار . أيها السادة : أنا أقف هنا ممثلا ليتيمين بائسين . وبوسعنا أن نستنتج ، بغير جهد ، من شهادة هذا العسكرى فيوكومبى ، أن أمهما لم تظهر اى خوف على حياتها البائسة لانها كانت تقاتل ذودا عن صـغيريها الجائعين .

اعترف ماكهيث عقب ذلك بأن الخطـاب الذى ضرب فيه ذلك الموعد لمارى سوير صـدر عنه ، وقال : انه لم يعرف خط مارى سوير عندما وصله خطاب التهديد بحكاية السكين .

رفعت الجلسة اثر ذلك لتناول الغداء . ذهبت بولى الى زوجها حيث اختلى ، فى احدى حجرات المحكمة ، بمحاميه . لكنهما تركاه واختليا ببعضهما فى أحد الاركان ليتابعا شجارهما حول الخط الذى يتبعه الدفاع : الانتحار أم القتل على يد مجهول أو مجهولين .

تنـاولت بولى مع ماك غداء من السندويتشـات . كانت بعض الاشياء التى قيلت فى الجلسة قد أزعجته كثيرا .سأل محاميه : ما الذى قصده ذلك المأفون والى بسـؤاله السخيف عما اذا كان

أصحاب البضائع قد حصلوا على ثمنها كاملا ؟ قال لهما :
ـ أليست هذه وقاحة منه ؟ ابن الحرام يريد أن يقول أن بضائعى مسروقة . لنسلم بأنى اشتريها من محلات مفلسة . ما دخله هو ؟ حقيقة أن ذلك لا يختلف كثيرا عن سرقتها ، لانى لا أدفع فيها الا جزءا ضئيلا من ثمنها . ولكن أى قيمة لذلك . فتلك الدكاكين المفلسة التى أشترى منها ليست هى المصانع المنتجة . وأصحاب المصانع أيضا لا يحصلون الا على جزء من الثمن . ولكن هذه هى طبيعة الاشياء . والا لما حقق احد ربحا من أى شىء . تريدان الحق ؟ لا أستطيع أن أرى فرقا يذكر بين سرقة تلك البضائع وشرائها . وهذا الملعون يحاول أن يثير تلك المسألة ضدى . يريد أن يؤلب المحكمة على !

وافقته بولى الرأى فى كل ذلك . كانت قد أصبحت رائعة الجمال فى الاسابيع الاخيرة . فطيلة الصيف وهى تستحم فى البحر وتستمتع بحمامات الشمس فى أماكن غير مطروقة بطبيعة الحال ، بسبب الحمل . لكنها اكتسبت سمرة أخاذة ، وباتت شهية بحق ، سريعة التأثير فى كل من يراها . ولم يكن ذلك خافيا عليها .

عندما استؤنفت الجلسة ، استدعى الاستاذ والى فانى كرايزلر للشهادة .

حول عينيها كانت هالات سوداء . وقد بدا اضطراب أعصابها واضحا . كان ضياع دكان العاديات منها صدمة أصابتها فى الصميم قالت فى شهادتها أن المرأة الميتة طلبت قرضا من مستر ماكهيث اكراما لما كان بينهما فيما سبق .

ـ لكنها هددته فى تلك المقابلة ، بمحضر منك ، بافشاء أشياء معينة تعرفها عنه ؟

قالت الشاهدة بسرعة :

ـ لعلها كانت تعنى ظروف زواجها . فقد كانت لمستر ماكهيث يد فى ذلك ، ولعله لم يكن يحب أن يذكره أحد بمسئوليته عنها .

باغتها والى بالسؤال فجأة :

ـ ما الذى تعرفينه عن « السكين » ؟

فامتقعت بطريقة واضحة تحت نقابها ، لكنها قالت بحزم :

ـ لا شىء . اللهم الا ما قرأته فى الصحف .

ـ لكن مارى سوير هددت المتهم بفضائح معينة ، وذكرت فى الوقت ذاته حكاية « السكين » .

لكن فانى كانت قد استعادت تحكمها فى نفسها ،فقالت بغير اكتراث:

ـ لا أستطيع أن أذكر الآن . قالت يومها أشياء فارغة كثيرة ، لانها كانت منفعلة للغاية ومقتنعة بأنها ضحية ظلم كبير . وانى واثقة بأن سلوكها لم يضايق مستر ماكهيث الا لانها حاولت ان تستغل علاقتها السابقة به .

هم وايذ واقفا فجأة وسأل الشاهدة أن تنور المحكمة فيما يتعلق بظروف مارى سوير المالية .

ـ لم تكن ناجحة تماما فى ادارة دكانها . لـكنها لم تكن ، بكل تأكيد ، أسوأ من غيرها من أصحاب الدكاكين . فالـكساد سائد فى هذه الايام .

سألها الاستاذ وايذ بلهجة جافة :

ـ هل أنت من مستخدمات المتهم ؟

ـ نعم ..

وهنا تدخل الاستاذ والى فى المناقشة ساخرا ، فقال :

ـ هل يود الدفاع ان يقدم شهودا لا يعرفون عن المتهم شيئا لأنهم لا يعملون في خدمته ؟

لم يجد الاستاذ وايذ ملاذا الا الجعجعة ، فقال مجعجعا :

ـ يبدو أن زميلى العلامة يعتقد أنه لم يعد فى انجلترا انسـان شريف واحد يقول الحق بصرف النظر عن الاعتبارات المادية . وأود أن أعبر عن مزيد حزنى لذلك .

فسأله الاستاذ والى ، وفى صوته نبرة تشفٍ :

ـ حزنك لاى شيء ؟ لانه لم يعد هناك أناس شرفاء ، أم لانى لا أعتقد فى وجودهم ؟

لـكن القاضى تدخل فى تلك اللحظة فاستبعد السؤال .

استدعى والى للشهادة بعد ذلك رئيس تحرير مجلة «العاكس» . وعنـدما روى الشـاهد للمحكمة تفاصيـل الزيارة التى قامت بها المرحومة لمجلته واتهمت مستر ماكهيث خلالها بأنه القـاتل المدعو « بالسكين » ، هب ريجر واقفا ، وقد بدا له أنه مسـتطيع أن يستغل تلك الفرصة الى أقصى حد . قال بلهجة يقين :

ـ هذه الشهادة كافية لان تثبت لاى انسان على درجة كافية من الذكاء ، أى لاى انسان لا يقرأ الصحف ، الطبيعة الواهية للأسس التى قام عليها الادعاء فى هذه القضية . اذن فمستر ماكهيث هو « السكين » ! اذن فعلينا أن نصدق أن رجال أعمالنا العظام يدبون فى الليل ويذهبون فيسرقون الخزائن ! أيها السادة : كلنا نعرف الى

أي حد يمكن أن يدفع الحسد أهله الى الظلم والافتراء . لـكن يجب أن يكون لـكل شيء حدود ! فالادعاء في هذه القضية يقوم على القول بأن مستر ماكهيث ، احد المرموقين القلائل من رجال الاعمال العظام في هذا البلد ، ليس رجل اعمال بالمرة ، وأنه مجرم ، وقاتل ، وقاطع طريق ! بغير هذا الافتراء لا تقوم للادعاء قائمة لان المستر ماكهيث لا يكون لديه ما يخشاه من فضائح تتهدده بها امرأة لن نقول شيئا عن سيرتها لانها ماتت ، يرحمها الله . هل هناك سخف صبياني يفوق هذه الافتراءات سخفا ؟

قال ذلك وجلس بانتصار . فالتفت الاستاذ والى الى المتهم ، وسأله :

ــ يا سيد ماكهيث : على ضوء ما قاله الدفاع ، كيف تفسر لنا التهديدات التي وجهتها ماري سوير اليك ؟

قام ماكهيث من مقعده متباطئا وقد بدا عليه الحرج ، فقال :

ــ أعترف انه من الصعب علي أن أتحدث في هذا الموضـــوع . والحقيقة أني لن أستطيع أن أفعل ذلك الا على سبيل المصارحة لرجال مثلي يفهمون هذه الامور . وما دمنا نلتزم الصراحة الواجبة بين الرجال ، فاني أسلم بأني لا يمكن أن اعفي نفسي من اللوم تماما. ولعله يوجد بين حضراتكم من يستطيع أن يغبط نفسه لـكونه قد التزم الاصول دائما في معاملته للنساء ، فلم يتملص مرة من مسئولية قبلهن ، أو يسبب لهن ألما ، ولو عن غير قصد . لـكني أنا ــ بكل أمانة ــ لا أستطيـع أن أقول ذلك عن نفسي . وأحب أن أؤكـد لحضراتكم اني لم تكن بيني وبين تلك المخلوقة سـيئة الحظ التي عرفت باسم ماري سوير أية « علاقات » بالمعنى الذي يرمي اليه الناس حين يستخدمون هذه الـكلمة . وأقول سـيئة الحظ لانها ماتت قبل الاوان ، اما على يد مجـــرم آثم ، أو بيـــدها هي ، كما يميل محامي الاستاذ وايذ الى الاعتقاد . ولـكن المسـألة ليست هذه . المسألة هل كانت تلك المسكينة منشغلة بي ؟ كنت منها بمثابة رب العمل ، ولعلي قابلتها مرة أو مرتين ، وقد أكون بغير وعي مني ، وبدون قصد ، قد أيقظت في صدرها آمالا من تلك التي تتعلل بها النساء . أي واحد من حضراتكم ، لو كان مكاني ، يمكن أن يعفي نفسه من وزر خطيئة غير مقصودة كهذه اذا كان نشاطه اليومي

يضعه فى مثل هذا الموقف ؟ كلكم تعرفون بغير شك كم يصعب على رب العمل أن يحافظ على المسافة الكافية بينه وبين العاملين فى خدمته دون أن يتعدى حدود اللياقه معهم فيسىء الى أحاسيسهم فيشعرهم بأنه يتعالى ،لا سمح الله عليهم ؟ ومنذا الذى يطاوعه قلبه على لوم أولئك الفتيات العاملات وهن يقضين معظم ساعات النهار فى عمل مضن فى سبيل لقمة العيش ، بغير ترفيه أو متعة تذكر ، اذا ما تصورن أنهن واقعات فى حب رئيسهن الذى ينتمى الى الطبقات العليا ، ويتمتع بما لا يتمتع به من يخالطنهم من الرجال عادة من ثقافة وتهذيب ؟ ومن هذه النقطة الحساسة التى لابد لاحد فيها ، الى الآمال الحمقاء الصغيرة التى تستكن داخل النفس ، الى خيبة الامل المرة التى لا بد لاحد فيها أيضا ، مسافة قصيرة للغاية . سأكتفى ، ان سمحتم لى حضراتكم ، بهذا القدر ، فلا أزيد عليه شيئا .

أبرزت معظم صحف المساء هذه الخطبة بالبنط الاسود . واجمع الكل على تقريظ هذا الموقف « الانسانى » المهذب من جانب صاحب محلات حرف «ب» . صحيفة واحدة فقط هى التى شذت عن هذا الاجماع فأقذعت السباب لنابوليون دكاكين حرف «ب» . لكن تلك كانت صحيفة بروليتارية لا يأخذها أحد مأخذ الجد ، خاصة وانها لم تظهر اى روح « رياضية » ، فأنكرت على خصمها الطبقى ، مستر ماكهيث ، أى صفة حميدة ، فوق أنها كرست معظم صفحاتها بتلك المناسبة للمطالبة — فى حماس ملتهب — بالقضاء قضاء مبرما ، باستخدام القوة ، على النظام الاجتماعى الذى ينجب أمثال مستر ماكهيث المسكين .

لكن خطبة مستر ماكهيث ، رغم نجاحها المدوى فى مجال العلاقات العامة ، لم تكن القول الفصل فى القضية . فقد تركه الاستاذ والى السمين يقول كل ما عنده ، ثم قال له وهو ينظر الى القاضى نظرة ذات مغزى :

— آه ، لكن مسز كرايزلر قالت فى شهادتها أنك كنت تأخذ تلك العلاقات مأخذا جديا الى حد أنك أعطيت مسز سوير نقودا .

كان القاضى رجلا صغير الحجم ، من ذلك الصنف الناشف من الناس الذى يحب — تعويضا لضآلة حجمه — ان يتظاهر بالصلابة ، وبأنه لا يدع شيئا أو خطبة بليغة تؤثر فيه . نظر ذلك القاضى الى ماكهيث بعد سؤال السيد والى وكأنه يتوقع ان يتلعثم المتهم ويرتبك

لـكن ماكهيث أجاب دون تردد :

ــ بوسعي أن أقول ان المرء قد يعطي مالا ، في ظروف بعينها ، دون أن يكون ذلك تحت تأثير التهديد ، أو حتى رغم تعرضـه للتهديد ، اذا كان طالب المال في ضائقة حقيقية . لـكنى لا أقول ذلك . كل ما أقوله هو أنى بذلت كل ما فى وسعى لمنع أشيـاء كزيارة تلك المرأة سيئة الحظ لمجلة « العاكس » ، ولو أنى فشلت فى ذلك . فأنا ـ كرجل أعمال ـ يجب أن أحترس من أدنى شبهة قد تسىء الى سمعتى . أما مدى اهتمامى بتلك التهديدات فيمكن استنتاجه من كونى تركت المرأة بغير مراقبة ولم أذهب لمقابلتها فى تلك الحانة .

ــ لكنك ضربت لمارى سوير موعداً هناك ؟

ــ نعم ، نعم .. بدافع الشفقة . وبدافع الشفقة أيضـا كنت سأذهب للقائها لولا أن منعنى من ذلك اجتماع طارىء يتعلق بأعمالى ومع ذلك فانى لو كنت اعتـبرت الامر على أى قدر من الجدية لـكنت ذهبت اليها بصرف النظر عن ذلك الاجتماع ، رغم أهميته .

تحفز الاستاذ والى فجأة . واجه ماك قائلا :

ــ ما هى طبيعة ذلك الاجتماع ؟ ان كنت قد حضرت اجتماعا فان لديك دليلا ماديا لا يدحض يثبت بعدك عن مكان الجريمة .

نظر ماكهيث الى محامييه ، ثم قال :

ــ أفضل عدم الخوض فى هذا الموضوع ان لم يكن ذلك ضروريا.

وهنا تدخل القاضى قائلا بجفاء :

ــ قد يكون ذلك ضروريا للغاية .

لـكن ريجر ووايد هزا رأسيهما وطلبا المناداة على أحد شهود النفى : صاحب الحانة التى ضرب ماك موعدا فيها لمارى سوير . قال الرجل : ان المرحومة جلست فى البار ، وانتظرت بعض الوقت ؛ وقلقها يتزايد من لحظة الى أخرى ، وعندما انصرفت أخيرا ، لم ترتد قبعتها بل حملتها فى يدها ، وأضاف أن أحدا لم يسأل عنها فى حانته ، سواء فى تلك الليلة أو فيما بعد .

سأل الاستاذ والى الشاهد ان كان بوسع أحد أن يرى من بداخل الحانة من الشارع ؟ فكان الجواب بالايجاب . وهنا سأل الاستاذ والى ، بدهاء : هل يستطيع من يخرج من الحانة أن يسير فى طريق آخر غير المفضى الى رصيف الميناء ليقابل احدا كان ينتظره وتأخر عن موعده . فكان الجواب بالنفى . لـكن ذلك لم يفت فى عضـد

الاستاذ ، لانه ما لبث أن استنتج ان المتهم لابد قد قابل المرحومة أثناء عودتها الى المنزل ، بعيدا عن الحانة ، فارتكب فعلته الشنعاء .
وفى تلك اللحظة أضيئت مصابيح القاعة ، لان الوقت كان خريفا ، والمساء يحل مبكرا . انتظر والى حتى انتهى الحجاب من اضاءة تلك المصابيح الكروية الضخمة ، ثم استطرد قائلا :

ـ هناك من حاول أن يتساءل فى هذه القاعة ، بخفة دم حقيقية ، كيف تأتى لصاحبة دكان مغمورة أن تهدد تاجرا عظيما خطير الشأن كمستر ماكهيث . ويسرني أن أستدعى الآن شاهدا قد يكون بوسعه أن يوضح لنا كيف تأتى ذلك .
تقدم الى مكان الشهود سيد حسن الملبس له ذراعان طويلتان مدليتان الى جانبيه ، تبين من سؤاله أنه صانع أحذية يقطن المنزل المقابل لدكانة مارى سوير . قال : ان المرأة المسكينة قالت له ذات مرة أنها تعرف المصدر الذى تأتى منه بضائعها التى تباع برخص التراب ، وقال أيضا : أنها قالت ذلك بلهجة لم تدع مجالا للشك فى أنها تعرف أن تلك البضائع تأتى من مصدر خاص ومريب .
وهنا هب ماكهيث واقفا ، يريد أن يرد من فوره ، لكن ريجر شده من كمه ، ووشوشه فى أذنه ، فجلس ثانية ، وطلب ريجر رفع الجلسة قائلا : انه يريد أن يقنع موكله الذى أتعبه كل ذلك الكلام الكثير أن يصارح المحكمة بدليل براءته ، فيريح ويستريح. فوافق القاضى .
لكن ماك لم يكد يغادر قاعة المحكمة حتى قال لمحاميه بلهجة قاطعة أنه ليس فى موقف يسمح له بالكشف عن دليل براءته . فقالا له : ان سلوكه حرى بأن يبدو مريبا للغاية وانه قد يواجه ، فيما يحتمل ، اتهاما بالقتل العمد . كان وايد لايزال متمسكا بفكرة اقناع المحكمة بأن المرأة مارى سوير انتحرت ، ولم يجد ريجر فى نفسه الشجاعة ـ بعد عناد ماك ـ على الاستمرار فى معارضته .

فتحت الجلسة من جديد بعد ربع ساعة ، فأخبر محاميا ماكهيث المحكمة آسفين ان موكلهما ، لسوء الحظ ، ليس فى موقف يسمح له بالكشف عن مكان وجوده ساعة أن ماتت مارى سوير ، وأن صمته راجع الى أسباب متعلقة بأعماله ، فاستمع القاضى الى تلك الاعذار بصمت لا يبشر بخير ، فلما قال وايد ، بأسلوبه المفخم ، أنه ـ فيما يخصه ـ لايراوده شك فى أن المرحومة لم تمت مقتولة بالمرة بل انتحرت ، وأنه سيحاول اقناع المحكمة بذلك ، أكفهر وجهالقاضى .

نودي على شهود وايد ، وتم استجوابهم . كانوا كلهم من أصحاب دكاكين حرف «ب» . وقد طلب منهم وايد أن يوضحوا للمحكمة حالة أعمالهم ، فكأنما واتتهم فرصة كانوا يتحينونها ، اذ قالوا كلهم في نفس واحد : انها حالة كالقطران . وقال واحـد منهم أنه لن يعجب ابدا اذا سـمع أن كل اصحاب الدكاكين بدءوا يشنقون أنفسهم ، خاصة بعد أن توقف ورود البضائع ، لان أحدا منهم لم يعد يعرف له رأسا من قدمين . وهنا شكره الاستاذ والى ، الذى أغتنم الفرصة وحشر نفسه في الامر بسوء نية ، وطلب سماع شهادة بعض جيران مارى سوير ، فلما صرحت له المحكمة وجه اليهم هذا السؤال :

– هل تعرفون أى شيء عن أعمال المرحومة مسز سوير ؟

قالوا : نعم ، بالقدر الذى يمكن أن يعرفه أحد عن أحوال جاره

قال : وهل كانت صاحبة دكان محنكة ؟

قالوا : كانت شـغالة .

حريصة على النقود ؟

ليس بوجه خاص ، فكلما أعسر احد كانت تدعه يأخذ ما يريد من دكانها دون أن يدفع .

آه . لم تكن على درجة كبيرة من الكفاءة ، بالمعنى المألوف للكلمة ؟

يعنى ! كانت حرية بأن تعطى المرء زوجا من الجوارب متى أراها جوربه ممزقا . شرط أن يقصدها عندما يكون الجو ممطرا .

كذا ، كذا . اذن فهى لم تكن ما يمكن أن يسميه المرء سـيدة أعمال حريصة ؟

وهنا سكت الشاهد .

فقال الاستاذ وايد بتؤدة .

– ان كانت ميتة هذه السيدة سيئة الطالع ، كما نعتقد ، ميتة اختيارية ، فان شهادة هؤلاء الشهود لا يكون لها وزن فى القضية خلا تعزيز الحكمة التى يمكن أن نتعلمها من مأساتها وهى الى حد يمكن أن يفضى الـكرم وطيبة القلب بصاحبهما الى التهلـكة .

فابتسم القاضي ولم يقل شيئا .

وهنا ظهرت فى مقعد الشهود سيدة عجوز استحثها الاستاذ وايد قائلا :

– خبرينا بالله ياسيدتى بما قالته لك المرحومة عن كيفية تملكها لدكانها .

تمخطت السيدة العجوز بقوة لافتة للانظار فى منديلها ، ولعل دافعها الى ذلك كان الرغبة فى لفت الانظار الى منديلها الاحمر ، ثم قالت :

ـ يمكنك أن تقول انها حصلت على دكانها هدية ، بغير مقابل !

ـ كنت أعتقد انها اشترته . دفعت فيه بعض المال على الاقل .

ـ قليلا من المال . ولعلها لم تدفع قليلا ولا كثيرا . فزوجها من جنودنا البواسل كما تعلم .

ـ لكنها كانت تحتكم فى قدر ضئيل من المال. وقد دفعت ذلك.

ـ هكذا قالت !

ـ خبرينى .. كم كان معها ؟

ـ ثمانية عشر أو تسعة عشر جنيها فيما أظن . ام يكن معها أكثر من ذلك بكل تأكيد .

ـ لكنها كانت تحتكم فى ذلك القدر من المال ، وقد استثمرته فى الدكان . أليس كذلك ؟

ـ استثمرته فى تجميل غرفة الجلوس. كانت تريد أن تكون الغرفة جميلة من أجل الاطفال . تريد الحق ؟ كانت حمقاء . أى امرأة عاقلة تنفق مثل ذلك المبلغ على المظاهر وهى فى مثل تلك الضائقة التى كانت فيها ؟

ـ وهكذا فاننا نستطيع أن نستنتج أن مسز سوير وجدت نفسها مهددة بضياع المبالغ التى أنفقتها على ديكورات غرفتها اذا ما اضطرت الى ترك الدكان بسبب الايجار المتأخر أو البضائع التى لم تدفع ثمنها ؟

ـ طبعا . يمكنك أن تستنتج ذلك بنفسك ، بغير عون من أحد.

ـ عظيم . وما الذى كان بوسعها أن تفعله ؟

ـ لا شىء طبعا .

ظلت المرأة ممسكة بمنديلها الاحمر طيلة الوقت كأنما تتأهب لاستقبال عطسة قد تأتى فى أى لحظة ، لكنها طبقت المنديل أخيرا ، ولم تعطس .

استمرت اجراءات المحاكمة ، بطيئة ، باعثة على الملل . تم استجلاء تفاصيل عديدة ، لكن ذلك لم يؤد الى ظهور أى جديد . عندما سئلوا عما يعتقدون أنه السبب فى حالة الكساد التى حلت بدكاكين حرف « ب » ، اتفق رأى عدد كبير من أصحاب الدكاكين على أن السبب فى ذلك هو انخفاض الاسعار . وبدا واضحا أن الآراء مجمعة على أنه

من المستحيل اعطاء أسباب لذلك الانخفاض . فهو شيء أشبه بالمطر ينزل في هذا العام ولا يسقط في ذاك ، وأي انسان عاقل يخطر له ببال أن يبحث عن السبب في هذا ؟ من المؤسف طبعا ان تدفق البضائع توقف ، لكن لعل السبب في ذلك أنه لم تكن قد عادت هناك بضائع رخيصة السعر يمكن الحصول عليها . وقد حاول مستر ماكهيث جاهداً أن يحصل على كميات جديدة من البضائع ، احساسا منه بمسئوليته تجاههم ، لأنه هو الذي استحثهم على استخدام مساعدين بمحلاتهم ، والاعلان عن بضائعهم حتى تباع بطريقة أسرع ، لكنه — لسوء الحظ — لم يوفق في ذلك ، لأن المنظمة المختصة بالمشتريات في شركته لم تقم بواجبها تجاهه ، فخذلته وخذلتهم .

قام الاستاذ وايذ أخيرا — وقد لزم زميله الاستاذ ريجر صمتا حميدا فجأة — فأخذ يلقي مرافعته الختامية ، مجملا فيها كل أسانيده على نظرية الانتحار . قال الاستاذ :

— ماري سوير لم تكن بحاجة الى من يقتلها . كانت مقتولة جاهزة . كل من يعرف ظروف الحياة التي كانت مرغمة على أن تحياها ، لا يجد في موتها لغزا غامضا يصعب حله . وكل من جرب ذلك النوع من الحياة ، حياة صاحبة الدكان المعسرة ، الكادحة ، يعلم أنه لا مهرب من أن تحل لحظة تقول فيها من ترغمها الظروف على مثل هذه الحياة كفى ! خلصونا ! ويعلم أن الامر لا يحتاج لكبير عزيمة كيما تضع مثل تلك المرأة حدا لحياة هذا شأنها . ولنتصور الاسابيع الاخيرة في حياة ماري سوير ، والديون قد استحكمت حول عنقها ، وأرغمتها على أن تواجه حالتها الميئوس منها . مثل تلك الحياة ، كحياة كثيرين غيرها ، لم يكن فيها ما يغريها بالاستمرار في العيش . ويكفي أن يلقي المرء نظرة على الجحر الذي كانت تقطنه تلك المرأة (وانا أتجنب استخدام كلمة « منزل » عمدا ، ولا أعتقد أن هناك بين حضراتكم من يستطيع — بأي قدر من التجاوز — أن يستخدم تلك اللفظة في وصف مكان كذلك) أو لينظر المرء الى أطفالها ! كلا . لا حاجة به الى ذلك ، يكفيه أن يزنهم ! وليتصور المرء ، مجرد تصور ، أن تقضي عليه الظروف أن يعيش حياة كهذه . ولا يتصورن أحد أنها كانت قادرة على أن تأخذ اجازة ، ولو ليوم واحد ، من تلك المعيشة التعسة ! وحتى في ذلك الجحر ، لم تترك في سلام ! حتى على ذلك الباب تابعتها طرقات المحضر ! كلا أيها السادة . لم تكن ماري سوير بحاجة الى أن يقتلها مستر ماكهيث ، ماري

اخذت حياتها بيدها • وحتى اذا وجد من يعترض على هذا الكلام فيقول أن ماری كانت دائما متعلقة بالحياة ، فانه يظل بوسع من يتمسك بنظرية الانتحار مثلى أن يفحم مثل هذا المعترض بقوله أن ذلك قد يكون صحيحا ، لكن هموم الاعمال ، وربما خيبة الامل الشخصية التى انتابتها عندما تبينت أن مستر ماكهيث لن يتمكن من أن يمد لها يد العون ، قد تكون - مجتمعة - السبب فى القضاء على تعلقها المزعوم بالحياة • ولا عجب ان كانت قد حاولت أن تحمل ماكهيث وزر ذلك كله ، ربما عن اقتناع بأنها محقة فى نقمتها عليه • فالاصاغر فى دنيا الاعمال ليست لديهم أية معرفة دقيقة بالقوانين التى تحـــكم التجارة ومعاملات السوق • ولذلك فانهم يميلون فى معظم الامر الى القاء تبعة مصاعبهم على عاتق الكبار كلما حلت بهم الازمات ، دون أن يخطر لهم ببال أن أولئك الكبار قد يكونون واقعين ، بدورهم ، تحت رحمة عمليات أخرى ، أشد غموضـــــا وقدرية ، ذات طبيعة اقتصادية • وكل ما يكون ظاهرا أن أزمة ما قد وقعت ، وان الاخوة الاصغر حجما ، والاضعف ، لم يصمدوا أمامها ، فتساقطوا •

تركه الاستاذ والى يسترسل حتى اختلط الامر عليه ، فبلغ نقطة لم يعد مستطيعا بعدها أن يفكر فى شىء يمكن أن يقال •

قال مستر والى ، عندما هم واقفا ، أنه يجد نفســه مضطرا الى تكرار سؤاله السابق الذىسأله منذ ساعة تقريبا ، والذى بدا مستر ماكهيث ، فى معرض رده عليه ، على شفا البوح بدليل براءته الغامض المثير ، ثم عدل عن ذلك فى اللحظة الاخيرة . ثم أضاف أن هنـــاك شائعات عديدة تتردد فى حى المال والاعمال مؤداها أن مصدر البضائع التى تورد الى محلات حرف « ب » ، مصـــــدر مسربل بالغموض • ولقد قال مستر ماكهيث أن تلك البضائع - على حد علمه - تأتى من شركة معينة تعرف باسم م•م•م (مجلس المشتريات المركزى) ، فهل يتفضل مستر ماكهيث ياترى فينور المحكمة قليلا بشىء محدد يقوله عن تلك الشركة ؟

لكن مستر ريجر ما لبث أن هم واقفا ، بعد مداولة قصيرة مع موكله ، فقال كلا ، ان مســتر ماكهيث لن ينور المحكمة . ثم أضاف ان شركة م•م•م ، على أية حال ، شركة محترمة ، مسجلة تسجيلا قانونيا ، يضم مجلس ادارتها عضوا من النبلاء واثنين من الســادة المحامين . ومن الحقيقى أن الشركة ، خلال الاسابيع القليلة الاخيرة ،

لم تتمكن من الوفاء بالتزاماتها قبل السيد ماكهيث • لكن ذلك أمر يخصه والشركة وحدهما ولا دخل لأى أحد آخر فيه ، وبالأخص المحكمة الموقرة ، وانه لم يذكر الموضوع الا لكيلا يتبادر الى ذهن المحكمة أن لمستر ماكهيث يدأ فى الظروف المؤسفة التى عانت منها السيدة مارى سوير مؤخرا • ولقد أفاض زميله العلامة الاستاذ وايذ بما لا يدع مجالا للبس فى شرح الحالة الاسيفة لدكاكين حرف «ب» هذه ، وهو ما يبين أن الدفاع عن مستر ماكهيث لا يحاول أن يخفى شيئا ، فهو يقول صراحة : نعم حالتها محزنة هذه الدكاكين . وهو يقول ذلك عن يقين لان مستر ماكهيث ذاته لا لوم أو تثريب عليه فى شيء من ذلك انما اللوم كله يجب أن يوضع على عاتق شركة م٠م٠م التى توقفت عن التوريد فجأة . وزاد مستر ريجر على ذلك استدعاء شهود أكدوا للمحكمة أن مستر ماكهيث فى ابان الأزمة لم يتقاعس عن مد يد العون الى أصحاب الدكاكين ، وأنه ذهب أليهم فى دكاكينهم، فخلع سترته ، وشمر عن ساعده ، واشتغل معهم !

ولم يكن ذلك هو كل ما قيل فى الموضوع ، لأن مستر ماكهيث ذاته كان لديه شيء يضيفه . قال :

ـ لقد قيل هنا أن حياة المرحومة السيدة مسز سوير كانت حياة قاسية للغاية . وأن الانتحار ، تبعا لذلك ، ليس بمستبعد . وأحب أن أضيف هنا اننا ، نحن أصحاب محلات حرف «ب» ، نعمل بكل طاقتنا ، ولا نرحم أنفسنا ، وأننا فى محاولتنا التى لا تكل لخدمة الجمهور نفرض على أنفسنا عبئا لا يطيقه الا أقوى الاقوياء ، أما الضعفاء فينهارون تحت وطأته . وما ذلك الا لاننا ، حرصا على مصالح الناس ، نبيع بأقل سعر ممكن . ولذلك فان أرباحنا من الضآلة بحيث نضطر الى مواجهة الحرمان . ولعلنا يغلبنا الحماس ، أكثر مما ينبغى ، لمبدأنا الذى لا نحيد عنه وهو تزويد المشترى الفقير المسكين بكل احتياجاته ، وبأفضل السلع ، بأحسن الاسعار . ولا أجد حرجا من الاعتراف هنا أننى أنا شخصيا ، عندما تأزمت الامور فى الايام القليلة الاخيرة ، وبدا أن كل شيء قد بات ضدنا ، كثيرا ما سألت نفسى هل بات بوسعنا أن نصمد ؟ لعلنا سنضطر الى رفع الاسعار ثانية . وصدقونى حضراتكم أن موت هذه السيدة ، التى لم تستطع أن تصمد للمنافسة ، قد أحزننى كثيرا •

رمق القاضي مخبري الصحف ، المنهمكين فى كتابة كل هذا ، ببرود ، ثم ـ بنفس البرود ـ سأل مستر ماكهيث عما اذا كان قد قرر أن يكشف عن دليل براءته الذى يقول بوجوده ، فتلقى جوابا بالنفى ، ورفع الجلسة ، منسحبا من القاعة الى غرفته لينظر فيما تضمنته القضية من أدلة . ولم يطل غيابه ، اذ عاد بعد عشر دقائق لا أكثر ، فنطق بالحكم : احالة المتهم الى محكمة الجنايات ليحاكم بتهمة قتل مارى سوير عمدا مع سبق الاصرار .

امتلأت صحف المساء بأخبار «قضية ماكهيث» ، وشغلت صفحاتها الاولى مانشتات حمراء : « بدأ الغموض ينجلى عن موت مارى سوير» و « أين كان التاجر الثرى بينما عشيقته تقتل ؟ » .

والمصائب لا تأتى فرادى . فقد حمل الاسبوع التالى أنباء مزعجة الى مستر ماكهيث فيما يخص شريكه اليهودى هارون . جاءت فانى كرايزلر لزيارته فى السجن بعد يومين من جلسة قاضى الاحالة وقالت له أن كلا من هارون والبنك التجارى قد أبديا تحفظا غير عادى فى تعاملهما مع شركة م.م.م. مؤخرا ، وأن هارون قد انقطع اتصاله م تقريبا بعد زيارة خاطفة غمغم خلالها شيئا عن « علاقة ما فيما يبدو بين مقتل تلك المرأة التى غرقت وتوقف التوريد » ، وأن أشخاصا مريبين أخذوا يعسون فى الايام الاخيرة حول مخازن الشركة فى حارة رايد ، المظنون أنهم مخبرون خصوصيون يتجسسون على شركة م.م.م. ، وأن جاك أوبر استدعاها الى البنك بالأمس ، وطلب منها فى غير مواربة أن تطلعه على الفواتير الخاصة بالشحنة الاخيرة من البضائع التى سلمت الى محلات هارون .

أصغى ماك لكل تلك الانباء المزعجة بسحنة جنائزية ، ثم فكر قليلا ، وقال لها أنه يتعين عليها أن تحصل على فواتير جديدة ، وأن تتوخى الحيطة فيما تعطيه من ائتمان لعمليات الشراء من بلجيكا .

قالت له فانى وهى تنصرف :

ـ قضيتك هذه اذا طالت أكثر من ذلك ستفضى بنا جميعا الى الخراب . أرجو أن تكون مدركا ذلك .

***

ولم يرد ذكر فى تلك المقابلة لأية مسائل خاصة .

كان ذلك فى الاسبوع الاخير من أكتوبر ، وقد دخلت أعمال كل من السيد بيتشام والسيد ماكهيث مرحلتها الاخيرة .

على رصيف الميناء كانت « أنا الجميلة » و « الولد البحار » ،

و « المتفائل » ،وقد طليت ورممت بقدر ما سمحت أجسادها العتيقة النخرة ، تنتظر اليوم الذى تركب فيه متن المحيط ، بتوجس له ما يبرره ، خاصة فيما يتعلق « بالمتفائل » التى أحست أخشابها العتيقة أن أسابيعها الاخيرة قد حانت . أما مستر بيتشام فكانت رؤاه وردية ، تدور كلها حول ابنته التىتصورها دائما فى تلكالاسابيع الحاسمة (بعد صدور الحكم باحالة ماك الى محكمة الجنايات) فى طرحة زفاف ناصعة تحليها زهور البرتقال ، تتهادى الى مذبح الكنيسة ، مستندة الى ذراع عريسها السيد كوكس . غير أن مستر ماكهيث كان يتصورها فى وضع آخر وظروف مغايرة تماما بغير ثياب أو زهور برتقال ، مع سيد آخر اسمه أوهارا . وبينما هؤلاء يحلمون أحلامهم الخاصة الحميمة ، كانت دكاكين حزف «ب» قد فقدت الامل تماما وزادتها التجارب حكمة . ولم يكن مستر كوكس يدرى أنه لم تعد أمامه صفحات عديدة من يومياته يسودها برموزه الغريبة . وفى ذلك الوقت عينه لم يكن موظفو قلم الكتاب بمحكمة الجنايات يدركون أن تعبهم فى نسخ أوراق قضية ماكهيث بوصفه قاتل المرحومة مارى سوير ، جهد لا طائل من ورائه ، وأن ملف تلكالقضية ليس مقدرا له أنيضم كثيرا منالصفحات الاخرى . أما العسكرى فيوكومبى فلم يكن يدرى أن كل ما بقى أمامه من العمر هو خمسة وستون يوما لا تزيد .

الفصل الثالث

الحياة الحلوة تقوم على الـ ال . اس . دى

أولئك الذين لا يضلهم شيء عن سواء السبيل
فيقيمون حياتهم على النوايا الطيبة .
تلك المشاعر النبيلة التى يتغنى بها كل شاعر ــ
أولئك الأفاضل يخطئون خطأ ما عليه من مزيد .
تجدهم يغمسون اللقمة فى عرق الجبين
ويلوكونها فخورين لأنهم يعملون بالوصية .
حقيقة تحثهم سابعة الوصايا على أن ينسوا تماما
أن طعم اللحم الذ من كسرتهم عديمة المذاق ،
لكننا ، رغم تسليمنا بأن الفضيلة شيء جميل ،
نقول أن الحياة الحلوة تقوم على الـ ال . اس . دى .

فلا ضر أبدا فى أن يفتح المرء عينيه
ويغنم من الدنيا ما يستطيع اختطافه ،
ثم يأخذ حماما ساخنا ، ويلقى فى جوفه ببعض كئوس خمر
يرسخ بعدها أمام مائدة حافلة بالأطايب .
أراك تشمخ بأنفك ؟ أراك تقول وهل هذه حياة ؟
أنت من أولئك الذين لا يعتبرون الانسان انسانا حتى يكدح ؟
أنت من أولئك الذين ينكصون أمام حقائق الحياة ؟
أنت حر ، لكنى أنا ــ شكرا لله ــ لست من هذه الطينة النبيلة ،
والمشكلة بالنسبة الى تحل نفسها بسهولة :
فالحياة الحلوة ياصاح تقوم على الـ ال . اس . دى .

(اغنية الحياة الحلوة)

(١٣)

قرارات ذات وزن

لم يكن مستر بيتشام حريا بأن يسترعى انتباه أحد اذا ما تواجد فى غرفة تضم خمسة أو ستة من رجال الاعمال . كان وجهه ، لاضطراره فى تعامله مع غيره من البشر أن يستميت فى الحساب الى أقرب مليم ، قد اكتسب تعبيرا صبت فيه ملامحه : تعبير رجل الأعمال صلب المراس المتشكك أبدا . ولكن أن يرمق المرء العالم كله من حوله بصرامة وارتياب ، ليس معناه أنه امرؤ ذو ثقة بنفسه . لم يكن مستر بيتشام ، بأية حال ، رجلا ذا شخصية . كان يطوى جوانحه على خوف قوى - ربما كان مبالغا فيه - منشأه سرعة تقلب الظروف الانسانية وافتقارها الى الثبات ، والقسوة التى لا تقيم وزنا لأحد فى خصال المدينة التى يقيم بها ، بل وكل مدينة أخرى . وقد جعله ذلك الخوف سريع التقلب بدوره ، سريع التكيف لكل جديد تفرضه عليه مطالب بيئته . نعم وقر فى أذهان من يعرفونه من أهل مدينته أنه صاحب شركة شحاذة ، لكنه كان على أتم استعداد ، فى أى وقت ، لالقاء شركته بشحاذيها فى أول بالوعة ، بغير تردد ، اذا ما تراءت لعينيه بادرة عمل آخر أكثر ربحا ، وأقل مخاطرة أو حتى أكثر وعدا بثبات واستقرار فى مستقبله . كان رجلا - كما عرفناه - قميئا ، مجففا ، ذا هيئة زرية ، ووجه نكد . لكن هيئته هذه كانت قابلة للتغيير بدورها ، رهن ظروف السوق . فعندما وجد الرجل نفسه فى موقف لا يبشر بخير أو بفرص نجاح لرجل قمىء ، مخيف ، زرى الهيئة ، نكد الوجه مثله ، بات كل من يراه يجده غارقا فى التفكير بحثا عن طريقة ناجعة تحوله الى رجل متوسط الحجم ، تبدو عليه النعمة ، سمح الوجه ما أمكن . فضآلة حجمه ، وجفافه ، وتعاسته ، ونكده ، لم تكن كلها الا ايحاء من جانبه ، واجهة خارجية ترفع متى آن أوان رفعها ، تبعا لظروف العمل ، وتوضع غيرها مـ

ولقد يجد المرء ما يثير الشفقة فى كل ذلك ، لكن ذلك كله كان ــ فى حقيقة الأمر ــ من أسباب نجاحه الذى لا يستهان به . فالرجل كان يمتهن مهنه الاتجار فى البؤس ، حتى بؤسه الخـاص ، حتى تلك اللحظة ، فلا غرو أن نضحت مهنته على مظهره بؤسا . لكن الصروف تغيرت ، ولقمة العيش باتت لها مطالب ودهاليز أخرى ، وكما تغير الثعابين جلودها غير مستر بيتشام جلده تحت وطأة المخـاطر التى بات يواجهها والتى تهددته فى مورد رزقه ، وفى الوقت ذاته ، تحت اغراء الارباح الضخمة التى تراءت لعينيه وراء ذلك التغيير . وهكذا فانه تحول خلال بضعة أسابيع من تاجر شحاذة قمىء مخيف نكد الوجه الى نمر مفترس ، وانعكس ذلك التحول على هيئته ، فانقلبت سحنته خلال الاسابيع الاخيرة ، التى أشرف فيها على « تشطيب » أعمال شركة النقل البحرى لحساب كوكس ، الى سحنة لحيمة ، فظة ، بالغة الشراسة .

عندما قصده هيل ليقترض منه مائة جنيه خسرها فى القمار ، استقبله بفظاظة ، وطرده شر طردة ، ثم استدار الى بقية الشركاء ، الذين كانوا يتلوون شقاء ، فاستدعاهم الى اجتماع جديد من سلسلة الاجتماعات التى لا تنتهى ، فجاءوا كلهم كالنعاج التى تساق الى الذبح . لكن مون الذى كان أكثرهم صمتا واستسلاما هاج فى هذه المرة ، فأعلن العصيان ، قائلا ان روحه قد بلغت حلقومه من هذه الاجتماعات والحمام الذى تعقد فيه ، ثم وقف يستقبل الآخرين وهو يجأر بأعلى عقيرته مستحثا اياهم على عدم دخول تلك الحمـامات المشئومة التى شهدت أسود أيام حياتهم . وهكذا فان اجتماع الشركة الاخير عقد فى مطعم مجاور .

بدأ بيتشام الاجتماع بالتنديد بمحاولات هيل ابتزاز المال منه ، قائلا أنه قد عيل صبره منهم جميعا ، مطالبا باحتساب كافة المبالغ المستحقة على كل شريك تمهيدا لدفعها فورا مع تفويضـه هو ، بيتشام ، فى انهاء العملية كلها بالطريقـة التى يراها ، واعدا اياهم بنهاية موفقة اذا تركوه فى حاله ، ولم يتدخل أحد منهم فى أعماله . فقبل اقتراحه دون معارضه ، وقام هو بعد ذلك بتحصيل المبـالغ المستحقة على كل منهم بلا أدنى رحمة . أخذ من البارون ما يكفى لدفنه الى الابد ، أو ، بالاقل ، لعدة شهور مقبلة ، فى فراش الوارثة الأمريكية ، غير عابىء بخط الدفاع الاخير الذى لجأ اليه الشاب منكود الحظ عندما أعلن مستيئسا أنه لايحب النساء ، وانه ــ فى حقيقة

الامر – مصاب بالشذوذ الجنسى • أما ايســتمان فدفع ما عليه دون أن يحدث الضجة التى أحدثها غيره . ولا غرو ، فقد كان بوسعه أن يفعل ذلك بعد أن رفع ايجار عقاراته التى يؤجرها فى الشمال لمستأجرين كلهم من العمال لم يكن أمامهم الا أن يدفعوا صاغرين والا وجـدوا أنفسهم بلا سقف يظلل رءوسهم • وقد دفع مون هو الاخر ، ولكن بعد أن تكفل به بيتشام بطريقته الخاصة . فقد حرن الرجل فى أول الأمر ، وادعى انه مفلس . لكن جيشا من الشحاذين ما لبث أن حاصر مكاتب المراهنات التى يديرها بلافتات مكتوب عليها أشياء كهذه : « من كان يراهن على الجياد لديه مالٌ – ومن كان لديه مال يستطيع أن يحسن » و « أنا أيضا كنت أراهن هنـــا . انظر ما آلت اليه حالى » • فدفع مون صاغرا : ثمانيمائة من الجنيهات نقدا وعدا ، والباقى كمبيالات •

لكن كراول انهار فى اللحظة الاخيرة .

جاء ذات صباح الى شارع أولد أوك وطلب مقابلة بيتشـــام ، فاستقبله هذا الاخير ، وأخذ يراجع موقفه المالى معه . وفى ختـام الزيارة قال كراول :

– لم يعد أمامى اذن الا أن أطلق الرصاص على رأسى فأخرج من هذه الورطة .

فلم يقل بيتشام شيئا . فقط أعطاه عنوان مكتب كوكس ، اذ بدا له أنه من المستحسن أن يرى هذا الاخير بعض نتائج الاعيبه .

ذهب صاحب المطعم فى عصر ذلك اليوم الى مكتب السمسار بحى المال والاعمال ، فلما استقبلته الفتاة منحوسة الوجه قال لها أن لديه موعدا مع مخدومها ، وأنه سينتظره ، ثم جلس فانتظر ساعتين دون أن يأتى كوكس • والحقيقة أن الرجل لم يكن لديه علم بزيارة كراول ، كما تبين فيما بعد ، ولم يكن قد ضرب له موعدا . وعندما أخذت الفتاة تستعد للانصراف قائلة للزائر أنها مضطرة الى اقفال المكتب ، هم الرجل واقفا ، مغمغما شيئا غير مفهوم ، ثم أولاها ظهره وأخرج من جيبه مسدسا أطلق منه رصاصة داخل فمه . وعلى مكتبه فى البيت وجدت زوجته ظرفا مغلقا مكتوب عليه : « الى زوجتى • يفتح فى تمام الثامنة ، اذا لم أعد . » وعندما فتحت الأرملة الخطاب لم تجد به الا هذه الكلمات : « آسف يا عزيزتى • لقد لحق بى الخراب على أيدى عصابة من المحتالين الذين لا ضمائر لهم • اغفرى لهم • لقد فعلت كل ما فعلت فى سبيلكم • البرت كراول ، صـــاحب مطعم •• »

لكن تلك الفاجعة لم تكن شيئا بالقياس الى المتاعب التى أحدثها العجوز فينى . فلم يكد الرجل يسمع بانتحار كراول حتى قرر أن يدخل المستشفى لاجراء عمليته الشهيرة بغير ابطاء . لكن بيتشام اكتشف ذلك قبل فوات الاوان ، فسارع الى بيت فينى ، غير ان هذا الاخير كان قد ذهب الى المستشفى فعلا ، وأوشك بيتشام أن يضطر الى استخدام قبضتيه قبل أن يتمكن من استخلاص العنوان من مدبرة المنزل ، فلحق بفينى قبل نصف ساعة من الموعد المحدد لاجراء العملية .

كان من الغضب فى حال . لكن فينى هو الآخر اخضر وجهه غضبا، وصمم على أن يطرد مدبرة منزله . أخذ بيتشام يجأر بأعلى عقيرته حتى هرع الى الغرفة كل من بالمستشفى من ممرضات ، فقال للرئيسة :

ــ اسمعى . هذا الرجل لن يدفع لكم مليما لانه مفلس . وهو لم يأت اليكم لاجراء هذه العملية الا لأنه غارق فى الديون الى أذنيه ويريد أن ينصب على دائنيه . وفى جيبى الآن جريدة بها خبر انتحار صاحب المطعم كراول الذى خرج من نفس الورطة بالطريقة عينها التى يريد هذا السيد الفاضل أن يضع بها حدا لمتاعبه ! وصدقينى أن الصحف سوف تثير تساؤلات خطيرة حول تورطكم فى مثل هذه الصفقة . ومن يدرى ؟ لعل بعضهم سيثير الشك فى نفوس القراء باعتبار أن جراحيكم يتربحون من وراء هذه العمليات الانتحارية !

فلم يجد فينى مناصا من دفع تكاليف الاقامة وأجر العملية مقدما، لكنه حصل على بغيته ، وأجريت له العملية التى طالما هدد باجرائها .

وخلال أسبوع من تلك الاحداث كان بيتشام قد توصل الى تقدير دقيق الى حد ما للأسلاب التى ستتمخض عنها عملية احتلاب شركة النقل البحرى .

كانت ميتة كراول ناقوس انذار بالنسبة لماكهيث .

لم يكن ماك غافلا عن شئون حميه . والحقيقة أن فانى كانت قد بدأت ، منذ وقت ، فى تشمم أخبار بيتشام ، بناء على تعليمات منه . فقد تزايد اهتمامه بصفقة مراكب النقل القائمة بين حميه وبين السمسار كوكس ، خاصة بعد أن أخبرته بولى بما قاله لها أبوها من أن كوكس قد دفعه الى حافة الخراب . وقد ألقى انتحار كراول مزيدا من الضوء على خلفية العملية كلها . وعندما استجوب بولى ،

علم منها أن كوكس زار أباها ليلة الحادث ، بعد أن انتحر صاحب المطعم فى مكتبه ، وأنه ظل يجأر فى مكتب أبيها كالمجنون متهما بيتشام بأنه يلعب بذيله ، وأنه يريد أن يقضى عليه • بدا واضحا لماك أن كلا من بيتشام وكوكس مشتبك مع الآخر فى صراع حياة أو موت ، وان لم يبد بنفس الوضوح هل ذلك الصراع دائر بينهما أو أنه قائم بينهما معا وبين طرف آخر •

قرب الظهيرة عادت فانى ، بعد أن جاءته صباحا حاملة اليه الصحف التى نشرت خبر الانتحار . كانت قد قامت بزيارة لبيت المنتحر .

كانت زيارة مجزية ، خرجت منها فانى بوفرة من المعلومات . فقد قابلت أرملة كراول ، وهى امرأة قبيحة ، مخضلة الوجه بالدموع ، فقدت كل قدرة على التحكم فى مشاعرها ، توصلت خلال خمس دقائق لا أكثر الى تحميل العالم كله مسئولية انتحار المرحوم ووزر متاعبها التى لا تحصى .

قصت فانى على ماك متقززة كيف أن المرأة أخذت تصرخ بمحضر من أبيها العجوز :

ـ ما الذى أفعله الآن بهذا العجوز المحطم الذى لا يريد أن يموت ؟ لقد انتهى تأمينه ولم تعد فيه جدوى لأحد .

هز ماك رأسه آسفا لهذه الجليطة ، لكن ذهنه كان مشغولا بما هو أهم • فقد اكتشفت فانى أن شركة النقل البحرى قد أصبحت ، فيما يبدو ، خاضعة تماما لسلطان بيتشام ، وأن الشركة فى موقف حرج للغاية ، وأن كوكس يضع بيتشام تحت سيطرته الكاملة ، أو على حد قول فانى « كما فعلت أنت بالنسبة الى هوثورن » ، وانهم سيحتاجون فى القريب الى مبالغ ضخمة من المال ، خلال أسابيع قليلة على وجه التحديد ، لكن بيتشام قد توصل الى شىء ما رفع عن كاهله ذلك العبء الذى لا يطاق ، فذلك هو التفسير الوحيد لعدم محاولته سحب أمواله من بنك الائتمان الاهلى .

لم يغب عن ماك أن ذلك الشىء الذى قالت فانى أن بيتشام توصل اليه هو تلفيق تهمة القتل له تمهيدا لتزويج بولى من السمسار كوكس ، وأن بيتشام اذا فشل فى ذلك لن يكون امامه الا الوفاء بالتزاماته فى شركة النقل البحرى كالاخرين ، وأن زيارته لبنك الائتمان الاهلى باتت ـ لذلك ـ متوقعة من ساعة الى أخرى .

لم يكن ماك قد عين فى مجلس ادارة البنك بعد ، لكن الاجراءات الخاصة بذلك كانت موشكة على الانتهاء . كل شىء بات متوقفا الان

على كسب الوقت ، وما عليه ، لكى تنجح خطته ، الا أن يبقى على بائنة بولى فى خزائن بنك الأئتمان ويطلق بولى ذاتها ـ ولو مؤقتا . ولا يعنى ذلك أنه سيفقدها ، لانها ما زالت حاملا منه ، وهو ما يكفل له أن تظل مخلصة . وعلى أية حال فانه ، مهما كان الثمن ، يجب ان يتم مهمته .

فى مساء ذلك اليوم ذاته استدعى محامى بيتشام ، الاستاذ والى، وأعلنه بموافقته على الطلاق . كان كوكس لا يزال يزور آل بيتشام ، بل وأخذ يصحب أخته معه فى الآونة الاخيرة ، بحيث باتت العلاقة بين العائلتين حميمة للغاية . وقد انسحرت مس كوكس بكل من مسز بيتشام وابنتها ، فكانت السيدتان تجلسان مستغرقتين فى لعب الورق ، بينما بولى تطرز لوحة تمثل انتصار لورد نلسون فى موقعة الطرف الأغر ، وفى المساء يأتى السمسار ليصحب أخته الى البيت ، فيجلس مع السيدات بضع دقائق ، ولا معدى من أن يطلب الى الخوخة أن تسمعه قطعة على البيانو ، فتعزف له وتجيد العزف، فوق أنها حسنة الصوت ، وكماها المصنوعان من التل ينحسران عن ذراعيها وهى تعزف ، فيستطيع المرء أن يشبع عينيه منهما حتى المرفق .

كلما نظر اليها كوكس وهى تعزف على البيانو ، استطاع أن يفهم الاسباب التى دفعته ذات يوم الى التفكير فى الزواج منها . فهى فتاة ذات صفات عظيمة .

كتب فى يومياته ، مناقشا نفسه : « هل يجب أن تتأثر مشاعر المرء تجاه فتاة لمجرد انها استسلمت له مرة ؟ وما قيمة تلك المرة اليتيمة المؤسفة المنقوصة ؟ لم لا أفكر فى ذلك النزوع الداخلى المسيطر الذى يجد اشباعه الاعظم فى اخضاع المرأة ، فى غزوها غزوا كاملا ؟ علام ذلك الفتور اذن بعد تملكها مرة ؟ وهو ما يحسه المرء حتى ولو لم تكن الفتاة عذراء ! ليست البكارة اذن هى المحك بل شىء آخر . هل ينبغى للاعتبارات الاقتصادية البحتة أن تلعب دورا فى حياة المرء الروحية ؟ هل ينبغى لى أن أتأثر داخليا ، روحيا ، لكون الخوخة لم يعد من المستطاع التفكير فى اتخاذها زوجة بعد أن خسر أبوها كل هذا المال ؟ أنا طبعا المسئول عن تلك الخسائر .. لكن لعل الغريزة لا تقيم وزنا للعلل والاسباب ، فتنصرف دائما الى الوقائع .. وعلى أية حال ، فشعورى الان شعور غربة كاملة ، كأنها لا تعرفنى ولا أعرفها .. »

لو وقف مستر بيتشام على هذه المشاعر لانتابه ذعر . لذلك تعين اخفاؤها عنه • وقد اخفاها السيد كوكس ، فتتابعت باقات القرنفل التى دأب على اهدائها للأسرة وكبرت من يوم الى يوم •

وفى أواخر سبتمبر علم أن ابنة السيد بيتشام متزوجة ، منذستة أشـــهر من شخص يدعى ماكهيث ، فدهش كثيرا ، لكنه لم يقـل شيئا ، واختزن تلك المعلومة لكى يستخدمها مستقبلا .

ثم كانت حادثة انتحار كراول ، وبات لدى كوكس سبب جيـد مشروع لكى « يلوى بوزه » •والحقيقة أن حادث الانتحار سبب له مضايقات لا يستهان بها . فقد كان ، لأسباب تتعلق بالعمل ، عضوا فى ناد محترم للغاية ، فلما نشرت الصحف أنباء تلك الحادثة غير المستساغة التى وقعت فى مكتبه ، وجد نفسه مضطرا الى الاستقالة. والادهى من ذلك أن اسمه بات مهددا بأن يتردد علنـا فى فضيحة السفن النخرة اذا ما أطلق انتحار ذلك المأفون مثل تلك الفضيحة من عقالها .

على أية حال ، هيأ انتحار كراول لصاحبنـا كوكس عذرا ظل يتلمسه طويلا ليقطع ما بينه وبين بيتشام . لكنه استمر فى زياراته لمسز بيتشام وابنتها ، وما على بيتشام الا أن يطمئن نفســه فيما يتعلق بنوايا كوكس المستقبلة من اسـتمرار تلك الزيارات الودية لنسائه . غير أن عمال أرصفة الميناء ما لبثوا أن أضربوا ، فجمعت المصلحة المشتركة بين الرجلين من جديد •

كان بيتشام قد لجأ الى أكثر من حيلة لتخفيض أجور العمال ، واستمرأ ذلك ، حتى فوجىء ذات صباح بخمسة فقط من العمـــال الذين يبلغ عددهم مائتين يحضرون للعمـل على السفن ، بينما وقف الآخرون أمام أبواب الارصفة ليمنعوا غيرهم من عرض خدماتهم •

كانت تلك مفاجأة مزعجة ، بل خطرة . نعم من الممكن تأجيـل موعد تسليم السفن بسبب الاضراب ، لـكن كوكس ، الذى جعلته تلك المصاعب المشتركة يجنح الى شىء من اللين ، صارح بيتشام أن رغبة الحكومة فى شراء سـفن لنقـــل الجنود من شركة النقـــل البحرى ليست حارة ، وان الحكومة ــ فى حقيقة الامر ــ لديها ما يكفيهـا من السفن ويزيد ــ وكل ما فى الامر أن هيـل كان قد اكتشف أن الدوائر العليا لا مانع لديهـا فى الحصـول على بعض سفن اضافية ، فرتب أموره بحيث يطبخ هذه الصفقه ، وأنه ، عندما تم توقيع العقد ، اتفق مع بعض أصدقائه فى وزارة الحربية

ـ منعا لاية أسئلة محرجة عن الداعى الى التعاقد على تلك السفن ـ على تخصيص شحنة من الجنود العائدين الى الوطن للسفن الجديدة المشتراة من شركة النقل البحرى ، وأن تلك الشحنة من الممكن طبعا أن تنقل بوسائل أخرى ، ومن رأى كوكس أن هيل هذا شخص لا خلاق له ، وانه قد يلجأ ـ فى اية لحظة ـ الى الابتزاز منهم .

لهذا سارع بيتشام ، فقام بحملة واسعة ، بذل خلالها كل ما وسعه من جهد ، لاستئناف العمل على السفن الثلاث . وقد بدأ تلك الحملة ، متسترا وراء بعض الهيئات العامة المنافحة عن الصالح الوطنى ، فندد « بأساليب الابتزاز البروليتارى التى لا تتورع عن استغلال محنة الامة » . ولما كان الشىء بالشىء يذكر ، فان التداعى المنطقى انتهى به الى التفكير فى العسكريين ، وللفور بدأت ورشته تنتج الملابس العسكرية بالمئات ، وبأقصى سرعتها . فقد وضع خطة مظاهرة يقوم بها مئات من « المحاربين القدماء » ، و « ضحايا الحرب » من الابطال ضد العمال الخونة المضربين ، آخذا فى اعتباره التأثير العميق الذى سيحدثه اشتراك جرحى الحرب من الجنود فى مظاهرة كهذه دفاعا عن صالح الوطن ، خاصة متى حصلت المظاهرة على تغطية صحفية متخصصة

فى قلب هذه الدوامة من الخطط والانشطة ، انفجرت الانباء التى حملها الاستاذ والى عن استعداد ماكهيث لقبول الطلاق ، بحيث بدا كما لو كانت ورطة مستر بيتشام الرهيبة على وشك الانتهاء ، بالتوصل الى التحالف الذى طالما سعى اليه مع مستر كوكس ، ووضع حد لهذه النكبة التى ظلت تهدده طيلة الشهور الثلاثة الاخيرة

لكنه لم يهنأ طويلا بانتصاره ، لانه عندما حمل تلك الانباء المفرحة الى ابنته ، أجابته وهى تغلى غضبا :

ـ أى طلاق يا رجل يا مجنون ! أنا حامل !

فطاش صوابه . غير أنه ما لبث أن صاح فى وجهها :

ـ لكنك مع ذلك ستطلقين . ستطلقين وستذهبين الى طبيب من فورك ! أتظنين أنى سأدع الخراب يحيق بى من أجلك ومن أجل شهواتك الدنيئة ؟ أنا أيضا لى مشاعر مثلك ، ولن ادع أحدا يدوسنى بقدميه . فاذا ركبت راسك سأذهب الى فراشى ، وادير وجهى الى الحائط ، فأدع كل شىء يذهب الى الشيطان ، وسرعان ما تجدين نفسك أنت وأمك فى ملجأ المعوزين !

كان قد حزم امره ، فانطلق فى طريقه لا يعوقه شيء ، غير ناظر يمنة أو يسرة ، ذاهبا الى غايته ككلب صـــيد التقط أنفه رائحة الفريسـة .

لـكنه كان مخطئا . لم يكن يعرف .

ولعله كان حريا بأن يغير مخططاته من اساسها لو علم أن السمسار يعلم بأمر الزيجة التعسة التى انساقت اليها ابنته الحمقاء ، ولو علم أيضا بأن تلك الابنة الفاسدة قد أطفأت شهوة الملعون كوكس اليها ، فنامت معه فى آخر زيارة قامت بها لمنزله . لـكنه لم يكن يعرف .

فى تلك الامسية ذاتها زارت بولى زوجها فى السجن .

هدأ ماك من روعها ، وقال لها أن الامر كله مناورة للخروج من مأزقه ، وأن اجراءات الطلاق تستغرق وقتا ، فهو لا يتم بين يوم وليلة ، فوق أنه لا توجد محكمة تحكم به اذا ما كانت الاسـباب واهية ، وبذلك يمكن تدبير الامر بحيث ترفض المحكمة طلب الطلاق فى اللحظـة الاخيرة ، لـكن لا معدى الآن من الموافقـة على بدء اجراءات الطلاق تنفيذا لرغبة أبيها الذى يضيق عليه الخناق بعنف بعد ان تمكن منه واوقعه تحت رحمته تماما . قال لها مستفظعا

ـ انه يستطيع أن يشنقنى ! ولسوف يفعل ، بلا أدنى تردد . أنت تعرفينه !

وهنا قالت بولى أنها مضطرة للذهاب الى طبيب يجهضها ، فقد اعترفت لابيها فى غمرة اضطرابها ، عندما باغتها بنبأ موافقته على الطلاق ، بأنها حامل .

ذعر ماكهيث لهذا النبأ . لم يعمـل حسابا لشيء كهذا . قال بصوت مختنق ، دون أن ينظر الى زوجته ، ان ذلك شيء لا يمكن التفكير فيه بطبيعة الحال ، فهو لا يستطيع أن يضحى بطفله ، اللهم الا اذا كان ذلك لا مهرب منه .

والحقيقة أن الامر أزعجه كثيرا . فقضى نصف ليلته مؤرقا بعد ذهاب بولى . لم يكن مجردا من غريزة الابوة ، وقد فرح قلبه كثيرا عندما علم أنه سيرزق بابن . والآن يريدون أن يحرموه من ابنه . هذا ظلم . قال ذلك لنفسه ، واستسلم لتأملاته المحزونة حتى أحس وهو موشك على الاستسلام للنوم أنه بكل ما فعله ويفعله ، يمثـل بطولة الجنس كله فى الدفاع عن الاجيال القادمة التى يمثلها ابنه ، فهو طبعا لم يقدم على هذه المغامرات كلها الا من أجل ذلك الابن .

قال لنفسه :

ـ أما والله ! ما جدوى هذا العناء والتعب كله طالما كان مقضيا علينا بأن يأخذنا الموت وينتهى أمرنا فلا يعود يذكرنا أحد ، ولا يعود هناك من يواصل ما بدأناه من عمل ؟ لماذا أجد نفسى سجينا فى هذه الزنزانة ، ان لم يكن ذلك من أجل ابنى ؟ أى شىء آخر يمكن أن يمنحنى القوة على الانتصار ؟ سوف آخذ يده الصغيرة فى يدى ، ونسير معا للتفتيش على الدكاكين التى ستصبح ذات يوم ملكا له ، وسوف أقول له : انظر يا ابنى . كل هذا تكلف كثيرا من التعب والشقاء ، لا تنس هذا أبدا ! لقد تصبب أبوك بدل العرق دما حتى يكون لك مثل هذا الميراث . لم يكن أبوك يعمل من أجل نفسه فقط . لكنه لا يطلب منك عرفانا ولا شكورا ، كلا ، كلا . انه لا يقول لك شيئا من كل هذا الا لكى يجعلك تدرك أننا ، أنت وأنا تربطنا معا روابط كثيرة . سوف يموت أبوك عندما يأتيه أجله ، واذ ذاك سوف تحمل أنت الامانة ، وتواصل الكفاح تخليدا لذكراه ، ومن أجل نفسك أيضا ، ومن أجل أبنائك . نعم . سأقول له كل هذا ، ولسوف يفهم . سوف أدعوه ديك .

كان يعنى كل كلمة جالت بذهنه . لكنه فى صباح اليوم التالى قال لبولى انها يجب أن تنصاع لرغبة أبيها فتذهب الى الطبيب وتتخلص من ديك لان ذلك لا معدى عنه ، آملا ، فيما بينه وبين نفسه ، أن تسوف هى فى الذهاب الى الطبيب يومين أو ثلاثة على الاقل ، يكون قد توصل خلالها الى تحقيق شىء يجعل العملية غير ضرورية ، لكنها يجب الآن أن تكون مستعدة لاجرائها حتى لا تعطى أباها أى مبرر للارتياب فى نواياهما .

فلم يكن بوسعه أن يضيق ـ لاى اعتبار مهما كان ـ من الفسحة التى حصل عليها بموافقته على الطلاق ، لكى يتوفر له الوقت اللازم للقيام بالضربة المباغتة التى أعد لها فيما يتعلق ببنك الائتمان الاهلى .

كانت موافقته على الطلاق والاجهاض خطوة أولى . أما خطوته الثانية فتعلقت بالقرن ونصف قرن . استدعاهما الى السجن ، وتركهما ينتظرانه نصف ساعة بأكملها قضياها فى حرج عظيم بين أقارب المساجين من الحثالة والناس الطيبين من الجنسين ، فلما سمح لهما بدخول زنزانته ، استقبلهما أسوأ استقبال ، صائحا فى غلظة ، قائلا ان اجراءات ضمه الى مجلس ادارة البنك طالت كثيرا ، وأنه بدأ

يضيق بهما وبالاعيبهما ، وأنه لا يستطيع أن يفهم ترفعهما عن ادخاله معهما في بنكهما الذى يسرى فيه الفساد من قمته الى قاعدته • ثم أخذ يناقش معهما بعد ذلك أحوال كرستون •

كان كرستون قد توصل الى اتمام أسبوع مبيعاته دون أن يقترض مزيدا من المال . ولم يكن قد أفاق من دهشته بعد لاقدام منافسه على شراء مخزونه من البضائع • لكن الاسعار ، بطبيعة الحال ، كانت دون المعدل بكثير . كما أزعجته كثيرا الحملة الاعلانية المركزة عن أسبوع المبيعات المزمع لمحلات هارون ومحلات حرف «ب» ، لان الجمهور كان يترقبه بلهفة . لكنه لم يكن يعرف شيئا بطبيعة الحال عن دخول ماكهيث الوشيك عضوا فى مجلس ادارة البنك الذى يموله .

والآن عمل ماكهيث على ابلاغه أن كميات كبيرة من البضائع التى باعتها محلاته خلال أسبوع المبيعات المشهور قد ثارت حولها ريب قوية ، من حيث أن أوصافها وكمياتها تتفق مع أوصاف وكميات بضائع مسروقة من مانشستر ، ولذلك فانه يحسن بالسيد كرستون أن يقدم الفواتير التى اشترى بها تلك البضائع .

فجاء كرستون مهرولا ، بشخصه ، بطبيعة الحال .

كان مستر كرستون سيدا مهيب الطلعة ، معروقا ، شاحب اللون ، يكره أطباق اللحم ، والقساوسة ، واليهودى هارون . دخل زنزانة ماكهيث وهو فى أقصى حالات الانزعاج ، فاستقبله ماك بتحفظ شديد ، لا يبشر بخير ، وقال له بلهجة مشئومة :

ــ يا سيد كرستون ، ان الاسباب التى تأتى بك الى هذا المكان أسباب محزنة . وينبغى أن أصارحك القول بأنى عندما سمعت بالامر لم أصدق أذنى ، وما زلت لا أصدق أن كميات هائلة من البضائع التى بعتها فى الاوكازيون مسروقة . آمل أن تكون لديك فواتير تثبت عكس ذلك ؟

لكن مستر كرستون لم تكن لديه فواتير .

قال أنه اشترى تلك البضائع لان اثمانها كانت منخفضة للغاية ولانه كان فى أشد الحاجة الى بضائع بعد أسابيع بأكملها من المنافسة القاطعة للرقاب . بدا شاعرا بالذنب وهو يقول ذلك كما لو كان قد ضبط وهو يلتهم طبقا من اللحم بالمناقضة لمبادئه النباتية .

لكن ماكهيث لم يظهر أى رحمة تجاهه . أخذ يتحدث ، بورع

بالغ ، عن المنافسة الشريفة ، وعن حكمة القانون عندما يثقل الوطأة على من يتسلم بضائع مسروقة أو يبيعها بنفس القدر الذى يثقل به على سارقها ، قائلا أنه سيبيع هذه البضائع عينها فى أوكازيونه المقبل ، لكنه سيفعل ذلك وتحت يده فواتير تغطى كل سلعة منها ، هى الايصالات التى حصل عليها من محلات مستر كرستون ، لكن مستر كرستون ذاته لايستند بظهره الى مثل هذه الفواتير ، ولذلك فان موقف مستر كرستون حرج للغاية ، فى الواقع مخيف. فلما حطمه تماما ، باغته بخبطته الكبرى . قال له باقتضاب وغلظة أنه موشك على دخول مجلس ادارة بنك الائتمان الاهلى . فلما ترنح كرستون تحت وطأة هذه الضربة ، أجهز عليه بالشروط التى يمكن لكرستون ، أو بالاحرى لمحلاته ، أن تنضم فى ظلها — اذا أرادت البقاء — الى مجموعة المحلات التى يديرها مستر ماكهيث ، وتمونها بالبضائع شركة م٠م٠م٠

تقوس ظهر مستر كرستون ، وطاش صوابه . ها هو غريمه ومنافسه يصعد على جثته ويضع قدمه على عنقه ، فيدخل مجلس ادارة البنك الذى يملك حياته أو موته . لم يكن الرجل غرا . فاتضحت له أبعاد الموقف كاملة من فوره .

نودى على السجان وأمر باحضار ورق وقلم . وسرعان ما كان السيدان جالسين يسودان الورق بأرقام عديدة ويشيران اليها بطرفى سيجاريهما المتوهجين . كان مستر ماكهيث يحلى حائطا من حوائط زنزانته بخريطة كبيرة زرقاء خضراء لمدينة لندن . وقف أمامها يضع دوائر حمراء ثقيلة تحدد مناطق بعينها يتركز فيها استهلاك البضائع التى تتعامل فيها محلاته ومحلات كرستون ، ثم أخذ يضع خطوطا حمراء تحت أسماء أماكن بعينها ، ويرسم شبكة معقدة من خطوط شملت المدينة كلها وضواحيها قال انها شبكة التوزيع الخاصة بمحلات ب٠ك « ب و كرستون » ٠ ثم أوضح أن عددا كبيرا من محلات كرستون يجب أن تتم فيه تغييرات جوهرية، وعددا آخر يجب أن يدمج أو يباع . وهكذا وقف كجنرال عتيد يضع خطة غزو كبيرة ، يقضى بقلمه الاحمر فى مصائر تلك الدكاكين بغير رحمة ، قائلا أن « بنكه » يجب أن يسترد كل ماله ، مضيفا بانفعال :

— ولا تنس أن البنك تملكه طفلة صغيرة مسكينة ، قد أسىء استخدام اموالها بطريقة مجردة من الشرف . وقد امتد ذلك الى

أموال أناس آخرين أيضا • يجب وضع حد لكل هذه التصرفات غير الاخلاقية . يجب أن اكون فى وضع يسمح لى بتحمل المسئولية كاملة تجاه الطفلة المسكينة صاحبة البنك . أنا لا أستسلم للعواطفية لكنى لن أسمح أبدا بأن يقال عنى أنى أسرق الاطفال واليتامى . ان الاطفال هم مستقبل انجلترا . هم الاجيال القادمة . لا يجب أن ننسى ذلك ولو لمدى لحظة .

قال بعد ذلك أنه يجب طبعا أن ترفع الاسعار ببطء ، وأن «جودة الصنف » يجب أن تتسلل الى الاعلانات رويدا لتحل محل « رخص الثمن » .

وصف ماك تلك المقابلة لفانى فيما بعد فقال :

ـ كانت ، فى واقع الامر ، أشبه بحوار من جانب واحد . سألته : هل أنت على استعداد لتحمل مسئولية أفعالك ؟ فأجاب كلا طبعا ، بلا أدنى تردد . فقلت له اذن فأنت لا ترغب فى المحافظة على استقلالك بأى ثمن ؟ قال كلا ، ليس بأى ثمن • قلت أنت تفضل أن تسلم بالهزيمة اذن وتحنى عنقك لادوسه بقدمى ؟ قال بكل تأكيد ، فذلك فى النهاية أقل تكلفة • انه ليس من أولئك الذين يمكن أن يصفهم المرء بالعظمة . لديه القدر الكافى من رجاحة العقل . فالحقيقة أنه لم تعد هناك جدوى تذكر فى حكاية العظمة هذه .

بعد كرستون جاء الدور على هوثورن وميللر ليذوقا الذل على يد ماكهيث . قال لهما انه آسف ، لكنه مضطر الى أن يحصل من مستر ميللر على اعتراف خطى فحواه أنه (أى ميللر) قد اختلس وديعة السيد بيتشام على مسئوليته الخاصة ، وبغير علم من مستر هوثورن ، ليضارب بها ، وذلك حتى لا تسىء هذه المسألة المؤسفة الى اسم البنك ذاته •

انهار ميللر تماما . أسند رأسه الذى جلله الشيب الى ظهر مقعده وانخرط فى البكاء . لكنه ما لبث أن تماسك ، فهم واقفا وألقى الخطبة المؤثرة التالية :

ـ كلا يامستر ماكهيث ! لا أستطيع أن أفعل ذلك • لا أستطيع أن أوقع وثيقة كهذه التى تريدها أقر فيها بأنى استخدمت أموالا عهد الى البنك بها وائتمننى عليها • هل تدرك معنى ذلك : ائتمننى عليها ؟ افرض انك جئت الى كمودع فوضعت بين يدى مالك الذى شقيت فى جمعه ؟ افرض انك جئتنى فقلت لى : مستر ميللر ، هاك

ثروتى ، انى أضعها أمانة بين يديك القديرتين ، خذها واستخدمها لمصلحتى بأفضل ما تسمح لك به خبرتك ومقدرتك ، فأنا أثق بك ، وأأتمنك عليها ، لانك رجل شريف . والآن تريد منى أن أقول لمثل ذلك المودع : لقد ضاع مالك . أنا ما زلت هنا لكن مالك ضاع منى ؟ أبدا ! أتسمع يا مستر ماكهيث ؟ أبدا . لن أستطيع أن أفعل ذلك أبدا .

ــ لكنك ، فعلا يا مستر ميللر ، ما زلت هنا ، بينما أموال مودعك لم تعد هنا . ضاعت !

فقال مستر ميللر :

ــ نعم ..

وانحط جالسا وقد ارتسم على وجهه تعبير كذلك الذى يرتسم على وجه طفل انتابته الدهشة .

جلسوا ثلاثتهم خمس دقائق فى صمت تام ، فلم ينبس أحدهم ببنت شفة ، حتى هم ميللر واقفا وهو يتمتم لنفسه ، وانصرف وهو مازال يهز رأسه علامة الرفض . لكن هوثورن عاد بعد ساعتين لا أكثر بالاقرار موقعا ، واسم ميللر مكتوب فى ذيله ، واضحا جليا ، مرسوما بعناية وكأن كاتبه تلميذ حديث عهد بتعلم الكتابة .

توسل هوثورن الى ماكهيث بصوت يرتعش من فرط الانفعال أن يدع ميللر ، ولو مؤقتا على الاقل ، فى مكتبه بالبنك ــ بغير مرتب ، بطبيعة الحال ــ لان الرجل لا يعرف ما الذى يمكن أن يقوله لزوجته وجيرانه .

فوافق ماكهيث على ذلك الطلب .

وفى نفس اليوم تمت الموافقة على دخول ماكهيث عضوا فى مجلس ادارة بنك الائتمان الاهلى .

وبذلك انزاح عن صدره عبء ثقله طن . يستطيع هارون والاخوان أوير أن يعرفا الآن أن رئيس مجلس ادارة شركة م.م.م. اسمه ماكهيث ، لان مدير بنك الائتمان الاهلى بات يدعى الآن ماكهيث أيضا ، فوق أن الصديق الجديد الذى ظهر لمستر كرستون فى دنيا الاعمال اسمه ماكهيث أيضا .

بعد الغداء ذهبت بولى الى مسز كراول . مرسلة من طرف أبيها ، الذى باتت تقوم مؤخرا ببعض واجباته فى رعاية فقراء الابراشية .

تأثرت الارملة كراول كثيرا لسلة الطعام الصغيرة وزجاجة

السايدر اللتين أحضرتهما بولى معها ، ثم اخذت تشكو مر الشكوى من عدم انسانية شركة النقل البحرى التى حجزت على كل أثاث البيت عدا الاثاث الضرورى للغاية « بالنسبة اليها » ؛ ثم اخذت تشكو من أبيها العجوز الذى جلس يستمع اليها محزونا وهى تقول لزائراتها :

ـ ما الذى أستطيع أن أفعله به ؟ انه أســـوأ من الاطفال ، لانهم على الاقل لا يوسخون البيت مثله . وقد أصبحنا الآن فقراء بعد أن ضيع المأفون زوجى كل ما لدينا فى مضارباته الحمقاء

فقالت بولى بعطف :

ـ لوكان بالوسع فقط تدبير بعض المال، لامكننى ـ فيما يحتمل ـ أن أقنع زوجى بأن يسمح لك باستئجار أحد دكاكين حرف « ب »٠ لـكن حتى هذه الدكاكين الصغيرة تحتاج الى قدر من راس المال لتقف على قدميها .

كانت غاية فى اللطف مع مسز كراول ، حتى لقد بدت الغرفة العارية أكثر اشراقا فى عينى الارملة وزائرتها الحسناء جالسة فيها واضعة السلة الفارغة على ركبتيها .

ترددت مسز كراول لحظة ونظرتهـا الخايبة تمر فوق الاثاث المزرى ، فتتخطى العجوز وكأنه لا وجود فى الغرفة له ؛ ثم قالت فجأة :

ـ قد يكون هناك احتمال واحد ٠ هذا العجوز له أخت قد تكون على استعداد لمدنا ببعض المال ـ ليس لديها الكثير ـ لكن مثل هذا الاستثمار المضمون قد يغريها .

ثم استدارت الى العجوز قائلة :

ـ ما رأيك ؟

فلم يقل العجوز شيئا ، وفى معظم الظن أنه لم يسمع من قولها شيئا ، أو يفهمه ان كان قد سمعه . فلم يكن ، فيما بدا ، متمتعا بكامل قواه العقلية .

أخذت المرأتان تناقشان الفكرة بعض الوقت ، وعندما قامت بولى لتنصرف وعدت الارملة بأن تطلب لها من زوجها مستر ماكهيث دكانا من دكاكين حرف «ب» . وقد نسيت كل شىء عن الامر طبعا بمجرد أن أغلق الباب وراءها ٠ لكنها لم تقصد الاساءة الى أحـد ٠ كل ما فى الامر أنها كانت تتورط فى مثل هذه الوعود دائما حتى تجعـل الناس يحبونها ٠

فوق أنها عندما عادت الى بيت أبيها وجدت مفاجأة غير مستحبة

فى انتظارها أنستها كل ما يتعلق بالارملة كراول ومصائبها . استدعيت الى مكتب أبيها الذى أخبرها باقتضاب أن الافاق زوجها قد وافق على عملية الاجهاض ، وأنه بعث بتلك الرسالة مع رجل مريب يدعى جروتش أبلغه اياها شخصيا ، وأن هناك رسالة شخصية لها تنتظرها فى غرفتها .

قرأت بولى الرسالة فأحست أنها قد طعنت فى الصميم . الى هذا الحد لا يقيم ماك وزنا لابنه ؟ لان الوليد الذى فى أحشائها ، ــ فيما يعرفه هو ــ ابنه ، لانه لايعرف شيئا عن سمايلز . هذا فظيع ! أغضبتها موافقته الى حد أن قالت لامها أنها تريد أن تذهب الى الطبيب فورا ، وأنها تعرف طبيبا يقوم بهذه العمليات مقابل خمسة عشر جنيها .

غير أن مسز بيتشام رأت التريث فى زيارة الطبيب الى أن تتم تجربة أقراص الكينين أولا ، لكنها اكتشفت أن الحمل ليس فى شهره الاول ، فتألمت كثيرا وقالت لابد من الذهاب الى الطبيب اذن .

ذهبتا الى الطبيب بعد تناول الشاى مباشرة ، وقد بدا أن الرجل لم يتذكر بولى ، لان مريضاته ، فيما يحتمل ، لا يحصى لهن عدد ، فوق أنه فوجىء بموقف جديد نسبيا هذه المرة ، اذ جاءته الفتاة مع أمها ، وقد ألف أن يجرى ترتيباته مع المريضات رأسا بغير تدخل من الاسرة التى يغلب الا تعلم عن الامر شيئا . لذلك جلس محوطا بأسلحته اللامعة ، وأخذ يمسح بيده على لحيته الناعمة الجميلة ، التى لا يوجد أى ضمان على خلوها من البكتريا تماما ، ثم قال لمسز بيتشام وهو ينغم صوته بما يعطى لكلماته وزنا وخطورة :

ــ ياسيدتى العزيزة ، أحب أن أعرفك أن هذا الامر الذى تطلبينه لا يتفق مع القانون ، ولا يتماشى مع مقتضياته ...

لكن مسز بيتشام قاطعته بغير احتفال :

ــ نعم ، نعم .. أعرف . ستكلفنى العملية خمسة عشر جنيها .

فقدعلمتها الاعوام الثلاثون التىقضتها مع زوجها مستر بيتشام ، والكميات الهائلة من الكحول التى كرعتها ، أشياء كثيرة عنطبائع بنى الانسان . لكن الطبيب اغتاظ من مقاطعتها له فقال :

ــ من قال لك ذلك ؟ خمسة عشر جنيها لا تكفى لاجراء عملية كهذه ياسيدتى الفاضلة . والحقيقة انى لا أتصور أى شىء جعلك تتخيلين أنه من الممكن أن أجرى عملية كهذه بمبلغ كهذا .

ثم أضاف بنبرة تأله :

ـ العملية تتكلف أكثر من ذلك بكثير ياسيدتى . انها مسألة ضمير .

فسألته مسز بيتشام مغيظة بدورها :

ـ تقول أن العملية تتكلف أكثر من ذلك ؟ أكثر بكم ؟

ـ لنقل خمسة وعشرين جنيها ياسيدتى العزيزة ؟ لكن عليك أولا أن تسائلى ضميرك : هل تريدين حقا القضاء على هذه الحياة التي توشك أن تخرج الى النور . أعنى هل ذلك ضرورى ضرورة مطلقة لا مهرب منها ، كما فى حالة المرضى الفقراء الذين لايستطيعون أن يتحملوا نفقات تربية طفل آخر ـ فذلك اعتبار ، وان كان لا يبرر العملية ، الا أنه يجعلها مفهومة على الاقل من الناحية الانسانية . الا ترين ذلك ؟

نظرت اليه مسز بيتشام متفحصة ثم قالت :

ـ انها مسألة ضرورة ، يا دكتور .

قال الطبيب وهو يرى زائرته وابنتها تهمان واقفتين :

ـ آه . ما دمت تقولين ذلك ، فالامر يختلف اذن . بوسعك أن تأتى بابنتك فى تمام الثالثة من بعد ظهر الغد . علما بأن أتعاب العملية تدفع مقدما حتى لا يكون هناك ما يدعو الى ارسال فاتورة الى منزلك أو أى شىء من هذا القبيل . مع السلامة .

عندما غادرتا عيادة الطبيب قررتا أن تتناولا بعضا من الجيلاتى فى أحد المحلات ، ثم وجدتا الوقت مبكرا ، فقررتا الذهاب الى السينما .

دخلتا دارا من دور الدرجة الثالثة التى تتبع نظام العرض المستمر . جلستا تنظران الى شاشة مغبشة يبدو الممثلون عليها وكأنهم مصابون بالتشنج . ولنكد حظهما كان عنوان الفيلم : « أماه ! طفلتك تناديك ! » .

بدأت القصة بفتاة أرستقراطية تستكمل زينتها استعدادا للذهاب الى حفل راقص . ارتدت بمساعدة وصيفتها زوجا من الكورسيهات، ووضعت فى أذنيها وحول عنقها عدة أرطال من الحلى والمجوهرات ، ثم وقفت تتأمل صورتها فى المرآة فرحة ، ودخلت بعد ذلك غرفة جانبية ترقد فيها ابنتها ، وهى طفلة فى الثالثة ، متهالكة فى فراشها، وقد وقف بجوارها طبيب مهيب الطلعة، ملتحى الوجه يقيس نبضها. تبادل الطبيب بضع كلمات ، بدا أنها خطيرة للغاية ، مع الام الشابة، لم يسمعها المشاهدون بطبيعة الحال، لان الفيلم صامت، لكنهم سمعوا

صـــوت المذيع البدين ، الواقف لصق الشـــاشة ، وهو يعلق على سلوك الام الرعناء التى استخفت بما قاله الطبيب الحصيف ، فعانقت الطفلة المريضة المسكينة ، وخرجت غير عابئة • قال المذيع بصوت حافل بالادانة :

ـ الطيش ، والرعونة ، وانعدام الاحساس ، والتكالب على الملذات، تحالفت كلها على الام الشابة ، فاستدرجتها بعيدا عن فراش ابنتها المريضة لتذهب فتنغمس فى الملذات الزائفة التى ينساق وراءها من لا خلاق لهم •

وهنا تغير المشهد على الشاشة الى صالون بالغ الاناقة فيه أناس كثيرون من عليه القوم يرقصون • دخلت الام الشابة ، فأعلن خادم فى ثياب مزركشة مجيئها ، واذذاك قفز عدد من السادة واقفين وخفوا لاستقبالها ، ثم دارت اقداح الشمبانيا ، وجلست الام الشابة بين فارسين أنيقين على أريكة شديدة الانتفـاخ من القطيفة ، ثم أخذت تقوم بين الحين والحين لترقص ، فتطير من حضن هذا الى حضن ذاك كفراشة تدير رأسها الاضواء ، والمذيع يعلق محزونا : والســاعات تطير دون أن يلحظها أحد •

تغير ذلك المشهد الراقص ، وعاد الى الشاشة مشهد الغرفة التى ترقد فيها الطفلة المسكينة • وهنا بدا واضحا أن حالة المريضة قد ساءت كثيرا • ثم همت جالسة فى فراشها الصغير فجأة ومدت يديها فى ضراعة الى الام الغائبة ، وسقطت على ظهرها • قال المذيع :

ـ آه • انها تموت • انظروا • انها تحتضر • لقد ماتت !

مرة أخرى المرقص الباذخ ، والام الشابة مطوحة رأسها الى الوراء تفرغ فى جوفها كأسا من الشمبانيا • وفجأة يتحول حائط المرقص فيصبح شفافا ، وتظهر وراءه غرفة الطفلة التى تنهض من فراشها ، وقد باتت شـــفافة بدورها ، وتقف لحظـــة وقد نبت لها جناحان صغيران فى كتفيها • ثم تطير فتنفذ من حائط المرقص الشفاف متجهة الى المنضدة الرخامية التى تجلس اليها أمها عديمة القلب ، فتتهاوى أمامها ، وتتلاشى اذ يبتلعها العدم • يقول المذيع :

ـ كما ترون تتبدى للأم الرعناء رؤيا ، فتدرك أن ابنتها قــد ماتت ، وان الطفلة المسكينة جاءتها على هيئة ملاك صغير لتودعها الى الابد .

وهنا تسقط الام الشابة أرضا فاقدة وعيها ، ثم تظهر فى غرفة الثياب وهى تتلفع بفرائهـــا بسرعة وتغمغم لنفسها قائلة ، كما يخبر

المذيع مشاهديه : « أرجو ألا يكون الوقت قد فات » . ثم تظهر بعد ذلك في غرفة الطفلة ، وتخر على ركبتيها أمام مهد ابنتها ، فتضم جسدها الصغير الى صدرها ، وتلوى يديها ، ويدخل الخدم مسرعين يحاولون مواساتها ، لكنها ، فيما يبدو ، لا تستطيع ان تتحكم فى نوبة الاحساس بالذنب التى تمكنت منها ، ويترنم المذيع بختام الفاجعة شعرا فى صوت مختنق :

« فات الاوان ، فات الاوان ، وماتت ابنتك .
ولم يعد يجديك حزن أو ألم فى التكفير عن فعلتك»

جلست المرأتان حتى النهاية فى حالة من الذهول والرعب . كانتا قد جاءتا معهما ببعض الشيكولاتة ، لكنهما — لحسن الحظ — التهمتا كل ما كان معهما منها قبل أن تبدأ الميلودراما ، ثم بعد ذلك تسلط عليهما الفيلم تماما .

وعندما ماتت الفتاة الصغيرة وحيدة ، مهجورة من أمها الرعناء ، أحست بولى طعنة من ألم نافذ فى صدرها ، فمدت يدها فى الظلمة تبحث كالعمياء عن يد أمها ، ثم اغرورقت عينا كل منهما بالدموع عندما دخلت الفتاة الميتة غرفة المرقص مرفرفة بجناحيها ، فاردة ذراعيها ، وغادرتا دار العرض بعد ذلك وقد أثرت فيهما هذه الرائعة تأثيرا بالغ العمق .

قالت مسز بيتشام بتصميم قاطع وهما تسيران فى الشارع :
— لن آخذك الى ذلك الطبيب بعد ظهر غد !

فارتاح قلب بولى التى كانت فى تلك اللحظة تتساءل كيف طاوعها قلبها على مجرد التفكير فى الموافقة على التضحية بطفلها مؤكدة لنفسها أنها لن تكون فى تلك الحالة أقل اجراما وفظاعة من تلك الام القاتلة التى ذهبت لترقص وتركت ابنتها الصغيرة تموت وحدها .

لم تفق المرأتان من تأثير ذلك الفيلم الا بعد منتصف الليل بكثير ، واذذاك صعدت مسز بيتشام الى بولى فى غرفتها ، فجلست على حافة فراشها وقالت لها :

— لا يجب أن تأكلى أى شىء فى صباح الغد والا أصبت بالغثيان بعد العملية من تأثير المخدر .

ظلت ترسانة الاسلحة اللامعة التى تضمها غرفة الطبيب تتراءى لبولى طوال الليل .

كان مستر بيتشام غاية فى الانشغال .
استقبل فى ذلك المساء الاستاذ وايد ، محامى ماكهيث ،وبصحبته فانى كرايزلر . كان بيتشام قد أصر على أن يحدد ماكهيث فورا اسم المرأة التى سيتم اتهامه بالخيانة الزوجية معها والتى ستعترف بالزنا معه أمام المحكمة حتى يتم الطلاق . فلم يكن بيتشام على استعداد لان يترك اى شىء فى ذلك الموضوع كله للمصادفات . وقد اقترح ماك أحدى فتيات مسز لكسر فى تانبريدج ، فأحضرها الاستاذ وايذ البدين معه الى شارع أولد أوك . لكن مستر بيتشام لم يرض عن تلك الشاهدة التى فاجأته بفحتها المفرطة وحديثها المعن فى الصراحة ، قائلا أنه لا يقبل أن تلحق بابنته مهانة كهذه أمام العالم ، ولو أنه ـ فى حقيقة الامر ـ خشى ألا تكون شهادة مومس كهذه مقبولة أمام المحكمة فلا يتم طلاق .
وعندما علم ماكهيث برفض بيتشام جن جنونه ، فأخذ يرغى ويزبد قائلا :
ـ كم من النسوة يجب أن أعترف بأنى اقمت علاقات مريبة معهن حتى تروق واحدة منهن للسيد بيتشام فيتعطف ويقبلها .
ومع ذلك فانه وافق على أن تحل فانى كرايزلر محل الفتاة التى تعمل لدى مسز لكسر .

حقيقة أنه كان قد أصبح من مديرى البنك ، لكن الوقت لم يكن مناسبا بعد لاحداث قطيعة نهائية بينه وبين بيتشام ، خاصة بعد أن أصبح يعتبر هذا الاخير من عملائه ، بحكم كونه من مودعى البنك ، ولا شك أنه من مصلحة البنك أن يصفى ذلك المودع خلافاته مع خصمه بطريقة لا تدفعه الى سحب وديعته .

فى تلك المرحلة جال بذهن ماكهيث أكثر من مرة احتمال وقوع طلاق حقيقى يخلصه من مشكلة بولى .
قال لجروتش الذى أخذ يناقش معه ـ بطريقته المعهودة الخالية من كل كياسة ـ مدى صلاحية فانى للقيام بدور العشيقة فى قضية الطلاق :
ـ قد تنشأ ظروف عديدة تجعل من الضرورى وقوع انفصال حقيقى بينى وبين زوجتى . فيما يخصنى أنا قد يكون الطلاق أفضل شىء فى صالحى . لكنى حتى اذا اعترفت بعلاقتى مع فانى لن يوجد اى سبب يدعونى الى قطع ما بينى وبين زوجتى . فهى ما زالت حاملا منى ، ولذلك فانها لا تستطيع أن تستسلم لنوازعها وتهرب

مني متعللة بأي عذر تافه . لأن امرأة في مثل حالتها لا تقدم على شيء كهذا الا لأسباب قاهرة . هذه فائدة الحمل فيما يخص حكاية الزواج هذه : أنه يربطهن بالرجل . صدقني ان الطبيعة بارعة ياجروتش وأنها تعرف ما هي فاعلة . وهي تحصل دائما على ما تريد . ولم ؟ لأنها بارعة .

***

تصرفت فاني بطريقة طبيعية للغاية ، وتوصلت ــ كالعادة ــ الى اعطاء انطباع بأنها سيدة مهذبة . قالت أنها لا مانع لديها ، وأنها على استعداد لأداء الخدمة التي يطلبها مستر ماكهيث ، رغم أنها لا تجد نفسها ملزمة بذلك . فقاطعها بيتشام بغلظة :

ــ ما هذا ؟ هل أفهم مما قلت أنك على استعداد للشهادة زورا لمجرد أن تؤدي خدمة لمستر ماكهيث ؟ لن يكون في ذلك أي جدوى بالنسبة الي .

نظرت فاني دهشة الى المحامي الذي أشاح بوجهه واخذ ينظر محرجا الى أحد أركان الغرفة العارية . قالت وهي تشعل سيجارة :

ــ أتعني أنني يجب أن أصارحك القول بما حدث فعلا ، فأخبرك ان كنت قد نمت فعلا مع زوج ابنتك أم لا ؟

قال بيتشام :

ــ بكل تأكيد .

فضحكت ثم التفتت الى وايذ قائلة :

ــ لست على يقين يا وايذ مما اذا كان مستر ماكهيث يريدني أن اخوض في موضوع كهذا .

وقد أسقطت لفظة يا « أستاذ » عمدا لتبين أنها ند لموكل وايذ على المستوى الاجتماعي .

قال بيتشام مغضبا :

ــ سواء أراد ماكهيث ذلك أم لا يجب أن أعرف ، ويجب أن تعرف زوجتي أيضا ، اذا لم يكن لديك مانع من ذلك . هذا الموضوع ليس بالبساطة التي تتصورينها .

ثم فتح الباب المبطن بالمعدن وصاح مناديا زوجته التي بدا أنها لم تكن بمبعدة ، لانها سرعان ما دلفت الى الغـــــرفة ، فجلست عاقدة يديها على بطنها ، محملقة بفضول في زائريها .

قال مستر بيتشام مقدما فاني :

ــ هذه مس كرايزلر . لقد جاءت مس كرايزلر لتعترف لي أنها

على علاقة حميمة بالسيد ماكهيث منذ زمن طويل ، وان تلك العلاقة ما زالت قائمة حتى الان ، أى بعد زواجه . أليس ذلك صحيحا يا مس كرايزلر ؟

ـ صحيح تماما .

ثم أضافت برفق ، على سبيل التخفيف عن مسز بيتشام :

ـ انا أدير بعض اعمال مستر ماكهيث ، وتجمعنى ظروف العمل كثيرا به .

ثم همت واقفة ، فوضعت مبسم سيجارتها فى حقيبة يدها ، وأومأت برأسها محيية فى اقتضاب ، وخرجت . فتح لها وايذ الباب بابتسامة محرجة .

نام مستر بيتشام في تلك الليلة نوما عميقا لاول مرة منذ شهور .

وفى صباح اليوم التالى هم بأن يجرى حديثه الحاسم مع كوكس ، فيعترف له بزلة بولى ويعلنه ، فى الوقت ذاته ، بموافقة ماكهيث على الطلاق . واذذاك لن تكون هناك حاجة الى شراء سفن ساوثمبتون ، رغم أن الأموال اللازمة لشرائها ، بما فيها حصة بيتشام ، قد جمعت واكتملت .

لكن تقدرون فتضحك الاقدار ، كما يقال . فبينما هو يحلق ذقنه استعدادا لزيارة كوكس ، اقتحم هذا الاخير الغرفة هائجا ، وهو يلوح بخطاب فى يده ، ويجأر بأعلى عقيرته :

ـ أية ألاعيب هذه التى تريد أن تلعبها على يا سيد بيتشام ؟ منذ شهور وأنت تحاول أن تغرينى بزواج ابنتك . منذ شهور وأنت تحاول أن تلقى بها بين ذراعى ، آملا ، فيما اظن ، أن تحصل من وراء هذه المتاجرة البذيئة بمفاتنها على مركز متميز فى هذه العملية المريبة الخاصة بسفن النقل وأن تمنعنى من معاملتك على قدم المساواة مع أولئك النصابين الآخرين الذين تتعاون معهم . واليوم أفاجأ بأن ابنتك هذه متزوجة منذ شهور ، وأنها موشكة على الطلاق ، وأن زوجها مجرم مشهور يوجد الان ، فيما سمعت ، وراء قضبان السجن . أنت مجنون ؟

وقف بيتشام بلا حراك ، وجهه يغطيه الصابون ، ويده ما زالت قابضة على الموسى ، محملقا فى المرآة الصغيرة التى علقها فى مقبض النافذة ، وحمالة بنطلونه مدلاة وراء ظهره ، تجرجر على الارض . تأوه بصوت أجوف وكأن روحه توشك أن تطلع .

فقال كوكس بصوت جليدى :

ـ هذا جوابك الوحيد ؟ هذا كل ما يمكنك أن تقوله لي ؟ هـذا الخوار ؟ انى أحسدك على صفاقتك !

تهاوت يده بالموسى ، وحملق في وجه محدثه الهائج . كان يتمتع بوجه فظ لا رقة فيه ، لكن الألم الذى نضح من ذلك الوجه أوشك ، لمدى لحظة ، أن يجعله وجها انسانيا يطيقه المرء . قال بصوت أجوف كأنه آت من وراء القبر :

ـ كوكس . كوكس . كيف يمكنك أن تقول هذا ؟

كان تعبير الألم الذى ارتسم على وجهه حقيقيا لدرجة أن تورع كوكس عن قول ما كاد يقول ، مكتفيا بهذه الكلمات الضرورية :

ـ خلال ساعتين يا بيتشام ، ساعتين اثنتين لا أكثر ، عليك أن تسلمنى كل ما تحت يدك من أموال شركة النقل البحرى ، بغير نقصان ، وعليك أن تسلمها الى فى مكتبى ، ثم عليك بعد ذلك أن تغرب عن وجهى فلا ترينى سحنتك الكريهة بعد اليوم . فاذا ما حاولت أن تلعب بذيلك ستجد نفسك فى السجن خلال خمس ساعات لا أكثر ، برفقة السيد زوج ابنتك الفاضلة .

فلما قال ذلك خرج من الغرفة ، رافع الرأس ، صلب العنق ، فاصطدم ببولى وامها اللتين اجتذبهما جئيره من أعماق البيت ، فقال لبولى وهو يمر بها ، بلهجة مهينة :

ـ نهارك سعيد يامسز ماكهيث !

دخلت مسز بيتشام الى مكتب زوجها ، فلما رأته واقفـــا الى النافذة ، شاحب اللون كجثة لا حيـــاة فيها ، عرفت لفورها كل ما حدث . فلما خرجت الى ابنتها لزمت الصمت زهاء ربع ساعة ، ثم قالت :

ـ يحسن أن نؤجل الذهاب الى الطبيب مؤقتا .

تلقى بيتشام ضربة أذهلته ، أفقدته الصواب تماما . كان قد اعتمد اعتمادا كاملا على سفالة السمسار وشهوانيته التى بدت له مكينة وأكيدة لا تخيب أبدا ، لفرط ما رآها ـ بعقليته المتطهرة ـ قذرة . فقد علمته الحياة أن مثل هذه الاشياء هى التى تتغلب أبدا . لذلك كان على يقين لا يطاوله شك من أن كوكس لن يتردد فى التضحية بمصالحه المادية فى سبيل شهواته الجسدية الدنيئة ، فاحتقره لذلك لكنه اطمأن اليه . غير أنه أخطأ فى تقدير الرجل .

بعد تلك النكسة ، تطورت الامور بسرعة مربكة .

ذهب بيتشام الى البنك ، وعندما قال انه يريد أن يسحب أمواله

اضطر أن ينصت الى سلسلة طويلة من المراوغات ، فلعب الفأر في عبه ، وطلب مقابلة ميللر ، فلما تركوه ينتظر ، اقتحم مكتب العجوز، وفي اللحظة عينها دخل هوثورن من الباب الاخر ، في عجلة شديدة. ألقى بيتشام نظرة واحدة على القرن ونصف قرن كانت كافية لتوقفه على كل ما هنالك ، أو كل ما هنالك على وجه التقريب . ثم دار بين الثلاثة حديث قصير اتضح بعده الموقف بجلاء كامل ليس بعده جلاء . عليه الآن أن يتعامل مع مستر ماكهيث رأسا اذا كان يرغب فى سحب نقوده . فالسيد ماكهيث قد أصبح ، منذ البارحة ، عضوا منتدبا للبنك ، وبوسع مستر بيتشام أن يطلب تحديد موعد لمقابلته فى السجن .

ترك بيتشام العجوزين وأسرع الى مكتب كوكس . كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة أنصت كوكس الى أنبائه في صمت ، ثم قال بجفاء :

ـ طيب . سأعطيك حتى ظهر الغد ، وعليك قبل انتهاء ذلك الموعد أن تكون قد حصلت اما على النقود واما على سند بقيمتها ، ولا أظنك واجدا صعوبة فى ذلك ، فالسيد زوج ابنتك قد أصبح مديرا للبنك الذى تتعامل معه حسبما تقوله لى . وعليك الان أن تتكرم باحضار العقد القائم مع الحكومة على الفور ، والاقرارين الموقعين من كراول والبارون بمسئوليتهما ومسئولية الآخرين عن عمليات النصب والتدليس .

ذهب بيتشام فأحضر المستندات التى طلبها كوكس وسلمها اليه وهو صاغر . كان يتحرك كالسائر فى غيبوبة . ثم عاد الى بيته فحبس نفسه فى غرفة مكتبه ، رافضا أن يتناول أى طعام . وعندما قاربت الساعة الثانية انتهى من التفكير ، فأرسل فى طلب العسكرى فيوكومبى من الفندق الذى أخفاه فيه منذ أن بدأت عملية ماكهيث .

عندما جاء العسكرى بدت عليه دلائل النعمة . اكتنز ، وامتلأ وجهه . لكن لونه كان ممتقعا . فقد ظل يأكل وينام طيلة ذلك الوقت، لكنه لم يبرح الغرفة التى أمر بالبقاء فيها . من مزاياه أنه ، كأى عسكرى جيد ، يفعل كل ما يؤمر به . وقد وقف الآن بلا حراك ، فى اطار الباب ، وقبعته بين يديه ، منصتا فى انتباه كامل الى كل كلمة قالها مستر بيتشام الذى أخذ يتحدث ـ كعادته ـ مشيحا عن محدثه بوجهه ، ناظرا الى النافذة التى فى ركن الغرفة .

قال له مستر بيتشام شيئا يقرب من هذا : قال أن هذه الورشة

قد تعرضت فى الآونة الاخيرة لعدة هجمات ، وأنه ـ تبعا لذلك ـ مضطر الى الحد من نشاطه بدرجة محسوسة وطرد عدد كبير من مستخدميه ، وأن فيوكومبى سيكون من بين أولئك المطرودين .

أخذ مستر بيتشام يتحدث بعد ذلك عن مشكلة البطالة المخيفة وأهوالها . قال :

ـ أنا أدرك تماما ما الذى يعنيه طرد هؤلاء الناس بهذه الطريقة . وأفظع ما فى الأمر الآثار المعنـــوية التى تترتب على تلك الخطوة . فالعامل العادى ـ للأسف ـ لا يتمكن من التشبث بأهداب الاخـلاق الحميدة طويلا ، ونادرا جدا ما يتمكن من مقاومة الآثار السيئة التى تترتب على الجوع والبرد ، فيفقد احترامه لنفسه تماما ، ويدرك أنه عبء على المجتمع وعالة على الآخرين ، وفى تلك الحالة الذهنيـــة بالذات يكون صيدا سهلا للمهيجين الذين يتحينون فرصـــة كهذه ليجعلوا منه عدوا للمجتمع والنظام والقانون . أنا أدرك كل ذلك . لكن ما الذى يسعنى أن أفعله ؟

ومع ذلك فان هناك احتمالا بألا يضطر الى فصل بعض مستخدميه على الفور ، ومن بينهم فيوكومبى . فهناك رجل خطر طليق فى لندن إسمه مستر كوكس يحمل فى جيب سترته الداخلى ورقة لا حق له فى الاحتفاظ بها . كوكس هذا يجب أن يزال من الوجود ـ وقبل صباح الغد على أكثر تقدير . وأى رجل تكون لديه القدرة والمبادرة للتكفل بذلك ، عملا على حماية عدد كبير من المستخدمين من الفصل والجوع ، سيجد رعاية كاملة وتقديرا ، فوق أنه سيزود بدليل قوى يثبت بعده عن مكان الجريمة . وما على ذلك الشخص الا أن يذهب ، بعد أن يقوم بما يجب عليه أن يقوم به ، الى عنوان معين ، فيقضى الليلة فيه .

قال مستر بيتشام مفلسفا الأمر :

ـ انها مسألة تتعلق بالاعمال . وسيلة من وسائل ادارة الاعمال تختلف قليلا عن غيرها . فكر فى الحرب . أنت عسكرى ويجب أن تفكر فى الحرب . فعندما يجد رجال السياسة انفسهم فى حيص بيص وقد تأزمت أمورهم، يجىء الدور على الجندى . هذا نظام الاشياء . نحن رجال الاعمال نسير أمورنا عادة بوسائل أخرى سلمية . لكن ذلك ليس أمرا محتوما . كل ما فى الامر أنه قد أصبحت هناك فى هذه الايام وسائل أخرى تمكن المرء من الحصول على ما يريد دون أن يضطر الى استخدام السكين . لكن ما زالت هناك ، للأسف ،

حالات استثنائية ، كهذه الحالة ، يتعين فيها استخدام السكين .
كان العسكرى يعرف مستر كوكس . فقد حمل اليه رسالة من مستر بيتشام ذات مرة .
بعد ذلك الحديث رأت مسز بيتشام العسكرى فيوكومبى فى الفناء ، وكانت تلك هى المرة الاخيرة التى تراه فيها . وقد تذكرت ـ فيما بعد ـ انه لفت نظرها بغرابة سلوكه ، اذ وقف طويلا ، بلا حراك ، بين قطع الغسيل التى كانت منشورة على حبال الفناء لتجف ، محملقا فى الكلاب ، ولكن دون أن يحاول الاقتراب منها أو اطعامها ، رغم أنها كانت تعوى فى طلب الطعام . قالت مسز بيتشام ـ فيما بعد ـ متنهدة ، وهى تتذكر ذلك :
ـ يعلم الله أى أفكار دموية كانت تدور فى رأسه وهو واقف هكذا .
ولو ان الرجل ، فيما يحتمل ، لم يكن قد دار فى رأسه شىء ، اللهم الا اذا كان قد وقف مستغرقا فى موازنة بين ما هو مطلوب منه ، وبين اللقمة التى يعطيه اياها مستر بيتشام والمأوى المغطى بسقف من الكرتون الذى أتاحه له فى ركن من فناء بيته .
كان الوقت الذى قضاه فى حماهم قصيرا ، فلم تتح له الفرصة حتى للانتهاء من نصف مجلد دائرة المعارف .
وعندما غادر العسكرى دكان الآلات الموسيقية العتيد فى شارع أولد أوك ، كان يحمل مدية فى جيبه ، لكنه لم يكن قد قر قراره بعد .

***

فى نفس الوقت تقريبا ، كانت السيدة بولى ماكهيث تتحدث مع السيد أوهارا . وقد جرى ذلك الحديث فى بيت الاخير ، الذى لم تكن السيدة ماكهيث غريبة عنه .

قصت مسز ماكهيث على أوهارا ، بلهوجة لا يكاد يفهم منها السامع شيئا ، كيف وجدت فى غرفتها خطابا من زوجها يطمئنها فيه الى أنه لم يعد هناك ما يدعوها الى القلق ، وأنه لن يكون هناك طلاق الآن أبدا ، (وتحت « أبدا » خط) ، وأنه سوف يتهم السمسار ، فى الوقت المناسب ، بالزنا معها ، وأن لديه أدلة دامغة ضد كوكس تدينه باعتباره فاجرا عربيدا من أحط الأنواع ، وأنه حتى اذا كان كوكس بريئا فى هذه المرة ، فان التهمة ذاتها ستجعله ينصرف نهائيا عن الضغط على بيتشام للحصول على الطلاق .

أطلعت أوهارا على الخطاب الذى كان مكتوبا بالقلم الرصاص ، بعجلة ظاهرة .

قالت بولى ملتاعة :

ـ سيقف كوكس أمام المحكمة ليدلى بشهادته .

فقال أوهارا دون أن يعنى حتى بالقيام من رقدته المسترخية فوق الأريكة :

ـ طيب ، وماذا فى ذلك ؟

كان الوقت بعد الغداء مباشرة ، والتايمز فى يده يقرأ فيها أخبار الرياضة .

ـ ماذا فى ذلك ! أنا لا أريد ذلك أن يحدث .

ـ هل ارتكبت الزنا معه ؟

ـ كلا طبعا ، أنت مجنون ؟

ـ اذن لم لا تريدينه أن يدلى بشهادته ؟

ـ لأنى لا أريد . أليس ذلك كافيا ؟ لا أريد أن يحدث ذلك . ولذا ينبغى التخلص منه قبل أن تبدأ الدعوى .

ـ هل أفهم من ذلك انك تريدين أن يتكفل أحدهم بازالته من هذه الحياة ؟

ـ كلا طبعا ، لا أريد ذلك .

ساد الصمت برهة ، فالتقط أوهارا صحيفته من جديد . قالت بولى محتدة :

ـ ما رأيك فيما قلت ؟ ضع هذه الصحيفة جانبا . لماذا تعاملنى بهذه الطريقة ؟ لقد سألتك سؤالا !

قال أوهارا متكاسلا :

ـ حقا ؟ طيب ، طيب . سنخلصك منه . ولكن ماذا يحدث اذا رفض أن يدعنا نخلصك منه ؟

ـ سأضطر فى تلك الحالة الى الاستشهاد بشاهد آخر زنيت معه فعلا .

قالت بولى ذلك ببطء وهى تضغط على كلماتها .

ـ آه ! اذن سوف تستشهدين بشاهد ..

ـ لا حاجة بك الى أن تضحك هذه الضحكة المنفرة . انت لا تفهم. كبريائى لا تسمح لى أن أظهر فى المحكمة ، بتهمة الزنا ، مع شخص مضحك مثل كوكس هذا . ان كان يجب أن أعلن على الملأ أنى زنيت ، فلا أقل من أن يكون ذلك مع شخص على درجة مقبولة من الوسامة.

هل رايت كوكس هذا أبدا ؟ انه تيس عجوز ، ويفوق كثيرين غيره فى هذا المضمار . لكنه ليس الشخص الذى تعترف امرأة تحرص على كرامتها أنها نامت معه ! أنت أيضا تافه مثله ، لكنك على الأقل يمكن اعتبارك مقبول الشكل فى المحكمة على أى حال .

أحس أوهارا ، رغم ثقته الفائقة بنفسه ، شيئا من القلق . فقد أدرك من خبرته التى لا يستهان بها مع النساء أن هناك سببا جادا - على الاقل بالنسبة اليها - وراء ما قررته بولى من انها ، اذا ما تأزمت الامــــــور ، أى اذا ما استمر السمسار ماثلا على مسرح الأحداث ، ستورطه هو ، أوهارا ، بوصفه شريكها فى الزنا . ولم يخش أوهارا بطبيعة الحال على سمعته ، لكنه خشى مما قد يسببه ذلك من قطيعــة قبل الأوان بينه وبين رئيســه ، مما يفسد خططه ويقلبها رأسا على عقب ، وربما سبب له ما هو أسوأ . فهو يعرف ماكهيث منذ أن كان يدعى بيكيت ، ويعلم أنه لم يكن دائما شخصا بدينا متساهلا .

- اقفلى فمك . لقد تكلمت بما فيه الكفاية . يمكنك أن تذهبى الآن .

ادرك أن عليه الآن أن يدفع ثمن ما فعل . أما بولى فانصرفت لئلا تستفزه أكثر مما فعلت . خرجت من بيت أوهارا فذهبت الى زوجها فى السجن .

تكلفت رقة بالغة مع ماكهيث . جلست على الأريكة بفنـدرة ، واضعة ساقا على ساق ، وأخذت تثقب ثقوبا وهميـــة فى الهواء بمظلتها الانيقة ، ثم أبدت اعجابها البـــالغ بفطنته لانه اختـــار كوكس حتى تفشل دعوى الطلاق ، قائلة انها ستقف فى المحـكمة فتشير على السمسار بمظلتها وتصيح ســاخرة : « اذن فالمفروض أنى ذهبت الى الفراش مع هــذا السيد ! » ثم تنفجر ضــاحكة . ضحكت كثيرا وهى تتصور ذلك المنظر وتصفه لماك .

لكن ماك كان أبعد ما يكون عن الابتهاج . فقد زاره قبل مجيئها بقليل ، ميللر ، من بنك الائتمان الاهلى ، وأخبره ، مهتاجا ، بزيارة بيتشام للبنــك . واتضح له من ذلك أن كوكس هــذا يمثل خطرا حقيقيا على بيتشام وامواله ، وانه لا يريد أن يدع الرجل يضحك عليه ويزوجه بولى . لكن بيتشام اذا عجز عن التوصل الى اتفاق ما مع كوكس ، سيتسبب فى خراب البنك الذى عانى الأمرين وتكبد الكثير فى سبيل الانضمام الى مجلس ادارته . ادرك محزونا أن

مصيره قد بات مرتبطا بمصير حميه واحس رغبة حرى فى أن يتمكن من التحدث اليه كما يتحدث أزواج البنات الى آباء زوجاتهم كلما تعرضت مصالح العائلة للخطر .

منعه توتر أعصابه من التحدث الى بولى ، وسرعان ما صرفها . لكنها رفضت أن تخرج قبل أن يعانقها ، فانصاع لرغبتها ، ولم يكد يتخلص منها حتى أمر بادخال مستر ردى ، أبرع رجاله فى استخدام الاجسام الصلبة للقتل من خلف ، فلما دخل مستر ردى ، انخرط معه ماك فى حديث جاد طويل .
وبينما زوجها غارق فى زنزانته فى ذلك الحديث مع السيد ردى ، كانت بولى تسير على مهل فى شوارع لندن ، لا تحمل على قلبها هما، تزين رأسها قبعة عريضة ، على الموضة ، فى حجم عجلة عربة ، يحليها ريش مصبوغ ، وعلى وجهها نقاب خفيف ، متأبطة مظلتها ، والمشد الذى ترتديه يؤدى الفرض منه جيدا، فيبرز عجيزتها ويجعلها محط كل عين ، بينما تسير هى متهادية ، تنظر فى تكاسل الى واجهات الدكاكين ، فتستمتع بمراقبة من يسيرون فى أذيالها من الرجال ، فى زجاج تلك الواجهات .

الرجل المريض يموت

بينما ماك يتحدث الى مستخدمه فى زنزانته ، وزوجته تقطر بعجيزتها طابورا من المعجبين فى شوارع لندن ، كان مستر كوكس فى طريقه الى حى الميناء . فقد أخبره بيتشام أن شحاذيه سيتظاهرون هناك ضد اضراب العمال . كان قد البسهم ثياب الجنود ، ودربهم جيدا على مظاهرة الاحتجاج التى سيقومون بها ، منددين بجشع العمال الذين يمتعون باضرابهم نقل جنود الامبراطورية الى حومة الوغى .
كانت لافتات عديدة قد أعدت فى شارع أولد أوك وعليها عبارات كهذه : « أنتم تعوقون رفاقنا فى السلاح من اداء واجبهم المقدس باضرابكم القذر ! » و « انظروا بماذا ضحينا نحن ! »

قرر السمسار أن يشهد تلك المظاهرة ، رغم أن بيتشام قال له ان المظاهرة ذاتها لن تكون شيئا يذكر ، وأن المهم فى الأمر كله هو ما وعدت به بعض الصحف من تغطية اثارية لها .

التقى كوكس على رصيف الميناء ببيرى ، مدير اعمال بيتشام ، الذى بدا منفعلا للغاية وهو يخبره أن بيتشام ألغى المظاهرة فجأة فى الصباح ، ثم عاد بعد الغداء ، فألغى أمر الالغاء ، لكنه لم يتسن الاتصال بكل من كان مقررا أن يشتركوا فيها ، بحيث لن يزيد عدد المتظاهرين الآن عن حفنة تعد على أصابع اليد الواحدة ، مما يتوقع معه أن تكون المظاهرة هزيلة ومضحكة . قال مستر بيرى ذلك وانصرف مسرعا ، وهو من الغم فى حال ، مصمما على انقاذ ما يمكن انقاذه .

صفر كوكس بفمه ، مستغرقا فى التفكير . اذن فقد عدل مستر بيتشام عن خطته ، ثم عاد فقرر أن يمضى فيها . أنه ما زال يلعب بذيله اذن !

كلما اقترب من غايته ، رأى مزيدا من الناس . كان الكثيرون منهم يقفون على نواصى الشوارع ، لكن حشدا كبيرا كان يتجه ، مثله ، الى مكان الاضراب ، وقد بدا أن كل من فى الحشد يتوقع شيئا أو رأى شيئا فلما سأل واحدا منهم قال له الرجل أن الجنود من مشوهى الحرب يتظاهرون ضد العمال المضربين على رصيف الميناء .

ازداد الحشد كثافة .

كانت تلك ساعة تغيير الورديات ، والعمال الذين لم ينضموا الى المضربين يغادرون أرصفة الميناء . كان قد تقرر ، نظرا لعدم اتصاف الاضراب بالعنف ، العدول عن نقل العمال الذين لم يشتركوا فيه من والى أماكن عملهم بالقوارب ، ولذلك فانهم اضطروا الان أن يشقوا طريقهم بين صفوف المضربين . والحقيقة أن الضجة الآتية من داخل الميناء كانت تصم الآذان . ثم ما لبث المتظاهرون أن تدفقوا فملأوا الشوارع الضيقة ، مجتاحين كل ما فى طريقهم وهم ينشدون الاناشيد الوطنية ، فى مظاهرة خرافية لم يسبق لها مثيل من المشوهين وذوى العاهات : هذا يحجل على عكازين لم يتعلم كيف يحسن استعمالهما بعد لأنه منذ وقت قصير كان بساقين كسائر الناس ، وهذا يسحبه زميل يعرج ، وذاك قد وضع ذراعا فى حمالة مغلولة الى عنقه ، وآخر يطير الهواء ضماداته القذرة المبقعة بالدم فى ضوء الغسق الكابى فتبدو كأعلام صغيرة مشئومة ، وعميان يقودهم أنصاف عميان يظنون أنفسهم مبصرين ، وقد أعطى هؤلاء وأولئك مكان صدارة فى المظاهرة وكأن منظميها يباهون العالم بهم ، ومقعدون يدرجون على طاولات صغيرة ذات عجلات وقد قدموا أنصافهم السفلى قربانا على

مذبح الوطنية ، والناس الذين لم يصبهم ضر قد اصطفوا على الجانبين يهللون لهم ، ويلوحون ، ويصفقون ، ويهتفون مشجعين ، وينكتون معهم على عاهاتهم فيتبادلون جميعا ضحكات شجاعة تنبىء عن أن الكل أبطال صناديد لا يقيمون لتلك العاهات وزنا ، وقد وقع الكل فى اسار فيض دافق من الحمية الوطنية ، كان يبلغ ذروته فيصل الى درجة السعار كلما كان المشوه الذى يمر بين صفى المشجعين حطاما لايرجى منه باعتبار أن بطولة المرء تكون فى القمة كلما فقد من أعضائه أكثر ، مما أثار بين المشاهدين مناقشات حامية أوشكت أن تنقلب الى شجار أو مراهنات ، انصبت كلها على المفاضلة بين عاهة هذا وتشويه ذاك ، وهل مقطوع الذراع أفضل أم مقطوع الساقين أم الأعمى أم فاقد نصفه الأسفل .

سار ذلك القطيع الشائه ، بطيئا ، متلويا ، فى وحول شارع بوبلار وأوساخه، ساحبا حواشيه من غير المشوهين معه ، والابطال يحاولون بما بقى فى أجسادهم من قوة أن يتموا مسيرتهم، منشدين أناشيدهم، باعثين فى الجو حولهم نتنا غطى على نتن ذلك الحى وكبح جماحه بخليط من رائحة الجروح والضمادات القذرة والمطهرات والانفاس التى تنتنت من فرط جوع .

والعجيب أن ذلك الحشد من المتظاهرين ذوى البزات العسكرية ، لم يخل من مدنيين معظمهم كانوا شبانا ذوى ثياب أنيقة لم تطاوعهم قلوبهم على التخلف عن تلك المسيرة البطولية ، فشاركوا أصحابهم المشوهين الذين جمعتهم بهم تلك اللحظة التاريخية هتافهم واحتجاجهم ، مطالبين معهم بأن ينتهى العمل على السفن بأسرع ما يمكن، حتى يتسنى شحنها بمزيد من اللحم الذاهب الى المذبحة ، بمزيد من الرجال الأصحاء الذين ما زالت لهم أذرع وسيقان وأعين بها يبصرون ، وكأنما أولئك الجرحى ، المنبوذون ، الذين لم يعد فيهم نفع لأحد ، كانوا يتحرقون شوقا الى زيادة عددهم بوافدين جدد . فالشقاء الانسانى يتصف دائما بغريزة لا تقاوم تدفعه دفعا أعمى الى التكاثر .

وفجأة سرت موجة اثارة ، وانتشرت شائعة بأن المتظاهرين فى طريقهم الى دار البلدية ليطالبوا بتدخل البوليس ضد المضربين الخونة .

وهنا اكتفى مستر كوكس بما رآه ، ودار على عقبيه قاصدا داره، وقد حل الظلام فى تلك الأماكن ضعيفة الاضاءة . لكن الشوارع كانت

مكتظة بالناس . ففي كل ركن جماعة تناقش أحداث اليوم . ومعظم سكان الحى ، بطبيعة الحال ، كانوا فى صف العمال . الحقيقة أن تكهناتهم عن المظاهرة ومنظميها والغرض منهـا قاربت كثـيرا كبد الحقيقة .

كل تلك الاشياء أزعجت مستر كوكس كثيرا ، فحث خطـاه يريد أن يبلغ بيتـه فيوصـد بابه ويطمئن وراءه . كان يمقت الاضطرابات من أى نوع كان ويحس لها قلقا وغيظا من أناس غير محددين تماما فى ذهنه ينقم عليهم ويحملهم وزر ذلك القلق الذى يعانيه . ولقد غلبه فى تلك اللحظة قلقه فلم يستطع أن يواصل السير قدما الى بيته ، وعرج على أول حانة قابلته ، فطلب كأسا من الويسكى لـكن طعم الويسكى كان فظيعا ، فبصقه أرضا وهو يسب ويلعن ، وقال فى نفسه هؤلاء الناس ناس أم حيوانات ؟

وعندما خرج من الحانة اصطدم به رجل غمغم شيئا غير مفهوم ثم أخذ يجرى ، فسمع كوكس لجريه صوتا معدنيا جعله موقنا من أن الرجل له ساق خشبية .

احس كوكس بالخوف ، وخطر له أنه عرضـة لاى هجوم من جانب هؤلاء الناس ، بسبب ثيابه الانيقة قال فى نفسه :

ـ الواقع أنه من الغـرابة بمكان أنهم لايهاجموننا بمجـرد أن تسقط أنظارهم علينا . فنحن أقل منهم بكثير . فوق أنهم لايقيمون للحياة الانسانية وزنا ، لانهم يدركون أن حياتهم لا تساوى قلامة ظفر ، ويظنون أن كل الناس مثلهم ، لا تساوى حيـاتهم شيئا . والمصيبة انهم يكرهون من هو أعلى منهم ولا يدركون أنه أعلى منهم لانه يفوقهم عقلا .

لـكنه لم يسترسل فى خواطره ، لانه سمع وقع أقدام وراءه ، فاستدار بسرعة ، غير أنه لم يفعل ذلك بالسرعة الـكافية ، لان الذى كان وراءه عاجله بضربة ماحقة على رأسه فسقط ارضا دون أن يصدر عنه صوت .

انهار مستر كوكس على الطوار ، فأخذ يزحف ، يريد أن يلوذ بحائط بيت على بعد خطوات منه ، لـكنه تلقى ضربة أخرى أشد هولا من سابقتها ، فهمد فى مكانه ، وظل ملقى على الارض حتى عثرت به احدى داوريات البوليس ، فالتقطته وأخذته الى النقطة ، ومن هناك نقل الى المشرحة التى ظل فيها ثلاثة أيام الى أن تعرفت عليه أخته ، فأخذته ودفنته فى جبانة باترسى ، ووضعت على رأس

قبره شاهدا ، على شكل عمود مكسور ، كتب عليه : « ويليم كوكس ١٨٥٠ ــ ١٩٠٢ » .

***

كان العسكرى فيوكومبى قد تعقب السمسار طيلة ذلك الاصيل، منذ أن خرج من داره بعد القيلولة ، تماما كما قال له مستر بيتشام . ولم ينقض وقت طويل قبل أن يفطن العسكرى ، الذى لم يكن غرا ، الى أن عددا لا يستهان به من الناس كانوا يتعقبون السمسار مثله .

لم تكن لدى العسكرى أية نية محددة . فالمهمة التى كلفه بها مخدومه لم ترق فى عينيه على الاطلاق .لكنه كان قد بدأ ، ولذلك فانه وجد نفسه مرغما على الاستمرار فيما بدأ فيه .

كانت الشهور القليلة التى ذاق فيها سلاما نسبيا وشيئا من « الرخاء » فى شارع أولد أوك قد أفسدته . وأفسدته أكثر ايام الكسل والطعام الوفير فى ذلك الفندق الذى أخفاه مخدومه فيه عندما أعلن الحرب على زوج ابنته . ذاق طعم الحياة الرخية ذلك العسكرى ، فلم يعد من السهل عليه أن يعود الى ليالى البرد والجوع فى الشوارع ، خاصة والشتاء على الابواب .

ولا أدل على تردده من أنه سنحت له أكثر من فرصة ، اذ وجد نفسه على مقربة من طريدته فى الزحام ، لكنه لم يحس أدنى رغبة فى الحاق الاذى به .

وعندما دخل السمسار تلك الحانة ، فقد العسكرى مديته . كان مستندا الى سور خشبى والمدية فى يده ، فأخذ يطعن بها خشب السور واذا بها تسقط من يده فى القناة . وقد هم بتسلق السور والنزول الى الماء بحثا عنها ، لكنه لحظ أن السمسار لم يعد واقفا الى البار ، فجرى يعبر الشارع ، وعندما اصطدم بالرجل خارج الحان تملكه الخوف فجأة ، كأن الآخر هو الذى ينوى أن يهاجمه ليقتله ، لا العكس .

ثم بدأت المطاردة من جديد .

بدا واضحا لفيوكومبى أن رجلين غيره على الاقل يتعقبان نفس الطريدة ، يسيران متباعدين ويختفيان احيانا ، لكنهما ما يلبثان أن يظهرا كلما خلا الشارع الذى يقطعه كوكس من السابلة .

والحقيقة أنه لم يكن قد عاد هناك ما يدعوه الى السير فى أعقاب الرجل ، لانه لم يعد لديه ما يمكن أن يقتله به بعد أن فقد سكينه .

والحقيقة ايضا أنه لم يعد يفكر فى قتله . لكن خوفه من بيتشام وما يمكن لبيتشام أن يحرمه منه جعله يلصق فى ذيل السمسار .
ازدادت ظلمة الليل حلكة .

واحس العسكرى الاعرج غضبا بجتاحه . لم يكن غضبه موجها الى كوكس . أو الى بيتشام . كان غضبا مجردا أعمى ، غضبا مما يمكن أن يحدث له . ومرة أخرى بدأ يفكر فى طريقة تمكنه من قتل السمسار ، ما دام يجب ان يقتله ليعيش . وفى اللحظة ذاتها راى رجلا نحيلا يسرع فى أعقاب السمسار فيضربه على رأسه بكيس من الرمل أو شىء من هذا القبيل . أحس فيوكومبى رعبا يجتاحه للمنظر الذى رآه بوضوح . لكن كوكس ما لبث أن تحرك وأخذ يسير على أربع ، محاولا بلوغ أقرب حائط اليه ، ليحتمى به ، أو يستند اليه .

جمد العسكرى مكانه لحظة ، محاولا اختراق الظلام ببصره ، ثم سار بسرعة فعبر الشارع ووقف بجوار الرجل الذى يحاول أن يزحف الى الحائط .

أخذ يبحث بحركات بطيئة ثقيلة فى جيب سترته ، ثم فى جيب سرواله الخلفى . لكنه لم يجد السكين التى كان يبحث عنها . نظر الى يده الخاوية بدهشة . ثم استند الى الحائط وعيناه لاصقتان ببرود بالجسد الزاحف الذى يقىء تحت قدميه . وأخذ يحل أربطة ساقه الخشبية . واخيرا انفصلت الساق عن جسده واصبحت هراوة ثقيلة فى يده ، وبينما هو يضرب الرجل الملقى على الارض بهراوته ، على كتفيه ورأسه ، حتى يهشم رأسه ، أخذ يقفز على ساقه الباقية وهو يردد كالمجنون – ربما تعبيرا عن غيظه لكونها عاكسته وهو يحل أربطتها – « ساقى اللعينة ! ساقى اللعينة ! »

(١٤)

الرجل القوى يقاتل

كانت بولى جالسة مع السيدة والدتها ، فى غرفتها الوردية الصغيرة ، منهمكة فى حياكة ثياب طفلها المنتظر ، عندما دخل مستر بيرى وقال ان والدها يريد أن يتحدث اليها بأسفل ، فنزلت الدرج عدوا وابرتها ما زالت بين اصابعها ، والخيط يجرجر وراءها .

وجدت مستر بيتشام مرتديا بذلة يوم الاحد ، فلما رآها بادرها قائلا باقتضاب أنها ذاهبة معه فى زيارة لمحلات حرف «ب» .

سار الاب وابنته فى شارع أولد أوك . كان اليوم مشمسا ، فى أخريات الخريف ، والاوراق قد اصفرت على أشجارها ، وحبات كستناء تطفو سابحة على مياه القناة .

لزم بيتشام الصمت ، لانه لم يكن لديه ما يقوله لابنته . لكنها اعتبرت هذه النزهة بادرة صلح بينهما . وعزز الجو تفاؤلها . بدت أشد الشوارع فقرا جميلة فى ضوء الخريف الذهبى المترقرق ، فأحست بولى سعادة لم تعرفها من زمن طويل .

لم تكن قد سمعت شيئا من أوهارا حتى تلك اللحظة . لكن مستر كوكس لم يكن قد ظهر فى شارع أولد أوك ثانية . وأبوها هو الآخر ، بدا أكثر هدوءا من ذى قبل ، وكأنما التوتر الذى سود عيشهم طيلة الاسابيع الاخيرة قد تراخى فجأة .

فى أحد الشوارع الخلفية الكئيبة ، دخلا أول دكان . استقبلتهما امرأة بدينة وحولها على الارفف أدوات مطبخ ، ومعدات نجارة . كانت المرأة تعرف بولى ، ولذلك لم ترفض الاجابة عن أسئلة بيتشام ، ولو أنها فعلت ذلك بشىء من جهامة لم تستطع أن تتخلص منها تماما .

قالت انها لا تتسلم حاليا الا كميات محدودة للغاية من البضائع ، وأن من رحمة الله بهم ان زوجها يقوم بين الحين والحين بأعمال

صغيرة ، كاصلاح أدوات الحدائق والمصابيح وما أشبه ، والا لكانوا قد ماتوا كلهم جوعا . لكنهم تلقوا تأكيدات مؤخرا بأن التوريد سينتظم كسابق عهده . ثم قالت انهم يدفعون الايجار ، ولو أن هناك عدة شهور متأخرة ، فقد كانت هناك أسرة أخرى قبلهم ، وقد تركت لهم التركيبات والارفف مقابل أن يقوموا بسداد الايجار المتأخر .

قالت بولى تشرح الموقف لابيها وهما يسيران معا :

ــ كل هذه الدكاكين حديثة عهد بالوقوف على قدميها فى السوق ، فعمرها لا يزيد على ستة أشهر ، وقد كان القبض على ماك ضربة أصابت اصحابها فى الصميم . لكن الامور بدأت الآن تتحسن ، وأولئك الذين صمدوا سيعبرون المحنة بسلام .

فلم يعلق بيتشام على قولها بشىء . ســارا جنبا الى جنب فى صمت .

كان الدكان الثانى الذى زاراه دكان صانع أحـذية يعول نصف دستة من الاطفال ، الثلاثة الكبار منهم يعاونونه فى العمل ، مع أمهم . قال الرجل وزوجته أن لديهما كفايتهما من الجلد ــ حتى فى هذه الظروف . وأنهما حتى فى أسوأ فترة مرت بالدكاكين ، عندما لم يكن غيرهما يتسلم أى شىء على الاطلاق ، كان الجلد يصلهما بانتظام ، ولو أن الكميات نقصت . لكن معظم القطع التى يتسلمونها فيهـا عادم كثير بسبب تباين الالوان ، وأن ثمن ذلك العادم يخرج من جيبهما . فوق أن الزوج ، لسوء الحظ ، مريض ، والاضـاءة فى الورشة تكلفهما كثيرا ، لـكنهما مضــطران الى استخدامها طوال اليوم . قالت المرأة :

ــ ومع كل ذلك ، فالدكان ارحم من المصنع ، فالمرء لا تتاح له فرصة زيادة كسبه هناك .

أومأ بيتشام برأسه مؤمنا على ذلك ، ثم ســألها ان كان ثمن الاحذية يحدد بمعرفة الشركة التى تورد الجلـد ، فكان الجواب بالايجاب ، والمصيبة أنها أثمان منخفضة للغاية .

عندما خرجا الى الشارع ثانية ، سأل بيتشام ابنته :

ــ هل يسددون اثمان ما يورد اليهم اذن ؟

فقالت بولى أنها تعتقد أن اصحاب الدكاكين لايحصلون على كميات جديدة الا اذا سددوا قيمة ما قبلها . اخذت تنظر الى أبيها خلسة وقد انتابها خوف أن تكون الدكاكين قد أثارت امتعاضه ، لانه لم يقل اى شىء يفصح عن رأيه فيهـا . وفى الدكان الثالث لم يكد

صاحبه يبدأ الحديث معهما حتى انطلق فى حديث طويل عن الشغب الذى وقع فى الميناء . قال الرجل الطيب :

ـ انهم الشيوعيون أولاد الحـرام ! هم السبب فى كل شىء . يكسرون زجاج النوافذ وكأننا نحصل عليه مجانا من المصنع ! انهم يكرهوننا لان لدينا شيئا وهم ليس لديهم أى شىء . ولانهم لم يفلحوا فى حياتهم أبدا لايريدون أن يتركوا غيرهم يحاول وينجح . وكأن المهارة لم يعد لها وزن ، والاذكياء لا يجب أن يكونوا فى وضع أفضل من وضع الاغبياء . انهم أعداء المسيح بحق . هناك بعض منهم فى هذا البيت ذاته . انهم لا يشربون الخمر ، لـكنهم يفعلون ما هو أفظع ، آه ؟ لو سـارت الامـور على هواهم لجردوا المرء من كل ما لديه ، حتى الـكرسى الذى يقعد عليه ، وكأننا ليس لدينا ما يكفينا من المصائب ! لكن هناك شيئا واحدا لم يكن ينبغى لمستر ماكهيث أن يفعله أبدا . لم يكن يجدر به أن يصـبح شريكا لذلك اليهودى الملعون هارون . سيسبب له ذلك مشاكل لا نهاية لها .

ترك بيتشام الرجل يسترسل فى مونولوجه ، وأخـذ يدور فى الدكان . كان هناك عدد من الساعات الرخيصة ، فى صندوق عرض سطحه من زجاج ، معظمها منبهات ، وكميات من بضـائع أخرى كالملابس الداخلية ، والطباق .

ومع ذلك فالرجل وزوجته كانا مريضين . والظـاهر أن سابقيه لم يكونا أحسن منه حظا . فهو ثالث صاحب للدكان ، وثالث من حاول « الوقوف على قدميه » فيه . يبدو أن الامر لم يكن سهلا ، اذا ما أخذناه هو وزوجته معيارا . رغم ضخامة حجمه كان يبدو مقوس الظهر ، مشرفا على الهلاك ، والسيدة زوجته كانت كئيبة للغاية .

قالت بولى ، محزونة بعض الشىء ، عندما خرجت مع أبيها الى الشارع :

ـ عجيب أمر هذه الدكاكين . انها هكذا دائما . هل تريد أن ترى المزيد منها ؟

لم يقل أبوها شيئا ، فقالت ، بعـد صمت ، ومع ذلك فانهم يتمتعون باستقلال لا يتمتع به غيرهم ، ولا يخضعون لسلطان أحد ، فلا يضيرهم فى سبيل ذلك أن يعملوا كل ليلة حتى الساعات الاولى من الصباح ، وان يبدو عليهم شىء من السقم . قالت ذلك وأراحت ضميرها ، وان لم تستطع أن تتأكد من أنه سمع كلمة مما قالت .

لـكن مستر بيتشام كان يصغى لـكل كلمة ، بانتباه شديد .

فى صباح اليوم التالى ذهب الى بنك الائتمان الاهلى حيث قضى عدة ساعات ناقش الموقف من كل جوانبه ، خلالهـا ، مع مستر ميللر . والحقيقة أن مستر بيتشـام لم يكن فى حـاجة الى تلك المناقشات لـكى يصل الى النتيجة التى لم يكن مهرب من الوصول اليها ، وهى أن زوج ابنته هو الوحيد الذى يستطيع انقاذ البنك من الافلاس . وما من شك فى أن الطريقة التى توصل بها الى اقتحام ادارة ذلك البنك العتيد ، والاستيلاء على مركز السلطة فيه ، تكاد تكون جديرة بالاعجاب .

ومن جانب آخر كان مستر بيتشام قد خرج بانطباع حسن من زيارته لمحلات حرف «ب» • فتنظيمها لم يكن سيئا على الاطلاق • لم يغب عن فطنة بيتشام طبعا أن العملية مربحة بحق ، وان فكرة ماكهيث التى قامت عليها هذه الدكاكين تجعل من أولئك الناس المستقلين الذين يديرونها موردا لا ينضب لسيل لا بأس به من النقود يصب فى جيب ماكهيث •

وهكذا نتبين أن بولى لم تكن محقة فى خوفها من أن تحـدث الفاقة الظاهرة لـكل ذى عينين فى تلك الدكاكين أثرا سيئا فى نفس أبيها . لان مستر بيتشـام لم يكن ابن الامس ، بل رجـلا عرك الدنيا ، وأدرك أن الرخاء هو الوجه المقابل للاملاق ، والا فأين هو الرجل الذى فتح الله عليه فأثرى دون أن يكون هناك مقابله رجل حلت به نقمة الله فافتقر ؟ لم يكن مستر بيتشام ممن تخدعهم المظاهر، ولطالما قال أشياء كهذه :

— لو أراح الناس انفسهم وتركوا الفقراء فى حالهم ! ليس هناك من هم أشد ضررا من المصلحين الاجتماعيين . اذكر ضجة قامت مرة فى الصحف حول حى من الاحياء الفقيرة قيل وقتها انه لا يليق بسكنى البشر • وأنه غير صحى ، ويقتل من يسكنونه• فكانت النتيجة أن صدق بعضهم ذلك الهراء ، وهدم الحى بأكمله ، ونقل سـكانه الى مستعمرة سكنية أقيمت فيها بيوت جميلة ، صحية ، متينة ، مشمسة . لـكن بعضهم خطر له ، لحسن الحظ ، أن يمسـك احصائيات دقيقة استمرت خمس سنين . وبعدها تبين أن الحى القذر غير الصحى القديم كان أرحم من الحى المشـمس الجميـل الجديد ، لان نسبة الوفيات التى كانت فى الحى القديم ٢ ٪ ، ارتفعت فى الحى الجديد الى ٢٫٦ ٪ فكانت دهشة المصلحين عظيمة.

ولم يفطنوا طبعًا الى أن البيوت الجميلة الصحية الجديدة استتبعت زيادة فى الايجار تراوحت بين أربعة وثمانية شلنات فى الاسبوع ، كان على السكان أن يوفروها من المبالغ التى ينفقونها على الطعام . ذلك شيء لم يكن مصلحونا الاجتماعيون قد فكروا فيه !

الاهم من ذلك أن مواهب زوج ابنته أحدثت أثرا بالغا فى نفسه . رفع عينيه عن الاوراق التى كان آخذا فى دراستها مع ميللر ، وأخذ يحدق فى وجه العجوز بشرود ذهن ، وقد بدأ يسائل نفسه :

ألا يحتمل أن يكون العداء بينه وبين ماكهيث مجرد عداء طبيعى بين جيلين مختلفين ؟ ما من شك فى أنه أخطأ فى حق زوج ابنته ولم يقدره حق قدره ، فعامله كما لو كان مجرما بحق ، بينما هو، فى واقع الامر ، رجل أعمال موهوب ، متفان فى عمله ، وبعيد النظر بغير شك .

فى مساء ذلك اليوم ذاته ذهب بيتشام لزيارة محاميه ، الاستاذ والى ، فى بيته .

استقبله المحامى فى غرفة ضخمة باذخة تغطى أرضها سجاجيد فاخرة ثمينة ، وتكسو حيطانها بطانة من خشب مموج جميل ، زفى ركن منها ، بالقرب من مكتب بالغ الضخامة ، نباتات ذات أوراق عريضة لامعة الخضرة ، فى أصص من القيشانى رمادى اللون . قال له مستر والى بشيء من البرود :

ــ جئت بخصوص حكاية الطلاق ؟ اذا كنت تريد الصراحة ، هذه الدعوى لاتروق لى . لقد أقيم الدليل على زنا مستر ماكهيث . وسوف يعترف هو به . لكننى سمعت مؤخرا أن شريكك مستر كوكس سيستدعى لاداء الشهادة فى الدعوى المضادة التى أقامها ماكهيث ضدنا لاثبات خيانة ابنتك له . أنا مدرك طبعا أن هذه الدعوى المضادة ليست الا حركة بارعة من جانبه لاثارة الغبار والشوشرة علينا ، لكنها تعنى أن كمية لا يستهان بها من الغسيل القذر ستنشر على الملأ أثناء المحاكمة .

فسأله مستر بيتشام دهشا :

ــ يالله ! من ابن الحرام الذى خطر له ان يزج بكوكس فى هذه القضية ؟

ــ مستر ماكهيث . منذ بضعة أيام .

قال مستر بيتشام وهو مستغرق فى التفكير :

ـ كذا ! على أية حال . مستر كوكس مختف منذ يومين . لم يعد الى بيته منذ يوم أول أمس . والسيدة شقيقته ، التى يقيم معها ، تبدو قلقة عليه للغاية . مما يؤسف له أنه يميل الى مخالطة حثالة المجتمع بسبب بعض الرذائل التى أفضل عدم الخوض فيها . ولذلك فان غيابه هذا يجعل المرء ميالا الى القول أنه قد يكون حل به مكروه . أو ، بعبارة أخرى ، أخشى أن يكون مستر كوكس قد انسحب من مسرح الاحداث بطريقة دائمة ، بحيث لن نضطر الى أن نشغل أنفسنا بأمره بعد اليوم .

فقال مستر والى : آه ! وأمعن النظر فى وجه زائره ، مستغرقا فى التفكير ، بينما استرسل بيتشام قائلا :

ـ وأنا ، على أى حال ، قد قطعت كل علاقة لى فى العمل بالسيد كوكس هذا ، فقد كنت معه فى رحلة عمل الى ساوثمبتون عندما ادركت أى صنف من الرجال هو . وارجو مخلصا الا اضطر الى وصف المناظر المقززة الباعثة على الاشمئزاز التى رأيتها رأى العين وانا فى صحبته . منذ ذلك اليوم نفضت يدى منه .

ثم أقفل موضوع كوكس وقال ، بوجه لا تعبير فيه ، أن ابنته قد أخبرته مؤخرا أنها حامل من زوجها ، وان ذلك ، بطبيعة الحال، يغير الموقف تماما . فلم يعد هناك ، فيما يخصه ، اى مجال للتفكير فى الطلاق .

بدا الارتياح واضحا على الميتر والى . واستمر بيتشام فى الكلام، فسأل المحامى عن سير قضية القتل المتهم فيها زوج ابنته ، ونتيجتها المحتملة ، ولهجته تنبىء عن انه يتوقع حكما فى صالح ماك .

جلس المحامى يعبث بفتاحة خطابات على شكل سكين ويصغى الى موكله ، ثم قال :

ـ تأكد يامستر بيتشام أن زوج ابنتك سيخرج من ذلك السجن وقد برئت ساحته ، دون أن يلحق به اى ظل من ريبة . يمكنك أن تعتمد على فى ذلك . ولا تنس أن لديه دليل براءة لم يستخدمه بعد .

فقال بيتشام : عال ، وهم بالانصراف ، لكن المحامى قال فجأة :

ـ نعم ، ولكن الامر ليس بهذه السهولة ، ولن ينتهى على ما نرجو الا اذا وجد قاتل يصدر الحكم عليه بدلا من مستر ماكهيث . فبغير ذلك قد يطول الوقت قبل أن يحكم بالبراءة ، لان الدليل الذى يستند اليه ماك يجب أن يتم التحقق منه أولا . كلا يامستر بيتشام

نحن الذين أوقعناه فى هذا المأزق ، وعلينا الآن أن نساعده على الخروج منه .

قال ذلك ومال فى مقعده الى الوراء ، عاقدا يديه فوق كرشه العظيم ، ثم استطرد قائلا :

ـ وعليك أنت يا عزيزى بيتشام عبء القاء الضوء على الظروف التى أفضت الى موت مارى سوير . أعتقد انه وايلد الذى قدم نظرية فى دفاعه أمام قاضى الاحالة مؤداها أن المرأة مارى سوير ، بالنظر الى ظروفها الاقتصادية السيئة ، لم تكن فى حاجة الى قاتل يخلصها من حياتها . الحقيقة أن ظروفها كانت سيئة للغاية .

أدرك بيتشام ، منذ أول كلمة ، أن الاستاذ يرمى الى غاية بعينها ، وازداد يقينا وهو يستمع لذلك اللسان الذرب تتباطأ الكلمات عليه كما لو كان صاحبه يتلمس طريقة يقول بها ما يريد قوله ، وتحفظ عليه ، فى الوقت ذاته ، ماء وجهه . جلس بيتشام هادئا ، واضعا يديه المعروقتين بين ركبتيه ، ناظرا الى محاميه الذى تجنب النظر اليه ، وهو يستطرد فى حديثه بجهد واضح ، قائلا :

ـ لكن تلك النظرية ، لسوء الحظ ، لم تعد تقوم لها قائمة فى ضوء بعض الحقائق التى اتضحت مؤخرا .

هم الاستاذ والى واقفا ، واخذ يذرع السجادة السميكة التى اقتناها بفضل لسانه الذرب ، قائلا لزائره :

ـ أنت تعلم طبعا أن مارى سوير شوهدت كثيرا ، قبيل موتها ، فى صحبة رجل كان فى ظروف أسوا بكثير من ظروفها . ذلك الرجل عسكرى سابق اسمه فيوكومبى ، وقد ظهر أثناء نظر الدعوى وأدى الشهادة أمام قاضى الاحالة ، واعترف بأنه كان مع مسز سوير ليلة موتها ، بل وأنه صحبها حتى رصيف الميناء .

سكت المحامى ، وتوقف فجأة أمام بيتشام ، فنظر اليه بحدة وهو يقول :

ـ كان ذلك العسكرى آخر من رأى مارى سوير على قيد الحياة . والعجيب أن أحدا ممن سمعوا شهادته فى تلك الجلسة لم يفطن الى ما تنطوى عليه هذه الحقيقة من احتمالات . لكن المرء لا يجب أن ينسى أن كل الشهود فى هذه الدعوى من الطبقات الدنيا ، ولذلك فان عيونهم ـ التى أعماها الحقد على المتهم بسبب ثرائه ومكانته الاجتماعية ـ لم تبصر الحل الواضح الجلى لمعميات الدعوى ! حتى مقالات مجلة العاكس أسهبت فى وصف تلك الرحلة الاخيرة التى

قامت بها الضحية المسكينة فى صحبة ذلك العسكرى الذى ما من شك فى أنه كان يستغلها • هناك دليل ، يجب أن يكون هناك دليل — شهادة الجيران أو أى شىء من هذا القبيل — على التأثير الشيطانى الذى كان لذلك العسكرى على المرأة المنكودة الحظ • لقد استغل وحدتها وضعفها ، فتسلل الى بيتها الآمن ، بينما زوجها ، العسكرى هو الآخر ، يقاتل فى الجبهة ، دون أن يقيم وزنا لحق الزمالة • فهو رجل وجد متعة شيطانية فى أغواء زوجة زميله ولم يتورع عن مضاجعتها فى غرفة صغيرة ، أمام طفليها الصغيرين ! وعندما سمع ذلك الوحش الآدمى بالصداقة غير العادية والعطف الابوى اللذين يعامل بهما مستر ماكهيث أقل مستخدميه شأنا ، أخذ يحرض تلك المرأة ليل نهار أن تستغل الفرصة السانحة وتبتز شيئا من المال من ذلك الرجل المتلىء صداقة وودا . ولعل المرأة المسكينة التى احتفظت رغم كل شىء باحترامها لنفسها ومتانة خلقها ، خجلت مما طلبه منها عشيقها ، فرفضت أن تعض اليد التى أحسنت اليها ، وتورعت عن ابتزاز شىء من مستر ماكهيث . وهكذا فانه من يدرى ما الذى يمكن أن يكون قد حدث فى تلك الليلة ؟ لعل شجارا نشب بينها وبين ذلك العسكرى الاعرج القواد على رصيف الميناء .. من يدرى ؟ على اية حال لدينا شهادة أحد عمال الميناء . تلك الشهادة تثبت أنه بينما كان ذلك العامل يتنزه ، ليلة الجريمة ، رأى المدعو فيوكومبى عائدا وحده من رصيف الميناء. يا مستر بيتشام! (وهنا جلجل صوت المحامى) ان نفس المنطق الذى يجعل من السخف ان يدعى أحد أن رجل الاعمال والبنوك الثرى الناجح مستر ماكهيث يمكن أن يقتل المدعوة مارى سوير،ذلك المنطق عينه يقول أن القاتل لابد أن يكون ذلك العسكرى المفلس الذى جردته الحرب وجرده الفقر من كل انسانية وجعلاه وحشا فى ثياب انسان . انها مسألة تعليم طبعا • فالحرب التى ترفع الرجل المتعلم الى مستوى رفيع من البطولة والتضحية بالذات فى سبيل أنبل المثل ، لا يكون لها من أثر على السفلة الا أن توقظ فى نفوسهم المعتمة احط الغرائز واشدها ظمأ الى الدماء . والاسوأ من ذلك كله انهم ينساقون الى هذه الوحشية بدافع الكسب المادى وحده . بدافع الكسب من اى نوع . بدافع الاغتصاب واللذة الحسية . بدافع من شهوة القتل ذاتها التى يلغون فى الدماء ليشبعوها • لان هؤلاء السفلة لا يعرفون روح التنافس النبيلة المقدامة التى تدفع غيرهم الى التضحية بكل

مرتخص وغال لبلوغ القمة ، ولا يطوون الجوانح على طموح لا يهدأ هو الذى يدفع سواهم الى التفوق على أنفسهم . وسواهم ، بطبيعة الحال ، أبناء الطبقات المثقفة . الناس أمثال فيوكومبى هذا ، الذين من حثالة المجتمع ، أى تعليم يحصلون عليه ؟ لا شيء تقريبا ! ذلك القدر الضئيل من التعليم لا يمكن أن يكون له أثر حاسم على تكوينهم النفسى .. فوق أنهم لا يذهبون الى المدارس ليتعلموا، بل ليجدوا فى الفصول المدفأة شيئا من الدفء الذى يفتقدونه فى بيوتهم .. ان لم يكن ليهربوا بعض الوقت من الصفعات والركلات التى تنهال على أقفيتهم وأعجازهم فى البيت . وعندما يخرج الواحد منهم الى معترك الحياة لا يكسب من المال شيئا يذكر . لماذا ؟ لانه غبى وجاهل . وذلك القدر الضئيل الذى يكسبه سرعان ما ينفقه بغير حساب . مثل هذا العسكرى الاعرج . ماذا فعل بالتعويض السخى الذى دفعتـه له حكومة صاحبة الجلالة ؟ ضيعه فيما لا ينفع . تسرب من بين أصابعه كالماء . اذ ذاك وجد نفسه مفلسا . وأنت سيد العارفين يا مستر بيتشام : لندن ليست روضة أطفال ، فلا مكان فيها للمفلسين . وهكذا يحاول صاحبنا أن يشحذ . لـكنه يفشل حتى فى ذلك ، ربما لانه لايتوصل الى اقناع المحسنين بأنه جدير بالصدقة. وبذلك يصل الى حالة ذهنية تجرده فيها أقل بادرة كسب من كل تحكم فى نفسه ، فلا يتورع عن القتل ، بل هو يجب أن يقتل . يقتل أى انسان ، ما دام ذلك سيدر عليه بضع شلنات ! وذلك كله ليس ذنبنا . لـكنه ذنب الطبيعة التى لا تتوخى المساواة فى توزيع عطاياها فتتسبب بذلك فى جعل ذلك الرجل وحشا وقاتلا من خلال افتقاره الى التعليم ، وتحت تأثير ظروف البيئة . ذلك شيء لا نستطيع أن ننكره . لكن أى ذنب لنـا فيه ؟ من ذا الذى يستطيع أن يغـير من طباع الطبيعة ؟

توقف المحامى لحظة متأثرا غاية التـأثر بفصاحتـه ، محدقا فى الثريا البللورية التى فوق رأسه ، لحظة ، مستطردا بعـد ذلك بخفوت :

ــ أستطيـع أن أسمعك الان معترضا على قولى بقولك ولـكن مارى سوير هذه كانت امرأة معدمة لا تملك شروى نقير ، ولا يعقل أن تحمل فى جيبها شيئا يغرى أحدا بقتلها . لـكنك اذا اعترضت هذا الاعتراض تكون قد نسيت ما أوضحته لك لتوى من أن شجارا لابد قد وقع بين العسكرى ومسز سوير المسكينة ، وأن العيـار

لابد قد أفلت من الرجل الفظ ، الذى علمته الحرب أن يقتل ، وهو يحاول أن يرغم تلك السيدة الضعيفة على أن تفعل ما ظلت ترفض فعله حتى تلك اللحظة . حتى ولو لم يكن فى حوزة الضحية شيء يذكر ، ما الذى يمنع رجلا مثل هذا من أن يقتلها ليسرق منهـا بضعة بنسـات ؟ ياسلام ! نستكثر على مثل هذا أن يقتل فى سبيل بضعة بنسات ؟ نستبعد أن تساوى حياة انسان بضعة بنسات ؟ هل هذا ممكن ؟ يا سادتى ! (وهنا جلجل صوت المحامى ، وقـد جرفه عباب فصاحته ، ونسى انه فى بيته وليس فى المحكمة) نظرة واحدة تلقونها على مدينتنا العظيمة كافية للـكشف عن فظائع لا تصدق ! عن أهوال ! نعم شيء كهذا يمكن أن يحدث ! ما قيمـة بضعة بنسات بالنسبة اليكم أيها السـادة ؟ بل ما قيمـة بضـعة جنيهات ؟ كم يجب أن يكون فى جيب الضحية حتى تقدموا أنتم على ... ولكننى لن أذهب الى أبعد من هذا فى تقريب الصورة الى أذهانكم . فقط أسألـكم : هل تعرفون عذاب البرد والجوع فى ليلة تقضى تحت البواكى ؟ دعونى أصف مثل تلك الليلة لـكم !

أفاق الاستاذ الى نفسـه وهو على بعد خطوتين من وجه مستر بيتشام الجهم ، فسحب يديه المبسوطتين أمامه بسرعة ، اختتـم مرافعته بشيء من شرود الذهن ، وكأنه يحاول أن يختزن فى حافظته النقاط الاساسية من ذلك الدفاع البارع المرتجل لمرافعته الحقيقية المقبلة :

ــ وهكذا ألخص مرافعتى : الظروف التى قد تكون السبب فى اقدام مارى سوير على الانتحار ، ظروف فقرها المدقع ، هى عينها الظروف التى قد تكون السبب فى اقدام جورج فيوكومبى ، وهو أشد منها فقرا ، على قتلها . لاننى كلما حاولت أن أكتشف المجرم الذى ارتكب جريمة ما ، ساءلت نفسى : من المستفيد من هـذه الجريمة ؟ ان الشخص الذى لديه الدافع ، يا سيـادة القـاضى ويا حضرات المحلفين ، هو الشخص الذى ارتكب الجريمة ، ولا أحد سواه !

اختتم الاستاذ والى مرافعته ونظرة ورع واستشهاد على وجهه السمين ، بينما جلس الحجة الاول فى شـئون الفقر والشـقاء فى الجزر البريطانية منصتا اليه باستغراق كامل ، وعلى وجهه الجهم نظرة تنم عن موافقته التامة على كل كلمة قيلت .

معركة رصيف جزر الهند الغربية

الليل عاصف ، والبحر قد علا موجه
لـكن السفينة الشجاعة يجب أن تقاوم .
لم يرتفع صوت الجرس بهذا الرنين المرتعش ؟
حذار ! هناك شعبة صخرية فى طريق السفينة .
انظروا كيف يصمد كل صنديد فى موقعه .
يقاتل البحر العاتي فى سبيل الوطن .
والموت منه قاب قوسين ، قاب قوسين ،
رجال بواسل كلهم ، لا يهابون .
لـكن صوت الجرس يعلو على صوت الريح بنذير مشئوم :
لا جدوى من نضالهم ، فالسفينة تنشع بالماء .
استعدوا يا أبطال لما يجب أن يكون !
وجهتنا الان الابدية !
ليكن الله فى عوننا الان !
فنحن فى طريقنا الى نومتنا الاخيرة فى قاع المحيط .
ليكن الله فى عوننا الان !

(اغنية « قسمة البحار »)

لم يعثر على جثة كوكس الا بعد ثلاثة أيام من مقتله ، عندما اكتشفته أخته فى مشرحة شارع بوبلار . وللفور اهتمت الصحافة بالحادث ، فربطت ، بطريقة مباشرة ، بين مصرع رجل الاعمال كوكس وبين اضراب عمال الميناء الذى كان قد بات محل اهتمام متزايد من جانب الرأى العام . قالت الصحف :

« ليس هناك أدنى شك فى أن ويليم كوكس قد سقط فى ميدان الشرف ، فى سبيل وطنه . فكافة التحريات التى قام بها البوليس تثبت أن المضربين لم يتورعوا فى تطرفهم حتى عن ارتكاب جرائم القتل ومن المعروف الان أن مستر كوكس ، بالتعاون مع الحكومة

كان يقوم بتنظيم تسهيلات النقل البحرى للقوات المسلحة • وعلى الحكومة أن تدرك جيدا أنها مالم توفر الحماية الكاملة الفعالة للمواطنين المحترمين الذين يعملون فى خدمة وطنهم ، فانها سرعان ما سوف تجد نفسها وحيدة فى الميدان بغير عون من رجال أعمال يشدون أزرها • ومن المصادفات المفجعة أن يفقد مستر كوكس حياته فى نفس الوقت الذى سارت فيه مظاهرة نبيلة من الجنود الجرحى دفاعا عن مصالح الوطن ضد عبث المخربين المستغلين • ففى يوم الثلاثاء الماضى تظاهر مئات من جرحى ومشوهى الحرب ضد اضراب عمال الميناء المتسم بالخسة والخيانة • فبسبب الاضراب الغادر بات مقضيا بالفناء على جنودنا الابطال الذين يقاتلون فى ميفكينج وقد طال انتظارهم للقوات التى ستحل محلهم بعد أن ارهقهم القتال طوال الشهور الماضية • وكلنا نعرف أن هؤلاء العمال يضربون ابتغاء الحصول على بضعة بنسات زيادة فى أجورهم فكأنهم يحكمون بالموت والفناء على جنود الامبراطورية البواسل فى سبيل حفنة من النقود لا تكفى حتى لشراء زوج من الاحذية ! ان الظروف الحالية التى تمر بها البلاد لا يجب أن تستغل ، ولن نسمح بأن تستغل ، فى مثل هذا النوع القمىء من الابتزاز الذى لا يفيد منه حتى أصحابه • ان أفضل العقول فى بلادنا تعمل ليل نهار فى سبيل خفض تكاليف المعيشة الى الحد الادنى • وها نحن اليوم نسعد بتلقى أنباء من نوع آخر تدين بنبلها مثل هذا الابتزاز الرخيص من جانب المضربين ، تثبت لنا أن دنيا الاعمال تحاول جاهدة ، بلا هوادة ، حتى على حساب أرباحها ، أن تخفض أسعار السلع الى أدنى حد ممكن • فقد اتفقت كلمة مؤسستين من المؤسسات التجارية الكبرى ، هما محلات كرستون ، ومحلات هارون ، ومعهما عدد لا يستهان به من صغار أصحاب المحلات المستقلين ، على تكتيل الموارد ، والانضمام الى محلات حرف «ب» ذائعة الصيت ، وتخفيض الاسعار طبقا للنظام المعمول به فى محلات حرف «ب» ، خدمة للمستهلك • ولكن كيف يمكن أن تؤتى مثل هذه الوطنية ثمارها ، وهناك قطاع من الشعب لاخلاق له يصر على اقتضاء رطله من اللحم حتى آخر درهم (١) ؟ليس هناك من ينكر على العمال حقهم فى الحصول على عائد يكافىء جهدهم ، شأنهم فى ذلك شأن أية طبقة أخرى من طبقات المجتمع • لكن الوسائل

(١) ايماء الى رطل اللحم الذى أصر اليهودى شايلوك على اقتضائه من جسد مدينه فى « تاجر البندقية » *

التى استخدمت فى هذه الحالة وسائل لايمكن تبريرها بحال ، خاصة فى وقت تقاتل فيه الامبراطورية دفاعاً عن بقائها، وهو وقت يجب أن يكون كل مواطن على أتم استعداد فيه للتضحية بما يجب عليه أن يضحى به • ولعلنا لا نكون مسرفين فى التفاؤل اذا ما توقعنا أن تعدل الحكومة عن تقاعسها ، وتتخذ ما كان ينبغى لها أن تتخذه من اجراءات مشددة من مبدأ الامر • فما من شك فى أن مصرع المرحوم ويليم كوكس مثل صارخ على فظاعة الهوة التى تردت فيها انجلترا على أيدى العناصر غير المسئولة » •

لكن الحكومة ـ فى حقيقة الامر ـ لم تهب لاداء واجبها ، الا بعد ان وقعت عدة أشياء أخرى ، منها سلسلة من الاحاديث الصحفية أدلى بها مستر بيتشام بوصفه رئيسا لمجلس ادارة شركة النقل البحرى • عبر مستر بيتشام عن حزن شركته الذى لايوصف لفقدها مستشارا اقتصاديا لا يعوض كالمرحوم مستر كوكس ، وأسهب فى تعداد مناقب الفقيد والتغنى بأخلاقه الرفيعة ووطنيته الصادقة • ولم يكتف مستر بيتشام بذلك التأبين وفاء منه لذكرى الصديق الراحل ، بل كرس كل وقته الثمين ، فى الفترة الواقعة بين إكتشاف الجثة ، وبين الجنازة ، للمسائل الخاصة بشركة النقل البحرى ، فقام ـ بناء على طلب السيدة أخت القتيل ـ بفحص كافة أوراق الفقيد بعناية فائقة وغربلتها جيدا • ولما تم له ذلك أعلن تلك السيدة أنه من المحتمل جدا ـ اذا سارت الامور على ما يرام ـ أن تحصل على ١٢٫٢٥٠ جك (اثنى عشر ألفا ومائتين وخمسين جنيها استرلينيا) هى حصة المرحوم شقيقها فى أعمال الشركة ، ثم أخذ معه وثيقة معينة خاصة بشئون الشركة ، موقع عليها من اثنين من أعضائها ، وأوراقا تتعلق بسفن معينة فى ساوثمبتون ، كما أخرج من اضابير مستر كوكس الاوراق الخاصة بشراء وبيع السفن القديمة الثلاث ، واخذها معه قائلا انها مطلوبة لانهاء أعمال خاصة بالشركة • وبينما هو غارق فى أوراق المرحوم ، وقع على اكتشاف أذهله • فقد وجد عقداً اخر مع الحكومة • كان ذلك العقد يخص سفن ساوثمبتون ، وقد تبين منه أن المرحوم ، بعد أن تمكن من شراء تلك السفن لحسابه بأموال الشركاء المغفلين فى شركة النقل البحرى ، لم يتردد فى عرضها على الحكومة لحسابه أيضا ، وأن أرباح هذه الصفقة الاخيرة وحدها بلغت ١٢٠٠٠٠ جك (مائة وعشرين ألفا من الجنيهات الاسترلينية) فأصيب مستر بيتشام بدوار ، حتى خشى أن يصاب بفالج ، من عظم المفاجأة ،

كان باب مكتب المرحوم مواربا ، وفى الغرفة المجاورة جلست بولى ومس كوكس تحيكان ثياب الحداد • هم بيتشام بأن يطلب منهما كوبا من الماء • لكنه خشى أن تلحظ المرأة كوكس شيئا • كانت تلك أعظم لحظات حياته خطرا وأشدها مآساوية • لكنه خرج منها منتصرا • أخذ يتنفس بعمق ، واحدى يديه تضغط صدره فوق قلبه الذى تسارعت دقاته ، حتى استعاد تحكمه فى نفسه ، وأعاد ملامح وجهه بجهد ، مستعينا بواجهة زجاجية لدولاب كتب ، الى جهامتها المعهودة ، ونظرة الحزن الكاذب التى كان قد أضافها الى تلك الجهامة فحشا جيوبه بأوراق المرحوم ، واستأذن من الانسة كوكس ، وأسرع من فوره الى مبنى الامبرالية •

وهناك وضع أنف مستر هيل فى الرغام ، وجعله ينقل كلا العقدين الى اسمه • ولم يكلفه ذلك الا التلويح بايصال الالف جنيه الذى استكتبه اياه كوكس ، مهددا بارساله الى الحكومة لاثبات تهمة الرشوة والتواطؤ على السيد هيل • ولم يقاوم هذا الاخير طويلا • فقد حطمته ميتة صديقه وأصابته بصدمة قال أنه لن يفيق منها أبدا •

بلغ ربح مستر بيتشام من العقد الاول زهاء ٢٩٠٠٠ جك (تسعة وعشرين الفا من الجنيهات الاسترلينية) . فوق أن سفن ساوثمبتون الجديدة لن تكلف أكثر من ٣٠٠٠٠ (ثلاثين الفا) . وهكذا فان مستر بيتشام ـ أثناء عودته الى البيت بعد أن حضر حرق جثمان كوكس ـ أسلم نفسه ، لاول مرة فى تلك الايام المحمومة ، لخواطره الخاصة . وكانت تلك الخواطر هكذا : قال بيتشام لنفسه عجيبة والله ! انظر كيف يمكن حل أشد مشكلات الاعمال تعقيدا بأبسط الوسائل العتيقة ! وما الذى نتعلمه من ذلك ؟ نتعلم أن حضارتنا التى نباهى بها كثيرا ليست بعيدة كل ذلك البعد الذى نتوهمه عن أيام انسان النياندرتال الذى كان يتخلص من عدوه ببساطة ، فيهشم له رأسه بهراوته . حكاية السفن هذه مثلا . بدأت بعقود ، واتفاقات ، ولجان معاينة وما أشبه ، وانتهت بجريمة قتل ! كم أكره القتل وسفك الدماء ! يا له من تراث ، تشمئز منه النفس ، من أيام البربرية الاولى ! لكن دنيا الاعمال تجعله ضرورة لا مهرب منها . لا يمكننا أن نستغنى عنه . ان القاتل فى مجتمعنا يعاقب . لكن اللاقاتل أيضا يعاقب ـ عقابا أشد فظاعة . كراول مثلا عوقب بالموت ، بسبب موقفه القدرى من حكاية السفن هذه . وحياة الفاقة والتشرد التى تهددتنى بعض الوقت أنا وأسرتى ليست

أقل فظاعة من السجن والموت . انها حكم بالسجن المؤبد والموت البطيء ! هناك أناس لا يكفون عن المناداة بنشر التعليم ، وايقاظ الضمائر وما الى ذلك . عظيم . لاشك ان هذه أشياء ضرورية . ولا شك أيضا أن صورة كوكس هذا ستتراءى لعينى كثيرا ، ولقاتله أيضا ، ذلك العسكرى ، أثناء النوم . لكن الضمير ، والخير ، والانسانية ، هذه كلها أشياء ليست قوية بما فيه الكفاية ؛ ليست قوية بأية حال ، وليست كافية للقضاء على القتل لان المغانم التى تعود من وراء ارتكابه عظيمة ، والخسائر التى تترتب علىعدم ارتكابه أفظع من أن تحتمل ! الواقع أن كوكس هذا مات ، أو ، بالاحرى ، قتل ، بطريقة طبيعية للغاية . لان استمرار وجوده بيننا كان مستحيلا ، لان الامور كانت ستتعقد بطريقة لا تطاق لو ظل على قيد الحياة . اما بعد أن غار عن وجوهنا ، فان كل شيء ، أو كل شيء تقريبا ، قد أصبح على ما يرام . نعم ، ان القتل ملاذ أخير ، آخر ما يجب أن يلوذ به المرء ، لكن ذلك لا ينفى أنه ما زال نافعا . والعجيب فى الامر أن هذا كله نشأ عن اشتراكنا معا فى عملية تجارية كهذه !

فى صباح اليوم التالى ذهب الى الميناء ثانية. وجد الموقف سيئا ، فالعمل يكاد يكون متوقفا على السفن الثلاث ، فاغتاظ ، وزاد غيظه عداء العمال المضربين ، وقد تجمهروا أمام أبواب الميناء ليمنعوا غيرهم من العمل . قال بمرارة لعدد من شحاذيه الذين كانوا يتجسسون على العمال :

ـ لا شيء غير القوة الغاشمة فى كل مكان ! أنا أعرف أن هؤلاء الناس لا يريدون أن يعملوا بالاجور التى أدفعها . انهم احرار فى ذلك . ولكن لم لا يدعون غيرهم يعمل ما داموا لا يريدون أن يعملوا؟ هناك من يحتاجون الى هذه الاجور ، مهما كانت ضئيلة لينقذوا عيالهم من الموت جوعا . فأى شيء يجعل هؤلاء الملاعين يستخدمون القوة ليمنعوا هذه المخلوقات المسكينة من العمل ؟ أليس لكل انسان الحق فى أن يكون حرا فيما يفعله أو لا يفعله ؟

الحقيقة أن الدنيا ضاقت فى وجهه .

ثم جاءته مفاجأة من ابنته وزوج ابنته .

كانت أنباء موت كوكس قد خلقت جوا غير عادى فى بيت آل بيتشام .

تسلط على بولى قلق عميق ، وبدت مهتمة اهتماما خاصا

بمواساة مس كوكس ومساعدتها فى ترتيبات الجنازة ، فلما سمحت لها أخت المرحوم بذلك ، قرت عينا وبدا أن قلقها هدأ بعض الشيء.

ومن جانب آخر فان الانباء المثيرة التى نشرتها الصحف عن اضراب عمال الميناء فتحت عينيها على المتاعب التى يعانى منها أبوها ، فرق قلبها لذلك الاب الذى يقاسى الامرين فى سبيلها وسبيل أمها ، وبعثت اليه برسالة ، عن طريق أمها ، تسأله فيها أن كان يريد حماية للعمال الذين يتحدون الاضراب ويعملون على سفنه ، قائلة أن زوجها يسعده كثيرا أن يضع تحت تصرفه من يهيئون تلك الحماية لعماله .

قالت مسز بيتشام لزوجها :

ـ أتعرف ؟ لقد تغيرت البنت كثيرا . يبدو أن المتاعب التى تعرضت لها فى الاونة الاخيرة علمتها كيف تقدر متاعب الآخرين . لم تعد تفكر فى نفسها فقط . وهى الان تريد أن تعرف ان كان بوسعها مساعدتك .

فلما استمع مستر بيتشام الى زوجته وهى تعرض اقتراح ابنته ، برطم قائلا : ان زوجها ذاك الذى تعرض مساعدته أكبر نصاب فى الوجود ! لكنه طلب من مسز بيتشام أن تقول لبولى أن بوسعها مناقشة الامر مع بيرى . وقد كان .

كان مستر ماكهيث قد قال ، عندما فاتحته بولى فى الامر :

ـ أن المرء لا يجب أن ينساق وراء حزازاته الشخصية عندما يكون الامر متعلقا بالنقود . لاشك فى أننا ، أنا ووالدك ، نختلف اختلافا بينا فى مزاجنا ووسائلنا . لكن الظروف تفرض علينا أن نتحد ونعمل معا .

بعث أوهارا بعدد من رجاله ـ نتيجة لهذه الاتصالات التى قامت بها بولى ـ الى أرصفة الميناء . ولم يكن أولئك الناس من الهواة . فسرعان ما أحس الجميع بدخولهم ميدان المعركة ، بما فرضوه من وسائل فعالة وحاسمة . حتى البوليس استفظع الطريقة التى تعاملوا بها مع العمال المضربين . نعم كان البوليس منظما فى محاولته تحطيم الاضراب . لكن رجال أوهارا تفوقوا عليه فى ناحية النظام هذه . كانوا يتصيدون العمال المضربين فيحطمون كل عظمة فى أجسادهم ، وينقضون بلا أدنى تردد على كل من ينم وجهه عن أنه جائع . وقد فرح المهندس المشرف على العمل كثيرا بتلك النجدة التى جاءت فى وقتها . قال لبيتشام ، بتأثر حقيقى ، ان الخير لم

يختف من الوجود تماما . فحتى هؤلاء الرجال الذين يتصفون بالخشونة ، فيهم بذرة من الخير ، والامر كله متوقف على الفرض الذى يستخدمون لاجله . كان المهندس متحمسا للغاية ، وقد أكد لبيتشام أن العمال الذين تحدوا الاضراب بدءوا يستمدون شجاعة جديدة ، ويزداد عددهم ، بعد هذه التطورات الاخيرة .

لكن أوهارا لم يكن متساهلا ، كذلك المهندس . فقد أخذ على رجاله البطء الذى سارت به الامور . ولذلك فانهم غيروا تكتيكهم . جمعوا عددا من المتسكعين واقتحموا مخزنا للاطعمة قرب الميناء .

وسرعان ما تطور الامر الى معركة حامية الوطيس عرفت فيما بعد ، فى سجلات شركة م.م.م. (التى انفقت على العملية) باسم « معركة رصيف جزر الهند الغربية » . وقد حسمت تلك المعركة مصير العمال المضربين .

عندما وجد البلطجى الذى كلفه أوهارا بقيادة رجاله ، حائطا صامدا من العمال الصامتين يعترض طريقه ، أطلق رعاعه فحطموا كل نوافذ المخزن ، وعندما اقتحموه لم يحاول العمال أن يدخلوا فى أعقابهم ، رغم أنهم كانوا جياعا ، ورغم أن المخزن كان مكدسا بالطعام ، لكنهم كفوا أنفسهم بجهد ، حتى لا تكون لهم يد فى عملية اقتحام ونهب كهذه . فلما لم يفلح رجال شركة م.م.م. فى استدراج « أعدائهم » الى ذلك الكمين ، تسلحوا بما طالته أيديهم من افخاذ الخنزير المدخنة وقطع اللحم وهاجموا أولئك الجياع بها . سقط عامل كان نصف ميت على قدميه من الجوع ، من ضربة تلقاها على رأسه بفخذ من اللحم البقرى ، وأصيب غيره بأوعية من اللحم المخلل فى وجوههم المهضومة ، فلما أخذوا يتخبطون ، وقد أعماهم السائل الذى أصابهم فى أعينهم ، وقعوا فى أيدى رجال البوليس . حتى أرغفة الخبز استخدمت كهراوات فى تلك المعركة . أصيب عدد من الاطفال الذين تبدو عليهم علامات الكساح بتلك الارغفة . الحقيقة أن أرغفة الخبز انقلبت فجأة الى أسلحة رهيبة . امرأة عجوز كانت تحمل سلة فارغة كسرت ذراعها بضربة من رغيف زنة خمسة أرطال ، وقد اعتبرت ذراعها المكسورة دليل ادانة دامغا ، بعد ذلك فى المحكمة .

لم تكد تعرف أنباء المعركة حتى أصيبت الصحف بسعار حقيقى ، خاصة فيما يتعلق بالطريقة المعيبة التى استخدم بها « الشعب » المواد الفذائية . كتبت تلك الصحف تقول : « هذه عينة من بشاعات

الفوضى التى تبشر بها المبادىء الهدامة . هــذه عينة من الغـرائز البهيمية عندما تنطلق من عقالها . والحقيقة أن على أصـدقائنـا الاشتراكيين أن يعنوا بتجنب مثل هذه المشاهد المزرية اذا كانـوا يريدون أن يصدق أحد هجماتهم المتسمة بالـكذب والنفاق على النظام القائم ! »

والاهم من ذلك أن الحكومة ـ ابتـداء من تلك المعركة ـ بدأت تتخذ اجراءات مشددة تجاه المضربين ، وتتخذ موقفا صارما من مطالبهم .

لم يكد ينقضى يومان حتى استدعى الجيش للتدخل . أقامت قوات من الجنود الشبان ، الذين ينتظرون نقلهم الى جنوب افريقيا كردونا حول الميناء ، وقدمت حماية مسلحة للعمـال الذين تحدوا الاضراب . ولم تهدأ الحالة على الفور . فقد اضطرت القوات خلال الايام القليلة التالية الى اطلاق النار مرة أو مرتين ، لـكن العمـل كان قد استؤنف على السـفن ، وبات الانتهاء من ترميمها أمـرا مؤكدا .

كانت المعركة الأخيرة قصيرة ومريرة ، لكنها حاسـمة . معظم الجنود الذين خاضوها لحساب مستر بيتشام وشركة النقل البحرى كانوا من المجندين الذين يذهبون الى الميدان لاول مرة . نعم كانوا أقل جوعا من العمال ، ويرتدون ثيابا غير ممزقة . لكنهم لو خلعوا تلك الثياب وارتدوا ثياب العمال لمـا استطاع احد أن يميز بين الفئتين المقتتلتين ، لانهما من طبقة واحدة . والحقيقة ان أولئك الفتية لو تخلوا عن أسلحتهم وبزاتهم الرسميـة ، لبـدوا ، وهم يقاتلون العمال ، كما لو كانوا يقتتلون فيما بينهم .

لـكن المرء لا يجب أن ينسى أنهم كانوا يتكلمون نفس اللغـة ، وينطقونها بنفس اللهجة ، وأن الشتائم التى تقاذفوا بها كانت واحدة ، وان البندقية كلما انتزعت من يد الجندى الذى كان يضرب العمال بها ، كانت تتلقفها يد عامل لا تقل مهارة فى الضرب بها لطول مران على استخدام المطرقة . وانه حتى اذا كان العمال أقل دربة على ذلك النوع من القتال ، فانهم أناس رضعوا مع لبن امهاتهم ادراكا لكونهم وحدهم فى الحياة ، بغير نصير ، وأنهم ، اذا لم يحسنوا الذود عن انفسهم ، عرضة ، فى كل لحظة ، لان تطأهم الاقدام ، وان الجنود أيضا تعلموا ، من نفس المصدر ، انهم لا يقبضون أجورهم ليتسكعوا وانهم ، بغير أجورهم ، يكونون عرضة ، هم أيضا ، فى كل لحظة ،

لأن تطأهم الأقدام . ولذلك فانهم وقد اشتبكوا فى ذلك العراك ، قاتل كل منهم الاخر بنفس الضراوة التى يقاتل الجوع بها ، وبنفس الكراهية التى يكنها للمرض ، والفاقة ، وكل البلايا التى تجود عليه مدنيته العظيمة ويبتليه وطنه بها .

طلعت الصحف على قرائها بوصف مفصل للمعركة ، وقد اتفقت كلها ، مع اختلافات طفيفة ، فى تصويرها للموقف تحت عناوين كهذه : « جنود الامبراطورية الشبان ، الذين يتوثبون الى شد أزر زملائهم المقاتلين فى ميفكينج ، ينتزعون الناقلات التى ستأخذهم الى هناك ، من العمال المخربين ، بحد السلاح » .

لم يستغرق ترميم سفن مستر بيتشام وقتا طويلا بعد ذلك . والحقيقة أنه بعد أن هبت الصحافة ، وعالم الجريمة ، والقوات المسلحة لنصرته ، لم يعد أمامه الا الانتهاء من مضايقات مجموعة الشكليات المعقدة التى وضعت لحماية الامة من أى خديعة أو تدليس ولم يستغرقه ذلك وقتا ، ففى صباح يوم من أيام الجمعة ، قامت لجنة حكومية موقرة بتسلم التوابيت العائمة الثلاثة ، فى حفل مهيب ، وبعد أسبوع واحد لا أكثر كانت تمخر عباب البحر .

• كان الضباب كثيفا . وبالرغم من أن هذه القافلة كانت من القوافل الصغيرة الهزيلة ، اذا ما قورنت بغيرها ، الا أن أرصفة الميناء اكتظت بالجنود ، وأقارب الجنود ، وأعضاء الحكومة ، ورجال الصحافة. كان من الصعب أن يرى المرء شيئا مما يجرى ، لان المرء لم يكن مستطيعا أن يميز يده ذاتها فى الضباب . لكن السيد الوزير قال فى خطبته :

ـ أيها الاصدقاء . ان مستقبل انجلترا أمانة فى عنق شبابها . مستقبل انجلترا رهين بشجاعة أبنائها وقدرتهم على التضحية بالذات . ان انجلترا بأسرها تتهلل فى هذه اللحظة التى يبحر فيها ألفان من شبابها ، من زهرة شبابها ، على سفن صاحبة الجلالة ، ليضربوا للعالم كله مثلا عظيما فى البسالة ، والشجاعة ، والوطنية ، والبذل والفداء، ستظل أصداؤه تتردد على مر الدهور . انهم يبحرون وقلوبنا تحف بهم ، وقوة العناصر الغاشمة العمياء تخوطهم ، واعداء لئام لا يتورعون يتربصون بهم ، لكن وراء ظهورهم ينتصب سد منيع من عظمة بريطانيا ، ومجدها التليد ، وخلودها الذى لايزول . فوق أنهم من هذه اللحظة فصاعدا سيكونون أمانة بين يدى الله العلى القدير ، ونعم بالله حافظا ونصيرا .

وهكذا أبحرت السفن الثلاث ، شبه وحوش ضخمة غير واضحة المعالم فى الضباب ، فابتعدت عن أرصفة الميناء بين هتافات المودعين، وشهيق الامهات والزوجات ، والدوى النحاسى الصفيق لذلك المارش العسكرى الذى علا صخبه على كل صخب •

وبعد احدى عشرة ساعة لا أكثر ، والقافلة ما زالت فى بحر المانش ، غاصت « المتفائل » الى القاع فى الضباب ، آخذة معها كل كائن حى رماه نكد طالعه على ظهرها .

كارثة قومية أليمة

بعد الاعصار وبعد الظلام .
تستقر السفينة وتهمد فى القاع العميق ،
بغير رفيق الا خنزير البحر والقرش الذى أكل حتى اكتظ .
يسبحان متكاسلين حول تلك الصخرة الكئيبة الجرداء .
ومن كل أولئك الفتية الذين كانوا يفيضون مرحا وبسالة .
لم يستطع أحد أن يفلت من قبضة الموت التى لا ترحم •
هناك على أرض المحيط الباردة ،
يناموون كلهم بشفاه غاضت دماؤها ولم تعد تنبس ،
البحر من حولهم يتنفس بخفوت مغمغما نغمه العتيق
محذرا ، ولا من سميع :
أيها البحار خذ حذرك ، أيها البحار خذ حذرك !
والق سمعك الى أصوات الموج وأصوات الرياح •
نم هادئا ، نم هادئا ، أيها الملاح •
فتحت شعبة مرجانية يوجد مكان هادىء
ينتظرك ذات يوم أنت أيضا •

(أغنية « قسمة البحار »)

صكت صيحات باعة الصحف الثاقبة سمع مستر بيتشام وهو فى عربة امنيبوس تعبر به شارع اكسفورد ، فترجل من فوره . واشترى نسخة من الملحق الذى أصدرته الصحف ، فعلم أن سفينته « المتفائل » قد غرقت بمن عليها ، وأن هناك شائعات ملأت حى المال والاعمال عن مؤامرة تتعلق بتلك السفن التى يقال

الان أنها أبحرت وهي في حالة تجعلها غير صالحة لركوب البحر ،وان الجمهور يأمل أن يتمكن البوليس من اعتقال أولئك الاشخاص عديمي الاحساس بالمسئولية الذين كانت لهم يد في هذه الفاجعة ويقدمهم للمحاكمة بتهمة تعريض سلامة الامة للخطر . فلما قرأ مستر بيتشام هذا الكلام ، ذهب من فوره الى بيته .

كان باعة الصحف قد وصلوا بذلك الملحق الى شارع أولدأوك ، فوجد بيري منهمكا في قراءة نسخة منه عندما دخل ، وقد غاض لونه ، وانتابته رعشة ظاهرة . مر بيتشام بمدير أعماله فرمقه بنظرة جانبية مخيفة ، والرجل يحملق فيه ، فاغرا فاه ، وكأنه يرى شبحا عاد من القبر .

اما مسز بيتشام فاستقبلته ذلك الاستقبال الودود الذي تبديه كلما كانت قد عادت من القبو لتوها ، خاصة وأنها لم تكن قد سمعت شيئا بعد .

ذهب بيتشام رأسا الى الغرفة التي يحتفظ فيها بسجلاته وملفاته ، فأغلقها على نفسه ، وسمعته زوجته يذرع أرضها ، وهو يبرطم ، ساعة بعد ساعة ، فلما أرادت أن تحضر له عشاءه قرعت الباب مترددة ، لكنها لم تتلق جوابا ، فأحضرت الطعام وتركته أمام الباب ، على أمل أن يخرج فيأخذه . لكن الطعام ظل مكانه لم يمس . كان مستر بيتشام في انتظار من يأتي ليقبض عليه .

وفي تمام الحادية عشرة مساء ، بعد أربع عشرة ساعة من صدور الملحق ، نزل الى مكتبه وطلب بيري ، فلما جاء الرجل متصببا عرقا ، بعث به ليحضر صحف المساء ، فلما عاد بها قرأ بيتشام ملهوفا مانشيتاتها الضخمة : « كارثة قومية كبرى » و « الضباب مسئول عن غرق المتفائل » وتحت ذلك وصف للكارثة من واقع المعلومات التي عرفت عن الامر ، ولا شيء خلاف ذلك . فقد خلت تلك الطبعة من أية تكهنات عن أسباب الكارثة ، خاصة التكهنات التي تسرع البعض بنشرها في الطبعات السابقة . كل ما قيل في ذلك الشأن ، باقتضاب شديد ، أن الاميرالية تجري تحقيقا في الامر .

قرأ بيتشام كل ذلك ، كلمة كلمة ، ثم انخرط في العمل بهمة ونشاط ، فوضع ــ بالاشتراك مع بيري ــ خطة كاملة لاعادة تنظيم الورش بحيث تعمل بكل طاقاتها لتزويد أكثر من نصف شحاذيه بالثياب العسكرية والعاهات المختلقة . لم يكن مستر بيتشام من

أولئك الذين يهملون أعمالهم فى أوقات الازمات . والعمل الاساسى لمستر بيتشام هو الشحاذة . ولذلك فان كارثة قومية كهذه لم يكن من المقبول أخلاقيا أن تترك لتضيع هدراً · لان الكوارث التى من هذا النوع تعدل تماما — من وجهة نظر نشاط الاعمال القائم على الشحاذة — الانتصارات العسكرية الكبرى : هذه وتلك تنطوي على اعداد كبيرة من الضحايا ، وما من شك أن لندن بأسرها ، بعد التغطية الصحفية البارعة لانباء الكارثة ، والوصف المفجع الذى نشر عن غرق أولئك الاولاد ، ستكون على استعداد لان تعطى ، وتعطى بسخاء ، وأن كل شحاذ يرتدى بزة عسكرية من أى نوع ، ويتحلى بأبسط عاهة ، سيكون بطلا قوميا — بلا أدنى شك — طوال الايام القليلة المقبلة . فهل هذه فرصة يضيعها أحد ؟

استغرق بيتشام فى العمل عدة ساعات ، ثم نام قليلا ، تاركا ورشه جميعا تعمل بكل طاقاتها، فى انتاج الملابس العسكريةوالعاهات

وفى العاشرة صباحا قام بزيارة للامبرالية فقابل هيل مقابلةقصيرة لم تزد عن خمس دقائق ، ذهب بعدها الى سكوتلانديارد رأسا ·

كانت مقابلة هيل مفاجأة سارة بالنسبة اليه · بدا أن الحياة العسكرية علمت الرجل أن يتلقى ضربات القدر بهدوء ورباطة جأش. كان مكتبه يعج بالحركة والنشاط ، وأوامره تتتابع الى مرءوسيه ، سريعة ، حاسمة . فقد تقرر أن يقام حفل رسمى لتأبين الشهداء الابرار خلال يومين . جلس بيتشام يرقب كل ذلك بوجه لا يفصح عن شيء ، ثم انتهز لحظة هدوء فسأل هيل عن مصير العقد الثانى ، الخاص بسفن ساوثمبتون ، بعد التطورات الاخيرة ، فقال هيل أنه لايرى مدعاة للانزعاج ، طالما لم تثر فضيحة بخصوص العقد الاول .

فلما ذهب بيتشام الى سكوتلانديارد وروحه المعنوية فى السماك بسبب ذلك التأكيد ، واستقبله الحكمدار المساعد براون بارتياب لم يحسن اخفاءه ، لم يهتم كثيرا ، وقدم نفسه بوصفه رئيس مجلس ادارة شركة النقل البحرى ، وللتو تغيرت معاملة الضابط العظيم له ، وعندما أضاف بيتشام — عملا على ازالة أى لبس أو سوء فهم — أنه جاء بخصوص قضية ماكهيث (التى كانت قد تحددت جلسة قريبة لنظرها أمام محكمة الجنايات) ، انقلب الوضع تماما واصبح بيتشام هو المتفضل بالزيارة ، والشكر له ·

فلما وجد بيتشام الامور كذلك ، لم يجد ما يمنعه من الاستعانة بخبرة الحكمدار المساعد ومعلوماته ، فسأله عما ينبغى له أن يجيب به على أسئلة الصحفيين عن الاسباب التى يحتمل أنها أدت الى وقوع الكارثة . ولم يضن عليه مستر براون بالنصيحة ، فقال له : أنه لم يتم بعد التيقن من أسباب الحادث المؤسف ، لكن المعلومات التى لدى السلطات تبين أن السفينة المسماة « بالولد البحار » قد أصيبت بعطب خطير هى الاخرى ، وأنه من المحتمل جدا أن تكون السفينتان قد اصطدمتا فى الضباب .

انصرف بيتشام بعد ذلك على عجل فذهب الى ايستمان ، وقضى بقية ساعات الصباح معه ومع مون ــ اذ كان فينى لايزال فى المستشفى بعد أن أجريت له العملية ــ مستغرقين ثلاثتهم فى اجراء الحسابات النهائية الخاصة بسفن الشركة الثلاث . لم يكن أى من السيدين فى حالة تسمح له بالخوض فى تفاصيل تلك العملية الرهيبة من جديد ، فلم يكن أى منهما قد رأى سفن ساوثمبتون ، التى ظلا يعتقدان أنها هى التى أبحرت تحت أسماء السفن الثلاث القديمة النخرة ، ومع ذلك كانا فى ذعر مميت مما قد يتمخض عنه التحقيق المنتظر .

لم يحاول بيتشام أن يسرع ، فى طريق عودته الى البيت . تلكأ فى الشوارع عن عمد ، متسقطا الانباء ، منصتا لما يقوله الناس ، ولم يكن لاحد حديث الا الكارثة الاليمة .

أمام أحد دكاكين حرف «ب» كان صاحب الدكان واقفا يثرثر مع بعض المارة . سمعه بيتشام يقول :

ــ عندما يكون المرء تحت رحمة الريح والماء ، لا يمكنه أن يتكهن بما قد يقع له . ولا حيلة لأحد فى الضباب . هذه كلها أشياء من قوى الطبيعة ، من فعل العناصر المدمرة التى لا سلطان لاحد عليها . ليس هناك من تخلو حياته من المتاعب . لكن قضاء أخف من قضاء . تصوروا أن يغرق كل أولئك الاولاد المساكين فى هذا الضباب ، وفى هذا الجو أيضا ! انها كارثة مخيفة ! يقال أن صلاة ستقام على أرواحهم فى كنيسة القديس بولس يوم الجمعة القادم . مساكين . اراهن على أن الشيوعيين أولاد الحرام لهم يد فى هذا الملعوب .

قضى بيتشام طيلة بعد الظهر فى عمل متواصل مع بيرى .. تم تزويد عنبر خطابات الشحاذة بصيغ جديدة . بأيد راعشة كتبت أرامل الحرب ينعين أزواجهن الراقدين فى قبورهم المائية ، ويستجدين

العون من كرام المحسنين ليبدأن أعمالا صغيرة •• وقد كانت تلك هي المرة الاولى التى يرد فيها ذكر لدكاكين حرف «ب» في خطـــابات الشحاذة التى تنتجها ورش مستر بيتشام بالالوف •

لم تكن تلك الخطابات ترسل هكذا كيفما اتفق ، بل كانت عناوين المرسل اليهم تختار بعناية من سجلات كاملة دقيقة تضم أسماء وعناوين المحسنين ونقاط الضعف التى يمكن من خلالها النفاذ الى قلب كل منهم • والواقع أن مؤسسة مستر بيتشام اثبتت ، من كل النواحى، كفاءة عالية وقدرة على مجابهة كارثة قومية كبرى بتلك الضخامة •

لكن مستر بيتشام استدعى قرب المساء لمقابلة مساعد الحكمدار براون • وعندما هرع بيتشام اليه ، استقبله هذا الاخير بوجه مكفهر عابس لا يبشر بخير ، والاسوأ من ذلك أن ضابطين آخرين ، من كبار رجال سكوتلانديارد ، كانا معه فى مكتبه •

كانت غرفة الضابط العظيم كبيرة ، وعلى المكتب الضخم تمثـال برونزى للتيتان اطلس حاملا على ظهره ساعة تسمع دقاتها فى الغرفة بوضوح ، وفوق الحائط صورة كبيرة لدوق ويلنجتـون • قال كبير المفتشين بلهجة رسمية :

ـ ياسيد بيتشام • يؤسفنى أن اخبرك أن التقارير التى وصلتنا تفيد أن ناقلة الجنود المسماة « بالمتفائل » غرقت نتيجة لعطب داخلى بالغ الخطورة • وأجدنى مضطرا أن أبلغك أن مستر هيل قد أوقف عن عمله بالاميرالية ، وحددت اقامته فى بيته لحين صدور تعليمات أخرى • فهل لديك ما تقوله بخصوص هذا الموضوع ؟

جلس مستر بيتشام محدقا فى الحائط الذى أمامه بنظرة عمياء ، ثم قال :

ـ طبعا لدى ما أقوله بخصوص هذا الموضوع • فاعتقادى أن فى الامر جريمة •

امعن كبير المفتشين النظر فى وجه محدثه ، وعلى وجهه تعبير رسمى للغاية • لكن مستر بيتشام لم يعن كثيرا بالنظر اليه ، وهو يقول بصوت لا لون له ، بعد صمت قصير أحدث الاثر المطلوب فى نفوس سامعيه :

ـ أيها السادة ، طبعا كان لابد لهذه السفينة أن تغرق ، بغير عاصفة ، بغير اصطدام ، بغير خطأ من ماسك الدفة • كان لابد أن تغرق فى ذلك البحر الهادىء الذى لايشوب جوه الا شيء من الضباب• لم يكن من الممكن أن يحدث شيء غير ذلك • ولا حاجة بأحد الى اجراء

تحقيق ، أو احداث فضائح • كل ما نحن بحاجة اليه شيء من التفكير والتأمل فى طبائع الاشياء ، وشيء من الدراية بحـكومتنا ، وبكل حكومات البلدان المتحضرة ، وشيء من التدبر للطريقة التى نختار بها موظفينا الرسميين الذين يقع على عواتقهم عبء المحافظة على مصالح الدولة ، والطريقة التى ندربهم بها ، وكيف ولم يضعون أنفسهم فى خدمة الامة • ثم علينا بعد ذلك ، حتى نتبين لم يجب أن تغرق مثل هذه السفن ، أن نفكر قليـلا فى الغـرض الذى بنيت من أجله ، والطريقة التى بيعت بها ، والارباح التى ما من شك فى أنها قد أدخلتها فى جيوب كثيرين • متى تأملنا ، وتدبرنا ، وفكرنا جيدا فى كل ذلك ، بات متعينا علينا ـ شئنا أم لم نشأ ـ أن نصل الى يقين لا يطاوله أدنى شك كما قلت الان لتوى ، أن فى الامر ـ بغير شك ـ جريمة •

تبادل الضباط الثلاثة العظام النظر دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة • كان بيتشام هو الوحيد الذى ظل جالسا فى الغرفة ، لان الثلاثة هموا واقفين •

سكت مستر بيتشام لحظة ثم عاد يقول :

ـ لكنى مستطيع ، من وجهة نظر أخرى ، مغايرة تماما ، أن أصل الى نتيجة مختلفة • وجهة النظر الاخرى هذه تقوم على الايمان ايمانا راسخا ليس من مصلحة أحد زعزعته أو التشكيك فيه : الايمان بعظمة حكومتنا ، وأمانة كبار موظفيها ، ومتانة خلق ووطنية رجال أعمال هذه الامة ونزاهة شركاتها ، وعـدالة قضيتنا ، ونظـافة حربنا ، وانعدام الاثرة فى نفوس شعبنا المعتدل فى طعامه ، المتحفظ فى لباسه ، المتمسك بأهداب الشرف والامانة والاخلاق فى شئون حياته • فى ظل ايمان راسخ كهذا بأن كل شيء كما يجب أن يكـون ، ما الذى يجب أن يتصوره المرء بشأن ناقلة جنود تغرق بمن عليها فى بحر هادىء ؟ يجب على المرء ، بغير حاجة الى تحقيق ، وبرغم كل تحقيق ، أن يؤمن ايمانا لا يطاوله شك بأنه لا يمكن أن تكون فى الامر جريمة ، وان حادثا لاشك ، بل لابد ، قد وقع لتلك الناقلة • ولهذا فانى أقول لكم أنى لا أعتقد أن هناك جريمة ، ان فى الامر حادثا يؤسف له •

حملق مستر بيتشام فى وجه كل واحد من الثلاثة ، طويلا ، بعين لا تطرف ، قبل أن يستطرد قائلا :

ـ فاذا سمحتم لى حضراتكم بالمفاضلة بين هذين النقيضين ، واختيار احدى النتيجتين ، لاخترت الثـانية بلا أدنى تردد • لم ؟ لانهـا

الافضل بما لا يقاس . ولنفكر معا . سيقام ، اذا صح ما سمعته ، قداس على أرواح الشهداء خلال يومين ، تصلى فيه الامة كلها على أرواح جنود صاحبة الجلالة الذين غرقوا فى تلك الكارثة القومية . فهل ترون حضراتكم أنه من العقل فى شىء أن نثير بلبلة لا تؤمن عقباها ، قد تدفع أولئك الجنود من جرحى الحرب - الذين تظاهروا ، تحت حماية البوليس ، منذ وقت غير طويل ، مطالبين بالاسراع فى ابحار تلك الناقلات - الى التظاهر الآن ضد الحكومة لكونها قد اشترت تلك الناقلات عينها ؟ لقد قيل لى بالفعل أن هناك نبأ نشرته بعض الصحف يشير الى أن أولئك الجنود ينوون القيـــام بمظـاهرة كهذه فى حى الميناء .

لم يقل أحد شيئا . وعندما خرج مستر بيتشام من سكوتلانديارد لم يعترض طريقه أحد . فسار فى شوارع لندن يتنسم هواء الحرية ملء رئتيه ، متأملا الاعلام المنكسة على أبنية أعظم مدينة فى العالم حزنا على أبنائها الابطال .

تسوية الحسابات المعلقة

كان « الاب » رجلا ضخم الجثة عريض العظـــام ، وأحـــد ثلاثة ظلوا على قيد الحياة ممن كانوا يعرفـون ماكهيث أيام أن كان يدعى بيكيت . كان الاب يعمل مع أوهارا فى حارة رايد ، ويعجب كثيرا بالفتى الايرلندى نارى المزاج ، ويكن له ودا حقيقيا . وعندما كلفه ماكهيث بمراقبة بولى وأوهارا ، ذهب فأخبر صـديقه بذلك من فوره . أما البضائع التى أمر ماك باخلاء المخازن منها واعدامها ، فقد اشترك مع أوهارا فى بيعها لمنافسى ماك ، واقتسم الارباح مع صديقه . وقد عنى الاب خلال كل ذلك باقصاء جروتش عن الامر تماما . (كان جروتش ثالث الثلاثة) .

وبالاضافة الى ذلك كان الاب يعرف كل شىء تقريبا عن علاقة أوهارا بمسز ماكهيث ، لانه كان يؤمن بأنه من الافضـل للمرء أن يكون فى الصورة باستمرار ، قدر استطاعته .

وكان أيضا قد سار فى ذيل الرجل الذى هاجم كوكس وضربه على رأسه . لـكن صديقه أوهارا لم يكن يدرى أنه يعرف شيئا عن تلك الحكاية أيضا .

وقد حدث ، ذات صباح ، أن هاجم ثلاثة من رجال البوليس

المنزل رقم ٢٨ بحارة رايد ، ثم شقوا طريقهم الى المخازن الواقعة وراءه ، فأيقظوا الاب من نومه ، وانتزعوه من فراشه الدافىء ، ثم طلبوا منه بأدب جم أن يقودهم الى مكان تخزين البضائع .

لم يكن قد عاد هناك شيء يذكر ، لكن بضعة أشياء كانت ما زالت على الارفف هنا وهناك فحملها رجال البوليس وانصرفوا دون أن يكثروا فى الكلام .

ارتدى الاب ثيابه ببطء ولما لم يكن ينتظر مجيء أوهارا قبل الحادية عشرة ، فانه ذهب لزيارة ماكهيث فى السجن .

كان ماك يتناول أفطاره . لم يدع الاب يسترسل فى وصفه الغاضب لهجوم البوليس الغادر . قال له :

ــ ليس هناك ما يدعو للانزعاج . فالمخزن رقم ٢٨ قد أخلى منذ زمن طويل بناء على تعليماتى ، ولم يعد فيه شيء . فليتفضل البوليس ويفتش المكان .

قال الاب باكتئاب ، محاولا أن يجلس على المنضدة التى تحمل افطار ماك :

ــ من قال لك أن المخزن ليس فيه شيء ؟

فقال ماك وهو يغمس قطعة من التوست فى القهوة بيد ، ويزيح الاب بعيدا عن المنضدة باليد الاخرى :

ــ من قال لى ! هل نسيت انى أنا الذى أقول فى هذه الامور ؟ لقد أمرت باخلاء المخزن منذ وقت طويل .

ــ آه . لكنه لم يكن قد أخلى تماما . كنا ننوى أن ننقل بقية البضاعة غدا ، ولذلك فان هؤلاء الملاعين عندما داهمونا اليوم ، عثروا على بعض الاشياء .

استمر ماكهيث فى تناول طعامه ، وهو يقول بهدوء :

ــ كذا ؟ وما الذى وجده البوليس اذن ؟ هلا تفضلت فأخبرتنى ما الذى كنتم تفعلونه فى مخازنى اثناء غيابى ؟ أرجو الا تكونوا قد تورطتم فى شيء مخالف للقانون ، وان تكون فى حوزتكم فواتير تغطى كل شيء .

لم يقل الاب شيئا ، لانه لم يكن هناك ما يقال . ثم ما لبث أن غمغم ، بنبرة احتجاج :

ــ لقد جاءوا الى رقم ٢٨ رأسا .

قال ماكهيث وهو ينظر الى الاب بعينيه الدامعتين أبدا :

ــ ياحول الله !

اغتاظ الاب لتغير موقفه فجـأة . جلس على حافة المنضـدة بعد ان أفسح لنفسه مكانا ، فأزاح بيده الضخمة الاكواب والصحاف والفناجين ، ثم قال بصوت لا أثر لخنوعه السابق فيه :

ـ اسمع يابيكيت ياصاحبى . أنت ترتكب خطأ جسيما اذا تصورت أننا سنذهب الى السجن ارضاء لخاطرك ! ان نقيم لخاطرك وزنا . وأحب أن أقول لك ان أوهارا صديقى ، واننا لن يتخلى أحدنا عن الاخر ، حتى وان كان هناك من يخون أصدقاءه القدامى بنذالة ويحاول ان يدخلهم السجن ليخلو له الجو . فهمت ؟

استمر ماك فى تناول طعامه دون أن يبدو عليه أدنى تأثر بثورة الاخر ، ثم قال بهدوء :

ـ يمكنك أن تقول كل ماعندك أيها الاب ، لكن قم من فوق هذه المنضـدة الان ، والا جعلتهم يلقون بك خارجا ، حتى وان كنت صديقا قديما .

هم الاب واقفا بخشونة ، فأوشك أن يقلب المنضدة بما عليها . كان ينتفض غضبا :

ـ اذن فهذا هو ماتريد أن تفعله ؟ تريد أن تزيحنا من طريقك ؟ منذ اللحظة الاولى وأنت تغشنا وتسرقنابالاعيبك التى لا تنتهى . فى مبدأ الامر تدفع اجورا ثابتة لانك تريد ان تملأ مخازنك . ثم وقد اكتفيت ، فلم تعد بحاجة الى مزيد من البضائع ، تدفع لنا أجورنا بالقطعة . يجب أن تكون الامـور دائما على مرامك أنت وحـدك ، ووفقا لمصالحك . والان وقد انتهيت منا تريد أن تسـلمنا الى البوليس ! لقد أصبحت مديرا لاحد البنوك الان ، هه ؟ ولم تعد تدرى شيئا عما يجرى حولك ، أليس كذلك ؟

كف ماك عن الاكل لحظة وأخذ يتأمـل الاب بامعان ، ثم قال له بعذوبة :

ـ أنا لا أستثار بسهولة . يمكنك أن تقول كل مافى قلبك ، فلا تكتم عنى شيئا . لكنك يجب أن تذكر انك تلقيت أمرا صريحا منى لم تنفذه . أنت صديق أوهارا كما تقول . لكن من أين كان لى أن اعرف ذلك ؟ انه خنزير قذر لا امان له . ولذلك لم يخطر لى ببال أنه قد يكون هناك مغفل يتخذه صديقا ، ويصبح على استعداد لان يذهب الى السجن من اجله !

قال الاب والغضب الذى يغلى فى صدره يجعله يتهته :

ـ كذا .. كذا .. الافضل لك اذن ان تجد لك جاسوسا آخر

يتتبع زوجتك الفاجرة • وثق أنه سيفتح لك عينيك ، فيخبرك بالكثير مما لا تعرفه ! لايبدو أن كل اهل بيتك يشاركونك الرأى فى النفور من أوهارا . بوسعى ان اخبرك بذلك على الاقل !

جن جنونه غضبا . لكنه ظل يراقب غريمه بعين لا تغفل . فلم يكن الاب من السذاجة بحيث يستهين بأمر ماكهيث . غير أن ماك فوت عليه غرضه . جلس حيث كان لايحرك ساكنا ، ناظرا اليه بوجه جامد لايفصح عن شيء ، فلما تكلم لم يزد عن قوله :

ــ عال • معنى ذلك أنك مازلت يرجى منك ، وأنك لســـنت بالسوء الذى تحاول أن تصور به نفسك ، فقد نفذت امرا واحدا من أوامرى على الاقل ، وفتحت عينيك .

قال الاب وهو يخفض رأسه ناظرا الى الاخر بلؤم :

ــ نعم يابيكيت . فتحت عينى ــ قليلا . ولم أر زوجتك وهى تنام مع أوهارا فحسب ، بل رأيت ايضـــــا ما فعلته انت بذلك السمسار كوكس . تلك الضربة التى تلقاها على رأسه من كيس رمل لم تنزل من السماء !

وضع ماكهيث ملعقته فجأة ، وقد بدا عليه اهتمام حقيقى . قال للاخر :

ــ أحسنت والله . والان يجب أن تخبرنى بما رأيت . لانى لا اعرف عن الامر شيئا . اذن فظنونى كانت فى محلها . لقد بدا لى فعلا أن كوكس هذا مات بطريقة تثير الارتياب •

احس الاب انه تورط . كان يعرف ماكهيث حق المعرفة ، وقد أدرك ان لهجته صادقة وانه لم يكن يعلم عن الامر شــيئا • واذا لم تكن لماكهيث يد فى قتـــل السمســـار ، فلابد أن الجريمة من تدبير صديقه أوهارا ، وفى تلك الحالة يكون قد ثرثر بأكثر ممـــا يجب . وسرعان ماتبين انه قد فعل ذلك حقا . ظل ماكهيث ينظر اليه فى ترقب بعض الوقت ثم قال بصوت قد اصبح باردا فجأة :

ــ اسمع ياصاح . أنت لاتخدم نفسك بما تفعله الان . أنت وانا نعرف ان الشخص الوحيد الذى يستخدم كيس رمل فى الاجهاز على ضحاياه •هو جايلز • وأنا لا أعرفه شخصيا ــ كما تعلم أنت ــ لكنه من رجال صاحبك أوهارا ، أليس كذلك ؟ والان مادمنا قد وصلنا الى هذا الحد ، فالافضل أن تريح ضميرك تماما وتقول كل ماتعرف . ذلك أفضل لك . وسوف أعطيك نصـــيحة أرجو ان تقدرها حق قدرها • يحسن بك أن تنجو بجلدك من حارة رايداليوم

وان تحصل لنفسك على جواز سـفر وبعض المال لتقـوم برحلة طويلة خارج البلاد ! أنا لست عديم الرحمة كما تظن ، رغـم أنك مازلت مصرا على مناداتى ببيكيت ، بينمـا أسمى ماكهيث . ولسوف أغفر لك حتى جلوسك على مائدتى ، واعتبر ما قلته عن انسيدة زوجتى زلة لسان دفعك اليها الغضب . والان أمامك حتى الساعة الحادية عشرة لتحزم حقيبتك وتذهب الى صالون الحلاقة حيث سيعطونك ماأنت فى حاجة اليه . لكنى أعدك ، اذا ما سولت لك نفسك أن تتصل بأوهارا ، ولو لتقول له « وداعا » ، أو حتى « الجو جميل اليوم » ، أن تجد نفسك فى السجن قبل الحادية عشرة والنصف . يجب أن تفهم ذلك جيـدا . فموقفك سيىء بما فيه الكفاية .

كانت الصدمة أقسى من أن تسمح له بمزيد من الكلام ، وماكهيث هو الاخر كان لايريد أن يسمع . وفوق كل شىء كان لايريد أن يسمع عن بولى وأوهارا ، أو يفكر فيهما ، او يقابل مخلوقا بعد اليوم يحدثه عنهما .

لم يكن الاب يعـرف ذلك بطبيعة الحـال ، فلم يدرك أن رغبة ماكهيث فى ابعـاد كل من يمكن أن يذكـره بذلك الموضـوع كانت سببا فى انقاذه من مصير سيىء بحق .

عاد الى حارة رايد بذهن مشوش ، وقـد زايلته ثقته بنفسه ، وانتابه بدلا منها قلق وتوجس ، وهناك حزم حقيبة صغيرة وارتدى أفضل بذلة لديه . كانت الساعة قد بلغت العـاشرة عندما عبر البوابة الاولى فى طريقه الى الخروج من متاهة حارة رايد. وعنـدها رأى أوهارا مقبلا من البـاب الخارجى ، وقد تدلت سـيجارة بين شـفتيه ، فوقف موزعا بين رغبة ألحت عليه فى التحـدث الى صديقه القديم ، وبين خوفه من تجاهل تحذير ماكهيث له . فأوهارا بعد كل شىء ، صديق قديم ، وقد كان يعرف أمه جيدا .

وقف مترددا وراء الباب ، ولم يكن أوهارا قد رآه بعـد . ثم قر قراره على ما يجب أن يفعله .

خرج من مخبئه ومر بأوهارا مر الكـرام ، فلم ينظر اليـه أو يوجه اليه كلاما ، محدقا أمامه بنظرة لا تحيد ، مطبقا شفتيه وقد باتتا كشفرتين حادتين .

حملق أوهارا فى أعقابه دهشا .

وعندما خرج الاب الى الشارع ، ولم يعد يحس بنظرة صديقه

على ظهره ، تنفس الصعداء . لم يكن لديه شك فى أن أوهارا رأى الحقيبة التى فى يديه ، والبذلة الرمادية الانيقة التى ارتداها على غير عادة .

لكن أوهارا كان فى تلك اللحظة عينها مشرفا على خاتمة المطاف. ففى الحادية عشرة والنصف ألقى القبض عليه فى بيته .

لم ينزعج أوهارا كثيرا ، فدخل مبنى سكوتلانديارد هادىء الاعصاب ، غير مكترث لمن فيه . وعندما سمع أنه متهم بالسطو وتصريف المسروقات ضحك طويلا وقال انه اشترى تلك البضائع التى سلمها لشركة م٠م٠م٠ ، وأن الفواتير الدالة على الشراء تحت يد الشركة ، وما أسهل الرجوع اليها .

لكنه علم لفوره أن الاتهام القائم ضده موجه اليه من تلك الشركة ذاتها .

وهنا طلب أوهارا أن يواجه على الفور بمستر ماكهيث .

تمت المواجهة بعد الظهر فى زنزانة مستر ماكهيث ، بحضور لورد بلومزبرى ومستر براون من سكوتلانديارد . وقبل أن تتاح الفرصة لاوهارا لكى يفوه بكلمة ، تقدم مستر ماكهيث منه قائلا :

ـ ومن أين جئت بهذه البضائع التى ظللت توردها لمحلاتى طيلة الشهور الستة الماضية ؟

لم يفق أوهارا من دهشته الا بعد أن أغلق عليه السجان باب زنزانته الخاصة . ثم ما لبث الباب أن فتح وألقى الحراس داخلا بجايلز ، أخصائى القتل بكيس الرمل ، ليؤنس وحدته .

***

كان الاب على ظهر سفينة تمخر به أعالى البحار عندما تململت فى ذاكرة مستر ماكهيث جملة خلفها ذلك المجرم العجوز وراءه لتنغص عيش زعيمه ، جملة تدور حول « زوجتك الفاجرة » !

كان المطر ينهمر خارجا . أخذ ماك يذرع أرض زنزانته ، واضعا يديه فى جيبى سرواله ، منصتا لصوت المطر ، وهو يتوقف بغتة ، بين الحين والحين ، مطأطئا رأسه الشبيه برأس فجلة ، مصيخا السمع أكثر ، وافكار كهذه تجول بذهنه فتجعله يركل السجادة السميكة غيظا :

ـ ابن الحرام ! من رحمة الله انه فى السجن الان ! أستطيع بهذه الطريقة ، على الاقل ، أن أطمئن الى انه ليس معها . كثيرون من رجالى يتهموننى باللين والبطء فى اتخاذ القرارات . لكنى ، كلما

تأزمت الامور ، استطعت أن أحزم أمرى . فأنا خير من يدرك ان المرء يجب ان يكون حازما ، بين الحين والحين . يجب على المرء ان يكون على علم بكل ما يجرى حوله ، خاصة فى مجال عمله ، ويجب عليه أيضا أن يدع الامور تبلغ مداها « وتستوى » ، كالخراريج ، ثم فجأة ، كصاعقة تنقض من السماء الصافية ، يجب أن يضرب المرء ضربته ، ويثبت للجميع أنه الزعيم ، فيفقأ الخراج ، يقطع العرق ويسيح الدم ، ويكشف كل ماكان يجرى فى الخفاء ، بلا رحمة . اذ ذاك يصاب الكل بالشلل من فرط الخوف . لقد صبر الزعيم عليهم ، صبرا طويلا وانتظر . لكنه أخيرا ضرب ضربته . فلم يرحم حتى أقدم اصدقائه ، عندما اكتشف انهم كانوا يلعبون بذيولهم . هذا دأبه . لا يستطيع احد أن يخدعه .

ثم يعاود السير ، ليتوقف فجأة ، ويركل السجادة من جديد ، مفكرا :

– لم يعد من السهل ابدا أن يقتنى المرء زوجة فى هذه الايام . قديما كان المرء مستطيعا أن يبكر فى العودة الى البيت فيفاجىء عشيق زوجته مختبئا تحت الفراش ، أو بجانب الفراش ، فتنطبق السماء على الارض . بل كان يكفى أن يجد المرء زوجته واقفة مع رجل آخر فى الغرفة . أما الان فان ظروف التمدين ومقتضيات العمل تجعلها تكشف عن ساقيها لكل رجل يقابلها ، وفى بعض المكاتب يمارسون الحب وراء الدواليب بنفس السهولة التى يغسلون بها أيديهم ، لا بدافع الحب ذاته ، بل لكى يضيعوا وقت العمل ويسرقوا أموالنا نحن أرباب الاعمال ! وفى مثل هذا الجو الذى اصبح فيه الزنا سهلا مثل غسل اليدين ، بات من المستحيل أن يكتشف أحد خيانة أحد .

هز مستر ماكهيث رأسه وكأن ذلك كله يذهله ويتجاوز حدود تصوره ، ثم عاد ينصت لصوت المطر ، ويذرع أرض غرفته . وبعد قليل جلس الى مكتبه وتناول المستندات الخاصة بقضيته .

كان موعد الجلسة الاولى خلال الايام القليلة المقبلة .

أيام قلقة

« اعملوا ولا ينتابكم شك »
(كارليل)

كانت الورشة الصغيرة فى شارع أولد أوك تعمل ليل نهار .
على حائط المشغل حيث تعمل الفتيات فى حياكة الثياب ، كانت قصاصة من احدى الصحف معلقة بدبوس رسم ، فيهـــا وصف للميتة البطولية التى ماتتها الخياطة مارى آن ووكلى :
« كانت مارى آن ، وهى فى ريعان شبابها ، فى العشرين فقط ، تعمل فى اتلييه احدى خياطات البلاط • وكانت فى الآونة الاخيرة تعمل فى حياكة الثياب لسيدات الطبقة الراقية ليرتدينها فى الحفل الراقص الذى اقيم بمناسبة زيارة احد أعضاء الاسرة المالكة • كان ذلك فى قمة الموسم ، وقد ظلت مارى تعمل ستا وعشرين ساعة ونصف ساعة بغير انقطاع ، مع ستين فتاة أخرى غيرها ، كل ثلاثين منهن فى غرفة لاتكاد تحتوى الا على ثلث كمية الهواء اللازمة لتنفس مثل ذلك العدد من الناس • وفى الليل ينمن ، كل اثنتين فى فراش ، فى خن صغير ، بعد أن يتناولن شيئا من النبيذ والقهوة ليجددن قواهن التى لم تضن بها واحدة منهن ، رغم الاجر الضـئيل ، والظروف القاسية ، فى خدمة جلالة الملكة • وقـــد مرضت مس ووكلى يوم الجمعة ، لكنها رفضت أن تكف عن العمل ، فماتت يوم الاحـد • ودخلت بذلك فى عداد الابطال . فبطولتها لاتقل عن بطولة جنودنا البواسل الذين يجودون بحياتهم عن طيب خاطر فى ميفكينج • »
لكن مستر بيرى لم يقتنع بمثل هذا الحافز ، واضعا كل ثقته فى وسائله الخاصة التى اثبتت فعاليتها دائما فى زيادة سرعة العمل ورفع الانتاج ، وهى وسائل بسيطة للغاية : الطرد الى الشارع ، لكل ضعيف ، أو مريض او متقاعس . وله فى ذلك قول مأثور :
ــ ليس الذنب ذنبك فى هذا السل الذى تعانين منه يافتاتى . لكنه ليس ذنبى أنا أيضا .

فلم يكن بد من أن يسير العمل بأقصى سرعة ، حتى لقد بدا أن الامور فى طريقها الى أن تعود الى مجراها العادى . لكن الصحف مالبثت ان ظهرت بما بدد ذلك الوهم . فقد حفلت بتلميحات وأسئلة وقحة عن التحقيق الذى قيل انه يجرى حول اسباب الكارثة : الى أين وصل ، وهل هناك تحقيق فعلا أو ان الامر مجرد تخدير للاعصاب ، وأشياء من هذا القبيل . وقد دست هذه التلميحات والاسئلة المسمومة فى سياق الحديث عن الصلاة التى تقرر أن تقام على أرواح ضحايا الكارثة يوم الخميس ، وهو نفس اليوم الذى ستنظر فيه قضية مدير البنك ماكهيث .

والاسوأ من تلميحات الصحف كان الصمت الذى لايبشر بخيرمن جانب الحكمدار المساعد براون . فقد كان بيتشام على علم بما يقوم به البوليس من تحريات فى الميناء ، وما تمخضت عنه تلك التحريات من القبض على عدة أشخاص . لكن معلوماته هذه لم تكن كافية ، ولذلك فانه أخذ يقرأ كل كلمة تنشرها الصحف بنهم محموم عله يقف منها على ما ينير طريقه . غير أن الصحف لم تنشر الا التفسير الرسمى لاسباب الكارثة .

وفوق هذا وذاك كله لاحظ بيتشام مؤخرا عددا من ضباط البوليس يحومون بصورة تكاد تكون مستمرة حول بيته فى شارع أولد أوك .

الحقيقة أن مستر بيتشام قاسى الامرين فى تلك الايام . وكثيرا ما أخذ يقول لنفسه ، خاصة بالليل وهو يقطع الممرات المظلمة ذاهبا من ورشة الى أخرى ليتابع سير العمل ، فيتوقف وحده فى الظلمة مع همومه ومخاوفه :

ــ والله يبدو أن آخرتى قد قربت ، وأنى لايجب أن اتوقع الا افظع المصائب . ولكن أليس ذلك هو الشىء الوحيد الذى يمكن للمرء أن يتوقعه فى هذه الحياة : افظع المصائب ؟ ومع ذلك فقد كان من الممكن أن يهمد البوليس مرة فلا يزج بأنفه فى الامر ! طيب عرفنا أن تلك المركب قد غرق . أنا لا أنكر ذلك . ولكن هل يعنى هذا انى يجب ان اغرق انا أيضا ؟ مساكين الضحايا ومساكين أقارب الضحايا . يرحمهم الله هؤلاء وأولئك . الم نقل شيئا . ولكن اى نفع لهم فى ان يرحمنى الله آنا أيضا ؟

ومع ذلك فانه ، كرجل أعمال لايدع فرصة تفوته لتنمية أعماله ، كان مدينا للكارثة بفكرة تجارية جديدة نيرة واتته . ولذا فانه

اخذ يعزى نفسه عن متاعبه الاخرى بهذه الخواطر :

ــ ان الكوارث التى ككارثة غرق « المتفائل » لايمكن تجنبها . الحروب ، والاعاصير ، والمشروعات التجارية ، والمجاعات ، كلها أشياء لا يمكن تجنبها . كلها قضاء محتوم . وكل من يعرف شيئا عن الطبيعة الانسانية يعرف أيضا أن كل جهد انسانى مقضى عليه بالفشل . حتى الكتاب المقدس يقول ذلك ، فيقرر انه باطل الاباطيل الكل باطل وقبض الريح ، وهذا شىء يجب أن ننظر اليه دائما بعين الاعتبار . والحقيقة أن تسعة من كل عشرة رجال يخافون المستقبل . (ومن بين هؤلاء الخائفين لايوجد غير واحد فى الالف ــ على اكثر تقدير ــ يكون غير محق فى مخاوفه) . والمرء يجب أن يدخل ذلك فى حسابه ، وأن يقدره حق قدره . لماذا ؟ لان المرء مستطيع أن يربح الكثير من وراء هذه المخاوف المبررة مما يحمله الغد دائما من نكبات ونكسات وكوارث . وما على المرء الا أن يقول لاولئك الخائفين (المحقين فى خوفهم لانهم لا يخافون عن جهل بل عن معرفة بالحياة وباخوانهم بنى البشر) : حسن جدا يا سادة . أنتم تخافون من هذا وذاك . من الفقر ، والمرض ، والموت ، ومن أشياء كثيرة أخرى . ونحن سنؤمنكم ضد ذلك المستقبل المحتوم . وما عليكم الا أن تدفعوا لنا بانتظام (حتى لا تحسوا بعبء يثقل عليكم) نسبة ضئيلة من دخولكم عندما تكون أحوالكم رائجة وعلى ما يرام ، ثم ، عندما تحل الكوارث التى لا مهرب منها ، سندفع لكم نحن (أو لورثتكم فى حالة موتكم لا سمح الله) . هل هذا اقتراح طيب أم لا ؟ أنا واثق من انه سيروق للكل . يجب على المرء أن يمد يد العون والمساعدة الى اخوته بنى البشر .. لكن هذه المساعدة تكلف شيئا . المصائب نعم . لكن المهم ألا ندعها تضيع هدرا . هذا مشروع سننظر فيه عندما تهدأ هذه الضجة .

عندما حل مساء الاربعاء ، فانقضت تسعة أيام على غرق «المتفائل» ، ولم يصرح البوليس بشىء عن التحقيق ، لم يعد مستر بيتشام يحتمل أكثر مما فعل .

انتابه ذعر وقرر أن يفعل كل ما فى وسعه للضغط على البوليس ، فأرسل بيرى ورجلين آخرين معه الى سكوتلانديارد بلافتات مختلفة مكتوب عليها : « قولوا لنا : لماذا غرقت المتفائل ؟ » ــ « قولوا لنا عن الرشاوى التى قبضتها الامبرالية ! » ــ « لماذا شحنتم أولئك الاولاد على المتفائل ؟ » ــ بل ولافتة مكتوب عليها : « من يكون

مستر بيتشام هذا ؟ » .
لم يتظاهر مستر بيرى وصاحباه بتلك اللافتات ، بل دخلوا بها سكوتلانديارد ، حيث قرر مستر بيرى انه موفد من قبل مستر بيتشام ، رئيس مجلس ادارة شركة النقل البحرى ، وأن اللافتات قد وقعت فى ايديهم بطرق غير مباشرة ، حيث حملها اليهم عدد من الشحاذين الذين يستأجرون الالات الموسيقية من محلات مستر بيتشام ، وان المعلومات التى لديهم تشير الى أن هناك تخطيطا للقيام بمظاهرة بلافتات كهذه بعد ظهر الغد .
وبعد ساعة من تلك المقابلة ، وصل مستر بيتشام بشخصه الى سكوتلانديارد .
لكن براون تخلص منه بغير امهال ، ولم يحفل كثيرا بقوله انه سيلحق به الخراب اذا ما قامت مظاهرة كهذه ، وأنه لن يجد عزاء اذذاك فيما سيلحق بعدد من كبار موظفى الدولة من فضائح .
فانصرف مستر بيتشام مدحورا ، وقد تملكته الحيرة .
ثم خطر له خاطر ، فذهب الى مكاتب مجلة « العاكس » ، وهناك طلب مقابلة رئيس التحرير وتحدث اليه حديثا طويلا كانت نتيجته أن وعد رئيس التحرير بحجز مساحة نهرين حتى صباح الغد لتصريح مثير يدلى به رئيس مجلس ادارة النقل البحرى عن « الاسباب التى أدت الى غرق ناقلة الجنود المسماة « بالمتفائل » .
عاد بيتشام بعد ذلك الى بيته ، فوضع الترتيبات الخاصة بمظاهرة بعد ظهر الغد ، ثم أقفل عليه مكتبه ، وقضى الليل طوله مستغرقا فى الكتابة .
وفى الجانب الاخر ، لم يكن مستر براون - رغم الاستقبال البارد الذى استقبل به بيتشام - مرتاح البال فيما يخص هذه الحكاية الكريهة كلها . ولذلك فانه أمر فى تلك الليلة أيضا بالقيام بغارة جديدة (كانت السابعة) على حى الميناء . وبعد أن استجوب عشرين من العمال الذين قبض عليهم، ذهب مهموما لزيارة ماكهيث فى سجنه، فوجده بمفرده ، يقرأ كتابا .
صرف براون السجان ، وملأ لنفسه كوبا من الجعة من زجاجة كانت على منضدة فى ركن الزنزانة .
لكنه قبل أن يتخفف من همومه فيحكيها لصديقه ، قال له هذا الاخير :
- ماذا تم فى حكاية أوهارا ؟ أنا قلق للغاية بخصوصه . ألم

يوافق بعد ؟
فقال براون بكلال :
ــ كلا ..
ــ هل قلت له أننا نستطيع أن نثبت تهمة القتل عليه اذا لم يمسك لسانه ؟
ــ نعم ، نعم ، قلت له كل ذلك . فقال انه يفضل أن يشنق على ان يدعك تخرج من هذه الورطة سالما . واعتقادى أنه يتصرف فى الامر بدافع من كراهية شخصية قوية تجاهك .
أخذ ماك يذرع الزنزانة قلقا . فى صباح الغد ستنظر قضيته أمام محكمة الجنايات . ودليله الوحيد الذى سينقذ عنقه سيكون اعترافه بأنه رئيس مجلس ادارة شركة م.م.م. وأنه كان ، ساعة وقوع حادث مارى سوير ، يرأس اجتماعا لمجلس ادارة تلك الشركة . لكن كيف يمكنه أن يفعل ذلك اذا كان هذا المأفون أوهارا يصر على توريطه معه فى تهمة سرقة ؟
كف عن السير فى الزنزانة أخيرا ، فجلس ، وقد استعاد بعضا من رباطة جأشه . قال وهو يأخذ سيجارا فيشعله :
ــ أوهارا ليس مجنونا . انه يحكم عقله ، ولا ينساق وراء غريزته العمياء ، ولسوف أعتمد على ذلك ! لانى ان لم أستطع أن أعتمد على رجاحة عقله فالافضل لى أن أدع نفسى أشنق . ان المدينة التى نعيش فيها ، بل وهذه الحضارة كلها التى ننعم بطيباتها العديدة ، لأقوى دليل على ما يمكن أن تحققه رجاحة العقل . وهذا الرجل أوهارا ، هو الاخر ، سوف يحكم رجاحة عقله ، ويكبح جماح شهوته الى الانتقام ، فيفضل الذهاب الى السجن على الموت شنقا ، خاصة وأنه لن يحكم عليه بأكثر من أربع سنوات ، بل يمكن أن نجعلها ثلاث سنوات فقط ، لاننا فى ظروف كهذه يجب أن نتناسى حزازاتنا القديمة .
قال براون أنه أعطى أوهارا مهلة حتى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالى ليقرر ما ينوى أن يفعله .
فقال ماك :
ــ حسنا فعلت . لانى يجب ان أحصل على ذلك الاعتراف كتابة فى الثانية من بعد ظهر الغد على اكثر تقدير . فلدى موعد مع كرستون فى بنك الائتمان الاهلى ، بعد الجلسة مباشرة ، قد يحضره اليهودى هارون والاخوان اوبر ايضا . واود ان اضع أمامهم اعترافا مكتوبا

يبين أن تاجر الجملة الذى كان يورد الى بضائعى اتضح أنه ارتكب عددا من السرقات .

فلما اطمأن ماك الى تلك الترتيبات ، بات بوسع براون أخيرا أن يتحدث عن متاعبه الخاصة . قال أن قضية تلك المركب الذى غرق لا يبدو أنها ستنتهى على خير . فليس هناك شك فى أن السفينة ، والسفينتين الاخريين ، قد سلمت الى الحكومة فى حالة غير مرضية بالمرة . فوق أن الشركة التى باعت تلك السفن الثلاث الى الحكومة جاء ذكرها فى « حادث » مريب وقع مؤخرا . فالسمسار ويليم كوكس ، الذى وجد مقتولا فى حى الميناء منذ أيام ، كان وثيق الصلة بالشركة . وقد عجز البوليس حتى الان عن كشف الغموض الذى يحيط بمصرعه ، حتى لقد اضطر الى القاء القبض على عدد من العمال العاطلين الذين فصلوا نتيجة للاضراب ، والذين تفوهوا بعبارات بلهاء يشتم منها التهديد . ولو أنه لم يتسن اثبات أى شىء قاطع على أى منهم . ولذا فان غرق تلك السفينة لن يمر على خير . ويبدو أنه ستكون له عواقب غير مستحبة ، بعيدة المدى . ثم قال أنه لا يميل الى أن يأخذ مأخذ الجد تهديدات بيتشام فيما يتعلق بالمظاهرة المنتظرة ، لان الصلاة التى ستقام على أرواح الشهداء ستجرى تحت حراسة قوات كافية من البوليس ، تستطيع أن تقمع على الفور أى محاولة للاخلال بالامن . قال كلا ، ليس فى ذلك كله ما يدعو الى الانزعاج . لكن هناك ما هو أشد خطورة وأكثر اثارة للقلق .

خفض كبير المفتشين صوته وهو يتحدث عن ذلك الامر الخطير الذى أثار قلقه فقال أن خطأ ما لابد وقع فى الاميراليه لانه لم يتم ارسال الامر الذى قيل أنه سيرسل على الفور باستدعاء السفينتين الاخريين من عرض البحر خشية غرقهما ، خاصة وان احداهما اصطدمت بالسفينة التى غرقت ، وما من شك فى انها أصيبت بعطب جسيم نتيجة لذلك ، وأن البوليس لما تحرى الامر وجد أن الاميرالية ذاتها ليست لديها فكرة واضحة تماما عن الموضوع . ولذلك فانه لا يستطيع ان يقرر اى موقف يتخذ حيال المظاهرة غدا . لعله يكون من الافضل الا يسمح بابتداء المظاهرة اصلا ، فتقمع فى مهدها ؟ فالبوليس مسئول بعد كل شىء عن المحافظة على الامن والنظام . والمصيبة أن بيتشام ليس هو المشكلة الوحيدة ، فالبوليس قادر على أية حال ، على الحيلولة بينه وبين احداث الشغب . لكن ...

الشيوعيين أولاد الحرام ينوون هم أيضا تسيير مظاهرة ضد حفل التأبين . وهذه مظاهرة لا يمكن منعها بسهولة .

اصغى ماك بانتباه لمتاعب صديقه ، ثم أشعل سيجارا وقال مطمئنا :

ـ دعهم يتظاهرون . فلن يكون لديهم أى دليل بغير بيتشام .

قال براون متدبرا قول صاحبه الحصيف وقد بدأ شيء من الطمأنينة يداخله :

ـ نعم ، أنت على حق . ليس لديهم أى دليل . انهم يجعلون أنفسهم أضحوكة فى أعين الجمهور باستمرار بسبب شكوكهم المتكررة التى يجاهرون بها بغير دليل يساندها .

هز ماك كتفيه باستهانة ، قائلا وهو ينفث دخان سيجاره :

ـ سيجأرون بأعلى عقائرهم عن الرشوة والفساد فى الامبراطورية ، وقد يلمحون الى أن الوزير ذاته حصل لنفسه على بضعة ألوف من الجنيهات من صفقة السفن هذه . ترهات من هذا القبيل !

فقال براون وهو يتناول سيجارا بدوره ، فيسترخى فى مقعده ويشعله :

ـ تريد الحق ؟ ان مهاترات هؤلاء المتعصبين تجعلنى أوشك على الانفجار غيظا . انهم لا يكفون عن مهاجمتنا لاننا لا ننفذ القانون بالصرامة الكافية ! كأنما القانون وضع لمصلحتهم ! واسخف ما فى الامر تمسكهم الاخرق بأن كل شيء يجب أن يتم بطريقة قانونية سليمة . فلو كان هناك قانون يعطى هيل الحق فى الحصول على عمولة مقابل أن يغض بصره عما يجرى فى مثل هذه الصفقات لما أخذوا عليه حصوله على الرشوة التى يزعمون أنه حصل عليها . لانهم ـ اذ ذاك ـ لا يحسون بأن أحدا قد ضحك عليهم . انه أمر خارق للعادة حقا ! أعنى سذاجتهم التى تجاوز كل حد . لان الأمور فى دنيا السياسة والتجارة لا تسير بهذه الطريقة الحنبلية التى يتصورونها ، ولا يمكن أن تسير كذلك . فهناك أشياء عديدة قد تبدو لدافع الضرائب العادى ـ غير مفهومة . تلك الاشياء بالذات هى التى تحقق الارباح الكبيرة ! ولا أعنى بذلك أرباح خانة الالوف! لكن هؤلاء القوم لا يفقهون شيئا . كلما تمت صفقة من هذا النوع انطلق « رسل الحرية » هؤلاء يعوون بتفاهات لا وزن لها ، متهمين هذه الجهة أو تلك بالفساد ، قائلين ان البوليس لا يتحلى بالحيدة الواجبة ، وما الى ذلك ، وكلها أشياء لا سبيل الى اثباتها ومعظمها

عار من الصحة على أية حال . ومع ان ذلك كله ليس جديدا على ، فانى ما زلت أجد هذا القلب للحقائق ، وجعل الابيض أسود والاسود أبيض على أيـدى هــؤلاء المهيجين الذين احترفوا تلويث ســمعة الناس ، أمرا لا يصدقه عقل !

وهنا قال ماك ضاحكا :

ــ لا تنفعل هكذا . فلو وجد الان من يكتب كل كلمة قلتها لتوك لتبين أنك أنت أيضا تجعل الابيض أسود والاسود أبيض !

فابتسم براون ابتسامة كشفت عن أسنانه قائلا :

ــ والله ؟ هذا لا يصدق . لا يصدق اطلاقا .

ولماكان الشيء بالشيء يذكر، فقد جرهما الحديث الى السياسة ، فاعترف ماك قائلا :

ــ الحقيقة أنه لا يوجد حزب يمثل مصالحى تمثيلا كاملا . لن أتطرف طبعا فأدعى أن البرلمان بورصة يضارب فيها تجار الكلام . فهم لا يكتفون بالـكلام ، بل يذهبون الى حد الفعل . هناك أشياء عديدة تنجز هناك . ذلك ما يجب أن يعترف به المرء ما لم يكن متحيزا لايرجى منه . لـكن المسألة هى ، هل البرلمان قادر على القيام بالعبء الذى تلقيه على كاهله مطالب التقدم ؟ فى رأيى ، وهو رأى رجل أعمال كادح ، أننا نفتقر الى النوع الصالح من الرجال على رأس الدولة . فقادتنا كلهم ينتمون الى هذا الحزب أو ذاك . والاحزاب بطبيعتها تتصف بالانانية والبحث عن المصلحة الحزبية . فهى لا تنظر الى المسائل الا من جانب واحد ، هو الجانب الذى يتفق ومصالح أعضائها . نحن فى حاجة الى رجال يتسامون على الاحزاب جميعها ، رجال مثلنا نحن رجال الاعمــال . نحن نبيــع بضائعنا للفقير والغنى على السواء . بلا أدنى اعتبار لمكانته . فلا مانع لدينا من أن نبيع البطاطس لاى مخلوق ، ما دام يدفع الثمن ، أو أن نقوم بعمل التركيبات الـكهربائية فى منزله ، أو أن نطلى له جدران ذلك المنزل . ان حكم بلد من البـلدان ينطوى على تكليف بمهمة أخلاقية . ويجب أن يتم تنظيم كل شىء بحيث يكون المنظم (١)

---

(١) Entrepreneur ، أى« المنظم » فى الاقتصاد الراسمالى وهــو الذى يتحمل مخاطر المشروع ويوجه عوامل الانتاج توجيها يحقق التناسق بينها ويحقق الوفورات الداخلية . ويحصل مقابل ذلك على الربح . وقد لايكون المنظم شخصــا طبيعيا بل كيانا معنويا ــ وبرخت بأحــلام ماكهيث هذه يومىء الى حلم رجل الاعمال بنظام أوليغاركى أى حكم القلة الثرية التى تستولى على أجهزة الدولة وتدير البــلد لحسابها . ولعل افضل من صور ذلك الكاتب الامريكى جاك لندن فى كتابه « الـكعب الحديدى » «The Iron Heel»

منظما كفئا ، والعامل عاملا كفئا ، أو ، باختصار ، بحيث يصبح الكل مواطنين صالحين أكفاء : أغنيـــاء كانوا أم فقــراء · أنا على يقين من أن ذلك الشكل من أشكال الحكم آت لاريب فيه ، بمرور الوقت · وعندما يأتى سأكون من أول المؤيدين له ·

تنهد براون قائلا :

ــ مما يؤسف له أننا نفتقر فى الوقت الحالى الى حزب كهذا . فما الذى ترى أن أفعله ؟

ــ هل تحريت ما حدث لتلك السفن أثناء الاضراب ؟

ــ طبعا ، منذ وقت طويل . كان ذلك أول شىء قمت به فى هذه القضية . وقد ثبت لى أنه لم يحدث شىء .

ــ كيف ذلك ؟ لابد أن أولئك العمال الذين قاموا بذلك الاضراب الناجح كان لديهم الدافع ، والفرصة الكاملة ليفعلوا شيئا . لابد انهم انتقموا لانفسهم بشكل ما . لا أستطيع أن أتصور أبدا كيف يقبل الناس بخنوع أن يعملوا فى ظل هذه الظروف · لابد أن يكونوا دون مستوى البشر حتى يستسلموا هكذا ·

ــ انهم يحبون عملهم . وعندما يعملون فانهم يتقنون ما يقومون به . ولا يمكن أن يخطر لهم ببال أن يخربوا ســفينة يقومون هم باصلاحها . فوق أنهم نادرا ما يفكرون . كلا لا يمكن أن يكونوا قد فعلوا شيئا كهذا الذى تفكر أنت فيه .

ــ ربما . ولــكن لا تنس أن رجالى كانوا هناك . كانوا يعملون لحساب بيتشام .

ــ هل تعنى انهم . . . .

ــ بكل تأكيد · أنا أعرف رجالى ، وأعرف انهم لا يتورعون عن شىء كهذا! · سأستدعى أخينا الذى كان يقودهم فأسأله ·

ــ حقا ؟ ستفعل ذلك ؟

بدا الارتياح على وجه براون ، فقال ماكهيث :

ــ طبعا . سأفعل ذلك من اجلك . لــكن هناك ما أود أن أقوله لك ، دون أن أحاول التأثير ، بطبيعة الحال ، على اتجاهك فى هذا التحقيق . فبيتشام ــ رغم ما بيننا من خلافات ــ ما زال والد زوجتى . وبائنة تلك الزوجة ما زالت ، بعد كل شىء فى خزائن بنك الائتمان الاهلى . وأنا ــ كما تعلم ــ أحد مديرى ذلك البنك . وقد تأثرت الودائع تأثرا مخيفا بسبب تلك التخفيضات المشينة فى الاسعار التى حدثت مؤخرا . ونقود بيتشام بين الودائع التى ضاعت . ومن

حقى ، بوصفى احد افراد العائلة ، أن أعتبرها نقودى . فوق أن هناك عددا لا يحصى من صغار المستثمرين لاشك أنهم سيحدثون ضجة كبرى ــ خاصة بعد كارثة « المتفائل » ــ عندما يكتشفون ضياع مدخراتهم ، فيقضون على موجة الشعور بالوطنية السائد حاليا . انت تعرف أنى لا أكن ودا لبيتشام ، لكنى أعتقد أنه من الافضل أن تبعده عن هذا الموضوع تماما حرصا على الصالح العام .

انصرف براون مقتنعا بوجهة نظر ماكهيث نصف اقتناع ، فأعاد استجواب بعض العمال الذين كانوا قد ألقى القبض عليهم .

لكنه لم ينم جيدا فى تلك الليلة ، ثم رأى حلما قرب الصباح .

كان يعبر قنطرة فوق نهر التيمز ، وفجأة سمع شيئا ــ صوتا يفرغر ، فترجل من العربة ونظر فى الماء فلم ير شيئا ، فعاد أدراجه ونظر من الجانب الاخر . وكما يحدث فى الحلم ، وجد نفسه فى مكان يرى منه الكوبرى وقد صار فوقه ، ويرى لسانا صغيرا من الارض يجيش حوله الماء الموحل . ثم رأى أعلاما على الكوبرى ، سوداء وحمراء وبيضاء وزرقاء . وعلى اللسان الصغير تحت الكوبرى رأى عددا من الرجال يتحركون ، أو كائنات تشبه الرجال كثيرا . وفجأة أخذت تلك الكائنات تتكاثر فيزداد عددها بسرعة رهيبة ، دون أن يستطيع أن يتبين من أين تأتى ، ربما من النهر الذى بدا له بالغ العمق فى ذلك المكان . على أية حال سرعان ما اكتظ اللسان الضيق بجحافل من تلك الكائنات سريعة الحركة ، فلما ضاق بها ، أخذت تتحرك صعودا الى أعلى حتى غطت الكوبرى ذاته ، تحت الاعلام . لكن تلك البقعة الصغيرة من الارض باتت أشبه بميزاب قد فتح فأخذ يسكب جحافل وراء جحافل من تلك الكائنات بلا عدد ، فى سيل واحد متصل أحس براون أنه لن يتوقف أبدا ما دام قد بدأ . كانت هناك قوات من البوليس بطبيعة الحال ، وسوف تقيم كردونا حول الكوبرى فتقطع الطريق على تلك المخلوقات حتى لا تجتاح المدينة ، وقوات من الجيش ، سوف تفتح النار ، وقوات من البوليس السوارى ، سوف ... لكن كان هناك أيضا ذلك الطوفان من الشقاء ، تطفحه الارض فيصعد الى أعلى ، ويغلظ قوامه ، ويتماسك وتتلاحم صفوفه ، صفا وراء صف وراء صف بعرض الطريق ، مغرقة كل شىء فى طريقها كموجات عاتية من المد ، منسابة داخل كل شىء كالماء ، بلا شكل ولا قوام . لم يتخل رجال البوليس طبعا عن واجبهم المقدس ، فهاجموا ذلك الهول ، وأخذوا يضربون بهراواتهم .

ولـكن أي جـدوى فى هجومهم ؟ وأى نفع فى هراواتهم وضرباتهم تخترق الكتلة المتدفقة التى لا يقف فى طريقها شيء ، وكأنهم يضربون الهواء . وهكذا اجتاح الشقاء الزاحف بجحافله الرهيبة صفوف البوليس كموجة مد لا نهاية للهول الذى فيها ، مطبقا على المدينة النائمة ، واجتاح صفوف الجيش ، واجتاح الاسـلاك الشائكة ، والمتاريس ، صامتا ، أبكم ، بلا صوت ، وسط صراخ رجال البوليس وتأتأة مدافع الماكينة . فلما بلغ الشوارع صب نفسه فى كل بيت كطوفان موحل . جحافل الشقاء عديمة الصوت ، عديمة اللون ، عديمة القوام ، عديمة الملامح ، مخترقة كل جدار ، وكل باب ، منصبة فى الثكنات ، فى المطاعم ، فى معـارض الفن ، فى سـاحات العدالة (١) .

قضى براون ليلة سوداء مؤرقة عذبه خلالها ذلك الحلم ، فلم يكد الصبح يطلع حتى سارع بالذهاب الى مكتبه ، مبكرا على غير عادة . شعر بالمرارة وهو يجد نفسه مضطرا ــ ربما لاول مرة ــ الى أن يقيم لما قد تكتبه الصحف اليسارية فى الغد وزنا . لـكنه لم يستطع أن يتخلص من خاطر الح على ذهنه فصور له القداس الذى سيقام بعد الظهر على ارواح أولئك الغرقى وقد اجتاحته عدة مئات من الجنود الجرحى .

أمر المرأة التى تقوم بتنظيف المـكاتب أن تتركه وحده ، ثم أوصد الباب ، وأضـاء مصباح المكتب ، وانكب على كتابة بيان للصحافة بخط يده .

ولم يكن مستر براون هو الوحيد الذى انتـابته حمى التأليف والـكتابة فى ذلك الصباح . فمستر بيتشام هو الاخر كان قد قضى الليل طوله والريشة فى يده ، وقبعته على مؤخرة رأسـه ، يذرع الغرفة تارة ، ويقف أمام المـكتب المرتفع تارة ، ويحملق أمامه بنظرة فارغة تارة أخرى ، وبين هذا وذاك كله يأخذ فى الـكتابة وهو واقف بينما حرارة الموقد تزداد فى الغرفة المقفلة ، حتى توشك أن تسلقه.

كان يدبج مقـالا من نار يكشف فيه ألاعيب السمسـار كوكس ومؤامراته ، والدور المخجل الذى لعبه موظف كبير رفيع المقام فى الاميرالية .

---

(١) تتداعى من هذه الرؤيا الكابوسيةفى الذهن صورة قرينة لها من اكثر من وجه، نجدها فى « الكعب الحديدى » و « أهل الهاوية » لجاك لندن .

لم يكن لديه شك فى أنه سيضطر الى مواجهـة العواقب التى ستترتب على كشف الاساليب الملتوية التى انتهجتها شركه النقل البحرى فى صفقة السفن ، اذا ما أقدم فعلا على نشر ذلك المقال ، لـكنه كان مطمئنا فى الوقت ذاته الى أن التلميحات والهمهمات التى حفل بها المقال بشأن الفساد والرشوة فى الامبراطورية سـتثير اهتمام الحكومة الى درجة تدعوها الى التدخل العاجل لتكتم الامر ، وتقليل تلك العواقب الى الحد الادنى ، تجنبا للفضائح . لـكن ذلك لن يعفى الشركة ، أو بالاحرى مستر بيتشام بالذات ، من ضـيـاع الصفقة الجديدة ، الصفقة الحقيقية التى سيحقق من خلالها أرباحه الحقيقية ، صفقة سفن ساوثمبتون ، لان الحكومة لن تفكر طبعا ــ فى تلك الحالة ــ فى التعامل معه أو مع شركته . ولكن ما باليدحيلة.

اضطر مستر بيتشام أن ينصرف عن كتابة مقاله عدة مرات خلال تلك الليلة المشهودة ، ليذهب الى الورش فيطمئن على سير العمل فيها . كانت الورش آخذة فى انتاج لافتـات كتبت عليها ، بعناية فائقة ، وبخط مقروء من مسافات بعيدة ، أشياء كهذه :«هل ترسلوننا الى جنوب أفريقيا لمجرد أن يثرى على حسابنا أصحاب شركات الملاحة؟» ــ « اذا كنتم مصممين على ارسالنا الى الجحيم فلا أقل من أن نشحن على سفن تكونون واثقين بأنها ستصل الى هناك ! » ــ « ضـحايا المتفائل لم يغرقوا قضاء وقدرا ، بل قتلوا عمدا مع سبق الاصرار!» وفى الخامسة صباحا هبط عليه الوحى، فعاد الى الخطاطين الذين اكتظت بهم ممرات الورشـــة ، وقد ركعوا يعملون على ضوء مصـابيح الـكيروسين ، فأعطاهم لافتة جديدة تقول : « الافظع من العاصفة والضباب جشع رجل الاعمال الذى لا ضمير له ! » .

والان ، فى الثامنة صباحا ، كان اعترافه قد كتب ووضع فى ظرف مغلق على مكتب بيرى الذى نخره السـوس ، وانصرف رجاله ، دافعين أمامهم عربات يد محملة باللافتات التى أعدت أثناء الليل ، ذاهبين بها الى أماكن مختلفة من المدينة تقرر أن تبدأ منها المظاهرة .

لـكنه قرأ فى الصحف بعد سـاعة واحدة أن الشيوعيين الذين قاموا بتخريب « المتفائل » قبل ابحارها قد ألقى القبض عليهم .

فأسرع من فوره بارسال بيرى وآخرين غيره الى الاماكن المقرر أن تبدأ منها المظاهرة لاخطار الرجال بأن المظاهرة الغيت ، ثم جلس لاول مرة منذ ساعات ، فأخذ يحسو فنجانا من الشاى .

اذن فقد ثاب أولئك الناس الذين فى سكوتلانديارد الى رشدهم

أخيرا ! حسنا فعلوا . فالقول بأن حفنة من العمال الاشتراكيين هم الذين خربوا تلك المركب وتسببوا فى غرقها بمن عليها ، أفضل بكثير ، بالنسبة للعاطفة الوطنية المشبوبة فى هذه الآونة ، والتى تفيض بها مقالات الصحف ، من أية فضائح تتعلق بالفساد فى الامبرالية .

***

ذهبت مسز بيتشام الى غرفة أبنتها والنهار لم يطلع بعد ، فجلست على حافة فراشها ، وفاجأت تلك الابنة بقولها : أنها قد نجحت فى اقناع بيتشام أخيرا بأن يكف عن معارضة زواج بولى وماكهيث . وقد أفاضت الام فى وصف مؤثر للطريقة التى توصلت بها الى تحقيق ذلك النصر غير المتوقع ، فقالت :

ـ ظللت أقول له : اياك أن تفرق بين هذين العاشقين. ألم تسمع أنه مكتوب فى الانجيل أن من جمعهم الرب لا يفرقهم العبد ؟ عد بذاكرتك قليلا الى الوراء . لقد كنا ، أنا وأنت ، صغيرين نحن أيضا ذات يوم ، قليلى العقل ، وان كنا قد وضعنا لحبنا حدودا معينة لم نتخطاها . والان هل تجرؤ على تحمل وزر ابنتك التى سيسقمها الحب ويذبلها الفراق ؟ دع عنك خطيئة القضاء على تلك الحياة البريئة الصغيرة التى فى أحشائها ؟ انهما لا يرغبان فى شىء الا أن يكون كل منهما للآخر . ولقد مرا بأوقات عصيبة مخيفة معا ، لكن حبهما انتصر ، وذلك أيضا شىء يجب أن يؤخذ فى الاعتبار . فمثل هذا الحب القوى لايمكن أن تفصم عراه بسهولة . أعرف أنك كنت تريد المرحوم كوكس زوجا لابنتك . ولقد كنت محقا فى ذلك . فقد كان رجلا وسيما ، جذابا على الدوام . ولو انك أنت لم تكن تقدره الا لبراعته فى دنيا الاعمال . لكنه مات ، ولا تستطيع أن تخرجه من قبره لتزوجه ابنتك. فما الذى يجعلك مصرا على معاداة ماكهيث؟ الكل يقولون أنه لا يقل كفاءة عن كوكس وانه يربح الكثير. وهؤلاء الناس الذين يديرون له دكاكين حرف «ب» لا يجدون منفذا الى الضحك على ذقنه . فهو يسوقهم بيد من حديد . لانه لا موضع للكسالى فى مثل ذلك العمل الذى يديره . ولسوف يجعل ابنتك سعيدة . لقد تحدثت اليه ، وسوف يصبح زوجا مثاليا . وأمثاله يكونون دائما آباء مثاليين . لقد فعلت كل شىء دائما من أجل سعادة ابنتك . ما الذى يجعلك تشقى ليل نهار الا حرصك على سعادتها ؟ وأنت أول من يقول ذلك . ولا تنس أن ماكهيث قد أظهر حرصا بالغا

على روابط القربى عندما عرض عليك ، رغم العلاقات المتوترة بينكما ، مساعدة رجاله فى هوجة الميناء الاخيرة . وهو عندما فعل ذلك أثبت لك أنه يضع مصالح العائلة فوق أى اعتبار وأى خلاف شخصى .
ان الاسرة الان دعامة كل حياة تتسم بالمحافظة على قواعد الاخلاق. وأساس العائلة هو الحب . فلو لم تكن هناك العائلة ، ولم يكن هناك الحب والاخلاق ، لأكل الناس بعضهم بعضا ولانعدم كل سلوك معقول بين البشر . فلنبـــارك زواجهما . لان ابنتنا يا بيتشــــام لا تستطيع أن تكون سعيدة سعادة كاملة بغير رضا الوالدين !

ولقد بلغ من تأثر مسز بيتشام بما قالته أنها وعدت بالذهاب الى المحكمة أثناء نظر القضية .

قالت وهى تخرج من باب الغرفة :

ــ ولا تقلقى بشأن الحكم . فقـــد تكفل أبوك بذلك يا بولى . سيفرج عن زوجك غدا .

فى تلك اللحظة ذاتها كان مستر بيتشام قد انتهى من تناول افطاره فقام وذهب الى النافذة .

وقف ينظر الى الضباب الكثيف ، فخطر له أنه لن يكون من السهل على بيرى والاخرين أن يبلغوا تعليماته الخاصة بالغاء المظاهرة الى شحاذيه فى الوقت المناسب ، بسبب هذا الضباب اللعين ، فيمنعوهم من السير فى شوارع لندن بلافتاتهم الرهيبة .

(١٥)

وهكذا تأتى النهاية السعيدة .
فتسوى الخلافات ، وتعوض الاضرار .
اذا كان رأسمالك كافيا :
فان كل شيء يصبح فى النهاية على ما يرام .

يصيح زيد ، أن عبيدا قد اصطاد فى الماء العكر .
ويرغى ويزبد ويهدد بالقانون ،
ولكن انظر اليهما فى المساء ، يطعمان معا ،
كأن شيئا لم يقع ، يمضغان بالتذاذ آخر كسرة سرقاها من زاد الفقير .

لذلك نجد البعض يدبون فى الظلام ،
والبعض يفعلون ما يفعلون فى وضح النهار ،
وهؤلاء تستطيع أن تراهم ، لكن كل أولئك الاخرين ،
الذين فى الظلام ، لا يراهم أحد .

(من فيلم البنسات الثلاثة)

دليل البراءة

عندما قاربت الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم ، كانت بولى وأمها فى عربة تحملهما الى السجن لزيارة ماكهيث ، وضباب كثيف يخيم على شوارع المدينة .

عندما دخلتا الزنزانة ، حيث كان ضوء الغاز ما زال مضاء ، وجدتا أن ماك لم يكن قد تناول افطاره بعد . لكن الغرفة كانت مزدحمة برجال الاعمال . كرستون ، مثلا ، كان هناك ، ومستر ميللر ، وجروتش ، اللص العجوز . جلسوا . وقد وضع كل منهم سيجارا غليظا فى ركن فمه ، يناقشون التفصيلات الاخيرة للمعركة الحاسمة ضد البنك التجارى .

أجمعت الآراء على أن القضية آن لهـــا أن تحسم ، حتى يطلق سراح ماك ، لانه كان قد تم الاعداد لاجتماع هام فى بنك الائتمان الاهلى ، فى الثانية بعد الظهر ، وقد وجه مستر هوثورن خطـابا الى اليهودى هارون وجاك أوبر يدعوهما فيه لحضور الاجتماع ، مبينا فى خطابه أن السيد ماكهيث قد أصبح الآن عضـوا فى مجلس ادارة بنك الائتمـان الاهلى ، قائلا : انه يرغب فى أن يعرض على السيدين هارون ، وأوبر ، اقتراحات محددة بشأن وباء تخفيض الاسعار الذى استشرى مؤخرا فى تجارة التجزئة .

ولذا تقرر أن يعلن ماكهيث فى الجلسة دليل براءته الذى أخفـاه حتى تلك اللحظة تحت ضغط دواعى العمل ، فيبين للمحكمة أنه كان يرأس اجتماعا لمجلس ادارة شركة م٠م٠م ساعة أن ماتت المرحومة مارى سوير ، وأنه ــ تبعا لذلك ــ لا يمكن أن يكون قد قتلها ٠ وعليه فانه رتب أموره بحيث يعقد ذلك الاجتماع الحاسم مع الخصوم . فى بنك الائتمان الاهلى ، بعد الجلسة مباشرة ، مؤملا أن يتمكن من الوصول الى ذلك الاجتماع فى الثانية تماما ، قبل أن يكون هارون وأوبر قد سمعا بما دار فى الجلسة ، واكتشفا أنه رئيس مجلس ادارة شركة م٠م٠م ٠

وضع مجىء السيدتين حدا لمناقشات السادة ، فانفض الاجتماع . وهم الجميع وقوفا يستقبلون بحفـــاوة مسز ماكهيث والسـيدة والدتها ٠ كانت بولى مرتدية الثوب الاسود البسيط الذى حضرت به جنازة المرحوم مستر كوكس منذ أيام ، لانها ستذهب مع أمها ، بعد الجلسة مباشرة ،لحضور الصلاة التذكارية التى ستقام بعد الظهر على أرواح أولئك الجنود المســاكين الذين استشهدوا فى كارثة « المتفائل » ٠

لم يخف ماك دهشته لزيارة حماته ، لكنه قدمها الى الاخرين ، وبدأ على الفور حديث آخر مهذب غير حديث المال والاعمال ، تركز حول الضباب فى مدينة لندن ، وما الى ذلك ٠ وفى أثناء ذلك انتحى مستر ماكهيث بزوجته ركنا من الزنزانة ، حيث كان افطاره ينتظره، فأخذ يأكل ويصغى اليها وهى تخبره بصوت خافت عن تغير موقف أبيها منه ٠

أومأ ماك برأسه ٠ لم يكن متأكدا بعد من الدور الذى لعبته بولى فى مقتل المرحوم مستر كوكس ٠ كان قد ســـمع من ردى ، بعد الحادث ، أن جايلز هو الذى قتل السمسار ٠ ولكن أى شأن لكوكس

بجايلز الذى لا يمكن أن يكون قد سعى فى أثر السمسار الا بناء على تعليمات من أوهارا ؟ ترى هل أرادت بولى أن تمنع كوكس من الظهور فى قضية الطلاق فطلبت من أوهارا أن يؤدى لها تلك الخدمة ؟ ولكن ما مدى ، أو بالاحرى ، ما منشأ سلطانها على أوهارا ؟

لكن تلك كانت مجرد خــــواطر عابرة ، لان ماكهيث لم تكن لديه – فى حقيقة الامر – أدنى نية للتعمق فى شئون بولى وتصرفاتهـــا ودوافعها ، كما لم تكن لديه نية الاستفسار عما تم فى مســـــألة الاجهاض • لكن بولى هى التى فتحت الموضوع من تلقاء نفسها • قالت له ووجهها المتورد – الذى ابرز جماله وتورده ثوبها الاسود – يفيض بشرا وحنانا أنها ذهبت الى السينما صدفة مع أمها وأن الفيلم الذى شـــاهدته بصحبة الام جعلهما تقرران الامتنـــــاع عن اجراء الاجهاض • قالت بتأثر بالغ أن قصة ذلك الفيلم – على بساطتها – هى التى منعتها من ارتكاب خطيئة ضد تلك الحياة التى توشك أن تخرج الى الوجود ، وأن منظر الطفلة المؤثر على شاشة السينما قد فعل فيها فعله :

– فأحسست أنى لا أستطيع أن اذهب الى ذلك الطبيب بعد تلك التجربة • كنت حرية بأن أحس أنى مجرمة •• يجب أن تفهم ذلك يا ماك • لم استطع ان انفذ رغبتك واتخلص من الطفل •

كانت تحب مصارحته بكل شىء • وقد حز فى نفسها دائما أنها لا تستطيع أن تصدقه القول فى كل ما يخصها ، لان ذلك كان مستحيلا • فكانت تقول ، فيما بينها وبين نفسها ، بأسى :

– هناك مثلا تلك العلاقة الآثمة التى بينى وبين أوهارا • سيكون من المخيف أن يعلم بأمرها • فقد يتصور أننى خنته • ولن يصدق أبدا أنى لزمت الصمت من أجله • الحقيقة أنه سيكون رأيا خاطئا عنى اذا ما اعترفت له بكل شىء • حكاية سمايلز مثلا ، أو تلك المرة مع كوكس • قد يظن أن زوجته امرأة سائبة ، لا يمكن الوثوق بها • وسيكون مخطئا كل الخطأ فى ظنه • لانى ، لو لم يكن كثير الشكوك هكذا ، كنت سأصارحه بكل شىء ، فلا يعود هناك أدنى خداع بيننا • فوق أنه يسىء الظن بالنساء عموما • مما يجعل الامر اشد صعوبة •

وعدها ماك بأن يرى ذلك الفيلم المؤثر فى أول فرصة ، ثم انصرف الى تناول افطاره •

***

أخذت بولى ترقبه باعجاب • مسحورة به وهو يلتهم بيضة ، وقد

بدا عليه التركيز الكامل والاستغراق فيما هو فاعل الى الحد الذى جعل وجهه يكتسى مسحة مهمومة ، وكأن حياته متوقفة على التهام تلك البيضة ·

عجبت لهدوئه · لكنها مالبثت ان تذكرت أن اجراءات المحاكمة التي ستجرى عما قليل ليست الا شكليات بحتة ليس هناك مايدعو الى القلق بسببها · حتى أوهارا لم يعد هناكما يدعو الى القلق بشأنه · فأوهارا ـ رغم تهوره ـ سيثوب الى رشده ، ويحكم عقله ، فيختار ان يذهب الى السجن بدلا من أن يحاكم بتهمة القتل العمد · لم يحس ماك بأى أسف فيما يخص مساعده القديم · فقد جلب كل ذلك الاعمال على نفسه، وقضى على المستقبل الباهر الذى كان ينتظره فى دنيا الاعمال بما تورط فيه من مشكلات تتعلق بحياته الخاصة ·

وهنا وصل الاستاذ ريجر ، فانصرف السيدان كرستون وميللر ليقوما بالترتيبات الاخيرة للاجتماع الذى سيعقد بعد الظهر ·

قال لهما ماك وهما يخرجان أنه سيحضر فى موعده ، ولن يتأخر لحظة ·

أخذ ريجر يشرثر ، وهم فى الطريق الى المحكمة ، فروى كثيرا من النوادر والحكايات عن لافرز ، القاضى الذى سينظر القضية ، وقال أنه ليس مثل قاضى الاحالة بروذلى الذى يقضى أحد عشر شهرا من السنة سكران ، فلا يفيق ألا فى الشهر الثانى عشر الذى يقضيه فى صيد السمكفى سكوتلاندا ·فهو لايقرب الخمر طيلة ذلك الشهر لانه يؤمن بأن السمك لا يقع فى الفخ بسهولة ، ولا يؤمن بالعدالة ·

أما لافرز هذا فلا يقرب الخمر أبدا ، وهو فوق كذلك فقيه فى القانون من الطراز الاول ، علاوة على ما يتمتع به من قدرة خارقة على التركيز ، ولذلك فانه لا يمنع احدا من أن يقول ما يشاء فى الجلسة لانه قادر على التظاهر بالانصات لكل ما يقال فى المحكمة دون ان يسمع شيئا على الاطلاق ، فهو عندما يدخل قاعة المحكمة لينظر قضية ما يكون قد استعد لها تمام الاستعداد ، واستوعب كافة جوانبها القانونية وخباياها ، ولذلك لا يدع أحدا يشوش له ذهنه·

قال الاستاذ ريجر مفسرا الامر ·

ـ بالنسبة لرجل القانون تبدو القضايا فى ضوء يختلف تمام الاختلاف عما تبدو به لرجل الشارع · فهذا الاخير يقف فى المحكمة ببلاهة ويقول كثيرا من الكلام الفارغ ، مؤكدا براءته . وهو مشغول طيلة الوقت بأفكار كهذه : وقعة سوداء ! ستقضى هذا القضية على

مستقبلي ! او : عيالي المساكين ، سيتضورون جوعا باذن الله عندما يزج بي هؤلاء الناس في السجن ! أو : ليتني أخذت معي شاهدا عندما ذهبت لزيارة عمتي في تلك المرة الاخيرة ! أما القاضي فيقضي في القضية ، فلا يشغل باله شيء سواها ، ثم أنه ليس هو الذي سيذهب الى السجن أو يشنق من عنقه ، بل سيذهب بعد الجلسة ليتناول طعامه أو يشرب كأسا من الخمر • ولذلك فانه يكون في وضع أفضل كثيرا من وضع رجل الشارع المتهم ، يتيح له ان يفكر تفكيرا سليما •

كانت قاعة المحكمة تضم عددا لا بأس به من الفضوليين ، والمهتمين اهتماما خاصا بقضية ماكهيث ، ورجال الصحافة . فقد احدثت حملات الصحافة المتواصلة عليه أثرها •

وفي آخر القاعة كان مستر هارون • رآه الاستاذ ريجر بمجرد أن دخل قاعة المحكمة ، جالسا في مقعد على حافة الممر الاوسط ، وقد وضع قبعته أرضا بجواره ، آخذا في تلميع نظارته بعصبية ظاهرة ، وبرفقته سكرتيره الخاص المدعو باور •

كان بين الحاضرين عدد لا يستهان به من اصحاب محلات حرف « ب » الذين تضاءلت شعبية ماكهيث كثيرا بينهم منذ أن وجهت اليه تهمة قتل واحدة منهم • وهكذا فان جروتش ، الذي اندس بينهم دون أن يعرفوا أنه من رجال ماك ، سمع أشياء كهذه :

ـ يا سلام على قلة عقولنا وتصديقنا لكل ما يقال لنا ! طالما سمعت أن ماكهيث هذا رجل يتوخى منتهى البساطة في حياته ، وأنه لا يدخن الا قليلا ، ولا يقرب الخمر . بل وقد قيل لي في وقت من الاوقات أنه ، من فرط تعففه ، نباتي ، وأنه يحيا حياة نظيفة متقشفة لا مأخذ عليها ، ولا يفعل شيئا الا بهدى من مثله العليا التي يتفانى في سبيل تحقيقها ، ولو انه يضطر ـ بالضرورة ـ الى التعامي عن كثير مما يحدث في دنيا الاعمال ، لانه مضطر أن يدع الامور تسير ، وأن المصائب التي تحدث للاخرين من تحت رأسه لا يد له فيها بل لبطانة السوء التي تحيط به . لكن المرء يدرك الان انه قد تركهم يضحكون على عقله بهذه الترهات ، خاصة بعد هذه الاشياء الفظيعة التي كشفت عنها المحاكمة •

الحقيقة أن تلك المحاكمة سببت اثارة بالغة لاولئك الناس الطيبين، خاصة وان أخبارا لا يعرف مصدرها تسربت ، مؤداها ان المحكمة

رفضت أن تنظر فى دليـــل أراد الدفاع ان يقدمه خارج الجلسة •
وقد وضع الكل ثقتهم فى الاستاذ والى البدين الذى أخذوا يشيرون اليه لبعضهم بعضاً، قائلين أنه هو الذى سيجهز على ماكهيث •
ثم ظهر ماك فى بذلة سوداء •
كان هناك آخرون أيضا بدا انهم ينوون حضور صلاة الغائب التى ستقام بعد الجلسة مباشرة على أرواح الشهداء . وقد اعطت تلك الثياب انطباعا ، كان له ما يبرره ، بأن ذلك القطاع من الجمهور قد جاء الى المحكمة عرضا وهو فى طريقه الى مكان آخر .
بدأت الجلسة متأخرة بعض الشىء ، فقد كان فخامة القــاضى لافرز مشغولا ذلك الصباح .
وبينما الجميع فى انتظار افتتاح الجلســـة ، دخل أحد محامى الدفاع مهرولا ، فأعطى المتهم حزمة من الاوراق اخذها هذا الاخير وبدأ فى قراءتها بطريقة محمومة . وقد افترض الجمهور انها مستندات خاصة بالقضية ، لكنها كانت أوراقا ارسلها مستر ميللر ، متضمنة آخر الموضوعات المدرجة فى جدول أعمـــال الاجتماع الذى سيعقد بعد الجلسة .
ثم حدث شىء آخر ، شد انتباه الحاضرين ، فقد قام الاستاذ والى من مكانه ، وتقدم من زميليه الاستاذين ريجر ووايد ، والعيون كلها معلقة به ، فحياهما احسن تحية ، واعطاهما حقيبــة أوراق أخذها منه الاستاذ وايد شاكرا ، ففتحها ، وبدأ ينظر فيما وجـده بداخلها من مستندات باهتمام متزايد ، ثم هم الاثنـــان واقفين ، فذهبا الى ماكهيث ليطلعاه على تلك المستندات التى أعطاها لهمـا الاستاذ والى ، غير أن مستر ماكهيث كان غارقا فى دراسة الاوراق التى بين يديه ، فأشار لهما بيده ، بنفاد صبر ، أن يكفا عن مضايقته، لكنهما الحا عليه أن يلقى اليهما بانتباهه لحظة ، فلم يرفع راسـه ، وأخذ يؤشر فى الاوراق التى معه ويجـرى بها تصليحات متفرقة ، وهو ينصت بنصف أذن لمحامييه ، حتى اذا ما قالا له كل ما عندهما ، لم يزد عن هزة دهشـة واستغراب من راسـه .
ثم أقبل القاضى لافرز أخيرا ، وقد اكتملت زينته ، فارتدى باروكة الشعر التقليدية ، وروب القضاء الفاخر ، قرمزى اللون ، المحلى بالفراء ، فساد لدخوله صمت عميق ، وجلس فى مقعده بمهابة •
لكنه كان من الواضح لكل ذى عينين انه يأخذ الامر كله مأخـذ الاجراءات الشكلية التى لاطائل من ورائها ، حتى لقد بدا انه لم يجلس

فى مقعده الا لانه يجد صعوبة فى الوقوف طويلا بسبب عاهته .

هم الاستاذ والى واقفا من فوره فطلب استدعاء المتهم الى مقعد الشهود ، فلما جلس ماك فى ذلك المقعد أجاب عن أسئلة الاستاذ اجابات مقتضبة ، بغير اكتراث . ثم أعلن الدفاع أنه ليس لديه أية أسئلة .

فلما نودى على العسكرى فيوكومبى ، بين غيره من الشهود ، تبين أنه ليس حاضرا فى المحكمة . فبدا الضيق الشديد على الاستاذ والى ، لان ذلك العسكرى كان الشاهد الوحيد الذى يهمه فى القضية كلها ، وها قد تبين أنه لم يحضر .

ثم قام الاستاذ وايد وترافع بشىء من الاطالة . قال :

ـ سيدى القاضى . حضرات المحلفين . أقام الادعاء دعواه قبل المستر ماكهيث على أساس رفض هذا الاخير الافصاح عن مكان تواجده ساعة أن لاقت المرحومة مارى سوير ربها . والحقيقة أن تقديم ذلك الدليل ـ الذى وجد مستر ماكهيث نفسه مضطرا ، حتى الان ، الى اخفائه ـ كفيل بأن يهدم دعوى الادعاء من أساسها وفى تلك الحالة يثبت أن مارى سوير هذه ، سواء كانت قد ماتت منتحرة أم مقتولة ، لا يمكن أن تكون ميتتها قد تمت على يد مستر ماكهيث . وعلى أية حال ، فقضية الادعاء ، فى ذاتها ، ليست مقنعة . فأى فائدة تعود على مستر ماكهيث ، التاجر ورجل البنوك الكبير، من موت احدى مستخدماته ؟ قيل أثناء نظر القضية أمام قاضى الاحالة ان تلك المرأة هددته بأشياء معينة . وقد صدرت تلك التهديدات منها بالفعل ، فى مكاتب مجلة « العاكس » . فما الذى فعله محررو تلك المجلة ؟ ضحكوا منها ! فما الذى يجعل مستر ماكهيث يرفع اصبعا ليسكت تهديدات حمقاء كهذه تجعل كل من يسمعها يضحك من قائلها ؟ لكنى لن أطيل فى هذه النقطة . فمستر ماكهيث لديه دليل ثابت لا يدحض ولا يقبل الشك يقطع بأنه كان بعيدا عن مكان الجريمة ، فى ليلة العشرين من سبتمبر ، فيدرأ عنه كل شبهة ، وينفى أى صلة له بهذا الموضوع من أساسه . وهنا ألتمس من عدالة المحكمة أن تسمح لى بتقديم محضر اجتماع شركة المجلس المركزى للمشتريات المعروفة باسم م.م.م. ، الذى حضره مستر ماكهيث فى تلك الليلة ، بوصفه رئيسا لذلك المجلس .

قدم الاستاذ وايد المستندات الى القاضى ، ثم أضاف :

ـ كما التمس سماع شهادة السادة أعضاء مجلس ادارة شركة

م. م. م. الحاضرين فى هذه الجلسة ، والموقعين على هذا المحضر ، وسوف يؤكدون جميعهم لعدالة المحكمة أن مستر ماكهيث هو الشخص المشار اليه فى هذا المحضر ـ لضرورات تتعلق بصالح العمل ـ باسم « مستر اكس » .

حدثت فى المحكمة هزةاثارة بينما القاضى يتصفح محضر الاجتماع. ولورد بلومزبرى ، وفانى كرايزلر ، ووايد وريجر ينتقلون الى مقاعد الشهود . وفى نفس اللحظة شوهد سيدان يتركان مقعديهما فى عجلة ظاهرة ، ويسرعان الى الخارج . وقد سمع احد السيدين يقول للآخرين :

ـ لا داعى للبقاء أكثر من هذا ، فقد عرفنا ما فيه الكفاية . ذلك بغير شك هو الاجتماع الذى كتب فيه الخطاب ، وبعد ذلك توقف توريد البضائع الينا . واللعين ماكهيث هو رئيس مجلس الادارة !

ولم يفت ماك خروج هذين السيدين والغيظ البادى على وجه اكبرهما وهو يبرطم بصوت مرتفع ، فبدا عليه الانزعاج .

ثم غمغم القاضى وهو يتفحص المحضر بعناية :

ـ هنا اسم آخر . مكتوب بخط لا يكاد يقرأ . اسمه أوهارا ؟ هل أوهارا هذا موجود فى الجلسة ؟

هم ماك واقفا بعصبية ، وقال بسرعة :

ـ لقد قبض عليه بناء على بلاغ منى ، بوصفى رئيس مجلس ادارة شركة م. م. م. والتهمة الموجهة اليه تسليم وترويج بضائع مسروقة . وقد تمت اجراءات القبض عليه واستجوابه اثناء وجودى بالسجن .

ثم جلس ثانية ، ناظرا بقلق الى الباب الذى خرج منه هارون العظيم غاضبا يبرطم .

أدت فانى كرايزلر بعد ذاك اليمين ، كما أقسم لورد بلومزبرى والمحاميان ، وشهد الجميع بأن السيد المشار اليه باسم « مستر اكس » فى محضر الاجتماع هو مستر ماكهيث بلحمه وشحمه ، وأن مستر ماكهيث حضر ذلك الاجتماع من أوله الى آخره .

ثم هم الاستاذ وايذ واقفا ، وبيده حقيبة الاوراق التى اعطاه اياها الاستاذ والى فى بداية الجلسة ، فقال بلهجة من لا يعنيه الامر فى قليل او كثير لكنه يؤدى ما عليه والسلام :

ـ ان موكلى ليس مطالبا ـ بعد أن اثبت براءته ـ ان يقدم القاتل

الحقيقى الى العدالة . ولكن مستر ماكهيث يرغب فى التعاون مع العدالة بغية كشف غوامض السر المحيط بميتة مستخدمته . ولذلك فانى أرجو ان أقدم الى عدالة المحكمة مستندات معينة بوسع العدالة أن تستنتج منها من يكون قاتل مارى سوير الحقيقى .

قال ذلك وألقى على المنضدة التى يجلس اليها كاتب الجلسة بحزمة من الاوراق ، ثم جلس وقد بدا عليه الارهاق ، شأن من قام بأمر جلل .

حدث هرج فى المحكمة ، كما هى العادة فى مثل تلك المواقف . لكن مستر ماكهيث لم يعر ذلك كله أدنى التفات . أخذ فقط ينظر الى ساعته كل بضع دقائق بعصبية ظاهرة .

ولم يكد المحلفون يخرجون من قاعة المحكمة ليقرروا ما اذا كان مذنبا أم لا ، حتى هم واقفا ، فغادر القاعة بدوره ، فى حراسة أحد ضباط البوليس . بدا واضحا انه يريد أن يتحدث الى مخبرى الصحف الذين تجمعوا فى الردهة . تبادل بضع كلمات همسا مع بولى ثم صحب جماعة الصحفيين الى غرفة خالية ليجرى حديثه معهم .

ولم يلق رجل البوليس أدنى بال الى ذلك كله ، لانه كان يعرف مكانة مستر ماكهيث من جانب ، ومن جانب آخر لم يجد جديدا فى تلك الاحاديث التى يجريها مخبرو الصحف مع كل متهم له وزن ، لكن الجديد هذه المرة كان أن أدخل مستر ماكهيث أصحابه الصحفيين تلك الغرفة ولم يدخل معهم ، بل أقفل الباب عليهم بالمفتاح وأسرع يقطع ما بقى من ممر المحكمة ، ذاهبا الى الباب الخارجى ، بينما وقف رجل البوليس مستندا بظهره الى أحد الاعمدة ناظرا أمامه بضجر .

لم يلحظ احد خروج ماكهيث من مبنى المحكمة خلسة ، عارى الرأس ، وقد أخذ يجفف العرق الذى تصبب على جبينه وهو ينزل الدرج عدوا ، ليجد بولى فى انتظاره عند الباب الخارجى .

كان عليه أن يذهب أولا الى سكوتلانديارد ثم يتجه بعد ذلك الى بنك الائتمان الاهلى .

عندما صعد الى المركبة مع بولى ، أقبل جروتش يعدو وراءهما ، فذهبوا ثلاثتهم فى اتجاه سكوتلانديارد ، ولو انهم لم يتقدموا بالسرعة المرجوة ، لان الضباب كان كثيفا فى ذلك اليوم .

رجاحة العقل تنتصر

بينما مستر بيتشام يجلس فى مكتبه ذلك الصباح يكتب مقالا آخر لمجلة « العاكس » يعبر فيه عما خالجه فجأة من شكوك وريب قوية بشأن العناصر الهدامة التى ما من شك فى أنها مسئولة مسئولية كاملة عن غرق « المتفائل » ، كان يحاول ، فى نفس الوقت ، دون جدوى ، أن يتصل برجاله المنتشرين فى أنحاء متفرقة من المدينة ، وبخاصة حى المال والاعمال ، ليحدثوا فى ذلك الحى شغبا ، حتى يأمرهم ـ بعدما جد من تطورات ـ ألا يحدثوا ذلك الشغب . عاد بعض من أرسلهم فى اعقاب أولئك الرجال قائلين أنهم لم يجدوا أحدا فى أماكن التجمع المتفق عليها . اما بقية من أرسلهم فقد اختفوا مع الاخرين ، فكأنما انشقت الارض فابتلعت هؤلاء وأولئك .

صمد مستر بيتشام للقلق الذى انتابه حتى الظهر ، ثم لم يعد يطيق صبرا ، وخانته اعصابه ، فأسرع يستأجر عربة حملته الى سكوتلانديارد ، وهناك وجد كبير المفتشين براون ، مرتديا الثياب التى سيحضر بها حفل التأبين والصلاة على أرواح الشهداء ، منهمكا فى استجواب عدد من المقبوض عليهم فى قضية التخريب .

ألح مستر بيتشام على أحد مساعدى براون حتى أتيحت له فرصة الاختلاء بهذا الاخير ، فلم يكد الباب يغلق عليهما حتى أخبره بذعر أن عدة مئات من الجنود الجرحى مزودين بلافتات رهيبة لا حدود لما يمكن أن تحدثه من أذى سيقومون بمظاهرة ، وانه حاول أن يستدعيهم ، بعد التطورات الاخيرة ، لكنه لم يتمكن من الاتصال بهم ، وبذلك أفلت الزمام من يده ولم يعد بوسعه منع تلك المظاهرة التى يمكن أن تتطور الى كارثة حقيقية ، خاصة وأن التجارب السابقة تشير الى أن أعدادا كبيرة من الناس ستنضم الى تلك المظاهرة تلقائيا ، بحيث يمكن أن يتضاعف عدد المتظاهرين عدة مرات قبل أن يكونوا قد بلغوا كنيسة القديس بولس .

ثم انفجر بيتشام صائحا ، وقد انفلت عياره تماما :

ـ يجب ان تطلقوا النار عليهم فتقتلوهم عن بكرة أبيهم . انهم مجرد حثالة من العاطلين ! أستطيع أن أعطيك قائمة بأسمائهم . هناك عدد كبير بينهم من القتلة واللصوص ورد السجون ! واللافتات التى يحملونها مكتوب عليها أشياء مخيفة ، فهى تطالب بتفسير لما حدث

لزملائهم الذين غرقوا فى كارثة ذلك المركب ، وتتساءل عن جدوى هذه الحرب أصلا • يجب أن تطلقوا النار عليهم فتبيدوهم ! فليس هناك من يستطيع أن يجيب عن أسئلتهم • يجب أن تطلق النار • يجب •

غرق براون فى عرق بارد .

أخذ علما من بيتشام بكل أماكن التجمع التى ستبدأ منها المظاهرة وأسرع خارجا من الغرفة . أما بيتشـــام فذهب الى بنك الائتمان الاهلى والقلق ينهش صدره . وبعد خروجهما بلحظات دخل ماكهيث مكتب براون كالزوبعة ، فقيل له أن كبير المفتشين فى اجتماع بالغ الخطورة ، لكنه صاح فى وجه من اخبره بذلك أن يسارع فيحضره . وبينما هو ينتظر براون ، أخذ يتحدث الى أوهارا الذى وجده جالسا على عقبيه فى احد الممرات ، بين اثنين من رجال البوليس ، وقد أخفى القيود الحديدية الموضوعة حول رسغيه بقبعته • كان قد أحضر من السجن لاستجوابه بمعرفة كبير المفتشين قبيل وصول بيتشام بقليل

بدا أوهار متمالكا أعصابه ، غير عابىء للورطة التى هو فيها ، بل ومستبشرا . قال لمـاكهيث ببساطة وهو يضحك فى مرح حقيقى :

ــ سوف أعترف بكل جرائمك ياماك . سأؤدى لك خدمة فأريح ضميرك . عندما أقول لهم كل شيء ستحس براحة كبرى وتتخلص من كل ذنوبك !

ابتعد رجلا البوليس ، اللذان يعرفان مكانة مستر ماكهيث حق المعرفة ، ليتيحا للصديقين فرصة النقاش بحرية . قال ماك :

ــ كذا ؟ كنت اظنك أعقل من ذلك يا أوهارا ! اسمع . لن أضيع الوقت فى الكلام . لم يعد أمامنا الا بضع دقائق ننقذك خلالهـــا من المشنقة ، وانت تريد أن تضيعها فى هذا الهراء الذى تقوله . لقد طلبت من صديقى براون ان يطلق سراح قاتلك المأجور جايلز حتى لا يعترف عليك بأنك استأجرته ليقتل السمسار كوكس • فاهم ؟

ــ فاهم طبعا . انت تريدنى أن أحنى لك رأسى وأغور من وجهك فأذهب الى السجن .

ــ اننا نحاول الحصول على كل ما نستطيع العثور عليه من فواتير تغطى تلك البضائع التى ضبطت فى حوزتك . انا لا أحمـل لك اية ضغينة ، ولا أريد بك شرا . على العكس تماما . كل ما فى الامر أن أحدا يجب أن يتحمل وزر كل ما حدث . وأنا كما تعلم لا غنى عنى الآن ، فبدونى سـوف ينهار كل شيء • ولا تنس أنى دخلت السجن

انا أيضا ، وما زلت سجينا حتى هذه اللحظة ، لنفس السبب .

ــ أنت مجنون يا ماك ؟ تريدنى أن أذهب الى السجن لاقضى وراء أسواره ست سنوات تضيع من عمرى من أجل أعمالك ؟ عندما ترى حلمة أذنك ! ستشنقوننى اذا لم أسلمكم عنقى وأذهب الى السجن ؟ فليكن • لكنى سأجركم كلكم معى أولا •

ــ لن تجد فرصة لجر أحد كما تتوهم . ليس هناك ما يمكن أن تثبته على أحد • حتى ولا أنت • كل ما هنالك أن الاعمال ستتأثر اذا ركبت رأسك ولم تعترف . وحتى هذا يمكن تداركه . فوق أنك لن يحكم عليك بست سنوات كما تظن • لن يزيد الحكم على أربع سنوات على أكثر تقدير • سوف نزودك بكل ما نستطيع تدبيره لك من فواتير . مكتبنا فى حى المال والاعمال سيتكفل بذلك ، ويمكن أن تعترف فى المحكمة آسفا بأنك انحرفت فى الشهور القليلة الاخيرة فقط ، وتعلن ندمك .

ــ الشهور القليلة الاخيرة التى تركتنا أنت فيها ودخلت السجن، هه ؟

ــ تماما . الشهور التى تركتكم فيها . ويمكنك أن تقول ــ لتؤثر فى الرأى العام ــ أنك فعلت ما فعلت بدافع الشفقة . أنك رثيت لحال أصحاب الدكاكين الذين ظلوا يستصرخونك فى طلب البضائع بعد أن توقف التوريد ، وأنك لم تستطع أن تحتمل منظر شقائهم ويأسهم أكثر مما فعلت ، فقررت أن تفعل أى شىء من أجلهم ، لانك كنت ، ذات يوم ، واحدا منهم ، وقد أدركت أن الامر فيما يخصهم مسألة حياة أو موت ، فمحلات حرف « ب » تبيع بأرخص الاسعار فى لندن !

ــ تريدنى أن أقف فى المحكمة فأعترف ، والقى فى الوقت ذاته هذه المحاضرة الاعلانية ؟

ــ لن يضرك ذلك بشىء . يجب أن تتعقل وتنظر الى كل شىء على ضوء مصلحة العمل . لكنك يجب أن تقرر ما تنوى أن تفعله الان ، لانى يجب أن أذهب .

وهنا دخل براون ، فبدأت المناقشة من جديد ، وبدأ أوهارا يصيح ثانية ، قال ان ماكهيث قد خرب ــ بتحوله من لص الى رجل أعمال ــ أفضل عصابة فى لندن ، وشرد أفرادها . أفضل عصابة فى العالم أجمع . والقى بنصف رجاله السابقين فى غيابات السجون . وانه هو ــ أوهارا ــ سينتقم للعصابة وللرجال جميعا ، فينزع قناع ماكهيث

عن وجهه القبيح ويريه للعالم على حقيقته .

لكنه بعد ذلك انفثأ غضبه واصبح أكثر ميلا للتفاهم ، فاتخذ الحديث منحى واقعيا . لم يبد أوهارا استعدادا للاعتراف الا بسرقتين أو ثلاث سرقات على الاكثر ، بينما أراده براون وماك أن يعترف بأكثر من ذلك . ثم توصلوا ثلاثتهم فى النهاية الى حل وسط ، فتم الاتفاق على أن يعترف بخمس سرقات ، ووعده ماك بأن يزوده بعواتير تفطى بقية البضائع . فانتهى الامر على خير . وشد كل منهم على يد الاخر .

قال ماكهيث :

ـ بصرف النظر عما قد تحس به يا أوهارا ، يجب أن تعتبر هذا الاتفاق انتصارا لرجاحة العقل . لم يكن بوسعك أن تقرر غير ما قررت . أما أنا فان اتفاقنا ـ رغم انه يحقق صالح العمل ـ يحزنني كثيرا ، بصفة شخصية . وثق انك الليلة ستنام مستريحا بينما أقضى أنا الليلة مسهدا اتقلب فى فراشى .

بعد انصراف اوهارا ، ظل ماكهيث وحده مع براون ، فأعطاه ظرفا صغيرا مغلقا ، قائلا له بحرارة :

ـ أنت ترى . أنى أسدد ديونى !

ثم اضاف باستبشار :

ـ واحتفاء بما حققناه اليوم ياعزيزى فريدى ، اسمح لى أن اقدم لك هدية صغيرة اعترافا بأفضالك العديدة على .

فتح براون الظرف ، فلما عد ما فيه عانق صديقه القديم وزميله فى السلاح بمنتهى التأثر . قال وهو ينظر الى ماكهيث بنظرته الصافية التى تنطق بالامانة :

ـ انى اقبل الهدية يا صديقى ، وسوف احتفظ بها عن طيب خاطر لاننا صديقان ، وليس الامر على العكس ابدا . أعنى أننا لسنا صديقين لانك تعطينى مثل هذه الهدية بين الحين والحين ، ولكنى اقبل منك هذه الهدايا بروح الصداقة الحقة . أرجو أن تكون مدركا ذلك ياماك !

عندما خرج ماك الى الشارع ثانية بصحبة جرونش وبولى ، لاحظ أن الضباب قد ازداد كثافة .

الضباب

فى قاعة الاجتماعات ببنك الائتمان الاهلى ، جلس ثمانية من السادة ينتظرون

فى ركن من أركان الغرفة وقفت جماعة صغيرة تضم الســــادة بيتشام ، وهوثورن ، وميللر ، وكرستون . وفى الركن المقابل . تحت تمثال نصفى لسمو الامير زوج الملكة وقف السيدان مديرا البنك التجارى ونجماه اللامعان ، ومعهما السيد اليهودى هارون وسكرتيره الخاص .

تجنبت كل جماعة النظر الى الاخرى ، وأخذ أفرادها يتحدثون فيما بينهم بنبرات خافتة لا يسمعها الخصوم .

كان هارون يروى للاخوين أوبر ما جرى فى الجلسة . والحقيقة أن هارون ، بما جبل عليه ابناء جنسه من مكر وخديعة ـ لم يدهش لشىء مما حدث . فعندما جاءت الدعوة التى وجهها هوثورن وأعلن فيها تعيين ماكهيث عضوا منتدبا لبنك الائتمان الاهلى ، كان هارون أقل الثلاثة دهشة لمخاتلة ماكهيث وغدره . والحقيقة أن الطريقة التى تقبل بها ماتكشفت عنه الاحداث بعد ذلك من أن صديقه مستر ماكهيث لم يكتف بالانضمام للمعسكر المنافس عضوا بمجلس ادارة بنك الائتمان وحليفا لكرستون ، بل كان أيضا رئيسا لمجلس ادارة شركة م.م.م. المعادية ، وأنه ظل لامد طويل يتآمر على أصدقائه مع خصومهم ومنافسيهم ـ تلك الطريقة الهادئة المتسمة بالقدرية أثبتت بما لا يقبل الشك أنه ليس يهوديا مؤمنا بيهوديته فحسب ، بل ورجل اعمال من الطراز الاول . وقد صارح الاخوين أوبر بأن التصرف الواقعى السليم يقضى الان بكبح جماح كل المشاعر الشخصية ، وقبول الموقف الذى استجد كأمر واقع لا يقبل النقاش ، مما أدهش هذين الاخوين وأثار غيظهما لانهما لم يستطيعا مشاركته وجهة نظره الموضوعية هذه ، التى لم تمنعه ـ على أية حال ـ من الاعتراف لصاحبيه أنه ينتظر مجىء ماكهيث على أحر من الجمر ، لا لشىء الا ليرى ان كان الرجل سيستطيع أن ينظر فى وجوههم بعد كل ما فعل !

وقد جاء ماك أخيرا ، فدخل قاعة الاجتماع مصطحبا رجله جروتش.
وقف الاثنان فى الباب فانحنيا لمن بالغرفة ، وأجابهما السادة المجتمعين فى الركنين المتقابلين بانحناءات مماثلة . وبعد ذلك تقدم بيتشام من القادمين الجديدين فقال لهما :

ـ معذرة ، ولكن هل يمكننى أن أعرف من منكما السيد ماكهيث؟
فانحنى له ماك ، ورأى بيتشام زوج ابنته وخصمه السابق لاول مرة : رجلا قصير القامة ، ربعة ، فى الحلقة الرابعة من عمره ، له

رأس يشبه رأس فجلة • انحنى كل منهما للاخر قائلا :

ـ أهلا بك • كيف حالك ؟

ثم عاد بيتشام فانضم الى جماعته الواقفة بجوار النافذة ، بينما ظل زوج ابنته وجروتش عند الباب • لم يبد ماك أية رغبة فى الدخول فى حديث مع هارون أو الاخوين اوبر اللذين وقفا يحدجانه بنظرة عداء لا خفاء فيها • ولذلك فانه وقف محتميا برفقة ذلك اللص القديم جروتش • كانا ، كمعظم من بالغرفة ، يرتديان ثيابا سوداء ، إستعدادا للذهاب الى حفل التأبين ، وقد أحسا ، فى تلك الغرفة المترفة النظيفة ، بضوئها الساطع ، اشبه بغرابين أسحمين قد حطا على فرع شجرة مزهر بالنوار • لكنهما كانا مخطئين ، فالغـــرفة لم تكن بكل تلك النظافة ، والجمع كله كان سربا من الغربان • وقد فطن ماكهيث إلى ذلك لفوره ، فقال فى نفسه بقرف انهم يتحينون الفرصة ليسرقوا من جيوب بعضهم بعضا ، ومن جيبى أنا أيضا • لكنهم يجب أن يفعلوا ذلك بطريقة مهذبة متحضرة • سيدى ، هل تسمح لى بحز عنقك ؟ يجب أن يتم كل شىء على شكل عقود • كل هذا التظاهر والنقار يثير غثيانى • حتى أنا ألعب لعبتهم فأجلس وأساوم وأدخل فى « فصال » لا نهاية له حول العمولات ، لم لا أخرج مديتى نأغمدها فى بطونهم اذا لم يعطونى ما أريد ؟ يالها من طريقة بلهاء لكسب المال طريقة الجلوس الى منضدة هذه ، والابتسام ، وتدخين السجائر ، وتوقيع الاتفاقيات ! اذن فعلى أن أدس فى العقود عبارات لولبية ، وألمح بتلميحات ، وأبتسم ، وأناور ، وألف وأدور! لم لا أقول للواحد منهم صراحة ، بغير لف ولا دوران : اعطنى ما معك أو أذبحك ؟! علام كل هذه العقود ، والاتفاقيات ، والتعهدات ، بينما المرء قادر على أن يحصل منهم على كل ما يريد بخلع أظافرهم أو تهشيم أسنانهم ؟ هه لم ؟ وعلام كل هذا التستر الذى ينبىء عن جبن وراء القضاة والمحضرين ؟ كل هذه أشياء مهينة ، تحط من قيمة المرء • نعم لم يعد بوسع المرء اليوم أن يحقق أى شىء بتلك الوسيلة القديمة ، البسيطة ، الطبيعية ، المجربة : وسيلة السطو على الناس فى عرض الطريق . فقد باتت تلك طريقة عتيقة لا توائم روح العصر ، وهى بالنسبة للوسائل المتبعة فى دنيا الاعمال حاليا لتحقيق نفس الغرض ، تماما مثل السفن الشراعية بالنسبة لبواخر اليوم • لكن أيام زمان كانت خيرا وبركة ، وهذه أيام ذل وشقاء !

كانوا ينتظرون مجيء فخامة اللورد بلومزبرى ، عضو مجلس ادارة شركة م٠م٠م٠

وقد وصل اللورد بعد ماكهيث بنصف ساعة ، نصف مخمور ، فشد على كلتا يدى ماكهيث وقال مهنئا بحرارة :

ـ لقد برئت ٠ صدر الحكم ببراءتك منذ قليل ٠ لكن القاضى حكم عليك بعقوبة بسيطة لانك هربت قبل النطق بالحكم ، بتهمة احتقار المحكمة ٠

كانت فانى كرايزلر قد جاءت معه ، لكنها انتظرت خارجا مع بولى ، ولم يشأ ماك ، حرصا على مشاعر جميه ، أن يدعوها الى غرفة الاجتماع ٠

جلس السادة المجتمعون الى مائدة الاجتماع المستديرة ، الكبيرة الحجم ، التى وضع عليها دورق ماء وستة أكواب ، وعلبة سيجار كبيرة ٠ افتتح هوثورن الاجتماع بوصفه المضيف وسكرتير المجلس ، فرحب بالسادة الحاضرين ، وأفسح المكان من فوره لماكهيث الذى قدمه اليهم بهذه الكلمات :

ـ ان مستر ماكهيث أشهر من أن يعرف ٠ ويكفيه فخرا أنه مؤسس محلات حرف «ب» الذائعة الصيت ٠ وهو يود أن يعرض على حضراتكم بعض الاقتراحات ٠

لكن هارون رفع يدا لحيمة وقال معترضا :

ـ لحظة من فضلك ، قبل أن يعرض مستر ماكهيث أية اقتراحات هناك نقطة تبدو لنا بالغة الأهمية ولا تحتمل التأجيل يتعين ان يقدم لنا ايضاحا كاملا عنها قبل أن نصبح على استعداد للانصات الى أية اقتراحات من جانب مستر ماكهيث ، وأنا اعنى بذلك ـ كما لا يخفى على حضراتكم ـ الشائعات التى تواترت أخيرا حول سمعة مجلس المشتريات المركزى م٠م٠م ٠

فنهض ماكهيث بتؤدة وقال بغير اكتراث :

ـ اننا على علم تام بذلك ٠ وقد انطلقت تلك الشائعات بسبب القبض على شخص يدعى أوهارا كان من بين موردى محلاتى ٠ وأحب أن أطمئن السيد هارون الى أن القبض على ذلك الشخص تم بناء على بلاغ قدم منى شخصيا ضده ، عندما ثارت شكوكى حول مصدر بعض البضائع التى قام بتوريدها ، ولم اقتنع بما قدمه لى من بيانات بشأنها ، فقمت بتحريات خاصة أكدت لى أن تلك البضائع مسروقة .
وقد اعترف أوهارا هذا بجريمته للبوليس ، وهو الآن ينتظر المحاكمة

بتهمة الاتجار فى بضائع مسروقة ٠

نظر هارون الى ماكهيث ولم يقل شيئا ٠ لم يبد كبير دهشة ، بل أومأ برأسه مؤمنا ، دون أن يستطيع اخفاء اعجابه ، فأخذ ماكهيث فى عرض مقترحاته ، موجزا قوله قدر الامكان ٠ قال أن تجارة القطاعى تواجه أزمة ، وأن المنافسة القاطعة للرقاب التى نشبت مؤخرا قد أدت الى تخفيض الاسعار الى الحد الذى جعل من المستحيل تحقيق أى ربح معقول أو دون المعقول ٠ حقيقة أن المبدأ الذى تهتدى بهديه المحلات التى تبيع بأسعار موحدة هو « خدمة العميل » ٠ لكن تلك الدكاكين يتعين — لكى تنجح فى المدى الطويل — أن تكون متمتعة بكامل صحتها ، أى أن تكون فى وضع اقتصادى سليم ، فلا تضطر أن تعيش على لحم الحى كما يقال ، وتتمكن — بجانب ذلك — من تكوين احتياطيات معقولة تنميها أولا بأول ٠ فوق أن نظام المنافسة العمياء العشوائية الذى ساد حتى الآن قد ألقى بعبء مبهظ على عاتق البنوك٠ ولذلك فانه يقترح تشكيل نقابة هـ ٠ ك ٠ ب ٠ التى تضم محلات هارون ، وكرستون ، ودكاكين حرف « ب » فى منظمه واحدة قوية تستطيع أن تدرس احتياجات جمهور المشترين ، وتنشىء نظاما اقليميا للدكاكين ، وتتوصل الى خطة موحدة للشراء والبيع ،وتتوصل بذلك الى مستوى منخفض من الاسعار بدرجة معقولة ٠

وهنا نظر هارون محرجا الى السيدين صاحبى البنك التجارى وقال بتؤدة والله كلام معقول ٠ وقال أيضا أن مصلحة تجارة القطاعى ومصلحة الجمهور أيضا تقتضى احداث تغيير فى نظام المنافسة السائد حاليا ٠

ساد صمت عميق ٠ ثم تنحنح رئيس مجلس ادارة البنك التجارى وقال بلهجة تنبىء عن غيظه :

— أرجو أن يسمح لى بتوجيه سؤال يبدو لى ضروريا ٠ ذلك السؤال هو : هل جرت قبل الان أية مناقشات فى الاتجاه الذى أشار اليه مستر ماكهيث لتوه ؟ فعلى حد علمي مازالت محلات حرف «ب» المملوكة لمستر ماكهيث من المشروعات التابعة لمصرفنا ، ومستر ماكهيث ملزم لذلك بأن يناقش معنا أولا أية قرارات تؤثر فى مصالحنا المشتركة ٠

رد عليه ماك ببطء ، وهو يختار كل كلمة من كلماته بعناية شديدة٠ قال أنه ، بالنظر الى روابط عائلية معينة (وأشار بحركة من يده الى مستر بيتشام الذى لزم الصمت ولم تتحرك عضلة فى جسده) اضطر أن يدلى بدلوه فى اعمال بنك الائتمان الاهلى الذى كان يتعامل

مع محلات كرستون • وأن اتخاذ قرار بشأن مستقبل تلك المنشأة فرض على الاسرة فرضا ، وتبعا لذلك فانه أجرى مباحثات ذات طبيعة غير رسمية مع مستر كرستون شخصيا •

وهنا سأله هارون ، دون أن ينظر الى صاحبيه ، الاخوين أوبر :

ـ وما الذى تمخضت عنه تلك المباحثات ؟

فاجاب كرستون ، نيابة عن ماكهيث :

ـ عن اتفاق كامل فى الآراء •

فضحك هارون •

وعاد رئيس مجلس ادارة البنك التجارى يسأل ببرود :

ـ وهل جاء ذكر ، فى تلك المحادثات غير الرسمية ، التى جرت على حجر العائلة اذا صح التعبير ، للدور الذى سيقوم به المجلس المركزى للمشتريات ؟

قال ذلك ونظر الى لورد بلومزبرى الذى جلس وهو « يفرك » فى مقعده بتعاسة لم تخف على الاخرين ، غير فاهم شيئا مما يجرى حوله•

أجاب ماكهيث ، بمنتهى الهدوء ، نيابة عنه :

ـ يمكنك أن توجه ذلك السؤال الى •

فقال جاك أوبر :

ـ أنا أوجهه الى شركة م•م•م •

ـ تماما • وبذلك فأنت توجهه الى • لم يعد بوسعى أن أخفى علاقتى الوثيقة بشركة م•م•م• التى تعود الى وقت طويل مضى

فسأله أصغر الاخوين أوبر بتهكم ثلجى :

ـ علاقة عائلية هى الاخرى ؟

لم يبد على ماكهيث أنه لحظ تهكم الاخر ، فقال بعذوبة :

ـ كلا ، كلا ، علاقة ودية • ودية للغاية • أنا وبلومزبرى صديقان كما تعرفون !

فقال هنرى أوبر وهو ينظر الى هارون :

ـ شىء يثير الاهتمام حقا •

ساد صمت محرج • ملأ هوثورن لنفسه كوبا من الماء ، وهو يحث السادة المجتمعين بأدب على تجنب الانفعال فى مناقشاتهم •

كان هارون أول من قطع الصمت ، فقال ، موجها كلامه الى ماكهيث، بلهجة لا تفتقر الى الود ، وبروح دعابة جنائزية ، كتلك التى قد يتكلفها رجل يصعد درج المشنقة :

ـ طيب ياسيد ماكهيث . لننظر الان فيما لدينا . لدينا ، فيما

أري ، أنك ترأس مجلس ادارة شركة م٠م٠م وفى الوقت ذاته تدير بنك الائتمان الاهلي ٠ تمام ؟

أومأ ماك برأسه مؤمنا على صحة هذا الكلام ٠ فقال هارون موجها الكلام ، هذه المرة ، الى صاحبيه :

ـ اذن فهذا يغير الوضع تماما ٠ اذا لم أكن مخطئا ـ وليس هناك من سبب يجعلنى مخطئا ـ يستطيع كرستون ، وهو مطمئن ، أن يتوقع شحنات جديدة من البضائع من شركة م٠م٠م ٠ وليسمح لى مستر هوثورن أن أقول ، بغير انفعال ، أنه يبدو أن العلاقات العائلية ، والعلاقات العملية ، والعلاقات الودية أيضا ، قد تضافرت فى هذه الحالة على خلق جو من الوئام البالغ فى المعسكر المقابل ٠ وذلك يدعونا الى أن نسأل أنفسنا : هل هناك ما يدعو حقا الى وجود معسكرين متقابلين ؟ بوسعنا أن نتوصل الى اتفاق غدا ، لكننا نستطيع أن نتفاهم اليوم أيضا . والان هو أحسن الاوقات أيها السادة ! فما رأيكما ؟

قال ماكهيث مساندا :

ـ ان شركة م٠م٠م٠ منظمة قوية للغاية . ليس فى ذلك شك . وهى تظل كذلك طالما كانت الاسعار التى تبيع بها منخفضة ، لكنها فى مستوى معقول من الانخفاض ، بعكس ما حدث ، لسوء الحظ ، مؤخرا ٠ الذى أريد أن أقوله صراحة هو أن الضغط الذى وقع بسبب تخفيض الاسعار على المحلات التى لا تنتمى الى مجموعتنا قد احدث أثره ٠ ذلك الاثر كان وباء من حالات الافلاس . وهو وباء يؤسف له من الناحية الانسانية البحتة ، أما من ناحية الاعمال فانه شيء أشبه بفصد الدم الفاسد ، فهو علاج ناجع سيتيح لتجارة التجزئة ان تسترد عافيتها بسرعة ، وتقف على قدميها من جديد ، فوق أنه سيهيىء كميات لايستهان بها من البضائع يمكن شراؤها بأسعار غاية فى الانخفاض من المحلات المفلسة وذلك هو ماينبغى أن يكون : المرضى والضعفاء يموتون ، والاقوياءيقاتلون ياسادتى !

جلس هارون منصتا الى كل كلمة وهو يفحص أظافر يديه كأنه يكتشفها لاول مرة . ولم يبد أن أحدا من الحاضرين يريد أن يقول شيئا ، فاستطرد ماكهيث قائلا :

ـ أنت مدرك طبعا ياعزيزى هارون انه ليس من المرغوب فيه ابدا أن نعلن تراجعنا عن أسبوع مبيعاتنا الذى ظللنا نعلن عنه طيلة ذلك الوقت

وماعليك الا أن تذكر أن جمهور المشترين اللندني برمته قد تتبع معركتنا في ساحة المنافسة كما لو كان يرقب مباراة رياضية كبرى . ولذلك فان الذي ينسحب الان دون ان يواصل اللعب لن يحظى الا باستهجان الجمهور . لكن الامر يختلف تماما اذا ماتغير الوضـــع ، فاندمجت الشركات الثلاث في كومبينة واحدة تستطيع آنئــذ أن تلغى ذلك الاوكازيون ، ان شاءت ، دون أن يلومها احد ، أو أن تستمر فيــه .

قال هارون .

ـ تعني أنك ستجهز علينا بالقيام بأسبوع المبيعات بمفردك اذا لم نتوصل الى اتفاق معك ؟ ولكن من أين لك البضائع ؟ الم تصبح مخازن شركة م٠م٠م٠ خاوية ؟

قال ماكهيث ببساطة :

ـ كانت كذلك الى عهد قريب . لكنني اشتريت مؤخرا كميات كبيرة من البضائع ـ من كرستون ، كانت اغلى قليلا من تلك التي توردها شركة م٠م٠م٠ لكنها ليست بالاسعار المرتفعة التي تباع بها في السوق العادية .

فقال هارون :

ـ تلك الكومبينة التي تقترحها ، سيكون لك وضع غير عادي فيها ياماكهيث بوصفك رئيسا لمجلس ادارة شركة م٠م٠م٠

قال ماك دون أن يطرف له رمش :

ـ قل أني سأتحمل مسئوليات غير عادية !

نظر اليه هارون لحظة ثم التفت الى صاحبي البنك التجاري قائلا :

ـ هه ، ماراًيكما ؟

نظر هنري أوبر الى أخيه ، ثم قال بحدة :

ـ تريد رأينا ؟ سأقول لك . فيما يخصني أنا على الاقل ، ارى الا تكون لنا أية صلة على الاطلاق بالسيد ماكهيث . وأرجو أن تتفضل الان بالانصراف معنا ياسيد هارون اذا سمحت .

ثم وقف ، وحذا أخوه حذوه .

نظر اليهما هارون والتعاسة مرسومة على وجهه المفجع أصلا ، ثم قال بنبرة نائحة ، دون أن يتحرك من مقعده :

ـ ولكن لم ؟ لم لاتستمعان اليه على الاقل ؟

حدجه هنري أوبر بنظرة احتقار ثلجية ، ثم استدار دون أن ينبس فاوما للحاضرين بتحية مقتضبة من رأسه ، وانصرف وأخوه كلاسيكي

النزعة فى اعقابه ، واضعا على شفتيه ابتسامة رواقية .

قال هارون وعيناه اليهوديتان تمعنان النظر فى أوجه المجتمعين .

ــ صديقى مفتقر الى روح الدعابة . لاشك فى ذلك . والا لكان قد ظل معنا . أنا ، مثلا ، بقيت لانى أتمتع بروح الدعابة . فالامر فكه للغاية .

لكنه مالبث أن أضاف وهو يتميز غيظا :

ــ لا أستطيع أن انصرف وشركتى مهددة بالخراب

فلما لم يقل أحد شيئا استطرد قائلا :

ــ لكننا لايجب أن نتهور . فهناك مسألة يجب أن نتدبرها جيدا قبل أن تتأزم الامور بسببها ، تلك المسألة هى : هل نستطيع أن نستغنى عن تمويل البنك التجارى ؟

وهنا فتح مستر بيتشام شفتيه المطبقتين ، فاشترك ــ لاول مرة ــ فى المناقشة . قال لليهودى بجفاء ، وشىء من العجرفة :

ــ اظن أن زوج ابنتى يستطيع أن يطمئنك من هذه الناحية . فشركة النقل البحرى ، التى أمثلها ، لم تتعرض ، لحسن الحظ ، لاية خسائر مالية بسبب الكارثة المخيفة ، والمؤلمة ، التى لحقت باحدى سفنها . وهكذا فان الله قد وقانا شر الاضرار المالية التى كان من الممكن أن تلحق بانجلترا فوق مالحق بها من ضرر تمثل فيما خسرته من أرواح غالية . نحمد الله على أى حال . وبوسعى أن أسر اليكم أن شركتنا تستطيع أن تتوقع عقدا آخر مع الحكومة . ولهذا فانى ، مؤقتا ــ على الاقل ــ والى أن أبدأ فى تحقيق خطط معينة أفكر فيها حاليا ، فى مركز يمكننى من أن أقدم الدعم المادى الذى قد تحتاجه كومبينة واعدة بكل خير كتلك التى يقترحها زوج ابنتى ويدعو السيدين كرستون وهارون الى الانضمام اليها .

احنى هارون رأسه ، وتهدل جسمه فى مقعده ، وقد تبخر أمله الاخير . ثم رفع رأسه ونظر الى ماكهيث وكأنه يحلم ، وقال بصوت خافت لالون له :

ــ برافو ماكهيث . لقد اجهزت علينا جميعا . اظننى مستطيعا أن ارى خطتك البارعة بكل جلاء الان . فقد استخدمت بضائعك ذات الاثمان التى لاتصدق لكى تستدرجنا أنا والبنك التجارى الى الدخول فى منافسة قاتلة مع كرستون،ثم ما لبثت أن استدرت الى هذا الاخير، فجعلته يجثو على ركبتيه . وعندما أوشك على الانهيار وسحب كل

ما امكنه سحبه من أموال بنك الائتمان الاهلى ، حتى يستطيع أن يستمر فى البيع بنفس الاسعار التى كنا نبيع بها نحن ، جعلت بنك الائتمان يتوقف عن تمويله . واذذاك استعدرت الينا ، فى اللحظة التى بلغ الصراع فيها ذروته ، فأوقفت سيل البضائع الذى كان يتدفق علينا من مخازن شركة م.م.م. وأوقفته فى نفس الوقت عن محلاتك حرف «ب» ، حتى لاتثير شكوكنا . وهأنت الان تعزلنا عن البنك التجارى كما عـزلت كرستون عن الاهلى . ضربة معلم ياصاح ، ضربة معلم ! رائع والله ! يجب أن نناقش خطتك مناقشة أكمل فى وقت آخر ، وربما دعوتك الى زجاجة معتقة ، حتى تكتمل متعتنا ! ولكن كفانا الان حديثا فى العمل . فالكل فيما أرى على احر من الجمر لحضور الصلاة التى ستقام على أرواح الشهداء . وقد أزف الوقت . ولا أظننا مستطيعين ـ على اية حال ـ أن نناقش أية تفاصيل أخرى اليوم .

هز الجميع رءوسهم مؤمنين ، وقد باتت الكومبينة التى تجمع أكبر محلات تجارة التجزئة تحت ادارة مستر ماكهيث أمرا واقعا لا يقبل النقاش .

وفى غرفة مجاورة كانت فانى وبولى قد استمتعتا بوقتهما للغاية ، بينما ماك فى غرفة الاجتماع يجهز على كل أولئك السادة ، ويضع مستر بيتشام تحت ابطه .

أخذت فانى تروى لبولى ، وهى مغرقة فى الضحك ، ماقعله أصحاب محلات حرف « ب » الذين حضروا المحاكمة . فبعد صدور الحكم بالبراءة ، اشترك أولئك الناس وزوجاتهم فى البحث عن ماك وعنـدما انصرفوا ، سارت فانى وراءهم وهى تنصت لما يقولون . كانوا فرحين بنجاة ماك الذى تحزبوا ضده كلهم منذ قليل . كانوا يتحرقون شوقا لان يشدوا على يده مهنئين . وفى نفس الوقت أخذوا يشتمون الاستاذ والى ـ الذى كانوا قد اتخذوه بطلا لهم منذ قليل ـ ويلعنون ارومة أجداده ، ولو طالته أيديهم فى تلك اللحظة لأشبعوه ضربا ، لانه ، فى بداية المحاكمة ، كان يعمل على شنق ماك . أخذوا يقولون لبعضهم بعضا غاضبين :

ـ ابن الحرام والى ! كان يريد أن يتسبب فى شنق مستر ماكهيث! لابد أنه كانت لديه أسباب قذرة تدفعه الى ذلك !

والاطرف من ذلك كله ، فيما قالته فانى لبولى وهى ممعنة فى الضحك أن دليل البراءة الذى جعل أولئك الناس يفرحون بذلك الشكل ، ويهللون

لانه تسبب في انقاذ عنق ماكهيث من حبل المشنقة ، كان حضوره اجتماع مجلس ادارة شركة م.م.م. الذى تقرر فيه ايقاف توريد البضائع وتسبب بذلك فى خراب بيوتهم .

فضحكت بولي ملء بطنها لعبط أولئك الناس . ثم أخذتا تناقشان موضات الخريف المقبل . وعندما انفض الاجتماع ، كانت كل منهما قد دعت الاخرى لزيارتها فى بيتها . ولو أن بولى ، رغم مرحها البادى ، كانت تحس بعضا من القلق والتوتر ، بسبب تلك المقابلة الاولى التى تتم بين ابيها وماكهيث .

لكنها مالبثت أن رأت بيتشام يخرج من غرفة الاجتماع مع زوجها ، فيسير كل منهما بجوار الاخر ، صامتا ، غارقا فى التفكير

ذهبوا الى الكاتدرائية فى أربع عربات ، انفردت بولي بزوجها فى واحدة منها ، فأخذت يده بين يديها ، لان حبهما العظيم قد انتصر على كل العقبات .

كان الضباب قد تكاثف أكثر أثناء الاجتماع الذى عقد فى بنك الائتمان الاهلي ، فاضطرت العربات الى التباطؤ ، وحوذيوها يتوقفون فى مفترقات الطرق فيتناقشون فى الاتجاه الذى يجب أن يسيروا فيه ، لان أحدا منهم لايرى الى أبعد من انفه فى الضباب .

فى العربة الثانية كان بيتشام، وبلومزبرى، وفانى . أخذ بلومزبرى يتحدث بحماس بالغ ، معددا مناقب صديقه ماكهيث والمزايا التى يتمتع بها . قال بتبجيل :

ــ لم أر أحدا مثله يتمتع بهذه القدرة على العمل . لايراه المرء الا غارقا فى العمل الى أذنيه . وهو لايفكر فى نفسه أبدا . لايفكر الا فى أعماله . ولا يكاد يخلد الى الراحة أبدا . يتوقف عن العمل ظهرا ليزدرد بضع لقيمات سريعة لا يجد الوقت الكافى ليمضغها جيدا ، وأشك كثيرا فى أنه يتذوق لها طعما . وحياته كلها هكذا ، عمل فى عمل ، فلا يعطى لنفسه أجازة الا عندما يدخل السجن !

جلس بيتشام منصتا الى ذلك المديح وقد بدت عليه الشيخوخة فجأة وبات لون وجهه رماديا . كان خوف ثقيل يعصر احشاءه . أخذ يحملق فى الضباب ، فتتراءى له اشباح رجال يسيرون زرافات رافعين لافتات كتبت عليها شعارات بشعة كان ذهنه الملتوى هو الذى تفتق عنها .

استند بظهره الى المقعد وهو يعزى نفسه تارة ، ويصور لها أسود الصور تارة أخرى :

ـ هذا الضباب رحمة من الله . لكنه قد ينقشع فى أية لحظة . وإذ ذاك يمكن أن يحدث أى شىء . أى شيطان جعلنى أفكر فى هذه الخطة الخرقاء ؟ العادة . لقد عشت حياتى كلها أكسب لقمتى بتهديد الاخرين وابتزاز نقودهم . لكنى فى هذه المرة ذهبت فى ذلك الى أبعد مما يجب . وقد تكلفنى هذه اللعبة عنقى . لقد أردت أن أهدد هؤلاء الحمقى فأوقظهم . لكن من يدرى ماالذى يمكن أن يحدث الان . ان أملى الوحيد معلق بالبوليس . ولكن من يضمن لى أن ينجح البوليس ؟ انهم سيضطرون هم أيضا الى السير فى الضباب ، فوق أنهم لايعرفون ماالذى يتعين عليهم أن يواجهوه فى هذه المعركة . فلاشك ان أحدا منهم لم ير فى حياته لافتات كهذه التى سوف يصطدمون بها ، أو يخطر له ببال أنه سيضطر ذات يوم الى مواجهة أناس يحملون لافتات مثلها . رباه ! هذا فظيع بحق !

كان جروتش فى العربة التى أقلت كرستون وهارون ، وسكرتير هذا الاخير الذى ظل معه بناء على طلبه .

بدا واضحا أن سائقى العربات ليسوا واثقين بأنهم يسيرون فى الطريق المفضى الى الكاتدرائية . فتوقفوا أكثر من مرة ، واخذوا ينادون على بعضهم بعضا مستفسرين عن الطريق ، بل وعادوا أدراجهم فى احدى المرات . ثم اخذوا يستوقفون المارة ويسألونهم ، لكن هؤلاء لم يكونوا أقل منهم جهلا بالاتجاه الذى ينبغى أن يسيروا فيه ، فظلوا يتخبطون الى أن قيض لهم شرطى أعطاهم بعض الارشادات ، فأخذوا يسوطون جيادهم ، مسرعين بعرباتهم ، وكأنهم قد باتوا الان على يقين من الطريق الذى يجب أن يسلكوه .

لكنهم لم يصلوا الى غايتهم ، وأخذ ماكهيث يصيح بهم مستحثا من داخل عربته :

ـ الى كاتدرائية القديس بولس !

كأنه جنرال يقود حملة .

ثم توقفت العربات من جديد ، وترجل هارون وجروتش ، فعبرا الشارع ، واخذا يحملقان فى الضباب ، وصاحا قائلين انهما يريان حقولا على جانب الطريق .

فعقد الحوذية اجتماعا ، واخذوا يعدون الاماكن التى توجد بها حقول على جانب الطريق . غير انهم لم يتفقوا على رأى ، فواصلوا السير على اى حال .

قال هوثورن بكآبة لميللر ، وقد استقل القرن ونصف قرن العربة الأخيرة وحدهما :

– لم يعد احد يعرف له رأسا من قدمين الان !

بعد نصف ساعة أخرى من ذلك التخبط ، عيل صبر ماك فقال لبولى :

– سنترجل عند الناصية التالية فندخل أقرب بيت نجده فى طريقنا لانستطيع أن نستمر هكذا الى مالانهاية .

وترجل بالفعل ، فحذا الجميع حذوه .

كان أول مبنى عثروا عليه فى الضباب ذا حائط مرتفع ، وقد بدا لهم ضخما ، ولو انه لم يكن بالوسع تمييز أى شىء بوضوح فى الضباب . ساروا بحذاء الحائط وقتا طويلا دون أن يتمكنوا من العثور على الباب فلما عثروا عليه تبينوا انهم جاءوا – كأنما قوة خفية تقودهم – الى سجن أولدبيلى ، فوجموا كلهم لحظة ، ثم ضحك ماك ، فانفجروا كلهم ضاحكين ، وداروا على أعقابهم ، وركبوا عرباتهم ، وقد بدا واضحا أنهم ضلوا الطريق تماما .

ساقت اليهم الصدفة بعد ذلك شرطيا أرشدهم الى الطريق باهتمام، عندما علم أنهم يحملون دعوات خاصة لحضور الصلاة فى كاتدرائية القديس بولس . لكنهم وصلوا متأخرين ساعة بأكملها .

لم يكن هناك حشد يذكر خارج الكاتدرائية . مجرد جمع من الجنود يشحذون وقد أغرقهم المطر وبدت عليهم التعاسة .

أطل بيتشام من عربته وهو لايصدق عينيه . عرف رجاله على الفور، فترجل ، وانتحى جانبا بواحد منهم وسأله عن حقيقة ماحدث ، فعلم منه أن بيرى لم يتمكن من اللحاق بهم فى مكان التجمع ، لكن المظاهرة ، مع ذلك ، لم تحدث . قال الرجل أن تمردا حقيقيا وقع بين صفوف الشحاذين فى ذلك الصباح ، فالقوا باللافتات فى النهر ، رافضين أن يضيعوا يوما كهذا – تروج فيه أحوال الشحاذة ، ويعطى الخيرون عن طيب خاطر – فى حمل اللافتات .

قال شحاذ آخر لبيتشام :

– رأينا انه من الافضل الا نسترعى انتباه البوليس . فالجمهور اليوم مستعد للبذل بسخاء ، حتى لايثبط همة الجنود المساكين ببخله المعهود ، ويثنيهم عن الجود بأذرعهم وسيقانهم فى سبيل عظمة انجلترا ومجدها الخالد . وتلك فرصة لا يجود الدهر بمثلها للشحاذة . فأى

شحاذ عاقل يضحى بمثل تلك الفرصة ليمثل دور جندى يتظـاهر ضد أناس لايعرفهم فى الحكومة متهما اياهم بأنهم يخونون الجنود ويسرقون الشعب وما الى ذلك ؟ وماذا عن أكل عيشنا ؟ ماالذى يعنينا نحن من كل ذلك ؟ فى الغد لن يتسامح البوليس مع أمثالنا من الجنود الجرحى ، لكن الكل يحتفون اليوم بهم ، ويجودون عليهم بسخاء . يامستر بيتشام ان المرء لاتتاح له فرصة كهذه كل يوم تغرق فيه ناقلة جنود بكل من عليها . الافضل ، ان كنت مصرا على أن نتظاهر ضد الفساد ، أن نفعل ذلك فى أوقات الكساد !

بفضل ذلك التفكير المنطقى ، تفرقت المظاهرة قبل ان تبدأ ، وانصرف الشحاذون الى تنظيم صفوفهم ، فانتشروا فى كل شارع من الشوارع المحيطة بالكاتدرائية . لكن الضباب كان عائقا خطيرا أوقعهم فى مشكلات لا نهاية لها . فقد وجدوا أنفسهم ، مرة بعد مرة ، يشحذون من أناس حكوميين ، بدلا من أن يشحذوا من أقارب الضحايا .

وهكذا نجا مستر بيتشام من الورطة المخيفة التى أوشك انيوقع نفسه والاخرين فيها فيفتح عيون الناس وينبههم الى أشياء ليس هناك مايدعو الى تنبيههم اليها ،فدخل الكاتدرائية متنفسا الصعداء ،مرتاح الضمير . لكنه قرر ، فيما بينه وبين نفسه ، أن يلقن شحاذيه درسـا لاينسونه ـ فيما بعد ـ يعلمهم الا يتمردوا ثانية أبدا أو يعصوا أوامره، كمسألة نظام ، رغم أن عصيانهم ـ هذه المرة ـ قد أنقذ عنقه .

لم يتخلف أحد له وزن عن حضور الصلاة . حتى مستر هيل الذى يعود اليه فضل تعاقد الاميرالية ، من خلال المرحوم كوكس ، مع شركة النقل البحرى . ولو ان الجميع تأخروا كثيرا .

فعندما دخل مستر بيتشام الكاتدرائية وجدها شبه خالية ، وقد جللت عمدانها بالسواد ، وتراكمت تحت منبرها باقات الزهور .

لم تكن الصلاة قد بدأت بعد . ولم يكن حرس الشرف قد وصل . فقد تاه أفراد الفصيلة فى الضباب ، وظلوا يتخبطون فى شوارع وازقة تشلسيا الى أن وصلوا الى شاطىء التيمز ، وأوشكوا أن يغرقوا بدورهم، فيلحقوا بزملائهم الذين غرقوا فى بحر الشمال .

عادوا أدراجهم وهم يسبون ويلعنون ، وعندما وصلوا الكاتدرائيـة أخيرا ، لم يكن رجال الدين الذين سيقومون بالصلاة قد وصلوا بعد . فقد ضلوا الطريق بدورهم فى الضباب ، وتاهوافىأزقةسميثفيلدماركت واختلط الامر على الاسقف الذى كان يحمل الموعظة الجنائزية فى جيبه

فأخذ يبحث عن أحد يرشده الى الطريق ، لكنه مالبث ان وجد نفسه فجأة وسط قطيع من الماشية والنعاج كان يساق الى الذبح . فتشاءم من ذلك وتطير ، وركبه الذعر . وعندما اكتشفه بعض العمال صدفة، كان جالسا يرتعش وحده فى حظيرة أغنام خالية .

عندما وصل رجال الدين بدأت صلاة الغائب على أرواح ضحايا « المتفائل » .

جاء ممثلون للحكومة من كل وزارة ومصلحة . رأى ماكهيث صديقه براون جالسا بجوار موظف كبير ، كثيراً ما رأى صورته فى المجلات الاسبوعية . أحس سعادة حقيقية وهو يرى صديقه فى ذلك المكان الرفيع الذى لاتطاوله يد رجل الشارع ، وأحس بالفخر .

ورأى بيتشام صاحبه هيل بجوار براون . فنظر اليه هناك بأعلى واطمأن الى أن عقد سفن ساوثمبتون لن يفلت من يده .

اما المقاعد التى خططت للجمهور فكانت نصف خالية ، لان كثيرين من اقارب الضحايا لم يتمكنوا من الوصول فى الموعد على أقدامهم ، فى ذلك الضباب ، فظلوا يتخبطون فى الشوارع ، يسألون المارة ، بل ويقرعون على ابواب البيوت ، ويدخلون الحوانيت ، راجين أن يدلهم احد على المكان الذى تجرى فيه الصلاة على أرواح ابنائهم ، وآبائهم ، واخوتهم ، وازواجهم .

بدأ الاحتفال بعزف مهيب على الارغن ، ثم بدأ الاسقف ، وهو مازال يرتعد بتأثير مغامرته فى حى المذبح ، فى القاء موعظته ، التى استهلها بهذه الكلمات من انجيل لوقا : (١)

ـ انسان شريف الجنس ذهب الى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه ملكا ويرجع ، فدعا عشرة عبيد له وأعطى كلا منهم جنيها ، وقال لهم تاجروا حتى أرجع .

روى الاسقف لسامعيه بعد ذلك كيف عاد ذلك النبيل فطلب عبيده الذين اعطاهم الفضة فاكتشف أن أولهم قد تاجر فكسب جنيهات عشرة فقال له نعما أيهاالعبد الصالح ، لانك كنت أمينا فى القليل فليكن لك سلطان على عشر مدن . ثم جاء الثانى فقال ياسيد عبدك قد كسب خمسة ، فقال لهذا كن انت على خمس مدن . ثم جاء الثالث وقال ياسيد هوذا مالك الذى اعطيته لى ، كان عندى موضوعا فى منديل ، لم يزد ولم ينقص . فأخذ السيد الجنيه وأعطاه للذى عنده عشرة . وقال

«١» الاصحاح ١٩ : ١٢ــ٢٦ .

اني أقول لكم أن كل من لديه يعطى ويزيده الله من عنده ، ومن ليس عنده فالذى عنده يؤخذ منه ·

على ذلك المثل بنى الاسقف موعظته · قال يا اصدقائى اسمعوا · الكارثة التى وقعت للمتفائل فى عرض البحر قد اشعلت فى القلوب حماسا ، وبعثت موجة عارمة من الوطنية اجتاحت بلادنا من أدناها الى أقصاها · وكأنما التجربة التى امتحنت بها بلادنا قد فتحت عيوننا على رسالة انجلترا ،وهى رسالة يبدو أن الامة كلها كانت قد نسيتها الى أن أيقظتها انباء الكارثة . ثم قال ماالذى أعنيه أيها الاصدقاء بقولى أن العيون قد فتحت ؟ سأقول لكم . ان كل حادث فى الحياة ـ وماحياة الانسان على هذه الارض الا هذه الاحداث التى تتعاقب ـ كل حادث له وجه وله ظهر . هناك مقدمة الصورة فى كل مايحدث ، حتى فى كارثة ككارثة المتفائل ، وهناك الخلفية . وهناك من الناس من يرون ذلك الجزء الامامى ، ولايرون الخلفية ، رغم أن الخلفية ـ فى الواقع ـ هى الاهم ، والذى يراها يرى الحياة .

أضاف القس بعد ذلك بصوت يفيض طيبة : دعونى أسألكم الان أيها الاصدقاء ، ماهى خلفية الكارثة التى أصابتنا بهذه الصدمة العنيفة ؟

مال الاسقف الى الوراء حتى وقف منتصب القامة ، فأخذ يجيل بصره فى المصلين الذين تراصوا تحته ، ممثلى الحكومة ، وموظفى الامبرالية يتقدمهم مستر هيل ، ورجال الاعمال وبينهم مستربيتشام واقارب الضحايا ، واقارب الابطال الذين فى جنوب افريقيا يقاتلون فى سبيل الامبراطورية .

بعد تلك المعاينة ـ التى اتسمت بالبرود ـ لسامعيه ، واصل الاسقف عظته ، فقال ياأصدقائى ان هذا السيد الذى يحدثنا عنه الكتاب المقدس سيد صارم · سيد لا يتهاون فى حقه ، فيطالب بماله زائدا ربحه ، ربحه المركب . والعبد الذى يعيد اليه جنيهه بغير ربح يلقى به فى الظلمة الخارجية حيث العويل وصرير الاسنان . نعم يا اصدقائى · ان الله العلى القدير ، الذى يرمز اليه بالسيد فى هذه الحكاية ، هو الله ربنا ، وهو رب صارم ، يطالب بحقه كاملا . لكنه أيضا يا أصدقائى رب عادل ورحيم . فهو لايطلب نفس الربح من كل عبد من عبيده ، بل يأخذ عشرة من هذا وخمسة من ذاك · الا الجنيه الذى يرده ذلك العبد الكافر الجاحد الكسول ، فيرفض . لان ذلك العبد يكون قد خذل ربه . وجزاء وفاقا له يؤخذ منه حتى ذلك الجنيه

اليتيم الذى يكون معه ، رأس المال الاصلى الذى أعطى له ليستثمره .
والمغزى العميق لهذه الحكاية يمكن أن نلخصه فى هذه العبارة المدهشة:
« لكل حسب موارده » . والموارد ليست المال فحسب ، بل المواهب
والقدرات أيضا . ونحن حيثما ذهبنا فى هذا العالم وجدنا عدم
المساواة . كل انسان يدخل العالم عاريا ، صفيرا ، بلا حول ، ولايحس
أدنى خجل لذلك ، لانه ـ اذ ذاك ـ لايختلف عن أى رضيع آخر ،
فتلك هى مرحلة المساواة الكاملة . لكن بعد ذلك تبدأ ضروب التباين
فى الظهور ، ويبدأ عدم المساواة ، فيظل هذا فى درجة أدنى بينما
يصعد ذاك درجة بعد درجة الى النجاح . فهو أمهر من أخوته بنى
البشر ، وهو أكثر جلدا وقدرة على العمل ، وأكثر ميلا الى الاقتصاد
والحرص على النقود ، وأشد نشاطا . أو ـ باختصار ـ متفوق على
غيره في كل شيء . ولذلك فان الله يفتح عليه ، ويمن عليه ، ويعطيه،
ويجعله أقوى ، واغنى ، وأكثر احتراما ، من كل من عداه . فيتضح
انعدام المساواة أكثر فأكثر . ولكن كيف ينظر الله الى ذلك كله ؟ هل
يميز بين عبيده تبعا لمستوياتهم المتباينة على الارض ؟ هل يحب الانسان
الاكثر كفاءة وقدرة أكثر مما يحب الانسان الخائب الاقل قدرةوموهبة؟
كلا يا أصدقائى . الله لايفعل ذلك . كل ماهنالك أنه يقسم الارزاق .
أو بالاحرى يقسم مكافآته لعبيده ، فيعطى هذا عشر مدن ، وذاك
خمس مدن ، تبعا لما أنجزه كل منهم . وفيما عدا ذلك لايعترف الله
بأى فرق بين عبيده . فيما عدا ذلك يحب الله عباده بنفس القوة .
وذلك يا أصدقائى هو معنى المساواة أمام الله !

توقف الاسقف لحظة ريثما يلتقط أنفاسه ، ثم انطلق فى طريقه
ثانيه ، فقال يجب أن نأخذ لنا موعظة من هذا كله ، ونتعلم كيف يجب
أن ننظر الى كارثة المركب التى غرقت . ان بلادنا قد أنعم الله عليها
برجال عظام يحققون لها انجازات رائعة بحق ، فرجال الدولة عندنا
يمسكون ليل نهار بدفة السفينة . وجنرالاتها تؤلمهم ظهورهم من طول
انحناء على خرائطهم وهم يضعون الخطط ويعملون لما فيه مجد الوطن.

ونحن هنا ، على المنبر ، نؤدى دورنا بوصفنا رجال الله المختارين ،
فنقوى ايمان الشعب ، ونسوقه وراء قادته . كل يؤدى واجبه .
والجنود واجبهم أن يركبوا السفن ، وأن يغرقوا معها ، اذا كانت تلك
ارادة الله العلى القدير ، الحكيم ، العالم بكل شيء . الله أعطى والله
أخذ . مالنا نحن ومال الرب اذ يسترد وديعته ؟ الله هو السيد الذى

أعطى كل واحد منا جنيها ، وعلى كل واحد منا أن يعيد الى الله جنيهه وفوقه فائدته . وأولئك الجنود أيضا . لكننا جميعـــا نســاعد بريطانيا على أن تزيد باستمرار الجنيه الذى أعطاه لها الرب ، بحيث يكون فى وسعنا ، عندما ننتقل من دار الفناء الى دار البقاء ونقف أمام عرشه عز وجل ، أن نشير على وطننا ونقول : لقد أعطينا رجال دولة وجنرالات ، وتجارا ، وجنودا ، فانظر يارباه ماالذى فعلناه بهم ! ونحن ياأخوتى اذا نظرنا هذه النظرة الى كل مايحدث ، فأخذنا ماهو خير مع ما هو شر ، فاننا لن نرى مقدمة الصورة فيما يخص كارثة قومية كغرق « المتفائل » بالطريقة التى يراها بها أولئك الناس الذين لصقت نفوسهم بالتراب ، وأصبحوا حسيين فى كل شىء ، لاننـــا ستنقشع الغشاوة التى فوق عيوننا ، ونستطيع أن نبصر خلفيـــة الصورة ـ واذ ذاك ندرك أن جنودنا وبحارتنا ، وان لم يصلوا الى العدو ليقاتلوه ، لم يموتوا عبثا ، واذ ذاك نتبين أن تلك السفينة التى غرقت فى الضباب لم تحمل اسم « المتفائل » عبثا ، لان تفاؤلهـا ، ياأصدقائى ،أن هو الا الأمل الأسمى الذىمامن شك فى أنه كانملء قلوب من كانوا عليها وهم يهبطون الى قاع البحر ، الامل فى أن ترى الامة مصيرها ومصيرهم على حقيقته ، لا بوصفه كارثة قومية ، بل بوصفه انجازا قوميا ، واذ ذاك نكون قد كسبنا شيئا حتى من تلك السفينة التى غرقت : وتكون السفينة وكل رجالها معها قد دفعـوا الربح المستحق عليها وعليهم ، ربحا مركبا حلالا ، يارباه !

بعد القداس ذهب مستر بيتشام ، ومستر ومسز ما كهيث ، مع السيدين مديرى بنك الائتمان الاهلى والسادة هارون وكرستـــون وخلافه، الىمطعم مجاور ،لانه ساعة لقلبك وساعة لربك كما يقولون. وقد أحس كل اولئك الســادة والســيدات بأنهم قامـوا بواجبهم خير قيام ، واصبح من حق انفسهم عليهم أن يمتعوا انفسهم قليلا ، ويفرحوا بنعم الله عليهم . وقد كان الســيد ماكهيث والســيدة حرمه محط الاعجاب وسط ذلك الجمع ، فوقفا يتلقيان التهانى والمديح والتبريك من كل جانب .

كان مستر هارون العظيم أول المتكلمين ، فقال سيداتى سادتى ان اليوم علامة هامة من علامات الطريق فى تاريخ تجارة القطاعى ببلادنا العظيمة . فاليوم استولى على مركز القيادة فى احــدى مؤسسات التجزئة الكبرى رجل لابد اننا كلنا قد عرفناه جيدا خلال الشهـور

القليلة الاخيرة ، وادركنا انه احد القادة الموهوبين بحق الذين ولدوا ليكونوا قادة فى هذا المجال الحيوى . والحقيقة اننا يجب ان نسعد لان ذلك الرجل العظيم ، ابتداء من الغد ، سوف يولى مصالحنا المشتركة كل عنايته واهتمامه ، ويكرس لها قدراته الخارقة ، التى حبرناها كلنا جيدا ــ وبراعته الفذة فى تحريك الناس على رقعة الشطرنج التى نسميها دنيا المال والاعمال . وليس لدى أدنى شك فى ان الجمهور هو الاخر سوف يحس بهذه القوة الجديدة التى تحرك الاحداث من وراء الستار . فنحن التجار لن نضطر منذ اليوم الى تبديد جهودنا فى المنافسة وحز اعناق بعضنا البعض بغير طائل ، لاننا منذ الان سنكون يدا واحدة ، وجبهة متحدة فى وجه الجمهور، وسوف نخوض معركتنا المقدسة معا ــ من اجل الغاية المشتركة . لقد سمعنا كلنا منذ قليل الكلمات الرائعة التى قالها قداسة الاسقف عندما حدثنا عن ذلك الجنيه الذى يعطيه الله للناس . وبوسعنا ان نطمئن تمام الاطمئنان الى ان مجلس ادارتنا الجديد ، ومستر ماكهيث على رأسه ممسكا بدفة السفينة ، سوف يعتصر من الجنيه الذى تمثله مجموعتنا العالمية كل بنس تسمح الطاقة البشرية باعتصاره :

اما مستر بيتشام فتقدم باقتراح عجيب فى كلمته . قال لن ادعى أنى كنت دائما متحمسا غاية الحماس لزواج ابنتى من مستر ماكهيث والحقيقة انى لم اقتنع بأن البنت قد احسنت الاختيار الا عندما اتيحت لى نظرة سريعة الى أنشطة الاعمال المختلفة التى يمارسها مستر ماكهيث ، فتبين لى أن من اهم مبادئه خدمة الطبقات الدنيا . وقد مس ذلك وترا حساسا فى نفسى ، ولقى استجابة فورية عندى . فمعظم الناس لا يفكرون الا قليلا فى الطبقات الدنيا . وذلك خطأ جسيم . فقد تكون تلك الطبقات أقل ثقافة وتحضرا منا ، وقد تكون فجةفى سلوكها، وقد لايكون لديها أدنى وعى بتلك الضرورةالتى تقتضى أن يعيش الناس كلهم ، أعلاهم وأدناهم ، فى وفاق ووئام والا غرق العالم كله ونزل الى مستوى الظروف الحيوانية التى يغلب ان يعيشوا هم فيها ، لكن شيئا من ذلك كله لا يغير الحقيقة الاساسية التى ينبغى لنا ان نعيها جيدا ، وهى أن اولئك الناس جديرون بأن نعترف بوجودهم وأن نأخذهم فى الحسبان . ولا اطيل عليكم ، لانى اود ان اتقدم الان باقتراح عملى . انتم ايها السادة ، وانت ايضا يازوج ابنتى العزيز ، تبيعون شفرات الحلاقة ، وساعات الحائط ،

واوانى المطبخ واشياء أخرى كثيرة . لكن المرء لا يستطيع ان يعيش بهذه الاشياء وحدها . فهو لا يكتفي ويرضى لمجرد كونه حليق الذقن عارفا كم الساعة الان • يجب عليكم ان تذهبوا الى ابعد من ذلك • يجب ان تبيعوا الفقير الثقافة ايضا • نعم، الثقافة ــ الكتب• يجب ان تبيعوه كتبا رخيصة السعر ، روايات رخيصة ، لا تصور له الحياة فى لون رمادي قاتم رتيب ، بل تصبغها له وتزوقها بألوان زاهيــة براقة : اشياء تفتح للانسان العادي المسكين آفاقا جديدة على عالم افضــل وامتع ، وتوقفه على العادات المهذبة التى يتبعها من هم أعلى منه فى سلم الحياة الاجتماعية ، وتجعله يذوق ــ ولو بالوكالة ــ طعم الحياة الرائعة التى تحياها الصفوة ، شرط ان يدرك انها صفوة وأن تلك الحياة حق لها • وأنا لاأفكر فى الربح هنا ــ رغم أنه قد يكون عظيما ــ بل أفكر فى الانسانية العمياء المسكينة، التى نكون بذلك قد ادينا لها خدمة كبرى • خلاصة القول : لا تدعوهم يموتون مللا • اعطوهم شيئا من الاثارة ايها السادة •

بعد ان شكر مستر هارون السيد بيتشام ــ باسم الجميع ــ على اقتراحه البناء ، وقف هوثورن العجوز فروى للحاضرين ، مازحا ، حادثا طريفا وقع خلال الشهور القليلة الاخيرة . قال لا استطيع أن انكر ان الذى أقنعنا بان نفعل كل ما بوسعنا ، فى بنك الائتمان الاهلى، لوضع حد لتلك المنافسة القاتلة التى كانت مستعرة بين محــــلات التجزئة الكبرى ، كان حادثا ذا صبغة شخصية بحتة• كان ذلك الحادث زيارة قامت بها السيدة ماكهيث ، الجالسة الان بيننا ، لمبنى البنك . ولم تقل مسز ماكهيث اثناء تلك الزيارة ، كلمة واحدة تتعلق بالعمل ، بل اقتصر حديثها على المسائل الخاصة • لكن كلماتها أثرت فى نفوسنا• فحتى امثالنا من الطاعنين فى السن لهم قلوب تحس وتشعر كسائر الناس ــ الى حد اننا قررنا ان نزور زوجها المفترى عليه ، الذى كان يتعذب وحده ، بريئا ومظلوما : فى زنزانته • وأحب أن أقول لكم أن كل المناقشات التى دارت حول موضوع الادماج قد دارت معه. ولذلك فان الذى أود ان أؤكده ــ رغم ان تأكيده قد يبدو عاطفيا أكثر مما ينبغى ــ ان الذى أخرجنا جميعا من ذلك المـــوقف الصعب لم يكن العقل ، بل الحب •

عندما وقفت بولى ، بدت ــ أكثر من أى وقت مضى ــ اشبـــه بالخوخة الحلوة الناضجة . القت هذه الكلمة القصيرة ، فقالت رغم

ان الرجال لا يروق لهم ان نلقى نحن السيدات خطبا مثلهم ، لانهم يجدون فى ذلك اعتداء من جانبنا على حقوقهم ، فانى اود ان اقول كم انا سعيدة لكونى قد اتبعت مشاعرى دائما ، فلم اتخل عن حبى لزوجى لحظة . ومن الواضح طبعا اننا معشر النساء لانستطيع ان نفكر كما يفكر سادة الخليقة ، الرجال ، لكنكم تستطيعون أن تتبينوا من حالتى أن الحب الحقيقى يمكن ان يفى بالغرض هو الاخر ، ويحقق ما يحققه عقل الرجل واكثر ، بشرط ان يكون ـ ذلك الحب ـ قويا بما فيه الكفاية ، والا تلقى الواحدة منا بالا الى ما يقوله الناس . ان الخطط البارعة التى يضعها الرجال قد تكون نافعة ومفيدة فى معظم الاحيان ، لكننا نحن ـ بنات الجنس الضعيف ـ قد نكون أكثر نجاحا فى بعض الاحيان ـ بفضل الحب ، رغم ما قد يجده البعض من سخف فى هذا القول . مازلت أذكر تلك المرات التى أوشك ماك ، رجل الاعمال الذى يحسب كل شىء بالمكسب والخسارة ، ان يضحى فيها بكل شىء من اجلى مخاطرا بمستقبله كله فى سبيلى ، متمسكا بى فى وجه كل المخاطر والتهديدات ، انا التى اختارها قلبه . اليس كذلك يا ماك يا حبيبى ؟

* أخيرا هم مستر ماكهيث واقفا ، فقال زوجتى العزيزة ، حماى العزيز ، اصدقائى الاعزاء ! انا بوجه عام راض عن الخاتمة التى انتهت أليها امورنا جميعا فى هذا اليوم بعد العديد من ضروب الخلاف وسوء التفاهم . واحب ان اصارحكم بغير خفاء : انا رجل شعبى ، من الطبقات الدنيا . ولم تكن حياتى كلها منعمة او حتى مريحة . فلم تتح لى دائما فرصة الجلوس الى مائدة حافلة كهذه ، ونادرا ما جاد على الزمان بجلسة ممتعة مثل هذه الجلسة بين خيار القوم امثالكم .

فقد بدات نشاطى على مستوى محدود للغاية ، وفى مجال اخر غير هذا المجال . لكن مصالحى ، رغم تغير الظروف ، ظلت فى معظم امرها واحدة . غالبا ما ينسب نجاح المرء اما الى طموحه او الى لعبة معقدة يكون قد لعبها بنجاح على غيره . واود ان اعترف لكم بمحض ارادتى وبصراحة تامة ، انى لم تكن لدى فى اى وقت لعبة هامة العبها على احد . اقصى املى كان ـ وسيظل دائما ـ ان أقى نفسى غوائل الحاجة، ان اتجنب ما استطعت العيش على نفقة المحسنين . ولقد كان شعارى دائما : الضعيف يموت والقوى يقاتل . ولا يجب ان تنسى أن الذين يصلون الى القمة هم دائما أناس على شاكلتى . واحب ان اقول

انه اذا كان هناك فى القمة الان من تراوده نفسه على مناقضة تلك الحقيقة ، فانه لن يظل في القمة طويلا ، بل سيهوى الى الحضيض • فأنا متفق تمام الاتفاق مع صديقى هارون فيما قرره الان من ان دنيا الاعمال تحتاج دائما الى رجال من طرازى . فما أقل الذين يستطيعون ان يحققوا أى ربح من الجنيه الذى تنعم به العناية الالهيه عليهم • ولن احاول الان ان اتنبأ بشيء ، لكنى موقن من أن المجموعة التى ستندمج فيها شركاتنا سوف تقوم بالواجب . هناك شيء واحد لا يحتاج الى الايضاح ، وهو أن الاسعار لا يمكن أن تظل منخفضة كما هى الان • واسمحوا لى فى ختام كلمتى أن أرفع الشعار التالى : الى العلا ، الى الامام ، وليأخذ الشيطان من ينظر وراءه !

ارتسمت على الوجوه ، وماكهيث يقول عباراته الاخيرة ، نظرة تعبر عن جلال الموقف ، وقد أحس الجميع أن زعيمهم قد طرق موضوعا جوهريا ، وحيويا للغاية : موضوع الاسعار .

فأفرغ كل منهم كأسه فى جوفه وهو مستغرق فى التفكير

خاتمة مؤلمة

جنيه الفقراء

ولكن أولئك الذين جيوبهم خاوية
بالله ماذا يفعلون ؟
يموتون ؟ يرقدون ويدعون أنفسهم يدفنون
بينما العالم يسير فى طريقه ، وأمثالنا يمرحون ؟

كلا يا أخى ، لاننا لن نملأ جيوبنا
اذا ما تركناهم يفعلون !
هل نسيت أننا بغير كدحهم وشقائهم
لن يسمن واحد منا ، ولن تمتلىء البطون ؟ »

حلم العسكرى فيوكومبى

فيوكومبى ، العسكرى الاعرج ، هو الاخر ، حضر القداس فى كاتدرائية القديس بولس • لم يكن أحد قد رأى وجهه فى شارع أولدأوك ، منذ أن أعتدى على مستر كوكس المسكين ، الا مرة واحدة ، يبدو أن الجوع تغلب فيها على حسن تقديره للامور . لكن مستر بيرى تصرف بحسم ، فألقاه خارجا بغير امهال .

وهو مايرينا أنه لم يذهب الى كاتدرائية القديس بولس بدافع من ورع جاوز حده ، بل بدافع من امل فى اغتنام فرصة يتحدث فيها الى مستر بيتشام . كان العسكرى يعرف طبعا ان مخدومه مستر بيتشام له صلة ما بموضوع تلك السفينة التى غرقت • غير أن ذهابه الى الكاتدرائية كان دون جدوى لأنه لم يستطع طبعا أن

يقترب منه . ولذا فانه جلس فى الكنيسة ، التماسا للدفء على الاقل ، واستمع فوق ذلك الى العظة التى القاها قداسة الاسقف عن تلك الجنيهات التى يعطيها الله للناس ، فتغذى بالروح .

لكن الكنيسة ما لبثت أن أغلقت أبوابها ، فوجد العسكرى نفسه فى الشارع من جديد ، بغير بيت ، ولا أصدقاء ، مضطرا الى التلصص فى الازقة والاركان المظلمة ، خوفا من عيون البوليس اليقظة . كانت حاله تتدهور من يوم الى يوم . ولم يكن يعرف شيئا عن نتيجة المحاكمة التى برىء فيها مستر ماكهينث من دم مسز سوير ، لانه لم يكن يقرأ الجرائد أبدا .

ذات صباح ثلجى فى شهر نوفمبر ، وقع حادث مثير بعض الشيء أمام فرن أحد الخبازين فى حى الميناء . فقد اختطف صبى صغير رغيف خبز من فوق طاولة موضوعة قرب الباب ، وأطلق لساقيه العنان . فأحدث الناس الذين فى الفرن هرجا ، وأخذوا يتصايحون فى أعقاب الولد حرامى الرغيف ، مما نبه المارة الى خطورة الامر ، فأخذوا يجرون وراءه . والحقيقة أن ذلك الولد أتعبهم بعض الشيء لانه اخذ يجرى بسرعة شديدة ، قدر ما سمحت له ساقاه الصغيرتان لكنه لم يذهب طبعا الى بعيد ، فقد وضع أحدهم قدمه فى طريقه عند ناصية أحد الشوارع ، فأوقعه أرضا على الطوار ، وتكاثر عليه الناس فأمسكوه ، وعادوا به الى الدكان ، ومن هناك اخذوه الى نقطة البوليس بغير أمهال، وعندئذ انصرف المشاهدون وهم يبرطمون.

كان بين مطاردى الصبى رجل رث الثياب ، زرى الهيئة ، لايبدو من السهل تحديد عمره ، ذهب مع الجمهرة التى صحبت الصبى الى نقطة البوليس ، وهناك دار على عقبيه عائدا الى حى الميناء ، وقد تذكر مكانا يمكنه ان يقضى الليلة فيه .

هذا الرجل كان ــ على وجه التحديد ــ السبب المباشر فى وقوع الصبى فى أيدى مطارديه ، لانه هو الذى وضع قدمه فى طريقه فأوقعه أرضا . ولو أنه لم يقصد بذلك أن يسىء الى الصبى ، فقد فعل ما فعل بطريقة ميكانيكية بحتة ، لا تفكير فيها .

عندما وصل الى الكوبرى الذى سيقضى ليلته تحته ، أخرج من جيبه لفافة من ورق الصحف ، رخوة ، قوية الرائحة ، فأخذ يأكل ما فيها ، ثم فرش صحيفتين ، أخرجهما من جيبه ، على الارض لينام فوقهما ، لكنه مالبث أن عدل عن ذلك بسبب برودة الجو ،

فجمع ركبتيه تحت ذقنه ، وغطاهما بالصحيفتين ، ووضع يديه على ركبتيه ، ثم أسند رأسه الى يديه ، وتكور حـول نفسه قـدر ما استطاع ، استجلابا للدفء ، ونام . وعندما نام أخذ يحلم :

بعد سنوات من الشقاء جاء يوم النصر .

هبت الجماهير التى ظلت نائمة طيلة ذلك الوقت ، فتخلصت من جلاديها ، وبنفس موجة المد العاتية تخلصت من المشفقين عليها، والمحسنين اليها ، وواعديها خـيرا — وقد تبينت أنهم قد يكونون أفظع أعدائها — وازاحت عن عينيها غشاوة الامل ، فانتصرت . واذ ذاك تغير كل شيء . سقطت الحقارة من قمة مجدها ، وأصـبح الناس تقاس قيمتهم بمدى نفعهم للاخرين ، وفقد الغبـاء مزاياه الموروثة ، ولم تعد الوحشية وأكل الناس أحياء هى الطريق الى النجاح . وحل أخيرا يوم الحساب الذى تأخر مجيئه كثيرا . لم تكن الحقارة هى التى أخرت مجيئة ، بقدر ما أخره الغباء والوحشية لكنه جاء .

والكل يعرف ما هو يوم الحساب . يوم الحساب هذا ظل الكل يتناقشون فى أمره طيلة الوقت بغير انقطاع . من زمان سـحيق تتخايل أمامه الذاكرة والعالم كله يتحدث عنه . كل أمة من كل جنس تخيلته تفصيلا . وقد حاول بعض الناس أن يؤجلوه الى نهاية الزمان . لكن محاولة التسويف هذه باتت مشبوهة . أو مثيرة للغيظ على الاقل ، لان امم الارض لم تعد مستطيعة أن تنتظر كل ذلك الوقت . لكن مهما اختلفت الاراء فى موعده ، لم يختلف أحد حـول حتمية يوم الحساب فى نهاية الحياة لانه ، بعد كل شيء ، سيكون المقدمة الحقيقية لبزوغ الحياة . لانه قبل أن يحل ذلك اليوم ، ويتم ذلك الحساب الاكبر ، لن يكون بوسع أحد بطبيعة الحال أن يتحدث عن أية حياة حقيقية على الارض .

والان ها هو قد حدث ، يوم الحساب هذا .

وجد صاحب الحلم نفسه فى مقعد القاضى ، وقد بات هو القاضى . ومن الواضح طبعا أنه لم يصل الى ذلك المنصب المرموق بسهولة ، بل بعد صراع مرير ، بالنظر الى الحشد الرهيب من المرشـحين والطامعين فى جلال المنصب ، الذين أخـذوا يتقـاتلون فيما بينهم ويصرخون كالمجانين ، ولكن الذى يحلم حلما لا يمكن أن يمنعه أحد من تحقيق ما يريد فى حلمه ، ولذا فان صاحبنا أصبح قاضى المحكمة الوحيدة الجوهرية حقا ، الشاملة والعادلة حقا فى التاريخ كله ،

المحكمة التي ستنظر أعظم قضية من قضايا الزمان ، وقاضيها جالس لا ليحاكم الاحياء فحسب ، بل والاموات ايضا ، وكل من أساء من أى سبيل الى الفقراء والعزل ، بالقول أو بالفعل .

وهكذا فان مهمة انعسكرى فيوكومبى ، الذى أصبح فجـــاة القاضى الاعظم ، كانت مهمة مهولة . وقد قدر أن أمامه جلســات ستطول ــ على الاقل ــ بضع مئات من السنين ، لان كل من عاش على وجه الارض كان قد أعطى الحق فى أن يجهر بشكواه .

أعمل القاضى فكره ، فاستغرقه ذلك بضعة شهور ، ثم قرر أن يبدأ برجل يقال انه ابتكر حكاية الجنيه هذه التى استخدمت على المنابر بنجاح عظيم طيلة ألفي عام ، طبقا لما قانه قداسة الاسقف على الاقل . فقد بدت هذه المسألة للقاضى الاعظم جــــريمة تستوجب المساءلة بصفة خاصة .

عقدت الجلسة فى فناء . ومن العجيب أن ذلك الفناء ، بالرغم من جلال الموقف كان فيه غسيل معلق على الحبال ليجف ، كما حضر المحاكمة أربعة عشر كلبا حبست فى حظائرها أخذت تصغى بانتباه لكل ما يقال ، ولم تكن قد أطعمت بعد ، ولن يطعمها أحد الا بعد ان يصدر الحكم .

تقدم المتهم يقوده شحاذان .

بدا واضحا من ثيابه الرخيصة ، النظيفة مع ذلك والطوق الذى فى عنقه ، أنه تاجر أو حرفى .

وعلى منضدة القاضى وضعت سكين ، وخطاب مكتوب بالحبر ، مرفق به مستند مطبوع .

افتتحت الجلسة بسؤال من القاضى الى المتهم : قال له يا هذا ، أتعرف الاثار البعيدة المدى للكلام الذى قلته ، بل لاى كلام يقال ؟

فقال المتهم نعم ، وقال انه معروف فى كل مكان بانه معلم دينى .

وقد كتب رده هذا على الفور ، ككل كلمة قالها بعد ذلك ، بمعرفة شحاذ ضخم الجثة اسمه مستر سميثى كان معروفا جيدا للقاضى الاعظم بقدرته الفائقة على التسجيل الدقيق . فقد كان ذات يوم يقوم بتسجيل النقود التى يكسبها عســـكرى يدعى فيوكومبى ، عندما امتهن فيوكومبى ذاك مهنة الشحاذة .

كان السؤال الثالث الذى وجهه القاضى الاعظم للمتهم هو هــل يعترف المتهم بأنه قام بتحريف الحقائق فى الحكاية التى ساقها على سبيل الكناية ، وأنه قام أيضا بترويج تلك الاكاذيب ؟

فانفعل المتهم ، واعترض مهتاجا على تلك الاتهامات وقال ما هذا ، الكل يعرف ان المرء يستطيع بشيء من النشاط وحسن التدبير أن يجعل الجنيه الواحد خمسة او حتى ستة .

وعندما سئل اى نوع من التدبير قال – معترفا – انه لا يهتم لهذه الاشياء العملية ، لكنه يعنى التدبير العادل ، التدبير المناسب . فلما ضيق عليه الخناق قال وهو يهز كتفيه والله لا أعرف ، التدبير – حسن التدبير والسلام ، فأنا لا أتعب رأسى بهذه الجوانب المادية والتفاصيل العملية ، ولهذا فان معرفتى بها محدودة للغاية .

فحدجه القاضى الاعظم بنظرة فاحصة ليرى مدى صدقه ، ثم خبط على المنضدة بجمع يده حتى طارت السكين الصدئة والخطاب معها ، فى الهواء . لكنه لم يقل شيئا ، بل استطرد فى استجوابه للمتهم قائلا :

– اسمع ، المفروض أنك قلت ان الناس جميعا بلا استثناء ، لا بعضهم فقط يتسلم الواحد منهم جنيهه . وأحب أن أنبهك ان هذه هى النقطة الاساسية فى أسانيد الادعاء ضدك .

وهنا اعترف المتهم بأنه قال أشياء كهذه ، وقد بدت على وجهه الدهشة لكون تلك الكلمات مهمة الى الحد الذى يجعلها لب الموضوع فى اتهامه ، فاستطرد القاضى الاعظم بهدوء :

– اذن قل لنا من قال لك أن كل انسان على الارض يتسلم جنيهه هذا ، ثم يستثمره فيجعل جنيهه خمسة بل عشرة ؟

فقال المتهم ما هذه الضجة ؟ كل الناس يقولون ذلك . وقد قال هذا ببطء لانه ظل شارد الفكر يعجب فيما بينه وبين نفسه كيف أصبحت هذه الكلمات لب الموضوع .

قال القاضى بصرامة :

– اذن سنستدعى الذين قالوا لك ذلك ، ونستجوبهم .

ثم قرع جرسا مما يستخدم فى دعوة الناس الى المائدة ، فظهر من وراء الغسيل عدد من الناس يرتدون ثيابا كثياب المتهم واطواقا من السيلولويد فى أعناقهم مثله ، والحقيقة انهم كانوا كلهم من معارفه وأصدقاء شبابه ، وجيرانه ، ومعلميه ، واسياده ، بل واقاربه .

وقفوا امام القاضى فتم استجوابهم .

قالوا جميعهم انهم تسلموا جنيهاتهم . وان الجنيه كناية عن الفهم الذى انعم به الله عليهم ، واجادتهم لمهنة او حرفة ما ، وجدهم واجتهادهم .

فسأل القاضي :
ـ وهل كان لديكم شيء آخر غير هذا ؟
وهنا اعترف أحدهم أنه كان صاحب ورشة نجارة • ثم تبين انه والد المتهم .
وقال آخر انه ، بفضل نقود ابويه ، تمكن من أن يتعلم في مدرسة. كان ذلك الاخير مدرس المتهم .
وقال ثالث انه ورث دكان بقال ، وكان من جيران المتهم .

وبينما الشهود يقولون ذلك ، أخذ القاضي يهز رأسه هزة عارف عليم ، وكأنه كان يتوقع كل ما قيل أمامه ، ولا شيء سواه ، ثم نظر الى الكلاب التي كانت تحاول الخروج من وراء القضبان وضحك منها، دون ان يقول لها شيئا .
ثم قال للشهود :
ـ اذن فجنيه المتهم ليس كل شيء . اذن فهناك الكثير غير هذا الجنيه ؟ والآن هل أحسنتم استخدام جنيهكم ؟ هل قمتم بتنميته ؟

فأكدوا جميعا بأصوات مرتفعة انهم فعلوا ذلك وأكثر ، أنهم تاجروا واستخدموا جنيهاتهم بأقصى ما سمحت لهم قدراتهم ، وأنهم حافظوا على ما أعطى لهم ، وضاعفوه ، بل وربوا أطفالا وأعطوا كلا منهم جنيها .
ضحك القاضي في اتجاه الكلاب ثانية ، ثم وجه قوله الى المتهم من جديد فسأله هل قابل اناسا آخرين ، اناسا لم يتسلموا من أحد الجنيه الذي تسلمه هؤلاء الشهود •
فهز المتهم رأسه .
وهنا قرع القاضي الاعظم جرس الطعام ثانية ، ومن وراء الغسيل المنشور ظهر اناس آخرون . كانوا أسوأ لباسا من سابقيهم ، يسيرون بكلال يناقض نشاط الآخرين .
فسألهم القاضي :
ـ من أنتم ، ولم تخلفتم عن الظهور أمام المحكمة مع هؤلاء السادة الشهود ؟
فتبين ان هؤلاء الناس كانوا خدما واتباعا لمن ظهروا امام المحكمة قبلهم . قالوا كيف ؟ هل تبلغ بنا القحة أن نقف جنبا الى جنب مع اسيادنا ؟
فسألهم القاضي .
ـ تعرفون المتهم ؟

قالوا نعرفه • هذا الرجل كثيرا ما تحدث الينـا • كثيرا ما قال لنا ، بين ما كان يقوله من أشياء عديدة ، ان كل انسان يتسلم من العلى القدير جنيها ، وان ذلك الجنيه ليس عملة نقدية بالمعنى المفهوم، لكنه قوى روحية وجسدية يهبها الله لعبده لينميها العبد ويحسن استخدامها . قالوا هذا كله سمعناه من فم هذا الرجل .

سألهم القاضي :

ــ اذن فهو يعرفكم أنتم ايضا ؟

قالوا طبعا يعرفنا ، فاضطر المتهم ان يعترف بأنه يعرفهم .

قال لهم القاضي بصرامة :

ــ يا هؤلاء . هل ضاعفتم جنيهكم ؟

فتراجعوا أمامه رعبا وقالوا كلا يا سيد لم نضاعفه .

ــ وهل رأى هذا المعلم ان جنيهكم لم يكن يتضاعف ؟

عندما سألهم القاضي هـــذا السؤال لم يدروا في أول الامر بم يجيبون ، لكن واحدا منهم تقدم بعد وقت • كان صبيا صغيرا ،الخالق الناطق ذلك الصبي حرامي الرغيف الذي اوقعه العسكري فيوكومبي امام دكان الخباز ، بأن وضع طريقه ســـاقا من خشب • واجـــه الصبي القاضي بشجاعة وقال بصوت مرتفع :

ــ لابد انه رأى ذلك ، طالما هو يرانا ، لاننا كنا نتجمـــد بردا ، عندما يبرد الجو ، ونموت جوعا طيلة الوقت ، سواء أكلنا أو لم نأكل . لم لا تنظر بعيني رأسك لترى أن كنا قد ضاعفنا الجنيه اللعين أم لم نضاعفه ؟

وهنا وضع الولد اصبعين في فمه وصـــفر ، فخرجت من وراء الغسيل المنشور امرأة مبتلة أكثر من قطع الغسيل المنشورة لتجففها الريح ، وكانت تلك المرأة تدعى مارى سوير ، او امرأة تشبهها تمام الشبه •

شب القاضي في مقعده ومال الى الامام ليرى القادمة بوضوح ، ثم قال لها بصوت مرتفع :

ــ مارى • قولى لنا هل البرد شديد في المكان الذى جئت منه لتوك ؟ اظنه شديد البرودة .

ثم ادرك انها متعبة لا تكاد تقوى على الوقوف بعد أن سارت ذلك الشوط الطويل فقال لها :

ــ اجلسي يا مارى اجلسي . فقد مشيت طويلا .

فتلفتت ماري حولها باحثة عن مقعد تجلس عليه ، لكنها لم تجد مقعدا .

فقرع القاضي الاعظم جرسه من جديد ، وللفور تساقط البرد ، ولكن بغير غزارة : ما يكفي فقط ليصنع كومة من الثلج تجلس عليها المرأة الغريقة . انتظر القاضي حتى توقف سقوط الثلج وقال لها :

ـ ستجدينه مثلوجا بعض الشيء ، ثم عندما يدفأ سيذوب ، فلا يعود هناك ما تجلسين عليه ، واذ ذاك ستضطرين الى الوقوف ثانية . آسف . لكن لا استطيع لك شيئا غير هذا .

ثم التفت الى شهوده الجدد ممزقي الثياب وقال لهم :

ـ طيب . تنورت المحكمة . عرفنا انكم القيتم خارجا ، حيث الظلمة وصرير الاسنان .

فقال واحد منهم وقد استرد شجاعته :

ـ لم نلق خارجا . لاننا لم يسمح لنا بالدخول اصلا .

أخذ القاضي يتأملهم مفكرا ، ثم التفت الى المتهم . قال له :

ـ موقفك يبدو سيئا يا صاح . لابد أن تستدعى لك شخصا يدافع عنك . لكنه يجب أن يكون ملائما لك .

قرع الجرس ، فخرج من البيت رجل قميء ذو سحنة كريهة . غمغم القاضي :

ـ انت الذي ستتولى الدفاع عنه ؟ اذن قف وراء المتهم .

عندما وقف الرجل القميء وراء المتهم امتقع لون ذلك الاخير . أدرك القاضي ينوي به شرا ما دام قد أعطاه ذلك المحامي .

أخذ القاضي الاعظم يشرح الموقف بعد ذلك . قال أن المحكمة تقبل ما قاله المتهم من ان الجنية موضـــوع المحـــاكمة يمكن ان يحسن استخدامه ويمكن ان يضاعف ، وان اولئك الذين لا يستخدمونه يلقى بهم خارجا حيث الظلمة والنواح وصرير الاسنان . اما ادعاؤه بأن الكل يحصلون على ذلك الجنيه بالعدل والقسطاس فتجده المحكمة ادعاء كاذبا لم يقم عليه أى دليل .

ثم التفت الى المرأة الغريقة ثانية وقال لها

ـ يا ماري سوير يا بنيتي . لقد وقعت اتفاقا مع مستر ماكهيث . هل في ذلك الاتفاق نص يقضي بألا تفتح أية محلات جديدة كمحلك في الجيرة التى تزاولين تجارتك فيها ؟

فكرت المنتحرة لحظة ثم قالت :

ـ كلا .

ــ ولم لم تلاحظي أن العقد خلو من مثل ذلك النص ؟
ــ لا ادري يا فيو .
فقرع القاضي الاعظم جرسه ، وخرج من بين الغسيل رجل طويل نحيل يمسك بيده عصا كان ذلك الرجل المعلم الذى درست المنتحرة على يديه أيام كانت تذهب الى المدرسة .
قال له القاضي بنبرة اتهام :
ــ لم لم تعلم تلاميذك القراءة يا رجل ؟
فنظر الرجل الطويل النحيل الى المنتحرة بحدة وقال :
ــ انها تستطيع ان تقرأ .
فصاح القاضي وقد تملكه غضب شديد :
ــ لكنها لا تستطيع قراءة العقود . العقود يا غشاش !
قال المدرس متألما وكأنه قد أوذى في احساسه :
ــ هل يتصور سيادة القاضي أن تلاميذى الذين يأتون من جحور وايتشابل يحتاجون الى أن يتعلموا قراءة العقود ؟
ثم دمدم قائلا :
ــ أولاد الحرام ! يكفيهم ان يتعلموا كيف يكون العمل بجد ونشاط، فلا يكونون بحاجة الى قراءة أية عقود .
فباغته القاضي بهذا السؤال :
ــ ما معنى اتحادى ؟
قال المدرس مندهشا :
ــ تحالفي . ولكن ما دخل ذلك في الامر ؟
فقال القاضي مسرورا :
ــ تماما . تحالفي . وما معنى أتيكا ؟
فلزم المدرس صمتا عنيداً .
بدت خيبة الامل على القاضي . لكنه التفت الى المتهم الذى وقف بوداعة وقد تدلى راسه على صدره ، فقال له :
ــ وأنت . هل تعلمت في مدرسة ؟
فلما هز الرجل ذو الطوق السيلولويد راسه ايجابا ، قال له القاضي :
ــ اذن ما معنى أتيكا ؟
لكن الرجل لم يكن يعرف ، فحاول المدرس ان يخبره بمعنى الكلمة خلسة ، اذ بدا له من غير المقبول ان يكون المتهم جاهلا .
فقال القاضي للمتهم :

ـ نعم . توقعت الا تعرف . معارفك محدودة للغاية .

لكن الرجل القمىء الذى يقوم بالدفاع عن المتهم تدخل عنـــدئذ وصاح قائلا :

ـ كان يعرف ما فيه الكفاية . كان يعرف ما فيه الكفاية بالنسبة الينا .

فغمغم القاضي بخنوع مفاجىء ، بدا أنه استجابة آلية لديه أحدثها صراخ الرجل القمىء ، ثم دق جرسه ، فخرج من بين الغســيل رجل نحيل معروق يرتدى مئزرنادل ، تقــدم حتى مثل بين يدى القاضى . كان الرجل الذى ضحك على العسكرى فيوكومبى ، وباعه مشرب الجعة ، فسرق منه التعويض الذى منحته اياه حكومة صاحبة الجلالة ثمنا لساقه .

قال القــاضى :

ـ هل يستطيع هذا الرجل أن يقرأ ؟

كان السؤال موجها الى المعلم ، فنظر هذا الاخير الى الشاهد ، وتعرف عليه كأحد تلاميذه السابقين ، وأومأ برأسه الكبير . فقال القاضى ، مغضبا ، الى الشاهد :

ـ لكنك ، فيما يخصنى ، نسيت أن تكتب فى عقد بيع ذلك المشرب أنه لايرتاده أحد الا اذا كان هناك عمال بناء يعملون فى المنطقة .

فأجاب الرجل قائلا :

ـ اكتب ذلك ! وكيف أكتب ذلك ؟ لم يكن لدى مايكفى من المال عندما اشتريت ذلك المشرب اللعين ، وقد ساق الى الحظ شــخصا عديم الخبرة يشتريه فيريحنى منه ، وآذ ذاك سددت ديونى وعدت نادلا من جـديد .

وهنا صاح القاضى وقد انتابه غضبه العارم مرة أخرى :

ـ اذن فلم يكن بوسعه أن يكتب ذلك .

لكنه سرعان ماتحكم فى نفسه ، فلزم الصمت بضع لحظات .

وبينما الجميع وقوف ينتظرون سؤاله التالى ، هم القاضى واقفا ، وذهب الى المعلم ، فسأله بلهجة ودية ، تكاد تكون خانعة ، مامعنى أتيكا ؟ لم يكن قد وصل الى ذلك الحد فى تعليمه لان كتابه كان قد اخذ منه . لكن المعلم نظر اليه ، ولم يقل شيئا .

فتنهد القاضى الاعظم واستأنف المحاكمة . لكنــه وقف حائرا ، وقد بدا واضحا أنه لايدرى كيف يواصل نظر القضية . نظر الى الشاهدة الرئيسية فوجدها قد عادت الى حياكتها التى لا تنتهى ،

وقد أخذت تعمل ابرتها بداب واصرار ، غرزة اثر غرزه ، رغم أنها لم يكن بين يديها ماتحيكه ، لان توريد البضائع كان قد توقف ، ولهذا اخذت تحيك الهواء ، وليس فى يدها قماش يتحول الى قميص يلبسه أحـــد .

قال القاضى متفكرا ، بصوت خافت :

ـ لو لم يتوقف توريد البضائع ، ولو لم يفتح ماكهيث ذلك الدكان الجديد . بجوار دكانك ، هل كان من المحتمل ان تنجحى فى تجارتك، وتضاعفى جنيهك ؟

قالت بكلال :

ـ ولم لا ؟ كنت استخدم فتاتين تقومان بالحياكة .

فقال القاضى بسرعة :

ـ هذه نقطة بالغة الاهمية فى القضية . لكننا لم نتقدم كثيرا فى استجلائنا لهذه الغوامض . لم اكن أظن ان توضيح الامور صعب الى هذا الحد .

ثم واقفا من جديد فذهب الى الكلاب ، التى أخذت تهز ذيولها وتحييه فرحة ، وقد ظنت أنها ستحصل اخيرا على طعامها . لكن المشكلة لم تكن قد حلت بعد .

* نظر القاضى الاعظم الى الفناء الذى اصبح ساحة محكمته . هناك يقف شـــهود النفى ، أولئك الذين يقفون فى جانب المتهم . أناس ممتلئون ، تبدو عليهم النعمة ، يرتدون ثيابا جيدة ، المســـتقبل زاهر امامهم ، والنجاح يسير بين أيديهم . وفى الجانب المواجـه لاولئك السادة يقف ذلك الحشد الزرى من الجيـــاع ، المهلهلين ، الذين ادركتهم الشيخوخة قبل الاوان ، والمرأة الغريقة يسـيل الماء لاينقطع من ثيابها ، جالسة على كومة الثلج ، تعمل ابرتها فى الهواء، تحيك بغير انقطاع ، والصبى وقد ضم الى صدره رغيف خبز ليس له وجـود .

عندما عاد القاضى الى مقعده وهـــو يدب برجله الخشبية ، مـــر بجوار المتهم ، ففكر لحظة ثم قال له بصوت خفيض :

ـ الا تفهم الامر أنت اذن ؟

لكن الرجل ذا الطوق السيلولويد هز كتفيه ولم يجد ما يقال .

فتنهد القاضى . قال :

ـ كل هذا الفرق . ولا سبب هناك ! ومع ذلك لابد أن هذا كله ذنب شىء ما . ولكن أى شىء ؟

وقف لحظة وقد تملكته الحيرة ، متسائلا عما اذا كان من المجدى أن يجلس فى مقعد القاضى من جديد . قال لنفسه :

ـ كل هذا بسبب جهلى . أنا اجهل من أن أقف على حقيقة أى شيء بنفسى .

ثم تذكر فجأة السلطة التى اصبحت له ، فأسرع الى منصته ، وقرع الجرس بصوت آمر . وعلى الفور ظهرت من وراء الغسيل ، صفا ، مجلدات دائرة المعارف البريطانية ، أربعة وعشرون لاتنقص واحدا ، تسير بنظام ، وتؤدة ، مختالة ، سمينة ، ثم اصطفت أمام القاضى كالجنود ، أربعة أربعة .

وجه اليها القاضى قوله بنبرة تنطق بالاحترام . قال :

ـ يا أصدقائى . هل تستطيعون أن تخبرونى بأى شيء ينورنى فيما يخص السبب الذى يجعل البعض منا ، الاقلية منا تضاعف خيراتها ، وتجعل جنيهها خمسة بل وعشرة ، كما يعلمنا الانجيل أن نفعل ، بينما الاخرون ، الغالبية العظمى ، لايزيدون فى خاتمة المطاف، بعد حياة طويلة من التعب والشقاء ، ولا يضاعفون بشقائهم شيئا ، اللهم الا ذلك الشقاء وحده ؟ اى شيء هو يا أصدقائى جنيه مجدودى الحظ هذا الذى يحقق هذه الارباح الهائلة كلها ، والذى تستعر حوله ، فيما سمعت ، معركة ضارية لا تهدأ ، مم جعل ذلك الجنيه؟

كونت المجلدات الاربعة والعشرون حلقة فيما بينها ، وتشاورت ، ثم تقدم واحد من بينها وقال بصوت مرتفع ، خشن ، ينطق بالاعتداد بالنفس :

ـ قد أستطيع أن أنورك بعض الشيء بشأن رأس المال . المال شيء يثمر مالا ، تماما كالبقرة الولود ، سواء كان موروثا أو مكتسبا ، فكل من حازه أو تحكم فيه حصل من ورائه على ربح ، وفائدة . هل تجد جوابا على سؤالك فى هذه المعلومة ؟

التفت القاضى الى مارى سوير ، فقال لها :

ـ وانت أيضا كان لديك مال ، اذا لم تخنى الذاكرة . أرجو أن تفهمى . انا لا أسألك كيف حصلت عليه ذلك المال ، فذلك لايعنينا هنا . الذى يعنينا أنك كنت تحتكمين فى قدر من المال . لم لم يثمر ذلك المال ؟ لم لم يزد مثل مال غيرك ؟

قالت بغير اكتراث :

ـ نعم . كان لدى القليل منه . لكنه تبخر .

فقال القاضى بصرامة الى المجلد عالى الصوت :

ـ لم يكن كالبقرة الولود يا هذا ! هه ؟
فتقدم مجلد آخر وقال بصوت مرتفع :
ـ أنا أعرف شيئا عن قوة العمل • عندما يبذل أحد بعضا من تلك القوة في صنع شيء ، يصبح ذلك الشيء ذا قيمة • فالاحجار ليست كبيرة القيمة ، لكن البيت المبنى من الاحجار له قيمة كبيرة ، ان كنت تفهم ما أعنى •
فقال القاضي بكلال وضجر :
ـ أوه ، هذا ! هذا لا يمكن ان يكون السبب . فكلنا لديه تلك القوة . وكلنا يعمل . لكن كل مانبذل تلك القوة فى عمله اما انه لايصبح ملكا لنا ، فيكثر جنيهات الاخرين لاجنيهاتنا ، واما أن يظل لنا فيفشل • أليس كذلك يا مارى ؟
وهنا تتابعت المجلدات وكل مجلد يقول ماعنده ، عن الاختراعات، أو المقدرة التنظيمية ، أو المخاطرة ، أو الحرص على المال • لكن أحدا منها لم يستطع أن يوضح تماما مقومات الجنيه الذى يحوزه مجدودو الحظ •
فطلب القاضي من مجلداته أن تنسحب ، وقد ازدادت حيرته ، واشتد قلقه عن ذى قبل •
نظر الى الشاهدة الرئيسية ، مارى سوير ، الخياطة • ثم غمغم :
ـ لابد أنها ولدت تحت برج منحوس •
رفع جرسه ، فتقدم البرج من وراء الفسيل وقد بدا عليه الامتعاض .. قال له القاضي :
ـ هل دخلت حديثا فى مجال برج الميزان أو أى شيء من هذا القبيل ؟
ففكر البرج لحظة ثم قال لا • لم يحدث • فقال القاضي :
ـ طيب . اذا كنت قد دخلت فى مدار برج الميزان ، أو مدار أى برج غيره ، هل يكون لذلك فى رأيك أى تأثير سيىء على اعمال مسز سوير ، فيهدد دكانتها حرف « ب » بالافلاس ؟
فأنكر البرج ذلك محتدا ، وقد بدا أنه أهين بهذه التلميحات الحمقاء اهانة لا تغتفر •
ـ اذن فأنت لست مسئولا ؟ لادخل لك فى الامر ؟ اذن فالمسألة ليست مسألة حظ ؟
فقال البرج مغضبا :
ـ ما هذا الهراء ؟ أى غبى قال ذلك ؟

صرفه القاضي ، وقد ازدادت حيرته • جلس منكسا رأسه حتى لصقت ذقنه بصدره ، محملقا أمامه بنظرة شكسة •
ساد السكون برهة ، ثم تململ الشهود • قال شهود الاثبات :
– يجب أن ننصرف الآن • لن تكتشف أبدا الجواب عن سؤالك • فالامر مرجعه عدم المساواة ، وكون الاخرين أبرع منا بكثير •
فالتقط محامي المتهم الكلمة من أفواههم ، وقال وهو يزيح قبعته الى الوراء حتى تستقر على قفاه :
– عدم المساواه • عدم المساواه ياسيدى القاضى • انظر الى الفرق بين رجل له ساق خشبية ، ورجل اعمى بغير ساقين • الفرق بينهما يكون عظيما •• وهو مايتضح أثره من الناحية المالية يا عزيزى فيوكومبى •
أصغى القاضى بانتباه شديد ، وقد بدا أن كل كلمة من كلمات المحامى تثير اهتمامه •
قال المحامى بازدراء •
– ناد على بيرى ، مدير أعمالى • انه ابن عامل من عمال مناجم الفحم •
فكر القاضى فى الامر لحظة ، ثم قرع جرسه ، فظهر بيرى •
اعترف ، دون أن يسأله أحد ، أن لديه رصيدا فى البنك •
قال المحامى [illegible]
– انه يعرف السر • يعرف كيف يستغل الاخرين • هذا كل ما فى الامر •
بدأ شهود الاثبات يزمجرون
فصاح فيهم القاضى موبخا :
– صمتا !
ثم وقعت عينه على الاشياء الموضوعة على المنضدة – السكين والحطاب • فهم واقفا – ودار حول المنضدة ، ووقف موقف الشهادة ، ثم قال :
– لقد تسلمت هذه السكين • فكانت هى جنيهى •
ثم دار حول المنضدة بسرعة ، فوقف موقف القاضى قال :
– هذه نقطة اخرى بالغة الاهمية فى القضية • وأنت يا مارى ماذا تسلمت ؟
فقالت مارى وقد فهمته ، وبذلك ساعدته على التقدم خطوة :
– وأنا تسلمت هذا الحطاب ، فكان جنيهى •

— هذا الخطاب يقول انك تعرفين أشياء عن مخدومك كفيلة بأن توسله الى السجن • هذا ابتزاز ، أليس كذلك ؟
قالت :
— نعم •
فغمغم القاضي بشرود ذهن :
— نعم ، هذا جنيهك . هذا هو الجنيه الذى يعطى لنا . السكين؟ خطاب التهديد ؟ لكن ، ما هو جنيههم ؟
جلس فى مكانه ، رأسه مســـند بين كفيه ، وقد بدا غارقا فى اليأس • تأوه قائلا :
— ومع ذلك كله مازال الامر مستغلقا ! دكاكين حرف « ب » ، وتلك الناقلات التى تغرق • أرباح ! من أين يأتى كل ذلك حقا ؟ كل تلك الفرص الرائعة ، وتلك الحروب ، كل هذا الظلم ، وانعدام المساواة • كيف يتوصلون الى كل هذا ؟
لكنه رأى بيرى واقفا أمامه ، فخطر له خاطر ، واستدار الى كاتب الجلسة ، مستر سميثى ، الذى كان مخدومه ذات يوم ، فقال له :
— قل لى ياسميثى • لو كنت قد استطعت الاحتفاظ بى كمستخدم عندك ، هل كنت حريا بأن تنجح فى الحياة ؟
فقال سميثى :

وهنا قال القاضى وصوته يرتعد من فرط اثارة :
— اذن فقد اتضح كل شىء • الآن عرفنا ما هو جنيهكم ياسادة • قفى يا مارى • تقدمى • وأنت ياسميثى ، اذهب فانضم اليهم •
ثم استدار الى أقارب المتهم وقال لهم بنبرة انتصار :
— هذا جنيهكم يا ســادة ! نحن جنيهكم • الانســـان هو جنيه الانسان • من لم يكن تحت يده انسان يستغله ، يستغل نفسه ! لقد انكشف السر ! كنتم تخفونه عنى ! ها هو البيت • ولكن أين البناء ؟ هل يدفع له أجره أبدا ؟ وهــذه الورقة • شخص ما كان يجب أن يصنعها ! هل دفع له أجر كاف عنها ؟ وهذه المنضــدة ! أليس هناك دين مازال معلقا فى عنق البعض للرجل الذى صنعها ؟ وهذا الغسيل المنشور على الحبل • والحبل ذاته • بل والشــجرة ذاتها ، التى لم تزرع نفسها • وهذه السكين ! هل يدفع ثمن كل شىء لمن يصنعه ؟ هل يدفع كاملا ؟ كلا طبعا ! يجب أن نرسل خطابا دوريا : كل من لم يتسلم حقه كاملا يتفضل بارسال اسمه وعنوانه

كتب التاريخ والسير والتراجم لاتكفى . أين قوائم الاجور ياسادة ؟

ثم استدار الى المتهم وجأر بأعلى عقيرته :

انت مدان ! لا شيء الا الكذب والتزييف ! لقد نشرت الاكاذيب ولهذا فانى أدينك ، وأحكم عليك ! كشريك فى الجرم ! لانك اعطيت الناس هذه الحكاية عن جنيهك الشهير هذا ، وهى فى ذاتها جنيه ! جنيه يمكن أن يحقق لمن يحسن استخدامه ربحا. وكل من يروجونها، كل من يجرءون على تداول أشياء كهذه ، أنا أدينهم أيضا ! وأحكم عليهم بالموت . بل وسأذهب الى أبعد من ذلك . كل من يصغى لهذه الاكاذيب ويمتنع عن اتخاذ اجراء عاجل ضد مروجيها ، أدينه أيضا وحتى أنا . لانى استمعت الى هذه الاكاذيب طويلا ولم أفعل حيالها شيئا ، أدين نفسى . وأحكم على نفسى بالموت !

ثم جلس على مقعده ، غارقا فى عرقه .

بعد أيام قليلة ألقى القبض على فيوكومبى . وكم كانت دهشته عظيمة عندما وجهت اليه تهمة قتل المرحومة مارى سوير . لكن دهشته لم تجده شيئا . فقد حوكم ، وأدين ، وحكم عليه بالموت ، وشنق من رقبته حتى مات .. بين حشد عظيم من المتفرجين كلهم من أصحاب الدكاكين ، والعاملات ، والجنود الجرحى ، والشحاذين .

تمت

اشترك فى روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury,
[illegible] de Marco [illegible]
[illegible] Postal [illegible]
Sao Paulo, BRASIL.

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)



هـــذه الروايـــة

أصدرت روايات الهلال فى الشهر الماضى الجزء الاول من « رواية البنسات الثلاثة » وهذا هو الجزء الثانى من هـــذه الرواية الهامه ، وهى الرواية الوحيدة التى كتبها الأديب الالمانى الكبير بريخت «١٨٩٨ – ١٩٥٦» وقد كتب بريخت هـــذه الرواية بعد أن كتب « أوبرا البنسات الثلاث » ليقدم نفس المادة – مع التوسع والتعمق – فى قالب [illegible] العالميه . أما بريخت نفسه فهو كاتب معروف بمكانته العالميه الواسعة وتأثيره الوجـــدانى والفكرى الكبير على جماهير القراء ، وقد أصبحت مسرحياته من أكثر المسرحيـــات شهرة ونجاحا فى شتى انحاء الدنيا ، وذلك بما تحمله من فن جميل وفكر عميق واحساس عامر برسالة الانسان فى هذا العالم ، وهى الرسالة التى تجعـــل منه فى نظر بريخت مصدرا للخير والعدل والجمال فى هـــذه الحياه . ولقـــد كان بريخت الى جانب – ما قدمه للفن الانســـانى من روائع – انسانا مناضلا وقف ضد هتلر والنـــازية ، واضطر أن يعيش فى المنفى .. فى امريكا حتى انتهت الحرب العالمية وانهارت النازية تحت ضربات المقاومة التى ثارت ضدها فى كل مكان . وهذه الرواية التى نقدم اليوم جزءها الثانى والأخير تعكس أفكار بريخت وآراءه المختلفة فى الحياة والانسان والعدل والحرية .

انها رواية انسانية رائعة وممتعة يسعدنا أن نقدمها كاملة لأول مرة فى المكتبة العربية.

١٤ قرشـــا